أعلام المسلمين
٩٨



عثمان بن عفان رضي الله عنه

الحَيِيُّ السَّخِيُّ ذُو النُّورَيْن

بقلم

عبد الستّار الشّيخ



أعلام المسلمين
٩٨

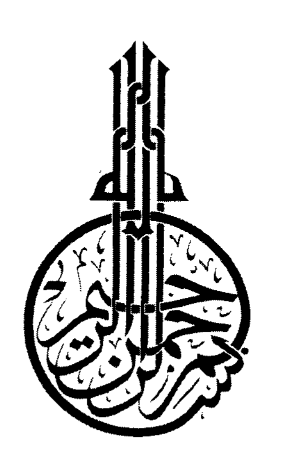


الحَيِيُّ السَّخِيُّ ذو النُّورَيْن

(٤٧ق.هـ - ٣٥هـ)

بقلم
عبد الستّار الشيخ

دار القلم
دمشق





الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

هذا الرجل

●● قال الله تعالى:

- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

- ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

* * *

●● قال رسول الله ﷺ:

- «**أَلا أَسْتَحِي من رَجُلٍ تَسْتَحِي منهُ الملائكةُ!**».

- وقال ﷺ لابنتِه رُقيَّة يوصيها بزوجها عثمان: «**أَكْرِميهِ؛ فإنَّه مِن أشبهِ أصحابي بي خُلُقاً**».

ـ لما أَمَر رسولُ الله ﷺ ببيعةِ الرِّضْوان ، كان عثمانُ بن عفان رسولَ رسولِ الله ﷺ إلى أهل مكة ، فبايَعَ الناسُ ، فقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ عثمانَ في حاجةِ الله وحاجةِ رسوله»** ، فضَرَبَ بإحدى يديه على الأُخرى ، فكانت يدُ رسولِ الله ﷺ لعثمانَ خيراً من أيديهم لأنفُسِهم.

ـ وعندما جَهَّزَ عثمانُ جيشَ العُسْرة ، قال النبي ﷺ: **«ما ضَرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعدَ اليومِ»**.

ـ **«إنكم تَلْقَوْن بعدي فِتنةً واختلافاً»** ، فقال له قائلٌ من الناس : فمن لنا يا رسولَ الله؟ قال: **«عَلَيكُم بالأمينِ وأصحابِهِ»** ، وهو يُشير إلى عثمان بذلك.

ـ **«يا عثمانُ ، إنَّ اللهَ عَسَى أن يُلْبِسَكَ قَميصاً ، فإنْ أَرادكَ المنافقونَ على خَلْعِهِ ، فلا تَخْلَعْهُ حتى تَلْقَاني»**.

* * *

●● قال عثمان ذو النورين رضي الله عنه:

ـ اختبأتُ عند ربي عَشْراً: إني رابعُ أربعةٍ في الإسلام ، ولقد أنكحني رسول الله ﷺ ابنته ، ثم توفِّيتْ فأنكحني ابنتَه الأخرى ، وما زنيتُ ، ولا سرقتُ في جاهلية ولا إسلام ، ولا تغنَّيتُ ، ولا تمنَّيتُ منذُ أسلمتُ ، ولا مَسَسْتُ فَرْجي بيميني منذ بايعتُ رسولَ الله ﷺ ، ولقد جمعتُ القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ ، ولا أَتَتْ علَيَّ جمعةٌ إلا وأنا أُعتِق فيها رقبةً منذ أسلمتُ ، إلا أن لا أجدَها في تلك الجمعة فأجمعها في الجمعة الثانية.

ـ ائْتَمِروا بالمعروف ، وتناهَوْا عن المنكر ، ولا يُـذِلُّ المؤمنُ نفسَه ،

فإني مع الضعيف على القويِّ ما دام مظلوماً إن شاء الله .

ـ أمَّا بعدُ ، فإنِّي آخُذُ العمالَ بموافاتي في كل موسم ، وقد سَلَّطتُ الأمةَ منذ وُلِّيتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يُرفع علَيَّ شيءٌ ولا على أحدٍ من عمَّالي إلا أَعطيتُه ، وليس لي ولعمَّالي حقٌّ قِبَل الرعية إلا متروكٌ لهم .

فيا مَنْ ضُرِبَ سرّاً ، وشُتِم سرّاً ، من ادَّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسمَ ، فليأخذْ بحقِّه حيث كان ، منِّي أو من عمَّالي ، أو تَصدَّقوا فإن الله يَجزي المتصدقين .

ـ إنْ وجدتُم في كتابِ الله أنْ تَضَعُوا رِجْلَيَّ في قيودٍ فَضَعُوهما .

ـ إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بالسُّلطانِ مَا لا يـَزَعُ بالقُرآنِ .

ـ لو أنَّ قلوبَنا طَهُرَتْ ما شَبِعْنا من كلامِ ربِّنا ، وإنِّي لأكرهُ أن يأتي علَيَّ يومٌ لا أنظرُ في المصحف .

* * *

المقدّمة

الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله ، أحمدُه سبحانه حمداً طيباً مباركاً فيه ، ملءَ السموات وملءَ الأرض وملءَ ما شاء من شيء بعد ، وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من فضله وكرمه ، وأستعينُه استعانة من لا حول له ولا قوة إلا به ، وأستهديه بهداه الذي لا يضِلُّ مَنْ أنعم به عليه ، وأعوذ بكَنَفِه من مساقط الهوى وشطط الفكر ، وأستغفره من حَيَدان القلم عن سبيل الحق ، وزَلل اللسان عن شرعة الصدق ، وميل اليراعة عن جوادِّ الرشاد.

والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على خلاصة خلقه وصفوة أنبيائه سيدنا محمد ﷺ ، ورضي الله عن آله الأطهار ، وصحابته الأبرار من المهاجرين والأنصار ، ومن اتبع سبيلَهم ، واقتفى آثارهم وترضَّى عنهم واستغفر لهم ونافح عنهم إلى يوم الدين ، **وبعد:**

فهذا الكتاب هو الحلقة الثالثة في (العِقْد النَّظيم) الذي نترجم فيه لسير الخلفاء الراشدين الأربعة وعهدهم المبارك ، ونصوِّر من خلاله مسيرة الإسلام والدولة والأمة والحوادث والأحداث والوقائع التي صَنعت ذلك التاريخ ، وخصائص أولئك الخلفاء وصفاتهم ومزاياهم وأعمالهم وآثارهم؛ باعتبارهم كانوا قطبَ الرحى في سيرورة الرسالة والدولة والأمة ، وأحدَ أبرز صانعي تاريخها.

وقصدتُ في هذا الكتاب إلى دراسة حياة أمير المؤمنين عثمان ومكونات شخصيته وخصائصه ومزاياه ومناقبه وأعماله وإنجازاته، والدولة التي حكمها وسياسته فيها مع الرعية والولاة والقادة والفتوحات، وأركان الدولة ومؤسساتها، وما جرى فيها من أحداث جسام ومستجِدات ومتغيرات، وأباطيل وافتراءات، وفتن جامحة ومؤامرات حاقدة ومكايد دؤوبة؛ انتهت بأخطر انقلاب عرفه تاريخ الإسلام، استهدف دولة الخلافة متمثلة بأبرز رموزها، وأنهى الكارثة باستشهاد الخليفة رضي الله عنه وأرضاه!.

وعثمان من الأمثلة الشاهدة على عظمة الإسلام في صناعة كَمَلة الرجال، نبت في أعزِّ أرومة عربية، ونشأ في كنف أسرة رفيعة نسباً وثراءً، ولمّا أشرقتْ شمس الإسلام لبّى الدعوة فكان أحدَ عَمَدِها الأولى، وازداد عزّاً ومكانة بإصهاره إلى النبي ﷺ على ابنتَيْه فعُرف بذي النوري، وهو لقب لم ينلْه سواه من أتباع النبيين، ووضع نفسه في خدمة دينه وبذل أمواله الطائلة في نصرته وأنفق ما لم ينفق أحدٌ مثلَه؛ حتى قال الرسول ﷺ ممتدحاً سخاءه وهو يجهز جيش العسرة: «**ما ضَرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم**»!.

وبلغ في ميادين العبادة شأواً بعيداً، عبَّر عنه الصحابي القدوة عبد الله بن عمر بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، قال: هو عثمان بن عفان.

وقد ثبت من وجوه أن عثمان قام الليل كله بركعة عند مقام إبراهيم قرأ فيها القرآن كله! وحج أكثر من اثنتي عشرة حجة، وكان كثير الصيام تلاّءً

لكتاب الله ، وما مات حتى خرَّق مصحفه ، واستشهد والمصحف بين يديه .

وعُرف رضي الله عنه بأجمل الشمائل وأرفع الأخلاق وأنبل الصفات ، وفي مقدمتها الحياء والرأفة والرحمة ودماثة الطبع ولين الجانب والسخاء والتواضع والزهد والخشية والورع والعفو والصفح والحلم والأناة والشجاعة والصبر والحزم والعزم؛ وهي خصال متكاملة شكلت منه إنساناً فذّاً ، وجعلَتْه جديراً بذلك الثناء الممدود من النبي ﷺ وامتداحه له بأنه أشد الأمة حياء ، وأشبه أصحابه به خلقاً ، ودعوته له عندما هاجر بأهله إلى الحبشة ، وإكرامه له بتزويجه ابنتيه ، وبايع عنه بيده الشريفة يوم بيعة الرضوان ، وأنه وُزِن بالأمة ـ بعد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ـ فوزنها ، وبشَّره بالجنة وبالشهادة ، وأنه سيكون خليفة المسلمين ، وهو على الحق والهدى مع من اتبعه .

وأضاف عثمان إلى سجلِّ مناقبه وفضائله تلك إنجازات جليلة وأعمالاً خالدة على مدى اثنتي عشرة سنة من خلافته ، ويأتي في مقدمة ذلك (جمعُ القرآن الكريم) وتوحيد الأمة قاطبة على دستورها الخالد ، والفتوحات الواسعة ومدُّ رقعة الدولة الإسلامية ، ودخول الناس أفواجاً في دين الله ، وإنشاء البحرية الإسلامية ، وعموم الرخاء في جميع أمصار الدولة .

وقد حكم أمير المؤمنين عثمان على مدى اثني عشر عاماً دولة إسلامية مترامية الأطراف ، ومع اتساع الفتوحات تدفقت الشعوب إلى رياض الإسلام في سنوات قليلة ، ولم يرافق ذلك تربيةٌ إسلاميةٌ مكافئة من طراز ما تربَّتْ عليه أجيال المسلمين الأُوَل .

وتمازجت الشعوب العربية مع غيرها من الفرس والروم والبربر والترك وغيرهم ، فتكوَّن مجتمع ضخم واسع متنوع من أمشاج من العناصر والأجناس والأعراق ، والمذاهب والأفكار ، والطبائع والأخلاق ، والمشارب والمعتقدات ، والغنى والفقر ، والطموح والزهادة ، والرضا والسخط ، والهدوء والثورة ، وامتزجت أخلاق بأخلاق ، وعادات بعادات ، وأفكار بأفكار ، ودماء بدماء ، وألوان بألوان ، واتسع الرخاء المادي وفتحت الدنيا أبوابها على مصاريعها.

وكثُر الأعراب وأبناءُ السبي الذين مُلِئت أيديهم من الدنيا ، واندمج هؤلاء ومعهم المرتدون في المجتمع واستُعمِلوا في بعض شؤون الدولة والفتوحات وغيرها ، وانضم إليهم الطامحون للزعامة والراغبون في الولاية والساعون إليها والمناضلون في سبيلها ، ونبضت في قلوب جماعات أخرى عروق الجاهلية ، وضوى إليهم أصحابُ الأهواء ، والحانقون على الإسلام والمبغضون لدعوته وأهله ممن لم يمتزجوا بالإسلام ومجتمعه إلا على مَضَض وترقب لاقتناص الفرص والفرائس! فتكوَّن من ذلك تيار عنيد يبغي الفتنة ويسعى إليها وينفخ في رمادها ويؤجج جذوتها ، ومضوا في ذلك لا يَلوون على شيء دون تحقيق هدفهم ، فكان لهم ما سعوا إليه ، وصُدِمت الدولة والأمة في أعنف زلزال هز كيانها وهدَّد وحدتها وأطاح بأعظم رمزٍ فيها وهو أمير المؤمنين ، وفُتحت على الأمة الإسلامية أبواب فتن دامية وفرقة مزلزلة!.

وهذا التلون في أطياف المجتمع ، والتخفي الذي يمارسه مدبرو الفتنة الكبرى والتظاهر منهم بإرادة التغيير والإصلاح ورفع الظلم وادعاء الرغبة في العودة إلى ما كان عليه أبو بكر وعمر ، في مجتمع يهيمن عليه

الإسلام بمبادئه وهديه في الرحمة والعدل والإنصاف والتثبت من الحقائق ، وقيام خليفة على رأس الأمر شعاره الكفكفة والرحمة والمسامحة ومطاولة الخارجين ، حتى لا يدع لهم حجة ، وكف يد البطش عنهم ، وعدم إراقة قطرة دم ـ كل هذا قد عقَّد المشكلة في طريقة بحثها وتحقيق مسيرتها وكشف ملابساتها ، وبالتالي عرضها للقارئ بصورتها الحقيقية مشفوعة بالبراهين والأدلة النقلية والعقلية .

وزاد الأمرَ تعقيداً ما بين أيدينا من (ميراث تاريخي) لتلك الحقبة الزمنية الخطيرة؛ ذلك أن العصر الذي دُوِّنت فيه أقدمُ مصادر التاريخ المتداولة بين أيدينا لا يمكن تبرئته وتنزيهه عن الغرض المائل عن جانب الحق في إثبات الوقائع؛ لأن تدوين التاريخ قد تمَّ بعد انصرام عهد الراشدين والأمويين ، وذلك في عهد العباسيين وظل حكمهم الذي قام على أشلاء الدولة الأموية! .

ومهما أحسنَّا الظن بالقائمين على الرواية والتدوين ، فإن شيئاً فوق طاقتهم من المؤثرات السياسية والاجتماعية لابد أن يتدخل ويظهر أثره من قريب أو بعيد ، حيث احتفَّتْ بأولئك الرواة عواملُ الرغبة والرهبة وأحوال سياسية واجتماعية وفكرية وأدبية ومذهبية وعنصرية ، مع الآثار الخطيرة الواضحة والضاغطة التي تركتها الفتنة بدءاً من مقتل عمر وعثمان وما بعدهما إلى وقت التدوين .

ومثل ذلك لابد أن تختلف فيه الآراء ، وتتلاعب في نقل أخباره الأهواء ، ومصداق ذلك ما شُحنت به كتب تاريخنا القديمة من الروايات المتعارضة أتم التعارض ، دع عنك التالفة والموضوعة والخرافية ، والتي تعكس الاتجاهات المختلفة التي اعتورت عصر التدوين .

ومن هذا وذاك تظهر خطورة البحث والكتابة في تلك الحقبة الحساسة من تاريخنا ، كما يتأكد فيها أيضاً أهمية وجود الصيرفي الماهر ، والناقد الحاذق ، والباحث المنصف؛ ليميز الجيد من الرديء ، ويصفِّي الروايات من غَلَس الأساطير وبَهْرَج الأكاذيب والأباطيل ، ولا يَحيف على الحق والتاريخ والرجال وبخاصة إذا كان من مثل الصحابي الذي كتبنا عنه هذا الكتاب وإخوانه من أضرابه الذين هم صنعة النبوة الأولى ومعجزة التاريخ الخالدة.

وقد لاقيتُ عنتاً ضاغطاً وواجهت أعباءً ثقالاً ، وأنا أقلِّب النظر والفكر والعقل والقلب في أطواء الوقائع التاريخية ، وملفات الرجال والأحداث ، وأنفاق الفتنة ومنعرجاتها ، وأقرأ أضابيرها ، وأنا أقول في كثير من الأحيان : أهذا صحيح؟ أهذا معقول؟ وهل هذا مقبول؟ وكيف يكون هذا؟ ومن أين لك أيها المؤرخ ذاك؟ حالات وحالات ، وروايات وروايات، ورواة من هنا وآخرون من هناك يلقون ببضائعهم المقمَّشة[١] لا يجد الباحث المنصف حيالها إلا التعجب القائم على الشك ـ بل الاستبعاد ـ أن يحدث هذا الفعل أو يصدر ذلك الأمر أو القول من صحابي جليل أو أمير نبيل أو فاتح عظيم ، بله أمير المؤمنين.

وأمام كل ذلك حاولتُ تنخيلَ الروايات ، ونقدَ الأخبار ، وتصفيةَ الوقائع ، ومقارنة الأحداث ، ومناقشةَ الرواة والمؤرخين ، واستنقاذَ أسلم الأخبار من الطعن أو الشك أو الخدش ، ومقارنتها مع الروايات الصحيحة التي جاءت في كتب السُّنَّة من أحاديث نبوية وأخبار تاريخية ،

---

(١) قَمَشَ الشيءَ : جمعه من هاهنا وهاهنا ، وقمَّش مبالغة في قَمَش.

ثم صياغة ذلك في ضوء السيرة الطاهرة والأخلاق النبيلة التي تربى عليها الصحابة في مدرسة الإسلام وهدي النبوة ، والنقد الفاحص ، وكشف المحاسن والمعايب والإيجابيات والسلبيات؛ هو أجدى على الدراسات التاريخية ، ولكن في أسلوب أهل الأدب والاحترام لأولئك الرجال الذين اطمأنت الأمة الإسلامية إلى فضلهم ومكانتهم في الإسلام ، ولم تقل إنهم منزهون من الغلط أو معصومون من الأخطاء.

ومن التجنِّي على أمير المؤمنين عثمان ما يزعمه بعض الدارسين وينتشر في أوساط المثقفين (من أن عثمان كان رجلاً زاهداً ناسكاً ليناً حييّاً) لا يشبه الخلفاء الراشدين الثلاثة في قيادة الدولة والأمة ومواجهة التحديات الحازبة!.

والجواب عن هذه الفرية قد تكفَّل به كتابُنا هذا بإسهاب وتفصيل مشفوع بالأدلة والبراهين ، لكنني أبادر في هذه المقدمة إلى بيان كلام موجز يدحض ذلك الزعم والتجني:

١ ـ إن النبي ﷺ بشَّر بخلافته وذكر أن الناس يجتمعون عليه ، وحضهم على بيعته ، وأمرهم باتباعه ، كما أوضح أن جماعة سيخرجون عليه ليخلع نفسه من الخلافة ووصفهم بالمنافقين ، وأمر عثمان أن لا يستجيب لهم ، كما أوصى عامة المسلمين في زمنه ومن جاء بعدهم بملازمة سُنة الخلفاء الراشدين ، ووصف عهد عثمان بأنه على منهاج النبوة ، والأحاديث في ذلك كثيرة بسطناها في صفحات الكتاب ، ومن ذلك: «**إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافاً**» فقال قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «**عليكم بالأمين وأصحابه**» وهو يشير إلى عثمان بذلك .

وقال ﷺ: «**يا عثمان ، إن الله عز وجل عسى أن يلبسك قميصاً ، فإن أرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه حتى تلقاني**» .

وقال ﷺ: «**خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء**».

٢ ـ ثم إنه لو كان عثمان ضعيفاً لواجهه النبي ﷺ بذلك ، ولنهاه عن أن يتأمَّر على المسلمين ، كما كان ذلك منه ﷺ مع أبي ذر الغفاري ، حيث قال: «**يا أبا ذَرٍّ ، إني أراكَ ضعيفاً ، وإنِّي أُحِبُّ لك ما أُحِبُّ لنفسي ، فلا تَأَمَّرَنَّ على اثنينِ ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيمٍ**»[1] .

٣ ـ ولو لم يكن عثمان أهلاً للخلافة وأعبائها الجسام ، لما رشَّحه الفاروق عمر مع الستة أصحاب الشورى ، وإلا لكان محابياً له ومقصراً في واجب النصيحة للأمة ، وحاشاه من ذلك .

٤ ـ وكذلك لو كان ضعيفاً غير قادر على قيادة الدولة والأمة ، لما وَسِع بقيةَ أصحاب الشورى التنازُلُ له عن منصب الخلافة ، ولما أجمع على بيعته المهاجرون والأنصار وعامة المسلمين آنذاك .

٥ ـ وأيام خلافته وأعماله وإنجازاته وسياسته الرشيدة للدولة مدة اثنتي عشرة سنة ؛ شاهدة له بالكفاءة التامة لذاك المنصب الرفيع .

٦ ـ وأيضاً فإنه لم يخالِف عليه صحابي ، ولا تألَّب عليه أمير ، وما حدث من خلافات في عهده فهو شيء طبيعي ناجم عن اختلاف وجهات النظر والاجتهاد ، ولم يعكر صفو الحياة ولا أدى إلى أي خروق

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٦)؛ وأبو داود (٢٨٦٨) ، وغيرهما .

أو خروج. والفتنة التي حدثت في آخر عهده ليست من هذا السبيل فلها أسبابها كما أوضحنا ذلك مفصلاً.

وبمقدار ما كانت الأحداث في عهد عثمان جليلة، والتحديات كبيرة، والفتن جائحة خطيرة؛ كان ذو النورين عظيماً جليلاً كبيراً رفيعاً نقيّاً طاهراً، وما زادته المحن والابتلاءات إلا صفاء وإشراقاً وعلوّاً، وقدَّم للأمة الإسلامية وللتاريخ والإنسانية أشرف سيرة يمكن لحاكم أن يَبلغها في قيادة دولة عملاقة متنوعة المكونات، وعلى مدىٍ زمن طويل ملأه عثمان بجلائل الأعمال وأعظم الإنجازات، ومن أجلِّها أنه حافظ على وحدة الدولة والأمة وسلامة منهجها ونظامها الاجتماعي، وضحى في سبيل ذلك بروحه وفدى الأمة بنفسه، ووقف كالطود الأشم دون رفع السلاح ووقوع الاحتراب وإراقة الدماء، في وقت شهدت الدول وتواريخ الشعوب والأمم والحكام التضحية بكل شيء في سبيل البقاء على كرسي الحكم والتسلط على رقاب العباد!.

ومن تدابير القدر العجيبة أن نكتب هذه السيرة في الوقت الذي تشهد فيه كثير من الدول العربية ما عرف باسم (الربيع العربي)، حيث طغى كثير من حكام الجبرية والاستبداد والدكتاتورية والسادية، فدمدموا على الحواضر والبوادي، ودمروا المدائن والقرى، ودكوا المساجد والبيوت والعمران، وانتهكوا كل الحرمات، واستباحوا الدماء والأموال والأعراض، وقتلوا الرجال والنساء والولدان، وهان عليهم كل شيء في سبيل منبر الحكم... وبتأمل ذلك طويلاً يستيقن كل عاقل منصف عبقرية الخليفة الراشد عثمان وروعته ونبله وصحة منهجه ورفعة مسلكه رضي الله عنه وأرضاه؛ حيث فدى الأمة بنفسه وكَفَّ الأيدي وأَغمد

السيوف عن إراقة محجمة من دم ، وذهب إلى ربه شهيداً صائماً ودمه يسيل على مصحفه عند قول الله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ! .

وعسى أن تكون هذه السيرة النيرة لهذا الخليفة العظيم نبراساً وهادياً لكل من يلي شيئاً من المسؤولية أو أمور الناس ؛ ليؤدي الأمانة ويبرأ من العهدة ، ويحفظ كيان الأمة في دينها ودستورها ووحدتها وأرواح أبنائها وجميع طاقاتها ومكوناتها ، ولن ينجيه إلا عمله ، وستطاله يد العدالة الربانية والسنن الكونية في الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين .

وعساها أيضاً أن تكون تذكرة وهادياً ومنذراً ومرشداً لكتَّاب العربية والإسلام الذين يُجارون المستشرقين في منهجهم المغالِط المزور ، فلا يتلقفوا آراءهم من غير بحث وتمحيص ، ويرفضوا القداسات التي يظنونها لهم ، ويعيدوا طريقة البحث الجاد المنصف في ضوء بلوغهم الرشد الفكري ، لإحياء أمجاد أمتنا ، لا لتشويهها وهدمها وتقطيع وشائج الأسوة والقدوة بين أبنائنا وبين أسلافهم وتاريخهم .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

عبد الستار الشيخ

البَابُ الأوَّل

أخباره الشخصية وأسرته
وحياته قبل إسلامه

- أخباره الشخصية وحليته وصفاته الخلقية .
- أسرته وأقاربه ومواليه .
- نشأته ومكانته في الجاهلية .

* * *

الفصل الأول

أخباره الشخصية وحِلْيته

وصفاته الخِلْقية

أولاً: اسمه ونسبه ونسبته:

عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شَمْس بن عبد مناف بن قُصيّ ، القرشي الأُموي ، المكي ثم المدني.

يلتقي نسبه مع نسب النبي ﷺ في (عبد مناف)[1].

ثانياً: كنيته:

يكنى **أبا عبد الله** ، **وأبا عَمْرو** ، كنيتان له مشهورتان ، وأبو عمرو أشهرهما.

ولدت له رقية رضي الله عنها ابناً ، فسماه عبد الله واكتنى به ، ومات صغيراً. ثم ولد له عَمرو فاكتنى به إلى أن مات[2].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٣؛ السيرة النبوية ، لابن هشام: ١/ ٢٥٠؛ الفتح: ٨/ ٦٣٦.

(٢) الاستيعاب: ٣/ ٦٩ ـ ٧٠؛ تهذيب الكمال: ١٩/ ٤٤٨؛ المعرفة والتاريخ: ٣/ ١٦٥.

ثالثاً: لقبه:

ذو النورين ، مشهور به حتى غدا ملازماً لاسمه.

عن النَّزَّال بن سَبْرة قال: (قلنا لعليٍّ: يا أمير المؤمنين ، حدِّثْنا عن عثمان بن عفان ، فقال: ذاك امرؤٌ يُدعى في الملأ الأعلى ذا النورين ، كان خَتَنَ رسول الله ﷺ على ابنتَيْه ، ضَمِن له بيتاً في الجنة)[1].

وعن الحسن البصري قال: (إنما سُمِّي عثمان ذا النورين لأنَّا لا نعلم أحداً أغلق بابه على ابنتَي نبيٍّ غيره)[2].

ومن طريق آخر عند البيهقي[3] ، والخبر بطرقه حسن.

وهذه خَصِيصة لعثمان لم تكن لغيره من الصحابة رضي الله عنهم.

رابعاً: صفته وحِلْيته[4]:

●● كان عثمان رجلاً رَبْعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، حَسَن الوجه ، وضيئاً جميلاً أبيضَ مُشْرباً بحُمرة ، رقيق البشرة ، أحسن الناس ثغراً ، أقنَى[5] الأنف ، كثَّ اللحية عظيمها ، عظيمَ الكَراديس[6] ، بعيد ما بين المنكبين ، ممتلئ الساقين ، طويل الذراعين ، شعره قد كسا

---

(١) أسد الغابة: ٣/ ٣٧٩؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٢١؛ الإصابة: ٢/ ٤٥٥.

(٢) ابن عساكر «ترجمة عثمان» ، ص٤٥؛ معرفة الصحابة ، لأبي نعيم: ١/ ٢٤٥.

(٣) السنن الكبرى: ٧/ ٧٣؛ تاريخ الخلفاء ، ص١٤٩.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٨ ـ ٥٩؛ تاريخ الطبري: ٤/٤١٨ ـ ٤١٩؛ ابن عساكر ، ص١٠ ـ ١٩؛ الإصابة: ٢/ ٤٥٥ ، ٤/ ٣٢٠.

(٥) **القَنا في الأنف**: طوله ورِقّة أَرْنَبَتِه مع حَدَب في وسطه.

(٦) هي رؤوس العظام ، والمراد أنه ضخم الأعضاء.

ذراعيه ، كثير شعر الرأس ، جعد الشعر له جُمَّة أسفل من أذنيه ، يصفِّر لحيته ، ويشد أسنانه بالذهب.

عن أم موسى سُرّية علي بن أبي طالب قالت: (كان عثمان من أجمل الناس)[1].

وقال عبد الله بن حزم المازني: (رأيتُ عثمانَ فما رأيتُ قطُّ ذكراً ولا أنثى أحسنَ وجهاً منه)[2].

وعن أبي عبد الله مولى شداد بن الهاد قال: (رأيتُ عثمانَ بن عفان يوم الجمعة على المنبر ، عليه إزارٌ عَدَني غليظ ثمنُه أربعة دراهم أو خمسة ، ورَيْطة كوفيَّة ممشَّقة ، ضَرْبَ اللحم ، طويل اللحية ، حسن الوجه)[3].

وجاء في وصفه أنه كان أَضْلَع ، أَرْوَح الرِّجْلين[4].

●● ووصف الحسن البصري لباس عثمان فقال: كان رداؤه مضرَّجاً ثمنُه ثمانية دراهم ، وقميصُه سُنْبُلانيّاً ثمنه ثمانية دراهم ، وله نَعْلان مُعقَّبتان مخصَّرتان لهما قِبالان[5].

---

(١) مسند أحمد (٥٢٢).

(٢) ابن عساكر ، ص١٤.

(٣) المعجم الكبير ، للطبراني: ١/ ٣٠ رقم (٩٢)؛ ابن عساكر ، ص ٣١ ، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد : ٩/ ٨٠): إسناده حسن. **ريطة**: ملاءة. **ممشقة**: مصبوغة بالمشق. **ضرب اللحم**: خفيفه.

(٤) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١١٣ . **الأضلع**: الشديد القوي الأضلاع. **والأروح**: الذي تتباعد صدور قدميه وتتدانى عقباه.

(٥) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١١٢ . **المضرج**: المصبوغ بالحمرة. **السنبلاني**: =

وعن محمود بن لَبيد: أنه رأى عثمان على بغلة عليه ثوبان أصفران ، له غديرتان.

وقال الحَكَم بن الصَّلت: حدثني أَبي قال: رأيتُ عثمان بن عفان يخطب وعليه خَميصة[1] سوداء ، وهو مخضوب بحنَّاء.

وقال محمد بن ربيعة بن الحارث: كان أصحاب رسول الله ﷺ يوسعون على نسائهم في اللباس الذي يُصان ويُتَجمَّل به. ثم يقول: رأيت على عثمان مِطْرَف[2] خَزّ ثمنَ مئتي درهم ، فقال: هذا لنائلة كَسوتُها إيَّاهُ ، فأنا ألبسُه أسُرُّها به[3]!.

وعن عَمْرو بن عثمان بن عفان قال: كان نقش خاتم عثمان: (آمنتُ بالذي خلق فَسَوَّى)[4].

* * *

= السابغ الطويل. **النعل المعقبة**: التي لها عقب. **وقبال النعل**: زمامها.

(١) ثوب خَزّ أو صوف له أعلام.

(٢) ثوب من خَزّ مربَّع ذو أعلام.

(٣) أخرج هذه الأخبار ابن سعد في الطبقات: ٣/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٤) ابن عساكر ، ص٢٠٣ ؛ تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين ، ص٤٧٥.

الفصل الثاني

أسرته وأقاربه ومواليه

أولاً: أسرته وأقاربه:

١ ـ أبوه:

عفان بن أبي العاص ، هلك في الجاهلية ولم يدرك الإسلام ، خرج في تجارة إلى الشام فمات هناك[(١)] .

٢ ـ أمه:

أروى بنت كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس[(٢)]: صحابية ، أسلمت وبايعت وهاجرت إلى المدينة ولم تزل بها حتى ماتت في خلافة ابنها عثمان ، ودُفنت بالبقيع ، وكان عمرها تسعين سنة.

قال عيسى بن طلحة: (رأيت عثمان بن عفان حمل سرير أمه بين العمودين من دار غُطيش ، فلم يزل يحملها كذلك حتى وضعها بموضع الجنائز. قال : ورأيته بعد أن دفنها قائماً على قبرها يدعو لها).

---

(١) مختصر ابن عساكر : ١٦/ ١١٠ ؛ الفتح : ٨/ ٦٣٨ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٨/ ٢٢٩ ؛ تهذيب الكمال : ١٩/ ٤٤٦ ؛ الإصابة : ٤/ ٢٢٢ .

٣ ـ جدته لأمه البيضاء بنت عبد المطلب[١]:

البيضاء أم حكيم لم تدرك الإسلام ، وهي عمة رسول الله ﷺ توءمة أبيه عبد الله ، فيكون عثمان ابنَ عمّة النبي ﷺ ، والنبي ﷺ ابن خال والدته أروى.

٤ ـ خالته سُعْدى بن كُريز:

أسلمتْ وصحبتْ رسول الله ﷺ ، وذكرها الحافظ في «الإصابة».

٥ ـ شقيقته آمنة بنت عفان:

صحابية ، أسلمت عام الفتح ، وكانت من النسوة اللائي بايعن النبي ﷺ مع هند بنت عُتبة على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين.

٦ ـ إخوته لأمه:

وهم: **الوليد وعُمارة وخالد بنو عُقبة بن أبي مُعَيْط**: ثلاثتهم صحابة من مسلمة الفتح ، والوليد أشهرهم فهو من الولاة القادة الشجعان ، ومن ولاة عثمان.

٧ ـ أخواته لأمه:

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط: صحابية جليلة ، أسلمت قديماً وبايعت ، وهاجرت سنة سبع زمن صلح الحديبية. روت الحديث ، وحديثها في الصحيحين وغيرهما.

---

(١) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٠٩؛ الفتح: ٨/ ٦٣٨؛ طبقات ابن سعد: ٨/ ٤٥.

أم حكيم بنت عقبة ، وهند بنت عقبة: ذكرهما الحافظ في الصحابة[1] .

٨ ـ زوجاته:

١ ـ ٢ ـ رقية وأم كلثوم بنتا رسول الله ﷺ[2] .

٣ ـ فاختة بنت غَزْوان المازنية: صحابية من المهاجرات ، أخت الصحابي الجليل الفاتح عُتبة بن غزوان .

٤ ـ رملة بنت شيبة بن عتبة العَبْشَميَّة: صحابية ، أسلمت وبايعت وهاجرت . أبوها شيبة قتل يوم بدر كافراً .

٥ ـ فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس المخزومية: صحابية بنت صحابي ، وكان أبوها من أشراف مكة ، واستشهد باليمامة رضي الله عنه .

٦ ـ نائلة بنت الفَرَافِصَة الكلبية: كانت نصرانية فأسلمت قبل أن يدخل عثمان بها . وأبوها الفَرَافِصَة من أشراف كلب .

وكانت نائلة عاقلة ذكية أديبة من عِلْية النساء ، وامتدحها عثمان فقال : ما رأيت أوفى عقلاً منها[3] .

٧ ـ أم البنين بنت عُيَيْنة بن حِصْن الفَزَارية: أدركت زمن النبي ﷺ ، ولوالدها عُيينة صحبة .

---

(١) تراجم هؤلاء الصحابة والصحابيات في «الإصابة» وغيرها من كتب الصحابة .

(٢) سيأتي الحديث عنهما : ص ٤٥ ـ ٤٨ في هذا الكتاب .

(٣) قال عثمان ذلك في خبر رائع ذكره ابن الجوزي في المنتظم : ٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

٨ ـ **أم عَمرو بنت جندب الأزدية.**

٩ ـ **أم ولد.**

٩ ـ أولاده:

رزق عثمان سبعة عشر ولداً ، عشرة من الذكور ، وسبعاً من الإناث[١] .

أ ـ أما الذكور فهم:

١ ـ **عبد الله الأكبر**: أمه رقية بنت رسول الله ﷺ ، عاش ست سنين ، ومات ، وصلى عليه النبي ﷺ .

٢ ـ **عبد الله الأصغر**: مات صغيراً.

٣ ـ **عَمْرو**: تابعي جليل ، روى الحديث ، وروايته في الكتب الستة.

٤ ـ **أبان**: تابعي ثقة ، محدث فقيه ، أحد فقهاء المدينة العشرة.

قال عَمْرو بن شُعيب: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بحديث ولا فقه من أبان.

وفي بعض السنوات كان أميراً على الحج ، وهي منزلة رفيعة[٢] .

٥ ـ **سعيد**: تولى إمرة خراسان زمن معاوية ، وغزا سمرقند وغيرها. وله رواية قليلة[٣] .

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٤؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١؛ جمهرة أنساب العرب ، ص٨٣.

(٢) تهذيب الكمال: ٢/ ١٧؛ صحيح مسلم (١٤٠٩).

(٣) تاريخ خليفة ، ص٢٢٤؛ الجرح والتعديل: ٤/ ٤٧.

٦ ـ عمر ، ٧ ـ خالد ، ٨ ـ عنبسة ، ٩ ـ الوليد ، ١٠ ـ عبد الملك ، مات صغيراً.

ب ـ والإناث هنَّ:

عائشة ، أم أبان ، أم البنين ، أم عَمْرو ، أم سعيد ، مريم أمها نائلة ، مريم أمها أم عَمْرو بنت جندب.

ثانياً: مواليه:

١ ـ حمران بن أبان: من سبي عين التَّمر ، كان للمسيب بن نَجَبَة ، فابتاعه عثمان منه فأعتقه.

وكان حاجبَ عثمان ويصلي خلفه فإذا أخطأ فَتح عليه.

حديثه في الكتب الستة ، وهو ثقة ؛ فقد احتج به الشيخان وكفى بهما. ولا عبرة بقول بشار عواد في تعليقه على «تهذيب الكمال» و«تحرير تقريب التهذيب» وتضعيفه له؛ فالرجل قد جاز القنطرة!.

٢ ـ أبو صالح (الحارث): روى عن مولاه عثمان عند الترمذي والنسائي.

أخطأ العلامة شعيب الأرنؤوط وبشار عواد في تجهيله في «تحرير تقريب التهذيب» ، فقد حسَّنَ شعيب نفسه حديثَه في «سنن الترمذي» ، وكذا حسنه الألباني وصححه أحمد شاكر[١].

٣ ـ هانئ أبو سعيد البربري: روى الحديث عن عثمان وغيره ، وهو صدوق. وحديثه في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه.

---

(١) سيأتي الحديث: ص ٩٨ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

٤ ـ **محمد بن يوسف القرشي**: روى عن أبيه، وروى عنه غير واحد، وهو ثقة. أخرج حديثه النسائي وابن ماجه.

٥ ـ **عبد الله بن كعب الحِميري**: روى عن عمر بن أبي سلمة وغيره، وحدث عنه ابن إسحاق وآخرون. أخرج حديثه مسلم والنسائي.

٦ ـ **فروخ المدني**: روى عن عمر بن الخطاب، وتفرد بالرواية عنه أبو يحيى المكي. أخرج حديثه ابن ماجه.

٧ ـ **بدر بن عثمان الكوفي**: حدث عن عامر الشعبي وعكرمة مولى ابن عباس، وروى عنه جماعة منهم وكيع بن الجراح. أخرج حديثه مسلم وغيره.

٨ ـ **طارق بن عَمْرو المكي**: قاضي مكة، سمع جابر بن عبد الله، وحدث عنه حُميد الأعرج وغيره. أخرج حديثه مسلم وأبو داود.

٩ ـ **أبو سَهْلة**: روى عن عثمان وأم المؤمنين عائشة، وحدث عنه قيس بن أبي حازم. أخرج له الترمذي وابن ماجه.

١٠ ـ **زيد بن دارة**: روى عن مولاه عثمان.

١١ ـ **وثّاب**: روى عن عثمان، وروى عنه الحسن البصري. وشهد مع عثمان يوم الدار.

١٢ ـ **الزبير بن عبد الله القرشي الأموي**: روى عن القاسم بن محمد وهشام بن عروة وغيرهما، وحدث عنه عبد الله بن المبارك وآخرون[١].

---

(١) تراجم هؤلاء في «تهذيب الكمال» وغيره من كتب الرجال.

ثالثاً: وقفة وعبرة:

بالتأمل فيما سقناه من أخبار أمير المؤمنين عثمان في هذا الفصل نجد أن أمه وخالته وشقيقته صحابيات ، وكذلك إخوته وأخواته لأمه كلهم قد نالوا شرف الصحبة.

كذلك كانت ست من نسائه صحابيات ، منهن ابنتا سيدنا رسول الله ﷺ.

وثلاثة من أولاده من رواة الحديث ، وأجلُّهم أبان المحدث الفقيه.

وعامة مواليه كانوا من أهل العلم والرواية.

فبارك الله تعالى بهذا البيت الجليل الذي حاز أهله فضيلة الصحبة ، ونالوا شرف العلم وتحمُّلَ الحديث وروايته ونشره.

* * *

الفصل الثالث

نشأته ومكانته في الجاهلية

●● ولد عثمان بعد حادثة الفيل بست سنين بمكة المكرمة في دار جده أبي العاص التي يقال لها: دار الحكم[1]، فهو أصغر من النبي ﷺ بنحو ست سنين.

ونشأ بمدينة الطائف، وهي روضة الحجاز وبستان مكة، عرفت قديماً بجودة هوائها وكثرة مائها وتكاثر فاكهتها، وقد اتخذها أهل الثراء منتجعهم ومرادهم.

ولقد عاش عثمان في صباه وشبابه عيش أمثاله الموسرين الأغنياء من قريش عامة ومن بني أمية خاصة، فعثمان أُموي عَبْشَميّ، والعبشميون أهل ثراء واسع، وأصحاب أموال منذ الجاهلية، وكان بأيديهم بعض ما خَوَّلهم بلدُهم الحرام من مقاليد الزعامة والسلطان على العرب؛ ومكة يومئذ ملتقى التجارات، ومحطّ رحال القوافل غادية ورائحة، وكان عفان بن أبي العاص بن أمية والد عثمان أحدَ أصحاب تلك التجارات الواسعة، وقد مات في إحدى خَرْجاته إلى الشام، وخلَّف لابنه عثمان مالاً نامياً، يَضْرب به في التجارة كما كان يصنع أبوه وأشراف قومه،

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٤٦.

فازدادت نعمة الله عنده ، وكثر مالُه ، واتسع ثراؤه ، فأحسن إلى قومه ، وأغدق عليهم عطاءه[1].

ويومئ إلى ذلك ما أَخبر به عَمْرو بن أمية الضَّمْري وقد كان يأكل مع عثمان ـ في خلافته ـ فيقول : وإني كنت أتعشى مع عثمان خَزِيراً من طبخ من أجود ما رأيتُ قط ، فيها بطون الغنم ، وأُدْمُها اللبن والسمن . . . فقال عثمان : أمَا والله ما آكله من مال المسلمين ، ولكني آكلُه من مالي ؛ أنت تعلم أني كنت أكثرَ قريش مالاً ، وأجدَّهم في التجارة ، ولم أزل آكل من الطعام ما لانَ منه ، وقد بلغتُ سنّاً فأحَبُّ الطعام إليَّ ألينُه ، ولا أعلم لأحدٍ عليَّ في ذلك تَبِعة[2].

وهذا كان من عثمان في خلافته في النادر ، لأنه غلبت عليه حياة الزهد كما سيأتي .

●● وكان عثمان في الذؤابة من قريش جاهاً ومكانة وشرفاً وعزّاً وفضلاً وأصلاً ومنبتاً؛ ويدل على ذلك ما حدث (يوم الحديبية) ؛ حيث دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه سفيراً إلى قريش يخبرهم برغبة المسلمين في زيارة البيت الحرام وتعظيمه ، فقال عمر :

(يا رسول الله ، إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفتْ قريش عداوتي إياها ، وغلظتي عليها ، ولكني أدلُّك على رجل أعزّ بها مني ، عثمانَ بنِ عفان. فدعا

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص ٤٦ .

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٠٠ ـ ٤٠١ . الخَزير: لحم يُـقطَّع قِطعاً صغاراً ثم يطبخ بماء وملح ، فإذا نضج ذُرَّ عليه الدقيق وعُصِد به.

رسـول الله ﷺ عثمـان بـن عفـان ، فبعثـه إلـى أبـي سفيـان وأشـراف قريش)[1].

ويؤكد ذلك ردُّ عبد الله بن عمر على ذلك المُفتئِت الذي جاء يلتمس عيوباً مزعومة لعثمان ؛ ومنها: أنه غاب عن بيعة الرِّضوان ، فقال ابن عمر: (وأما تغيُّبُه عن بيعة الرضوان ، فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطنِ مكة من عثمانَ لبعثَه مكانه!)[2].

ولم يكتفِ عثمان بتراثه وجاهه ، بل جمع إلى ذلك صفات جليلة وخصالاً حميدة ، يتجمل بها المرء الكريم ويتمم محامده ويكمل بناء شخصيته ، فيجمع أشتات المكارم التي تؤهِّله ليكون سيداً شريفاً نبيلاً بارزاً في قومه.

فكان قارئاً كاتباً قبل الإسلام[3] ، ثم أصبح واحداً من كتاب الوحي الأمين ، وهي ميزة نادرة في المجتمع المكي. كما كان على علم بمعارف العرب في الجاهلية ، ومنها: الأمثال والأنساب والحروب. ورحل في تجارته إلى الشام وغيرها ، فعرف أحوال الناس وطرق معاشهم.

●● ونأى عثمان بنفسه عن عادات الجاهلية الرديئة وأخلاقها الوضيعة ، فكان متجمِّلاً بشمائل الحياء الذي يحجز عن مساوئ الأقوال والأعمال ، متسماً بالعفة والصدق وصيانة العقل والشرف ، وطهارة القلب واليد ، والبعد عن الفواحش والانزلاق مع نزوات الشباب.

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام: ٢/ ٣١٥.
(٢) البخاري (٣٦٩٨) ، وسيأتي الحديث بتمامه: ص ٦٤ ـ ٦٥ في هذا الكتاب.
(٣) فتوح البلدان ، ص٤١٧.

يروي أبو ثور الفَهْمي فيقول: (دخلتُ على عثمان ـ وهو محصور ـ فقال: لقد اختبأتُ عند ربي عشراً: . . . والله ما سرقتُ ولا زنيتُ في جاهلية ولا إسلام قطُّ، ولا كذبتُ في جاهلية ولا إسلام قط، ولا شربتُ خمراً في جاهلية ولا إسلام قط، ولا تغنَّيْتُ ولا تمنَّيْتُ ولا مَسَسْتُ فرجي بيميني منذ بايعتُ رسولَ الله ﷺ!)[1].

●● ومشى عثمان على سَنَن أبيه ورؤوس عشيرته في العمل بالتجارة وتثمير الأموال، والتقوي بها للتنعم برغد العيش، وبذل الخير والعون للمعوزين، والإحسان للفقراء والمحتاجين.

فقد ورث عن أبيه مالاً وفيراً وتجارة عريضة، وبعد وفاته نهض عثمان بأعباء التجارة والرحلة فيها، وإعطاء المال لمن يعمل به مضاربة، واتجر بالبَزِّ والتمر وغير ذلك.

يقول عُبيد الله بن دارَة: (كان عثمان رجلاً تاجراً في الجاهلية والإسلام، وكان يدفع ماله قِراضاً)[2].

وعن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقي، عن أبيه، عن جدِّه: (أن عثمان بن عفان أعطاه مالاً قِراضاً يعمل فيه، على أنَّ الربحَ بينهما).

وفي رواية: (دفع إليه مالاً مضاربةً على النصف)[3].

---

(١) أخرجه الفسوي وغيره، وسيأتي بتمامه مع تخريجه: ص ١٠٨ ـ ١٠٩ في هذا الكتاب. تغنيت: من الغناء. تمنيت: كذبت.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٠.

(٣) موطأ مالك: ٢/ ٦٨٨؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٠.

وبقي يعمل في التجارة طيلة عمره ، إلى أن آلَتْ إليه الخلافة فتفرغ لشؤون الإسلام والمسلمين.

روى سعيد بن المسيِّب ، عن عثمان بن عفان قال: (كنتُ أبيعُ التَّمْر في السوق ، فأقول: كِلْتُ في وَسْقِي هذا كذا ، فأدفَعُ أوْساقَ التمر بكَيْلِه وآخذُ شِفِّي ، فدخَلَني من ذلك شيءٌ ، فسألتُ رسولَ الله ﷺ فقال: «**إذا سَمَّيتَ الكيلَ فكِلْه**»)[1].

وعن عبد الله بن عُمر: (أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ دخل المسجدَ يوم الجمعة وعمر بن الخطاب قائم يخطب ، فقال عمر: أيةُ ساعة هذه؟! فقال: يا أمير المؤمنين ، انقلبتُ من السوق فسمعتُ النداء ، فما زدتُ على أن توضأتُ فأقبلتُ ، فقال عمر: الوضوء أيضاً ، وقد علمتَ أن رسول الله ﷺ كان يأمُرنا بالغسل؟!)[2].

وقد صرح مسلم وغيره في رواية أخرى أن الصحابي هو عثمان بن عفان[3].

●● وإذا كان الثراء والشرف والجاه يُطغي كثيراً من الناس ذوي الأنفس المريضة ، ويَحملهم على القسوة والتعالي والظلم ، فإن عثمان كان له من أخلاقه وطباعه وشمائله وفطرته؛ ما يجعل شرفَه وجاهه ومكانته وثَراءه في قبضة مكارمه ، وتحت هيمنة حياته ورحمته فأحسَنَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٣٠) ، وصححه الألباني. **والوسق**: مكيال مقداره (١٣٠ كغ). **الشف**: الزيادة والربح. وانظر رواية أخرى عند أحمد (٤٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣١٢).

(٣) مسلم (٨٤٥) (٤) عن أبي هريرة.

إلى قومه ، وأغدق عليهم عطاياه ، ونشر عليهم رحمته وعطفه ورقته .

فكان في قومه موقَّراً مبجَّلاً ، وأحَبُّوه حبّاً ضربوا به المثل! وفي هذا يقول عامر الشعبي: (كان عثمان في قريش محبَّباً ، يُوصُون إليه ويعظِّمونه ، وإن كانت المرأة من العرب لترقِّص صبيَّها ، وهي تقول:

(أُحِبُّكَ والرحمنْ حُبَّ قريشٍ عثمانْ)[1]

هذه ومضات من تاريخ عثمان ونشأته وخلائقه في الجاهلية ، وحقائق كاشفة عن مزاياه ومكونات شخصيته ، قد تعاضدت لتقوده إلى الدخول في الدين الجديد... فكيف كانت سيرته وحياته في ظلال الإسلام؟ .

* * *

---

(١) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٧٣ .



الباب الثاني

إسلامه وحياته

في ظلال الإسلام ورحاب النبوة

- إسلامه وحياته في مكة وهجرته.
- ملازمته النبي ﷺ.
- جهاده مع رسول الله ﷺ.
- مواقفه البارزة في إنفاق المال.

* * *

الفصل الأول

إسلامُه وحياتُه في مكة وهجرتُه

أولاً: إسلامه:

●● لما أكرم الله نبيه محمداً ﷺ بالرسالة، فأعلن بمكة أنه رسول الله، بعثه لإقامة دعوة التوحيد؛ كان عثمان بن عفان في العَقْد الرابع من عمره ابنَ أربع وثلاثين سنة، قد اكتمل شبابه واستوت رجوليته، وكان من أحكم قريش عقلاً وأفضلهم رأياً، لا تخفى عليه صفات محمد ﷺ التي اشتهر بها في قومه.

وكانت بين يدي إسلامه إرهاصات رواها المؤرخون، يمكن الاستئناس بها، فقد ذكر عثمان ذلك للنبي ﷺ عندما آمن به وصدَّقه، قال: (يا رسول الله، قدِمتُ حديثاً من الشام، فلما كنَّا بين مَعَان والزَّرْقاء، فنحن كالنيام، إذ منادٍ ينادينا: أيها النيام هُبُّوا فإن أحمد قد خرج بمكة! فقدِمنا، فسمعنا بك)[1].

ولا مانع أن يأتي الإنسانَ هاتفٌ من داخله أو خارجه ينبهه على أمر مهم إذا أراد الله به خيراً.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٥. **سمعنا بك**: أي سمعنا بأن الله قد بعثك رسولاً. **مَعَان والزرقاء**: من المدن الأُردنية.

وزاد من قيمة ذلك الهاتف وأيده نصيحةٌ من خالته سُعْدى ، وقد أسلمتْ فيما بعد وصحبت النبي ﷺ.

روى ابن عساكر وغيره ، ونقله ابن كثير وابن حجر وغيرهما : أن سُعدى بنت كُرَيْز خالة عثمان ـ وكانت تتكهَّن في الجاهلية ـ أخبرتْه بمبعث النبي ﷺ ، قالت :

لـك الجمـالُ ولـك اللسـانُ   هـذا نبـيٌّ معـه البـرهـانُ
أرسلـه بحقِّـه الـديَّـانُ   وجـاءه التنـزيـل والفـرقـانُ
فـاتبعْـهُ لا تغتـالُـك الأوثـانُ

قال عثمان : قلتُ : يا خالة ، إنك لتذكرين شيئاً ما وقع ذِكْره ببلدنا ، فأبينيه لي ، فقالت :

محمـدُ بـن عبـد الله   رسـولٌ مـن عنـد الله
جـاء بتنـزيـل الله   يـدعـو بـه إلـى الله

قال عثمان : فوقع كلامها في قلبي ، وجعلتُ أفكر فيه . وكان لي مجلس عند أبي بكر ، فأتيتُه فأصَبْتُه في مجلس ليس عنده أحد ، فجلست إليه ، فرآني مفكراً ، فسألني عن أمري ـ وكان رجلاً متأنِّياً ـ فأخبرتُه بما سمعت من خالتي ، فقال : ويحك يا عثمان ، إنك لرجلٌ حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ، ما هذه الأوثان التي يعبدها قومنا؟! أليست من حجارة صُمّ لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضرُّ ولا تنفع؟! قال : قلت : بلى والله إنها لكذلك ، قال : فقد صدقَتْك خالتُك ، هذا رسول الله محمد بن عبد الله ، قد بعثه الله برسالته إلى خلقه ، فهل لك أن تأتيه فتسمع منه؟ قال : قلت : بلى . فما كان أسرعَ من أن مرَّ رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب يحمل ثوباً ، فلما رآه أبو بكر قام إليه ، فسارَّه في أذنه بشيء ،

فجاء رسول الله ﷺ فقعد ، ثم أقبل عليَّ فقال : يا عثمان ، أجبِ الله إلى جنته ، فإني رسول الله إليك وإلى خلقه . قال : فوالله ما تمالكتُ حين سمعت قوله أن أسلمتُ وشهدت أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له .

فامتدحَتْه خالته قائلة :

هدى الله عثماناً بقولي إلى الهدى ... وأرشَده ، واللهُ يهدي إلى الحقِّ
فتابَعَ بالرأي السديدِ محمداً ... وكان برأيٍ لا يصدُّ عن الصدقِ[1]

ويؤكد دورَ أبي بكر الصديق في إسلام عثمان ، ما جاء في رواية ابن إسحاق من أن أبا بكر لمَّا أسلم أظهر إسلامه ، وجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام مَن وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه؛ فأسلم بدعائه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ ، فعرض عليهم الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، وأنبأهم بحق الإسلام ، فآمنوا وصدَّقوا[2] .

بهذه البداية المشرقة المتبصِّرة أنهى عثمان عهد الجاهلية ودخل رياض الإسلام ، فكان أحدَ السابقين الأولين ونفحةً من نفحات الصديق الأكبر ، وهو في محتده وأرومته فرع سامق من دوحة قريش يتلاقى في أصليْه مع النبي ﷺ .

---

(١) مختصر ابن عساكر : ١٦/ ١١٤ ـ ١١٦ ؛ البداية والنهاية : ٧/ ١٩٩ ـ ٢٠٠ ؛ الإصابة : ٤/ ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام : ١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٢ ؛ أسد الغابة : ٣/ ٣٧٦ ؛ البداية والنهاية : ٣/ ٢٩ .

وكان عثمان أحدَ أولئك الأبطال الأماجد الخمسة الذين أسلموا على يدي أبي بكر ، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة ، وكانوا العدّة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ ، وبهم أعزَّه الله وأيَّده ، حتى فشا ذِكْر الإسلام بمكة وتحدَّث به الناس سرّاً وعلانية[1] .

●● ووقفت قريش للدعوة الإسلامية تصدُّها وتصدُّ عنها بما تملك من قوة وبطش ، فأصاب عثمانَ من ذلك شيءٌ كبير ، فلقد كان في معقد العزَّة من قومه ، فعزَّ على قريش عامة وعلى بني عبد شمس خاصة أن ينحاز نبيلُهم عثمان إلى الدعوة الجديدة التي ثلَّتْ عرشَهم ، وعزَّ عليهم بأشدّ مما كان أن يستجيب عثمان وهو من أمية في سنامها إلى نداء محمد بن عبد الله الهاشمي ! .

عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْمي ، عن أبيه قال : (لمَّا أسلم عثمان بن عفان أخذه عمُّه الحَكَم بن أبي العاص بن أميَّة فأَوْثَقه رباطاً ، وقال : أترغَبُ عن ملَّة آبائك إلى دين مُحْدَثٍ؟! والله لا أَحُلُّك أبداً حتى تَدَعَ ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان : والله لا أَدَعُه أبداً ولا أفارقه! فلما رأى الحكَم صلابته في دينه تركه)[2] .

ومضى عثمان في إيمانه قُدماً ، قويّاً هادئاً ، وديعاً صابراً ، عظيماً راضياً ، عفوّاً كريماً ، محسناً رحيماً ، سخيّاً باذلاً ، يؤاسي المؤمنين ، ويعين المستضعفين[3] .

---

(١) انظر : محمد رسول الله ﷺ ، للصادق عرجون : ١/ ٥٣١ ـ ٥٣٣ .
(٢) طبقات ابن سعد : ٣/ ٥٥ .
(٣) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص ٥٣ .

ثانياً: إصهاره إلى رسول الله ﷺ:

●● تزوج عُتْبة بن أبي لهب رقية بنتَ رسول الله ﷺ ، فلما نزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ، قال له أبوه أبو لهب: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلِّقْ ابنته. ففارقَها ، ولم يكن دخل بها[1].

وأحب عثمان أن يوثِّق وشائج القُرب من النبي ﷺ بالإصهار إليه ، وتلاقى ذلك مع رغبة رسول الله ﷺ في إمضاء رغبة عثمان لِما يعلم فيه من سجايا ومكارم . . . ويحدِّث عثمان عن ذلك في قصة إسلامه فيقول: فوالله ما تمالكتُ حين سمعت قولَه ﷺ أنْ أسلمتُ وشهدتُ أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له. ثم لم ألبث أن تزوَّجتُ رقيةَ بنت رسول الله ﷺ.

فكان يقال:

أحسنُ زوجٍ رآه إنسان … رقيَّة وزوجُها عثمان[2]

ومكثت السيدة رقية مع زوجها بمكة وصبرت معه على لأواء الحياة ، حيث ترى عنف قريش وغطرستها في إيذاء المؤمنين ، وشدة حَنَقها على عثمان لمكانه بين رجالاتها. فاستأذن عثمان النبيَّ ﷺ في أن يهاجر بزوجه إلى حيث يأمن على نفسه ودينه ، فأذِن له.

هاجرت رقية مع زوجها إلى الحبشة ، ثم عادت معه إلى مكة مع من رجع. ثم هاجر عثمان بأهله إلى المدينة ، ومرضَتْ رقية بالمدينة لمَّا خرج النبي ﷺ إلى بدر ، فتخلَّف عليها عثمان عن غزوة بدر ، فماتت رضي الله عنها يوم وصول زيد بن حارثة مبشِّراً بانتصار المسلمين بوقعة

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٦؛ سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٥١.

(٢) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١١٦؛ الإصابة: ٤/ ٣٢١.

بدر ، ودخل زيد المدينة حين سُوِّيَ على رقية التراب[1] .

وكانت رقية قد أصابتها الحصبة فماتت بها وعمرها عشرون سنة .

وَلدت من عثمان ابنَه عبد الله ، وبلغ ست سنين ، فنَقَره ديك في وجهه ، فوَرِم وجهه ، فمات في جمادى الأولى سنة (٤هـ) ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ، ونزل في حفرته عثمان بن عفان[2] .

●● وقد حزن عثمان على رقية حزناً بالغاً ، فرآه عمر بن الخطاب فعرض عليه أن يزوجه ابنته حفصة وقد تأيَّمتْ ، فاعتذر إليه عثمان وردَّه ردّاً جميلاً ، فأكرمه الله تعالى بزواجه بابنة رسول الله ﷺ الأخرى ، وأكرم حفصة بنت عمر بأن كانت زوج النبي ﷺ وواحدة من أمهات المؤمنين .

عن عبد الله بن عمر : (أن عمر بن الخطاب حين تأيَّمَتْ حفصة بنت عمر من خُنَيْس بن حُذَافة السَّهْمي ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفي بالمدينة ـ فقال عمر بن الخطاب : أتيتُ عثمان بنَ عفان فعَرضتُ عليه حفصة ، فقال : سأنظر في أمري ، فلبثتُ ليالي ، ثم لقيني فقال : قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا) . . . الحديث[3] .

وفي رواية ابن سعد وإسحاق بن راهَوَيْه من مرسَل سعيد بن المسيِّب قال : (فذهب عمر إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : «خيراً من

---

(١) طبقات ابن سعد : ٨/ ٣٦ ـ ٣٧ ؛ الإصابة : ٤/ ٢٩٨ .
(٢) طبقات ابن سعد : ٣/ ٥٤ ؛ سير أعلام النبلاء : ٢/ ٢٥١ ؛ الفتح : ٨/ ٦٤٤ .
(٣) أخرجه البخاري (٥١٢٢) ؛ والنسائي في الكبرى (٥٣٤٣) ؛ وأحمد (٧٤) ، وغيرهم .

ذلك ، زوِّجْني حفصةَ ، وأزوِّجُه أم كلثوم أختَها» . قال : فتزوج رسول الله ﷺ حفصة ، وزَوَّج عثمانَ أمَّ كلثوم .

قال سعيد : فخَارَ اللهُ لهما جميعاً ، كان رسول الله ﷺ لحفصة خيراً من عثمان ، وكانت بنتُ رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من حفصة بنت عمر)[1] .

●● وكان عُتَيْبة بن أبي لهب قد تزوج أمَّ كلثوم بنتَ رسول الله ﷺ ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ، فارَقَها عن أمر أبيه ـ كما فعل مع عتبة ـ ولم يدخل بها .

أسلمت السيدة أم كلثوم مع أخواتها الطاهرات ، وهاجرت إلى المدينة المنورة بعد النبي ﷺ مع فاطمة وغيرها من عيال رسول الله ﷺ ، فلم تزل بالمدينة .

فلما توفيت أختها رقية تزوج بها عثمان وهي بِكْر في ربيع الأول سنة (٣هـ) ، ولم تلد له . وتوفيت في شعبان سنة (٩هـ)[2] ، وعمرها نحو (٢٢ سنة)[3] ! .

●● فهذه مكرمة وخَصِيصة لعثمان أنه أَصهر إلى رسول الله ﷺ على ابنتَيْه ، وليس ذلك لأحد غيره .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٨/ ٨٣ ؛ الفتح : ١١/ ٤٥١ ، شرح الحديث (٥١٢٢) .
(٢) طبقات ابن سعد : ٨/ ٣٧ ـ ٣٨ ؛ تاريخ خليفة ، ص ٦٦ ؛ سير أعلام النبلاء : ٢/ ٢٥٢ .
(٣) جمهرة أنساب العرب ، ص ١٧ .

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: **«ما زَوَّجتُ عثمانَ أم كلثوم إلا بوحي من السماء»**[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وقف رسول الله ﷺ على قبر ابنته الثانية التي كانت عند عثمان فقال: **«أَلَا أبا أَيِّم، ألا أخا أيِّم، يزوِّجُها عثمانَ، فلو كُنَّ عشراً لزوَّجْتُهن عثمانَ، وما زوَّجْتُه إلا بوحي من السماء»**[2].

ثالثاً: هجرته:

●● لما أخذت فوادح البلاء تتوالى على المؤمنين بمكة ، لمعت بارقة الفرج في فؤاد النبي ﷺ ، فوجَّه أصحابه للهجرة إلى أرض يأمنون على أنفسهم الفتنة في دينهم ، ويعبدون ربهم في غير خوف ولا إزعاج ، ويبلغون رسالته إلى قوم آخرين .

واستأذن عثمانُ رسولَ الله ﷺ في الهجرة ، فأذِن له ، فخرج بأهله في طليعة المهاجرين إلى الحبشة الهجرة الأولى في رجب من سنة (خمس من البعثة) .

قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«لو خرجتُم إلى أرض الحبشة فإنَّ بها**

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وحسنه الهيثمي بشواهده . مجمع الزوائد: ٩/ ٨٣.

(٢) رواه الطبراني والفسوي وابن عساكر من طرق عن غير واحد من الصحابة ، ولا يخلو إسناد أحدها من مقال كما قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على سنن ابن ماجه (١١٠) ، وهو يرتقي إلى الحسن ، لطرقه وشواهده كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٨٣.

مَلِكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صِدْق ، حتى يجعلَ الله لكم فرَجاً مما أنتم فيه» .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة؛ مخافةَ الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أولَ هجرة كانت في الإسلام. وكان أولَ من خرج من المسلمين من بني أميَّة بن عبد شمس: عثمانُ بن عفان ، معه امرأتُه رُقيَّة بنت رسول الله ﷺ(١) .

وكانت عدة هؤلاء المهاجرين (١٢) رجلاً و(٤) نسوة ، خرجوا إلى ساحل البحر الأحمر ، واستأجروا سفينة حملَتْهم إلى الحبشة(٢) .

وقد كان عثمان رضي الله عنه أول مسلم يهاجر بأهله بعد لوط عليه السلام ، وكان رسول الله ﷺ يسأل عنهما ويتتبع أخبارهما .

عن قتادة قال: (أولُ مَن هاجر إلى الله تعالى بأهله عثمان بن عفان. سمعت النَّضْر بن أنس يقول: سمعت أنسَ بنِ مالك يقول: خرج عثمان برقيَّة بنت رسول الله ﷺ إلى الحبشة ، فأبطأ خبرُهم ، فقدِمَتِ امرأة من قريش فقالت: يا محمد ، قد رأيتُ خَتَنك ومعه امرأته ، فقال: «**على أيِّ حالٍ رأيتيهما؟**» قالت: رأيتُه حَمل امرأته على حمار من هذه الدبَّابة وهو يسوقها. فقال رسول الله ﷺ: «**صَحِبَهما الله ، إن عثمانَ أولُ من هاجر بأهله بعد لوط**»)(٣) .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام: ١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) زاد المعاد: ١/ ٩٥؛ الفتح: ٩/ ٤٦.

(٣) أخرجه الفسوي: ٣/ ٢٦٨ وهذا لفظه؛ وأخرجه الطبراني وابن أبي عاصم والبيهقي وغيرهم؛ ذكره الحافظ في الفتح: ٩/ ٤٦ وسكت عليه؛ وأورده الألباني في «الضعيفة» رقم (٣١٨١).

وبعد نحو سنة ترامى إلى أولئك المهاجرين إسلامُ عمر بن الخطاب ، وأن أهل مكة قد أسلموا ، فرأى مهاجرة الحبشة الرجوعَ إلى موطنهم ، حتى إذا دنَوا من مكة علموا أن ما أُخبِروا به من إسلام أهلها كان باطلاً ، وأن البلاء ما زال قائماً ، فدخل بعضهم مكة بجوار أو مستخفياً ، وبعضهم الآخر عاد من حيث أتى .

ودخل عثمان وزوجته رقية ، وبقي بمكة ملازماً رسول الله ﷺ حتى هاجر إلى المدينة[1] .

●● ومنذ اليوم الأول الذي أسلم فيه عثمان انضم إلى ركب الدعوة ، وكان أحد أبرز رجالها ، ولزمَ النبيَّ ﷺ حيث كان ، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه ، أو في مهمة من المهام التي يُـندب لها ، ولا يغني أحد فيها غَناءَه ، شأنه في هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعاً ، كأنما هي خاصة من خواصهم[2] .

وقد أعلن عثمان ذلك في معرض الامتنان بهذه النِّعم الجليلة ، والردِّ على من تقوَّلَ عليه إبان خلافته ، فقال رضوان الله عليه :

(إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق ، وأَنزل عليه الكتابَ ، وكنتُ ممن استجابِ لله ورسوله ﷺ ، وآمنتُ بما بُعِث به محمد ﷺ ، وهاجرتُ الهجرتين الأُولَيَيْن ، وصحبتُ رسولَ الله ﷺ وبايعتُه . والله ما عَصَيْتُه ولا غَشَشْتُه حتى توفاه الله)[3] .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام : ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ؛ زاد المعاد : ١/ ٩٥ .
(٢) عبقرية عثمان ، ص٧٤ ـ ٧٥ .
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٧٢) .

وأراد بالهجرتين: الهجرة الأولى إلى الحبشة ، والهجرة الثانية إلى المدينة .

ومضت سنوات الدعوة بمكة وعثمان رضي الله عنه في الصف الأول من رجالها ، يأتسي بالنبي ﷺ ، ويقتدي به ، ويأخذ عنه القرآنَ الكريم مع هديه الجميل في الصبر والمصابرة والبلاغ والدعوة ، ومناصرة الضعفاء والحَدَب عليهم وإرفاقهم بكل ما يستطيع من بذل وعطاء في سماحة نفس وسخاء يد ، وكفاح صبور ، حتى انفرجت المِحن عن منحة عظمى على الإسلام ونبيِّه وأصحابه ، حيث جاء رجال يثرب يبايعون النبي ﷺ على الإسلام والإيواء والنصرة. فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى إخوانهم الأنصار ، ليؤسسوا هناك أول دولة إسلامية تحت قيادة رسول الله ﷺ. فأسرعَ عثمان بالهجرة ، وفي رحلة مضنية وصل أرض المدينة المنورة ، ونزل على أوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت في دار بني النَّجار ، فلذلك كان حسان يحب عثمان ويبكيه حين قُتل(١) .

وعندما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كان عثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين(٢) .

●● ونال عثمان شرف السبق إلى الإسلام ، وفاز بفضائل الهجرتين ، وكان جديراً مع إخوانه السابقين المهاجرين بتلك المِدْحة الجليلة التي سطّرها الحق تبارك وتعالى في اللوح المحفوظ ، وأنزلها قرآناً يُتلى على مرّ الزمان ، ويتجدد بتلاوتها الرضوان والثناء والدعاء

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام : ١/ ٤٧٩ ؛ طبقات ابن سعد : ٣/ ٥٥ ـ ٥٦ .
(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام : ١/ ٥٠٥ .

لأولئك الأماجد الذين كانوا نواة دعوة الإسلام ، وببذلهم وجهادهم قامت دولته وانتشرت رسالته.

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤١].

نقل الإمام القرطبي عن قتادة قال: (المراد أصحاب محمد ﷺ ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لَحِق طائفة منهم بالحبشة ، ثم بوَّأهم الله تعالى دار الهجرة ، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين) ، والآية تعم الجميع[1].

وفي المدينة تابع عثمان حياته في الإسلام في رحاب النبي ﷺ وهديه وتعاليمه. . . فكيف كانت سيرته في تلك الحِقبة المباركة التي لها الدور الخطير في بناء شخصيته وإبراز خصائصه وملَكاته ومزاياه؟.

هذا ما سنعرضه في الفصل التالي.

* * *

---

(١) تفسير القرطبي : ٩٧/١٠.

الفصل الثاني

ملازمته النبي ﷺ

تتلخص حياة عثمان مع رسول الله ﷺ وملازمته له واقتداؤه به وبقاؤه على عهده من بعده ، بقول عثمان عن نفسه : (كنتُ ممن استجاب لله ورسوله ﷺ ، وآمنتُ بما بُعث به محمد ﷺ ، وهاجرتُ الهجرتين الأُولَيَيْن ، وصحبتُ رسولَ الله ﷺ وبايعتُه . واللهِ ما عصيتُه ولا غششتُه حتى توفاه الله)[1] .

إنها حياة متسقة وسيرة مستقيمة وهَدْي قويم وأخلاق رفيعة وثبات دائم على سَنن رسول الله ﷺ وهديه ، ما غيَّر ولا بدَّل ، ولا توانى ولا قصَّر ، في سرَّاء أو ضرَّاء ، ولا في سرٍّ أو علانية .

●● كان في الطبقة الأولى من أصحاب رسول الله ﷺ وأخصائه المقرَّبين إليه والمقدَّمين عنده ، وقد ذكره المؤرخون مع أولئك النفر الكرام الذين نَعَتُوهم بـ(حواريي رسول الله ﷺ) وهم :

(حمزة ، وجعفر ، وعلي ، وأبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن عفان ، وعثمان بن مَظْعون ، وعبد الرحمن بن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٧٢) .

عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، رضي الله عنهم)[1].

ترك الارتحال في التجارة والضرب في الأرض سعياً في تنميتها ، وأقام مكانه وكلاءَ يديرون شؤونها وبقي هو مشرفاً عليها؛ ليفرغ قلبه وخاطره وفكره لملازمة النبي ﷺ ، ووضع ثروته في خدمته وتلبية حاجات الدعوة والمسلمين في السلم والحرب.

●● وقد أخذ عثمان القرآن الكريم عن النبي ﷺ مشافهة ، وكان كغيره من الصحابة يتلقون عنه ﷺ قسطاً من الآيات فيحفظونها ويتعلمون معانيها وتفسير مدلولاتها ، ويثبتونها في قلوبهم بالعمل بها وتطبيق أوامرها ، فيأخذون العلم والعمل معاً ، ثم ينتقلون إلى آيات أخرى ، وهكذا. . .

يروي حماد بن زيد وغيره فيقول: (إن أبا عبد الرحمن السُّلَمي قال: إنَّا أخذنا القرآن عن قومٍ أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخر ، حتى يَعلموا ما فيهن ، فكنا نتعلم القرآنَ والعملَ به. وإنه سيرث القرآنَ بعدنا قومٌ يشربونه شربَ الماء لا يُجاوز تراقيهم ، بل لا يجاوز هاهنا ، ووضع يده على حلقه)[2].

وشهد عثمان التنزيل الحكيم بمكة والمدينة ، وحفِظ القرآن كاملاً

(١) المعرفة والتاريخ: ٢/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٨٢) ؛ وذكره الذهبي في «معرفة القراء»: ١/ ٥٤ ، وإسناده صحيح. وأبو عبد الرحمن السلمي: إمام علَم ، من أبناء الصحابة ، أخذ القرآن عن عثمان وغيره.

وعَرَضَه على النبي ﷺ ـ كما سيأتي ـ وكان له ذاك الشرف الباذخ أنه من (كتَّاب الوحي).

عن فاطمة بنت عبد الرحمن قالت: حدثتني أمي قالت: (سألتُ عائشة، وأرسلَها عمُّها فقال: إن أحدَ بَنِيك يُقرِئك السلام ويسألُكِ عن عثمانَ بن عفان، فإن الناس قد شَتَمُوه؟! فقالت: لعنَ الله مَنْ لَعَنه، فوالله لقد كان قاعداً عند نبي الله ﷺ، وإن رسول الله ﷺ لَمُسنِدٌ ظهرَه إليَّ، وإنَّ جبريل لَيُوحِي إليه القرآنَ، وإنه ليقولُ له: «**اكتُبْ يا عُثَيْم**». فما كان الله لِيُنزِله تلك المنزلةَ إلا كريماً على الله ورسوله)[1].

وعندما دخل عليه المجرمون القتلة يوم الدار، وضَربَه أحدُهم بالسيف، فاتَّقاه عثمان بيدِه، فقطعَها، فقال: (أَمَا واللهِ إنها لأولُ كفٍّ خَطّت المُفَصَّل)[2].

والمُفَصَّل: من سورة ﴿قٓ﴾ إلى آخر المصحف الشريف.

●● ولازم ذو النورين رسول الله ﷺ في سفره وحضره، وصلواته وعبادته وحجه، وحضر مجالسه وأيامه، وحفظ عنه الشعائر والسنن، وروى عنه بعضها، ومن ذلك:

عن حُمران بن أبان مولى عثمان قال: (رأيتُ عثمانَ بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسَلَهما، ثم تمضمض واستنثر، وغَسَل وجهه

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ٦/ ٢٥٠، و«فضائل الصحابة» رقم (٨١٣)؛ وابن أبي عاصم (١٣٠٠)؛ وهو في مجمع الزوائد: ٩/ ٨٦ ـ ٨٧، وفيه ضعف.

(٢) هو طرف من حديث طويل صحيح أخرجه ابن حبان وغيره، سيأتي: ص ٦٢٢ ـ ٦٢٤ في هذا الكتاب.

ثلاثاً ، وغسل يده اليمنى إلى المِرفق ثلاثاً ، ثم اليسرى مثلَ ذلك ، ثم مَسَح رأسه ، ثم غَسَل قدمه اليُمنى ثلاثاً ، ثم اليُسرى مثلَ ذلك ، ثم قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ توضأ مثلَ وُضوئي هذا ، ثم قال: «**مَنْ توضَّأ مِثلَ وضوئي هذا ثم صلَّى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسَه ، غَفَر الله له ما تقدَّمَ من ذَنْبه**»)[1] .

وعن أبي وائل قال: (رأيتُ عثمانَ يتوضأ فخَلَّل لحيتَه ثلاثاً ، وقال: رأيتُ رسول الله ﷺ فعَله)[2] .

●● وكثيراً ما كان عثمان يدخل على النبي ﷺ بيتَه، فيُدنيه إليه ويقرِّبه منه وينصحه ويعلمه. وزاد من دخوله على النبي ﷺ أنه أَصهر إليه، فكان ﷺ ينبسط له ويهيئ له ما يجعله يُفصح عما في نفسه لِما عَلم من شدة حيائه ، بل إن رسول الله ﷺ ليرغب بمجالسته ، ويأمر أصحابه أن يدعوه ليأتي إليه ، وأحياناً يذهب النبي ﷺ إليه ، ويدخل بيته ويوصي ابنته به .

عن قيس بن أبي حازم: (عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: «**وَدِدْتُ أنَّ عِندي بعضَ أصحابي**» ، قالت: فقلنا: يا رسول الله ، ألا ندعو لك أبا بكر؟ فسكتَ ، قلنا: عمر؟ فسكتَ ، قلنا: علي؟ فسكتَ ، قلنا: عثمان؟ قال: «**نعم**». قالت: فأرسلنا إلى عثمان ، فجعل النبي ﷺ يكلِّمُه ، ووجْهُه يتغيَّر! .

قال قيس: فحدَّثني أبو سَهْلة[3] : أن عثمان قال يوم الدار: إن

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩)؛ ومسلم (٢٢٦)؛ وأبو داود (١٠٦) واللفظ له ، وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة: ١/ ٢٤ .

(٣) هو مولى عثمان.

رسول الله ﷺ عَهِد إلي عهداً وأنا صابرٌ عليه. قال قيس: كانوا يَرون أنه ذلك اليوم)[1].

وعن أبي هريرة قال: (دخلتُ على رقيَّة بنتِ رسول الله ﷺ وفي يدها مِشْط، فقالت: خرج رسول الله ﷺ من عندي آنفاً، فرجَّلتُ رأسَه، فقال لي: «كيف تجدينَ أبا عبد الله ـ يعني عثمان ـ؟» قالت: قلت: كخيرِ الرجال، قال: «**أكرِميه؛ فإنه من أشبه أصحابي بي خُلُقاً**»)[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسولِ الله ﷺ مُضْطَجِعاً في بيته، كاشفاً عن فَخِذَيْـهِ، فاستأذَنَ أبو بكر، فأَذِنَ له وهو على تلك الحال، فتحدَّثَ. ثم استأذَنَ عُمر، فأَذِنَ له وهو على تلك الحال، فتحدَّث. ثم استأذَنَ عثمانُ، فجلس رسول الله ﷺ وسَوَّى ثيابَه، فدخل، فتحدَّث. فلما خَرج قالت عائشة: يا رسول الله، دخل أبو بكر فلم تَهَشَّ له ولم تُبالِ به، ثم دخل عمر فلم تهشَّ له ولم تُبالِ به، ثم دخل عثمان، فجلستَ فَسوَّيْتَ ثيابك؟! فقال النبي ﷺ: «**أَلَا أَسْتحِي من رجلٍ تَستحي منه الملائكة!**»)[3].

وعن عائشة أيضاً في قصة مشابهة، وفي آخرها قال النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٩١٨)؛ وابن ماجه (١١٣)؛ والحاكم: ٣/ ٩٩، وصححه وأقره الذهبي. وللحديث روايات أخرى ستأتي في قصة استشهاد عثمان.

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» رقم (٨٤٠)، وصححه محققه؛ والفسوي: ٣/ ١٦٢؛ والطبراني من طريقين رجال أحدهما ثقات. انظر: مجمع الزوائد: ٩/ ٨١.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠١)؛ وأحمد: ٦/ ٦٢؛ وابن حبان (٦٩٠٧) واللفظ له، وغيرهم.

«**يا عائشةُ ، إنَّ عثمانَ رجلٌ حَيِيٌّ ، ولو أَذِنْتُ له على تلك الحالِ ، خَشِيتُ أنْ لا يَـقضِيَ إليَّ حاجتَهُ**»[1].

●● ولقد كان عثمان بارّاً برسول الله ﷺ ، يهدي إليه اللحم وغيره ، ويضع مالَه تحت تصرفه يفعل به ما يشاء في مصالح المسلمين ، وهو ﷺ قد عَلِم طِيبَ نفسِ عثمان وسخاءَهُ ، فكان في بعض الأحايين يتصرف فيه كأنه ملكُ يدِه.

عن عائشة قالت : (دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فرأى لحماً ، فقال : «**مَن بعث بهذا؟**» قلت : عثمان ، قالت : فرأيتُ رسولَ الله ﷺ رافعاً يديه يدعو لعثمان)[2].

وفي خبر طويل رائع يرويه ابن عساكر وغيره : عن أم المؤمنين عائشة قالت : (مكَث آلُ محمد ﷺ أربعة أيام ما طَعِموا شيئاً حتى تضاغى صبيانُنا ، فدخل عليَّ النبي ﷺ فقال : «**يا عائشة ، هل أصبتُم بعدي شيئاً؟**» فقلت : من أين إنْ لم يأتِنا الله به على يديك! فتوضأ وخرج متسجِّياً ، يصلي ههنا مرة وههنا مرة يدعو. قالت : فأتى عثمانُ بن عفان من آخر النهار ، فاستأذَن ، فهممتُ أن أحجُبَه ، ثم قلت : هو رجل من مَكَاثير المسلمين ، لعلَّ الله إنما ساقَهُ إلينا ليُجري لنا على يديه خيراً ، فأذِنْتُ له ، فقال : أيا أُمَّتَاهُ ، أين رسول الله ﷺ؟ فقلت : يا بُني ، ما طَعِمَ آلُ محمد ﷺ من أربعة أيام شيئاً! ودخل رسول الله ﷺ متغيراً ضامرَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٢)؛ وعبد الرزاق (٢٠٤٠٩)؛ وابن حبان (٦٩٠٦)؛ وغيرهم.

(٢) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد : ٩/ ٨٥) : رواه البزار ، وإسناده حسن.

البطن. فأخبرتْهُ بما قال لها وبما ردَّتْ عليه!.

قالت: فبكى عثمان بن عفان، وقال: مَقْتاً للدنيا. ثم قال: يا أمَّ المؤمنين، ما كنتِ بحقيقةٍ أن ينزلَ بكِ مثلُ هذا ثم لا تذكرينه لي ولعبد الرحمن بن عوف ولثابت بن قيس في نُظرائنا من مكاثير الناس!.

ثم خرج فبَعث إلينا بأحمالٍ من الدقيق وأحمالٍ من الحِنْطة، وأحمال من التَّمْر، وبمَسْلوخ، وثلاث مئة درهم في صُرَّة، ثم قال: هذا يُبطئ عليكم، فأتى بخبز وشواءٍ كثير، فقال: كُلوا أنتم، واصنَعوا لرسول الله ﷺ حين يجيء.

ثم أقسم عليَّ ألاَّ يكون مثلُ هذا إلا أعلمتُه.

قالت: ودخل رسول الله ﷺ، فقال: «**يا عائشةُ، هل أَصبتُم بعدي شيئاً؟**» قالت: يا رسول الله، قد علمتُ أنك إنما خرجتَ تدعو الله تعالى، وقد علمتُ أن الله لن يردَّكَ عن سؤالك، فقال: «**فما أصبتُم؟**» قلت: كذا وكذا حملَ بعيرٍ دقيقاً، وكذا وكذا حملَ بعيرٍ حنطةً، وكذا وكذا حملَ بعير تمراً، وثلاثَ مئة درهم في صرَّة، ومَسْلوخاً وخبزاً وشواءً كثيراً. فقال: «**ممَّن؟**» فقلتُ: من عثمان بن عَفان، دخل عليَّ، فأخبرتُه، فبكى، وذَكَر الدنيا بِمَقْتٍ، وأقسَم عليَّ أن لا يكون فينا مثلُ هذا إلا أعلمتُه.

قالت: فما جلس رسول الله ﷺ حتى خَرج إلى المسجد، ورفَع يديه وقال: «**اللهمَّ إني قد رضيتُ عن عثمانَ فارْضَ عنه، اللهم إني قد رضيتُ عن عثمانَ فارْضَ عنه، اللهم إني قد رضيتُ عن عثمان فارْضَ عنه**»[١].

---

(١) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٢٣؛ الرقة والبكاء، لابن قدامة، ص١٨٧ ـ ١٨٩. =

وتأمَّلْ هذا الخبرَ الطريف الذي رواه عبد الله بن سَلَام: (أن النبيَّ ﷺ رأى عثمانَ رضي الله عنه يقود ناقةً تحمل دقيقاً وسَمْناً وعسلاً، فقال رسول الله ﷺ: «أنخْ»، فأناخ، فدَعَا بِبُرْمةٍ فجعل فيها من السمن والعسل والدقيق، ثم أمر فأُوقِد تحتها حتى نَضَج، ثم قال: «كلوا». فأكل منه رسول الله ﷺ، ثم قال: «**هذا شيء يَدْعُوه أهلُ فارس الخَبِيص**»)[1].

●● وكان رسول الله ﷺ إذا خرج من المدينة في سفر أو غزو أو غيرهما، أمَّر عليها أحد أصحابه الكرام، وقد استخلف عثمان مرتين:

- لمَّا غَزا رسول الله ﷺ نَجْداً يريد غَطَفان، وهي غزوة ذي أَمَر، استعمل على المدينة عثمان.

- وفي غزوة ذات الرِّقاع استعمل عثمان أيضاً على المدينة[2].

* * *

= المسلوخ: الشاة التي سُلخ عنها الجلد.

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٥/ ٣٧ ـ ٣٨): رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال الصغير والأوسط ثقات. والبُرْمة: القِدْر من الحجارة.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٤٦، ٢٠٣؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٦ ـ ٥٧.

الفصل الثالث

جهاده مع رسول الله ﷺ

شهد ذو النورين مع النبي ﷺ أغلبَ غزواته ومشاهده ، وغاب عن القليل منها لسبب وبأمرٍ من رسول الله ﷺ ، لا تأخراً منه ولا تقاعساً ولا تهاوناً .

ولم يكُ عثمان من مشاهير أبطال الحروب مثل علي وطلحة والزبير وحمزة وخالد وأضرابهم ، بل هو ككثير من الصحابة ليس في مقدمة الصفوف ولا في مؤخرتها ، رجل تغلب عليه طباعه وسكينته ، هادئ القلب ، ثابت الجنان ، ولكل إنسان خصائصه وصفاته وجبلَّتُه التي فَطَره الله عليها .

أولاً: في غزوة بدر:

لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر خَلَّف عثمانَ بن عفان على زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ لأنها كانت مريضة ، فماتت يوم قدمَ زيدُ بن حارثة بشيراً بنصر المسلمين في غزوة بدر. وضرب النبي ﷺ لعثمانَ بسهْمِه وأجْرِه في بدر ، فكان كمن شهدها[1] .

وقد ذكره في (أهل بدر): البخاريُّ وابنُ هشام وابن القيِّم وغيرهم. وهو بَدْري باتفاق ، والأحاديث الصحيحة تشهد بذلك .

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٦ ؛ زاد المعاد: ٣/ ٩٣ ؛ الفتح: ٨/ ٦٤٤ .

عن عبد الله بن عُمر قال: (إنما تغيَّبَ عثمانُ عن بدر ، فإنه كان تحتَهُ بنتُ رسول الله ﷺ ، وكانت مريضةً ، فقال له النبي ﷺ: **«إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شَهِدَ بَدْراً وسَهْمَه»**)[1].

وعن ابن عمر قال: (إنَّ رسولَ الله ﷺ قام ـ يعني يومَ بدرٍ ـ فقال: **«إنَّ عثمانَ انطلقَ في حاجة الله وحاجة رسوله ، وإني أُبايع له»**. فضَرَب له رسول الله ﷺ بسهمٍ ، ولم يَضرِبْ لأحدٍ غابَ غيره)[2].

ثانياً: في غزوة أحد:

في منتصف شوال من سنة (٣هـ) كانت غزوة أُحد ، وكان عثمان في صفوف المجاهدين ، وعبّأَ النبي ﷺ أصحابه للقتال ، وصَفَّ الصفوف ، وبوّأَ كل فريق مكانه ، وأمَّر على الرُّماة عبد الله بن جُبير ، وكانوا خمسين رجلاً ، وأوصاهم قائلاً: **«انْضَحوا بالنَّبْل عنَّا ، لا نُؤتى من قِبَلكم ، والزموا مكانكم ، إنْ كانت النَّوبةُ لنا أو علينا ، وإنْ رأيتُمونا تَخْطَفُنا الطيرُ فلا تَبرحُوا مكانكم»**[3].

واشتعلت المعركة ، وأنزل الله تعالى نصره على المؤمنين ، وصَدَقهم وعْدَه ، حتى كَشَفوا المشركين وحاقَتْ بهم الهزيمةُ فوَلَّوا مُدبِرين. فلما رأى الرماة ذلك قالوا: يا قوم ، الغنيمةَ الغنيمةَ! فذكَّرهم أميرُهم عهدَ النبي ﷺ ، فعَصَوْه وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، ونزلوا

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٣٠) ، وستأتي رواية أخرى في الفقرة التالية.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٢٦) ، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٣) انظر: البخاري (٣٠٣٩)؛ سنن أبي داود (٢٦٦٢)؛ السيرة النبوية ، لابن هشام: ٢/ ٦٥ ـ ٦٦.

إلى أرض المعركة ، وأَخْلَوا ظهرَ المسلمين إلى خيل المشركين. فأتاهم المشركون من خَلْفهم ، وصَرَخ صارخ: ألا إن محمداً قد قُتل! وانتهز المشركون الفرصة وكرُّوا على المسلمين فكَشَفُوهم ، وخَلَص العدو إلى رسول الله ﷺ ، فأصابَتْه الجِراح ، وكُسِرت رَبَاعِيتُه وشُجَّ رأسُه وجعل الدم يسيل على وجهه!.

وطاشَتْ أحلام المسلمين ، وذَهِلوا عن أنفسهم ، فمنهم من ولَّى هارباً ولم تردّه إلا حِيطان المدينة فرجع استحياءً ، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

ومنهم من انطلق صاعداً فوق جبل أُحد وألقى بسلاحه من هول الفاجعة ، ثم لم يلبثوا أن فاؤوا إلى الرسول ﷺ وإلى القتال بعد أن أفاقوا من أثر الصدمة.

ومنهم من قاتلوا دفاعاً عن دينهم وحمايةً لأنفسهم ، وهم كثير(١).

وكان عثمان في جملة مَن ولَّى منهزماً ، وقد انهزم معه كثيرون من شجعان الصحابة ، عند صدمة البغتة في ذلك اليوم العصيب.

وفي الآية الكريمة المذكورة يعودُ ربنا تبارك وتعالى بعائدةِ العفو ، فيختمُ آيةَ التعيير بمعصية التولي عند التقاء الجمعين بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾.

وأصحاب الهوى تأبى عليهم أنفسهم المريضة إلا أن يوجِّهوا الملامة

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام: ٢/ ٧٧ ـ ٨٣؛ زاد المعاد: ٣/ ١٧٦ ـ ١٧٧؛ السيرة النبوية ، لمحمد أبو شهبة: ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٦.

إلى الأكابر ، ويتتبعوا الهفوات والزلات فيضخِّموها ، ويُسْدِلوا الستار على الأعمال العظام والحسنات الكبار ، فيستهدفوا عثمان من بين جميع الصحابة الذين فرُّوا ، ويتخذوا تلك الهفوة ـ والتي عفا الله عنها ـ ذريعة للطعن به والخروج عليه ومقاتلته! .

وقد ظهر رأسُ أولئك الموتورين في مرحلة مبكرة من خلافة عثمان ، وورثه أولئك السبئيون الذين خرجوا على عثمان ، وتابعهم كثيرون على مر التاريخ إلى زماننا .

وقام الصحابي الأجلّ عبد الله بن عمر فأوضح لنا المحجة وأَبَان السبيل وأعاد الحق إلى نصابه ، وأقام الحجة على المغرِضين وأهل الأهواء ، وردَّ على ذلك المُفتئِت ـ ومن اقتفى أثره ـ عندما جاء يسأل سؤال المتعنِّت عن ذي النورين رضي الله عنه :

عن عثمان بن مَوْهَب قال : (جاء رجلٌ من أهل مِصْر وحجَّ البيتَ ، فرأى قوماً جلوساً فقال : من هؤلاء القومُ؟ فقالوا : هؤلاء قريش ، قال : فمن الشيخُ فيهم؟ قالوا : عبد الله بن عُمر . قال : يا ابنَ عمر ، إني سائلُكَ عن شيء فحدِّثْني : هل تعلمُ أن عثمانَ فرَّ يومَ أُحد؟ قال : نعم . فقال : تَعْلَمُ أنه تغيَّب عن بَدْر ولم يَشهدْ؟ قال : نعم . قال : تعلمُ أنه تغيَّبَ عن بيعة الرِّضْوان فلم يَشْهَدْها؟ قال : نعم . قال : الله أكبر . قال ابن عمر : تعالَ أُبيِّنْ لكَ : أمَّا فِرارُه يومَ أحدٍ فأشهدُ أن الله عفا عنه وغَفَر له . وأما تغيُّبُه عن بدر فإنه كانت تحته بنتُ رسول الله ﷺ وكانت مريضةً ، فقال له رسول الله ﷺ : «**إنَّ لكَ أجرَ رجلٍ ممَّن شهدَ بدراً وسَهْمَه**» . وأما تغيُّبُه عن بيعة الرِّضوان فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثَه مكانه ، فبَعث رسولُ الله ﷺ عثمانَ ، وكانت بيعةُ الرضوان بعدما ذهب عثمان

إلى مكة ، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى : هذه يدُ عثمان ، فضَرَبَ بها على يده فقال : هذه لعثمانَ . فقال له ابن عمر : اذهَبْ بها الآنَ معك)[1] .

ثالثاً: في غزوة غطفان(ذي أَمَر):

بلغ رسولَ الله ﷺ أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب ـ وهما حيَّان من غَطَفان ـ بذي أَمَر قد تجمعوا يريدون غزوَ المدينة ، فنَدَب رسول الله ﷺ المسلمين وخرج في (١٢ ربيع الأول من سنة ٣هـ) في (٤٥٠) رجلاً ، ومعهم أفراس ، واستخلَف على المدينة عثمانَ بن عفان .

فلما سمعت الأعراب بمسيره ﷺ إليهم رعبوا وفرُّوا في رؤوس الجبال ، وأقام النبي ﷺ بجيشه مدة ثم عاد إلى المدينة ولم يَلق كيداً . وكان غيبتُه (١١ يوماً)[2] .

رابعاً: في غزوة ذات الرِّقاع:

خرج فيها النبي ﷺ في جمع من أصحابه قيل : (٤٠٠) وقيل : (٧٠٠) رجل ، قِبل نَجْد يريد بني محارِب وبني ثعلبة من غَطَفان ، لمَّا بَلَغه أنهم يجمعون الجموع له ، واستخلَف على المدينة عثمان بن عفان[3] . فساروا حتى وصلوا (نَخْلاً) ، فلقي بها جمعاً من غطفان ، فتقارب الناس ، ولم يكن بينهم حرب ، وخاف المسلمون أن يأخذهم العدو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٨) واللفظ له؛ والترمذي (٤٠٣٩)؛ وابن حبان (٦٩٠٩) ، وغيرهم .

(٢) طبقات ابن سعد : ٢/ ٣٤ ـ ٣٥؛ السيرة النبوية ، لابن هشام : ٢/ ٤٦ .

(٣) ويقال : استخلف أبا ذر ، والراجح ما أثبتناه لأن أبا ذر لما أسلم بمكة رجع إلى بلاده ولم يجئ إلا بعد الخندق .

على غِرَّة ، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الخوف[1].

فعثمان رضي الله عنه لم يشهد هاتين الغزوتين عن أمر رسول الله ﷺ، حيث جعله خليفته على المدينة ، فهو نائبه فيها وواليه عليها ، وهذا شرف عظيم لعثمان.

خامساً: في عمرة الحديبية وبيعة الرضوان:

في ذي القعدة من سنة (٦هـ) أذَّن مؤذِّن الرسول ﷺ في الناس بالعمرة، وساق معه الهديِ إيذاناً بأنه لا يقصد مكة غازياً ، وإنما يريدها معظِّماً متعبداً معتمراً. وأوْعَبَ معه من أصحابه ما بين (١٤٠٠) و(١٥٠٠)[2].

وترامت الأخبار إلى قريش فَجُنَّ جنونُها ، وانتَهضتْ لمنع المسلمين من دخول مكة عليهم عَنْوَة ، وسَفَرت الرسل بين رسول الله ﷺ وبينها ، فلَجَّتْ قريش وعاندت ، ولكن رسول الله ﷺ وقد جاء عابداً لربه سِلْماً لقومه؛ لم يشأ أن يأخذ قريشاً بعنادِها وبَغْيها عليه وعلى المسلمين ، فرأى أن يُرسِل إليها أحدَ خاصة أصحابه ذوي المكانة عندها ، عَلَّها تفهم عنه قصدَ المسلمين على حقيقته ، وتخلي بينهم وبين بيت ربهم ، يؤدون نُسكَهم ، ثم يقفلون إلى مدينتهم. وهنا تتجلى مكانة عثمان بن عفان رضي الله عنه في شرفه وعزَّته بين قومه ، وفي نُـبْله وجلال موضعه من إخوانه المؤمنين[3].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٦١ ـ ٦٢؛ السيرة النبوية ، لابن هشام: ٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٢) البخاري (٤١٥١ ـ ٤١٥٤)؛ ومسلم (١٨٥٦ ـ ١٨٥٨).
(٣) عثمان بن عفان؛ للصادق عرجون ، ص ٥٤؛ السيرة النبوية ، لمحمد أبو شهبة: ٢/ ٣٣٠.

فدعا رسول الله ﷺ عمرَ بنَ الخطاب ليبعثَه إلى مكة ، فيبلِّغ عنه أشرافَ قريش ما جـاء له ، فقال: يا رسول الله ، إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحدٌ يمنعني ، وقد عرفَتْ قريش عداوتي إياها وغِلظتي عليها! ولكني أدلُّك على رجلٍ أعزَّ بها مني ، عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ عثمانَ بن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظِّماً لحرمته[١] .

خرج عثمان في سِفارته إلى مكة ، وحقق الله ظنَّ عمر فيه ، فلم يكد عثمان يقرب من مكة حتى لقيه قبل أن يدخلها أبان بن سعيد بن العاص ، فحمله بين يديه ، وعرف ما جاء به سفيراً ، فأجاره وأعلن هذا الجوار على ملأ قريش. وبلَّغ عثمان رسالة رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان وأشراف مكة كما أمره الرسول ﷺ. فأرادوا أن يتملَّقوا عثمان ويصرفوه عن مقصده ، فقالوا له: إنْ شئتَ أن تطوف بالبيت فطُفْ! لكن عثمان أحد السابقين وصاحب الهجرتين والفضائل والمكارم؛ أبى لِصدق إيمانه على قريش هذا المَلَق الوضيع ، وردَّ عليهم قائلاً: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوفَ به رسول الله ﷺ.

وعادت قريش إلى عُنْجُهِيتها فاحتَبستْ عثمانَ عندها ، ولما طال احتباسُه تطايرت الشائعات بأن عثمان قد قتلته قريش ، فثارت عزائم الإيمان ، فقال رسول الله ﷺ: «**لا نَبْرَحُ حتى نُناجِز القومَ**».

ودعا النبي ﷺ أصحابه إلى البيعة ، فبايعوه بيعة الرضوان تحت

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام: ٢/ ٣١٥؛ زاد المعاد: ٣/ ٢٥٨.

الشجرة ، وضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال: **«هذه عن عثمان»**.

وفي هذه البيعة يقول الله تعالى تنويهاً بمقام رسول الله ﷺ ومكانته من الله تعالى ، وتشريفاً لأصحابه الذين بايعوه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ... ﴾ [الفتح: ١٠].

ويقول جلَّ ثناؤه في إظهار فضلِ الذين بايعوا رسول الله ﷺ هذه البيعة المباركة وحفاوتِه بهم: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨][(١)].

فبيعة الرضوان وقعتْ لأجلِ عثمان رضي الله عنه ، وكانت هذه البيعة رمزاً من رموز الشرف له ، وأيُّ شرف أعظمُ من اجتماع قوى الإسلام بقيادة الرسول الأعظم للأخذ بثأر هذا الرجل الحبيب إلى المسلمين ، والرفيع المنزلة عند سيد الأولين والآخرين! ثم لمَّا عَلِم النبي ﷺ ـ في اللحظة الأخيرة التي اجتمع فيها الصحابة لعقد البيعة ـ أن عثمان حي ، مضَى في إتمام البيعة ، على سُنَّته ﷺ في أنه إذا بدأ بخير يمضي في إتمامه ولو زال سببه. وحينئذ كان لعثمان الشرف المضاعَف بأن يد رسول الله ﷺ نابَتْ عن يده في عقد البيعة عنه. فبيعةُ الرضوان كانت انتصاراً لعثمان ، وجميع الصحابة بايعوا بأنفسهم إلا عثمان فإن أشرفَ يدٍ في الوجود نابت عن يده في إعطاء بيعته ، ولو لم يكن لعثمان

---

(١) انظر: الفتح: ٨/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤ ، شرح الحديث (٣٦٩٨)؛ السيرة النبوية ، لابن هشام: ٢/ ٣١٥ ـ ٣١٦؛ زاد المعاد: ٣/ ٢٥٩؛ محمد رسول الله ﷺ ، للصادق عرجون: ٤/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢.

من الشرف في حياته كلها إلا هذا لكفاه[1].

عن أنس بن مالك قال: (لمّا أَمر رسول الله ﷺ ببيعة الرِّضْوان ، كان عثمان بن عفان رسولَ رسولِ الله ﷺ إلى أهل مكة ، قال: فبايَعَ الناسُ ، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ عثمانَ في حاجةِ الله وحاجةِ رسوله**». فضَرَبَ بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يدُ رسولِ الله ﷺ لعثمانَ خيراً من أيديهم لأنفُسِهم)[2].

سادساً: في فتح مكة:

وشهد عثمان مع النبي ﷺ فتح مكة المكرمة ، وكان له في ذلك اليوم موقف كريم هو قبسٌ من مشكاة نفسه الكريمة وشِيَمِه النبيلة التي جَبَله الله عليها ، حيث استَنقذ اللهُ به رجلاً من الكفر كان قد أُهْدِر دمه ، فانتقل إلى رياض الإسلام وكان له فيما بعدُ شأن رفيع في الفتوحات.

لمّا استقرَّ الفتح أَمَّنَ رسولُ الله ﷺ الناسَ كلَّهم إلا بضعةَ نفر ، فإنه أَمر بقتلهم وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح.

وكان عبد الله بن سعد أخا عثمان من الرضاعة ، له صحبة ، وقد

---

(١) الإمامة ، لأبي نعيم ، ص ٣٠٤؛ تعليقات محب الدين الخطيب على «العواصم من القواسم» ، ص ١١٥.

(٢) أخرجه الترمذي (٤٠٣٥) ، وقال: حسن صحيح غريب ، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

ارتد ، فأهدر النبي ﷺ دمَه ، فشَفَع له عثمان ، فأمضَى الرسول الكريم ﷺ شفاعته فيه[1] .

عن سعد بن أبي وقاص قال: (لمّا كان يومُ فتحِ مكة اختبأ عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح عند عثمانَ بن عفان ، فجاءَ به حتى أوقفه على النبي ﷺ ، فقال: يا رسولَ الله بايِعْ عبدَ الله ، فرفَع رأسَه فنظَرَ إليه ، ثلاثاً ، كلُّ ذلك يأبى ، فبايَعَه بعد ثلاث. ثم أقبل على أصحابه فقال: **«أَمَا كان فيكم رجلٌ رشيدٌ ، يقوم إلى هذا حيث رآني كفَفْتُ يدي عن بيعته فيقتلَه؟!»** فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ، ألا أومأتَ إلينا بعينِك؟ قال: **«إنَّه لا يَنبغي لنبيٍّ أن تكون له خائنةُ الأعين»**)[2] .

سابعاً: في غزوة حنين:

وكان عثمان مع رسول الله ﷺ في غزوة حُنين ، ولما فوجئ المسلمون بجموع هوازن وانهزم عامة الناس باديَ الأمر ، ثَبَت النبي ﷺ في طائفة من أصحابه نحو المئة ، وكان فيمن ثبت معه من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعثمان ، ومن أهل بيته: علي والعباس وابنه الفَضْل وأبو سفيان بن الحارث وأسامة بن زيد وجماعة كبيرة من الأنصار[3] .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام: ٢/ ٤٠٩؛ زاد المعاد: ٣/ ٣٦٢؛ سنن أبي داود (٤٣٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣) و(٤٣٥٩) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٣٥١٦)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥٠٦)؛ والحاكم: ٣/ ٤٥ ، وصححه وأقره الذهبي ، وصححه الألباني.

(٣) مسند أحمد: ٣/ ٣٧٦؛ السيرة النبوية ، لابن هشام: ٢/ ٤٤٣؛ سبل الهدى والرشاد: ٥/ ٤٨٥ .

وكان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبو دُجَانة وأيمن بن عُبيد يقاتلون بين يدي رسول الله ﷺ[1].

وعن أنس بن مالك قال: (إن أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً ضُرِب كل منهم يومئذ بضع عشرة ضربة)[2].

ثامناً: في غزوة تبوك:

وفي زمن العُسْرة من سنة (٩هـ) تجهز رسول الله ﷺ لغزوة تبوك، وأوعَبَ معه (٣٠) ألفاً من الصحابة.

وكان في الناس مَن لا يجدُ الراحلة والنفقة، فحثَّ النبي ﷺ على الصدقة، فتسارع الناس إلى الإنفاق، وكان ذو النورين في مقدمة الصفوف في هذا الميدان الخطير، وكانت له اليد الطولى؛ فأنفق من الرواحل والزاد والأموال الصامتة ما لم ينفقه أحد مثله، حتى اشتَهَر بأنه جهَّزَ جيش العسرة. كما سنوضح ذلك في الفصل التالي.

* * *

---

(١) معازي الواقدي: ٣/ ٩٠٢.

(٢) رواه البزار مطولاً، وفيه ضعف، انظر: مجمع الزوائد: ٦/ ١٧٨ ـ ١٧٩؛ سبل الهدى والرشاد: ٥/ ٤٨٥.

الفصل الرابع

مواقفه البارزة في إنفاق المال

يتصف الرجال الكبار الذين يصنعون التاريخ بجملة مزايا تكوِّن شخصيتَهم وتوجّه حركتهم ، ولقد تميز عثمان بصفات اشتَهر بها حتى طَغَتْ على شمائله وهيمنتْ على أعماله فصارت علماً عليه ، ومن أبرزها جودُه الفذ.

ولئن كانت الدولة تقوم على عدة أركان ويعتمد بناؤها على بضع مؤسسات كبرى؛ فإن عثمان كان يمثل في الدولة الإسلامية الركن الاقتصادي والمؤسسة المالية ، حتى لكأنَّ مالَه الضخم قد غدا مال المسلمين ، وخزائنَه الفياضة هي بيت مال المسلمين! فلا يقع خاطرك على موقف جليل أو حادثة مهمة أو نازلة خطيرة؛ إلا تجد ذا النورين يتلقاها بيمينه ويَفيض من قلبه وروحه وكفه سخاءً وجوداً وكرماً وعطاء يعز نظيره في سباق تنقطع في حَلْبته هممُ الأجواد والأسخياء.

أولاً: شراؤه بئر رُومة وتسبيلها للمسلمين عامة:

تقع هذه البئر في عرصة العَقيق الكبرى بقرب مجتمع الأسيال (زغابة) بشمالي غربي المدينة المنورة ، وكانت البئر غزيرة الماء ، وماؤها عذب صافٍ خفيف للغاية ، ولعذوبة ماء بئر رومة وغزارته رغَّبَ النبي ﷺ أصحابَه في شرائها وجعلها وقفاً على المسلمين. فأجاب هذه الرغبة

عثمان رضي الله عنه، واشتراها من صاحبها اليهودي[1] بمبلغ (٣٥٠٠٠) درهم ، ونَفَّذ فيها رغبةَ الرسول ﷺ ، وجعلها وقفاً للمسلمين[2] .

وكانت قصتها مبكرة عندما قدِم المهاجرون المدينة .

روى البغوي في «الصحابة» من طريق بِشر بن بَشير الأَسْلمي ، عن أبيه قال : (لما قدِم المهاجرون المدينةَ استنكروا الماءَ ، وكانت لرجل من بني غِفار عينٌ يُـقال لها : رومة ، وكان يبيع منها القِربة بِمُدٍّ ، فقال له النبي ﷺ : «**تبيعنيها بعينٍ في الجنة؟**» فقال : يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرها. فبلغ ذلك عثمانَ رضي الله عنه ، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم ، ثم أتى النبي ﷺ فقال : أتجعلُ لي فيها ما جعلتَ له؟ قال : «**نعم**» ، قال : قد جعلتُها للمسلمين)[3] .

ثانياً: توسعة المسجد النبوي:

ولما ضاق المسجد النبوي بأهله حثَّ النبي ﷺ الصحابة على أن يشتروا أرضاً مجاورة له لتوسيعه ، فاشتراها عثمان من صُلب ماله وزاد بها مساحة المسجد الشريف .

وقد ثبتت هاتان المنقبتان لعثمان في أحاديث صحيحة جاءت من طرق متعددة ، فمن ذلك[4] :

---

(١) وفي بعض الروايات أنها كانت لرجل من غفار ، كما سيأتي .

(٢) آثار المدينة المنورة ، لعبد القدوس الأنصاري ، ص ٢٤٥ .

(٣) الفتح : ٧/ ٣٣٢ ، شرح الحديث (٢٧٧٨)؛ مختصر ابن عساكر : ١٦/ ١٢٧ . والمُدّ : (٦٧٥ جراماً) .

(٤) ستأتي في قصة حصار عثمان أحاديث أخرى ،نظر : ص ٦٤٤ ـ ٦٤٦ في هذا الكتاب .

ما رواه ثُمامة بن حَزْن القُشَيْريُّ قال: (شهدتُ الدار حين أَشرف عليهم عثمان، فقال: ائتُوني بصاحبَيْكم اللذَيْن أَلَّبَاكم علَيَّ. قال: فجيء بهما، فكأنهما جَمَلان، ـ أو كأنهما حِمَاران ـ، قال: فأشرف عليهم عثمان، فقال: أَنشُدُكم بالله والإسلام، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدِمَ المدينة وليس بها ماءٌ يُسْتَعْذَبُ غيرَ بئر رُومة، فقال: «**مَن يشتري بئرَ رُومةَ فيجعلُ دلوه مع دِلاء المسلمين، بخيرٍ له منها في الجنة؟**» فاشتريتُها من صُلْب مالي، فأنتم اليومَ تمنعُوني أن أشربَ منها حتى أشربَ من ماء البحر؟ فقالوا: اللهمَّ نعم.

فقال: أَنشُدُكم بالله والإسلام، هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله، فقال رسول الله ﷺ: «**مَن يشتري بقعةَ آلِ فلان فيزيدُها في المسجد بخيرٍ له منها في الجنة؟**» فاشتريتُها من صُلْب مالي، فأنتمُ اليوم تمنعُوني أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا: اللهم نعم)[1].

وفي رواية الأحنف بن قيس أنه اشترى تلك البقعة بعشرين ألفاً أو بخمسة وعشرين ألفاً[2].

ثالثاً: تجهيزه جيش غزوة العُسْرة:

كانت هذه الغزوة في رجب من سنة (٩هـ)، وتسمى «غزوة تبوك» باسم عين ماء هناك. وتبعد عن المدينة شمالاً نحو (٧٨٠ كم). وسُميت كذلك «غزوة العُسْرة»، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٠٣٦) وحسنه؛ والنسائي في الكبرى (٦٤٠٢)؛ وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥٥٥)، وصححه أحمد شاكر.

(٢) النسائي في الكبرى (٦٤٠١)؛ وابن حبان (٦٩٢٠).

عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]؛ لأنها كانت تدريباً على أعتى أنواع المشاق التي ستقابل المجتمعَ المسلم، كما كانت امتحاناً شاقّاً لإخلاص الإيمان في قلوب الذين اصطفاهم القدر الإلـٰهي لقيادة مسيرة الإسلام. فلقد كان الخروج إلى (تبوك) في حر شديد، وقيظ محرق، وجَدْب قاحل، وسفر بعيد إلى عدوٍّ كثير، له من القوة ما كان يهزّ مجردُ ذِكْره وذكرها الكيانَ العربي رُعباً وتهيباً. مع عدم توافر أضعف الوسائل لحمل حشود المسلمين؛ فلا ظهرَ ولا ماء، ولا مؤنَ من الطعام، ولا أهبة في السلاح، مع كثافة عدد الجيش الذي لم يخرج مثله في غزوة من الغزوات[١].

وتأهّب المسلمون للغزو مع الرسول ﷺ في جيش عرمرم بلغ أكثر من ثلاثين ألفاً. وكان الناس ينقصهم الرواحل لركوبهم، والأزواد والمؤن والعتاد، مما يلزم للسفر والجهاد ومجابهة العدو.

فقام رسول الله ﷺ يحضُّ على النفقة، فتسابق الخيِّرون في حَلْبة الإنفاق الخالص، وكان لعثمان مواقف سارت بها الأخبار مسير الشمس.

عن عبد الرحمن بن خَبَّاب قال: (شهدتُ النبيَّ ﷺ وهو يحثُّ على جيش العُسْرة، فقام عثمانُ فقال: يا رسول الله، عليَّ مئةُ بعيرٍ بأحْلاسِها وأقتابها في سبيل الله. ثم حَضَّ على الجيش، فقام عثمان فقال: يا رسول الله، عليَّ مئتا بعير بأَحْلاسها وأَقْتابها في سبيل الله. ثم حَضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ ثلاثُ مئة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. فأنا رأيتُ رسولَ الله ﷺ ينزل عن

---

(١) محمد رسول الله ﷺ، للصادق عرجون: ٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

المِنبر وهو يقول: «**ما على عثمان ما عمِلَ بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه**»[1].

وأخذ عثمان يتصدَّق ويتصدَّق، ويعبِّر عبد الله بن مسعود عن ذلك فيقول: (رأى رسولُ الله ﷺ عثمانَ بن عفان يوم جيش العُسْرِة جائياً وذاهباً، فقال: «**اللهمَّ اغفِرْ لعثمان ما أقبَلَ وما أَدْبَر، وما أخفَى وما أعلَنَ، وما أسرَّ وما أَجْهَر**»)[2].

قال قتادة وغيره: (حَمل عثمان في جيش العسرة على تسع مئة وخمسين بعيراً، وأتمَّ الألفَ بخمسين فرساً).

وفي رواية: أنه حمل على ألف بعير وسبعين فرساً[3].

وفي حديث الأَحْنَف بن قيس عن عثمان في مناشدته الصحابةَ أيام حصاره، قال: (أَنْشُدُكم بالله الذي لا إلـه إلا هو؛ أتعلمونَ أن رسول الله ﷺ نظر في وجوه القوم يومَ جيش العُسْرة فقال: «**مَنْ يُجهِّز هؤلاء غَفَر الله له**»، فجهَّزْتُهم حتى ما يَفقِدون خِطاماً ولا عِقالاً؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد. ثم انصرف)[4].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٠٣٣)؛ وابن أبي عاصم (١٢٨٠)؛ والبغوي (٣٩٠٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

(٢) حلية الأولياء: ١/ ٥٩.

(٣) الاستيعاب: ٣/ ٧٢ـ٧٣؛ حلية الأولياء: ١/ ٥٩؛ الفتح: ٧/ ٣٣٣ (٢٧٧٨).

(٤) أخرجه أحمد (٥١١)؛ والنسائي في الكبرى (٦٤٠٠)؛ وابن حبان (٦٩٢٠)، وصححه أحمد شاكر.

وفي رواية أبي سَلَمة بن عبد الرحمن عن عثمان قال: (فَجهَّزْتُ نِصفَ الجيش من مالي)[1].

أي أنه جَهَّزَ أزيدَ من (١٥٠٠٠) رجل!.

وأما نفقاته من الذهب فتضارع ما ذكرناه من صدقة عريضة في تقديم الرواحل والزاد للمجاهدين.

عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: (جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في كُمِّه حين جَهَّز جيشَ العسرة، فنَثَرها في حِجْرِه. قال عبد الرحمن: فرأيتُ النبيَّ ﷺ يُقلِّبُها في حِجْره، ويقول: **«ما ضَرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعد اليوم»**، مرتين)[2].

وعن عبد الرحمن بن عوف: (أنه شهد ذلك حين أعطى عثمان بن عفان رسولَ الله ﷺ ما جَهَّزَ به جيشَ العُسرة، وجاء بسبع مئة أوقية ذهب)[3].

والأوقية تساوي (١١٩ جراماً)، فالمبلغ يفوق الوصف، لكنه ليس بغريب ولا بالشيء الكثير على مكارم عثمان وسخائه وبذله في الإسلام.

وهذا الحديث فيه ضعف لكن تشهد له الروايات السابقة، ويعضده ويقويه قوله في الرواية الصحيحة: (حتى ما يَفْقِدون خِطاماً ولا عِقالاً)!

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦٤٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٠٣٤)؛ وأحمد: ٥/ ٦٣؛ وابن أبي عاصم (١٢٧٩)، وقال الترمذي: حسن غريب، وحسنه الألباني.

(٣) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٩/ ٨٥): رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، وفيه إبراهيم بن عمر بن أبان وهو ضعيف. وكذا ضعفه الحافظ في الفتح: ٧/ ٣٣٣.

فهي رواية مطلَقة لا يصح تقييدُها بعدد أو بقدر من المال ، وما ذُكِر من مقادير وأرقام فهو للتمثيل[1] .

هذه المواقف الكريمة النبيلة من عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه؛ مما يعجز القلم عن الإحاطة بوصفه ، وتوفيته حقه ، مما جعل النبي ﷺ يتعجب من سماحته ، وسخائه ، وغامر جوده في سبيل الله وإعلاء كلمته[2] .

وفي واحدة من الأزمات الخانقة التي نزلت بالمسلمين في هذه الغزوة ، يضيف ذو النورين معلماً جديداً من مكارمه ، وبرهاناً عبقريّاً على عبقرية السخاء والبذل في سبيل الله ونصرة دعوته وعون أوليائه وجنده .

عن أبي مسعود البَدْريِّ قال: (كنَّا مع النبي ﷺ في غزاة ، فأصاب الناسَ جَهْدٌ ، حتى رأيتُ الكآبةَ في وجوه المسلمين والفرحَ في وجوه المنافقين. فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال: «**والله لا تغيبُ الشمس حتى يأتيكم الله برزق**»! فعلمَ عثمان أن الله ورسوله سيُصدقان ، فاشترى عثمان أربع عشرة راحلةً بما عليها من الطعام ، فوجَّه إلى النبي ﷺ منها بتسعٍ ، فلما رأى ذلك النبي ﷺ قال: «**ما هذا؟**» قالوا: أهدى إليك عثمانُ. قال: فعُرِفَ الفرحُ في وجوه المسلمين والكآبةُ في وجوه المنافقين. فرأيتُ النبيَّ ﷺ قد رفع يديه حتى رُئي بياضُ إبطَيْه يدعو

---

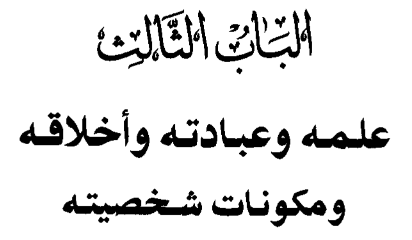
(١) انظر: محمد رسول الله ﷺ ، للصادق عرجون: ٤/ ٤٣٥ .
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٤٣٦ .

لعثمان دعاءً ما سمعتُه دعا لأحد قبله: «**اللهمَّ أعطِ عثمان ، اللهم افعلْ بعثمان**»[1].

* * *

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٩/ ٩٦): رواه الطبراني في الأوسط والكبير باختصار ، وإسناده حسن. وهو عند ابن عساكر ـ مختصره: ١٦/ ١٢٦.





الباب الثالث

علمه وعبادته وأخلاقه ومكونات شخصيته

- علمه .
- عبادته .
- شمائله وأخلاقه .
- مكونات شخصيته .

* * *



الفصل الأول

علمه

علوم عثمان متعددة، ومعارفه متنوعة، فكان رضي الله عنه قارئاً لكتاب الله تعالى حافظاً له، محدِّثاً جليلاً، فقيهاً مجتهداً، أحدَ أوعية العلم وكبار المفتين منذ عهد رسول الله ﷺ ثم عهد أبي بكر وعمر وحتى أيام خلافته الراشدة.

عن المِسْوَر بن مَخْرَمة قال: (كان علمُ أصحاب رسول الله ﷺ ينتهي إلى ستة: إلى عمر وعثمانَ وعليٍّ، ومعاذ بنِ جبل وأُبيٍّ بن كعب وزيد بن ثابت)[١].

أولاً: القارئ الحافظ لكتاب الله تعالى:

جاء في حديث عثمان قوله: (اختبأتُ عند ربي عشراً...) وفيه: (ولقد جمعتُ القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ)[٢].

ومعنى **جمعتُ القرآن**: حَفِظْتُه.

وصَحَّ عن عثمان من غيرِ وجه أنه قرأ القرآن كلَّه في ركعة[٣]!.

وقد ذكر أبو عُبيد (القُرَّاءَ من أصحاب النبي ﷺ) فعَدَّ من المهاجرين:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٥١.

(٢) سيأتي بتمامه مع تخريجه، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ في هذا الكتاب.

(٣) سيأتي تفصيله، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ في هذا الكتاب.

(الخلفاء الأربعة ، وطلحة بن عُبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وابن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبا هريرة ، وعبد الله بن السائب ، والعبادلة)[1].

وقال ابن الجَزَري في ترجمة عثمان : (أحدُ السابقين الأولين ، وأحدُ مَنْ جَمع القرآن حِفظاً على عهد رسول الله ﷺ ، وعَرض عليه)[2].

عَرَضَ عليه القرآنَ : مقرئُ الكوفة الكبير أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، والمغيرة بن أبي شهاب المَخْزومي ، وزِرُّ بن حُبَيْش ، وأبو الأسود الدُّؤَلي[3].

ومن أجلِّ مآثِره وأعظمِ مناقبه : جمعُ القرآن الكريم ، كما سيأتي تفصيل القول فيه .

ثانياً: المحدِّث:

●● **روى عثمان الحديث عن رسول الله ﷺ** ، وعن أبي بكر وعمر .

وحدث عنه :

ـ **من الصحابة** : زيد بن ثابت ، وزيد بن خالد الجُهَني ، والسائب بن يزيد ، وسعيد بن العاص ، وسَلَمة بن الأَكْوَع ، وأبو أُمامة صُدَيّ بن عَجْلان الباهِليُّ ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عُمر ، وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حُصَيْن ، والمغيرة بن شعبة ، وأبو قتادة الأنصاري ، وأبو هريرة ، وغيرهم .

---

(١) الفتح : ١١/ ٢٦٢ ، شرح الحديث (٥٠٠٣) .
(٢) غاية النهاية : ١/ ٥٠٧ .
(٣) معرفة القراء الكبار : ١/ ٤٨ ، ٥٣ ؛ غاية النهاية : ١/ ٥٠٧ .

ـ وأبناؤه: أبان ، وسعيد ، وعَمْرو.

ـ **ومن التابعين**: الأَحْنَف بن قيس ، والحسن البصري ، وسعيد بن المسيِّب ، وأبو وائل شَقِيق بن سَلَمة ، وعبد الرحمن بن يزيد النَّخَعي ، وعلقمة بن قيس ، وعَمْرو بن سعيد بن العاص ، ومالك بن أبي عامر جدُّ مالك بن أنس الإمام ، ومحمد بن علي المعروف بابن الحَنَفيَّة ، ومروان بن الحَكَم ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وآخرون.

ـ **ومواليه**: حُمران بن أبان ، وزيد بن دارَة ، وهانئ البربري ، وأبو سَهْلة ، وأبو صالح.

وغير هؤلاء كثير.

●● ترجم له الذهبي في «تذكرة الحفاظ» ، وقد روى جملة طيبة من العلم ، وكان يحتاط في الرواية ، ويتحرَّج من كثرة التحديث.

وشُغل بأمور المسلمين وشؤون الدولة في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر ، وفي أيام خلافته ، فلم يتصدَّر للتحديث ، وهذا ما يفسِّر قلةَ ما رُوي عنه من الحديث مقارنةً بالمكثرين من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

روى الأئمة لعثمان عن رسول الله ﷺ (١٤٦) حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم منها على ثلاثة ، وانفرد البخاري بثمانية ، ومسلم بخمسة[1].

ثالثاً: الفقيه المجتهد:

الخلفاء الراشدون الأربعة من أعلمِ الأمة بأمور الإسلام؛ فالخليفةُ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ٣٢٢؛ أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ٢٠٥.

يجب أن يكون من أعلم الناس بكتاب الله وأقرئِهم له ، وأكثرِهم معرفةً بسُنة النبي ﷺ ، وأدقِّهم فهماً وأحسنِهم اجتهاداً في الأحكام.

وحَسْبك أن عثمان ممن كان يُفتي في عهد رسول الله ﷺ وزمن الشيخين ، وفي أيام خلافته اجتهد في كثير من المسائل ، وحَكَم بين الناس ، ونزلوا على رأيه ، ووافقه أكابر الصحابة ، وربما خالفوه في بعض مسائل الاجتهاد ، ولا ضَيْر في ذلك.

●● عن سَهْل بن أبي حَثْمَة قال: (كان الذين يُفتون على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة نَفَر من المهاجرين وثلاثة من الأنصار: عمر وعثمان وعلي ، وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت)[1].

وعن القاسم بن محمد بن أبي بكر: (أن أبا بكر الصديق كان إذا نزل به أمرٌ يريد فيه مشاروةَ أهلِ الرأي وأهل الفقه ودَعَا رجالاً من المهاجرين والأنصار؛ دعا: عمر وعثمانَ وعليّاً وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأُبيَّ بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتي في خلافة أبي بكر ، وإنما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء. فمضى أبو بكر على ذلك ، ثم ولي عمر فكان يدعو هؤلاء النَّفَر ، وكانت الفتوى تصير ـ وهو خليفة ـ إلى عثمانَ وأبيٍّ وزيد)[2].

وعن سعيد بن المسيِّب: (أن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانا يتنازعان في المسألة بينهما ، حتى يقول الناظر إليهما لا يجتمعان أبداً ،

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٥٠ ، وانظر: ٣٣٥. **وسهل**: من صغار الصحابة.
(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٥٠.

فما يفترقان إلا على أحسنه وأجمله)[1].

وعن محمد بن سيرين قال: (كان أعلمَهم بالمناسك عثمانُ بن عفان ، وبعده ابن عمر)[2]. ويعني **بالمناسك** أحكام الحج.

وقال الزُّهري: (لو هَلَك عثمانُ بن عفان وزيدُ بن ثابت في بعض الزمان لَهَلك علمُ الفرائض إلى يوم القيامة ، جاء على الناس زمانٌ وما يُحسِنه غيرهما)[3].

أمثلة ونماذج من اجتهاداته:

١ ـ إتمام الصلاة بِمِنًى:

●● عن عبدِ الله بن عُمر قال: (صلَّيتُ مع النبيِّ ﷺ بمِنًى ركعتين ، وأبي بكر وعمر ، ومع عثمانَ صدراً من إمارته ، ثم أتمَّها)[4].

وفي رواية لمسلم وأحمد: (خَرَجْنا مع رسول الله ﷺ فكان يصلي (بمنًى) صلاة السفر ـ يعني ركعتين ـ ومع أبي بكر وعمر ، وعثمان ستَّ سنينَ من إمرته ثم صلى أربعاً)[5].

وعن الأعمش ، عن إبراهيم النَّخَعي ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: (صلَّى بنا عثمانُ بن عفان رضي الله عنه بمنًى أربعَ ركعاتٍ ، فقيلَ

---

(١) حياة الصحابة: ٣/ ٢١٤.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٠؛ العلل ، لأحمد (٥٨٨٦).
(٣) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٤٧.
(٤) أخرجه البخاري (١٠٨٢)؛ ومسلم (٦٩٤)؛ والنسائي في الكبرى (١٩٢١) ، وغيرهم.
(٥) مسلم (٦٩٤) (١٨)؛ وأحمد: ٢/ ٤٤ ـ ٤٥.

ذلك لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فاسترجَعَ ثم قال: صلَّيتُ مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين ، وصلَّيتُ مع أبي بكر رضي الله عنه بمنى ركعتين ، وصليت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمنى ركعتين ، فليتَ حَظِّي من أربع ركعاتٍ ركعتانِ مُتَقَبَّلَتَان!). لفظ البخاري[1].

زاد أبو داود: (قال الأعمش: فحدَّثني معاوية بن قُرَّة عن أشياخه أن عبد الله صلى أربعاً ، قال: فقيلَ له: عِبْتَ على عثمان ثم صلَّيتَ أربعاً؟ قال: الخلافُ شَرٌّ!).

وعن الزُّهْري ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (الصلاةُ أولُ ما فُرِضَتْ ركعتينِ ، فأُقِرَّتْ صلاةُ السَّفَر ، وأُتِمَّتْ صلاةُ الحَضَر). قال الزهري: فقلتُ لعروة: ما بالُ عائشة تُتِمُّ؟ قال: تأوَّلَتْ ما تأوَّلَ عثمانُ[2].

ومعنى (**تأوَّلَتْ ما تأوّلَ عثمان**): التشبيهُ بعثمان في الإتمام بتأويلٍ لا اتحاد تأويلهما ، ويقوِّيه أن الأسباب اختلفت في تأويل عثمان فتكاثرت بخلاف تأويل عائشة[3].

وقد جاء عن عائشة سببُ الإتمام صريحاً ، وهو فيما أخرجه البيهقي من طريق هشام بن عروة عن أبيه: (أنها كانت تصلي في السفر أربعاً ،

(١) أخرجه البخاري (١٠٨٤)؛ ومسلم (٦٩٥)؛ وأبو داود (١٩٦٠) ، وغيرهم.
(٢) أخرجه البخاري (١٠٩٠)؛ ومسلم (٦٨٥)؛ وأبو داود (١١٩٨) ، وغيرهم.
(٣) الفتح: ٣/ ٧٠٢.

فقلتُ لها: لو صلَّيتِ ركعتين ، فقالت: يا ابنَ أختي ، إنه لا يَشقّ عليَّ)[1].

وهو دالٌّ على أنها تأوَّلَتْ أن القصرَ رخصة ، وأن الإتمام لمن لا يشقُّ عليه أفضل[2].

وهكذا كان رأي ابن عمر ، فلذا كان إذا صلى مع الإمام صلى أربعاً ، وإذا صلاها وحده صلاها ركعتين[3].

وكذلك ابن مسعود حيث قال: (فليتَ حظِّي من أربع ركعات ركعتان مُتقبَّلَتان)؛ فهذا يدل على أنه كان يرى الإتمامَ جائزاً ، وإلا لمَا كان له حظ من الأربع ولا من غيرها فإنها كانت تكون فاسدة كلها ، وإنما استرجع ابن مسعود لِما وقع عنده من مخالفة الأَوْلى[4]. وحَرَص على وحدة الكلمة وقال: (الخِلافُ شرٌّ) ، وترك اجتهاده وكان يصلي وراء أمير المؤمنين عثمان متمّاً ، ولو كان القصر عنده واجباً لما استجاز تَرْكَه وراء أحد[5].

وقد رأى جماعة من الصحابة إتمامَ الصلاة في السفر ، منهم: عائشة وسلمان وأربعة عشر من أصحاب رسول الله ﷺ[6].

●● ومع كون الإتمام جائزاً ، وأن أمير المؤمنين إمام مجتهد ، وقد

---

(١) السنن الكبرى: ٣/ ١٤٣ ؛ وصححه الحافظ في الفتح: ٣/ ٧٠٣.
(٢) الفتح: ٣/ ٧٠٣.
(٣) مسلم (٦٩٤) (١٧).
(٤) الفتح: ٣/ ٦٩٢ ـ ٦٩٣ (١٠٨٤).
(٥) شرح مسلم ، للنووي: ٣/ ٢٢١.
(٦) الإمامة ، لأبي نعيم ، ص ٣١٢.

وافقه جمهرة من الصحابة ، وتابعه أئمتهم ولم يُـنكِروا عليه؛ فإن لعثمان عـدةَ أسبـاب فـي هـذا الاجتهـاد ، وبعضهـا فعلـه لمصلحـة الإسـلام والمسلمين وشَعيرة الصلاة.

قال الحافظ: والمنقولُ أن سببَ إتمام عثمان أنه كان يرى القصر مختصّاً بمن كان شاخِصاً سائراً ، وأما مَن أقام في مكان في أثناء سفره فله حكمُ المقيم فيُتمّ[1].

وعن الزُّهْرِيِّ: (أن عثمان إنما صلَّى بمنًى أربعاً ، لأنه أَجمع على الإقامة بعد الحج).

وعنه أيضاً: (أن عثمان بن عفان أتمَّ الصلاة بمنًى من أجلِ الأعراب ، لأنهم كَثُروا عامَئذٍ ، فصلَّى بالناس أربعاً لِيعلمهم أن الصلاةَ أَربعٌ)[2].

قال الحافظ: (وروى البيهقي من طريق عبد الرحمن بن حُميد بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه ، عن عثمان أنه أتمَّ بمنًى ، ثم خطب فقال: إنَّ القصرَ سنةُ رسول الله ﷺ وصاحبيه ، ولكنه حَدَث طَغَامٌ ، فخفتُ أن يستنُّوا. وعن ابن جُريج أن أعرابيّاً ناداه في منى: يا أمير المؤمنين ، ما زلتُ أصلِّيها منذ رأيتُك عام أول ركعتين! وهذه طرق يقوِّي بعضها بعضاً ، ولا مانع أن يكون هذا أصل سبب الإتمام)[3].

٢ ـ زيادة الأذان الثالث يوم الجمعة:

عن الزهري قال: سمعت السائب بن يزيد يقول: (إن الأذان يوم

---

(١) الفتح: ٣/ ٧٠٢.

(٢) سنن أبي داود (١٩٦١) و(١٩٦٤).

(٣) الفتح: ٣/ ٧٠٣. **الطَّغَام**: الجهلة والحمقى.

الجمعة كان أولُه حين يجلسُ الإمامُ يومَ الجمعة على المِنْبر في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فلما كان في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وكَثُروا ، أمر عثمانُ يوم الجمعة بالأذانِ الثالث ، فأُذِّنَ به على الزَّوْرَاءِ ، فثَبَتَ الأمرُ على ذلك)[1] .

وذكر الطبري أن زيادة النداء الثالث كانت في سنة (٣٠ هـ)[2] .

قال القَسْطلاَّني في «شرح البخاري» : إن النداء الذي زاده عثمان هو عند دخول الوقت ، وكان في موضع يبعد عن المسجد بحيث لا يُسمع الأذان الذي يفعل في المسجد النبوي ، والقصدُ منه إعلامُ أكبر قدر من المسلمين ليسعَوا إلى ذكر الله . والآن يغني عن هذا الأذان مكبرات الصوت .

وسمَّاه ثالثاً باعتبار كونه مزيداً على الأذان بين يدي الإمام والإقامة للصلاة ، وأُطلق على الإقامة أذانٌ تغليباً بجامع الإعلام فيهما ، وكان هذا الأذان لمَّا كثُر المسلمون ، فزاده اجتهاداً منه ، وموافقة سائر الصحابة بالسكوت ، وعدم الإنكار ، فصار إجماعاً سكوتيّاً .

فالأذان الأول هو الذي زاده عثمان ، والثاني بين يدي الخطيب ، والثالث هو الإقامة[3] .

والزَّوْرَاء : هو موضع بسوق المدينة .

---

(١) أخرجه البخاري (٩١٢) و(٩١٦)؛ وأبو داود (١٠٨٧)؛ والترمذي (٥٢٣) ، وغيرهم .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٨٧ .

(٣) انظر : الفتح : ٣/ ٤٢٣ ـ ٤٢٥ ؛ هامش سنن أبي داود بتحقيق شعيب الأرنؤوط : ٢/ ٣١٣ .

٣ ـ سجود التلاوة:

ذهب عثمان إلى أن سجود التلاوة يجب على التالي للقرآن وعلى الجالس لسماعه ، أما من سمعه من غير قصد فليس عليه سجود التلاوة .

عن سعيد بن المسيِّب : (أن عثمان مرَّ بقاصٍّ، فقرأ سجدة ليسجدَ معه عثمان، فقال عثمان : إنما السجود على من استمع . ثم مضَى ولم يسجد)[١] .

٤ ـ القنوت قبل الركوع:

روى محمد بن نصر عن أنس : (أن أولَ من جعل القنوت قبل الركوع ـ أي دائماً ـ عثمانُ ، لكي يُدرِكَ الناسُ الركعة)[٢] .

وعن حُميد الطويل : (عن أنس بن مالك ، قال : سُئل عن القنوت في صلاة الصبح ، فقال : كنَّا نَقنُتُ قبلَ الركوع وبعدَه)[٣] .

فهل القنوت قبل الركوع أم بعده؟ قال الحافظ : اختَلف عملُ الصحابة في ذلك ، والظاهر أنه من الاختلاف المباح[٤] .

٥ ـ المعتدَّة لا تحج ولا تعتمر في مدة عِدَّتها، ولا تبيت عند أهلها:

المعتدَّة لا تبيتُ خارج بيتها ، لذا فإن عثمان كان يُرجِعهن إلى بيوتهن وإن كنَّ أنشأن النُّسك[٥] .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥٩٠٦)، وعلَّق البخاري طرفاً منه : الفتح : ٣/ ٦٧٩ .

(٢) الفتح : ٣/ ٥٧٤ ، شرح الحديث (١٠٠٢) .

(٣) أخرجه ابن ماجه (١١٨٣) ، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط .

(٤) الفتح : ٣/ ٥٧٤ .

(٥) مصنف عبد الرزاق (١٢٠٧١)؛ وابن أبي شيبة : ٤/ ١٢٩ .

وعن يوسف بن ماهَك ، عن أمه مُسَيكة : (أن امرأة متوفًّى عنها زوجُها زارت أهلها في عدَّتها ، وضَرَبَها الطَّلْق ، فأتوا عثمانَ فسألوه ، فقال : احملوها إلى بيتها وهي تَطْلق)[1] .

٦ ـ الإفراد بالحج أفضل:

كان عثمان في خلافته يوجِّه الناسَ إلى إفراد الحج وتركِ التمتع والقِران ، وذلك ليكون لكل من الحج والعمرة نُسك مستقلٌّ ، ولا يُلزِم الناسَ بذلك[2] .

٧ ـ اجتماع صلاتي العيد والجمعة:

قال أبو عُبيد مولى ابن أزهر : (شهدتُ العيدَ مع عثمان بن عفان ، وكان ذلك يومَ الجمعة ، فصلَّى قبل الخطبة ، ثم خطب فقال : يا أيها الناس ، إنَّ هذا يومٌ قد اجتمع لكم فيه عيدان ، فمن أَحَبَّ أن ينتظرَ الجمعة من أهل العوالي فلينتظرْ ، ومن أحبّ أن يرجعَ فقد أَذِنْتُ له)[3] .

٨ ـ في الرضاعة:

عن الزهري قال : (جاءت امرأة سوداء في إمارة عثمان إلى أهل ثلاثة أبيات قد تناكحوا ، فقالت : أنتم بَنيّ وبَناتي ! ففرَّق عثمان بينهم)[4] .

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٢٠٦٧)؛ وابن أبي شيبة : ٤/ ١٣١ .
(٢) البخاري (١٥٦٣)؛ ومسلم (١٢٢٣)؛ والنسائي في الكبرى (٣٦٨٨)؛ وأحمد (٧٠٧) .
(٣) البخاري (٥٥٧٢)؛ والموطأ : ١/ ١٧٩ .
(٤) مصنف عبد الرزاق (١٣٩٦٩) و(١٣٩٧٠) .

٩ ـ طلاق المريض مرض الموت:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: (أن عبد الرحمن بن عوف طَلَّق امرأتَهُ البتَّةَ وهو مريضٌ، فوَرَّثَها عثمانُ بن عفان منه، بعد انقضاءِ عدَّتها)[١].

والباعث على الحكم هو معاملةُ الزوج بنقيضِ قصدِه، لأنه بطلاقه في مرض الموت يُعتبر فارّاً من توريث زوجته[٢].

١٠ ـ طلاق السكران:

كان عثمان يرى أن كل ما يتكلَّم به السكران فهو هَدْر: فلا يَصحّ طلاقُه، ولا تصح عقودُه، ولا فُسوخه، ولا إقراره[٣].

١١ ـ الحَجْر على المُفلِس:

ذهب عثمان إلى جواز الحَجْر على المُفلس، ويقتسم الدائنون مالَه بِنسب ديونهم، وإذا وجد بعضُ دائنيه سلعتَه التي باعه إياها بعينِها عنده؛ فهو أحق بها من غيره[٤].

عن سعيد بن المسيِّب قال: (أَفْلَس مولى لأم حَبيبة زوج النبي ﷺ، فاختُصِم فيه إلى عثمان، فقضَى عثمانُ أن من كان اقتضى من حقه شيئاً

---

(١) موطأ مالك: ٢/ ٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي، للخضري، ص ١١٨.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٤/ ٢٤؛ تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ص٥٠٨ ـ ٥٠٩؛ الفتح: ١٢/ ٦٧؛ مجموع الفتاوى: ٣٣/ ١٠٢.

(٤) موسوعة فقه عثمان، ص ١١٩.

قبل أن يتبين إفلاسُه فهو له ، ومَن عَرف متاعَه بعينِه فهو أحقُّ به)[١].

والأخبار في هذا الباب كثيرة ، وحسبنا من ذلك ما قدمناه.

رابعاً: نشره العلم:

لم يتصدَّر عثمانُ لنشر العلم مثلما تصدر له أكابر علماء الصحابة كالعبادلة وأبي هريرة وأنس وزيد بن ثابت وغيرهم ، لأنه في غالب أوقاته كان مشغولاً بأمور الدولة في عهد أبي بكر وعمر ، ثم بشؤون الخلافة ـ وما أكثرها ـ عندما أضحى أميراً للمؤمنين.

غير أنه بثَّ ما عنده من علم في مناسبات كثيرة ، عند أدائه للعبادات وقيامه بمناسك الحج وفي مجالسه وخطبه ومناقشاته للصحابة والناس وتوجيهاته للأمة وسؤالاتهم له.

●● اعتنى بضبط وضوء النبي ﷺ ، وحدَّث به الناسَ في غير موقف ، وأراهم عمليّاً كيفيته تماماً كما توضأ ﷺ ، ثم حدثهم بما يُسنُّ من الصلاة بعده.

عن حُمران بن أبان ، عن عثمان بن عفان: (أنه دعا بماء فتوضأ ، ومَضْمَض واستنشق ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ، وذراعيه ثلاثاً ثلاثاً ، ومسح برأسه ، وظَهْر قدميه ، ثم ضحك ، فقال لأصحابه: ألا تسألوني عمَّا أضحكني؟ فقالوا: ممَّ ضحكتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ دعا بماء قريباً من هذه البقعة ، فتوضأ كما توضأت ، ثم ضحك فقال: «**ألا تسألوني ما أَضْحَكَني؟**» فقالوا: ما أضحكك

---

(١) علقه البخاري ، ووصله أبو عبيد في «الأموال» والبيهقي. انظر: الفتح: ٦/٥٠٢ـ٥٠٣.

يا رسول الله؟ فقال: «**إن العبد إذا دعا بوَضُوء فغَسَل وجهه حَطَّ الله عنه كلَّ خطيئة أصابها بوجهه، فإذا غسل ذراعيه كان كذلك، وإن مسح برأسه كان كذلك، وإن طهَّر قدميه كان كذلك**»)[1].

وعن عروة بن الزبير، عن حُمْران مولى عثمان قال: (سمعت عثمانَ بن عفان وهو بفِنَاءِ المسجد، فجاءه المؤذِّنُ عند العصر، فدعا بوَضُوء فتوضأ، ثم قال: والله لأُحَدِّثَنَّكم حديثاً لولا آيةٌ في كتاب الله ما حدَّثْتُكم، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا يتوضأُ رجلٌ مسلم فيُحسِنُ الوُضوءَ، فيصلي صلاة، إلا غَفر الله له ما بينه وبين الصلاة التي تليها**».

قال عروة: الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩])[2].

●● وكان يحدث الناس في المسجد بين الصلوات، ويعلمهم أحكام العبادات وآدابها في وقت أدائها.

عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرة قال: (دخل عثمان بن عفان المسجد بعد صلاة المغرب، فقعد وحده، فقعدتُ إليه، فقال: يا ابن أخي، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَن صلَّى العشاءَ في جماعةٍ فكأنما قامَ**

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٥)، وصححه أحمد شاكر.

(٢) أخرجه البخاري (١٦٠)؛ ومسلم (٢٢٧)، وغيرهما. وانظر رواية أخرى في مسند أحمد (٥١٣).

نِصفَ الليل ، ومن صلَّى الصبحَ في جماعة فكأنما صلى الليلَ كلَّه»)[1].

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: (كنتُ أصلي ، فمرَّ رجلٌ بين يديَّ فمنعتُه ، فأبَى ، فسألتُ عثمانَ بن عفان ، فقال: لا يَضرُّك يا ابن أخي)[2].

وعن أبي عُبيد مولى عبد الرحمن بن أَزْهر قال: (رأيتُ عليّاً وعثمان يصلِّيان يومَ الفِطر والأضحى ، ثم ينصرفان يذكِّران الناس. وسمعتُهما يقولان: إن رسول الله ﷺ نَهى عن صيام هذين اليومين)[3].

●● وكان عثمان من أتمِّ الناس حديثاً ، يهاب التحديث ويتحرَّى في الرواية خشية الزيادة أو النقص في ألفاظ الحديث ، ويحضُّ الناسَ على الاحتياط في الرواية عن النبي ﷺ ، ويبين لهم أنه إنما يحدِّث خروجاً من عُهدة كتمان العلم.

عن عبد الرحمن بن حاطب قال: (ما رأيتُ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدَّث أتمَّ حديثاً ولا أحسنَ من عثمان بن عفان ، إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث)[4].

وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: (ما يَمنعُني أن أُحدِّث عن رسول الله ﷺ أن لا أكونَ أوعَى أصحابه

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٦)؛ وأبو داود (٥٥٥)؛ والترمذي (٢١٩) ، وغيرهم.
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٥٢٣)، وصححه أحمد شاكر.
(٣) أخرجه أحمد (٤٣٥) و(٥١٠) ، وصححه أحمد شاكر.
(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٧.

عنه ، ولكني أشهدُ لَسَمعتُه يقول: «**مَن قال علَيَّ ما لم أقُلْ فَلْيَتَبوَّأْ مقعدَه من النار**»[(١)].

وعن أبي صالح مولى عثمان قال: سمعتُ عثمانَ وهو على المِنْبر يقول: (إني كَتمتُكم حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ كراهيةَ تفرُّقِكم عنِّي ، ثم بَدَا لي أن أُحَدِّثَكُمُوه ليختارَ امرؤٌ لنفسِه ما بَدَا له ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**رِباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من ألفِ يومٍ فيما سواه مِن المَنازِلِ**»)[(٢)].

وفي رواية: أنه حَدَّث الناس بذلك في (مسجد الخَيْف بمِنًى)[(٣)].

خامساً: من أقواله وحكمه:

لم يُؤْثَر عن عثمان من الأقوال والحِكَم مثلما جاء عن عمر وعلي رضي الله عنهم ، بَيْدَ أنه فاضَ من قلبه وروحه بكلمات رقيقة وأمثال رائعة تعبر عن ربانيته وشمائله الرفيعة ، ومن ذلك:

ـ لو أن قلوبنا طَهُرت ما شبِعْنا من كلام ربنا ، وإني لأكره أن يأتي علَيَّ يومٌ لا أنظر في المصحف[(٤)].

ـ أربعةٌ ظاهرهنَّ فضيلة وباطِنُهنَّ فريضة: مخالطةُ الصالحين فضيلة والاقتداءُ بهم فريضة ، وتلاوةُ القرآن فضيلة والعمل به فريضة ، وزيارةُ

---

(١) أخرجه أحمد (٤٦٩) ، وصححه أحمد شاكر.
(٢) أخرجه الترمذي (١٧٦٢)؛ وابن ماجه (٢٧٦٦)؛ وأحمد (٤٤٢) ، وغيرهم ، وحسنه الترمذي ، والألباني وشعيب الأرنؤوط.
(٣) صحيح ابن حبان (٤٦٠٩).
(٤) البداية والنهاية: ٧/ ٢١٥.

القبور فضيلة والاستعداد للموت فريضة ، وعيادةُ المريض فضيلة واتخاذ الوصية فريضة[1] .

ـ ما أَسرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفَلَتات لسانه[2] .

ـ إن المؤمن في خمسة أنواع من الخوف : أحدها من قِبَل الله تعالى أن يأخذ منه الإيمان ، والثاني من قِبل الحَفَظَة أن يكتبوا عليه ما يُفتضح به يوم القيامة ، والثالث من قِبل الشيطان أن يُبطِل عملَه ، والرابع من قِبل مَلَك الموت أن يأخذَه في غفلةٍ بغتةً ، والخامس من قِبل الدنيا أن يغترَّ بها وتَشغله عن الآخرة[3] .

ـ إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن[4] .

ـ هَمُّ الدنيا ظُلمة في القلب ، وهَمُّ الآخرة نورٌ في القلب[5] .

سادساً: من خطبه:

رويت عن ذي النورين خُطب كثيرة قالها في مناسبات متعددة ، ويجري في هذا الميدان كتبه التي وجَّهها إلى الأمراء والقادة والجند وعامة المسلمين. وجميع ما جاء عنه يتسم بالسهولة والوضوح والبُعد عن التقعر ، شأنه في هذا شأن ذلك الجيل الذي ينأى عن حوشي الكلام

---

(١) فرائد الكلام للخلفاء الكرام ، ص ٢٧٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .
(٤) الكامل في اللغة والأدب : ١/ ١٥٧ .
(٥) الاستعداد ليوم المعاد ، ص ٩ .

والسجع الممقوت ، بل كانت عباراتهم تأتي عفوَ الخاطر رقراقة واضحة معبرة محببة تفهمها العامة .

ـ عن الحسن البصري : أن عثمان بن عفان خطب الناس ، فحمدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال : (أيها الناس ، اتقوا الله فإن تقوى الله غُنْم ، وإنَّ أكيسَ الناس مَن دانَ نفسه وعمل لِما بعد الموت ، واكتسب من نور الله نوراً لظلمة القبر ، ولْيَخْشَ عبدٌ أن يحشرَه الله أعمى وقد كان بصيراً . وقد يكفي الحكيمَ جوامعُ الكَلِم ، والأصمُّ يُـنادَى من مكان بعيد . واعلموا أن من كان الله معه لم يَخَفْ شيئاً ، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده؟!)[1] .

ـ وعن بدر بن عثمان الأُموي مولى عثمان ، عن عمِّه قال : آخِر خطبة خطبها عثمان في جماعة قال : (إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يُعطِكُموها لتركَنُوا إليها ؛ إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى ، فلا تُبطِرَّنكم الفانية ولا تَشْغلنَّـكم عن الباقية ، فآثِروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وإن المصير إلى الله . اتقوا الله جلَّ وعزَّ ، فإن تقواه جُنَّة من بأسه ، ووسيلةٌ عنده ، واحذروا من الله الغِيَر ، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً ، ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣])[2] .

ـ وعن مجاهد قال : خطب عثمان فقال في خطبته : (ابنَ آدم ، اعلَمْ أن مَلَك الموت الذي وُكِّلَ بك لم يَزَل يُخلِّفك ، ويتخطَّى إلى غيرك منذ

---

(١) البداية والنهاية : ٧/ ٢١٥ ؛ حياة الصحابة : ٣/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣ ؛ البداية والنهاية : ٧/ ٢١٦ .

أنت في الدنيا ، وكأنه قد تخطَّى غيرَك إليك وقَصَدَك؛ فَخُذْ حِذْرَك واستعدَّ له ، ولا تغفُل فإنه لا يَغفُل عنك! واعلم ابنَ آدم إنْ غَفَلتَ عن نفسك ولم تستعدَّ لها لم يستعدَّ لها غيرُك ، ولابد من لقاء الله ، فخُذْ لنفسك ، ولا تَـكِلْها إلى غيرك ، والسلام)[١].

وعن عباد بن زاهر قال: سمعت عثمان يخطب فقال: (إنَّا والله قد صَحِبْنا رسولَ الله ﷺ في السفر والحضر ، وكان يعودُ مرضانا ، ويَـتْبع جنائزنا ، ويغزو معنا ، ويواسينا بالقليل والكثير ، وإن ناساً يُعْلموني به عسى أن لا يكون أحدُهم رآه قط!)[٢].

وستأتي نماذج أخرى عند الحديث عن خلافته وفتوحاته وكتبه للولاة والقادة.

* * *

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٢١٦؛ حياة الصحابة: ٣/ ٤٥٤.
(٢) مسند أحمد (٥٠٤).

الفصل الثاني

عبادته

كان عثمان بن عفان واحداً من صفوة الصفوة المختارة من صحابة نبينا ﷺ ، ممن جَمع بين العلم والعمل والصيام والتهجد والإنفاق والجهاد في سبيل الله وصلة الأرحام ، فكان من القانتين بآيات الله آناء الليل ساجداً يحذَر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وما مات حتى خرَّق مصحفَه من كثرة تلاوته ، واستشهد وقد انساح دمه الطاهر على قوله تعالى : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] .

أولاً: صلاته:

من نافلة القول أن نذكر في سيرة عثمان أنه كان ملازماً لصلاة الجماعة طيلة أيامه المباركة مع النبي ﷺ ، ثم في عهد الشيخين ، وبعدها في سني خلافته ، حتى إن عمر قد عاتبه على المنبر لأنه تأخَّر ذات مرة عن صلاة الجمعة وقد دخل وقتها .

ولقد كانت الصلاة بالليل والتهجد بالقرآن سلوة نفسه ومتعة روحه ، ويزاحم العُبَّاد على الصلاة عند الحجر الأسود فيُحيي الليلَ كله بركعة يختم فيها القرآن! وما ذَهَلَ عن تلك الساعات حتى في أحرج الأوقات حيث المجرمون القتلة يحاصرون داره ويتهددون حياته .

●● عن مالك بن أبي عامر: (أن عثمان بن عفان كان يقول في خُطْبته ـ قَلَّ ما يَدَعُ ذلك إذا خَطَب ـ: إذا قام الإمام يَخطُب يومَ الجمعة فاستمِعوا وأنصِتوا، فإن للمنصتِ الذي لا يسمعُ من الحظِّ مثلَ ما للمنصِتِ السامع، فإذا قامت الصلاة فاعْدِلوا الصفوفَ وحاذُوا بالمناكب، فإن اعتدال الصفوف من تمام الصلاة.

ثم لا يُكبِّر حتى يأتيَهُ رجالٌ قد وَكَّلَهم بتسويةِ الصفوف، فيُخْبِرونه أنْ قد استوتْ، فيُكبِّر)[1].

ورُوي عن عثمان أنه كان يقرأُ في العشاء بسُوَرٍ من أوساط المُفَصَّل، نحو سورةِ المنافقون وأشباهِها[2].

●● وكان عثمان في تهجُّده وقيامه الليل وخشوعه وتبتُّله من طراز فذ، يعبِّر عنه الصحابي الورع النبيل عبد الله بن عمر فيقول: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، قال: هو عثمان بن عفان[3].

وعن الزبير بن عبد الله القرشي مولى عثمان، عن جدَّته رُهَيْمة خادم عثمان قالت: (كان عثمان يصومُ الدهرَ، ويقومُ الليلَ إلا هَجْعَةً من أوله)[4].

---

(١) موطأ مالك: ١/ ١٠٤، وإسناده صحيح.
(٢) سنن الترمذي: ١/ ٣٦٦، عقب الحديث (٣٠٩). **المُفصَّل**: من سورة ﴿قٓ﴾ إلى آخر المصحف الشريف.
(٣) الحلية: ١/ ٥٦؛ صفة الصفوة: ١/ ٣٠٧.
(٤) الحلية: ١/ ٥٦؛ الزهد، لأحمد (٦٨٩)؛ المطالب العالية: ٤/ ٥١.

وعن عطاء بن أبي رباح: (أن عثمان بن عفان صلى بالناس، ثم قام خلف المَقَام فجَمعَ كتابَ الله في ركعة كانت وِتْرَهُ، فَسُمِّيَت البُتَيْراءَ!)[1].

وعن السائب بن يزيد: (أن رجلاً سأل عبد الرحمن بن عثمان التَّيْمِي عن صلاة طلحة بن عُبيد الله؟ فقال: إنْ شئتَ أخبرتُك عن صلاة عثمان رضي الله عنه؟ فقال: نعم، قال: قلتُ: لأَغلِبنَّ الليلةَ على المَقَام، فقمتُ، فلما قمتُ إذا أنا برجل مُقَنَّع يَزْحَمُني، فنظرتُ فإذا عثمان بن عفان، وهو خليفة، فتأخَّرتُ عنه، فصلى، فإذا هو يسجدُ سجودَ القرآن، حتى إذا قلتُ: هذه هَوادي الفجر، أوتر بركعةٍ لم يصلِّ غيرَها)[2].

قال ابن كثير: (وقد رُوي هذا من غير وجه أنه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحج، وقد كان هذا من دَأْبه رضي الله عنه)[3].

ويؤيد قولَ ابن كثير ما رواه محمد بن سيرين قال: (لمّا أَطَافوا بعثمان

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٦؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٦٧. **والمقام**: هو مقام إبراهيم.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٥ ـ ٧٦؛ الحلية: ١/ ٥٦ ـ ٥٧؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٦٦ ـ ١٦٧؛ فضائل القرآن، لابن كثير، وقال: هذا إسناد صحيح، وصححه الذهبي في «تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين»، ص ٤٧٦؛ والحافظ في الفتح: ٣/ ٥٦٠، شرح الحديث (٩٩٠).

(٣) البداية والنهاية: ٧/ ٢١٥.

يريدون قَتْلَه ، قالت امرأته : إنْ تقتلوه أو تَدَعُوه ، فقد كان يُحيي الليلَ بركعةٍ يَجمعُ فيها القرآن)[1] .

●● وبَلَغ عثمان في حبِّه للصلاة وأُنْسه بها ، أنه لمَّا شَدَّد المجرمون القتلة الحصار عليه ، ودخلوا من الباب ومن الجدران؛ فَزِع هو إلى الصلاة وافتتح سورة ﴿طه﴾ فقرأها ، والناس في أمر عظيم ، قد احترق الباب والسقيفة التي عنده ، وخافوا أن يصل الحريق إلى بيت المال ، ثم فرغ عثمان من صلاته ، وجلس وبين يديه المصحف وهو يتلو هذه الآية : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣][2] .

ويشير شاعر الرسالة حسان بن ثابت إلى ذلك فيقول :

ضَحَّوا بأشمطَ عنوانُ السجودِ به ... يُقطِّعَ الليلَ تسبيحاً وقرآنا[3]

ثانياً: صومه:

تقدم قول خادمه رُهَيْمة : كان عثمان يصوم الدهر .

وعن الشَّعبي قال : (لقيَ مسروق الأشتَرَ النَّخَعيَّ ، فقال مسروق للأشتر : قتلتم عثمانَ؟! قال : نعم! قال : أَمَا والله لقد قتلتموه صوَّاماً قوَّاماً)[4] .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣/ ٧٦؛ مختصر ابن عساكر : ١٦/ ١٦٧؛ فضائل القرآن ، لابن كثير ، ص ٨٠ ، وقال : حسن.

(٢) البداية والنهاية : ٧/ ١٨٨ .

(٣) المرجع السابق : ٧/ ٢١٥ .

(٤) الحلية : ١/ ٥٧؛ مجمع الزوائد : ٩/ ٩٤ .

واستُشهد وهو صائم رضوان الله عليه.

عن نافع قال: (أصبح عثمان بن عفان يومَ قُتِل يقصُّ رؤيا على أصحابه رآها، فقال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ البارحة، فقال لي: «**يا عثمانُ أَفْطِرْ عندنا**». قال: فأصبح صائماً، وقُتِل في ذلك اليوم رحمه الله)[1].

ثالثاً: حجه:

حج ذو النورين أزيدَ من اثنتي عشرة حجّةً، اقتفى فيها هَدْي رسول الله ﷺ حيث حج معه حجة الوداع وأخذ عنه المناسك، ولازَمَ ذلك في أيام خلافته ونشره بين الناس عندما أقام لهم حجَّهم.

عن عبد الرحمن بن يزيد قال: (حَجَجْنا مع ابنِ مسعود في خلافة عثمان، فلما وَقَفْنا بعَرَفةَ، فلما غابتِ الشمسُ قال ابن مسعود: لو أنَّ أميرَ المؤمنين أفاضَ الآن كان قد أصابَ (السُّنَّةَ). قال: فلا أدري كلمةُ ابن مسعود كانت أسرعَ أو إفاضةُ عثمان!)[2].

وحج في عهد عمر، ومن ذلك: أن الفاروق أمره أن يحج هو وعبد الرحمن بن عوف بأمهات المؤمنين[3].

وفي خلافته حج عشرَ حِجج، فقد استَقبل الخلافة سنة (٢٤هـ) فأَمَّر على الحج عامئذٍ عبدَ الرحمن بنَ عوف، ثم حجَّ أميرُ المؤمنين عثمان عشر سنين ولاءً من سنة (٢٥هـ) إلى سنة (٣٤هـ)، وفي سنة (٣٥هـ)

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٤ ـ ٧٥، وانظر: مسند أحمد (٥٢٦). وهو حديث صحيح روي من وجوه، سيأتي تفصيله في (فصل استشهاده).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٨٣)؛ وأحمد: ١/ ٤١٠، وغيرهما.

(٣) انظر ما سيأتي: ص ١٥٧ ـ ١٥٨ في هذا الكتاب.

عندما حوصِر من قِبل الخوارج السبئية؛ أَمَّر على الحج عبدَ الله بنَ عباس[1].

وحج بأزواج رسول الله ﷺ كما كان يصنع عمر[2].

رابعاً: تلاوته القرآن العظيم:

وكان عثمان تلّاءً لكتاب الله تعالى ، لا يُفارقه في خَلْوته أو جَلْوته ، يديم النظر فيه ، ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، ويتهجّد به في جوف الليل.

عن الحسن البصري قال: (قال عثمان: إني لأكره أن يأتي عليَّ يومٌ لا أنظرُ في المصحف. وما مات عثمان حتى خَرَّق مصحفَه من كثرة ما يديم النظر فيه)[3].

وقالت زوجته نائلة: والله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة.

وقد صَحَّ من وجوه أنه عندما حُوصِر يوم الدار ، واقتحم المجرمون عليه بيتَه ، لم يَغفُل عن تلاوة القرآن ، (ودَعَا بمصحفٍ فنَشَره بين يديه ، فقُتِل وهو بين يديه!)[4].

* * *

---

(١) التاريخ الأوسط: ١/ ١١٠؛ التاريخ الكبير: ٦/ ٢٠٩؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٧.

(٣) البداية والنهاية: ٧/ ٢١٥.

(٤) مسند أحمد من زيادات عبد الله (٥٢٦).

الفصل الثالث

شمائله وأخلاقه

الكلمةُ الجامعة في أخلاق عثمان يعبِّر عنها أدقَّ تعبيرٍ وأصدقَه وأشملَه وأعمقَه قولُ النبي ﷺ مخاطباً ابنتَهُ رقيَّة وهو يوصيها بزوجها: «**أكْرِميه؛ فإنه من أشبه أصحابي بي خُلُقاً**»[1].

ورسول الله ﷺ مَنْ لا يَبلغ أحدٌ صفتَه؛ فقد زكَّاه الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، ووصفَتْه الصديقة الطاهرة عائشة بقولها: (كان خُلقه القرآن)! فعثمان قبسٌ مشرق ونفحةٌ عليا من هذه الآية وهذا الحديث.

ويَشرح ذلك ويوضِّحه ويبيِّنُه قولُ عثمان عن نفسه، اعترافاً بفضل الله عليه، وإقامةً للحجَّة على الخوارج السبئيين وغيرِهم ممن حاصروه ثم قتلوه ـ قال رضي الله عنه:

(اختبأتُ عند ربي عَشْراً: إني رابعُ أربعةٍ في الإسلام، ولقد أنكحني رسول الله ﷺ ابنته، ثم توفِّيتْ فأنكحني ابنتَه الأُخرى، وما زَنيتُ، ولا سرقتُ في جاهلية ولا إسلام، ولا تغنَّيتُ، ولا تمنَّيتُ منذ أسلمتُ، ولا مَسَسْتُ فرجي بيميني منذُ بايعتُ رسولَ الله ﷺ، ولقد

---

(١) حديث صحيح، تقدم: ص ٥٧ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

جمعتُ القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، ولا أتَتْ علَيَّ جمعةٌ إلا وأنا أُعتِق فيها رقبةً منذ أسلمت ، إلا أن لا أجدَها في تلك الجمعة فأجمعُها في الجمعة الثانية)[١] .

ويُضيء عبد الله بن عمر جانباً آخر ، فيقول: (ثلاثةٌ من قريش: أصبحُ الناس وجوهاً ، وأحسنُها أخلاقاً ، وأثبتُها حياءً؛ إنْ حدَّثُوك لم يَكْذِبوك ، وإنْ حدَّثْتَهم لم يُكَذِّبوك: أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح)[٢] .

وتقول أم المؤمنين عائشة: (كان عثمان أتقاهم للربِّ ، وأحصنَهم للفَرْج ، وأوصلَهم للرَّحِم)[٣] .

أولاً: حياؤه:

أشهر خلائق عثمان وأحلاها تلك الصفة النبيلة التي زيَّنَه الله تعالى بها ، فكانت فيه منبعَ الخير والبركة ، ومصدرَ العطف والرحمة ، وهي خَليقة الحياء ، و«**الحياءُ من الإيمان**» و«**الحياء خيرٌ كله**» و«**الحياء لا يأتي إلا بخير**» كما قال النبي ﷺ! .

وكان هذا الخُلق أشدَّ أخلاقِ عثمان تمكُّناً من نفسه ، وقد تأصَّل في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٧/ ٤٩٢؛ والفسوي: ٢/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩؛ وابن أبي عاصم (١٣٠٨)؛ والطبراني (١٢٤) ، وغيرهم ، وفيه ضعف. وانظر: المطالب العالية: ٤/ ٥٠ ـ ٥١؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١١٧؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٨١ . **تغنيت**: من الغناء. **تمنيت**: كذبت.

(٢) الحلية: ١/ ٥٦ . **أصبحُ**: رجلٌ صَبِيح: جميلٌ وَضيءُ الوجْه.

(٣) فضائل الصحابة ، لأحمد (٧٣٤)؛ ومصنف ابن أبي شيبة: ٧/ ٤٨٨ ، وإسناده صحيح.

كيانه فكان مُمعِناً في الأصالة ، ودائماً ممعِناً في الديمومة ، لذا فقد أشاد الرسول ﷺ بهذا (الحياء العثماني) فقال: «**أَرْحَمُ أمتي بأمتي أبو بكر ، وأَشدُّهم في أمرِ الله عمر ، وأَصْدَقُهم حياءً عثمانُ بن عفان . . .**»[1].

وقال النبي ﷺ: «**إنَّ أشدَّ هذه الأمةِ بعدَ نبيِّها حياءً عثمانُ**»[2].

ولقد وُصِف رسولُ الله ﷺ بأنه: (كان أشدَّ حياءً من العَذْراءِ في خِدْرِها)[3].

وتلك العبارات النبوية الصادقة تصوِّر لنا كل أبعاد ذلك الحياء بمعانيه الإسلامية ، وكما تجلَّت في حياة عثمان وسيرته العطرة[4].

وبلَغ حياؤه درجة عجيبة يحدِّث عنها الحسن البصري وقد ذَكَر عثمان وشدَّة حيائه فقال: (إنْ كان ليكونُ في البيت والباب عليه مغلق فما يَضَع عنه الثوب ليفيض عليه الماء ، يمنعُه الحياء أن يقيم صُلْبَه)[5].

ولم يمسَّ فَرْجَه بيمينه منذ بايع النبي ﷺ ، ولمّا حاصره الخوارج المجرمون (دعا بسراويلَ فشَدَّها عليه ، ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام)[6]؛ خشية أن تنكشف عورته! .

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه الترمذي وغيره ، وسيأتي: ص ١٤٠ في هذا الكتاب.
(٢) صحيح الجامع الصغير (١٥٦٤).
(٣) البخاري (٣٥٦٢)؛ ومسلم (٢٣٢٠).
(٤) انظر: الفصل التالي ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ في هذا الكتاب.
(٥) مسند أحمد (٥٤٣)؛ الحلية: ١/ ٥٦ ، وصححه أحمد شاكر.
(٦) مسند أحمد (٥٢٦) ، وصححه أحمد شاكر.

ثانياً: سخاؤه وكرمه:

وأما سخاءُ عثمان وكرمه وجودُه فذلك بحرٌ لا ساحلَ له؛ فلقد أنفق مالَه يميناً وشمالاً في سبيل الله ، حتى لقد غطى كرمُه ـ مع حيائه ـ على باقي خصاله الكريمة ، وسجاياه النبيلة ، ولقد تنازل لإسلامه وهجرته عن ماله الفياض ، فبذله بغير حساب. فكان رضي الله عنه أجودَ الأمة وأسخاها ، ولو ذهبنا نبحث عن رجل مثل عثمان في بذله العريض ، وعطائه المفيض؛ لعزَّ علينا أن نجدَ له مثيلاً ونظيراً.

وقد تحدثنا عن نفقاته الواسعة في عصر الرسالة ، ونشير هنا إلى جوانب أخرى تكمل الصورة عن هذه السجيَّة الأصيلة في شخصية ذي النورين ، فسخاءُ النفس ونداوةُ اليد أوسعُ دائرة من بذل المال وإنفاقه في بناء الدولة وإرفاد عموم المسلمين.

روى موسى بن طلحة قال: (كان لعثمان على طلحة بن عُبيد الله ـ وكان من أجواد الإسلام ـ خمسون ألفاً ، فخرج عثمان يوماً من المسجد ، فقال له طلحة: قد تهيَّأَ مالُكَ فاقبِضْه ، قال: هو لك يا أبا محمد معونةً لك على مروءتك!)[1].

وروى ابن عساكر حادثة طريفة جاء فيها: (ابتاع عثمان بن عفان حائطاً من رجل ، فساوَمَه حتى قاومه على الثَّمن الذي رضي به البائع ، فقال: أرِنا يدَكَ ، قال: وكانوا لا يستوجِبون البيعَ إلا بالصَّفْقة ، فلما رأى ذلك الرجل قال: لا أبيعُك حتى تزيدَني عشرة آلاف! فالتفت عثمان إلى عبد الرحمن بن عوف وقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٠٥؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢١٦.

الله عز وجل أَدْخَلَ الجنةَ رجلًا كان سَمْحاً بائعاً ومبتاعاً ، قاضياً ومُقتضِياً» ، اذهَبْ فقد زدتُك العشرةَ آلاف لأستوجبَ بها هذه الكلمة التي سمعتُها من رسول الله ﷺ)[1].

ومن بارعِ الأخبار في ذلك ما يرويه حَبْر الأمة عبد الله بن عباس فيقول: (قَحَطَ المطر على عهد أبي بكر الصديق ، فاجتمع الناس إلى أبي بكر فقالوا: السماء لم تمطر ، والأرض لم تُنبِت ، والناس في شدة شديدة. فقال أبو بكر: انصرفوا واصبروا ، فإنكم لا تُمْسُون حتى يُفرج الله الكريم عنكم.

قال: فما لبثنا أن جاء أُجَراء عثمان من الشام ، فجاءته مئة راحلة بُرّاً ـ أو قال: طعاماً ـ فاجتمع الناس إلى باب عثمان ، فقرعوا عليه الباب ، فخرجِ إليهم عثمان في ملأ من الناس وفقال: ما تشاؤون؟ قالوا: الزمانُ قد قَحَطَ: السماء لا تمطر ، والأرض لا تُنبت ، والناس في شدة شديدة ، وقد بَلَغَنا أن عندك طعاماً ، فبِعْنا حتى نوسِّعَ على فقراء المسلمين. فقال عثمان: حبّاً وكرامة ، ادخلوا فاشتروا.

فدخل التجار ، فإذا الطعام موضوع في دار عثمان ، فقال: يا معشرَ التجار ، كم تُربحونني على شرائي من الشام؟ قالوا: للعشرة اثنا عشر ، قال عثمان: قد زادوني. قالوا: للعشرة أربعةَ عشر ، قال عثمان: قد زادوني. قالوا: للعشرة خمسة عشر ، قال عثمان: قد زادوني. قال التجار: يا أبا عَمْرو ، ما بقي بالمدينة تجارٌ غيرنا فمن زادك؟! قال: زادني الله تبارك وتعالى بكل درهم عشرةً ، أعندكم زيادة؟ قالوا: اللهم

---

(١) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٦٦. و**الحائط**: البستان.

لا. قال: فإني أُشْهِد اللهَ أني قد جعلتُ هذا الطعام صدقةً على فقراء المسلمين!.

قال ابن عباس: فرأيتُ من ليلتي رسولَ الله ﷺ في المنام، وهو على بِرْذَوْن أَبْلَق، عليه حُلَّة من نور، في رجليه نعلان من نور، وبيده قصبة من نور، وهو مستعجل، فقلتُ: يا رسول الله، قد اشتدَّ شوقي إليك وإلى كلامك، فأين تُبادِر؟ قال: يا ابن عباس، إن عثمان قد تصدَّق بصدقةٍ، وإن الله قد قبِلَها منه وزوَّجه عروساً في الجنة، وقد دُعينا إلى عرسه!)[1].

وكان واسع البِرّ دائمَ الصِّلة والبذل لأقاربه وذوي رحمه وعامة المسلمين، حرَّر من الأرقاء والعبيد المئات؛ وقال في ذلك رضي الله عنه: (ولا أَتَتْ علَيَّ جمعةٌ إلا وأنا أُعْتِق فيها رقبةً منذ أسلمتُ، إلا أن لا أجدَها في تلك الجمعة فأجمعُها في الجمعة الثانية)[2].

ولو أردنا تقريبَ الرقم إلى الأذهان نقول: إن عثمان أسلم في أول الدعوة وعمرها بمكة (١٣ سنة)، وعاش بعد الهجرة (٣٥ سنة)، فهذه (٤٨ سنة) عاشها في الإسلام، والسنة فيها (٥٠ أسبوعاً)، فيكون جملة ما أَعتقه عثمان: ٤٨ × ٥٠= ٢٤٠٠ نفس!.

وثبت عنه أنه أعتق أيام حصاره (٢٠ مملوكاً).

فما أحوجَ أممَ الإسلام في أيامنا إلى هذه العظمة العثمانية، وإلى

---

(١) الرقة والبكاء، لابن قدامة، ص١٨٩ ـ ١٩٠؛ الرياض النضرة: ٣/ ٤٣ ـ ٤٤.
البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل. **الأبلق**: الذي فيه سواد وبياض.

(٢) تقدم: ص ١٠٨ ـ ١٠٩ في هذا الكتاب.

نفحة من روح ذي النورين رضي الله عنه تسري بينهم تعاطفاً ومؤاساة وبرّاً وإحساناً.

ثالثاً: تواضعه:

وأُسعِدت خلائق عثمان بخَصْلة هي أندرُ في أبناء النعمة من خصال السخاء والجود، فقد يهون على الكثيرين من أصحاب الثراء والجاه أن يتجردوا من بعض أموالهم، ولا يهون عليهم أن يتجردوا من كبريائهم وتعاليهم على نظرائهم فضلاً عمن هم دونهم.

أما عثمان فكان ابنَ الإسلام الذي صاغ شخصيتَه ونمَّى ملكاته، فكان في تواضعه يُصارع كرمه وسخاءَه، ويزداد عجبُنا أن نرى هذه الخصلة في عثمانٍ وهو أمير المؤمنين.

عن أبي عثمان النَّهْدي: (أن غلامَ المغيرة بن شعبة تزوج، فأرسل إلى عثمان وهو أمير المؤمنين، فلما جاء قال: أما إني صائم، غيرَ أني أحببتُ أن أُجيب الدعوة وأدعو بالبركة)[1].

وعن ميمون بن مِهْران قال: أخبرني الهَمْداني: (أنه رأى عثمانَ بن عفان على بغلة وخَلْفه عليها غلامه نائل، وهو خليفة)[2].

وقال الحسن البصري: (رأيتُ عثمان نائماً في المسجد، ورداؤه تحت رأسه، فيجيءُ الرجل فيجلسُ إليه، ثم يجيء الرجل فيجلس

---

(١) علَّقه البخاري قبل الحديث (٧١٧٣)؛ ووصله أحمد في الزهد (٦٩٠)؛ وصححه الحافظ في الفتح: ١٦/ ٥٤٠.
(٢) الزهد، لأحمد (٦٧٢)؛ الحلية: ١/ ٦٠.

إليه ، ويجيء الرجل فيجلس إليه كأنَّه أحدُهم)[١].

وعن يونس بن عُبيد: أن الحسن البصري سُئل عن القائلين في المسجد ، فقال: (رأيتُ عثمانَ بن عفان يَـقيل في المسجد وهو يومئذٍ خليفة ، ويقوم وأَثَر الحَصْبَاء في جَنْبه ، فنقول: هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين!)[٢].

رابعاً: زهـده:

الزهد خَلَّة كامنة في النفس ، وقوة داخلية ناهضة ، تنبعث من ضمير صاحبها وقلبه ، وتظهر على أعماله وتصرفاته ومعاملاته وحياته بين أهله وفي مجتمعه ، وتُضْفِي عليه صفات جميلة ، وتتعالى به عن أن يَغرق في حمأة النعيم ويَعُبَّ من الشهوات المباحة ، فيقضي بها معظم حياته ، وتكون مَشغلةً له في معظم أوقاته ، وتَصْرِفه عن معالي الأمور في خاصة نفسه وشؤون أمته!.

ولقد كان من جميل شمائل عثمان زهدُه في نعيم الدنيا ومتاعها ومناعمها ، فهو مع ثروته العملاقة وتجارته الواسعة وجاهِه الرفيع ومنزلتِه السامقة؛ كان يأكل الطعام البسيط ، ويلبس الثياب الرخيصة ، وينام على الفراش المتواضع. وفي الوقت نفسه يبذل الأطعمة والأموال والخيرات للناس ليعيشوا في رغد من الحياة.

وهذا هو الزهد الإسلامي الحق ، لا زهدَ المُقِلِّين الكُسالى الذين

---

(١) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٦٣.
(٢) الزهد ، لأحمد (٦٧٥)؛ والحلية: ١/ ٦٠. **القائلين**: من القَيْلُولة وهي نومة نصف النهار.

قَعَدتْ هِمَمُهم عن العمل الجاد وتثمير الأموال وتوجيهها وجهتها الحقيقية ، وأَلِفُوا المَسْكنة ، وأَوَوْا إلى الزوايا وقالوا : نحن زهاد! فما هذا من الزهد في شيء .

●● عن حُميد بن نُعيم : (أن عمر وعثمان دُعيا إلى طعام ، فلما خرجا قال عثمان لعمر : قد شهدنا طعاماً لوَدِدْنا أنا لم نشهدْه ، قال : لِمَ؟ قال : إني أخاف أن يكون صُنع مباهاة)[1] .

وعن شُرَحْبيل بن مُسْلم : (أن عثمان بن عفان كان يُطْعِم الناسَ طعامَ الإمارة ، ويدخل إلى بيته فيأكلُ الخَلَّ والزيت)[2] .

وقال ابن سعيد بن يَرْبوع المخزومي : (انطلقتُ وأنا غلام في الظَّهيرة ومعي طيرٌ أرسله من المسجد ، والمسجد يُبنى ، فإذا شيخٌ جميلٌ حسنُ الوجه نائم ، تحت رأسه لَبِنَة أو بعضُ لَبِنة . . . فقلتُ لأَبي ، فقال : ذاك أمير المؤمنين عثمان)[3] .

●● عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : (رأيتُ عثمانَ بن عفان يومَ الجمعة على المنبر ، عليه إزارٌ عَدَني غليظٌ ثمنُه أربعة دراهم أو خمسة دراهم ، ورَيْطة كوفية مُمَشَّقة)[4] .

---

(١) الزهد ، لأحمد (٦٦٩) .
(٢) الزهد ، لأحمد (٦٨٤)؛ الحلية : ١/ ٦٠ .
(٣) مختصر ابن عساكر : ١٦/ ١٦٥ ، والخبر طويل سيأتي بتمامه : ص ٣٢٧ في هذا الكتاب .
(٤) المعرفة والتاريخ : ٣/ ٣٩٩؛ ، والحلية : ١/ ٦٠ ، وعزاه الهيثمي في (مجمع الزوائد : ٩/ ٨٠) للطبراني وقال : إسناده حسن . **رَيْطة** : مُلاءة . **ممشَّقة** : مصبوغة بالمَشْق وهو الطين الأحمر .

وقال الحسن البصري: (رأيتُ عثمانَ نائماً في المسجد في مِلْحفة ليس حوله أحد ، وهو أمير المؤمنين!)[1].

وربما لَبِس الثياب الفاخرة أحياناً؛ يتجمَّل بها ، ويسرُّ أزواجَه ، ويُظهِر نِعم الله عليه ، ويستقبل الوفود والأعيان ، ويَقطع ألسنة بعض مَنْ يظنون أن مسلكه في الزهد هو ضَرْبٌ من البخل والضنِّ بالمال والإنفاق.

عن أبي عامر سُلَيم بن عامر قال: (رأيتُ على عثمان بن عفان بُرْداً يَمانيّاً ثمنَ مئةِ درهم).

وقال محمد بن ربيعة بن الحارث: (كان أصحابُ رسول الله ﷺ يُوسعون على نسائهم في اللباس الذي يُصَان ويُتَجمَّلُ به. ثم يقول: رأيتُ على عثمان مِطْرفَ خَزٍّ ثمنَ مئتي درهم ، فقال: هذا لنائلة كسوتُها إياه ، فأنا ألبَسُه أَسُرُّها به)[2].

خامساً: الرأفة والرحمة وصلة الأرحام:

وهذه الخِصال واضحة بارزة في شخصية عثمان وأعماله ، مع أخصائه وأقاربه وأرحامه وعامة المسلمين ، بل حتى مع أعدائه الذين خرجوا عليه.

روت خادمه رُهَيْمة قالت: (ما كان عثمان يوقظ أحداً من أهله من الليل إلا أن يجدَه يقظانَ فيدعوه فيناوله وَضُوءَه)[3].

---

(١) فضائل الصحابة ، لأحمد (٨٠٠)؛ والحلية: ١/ ٦٠ ، وإسناده حسن.

(٢) أخرجهما ابن سعد: ٣/ ٥٨. **مِطْرف**: ثوب من خَزّ مربَّع ذو أعلام. **والخَزُّ**: ثياب تُنسج من صوف وحرير.

(٣) الزهد ، لأحمد (٦٧٠)؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٦٧. **الوَضُوء**: الماء يُتوضأ به.

وكان يقوم من الليل فيأخذ وَضُوءَه ، فقالت له امرأة من أهله : يا أمير المؤمنين ، لو أيقظتَ بعض الخَدم فناوَلَك وَضُوءَك! فقال : لا ، الليل لهم يستريحون فيه[1] .

وقال علي بن أبي طالب : (كان عثمانُ أتقانا للربِّ وأوصلَنا للرَّحِم)[2] .

وقالت مثله أم المؤمنين عائشة[3] .

ولقد شملَتْ رأفتُه ورحمتُه وتسامحه أولئك الشراذمَ الذين خرجوا عليه ، ثم زحفوا إليه فحاصروه ، فنَشَر عليهم كَنَف عطفِه ورحمته ، ولم يُحارِبْهم ولا نكَّلَ بهم ، ولم يأذَنْ لأحد أن يسفك قطرة من دمائهم! .

سادساً: خشيته ورقته:

وتتواءم هذه الخَصْلة وتتكامل مع خلائق الرأفة والرحمة والزهد والتواضع والحياء ، فتكوِّن تلك النفس الحانية الرقيقة ، ذات العَبْرة الحاضرة ، والدمعة الغزيرة .

عن هانئ مولى عثمان قال : (كان عثمان بن عفان إذا وقف على قبرٍ بَكَى حتى يَبُلَّ لحيتَهُ ، فقيل له : تذكُر الجنةَ والنارَ ولا تبكي ، وتبكي من هذا؟! قال : إن رسول الله ﷺ قال : «**إنَّ القبرَ أولُ منازلِ الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسَرُ منه ، وإنْ لم ينجُ منه فما بعدَهُ أشدُّ منه**» . وقال

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣/ ٦٠ ؛ مختصر ابن عساكر : ١٦/ ١٦٧ .

(٢) الزهد ، لأحمد (٦٨٢) ؛ ابن عساكر ، ص٤٨٠ ؛ مختصره : ١٦/ ٢٥٧ .

(٣) تقدم ص ١٠٩ حاشية (٣) في هذا الكتاب .

رسول الله ﷺ: «**ما رأيتُ منظراً قطُّ إلا والقبرُ أفظَعُ منه**»[1].

وعن عبد الله بن الرومي قال: بَلَغني أن عثمان قال: (لو أنِّي بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتهما يُؤْمَر بي، لاخترتُ أن أكونَ رماداً قبل أن أَعلم إلى أيتهما أصير!)[2].

سابعاً: ورعه ومتابعته السُّنَّة:

ويُضْفِي ورعُ عثمان وتقواه أَلَقاً ناصعاً على أخلاقه وشمائله، ويتمثل ذلك باقتدائه بالأسوة العظمى، واستعصامِه بهدي النبوة.

عن عطاء بن فَرُّوخ: (أن عثمان اشترى من رجل أرضاً، فأبطأَ عليه، فلقيه فقال له: ما مَنَعَك من قبضِ مالِك؟ قال: إنك غَبَنْتَني، فما أَلقى من الناس أحداً إلا وهو يلومُني! قال: أَوَذلك يمنعُك؟ قال: نعم، قال: فاختَرْ بين أرضك ومالِك! ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَدْخَل اللهُ عز وجل الجنةَ رجلاً كان سَهْلاً مشترياً وبائعاً، وقاضياً ومُقتضياً**»)[3].

وفي قصة الحُديبية عندما بعثه النبي ﷺ سفيراً إلى قريش، فقال له عظماء قريش بعد أن فرغ من أداء مهمته: إنْ شئتَ أن تطوف بالبيت فَطُفْ، فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوفَ به رسول الله ﷺ[4]!.

وعن سَلَمة بن الأَكْوع قال: (بعث النبي ﷺ عثمانَ بن عفان إلى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦١)؛ وابن ماجه (٤٢٦٧)؛ وأحمد (٤٥٤)، وقال الترمذي: حسن غريب، وصححه أحمد شاكر.

(٢) الزهد، لأحمد (٦٨٧)؛ والحلية: ١/ ٦٠.

(٣) أخرجه أحمد (٤١٠)، وصححه أحمد شاكر.

(٤) تقدم: ص ٦٧ في هذا الكتاب.

مكة ، فأجاره أَبَان بنُ سعيد بن العاص ، وحمله على سَرْجه وردفه حتى قدِمَ به مكة ، فقال: يا ابنَ عمِّ ، أراك متخشِّعاً! أَسْبِلْ إزارَكَ كما يُسْبِلُ قومك ، قال: هكذا يأتزرُ صاحبُنا إلى أنصاف ساقيه. قال: يا ابنَ عمٍّ ، طُفْ بالبيت ، قال: إنا لا نصنع شيئاً حتى يصنعَ صاحبُنا ونتبعَ أَثَره!)[1].

وعن أبان بن عثمان ، عن عثمان: (أنه رأى جنازةً فقام إليها ، وقال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ رأى جنازةً فقام لها)[2].

بل إنه حاكى رسولَ الله ﷺ في كيفية وضوئه ثم ضحك وقال لأصحابه: (أَلَا تسألُوني عمَّا أَضْحَكني؟ فقالوا: ممَّ ضحكتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ دعا بماء قريباً من هذه البقعة ، فتوضأ كما توضأتُ ، ثم ضحِك)[3].

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ ٤٦١. صاحبنا: يعني النبي ﷺ.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند (٤٢٦) ، وصححه أحمد شاكر.

(٣) تقدم: ص ٩٥ ـ ٩٦ في هذا الكتاب.

الفصل الرابع

مكونات شخصيته

كانت شخصية عثمان أعظمَ مظهر للإنسانية النبيلة في أسمى جوانبها وأصفى خصائصها ، فهي الرحمة مجسَّمة ، وهي الإخلاص بشراً سويّاً ، وهي الحبُّ للخير في أعمِّ نواحيه حيّاً ناطقاً ، تجسَّمت فيه مجموعةُ مبادئ إنسانية سامية تمثل أروعَ جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة[1].

وقد تعاضدتْ وتساندت وتكاملت عدَّةُ مقومات أصيلة في بناء شخصيته وسيرورة سيرته طيلة حياته كلها وفي مختلِف أطوارها ، وبرزَتْ عدة خصائص ومزايا غَلبتْ عليه وفجَّرت طاقاته ووجَّهتْ أعمالَه وأفعاله . وتجلَّى ذلك في الحياء بمعانيه الرفيعة النبيلة ، والحِلم ، والسماحة ، والعفو والصفح ، والرحمة واللِّين ، والسخاء النادر ، والشجاعة والصبر ، والحزم والإرادة القوية ، والخبرة الطويلة العميقة بمنهج النبوة وطريقة الشيخين قبله ، والعلم العميق بحقائق الإسلام ومبادئه وأهدافه .

وبعض هذه الخصائص قد تبدو متعارضة فيما بينها ، لكنها كانت في شخصية عثمان وحياته متسقة متكاملة ، لكلٍّ منها مجالُه ووقتُه وطريقته ، وهو معها يَصدر من فقه الواقع وتقلبات الأحوال وتغيُّر الزمان .

---

(١) عثمان بن عفان؛ للصادق عرجون ، ص ٥٣ ، ١٠١ .

أولاً: الحياء:

وهي صفة بارزة في شخصية عثمان ، بل هي أبرزُ خصائصه وأجلُّ مكوناته وموجِّهات حياته وسيرته ، حتى أشادَ بها الرسول ﷺ فقال: **«وأصدقُهم حياء عثمان»**.

والحياءُ خلقٌ عظيم يبعث على اجتناب القبيح ، ويمنع التقصيرَ في حق ذي الحق ، ويَشحذُ النفس على فعل الطاعات ، ويحجزها عن ارتكاب المعاصي والمنكرات ، ويسابق بصاحبه لفعل كل خير ، وينأى به عن مهاوي الشبهات. ولمثل هذه المعاني يشير قول النبي ﷺ: **«الحياء خيرٌ كله»** ، **«الحياء لا يأتي إلا بخير»**.

والحياء غريزيٌّ ومكتسَب ، وكان رسول الله ﷺ قد جُمع له النوعان ، فكان في الغريزي أشدَّ حياء من العذراء في خِدْرها ، وكان في الحياء المكتسَب في الذروة العليا[1].

وكذلك عثمان رضي الله عنه قد جُمع له النوعان: الحياء الغريزي والحياء المكتسب ، بتزكية النبي ﷺ ونصِّه على ذلك ، وبشهادات الواقع وسيرة عثمان الناصعة.

على هذه المعاني الرحبة للحياء جُبِل عثمان وتربَّى وعاش ، وبمثلِ تلك الأبعاد النبيلة ذهبتْ روحُه الطاهرة تؤدي أعمالَها على أوسع نطاق؛ فلقد كان الحياءُ في نفسه طاقة هائلة موَّارة تسيطر على شخصيته أجمع ، وتقود فضائله في بوتقتها.

---

(١) فتح الباري: ١/ ١٦١ (٢٤) ، ١٣/ ٦٤٢ (٦١١٩)؛ فتح الملهم: ١/ ٤٠٨ ـ ٤١٠ ؛ وتكملته: ٤/ ٣١٣.

فهو يوم عَرض النبي ﷺ دعوته عليه ، استحيى من نفسه أن يزيِّف قناعاته الباطنة ؛ فأسرع وأجاب مؤمناً مصدِّقاً.

ولمَّا تكالَبَ المشركون على الدعوة ، قاده حياؤه للتضحية بالثراء والأهل والديار والوطن ، فهبَّ للهجرة ، لِينعَمَ بالأمن ، ويحافظ على إيمانه من الفتن ، واستحيى أن يسبقه للهجرة الضعاف والعبيد ممن آمن بالله ورسوله.

وإذا دعا داعي الجهاد نأى به حياؤه عن أن يقعدَ في بيته ويتقاعسَ عن نصرة الحق ؛ فلبَّى النداء ، وألقى بنفسه في ساحات المعارك.

وعندما يسمع النبيَّ ﷺ يحضُّ على النفقة ، وتجهيز جيش العُسْرة ، يأبى عليه حياؤه أن يضنَّ بالمال ، واستحيى من ربه سبحانه أن يراه والأموال بين يديه متزاحمة ، وغيره يشكو المَسْغَبة ؛ فيبذل المال سخيّاً في سبيل الله.

ولما استُخلِف ازداد حياؤه تأججاً وتألُّقاً ؛ كالغصن الرطيب ، زاده الغيث نضرة واخضراراً.

فإذا ولَّى قائداً أو أمَّر والياً تخيَّر أفضَلَ الناس رأياً ، وأعظَمَهم شجاعةً ، وأكثرهم عوائدَ وفوائد للمسلمين ، واستحيى من الله سبحانه أن يراه قد استعمل رجلاً على المسلمين وفيهم من هو خير منه وأعظم فائدة.

وإذا انتُهك حدٌّ من حدود الله ، ألحَّ عليه حياؤه من الله أن لا يراه متباطئاً في تنفيذ حدوده ، وإمضاء أوامره ، فأسرع ولبى.

وحتى حين حاصره الخوارج البُغاة ، وأرادوه على خَلْع سِرْبال

الخلافة؛ أبى عليهم أشدَّ الإباء ، لأن النبي ﷺ أمره أن لا يخلع نفسَه ، فاستحيى أن يعصي رسول الله ﷺ ، ولو كان ثمن ذلك إزهاق نفسه.

وحياؤه حجزه عن سفك دماء أولئك السبئيين المجرمين ، خشيةَ أن يكون فيهم مغرَّر به مخدوعٌ ، فآثَرَ أن لا يُريق قطرة دم قد يُسأل عنها أمام الله ، وأن لا يُراق بسببه مِحْجَمةٌ من دم.

هذا هو الحياء في مفهوم الإسلام ، وهذا هو حياء عثمان في نفسه وأعماله وسيرته طيلة حياته المباركة ، لا ما يتخيَّله المرجفون والقاصرون من أنه لِينٌ وضعفٌ وعجزٌ وانكسارُ نفس! ولو كان كذلك لمَا امتدحه الرسول ﷺ ، بل ما كان ليكون من جملة الشمائل النبوية الشريفة[١]!.

ثانياً: السماحة:

السماحة: تعني السهولة في الخُلق والمساهلة في المعاملة ، ومجانبةَ الشدة والتعقيد ، وعدمَ المضايقة والتعنيف ، والاتساعَ في العطاء ، والجود عن كرم وسخاء[٢].

فهي في الجملة والمعنى العام تعني: لِينَ الجانب ، والتبسطَ للناس ، وتسهيلَ أمور حياتهم ، وتفكيكَ العقد والمشكلات ، ورفْعَ العَنَت والإصْر عنهم ، وحملَهم على المساهلة والليونة في القول والفعل والمعاش ، ما لم يكن في ذلك إثمٌ أو عدوان أو انفلاتٌ من الواجبات ، فيما يَهمُّ الفردَ والجماعة والدين والدولة.

وهذه الصفة الجليلة كانت بارزة في عثمان ، وكان إلى الطِّيْبَة

---

(١) انظر: كتابي «الخلفاء الراشدون» ، ص٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٢) لسان العرب: ٢/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

والسماحة أقربَ منه إلى صفات البأس والصرامة. وهي لا تعني الليونة والاستكانة والاستضعاف إلا عند أصحاب الهوى والنفوس المريضة؛ فالسماحة قوة لا يَضْطلع بها طبعٌ ضعيف! والمسامحةُ والمساهلة واتساعُ الصدر للمخطئين، والبذل السخي المادي والأدبي لهم، وحلُّ العقد، وتجنُّبُ المضايقة والإعنات ـ كلها أعمال ضخام لا يَـقْدر عليها إلا ذوو الهمم الكبيرة ممن جُبلت أنفسُهم على السماحة والإغضاء عن الهفوات والأخطاء والزلات.

وقد (كان رسول الله ﷺ رجلاً سَهْلاً)[1]، سَمْحاً كريماً ما انتقم لنفسه قطُّ، وحملَ الناسَ على السماحة والسهولة، فقال: **«أَلا أُخْبِرُكم بمن يَحْرُمُ على النار، وبمن تَحْرُمُ عليه النارُ؟: على كلِّ قريبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ»**[2].

فعثمان في هذه الميزة قبسٌ من نور النبوة وهدي الإسلام.

ثالثاً: الحِلم والأناة:

الحِلْم: ضبطُ النفس والطبع عن هَيَجان الغضب، والأَناةُ والتثبتُ في الأمور، وذلك من شعار العقلاء، وهو نقيض السَّفَه[3].

وقد امتدح الحق سبحانه إبراهيمَ عليه السلام فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

---

(١) صحيح مسلم (١٢١٣) (١٣٧).
(٢) الترمذي (٢٦٥٦) وقال: حسن غريب؛ وصححه ابن حبان (٤٦٩) و(٤٧٠).
(٣) المفردات، للراغب؛ النهاية في غريب الحديث؛ لسان العرب.

وقال رسول الله ﷺ لأَشَجِّ عبد القيس: «**إنَّ فيك خَصْلَتَيْن يُحِبُّهما الله: الحِلْمُ والأَناةُ**»[1].

وقد تأصَّلتْ هذه الصفة في شخصية عثمان، وفاضت ثمراتُها على أقواله وأفعاله ومواقفه، وشهدتْ أيامُ حياته مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ومع أهله؛ أصدقَ دليل على حِلْمه وأناته وضبطه نفسَه وبُعْدِه عن الشطط والسّفَه.

وفي أيام خلافته برزت هذه الخَصِيصَة في أوج سموِّها، كما تجلى ذلك في مواقفِه من الفتن الجائحة، وتثبُّـتِه من الشائعات والأكاذيب التي روَّجَ لها السبئيون وأتباعهم، وحلْمِه على الرعية وبخاصة الذين أثاروا الشغب على الولاة.

وتوَّجَ ذلك بضبط النفس الذي لا مزيد عليه وهم يزوِّرون الكتب ويختلِقون الفِرى، ثم يُحاصرونه ويتهدَّدُونه بخَلْع نفسه من الخلافة أو قتله! فما خانه حلمُه، ولا اضطربت أناتُه، ولا ارتكب أدنى أعمال السفهاء، بل كان حليماً وقوراً ثابتاً راسخاً حتى آخر لحظة من حياته.

رابعاً: العفو والصفح:

وهذه الميزة كسابقاتها أصيلة في نفس عثمان، راسخة في ضميره، دائمة في أعماله، مستمرة معه طيلة حياته؛ حينما كان واحداً من المسلمين أو مستشاراً للشيخين أو أميراً للمؤمنين. وهي خَلَّة كريمة

---

(١) صحيح مسلم (١٧) (٢٥).

يتصف بها الرجال الكرام من أصحاب الهمم العالية والشمائل الحميدة ، ولا يقدر عليها الضعفاء والوضعاء.

يروي عمران بن عبد الله بن طلحة: (أن عثمان رضي الله عنه خرج لصلاة الغداة ، فدخل من الباب الذي كان يَدخل منه ، فزَحَمه الباب ، فقال: انظروا! فنظروا ، فإذا رجل معه خِنجر أو سيف ، فقال له عثمان رضي الله عنه: ما هذا؟ قال: أردتُ أن أقتلَكَ ، قال: سبحان الله ، ويحكَ علامَ تقتُلني؟! قال: ظلمني عامِلُك باليمن ، قال: أفلا رفعتَ ظُلَامتَك إليَّ؛ فإنْ لم أُنصِفْك أو أُعدِيك على عاملي أردتَ ذاك مني! فقال لمن حوله: ما تقولون؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين ، عدوٌّ أمكنك الله منه. فقال: عبدٌ هَمَّ بذنبٍ فكَفَّه الله عني ، آتني بمن يكفُل بك: لا تدخل المدينة ما وليتُ أمرَ المسلمين. فأتاه برجلٍ من قومه فكَفَل به ، فخلَّى عنه.

قال عمران: فوالله ما ضَرَبه سوطاً ، ولا حَبَسه يوماً!)[١].

ولمَّا أثار السبئيُّون الفتن وأجّجوا الرَّعَاعَ على عثمان ، وسَعَوا إليه ليخلعوه ، استشار الصحابة فيهم ، وسمع منهم ، ثم قال: (كَفْكِفوا الناسَ ، وهَبُوا لهم حقوقهم ، واغتفِروا لهم ، وإذا تُعوطيت حقوقُ الله فلا تُدْهِنوا فيها)[٢].

وعندما جاؤوا يَدَّعون عليه أشياءَ غيَّر فيها وبدَّل وخالفَ السنةَ وهدْيَ الشيخين بزعمهم ، أقام عليهم الحُجَّة ، وبيَّنَ لهم بطلانَ دعاويهم ،

---

(١) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٣/ ١٢٠٧ ـ ١٠٢٨.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٣.

وبَثَّ فيهم من جاء له بخبرهم على حقيقته ، ثم قال : (اللهم سلِّمْ هؤلاء ، فإنك إنْ لم تُسلِّمْهم شَقُوا) .

ولما أشار الصحابة عليه بقَتْل موقدي الفتنة ، قال : (بل نعفو ونقبل ، ونبصِّرهم بجهدنا ، ولا نُحادّ أحداً حتى يركب حدّاً ، أو يُبدي كفراً)[1] .

وشواهد ذلك كثيرة ستأتي عند الحديث عن خلافته واستشهاده .

خامساً: الرحمة واللين:

وهذه الصفة من لوازم المؤمن وخصاله الحميدة ، وهي في الحاكم والقائد والأمير والمسؤول آكَدُ وجوباً وأهمُّ وجوداً. ولقد امتن الله سبحانه على نبيه ﷺ بأن جَبَله على هذه الخصلة ، ووصفه بأنه ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وامتنَّ على المؤمنين بأن أَرسل إليهم نبي الرحمة : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وهذه الخَصِيصَة في ذي النورين تتكامل مع سابقاتها لتُنجب رجلاً عظيماً يَخلُف النبيَّ ﷺ في أمته ، ويقود دولة مترامية الأطراف متنوعة الأعراق ، ويَسُوسها باللين والمرحمة ، ويبذل لها نفسه وراحته ، وكذلك ولاتُه وأمراؤه ، حتى لقد لامَهُ بعضُ الصحابة في اللِّين مثلما لامُوا عمر بنَ الخطاب في الشدة ، فقال عمرو بن العاص له : (أرى أنك قد لِنْتَ لهم ، وتراخيتَ عنهم ، وزِدْتَهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى

(١) تاريخ الطبري : ٤/٣٤٦ .

أن تَلزم طريقة صاحبيك فتشتدَّ في موضع الشدة ، وتلينَ في موضع اللين. . .). فقال عثمان: (إن هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائنٌ ، وإن بابَه الذي يُغلَق عليه فيُكفكَف به: اللِّينُ والمؤاتاة والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى ذِكْره. . .)[1].

وشملت رحمته الأمة كلها حتى آخر لحظات حياته ، حيث ضحَّى بنفسه وأبى أن يُراق بسببه مِحْجَمةٌ من دم! .

سادساً: السخاء الفياض:

وهذه الخصلة النبيلة من أركان بناء شخصية عثمان ، فلقد كان مضرب المثل في الكرم والجود والسخاء والعطاء طيلة حياته ، ما خرم من ذلك ساعة ، فهي صفة قائمة به وهو قائم بها. يجود على أقاربه من حُرِّ مالِه ، وعلى الرعية من ماله ومن بيت مال المسلمين ، لا يَضنُّ بشيء في شدة ولا رخاء ، ولا عسر أو يسر.

وقد تقدم ذكر شواهد كثيرة على هذه المزية ، وستأتي دلائل أخرى.

سابعاً وثامناً: الشجاعة والصبر:

الشجاعة والصبر صفتان متلازمتان ، ويشير إلى ذلك قول سعد بن معاذ رضي الله عنه للرسول ﷺ وهم على مشارف غزوة بدر: (إنَّا لَصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء).

وهاتان الصفتان كانتا في عثمان مضربَ المَثَل ، وليست الشجاعة مقتصرة على المخاطرة في ساحات المعارك ، بل هي أصناف وأنواع ،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

وإن كانت هذه لا تنقص عثمان رضي الله عنه: فقد أعلن إسلامه وغامر بنفسه وجاهه ومكانته في مطالع الدعوة ، وقريشٌ قد رمت المسلمين عن قوس واحدة. وهاجر مع زوجه إلى الحبشة لا يأبه المخاطرَ المحدقة. وشهد مع النبي ﷺ حروبه وغزواته. وقام بالسِّفَارة للنبي ﷺ أيام الحديبية ودخل مكة وهي تموج برؤوس الشرك.

ولما آلَت الخلافة إليه أبان مَعْدِنُه النفيس عن شجاعة نادرة لا يمتلكها إلا ذو الأيد والقوة من الرجال ، فتلقى صدماتٍ لم يتعرض الفاروق عمر لأخطرَ منها في جميع أيامه(١): منها انتقاضُ الروم والخَزَر على أطراف الدولة ، وانتقاضُ بعض الأمصار القَصِيَّة ، ثم تألُّبُ الفتّانين من السَّبَئِيِّين وأتباعِهم على ولاته ، ثم عليه؛ فواجَهَ كل الأحداث بجرأة وثبات ورباطة جأش وشجاعة حتى الرمق الأخير.

وصبر في أيام خلافته صبراً فَلَّ كلَّ الجهود والمؤامرات التي حِيكت ضده ، وسارت إليه في دار خلافته ، فحاصرتْه ثم قتلَتْه ، فما ارتاع لها ، ولا هزَّت منه شعرة ، وبقي صابراً على العهد الذي عاهد عليه رسولَ الله ﷺ عندما بشَّره بالجنة على بلوى تصيبه ، فقال: (اللهُ المستعان ، أصبرُ وأحتسبُ) ، وعندما أُحيط به في داره والموت يتهدده قال: (إن رسول الله ﷺ عَهِد إليَّ عهداً وأنا صابرٌ عليه)(٢).

لقد احتشدت قوى الخوارج المتألِّبين عليه ، وأحاطوا بسيوفهم بداره ، وتجمَّع ببابه كثير من أبطال الصحابة وأبنائهم من المهاجرين

---

(١) انظر: عبقرية عثمان ، ص٥٨ ـ ٥٩.

(٢) سيأتي تفصيل ذلك في (فصل استشهاده).

والأنصار ليدافعوا عنه ، فأبى وقال : عزمتُ على من كانت لي عليه طاعة ألا يُـقاتِل ، لا حاجةَ لي في هَرَاقة الدماء ، إنما تُراد نفسي ، وسأقي المسلمين بنفسي ! .

(ليت شِعري أيةُ شجاعة نفسية ، وأيُّ صبر يطلبه الناس وراء هذا؟ !

إذا كانت الشجاعة هي ضبط النفس عند النوازل في غير قلق ، والصبر على المكاره من غير جَزَع ، ومصابرة الحوادث في غير سأم ، والثبات لجِسام الأحداث بلا تزعزع ـ فلم تنفرج الوالدات عن مثل عثمان في شجاعته ورباطة جأشه ، وقوة يقينه وثباته على رأيه ؛ فإن أحداً من الناس في مِثل حال عثمان وشأنه لم يلقَ ما لقي عثمان ولا شيئاً منه ، ولم يصبر أحدٌ على ما لقي من البلاء والمحنة مثل ما صبر عثمان! وكيف بصبرٍ ينتهي بصاحبه ـ على علم منه وبصيرة ـ إلى الموت قتلاً؟ ! وكان له لو كان جَزوعاً ، وأراد ألا يصبرَ عن يقين ورضا مخارجُ يَـنْفُذ منها ، ويعيش في خفضٍ من العيش الذليل . ولكن عثمان رضي الله عنه لم يكن ضعيفاً ولا مُستضعَفاً ـ كما يزعم القاصرون المقصِّرون ـ بل كان قويَّ الإيمان ، عظيمَ اليقين ، كبيرَ النفس ، عبقريَّ الشجاعة ، نبيلَ الصبر ، نفَّاذَ البصيرة ، ففدى الأمة بنفسه ، ووضع لها بذلك أعظمَ قواعد النظام في تكوينها الاجتماعي .

أما إذا كانت الشجاعة سفكاً للدماء ، وتقتيلاً للأبرياء ، ونَهْباً للأعمار ، وسلباً للأموال ، وإرعاباً للآمنين ظلماً وعدواناً ؛ فليست هذه الشجاعة من عثمان في شيء ، وليس منها عثمان في شيء ؛ لأنه كان من الخلفاء الراشدين الذين اصطفاهم الله بعد خاتم النبيين محمد ﷺ ، ليوطِّدوا في الإنسانية دعائمَ العدل والرحمة ، ويَسنُّوا بالناس سنن الهداية

والرشاد ، وليتأسَّى بهم قادة الإصلاح ودعاة الخير ، وزعماء الأمة الإسلامية في كل عصر ومصر)[1].

تاسعاً: الحزم والعزم والإرادة القوية:

وهذه الميزة في مكونات شخصية عثمان تلتقي مع سابقتها في مجالات كثيرة لقاء اتفاق وتعاضد ومساندة ، لصياغةِ شخصيةٍ متسقة متزنة متكاملة ثابتة تمضي إلى غاياتها قُدُماً بلا تلكؤ ولا تردُّد ولا اضطراب.

وقد وصفه بهذه الخَصْلة رجل من أخبر الناس بكفاءات الرجال ، ذلكم هو أبو بكر الصديق عندما دعاه إلى الإسلام فقال: (يا عثمانُ ، إنك رجلٌ حازم ما يخفَى عليك الحق من الباطل).

وفي مسيرة حياة عثمان منذ إسلامه إلى استشهاده شواهد كثيرة رائعة على حزمه وعزمه وقوة إرادته ، (ولم يكن عهدٌ من عهود سيرته يخلو من عمل يدل على قوة نفس ، ومناعة خُلق ، وثباتٍ لا يتزعزع أمام الهول والخطر)[2].

ترى ذلك في جميع أطوار حياته منذ إسلامه وطيلة عصر الرسالة ، وعهد الشيخين ، وحتى سنوات خلافته جميعها.

وترى الحزم والعزم والإرادة القوية في متابعة الولاة ، وإقامة الحدود ، وإدارة شؤون الرعية ، وتسيير حركة الجيوش والفتوحات ، ومقاومة حركات الانتقاض ، وإنشاء البحرية الإسلامية لاقتحام

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٩١ ـ ٩٢.
(٢) عبقرية عثمان ، ص٥٨.

المعارك البحرية ، ومواقفه الفذة في سني الفتنة التي اجتاحت الدولة ، وأيام الحصار ، وصلابته الباهرة مع الخوارج المجرمين ، وتمسكه بعهد النبي ﷺ إليه ألا يَخلع سِرْبال الخلافة ، وحزمه التام مع الرجال الأبطال الذين أرادوا الدفاع عنه مع أن سيوف الغدر تتهدده بسفك دمه! .

عاشراً: الخبرة الطويلة العميقة بمنهج الحكم قبله:

وهي ميزة مكتسَبة تكونت نواتـها ونمتْ خصائصُها في مدة من الزمـان تقارب ربعَ قرن ، في دولة النبوة بالمدينة ، ثم في عهد أبي بكر وعمر ، حيث كان وزيرَ صدقٍ ومستشاراً في الصف الأول لهما .

وقد وظَّف هذه الخبرة في إدارة شؤون الدولة والأمة في عهده ، وسار على هَدْي مَن سبقه ، وقال غداة استلامـه منصب الخلافـة ، موجِّهاً أوامره إلى الولاة وأمراء الأجنـاد: (أما بعدُ؛ فإنكم حماةُ المسلمين وذادَتُهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يَغِبْ عنَّا ، بل كان عن ملأ منا . ولا يبلغنِّي عن أحدٍ منكم تغييرٌ ولا تبديـل فيغيِّر الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم؛ فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه ، والقيام عليه)[1] .

وقد قدّمنا شواهدَ كثيرة على ملازمته السُّنَّـة في أعماله وجميع أحواله ، وشهدتْ معظمُ سِني خلافته أنه سار على هدي عمر ، وما تغيَّر الحال إلا عندما غيَّر الرَّعَاعُ الهدى والخير وتـبرَّموا بالعدل والرحمة ، وجَنَوْا على الإسلام والعباد والبلاد! .

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٥ .

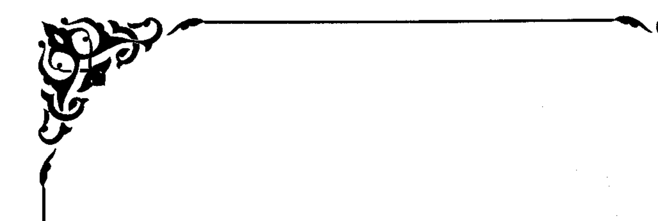
حادي عشر: العلم العميق الشمولي بحقائق الإسلام ومبادئه وأهدافه وغاياته:

ولقد كان عثمان من كبار علماء الصحابة ، إماماً حافظاً لكتاب الله ، محدثاً فقيهاً مجتهداً ، عالماً بهدي النبوة ودقائق السيرة الطاهرة ، خبيراً بمعالم التنزيل وحقائق الإسلام وركائزه الكبرى والمحاور التي قامت بها ولها دعوتُه ، تامَّ الإدراك للغايات والأهداف النبيلة التي دعا القرآن إليها وحقَّقَها الرسول ﷺ على أتم وجه طيلة عمر الرسالة .

وميزة (العلم) من أخصِّ خصائص الحاكم ، وأخطرِ صفاته وأجلِّها ، حتى يقود الأمة على بصيرة ، لتحقيق الغايات الكبرى التي تُناط بالخليفة والدولة ومؤسساتها والقائمين عليها .

هذه حقائق بارزة ، وبينات واضحة ، وركائز ضرورية هامة؛ تبيِّن خصائصَ عثمان ومزاياه ومكوناتِ شخصيته؛ لإقامة البراهين الساطعة على أهليته التامة لمنصب الخلافة العظمى ، ولتكون مرتكزات ثابتة نُحاكِم إليها كثيراً من الأحداث التي جَرَتْ في أيام خلافته ، ونستبين منها افتراءَ ذوي الأهواء ممن يتهمون عثمان بالتقصير أو القصور أو الضعف أو المداهنة أو التفريط في حق نفسه ودينه وأمته! .

* * *



الباب الرابع

منزلة عثمان ومناقبه

- المبشَّر بالجنة على بلوى تصيبه .
- فضائله ومناقبه ومكانته عند النبي ﷺ .
- مكانته عند الصحابة والتابعين وعامة المسلمين .

* * *



الفصل الأول

المبشَّر بالجنة على بلوى تصيبه

ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (كنتُ مع النبي ﷺ في حائطٍ من حيطان المدينة ، فجاء رجلٌ فاسْتَفْتَحَ ، فقال النبي ﷺ: **«افْتَحْ لـه وبَشِّـرْهُ بالجنَّـة»**، ففتحتُ لـه ، فـإذا أبو بكر ، فبشَّرْتُـه بما قـال رسول الله ﷺ، فحمدَ اللهَ. ثم جاء رجلٌ فاستَفْتَح ، فقال النبي ﷺ: **«افْتَحْ له وبَشِّرْهُ بالجنةِ»** ، ففتحتُ له ، فإذا هو عمر ، فأخبرتُه بما قال النبي ﷺ ، فحمدَ الله ثم استَفْتَح رجلٌ ، فقال لي: **«افتَحْ له وبَشِّرْه بالجنة على بَلْوى تُصِيبُه»** ، فإذا عثمانُ ، فأخبرتُه بما قال رسول الله ﷺ ، فحمدَ الله ، ثم قال: اللهُ المستعانُ!).

وفي رواية: (قال عثمان: اللهمَّ صَبْراً). وفي أخرى: (فجعل يقول: اللهمَّ صبراً حتى جَلَس)[1].

ـ وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«أبو بكر في الجنَّةِ ، وعمر في الجنة ، وعثمانُ في الجنة ، وعليٌّ في الجنة ، وطلحةُ في الجنة ، والزبيرُ في الجنة ، وعبد الرحمن بن عَوْف**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٣)؛ ومسلم (٢٤٠٣)؛ والترمذي (٤٠٤٣)؛ وأحمد: ٤/٤٠٦ـ ٤٠٧ ، وغيرهم.

في الجنة ، وسعد بن أبي وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وأبو عُبيدة بن الجَرَّاح في الجنة»[1].

ـ وروى مثله أيضاً سعيد بن زيد[2].

ـ وعن عَبِيدة السَّلْماني قال: (هجمتُ على عبد الله بن مسعود ذاتَ يومٍ وهو في دهليزه ، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**القائمُ بعدي في الجنة ، والذي يقومُ بعدَه في الجنة ، والثالث والرابع في الجنة**»)[3].

ـ وعن عبد الله بن حَوَالَة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ ذات يوم: «**تَهْجُمونَ على رجلٍ مُعْتَجِرٍ بِبُرْدةٍ من أهل الجنة يُبايع الناسَ**». قال: فهَجَمنا على عثمان بن عفان مُعْتَجِرٍ ببردةٍ يبايع الناس)[4].

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٠٨٠)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٣٨)؛ وأحمد (١٦٧٥)؛ وابن حبان (٧٠٠٢) ، وصححه أحمد شاكر والألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٤٨) ، و(٤٦٥٠)؛ والترمذي (٤٠٨١) و(٤٠٩٠)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٣٤) و(٨١٣٧) ، وغيرهم ، وصححه الألباني وغيره.

(٣) أخرجه الفسوي: ٢/ ٧٦١؛ وابن عساكر ـ مختصره: ١٦/ ١٣٤ ؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٣٥).

(٤) أخرجه الطيالسي (١٢٥٠)؛ وابن أبي عاصم (١٢٩٢)؛ والحاكم: ٣/ ٩ ، وصححه وأقره الذهبي؛ وهو في «الصحيحة»، للألباني (٣١١٨). قال الحافظ في «الإصابة»: جاء من أوجه متواترة أن رسول الله ﷺ بشَّره بالجنة وعَدَّه من أهل الجنة.

الفصل الثاني

فضائله ومناقبه ومكانته عند النبي ﷺ

زكَّى رسول الله ﷺ ذا النورين ، ورفَع من شأنه على الملأ ، وأَخبر الناس بفضائله وخِصاله وأعماله المجيدة ، وأشادَ به في مجالس كثيرة؛ كِفاءَ ما قدَّم للإسلام والمسلمين ، وزاد من إعلائه منزلتَه فحَضَّ على حبِّه ومبايعته ومناصرته .

●● ١ ـ عن أبي هريرة : (أنَّ رسول الله ﷺ كان على جبل حِرَاءٍ ، فتحرَّكَ ، فقال رسول الله ﷺ : «**اسكُنْ حِراءُ؛ فما عليك إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شهيدٌ**» . وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنهم)[١] .

٢ ـ وعن أنس بن مالك : (أنَّ النبيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُداً وأبو بكر وعمر وعثمان فَرَجَفَ بهم ، فقال : «**اثْبُتْ أُحُد ، فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان**»)[٢] .

وقد تعدَّدت القصة في مكة على (حِراء) ، وفي المدينة على (أُحد) ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧)؛ والترمذي (٤٠٢٩)؛ وابن حبان (٦٩٨٣) ، وغيرهم.
(**أو**): للتنويع . (**شهيد**) : للجنس .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٥) ؛ وأبو داود (٤٦٥١)؛ والترمذي (٤٠٣٠) ، وغيرهم . **والشهيدان** : عمر وعثمان .

وقد روى الحديث أيضاً: عثمان، وسعيد بن زيد، وابن عباس، وسَهْل بن سعد، وبُريدة الأَسْلمي[1].

٣ ـ وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَرْحَمُ أُمَّتي بأمتي أبو بكر، وأَشدُّهم في أمرِ الله عمر، وأَصْدَقُهم حياءً عثمان، وأقرؤُهم لكتاب الله أُبيُّ بن كعب، وأَفْرَضُهم زيدُ بن ثابت، وأَعلمُهم بالحلال والحرام مُعاذ بن جبل، ألا وإنَّ لكل أمةٍ أميناً وإنَّ أمينَ هذه الأمة أبو عُبيدة بن الجراح»**[2].

٤ ـ وفي قصة نفقة عثمان على جيش العُسْرة، يروي عبد الرحمن بن خَبَّاب فيقول: (فأنا رأيتُ رسول الله ﷺ يَنزِل عن المِنبر وهو يقول: **«ما على عثمان ما عَمِل بعد هذه، ما على عثمان ما عَمِل بعد هذه»**!)[3].

٥ ـ وحَضَّ النبي ﷺ عند وقوع الفتنة على اتباع عثمان وطاعتِه، وذلك فيما رواه أبو هريرة: (أن رسول الله ﷺ قال: **«عليكم بالأمينِ وأصحابِه»**، وهو يُشير إلى عثمانَ بذلك)[4].

٦ ـ وعن عبد الله بن عُمر قال: (خَرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداةٍ بعد طلوع الشمس، فقال: **«رأيتُ قُبيل الفجر كأني أُعطيت المقاليدَ والموازينَ، فأما المقاليدُ فهذه المفاتيحُ، وأما الموازينُ فهي التي تَزِنُون**

---

(١) انظر: الترمذي: ٦/ ٢٧٢، عقب الحديث (٤٠٢٩)؛ والفتح: ٨/ ٦١٠ (٣٦٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٤١٢٥)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٨٥)؛ وابن ماجه (١٥٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) تقدم بتمامه: ص ٧٥ ـ ٧٦ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٤) سيأتي تفصيله: ص ٥١٧ في هذا الكتاب.

بها. فوُضِعتُ في كِفَّة ووُضِعْت أمتي في كِفَّة فوُزِنْتُ بهم فرجحتُ ، ثم جيء بأبي بكر فوُزِنَ بهم فَوَزَن ، ثم جيء بعمرَ فوُزِنَ فوَزَنَ ، ثم جيء بعثمان فوَزَنَ بهم ، ثم رُفِعتْ»[1].

●● وكانت لعثمان من قلب النبي ﷺ المنزلةُ الرفيعة ، والمحبة الغامرة ، والقُربى المميزة ، لم يتقدَّمْه من الصحابة في هذا غير الصديق الأكبر والفاروق عمر! فلقد كان ذو النورين ثالثَ ثلاثة في الإسلام كله ، هم أفضلُ الناس وخيرهم بعد النبي ﷺ؛ لأنهم أعظمُ المؤمنين أعمالاً في تأييد الدعوة ، ونشرِ الدين ، وإقامة عمود الشريعة المطهرة ، وتأسيس بنيان الدولة الإسلامية ، والجهاد في سبيل الله. وكانوا أخصَّ الناس برسول الله ﷺ ، وأقربَهم إلى قلبه؛ كانوا وزراءه وأعوانَه على تأدية رسالته ، خَلَطهم بنفسه وصاهَرهم ، فكانت لهم الزُّلفى عنده[2].

١ ـ فقد زوَّجه النبي ﷺ ابنته رقية ، فبقيت عنده حتى ماتت؛ فحزن عثمان لانقطاع سببه ونسبه برسول الله ﷺ ، فزوَّجه كريمته الثانية ، فاشتهر لذلك بذي النورين ، وماتت هي الأخرى عنده ، فقال النبي ﷺ: **«لو كنَّ عشراً لَزوجتُهنَّ عثمان ، وما زَوَّجْتُه إلا بوحي من السماء»**[3].

٢ ـ وأثنى عليه أمام ابنته رقيَّة ، وأَمَرها بِحُسنِ صحابته ، فقال: **«أَكْرِميه؛ فإنَّه من أشبه أصحابي بي خُلقاً»**[4].

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ٧٦ حديث (٥٤٧١)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١٣٨) ؛ وصححه أحمد شاكر والألباني.

(٢) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٥٦.

(٣) تقدم: ص ٤٨ في هذا الكتاب.

(٤) تقدم: ص ٥٧ في هذا الكتاب.

٣ ـ ولمَّا ذَهَب عثمان بزوجته رقية مهاجراً إلى الحبشة ، ودَّعَهما النبي ﷺ ودَعَا لهما ، وامتدح صهرَه بأنه أولُ من هاجر بأهله بعد لوط عليه الصلاة والسلام .

٤ ـ وكان ﷺ إذا دخل عثمان عليه بيتَه يَهِشُّ له ، ويُحسن لقاءه ، ويقول : «**ألاَ أَسْتحِي من رجلٍ تستحي منه الملائكة**»! .

٥ ـ وإذا خرج الرسول ﷺ من المدينة ، يَستخلِف عثمان فيكون نائبه عليها .

٦ ـ وفي عمرة الحُدَيبية بَعَثه ﷺ سفيراً له إلى قريش ، ولمَّا شاع خبرُ أن قريشاً قتلَتْه ، دعا النبي ﷺ إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان لأجلِ عثمان! وبايع النبي ﷺ عن عثمان فضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال : «**هذه يد عثمان**»؛ فكان عثمان يَغتبِط بذلك ويَفخر قائلاً : يدُ رسول الله ﷺ خيرٌ من يدي! .

٧ ـ وفي غزوة الفتح أَهْدَر النبي ﷺ دماءَ جماعة ، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، فشَفَع فيه عثمان ، فأمضَى ﷺ شفاعته ، وعفا عنه .

٨ ـ وقال رسول الله ﷺ ذات يوم : «**وَدِدْتُ أن عندي بعضَ أصحابي**» ، فَذَكَروا له أبا بكر ثم عمر ثم عليّاً ، وهو في كل ذلك يسكت ، فقالوا : عثمان؟ قال : «**نعم**»! فدُعي له ، فجاء إليه[١] .

٩ ـ وكان أحدَ كتَّاب الوحي ، وكان إذا نزل القرآن على رسول الله ﷺ

---

(١) انظر الحديث بتمامه : ص ٥٦ ـ ٥٧ في هذا الكتاب .

دعا عثمانَ وقال له: «**اكتُبْ يا عُثَيْم**»[1].

١٠ ـ ودعا له رسول الله ﷺ في مواطنَ كثيرةٍ، ومنها قوله: «**اللهمَّ إني قد رضيتُ عن عثمان فارْضَ عنه**»[2].

١١ ـ وتوفِّي النبي ﷺ وهو راضٍ عن عثمان، كما أَخبر بذلك الفاروق عمر في (حديث الشورى)[3].

* * *

(١) تقدم: ص ٥٥ في هذا الكتاب.

(٢) انظر: ص ٥٨ ـ ٥٩، ٧٥ ـ ٧٧ في هذا الكتاب.

(٣) البخاري (٣٧٠٠).

الفصل الثالث

مكانته عند الصحابة والتابعين

وعامة المسلمين

جاءت الأحاديثُ والآثار الصحيحة الكثيرة عن أكابر الصحابة ، والأقوالُ الثابتة والتزكيات المشهورة عن أعلام التابعين ومَن بعدهم من علماء الأمة؛ لتؤكِّد المنزلة الرفيعة التي يقتعدُها عثمان في قلب الأمة وضميرها على مرِّ التاريخ ، منذ عصر النبوة وإلى زماننا وهلُمَّ جرّاً.

●● ١ ـ عن عبد الله بن عُمر قال: (كنَّا نُخَيِّرُ بين الناسِ في زمنِ النبي ﷺ؛ فَنُخَيِّر أبا بكر ، ثم عمرَ بنَ الخطاب ، ثم عثمانَ بن عفان ، رضي الله عنهم). لفظ البخاري.

نُخَيِّر: أي نقول: فلان خيرٌ من فلان.

وفي رواية لابن أبي عاصم: (كنَّا نتحدَّثُ على عهد رسول الله ﷺ أنَّ خيرَ هذه الأمة بعد نبيِّها: أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فيبلُغ ذلك النبيَّ ﷺ فلا يُنكِره)[1].

وقد أجمع الصحابة على أفضليةِ عثمان وسابقتِه، وجمهورُ أهل السُّنَّة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٥)؛ وأبو داود (٤٦٢٧) و(٤٦٢٨)؛ والترمذي (٤٠٤٠)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١٩٣) و(١١٩٦) ، وغيرهم.

على أنه أفضلُ الصحابة بعد أبي بكر وعمر ، والحديثُ المتقدم حجّة برأسِه لهم. وانعقد الإجماع بآخرةٍ بين أهل السُّنَّة أن ترتيبَهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

قال الشافعي: أجمع الصحابة وأتباعُهم على أفضليةِ أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي[١].

٢ ـ قال الزهري: كان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يحدِّث ، أن أبا بَحْرِيَّة الكِنْدي أخبره: (أن عمر بن الخطاب خَرج ذات يوم ، فإذا هو بمجلس فيه عثمان بن عفان ، فقال: منكم رجلٌ لو قُسم إيمانُه بين جند من الأجناد لَوَسِعهم! يريد عثمانَ بن عفان)[٢].

٣ ـ وعن محمد بن حاطب قال: (ذُكِر عثمانُ ، فقال الحسن بن عليّ: هذا أميرُ المؤمنين يأتيكم الآن فيُخْبِركم ، قال: فجاء عليٌّ ، فقال: كان عثمان من الذين آمنوا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣])[٣].

وعن علي بن أبي طالب قال: (خيرُ هذه الأمة بعد نبيِّها: أبو بكر وعمر ، ولو شئتُ لحدَّثْتُكم بالثالث)[٤].

---

(١) علوم الحديث ، لابن الصلاح ، ص٢٩٨ ـ ٢٩٩؛ الفتح: ٨/ ٥٧٦ ـ ٥٧٨ ، ٦٠٣ ، شرح الحديثين (٣٦٥٥) و(٣٦٧١).

(٢) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٦١؛ حياة الصحابة: ٣/ ٧٩. **أبو بَحرية**: عبد الله بن قيس ، مُخَضْرم ثقة.

(٣) فضائل الصحابة ، لأحمد (٧٧٠)؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٧/ ٩٣، وإسناده صحيح.

(٤) مسند أحمد (٨٨٠)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١٢٠٨) ، وصححه أحمد شاكر والألباني.

وفي روايـة: قـال صالح بـن موسى الطَّلْحي: (قـلتُ لعاصم بن أبي النَّجُود: عَلامَ تَـضَعـون قـولَ عليٍّ: لو شـئتُ أن أسمِّي الثـالَث لَسمَّيْتُه؟ قال: نَضَعُه على أنه عنَى عثمانَ، هو كان أفضلَ من أن يزكِّي نفسَه).

وعن أبي جُحَيْفَة قال: (خَطَبنا عليُّ بن أبي طالب على مِنْبر الكوفة فقال: ألا إنَّ خيرَ الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ولو شئتُ أن أُخْبِركم بثالثٍ لأخبرتُكم. قال: فنزل عن المنبر وهو يقول: عثمان، عثمان).

وجاء ذلك عن علي من عدَّة وجوه[1].

٤ ـ وقال سعد بن أبي وقاص: (كنا إذْ نحن جميعٌ مع رسول الله ﷺ، كان عثمان أحسنَنَا وُضوءاً، وأطولَنا صلاة، وأعظَمَنا نفقةً في سبيل الله)[2].

٥ ـ وعن حُميد الطويل قال: (قيلَ لأنس بن مالك: إن حُبَّ عليٍّ وعثمانَ لا يجتمعان في قلب أحدٍ! فقال أنس: كَذَبوا، لقد اجتمع حبُّهما في قلوبنا)[3].

٦ ـ وعن عبد الله بن عباس في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ

---

(١) مختصر ابن عساكر: ١٦/١٤١؛ وانظر: الفتح: ٨/٦٠٣، شرح الحديث (٣٦٧١).

(٢) مختصر ابن عساكر: ١٦/١٦٨.

(٣) الاستيعاب: ٣/ ٨٥؛ تهذيب الكمال: ١٩/ ٤٦٠.

بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦]؛ قال: هو عثمان بن عفان)[١].

٧ ـ وعن أبي هريرة قال: (اشترى عثمانُ الجنةَ من رسول الله ﷺ مرتين: حين حَفَر بئر رُومة، وحين جهَّزَ جيش العُسْرة)[٢].

٨ ـ وقصة الشورى أكَّدتْ مكانةَ عثمان في قلوب الأمة، ومحبَّة الناس له وميلَهم إليه، ورغبتَهم في استخلافه رغبةً شملتْ الخاصة والعامة، والقاصي والداني، في إجماع منقطع النظير.

●● ٩ ـ روى عبد الرزاق عن مَعْمر قال: (سألتُ الزُّهْريَّ عن عثمان وعلي أيُّهما أفضَلُ؟ فقال: الدمُ الدمُ، عثمان أفضلهما)[٣].

١٠ ـ وقال سفيان الثوري: (مَن قدَّمَ عليّاً على عثمانَ فقد أَزْرَى على اثني عشر ألفاً قُبِض رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، الذين أجمعوا على بيعة عثمان)[٤].

١١ ـ وقال عبد الرحمن بن مهدي: (خَصْلَتان لعثمانَ بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر: صبرُه نفسَه حتى قُتِل مظلوماً، وجَمْعُه الناسَ على المصحف)[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٠، وإسناده صحيح؛ وذكره ابن كثير في تفسيره: ٢/ ٧١٥.

(٢) المستدرك: ٣/ ١٠٧؛ والحلية: ١/ ٥٨؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٢٧.

(٣) المعرفة والتاريخ: ٢/ ٨٠٦.

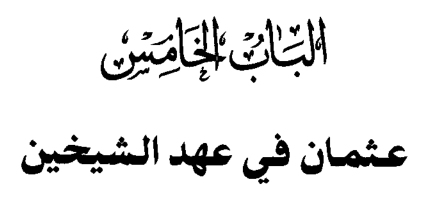
(٤) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٦٦؛ فتح المغيث، للسَّخَاوي: ٤/ ١١٠ وصححه.

(٥) المصاحف، لابن أبي داود: ١/ ١٨٨؛ فضائل القرآن، لابن كثير، ص٢٢، وإسناده صحيح.

١٢ ـ وقال الإمام الدَّارَقُطْني: (عثمانُ بن عفان أفضَلُ من عليٍّ بن أبي طالب باتفاقِ جماعةِ أصحاب رسول الله ﷺ، هذا قولُ أهل السُّنَّة، وهو أولُ عَقْد يُحلُّ في الرَّفْض)[1].

* * *

(١) مختصر ابن عساكر: ٢٦٧/١٦.



الباب الخامس

عثمان في عهد الشيخين

- في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
- في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه .

* * *



الفصل الأول

في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه

طالت الصحبة بين أبي بكر وعثمان من قبل الإسلام ، وألَّفتْ بينهما مشابِهُ كثيرة في الطباع والأخلاق . وكان الصديق يعتقد في عثمان الحزم كما قال له يوم فاتحه في أمر إسلامه : (ويحك يا عثمان إنك لرجلٌ حازمٌ ما يخفَى عليك الحق من الباطل) ، وليست هي من كلمات (المجاملة) ، فما كان أبو بكر بالرجل الذي يرسل الكلام جزافاً[1] .

وتوطَّدت الصحبة والأخوة بين الرجلين طيلة عمر الرسالة حيث كانا في الصف الأول من الصحابة الذيت التفُّوا حول النبي الأعظم ﷺ ، ولما جاءت الخلافة إلى أبي بكر لم يكن أحدٌ بعد عمر أقربَ إليه من عثمان؛ فكان عمر للحزم والشداد ، وعثمان للرفق واللين .

●● عن القاسم بن محمد : (أن أبا بكر الصديق كان إذا نَزل به أمرٌ يريد فيه مشاروةَ أهل الرأي وأهلِ الفقه ودعا رجالاً من المهاجرين والأنصار؛ دَعَا عمرَ وعثمانَ وعليّاً وعبد الرحمن بن عوف . . .)[2] .

●● وغداةَ استَقبل أبو بكر الخلافة ، وكانت الردّة قد وقعت ، أَمر

---

(١) انظر : عبقرية عثمان ، ص٧٧ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٢/ ٣٥٠ .

بإنفاذ جيش أسامة ـ وكان النبي ﷺ عَقَد له الرايةَ وأمره بالتوجُّه إلى أرض الأردن وفلسطين للتعرض لقوات الروم وحلفائهم ـ فخالَفَه في ذلك كبارُ المهاجرين والأنصار ، وأشاروا بإبقاء الجيش لمقاومة المرتدين ، (ودخل عليه عمرُ وعثمان وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد ، فقالوا : يا خليفة رسول الله ، إن العرب قد انتَقَضتْ عليك من كل جانب ، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً ، اجعلْهم عدَّة لأهل الردّة ترمي بهم في نحورهم) .

فأبى الصديق ذلك ، وأمضى الجيش كما أمر النبي ﷺ[(١)] .

●● ولما ارتدَّ كثير من القبائل العربية ومنعوا زكاة أموالهم ، جمع أبو بكر المهاجرين والأنصار واستشارهم ، فقال عمر : أرى والله يا خليفة رسول الله أن تقبل من العرب الصلاة وتَـدَعَ لهم الزكاة ، فإنهم حديثو عهد بجاهلية لم يُعدَّهم الإسلام ، فإما أن يردَّهم الله عنه إلى خير ، وإما أن يعزَّ الله الإسلام فنقوى على قتالهم ، فما لبقية المهاجرين والأنصار يَـدَانِ للعرب والعجم قاطبة . فالتفتَ إلى عثمان ، فقال مثلَ ذلك . وقال علي مثل ذلك ، وتابعهم المهاجرون .

لكن الخليفة الصديق خالَفَهم في هذا ، وبيَّنَ لهم أنْ لا فرقَ بين الصلاة والزكاة ، وأن الزكاة حق المال ، فشرح الله صدورهم لذلك ، ووقفوا جميعاً مع أبي بكر ، فكانت حروب الردة التي أعادت الإسلام إلى الجزيرة العربية كلها[(٢)] .

---

(١) حياة الصحابة : ١/ ٤٢٥ـ٤٢٦ . وانظر تفصيل ذلك في : كتابي «أبو بكر الصديق»، ص٤٩٠ فما بعدها، كذلك المواقف التالية لعثمان في عهد أبي بكر .

(٢) حياة الصحابة : ١/ ٤٣٢ .

●● وعزم أبو بكر على غزو الروم وفَتْح بِلاد الشام ، واستشار في ذلك (مجلس الشورى) ، يقول عبد الله بن أبي أَوْفَى:

(لما أراد أبو بكر غزو الروم دعا عليّاً وعمر عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبا عبيدة بن الجراح ، ووجوهَ المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم . . . وقام فيهم فقال: قد رأيتُ أن أستنفِرَ المسلمين إلى جهاد الروم بالشام؛ فلْيُشِر امرؤ عليَّ برأيه).

فتكلم عمر ثم عبد الرحمن بن عوف ، فأحسَنَا . ثم قال لهم أبو بكر: ما ترون؟ .

فقال عثمان: (إني أرى أنك ناصحٌ لأهل هذا الدين ، شفيقٌ عليهم ، فإذا رأيتَ رأياً تراه لعامَّتِهم صلاحاً ، فاعْزِم على إمضائه فإنك غيرُ ظَنين).

فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار: صَدَق عثمانُ ، ما رأيتَ من رأي فأَمْضِه ، فإنا لا نُخالفك ولا نتهمك[1].

●● وكان لعثمان دور اقتصادي بارز في بناء دولة الخلافة ، ومن ذلك ما بذله من أموال ضخمة عندما نزلت بالمدينة أزمة خانقة بسبب القحط[2].

---

(١) حياة الصحابة: ١/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩ . غير ظَنين: غير متهم.

(٢) انظر ما تقدم: ص ١١٢ ـ ١١٣ في هذا الكتاب.

●● وفي سنة (١٢هـ) حج أبو بكر بالناس ، واستخلَف على المدينة عثمانَ بن عفان ، فكان نائب الخليفة على الأمة[١].

●● ومن بارع الأدلة على منزلة عثمان في الدولة ومكانته في أهل الشورى؛ قصةُ استخلافِ أبي بكر لعمر بن الخطاب من بعده ، فعثمانُ هو الذي كتب عهد الخلافة بيده بإملاء أبي بكر.

روي من طُرق أن أبا بكر لمَّا اشتدَّ به المرض استشار الناس فيمن يحبون أن يقوم بأمر الخلافة من بعده ، فاستشار عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وأسيد بن الحُضَيْر ، وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، فكلُّهم أشاروا بعمر.

فدعا أبو بكر عثمان وأملَى عليه كتاب الاستخلاف ، فكَتَبه عثمان بيده ، وخرج بالكتاب مختوماً وقال للناس: أتبايعونَ لِمن في هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم ، وقال علي: قد عَلِمنا به وهو عمر! فأقَرُّوا بذلك جميعاً ، ورضوا به ، وبايعوا[٢].

لقد كان عثمان أمين سِرِّ الخلافة ، وكان الصديق يرى أن عثمان أهلٌ للخلافة ، وإنْ رأى أن عمر أحقُّ بها منه.

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٨٧؛ تاريخ خليفة ، ص١١٩.

(٢) انظر: كتابي «أبو بكر الصديق» ، ص٧١٥ ـ ٧٢١.

الفصل الثاني

في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه

لما آلَت الخلافة إلى عمر كان عثمان من أقرب الناس إليه ، ومن رؤوس المستشارين والمناصحين له والمشاركين في سياسة الدولة.

وقد عرف الناس منزلةَ عثمان عند أمير المؤمنين عمر؛ فكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رمَوْه بعثمانَ أو بعبدِ الرحمن بن عوف. وكان عثمان يُدعى في إمارة عمر (رَديفاً) ، والرَّدِيفُ عند العرب هو ذلك الرجل الذي يَرجونه بعد رئيسهم! وكانوا إذا لم يَـقْدِر هذان على علم شيء مما يريدون؛ ثـلَّـثُوا بالعباس[١].

ومكانة عثمان في خلافة عمر هي مكانةُ الوزير من الخليفة ، وإنْ شئتَ فقُلْ: هي مكانة عمر من أبي بكر في خلافته. وقد كان أبو بكر أرحمَ الناس بالناس ، وكان عمرُ أشدَّهم في الحق ، فكان يَخلط شدَّته بلينِ الصديق ، ومَزَج الله بينهما فكانت منهما خلافةُ الرحمة والعدل والحزم. وكان عثمان أشبَهَ الناس بأبي بكر في رحمته ، وعمرُ على سَنَنه في شدَّته وحزمه وصلابته ، فكانت وزارة عثمان للفاروق عِوضاً من رِفْق

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٠.

الصديق ولِينه ، ونتج من عمر وعثمان أروعُ الأمثال الحية في أنظمة الحكم حزماً وصلابة ورحمة وعدلاً .

وبرزَتْ شخصية عثمان ومواقفه طيلةَ مدة خلافة الفاروق عمر ، وشارك في توجيه سياسة الدولة في مختلِف الميادين والمرافق : في تحديد راتب عمر ، وشؤون حياته في معاشه وطعامه ولباسه ، ولِينه للناس ، وتسيير الفتوحات ، وتعيين القادة والولاة ، والسياسةِ المالية ، وأمور الشعائر الإسلامية ، وغير ذلك .

●● لما ولي عمر الخلافة مكث زماناً لا يأخذ مِن بيت مال المسلمين شيئاً ، حتى دخلَتْ عليه في ذلك خَصَاصة ، وأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم ، فقال : قد شغلتُ نفسي في هذا الأمر ، فما يَصلح لي منه؟ فقال عثمان بن عفان : كُلْ وأطعِمْ ، وقال ذلك سعيد بن زيد ، وقال لعليٍّ : ما تقول أنت في ذلك؟ قال : غداء وعشاء ، فأخذ عمر بذلك[١] .

●● وعاش عمر مع أسرته حياة خشنة ، فاجتمع نفرٌ من المهاجرين منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير؛ ليزيدوا في (راتب) عمر ، فقال عليٌّ : وَدِدْنا أن يَقبل ذلك ، فانطلِقوا بنا ، فقال عثمان : إنه عمر ، فهلُمُّوا فلْنَستبرِئ ما عنده من وراء! .

فاستشفعوا عنده بابنته أم المؤمنين حفصة كي يرفِّه من عيشه[٢] .

●● وخَشِي الناسُ من شدَّة عمر وبأسِه ، وتنبَّه لذلك أعيانُ مجلس

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣/ ٣٠٧ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣/ ٦١٦ ـ ٦١٧ .

الشورى؛ فاجتمع علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وكلَّموه في ذلك[1].

●● وفي حركة الفتوحات: لمَّا حاصر المسلمون (بيت المقدس) ، أجاب أهلُها إلى الصلح واشترطوا قدومَ عمر ، فاستشار عمر الناس ، فأشار عثمانُ بأن لا يسير إليهم ليكون أرغمَ لأنوفهم وأحقرَ لهم ، وأشار عليٌّ بمسير عمر ليكون أخفَّ وطأةً على المسلمين في حصارهم ، فأخذ الفاروق برأي علي[2].

وعندما اجتمعت جيوش الفرس (بنهاوند) ، أراد عمر أن يسير بالجيوش ليكون دعماً للمسلمين حتى يفتح الله عليهم. فتكلم عثمان وعلي وابن عوف وأمثالهم من أهل الرأي ، وأشاروا عليه أن لا يسير من المدينة ، ولكن يبعث البعوث ، ويحضرهم برأيه ودعائه[3].

●● وحَجَّ عثمان بأمهات المؤمنين عن أمرِ عمر.

عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: (أَذِنَ عمرُ رضي الله عنه لأزواج النبي ﷺ في آخر حَجَّةٍ حجَّها ، فبَعَث معهن عثمانَ بن عفان وعبدَ الرحمن بن عوف)[4].

وحُمِلت أمهات المؤمنين في الهوادج ، وكان عثمان يسير على

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٢) البداية والنهاية: ٧/ ٥٥.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ١٢٣.
(٤) البخاري (١٨٦٠).

راحلته أمامهنَّ ، فلا يَدَعُ أحداً يدنو منهن[1] .

●● وعثمان هو الذي أشار على عمر بجعلِ السَّنة الهجرية تبدأ بالمحرم ، وذلك أنهم لما اتفقوا على جعل (مبدأ التاريخ الإسلامي هو هجرة النبي ﷺ) ، تعددت الآراء في أي الشهور يُجعل مبدأً للسنة ، فقال عثمان : (أرِّخوا من المحرم؛ فإنه شهر حرام وهو أول السنة ومنصرَف الناس من الحج) . فرضي عمر ومَن شهده من الصحابة رأيَ عثمان ، واستقرَّ عليه الأمر ، وأصبح مبدأ التاريخ الإسلامي[2] .

●● ومن مآثر عثمان الخالدة كذلك أنه أشار على الفاروق بإحصاء النَاس في سجلات ودواوين يُرجع إليها في رواتبهم وأرزاقهم وأَعْطياتهم ، وذلك عند اتساع الفتوحات وفيض الأموال .

عن جُبير بن الحويرث : (أن عمر استشار المسلمين في تدوين الديوان ، فقال علي بن أبي طالب : تقسِمُ كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تُمسِكُ منه شيئاً . وقال عثمان بن عفان : أرى مالاً كثيراً يَسَعُ الناسَ ، وإنْ لم يُحْصَوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ؛ خشيتُ أن ينتشر الأمر)[3] .

فأقرَّ عمر رأيَ عثمان ، وتمَّ تدوين الدواوين .

●● وبقي ذو النورين ملازماً لعمر حتى آخر ساعاته في الدنيا ، مشيراً ومناصحاً ومعيناً على تدبير شؤون المسلمين .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣/ ١٣٤ .

(٢) الفتح : ٩/ ١٦٨ ، شرح الحديث (٣٩٣٤) .

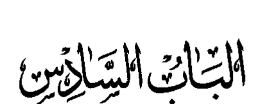
(٣) طبقات ابن سعد : ٣/ ٢٩٥ ؛ تاريخ الطبري : ٤/ ٢٠٩ .

يقول عثمان: (أنا آخِرُكم عهداً بعمر ، دخلتُ عليه ورأسه في حَجْر ابنه عبد الله بن عمر ، فقال له: ضَعْ خدِّي بالأرض . . . وَيْلي وويل أمي إنْ لم يغفر الله لي. حتى فاضَتْ نفسه)[1].

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٣٦٠.



الباب السادس

خلافة عثمان وسياسته في الحكم

- الإشارة النبوية إلى خلافة عثمان وأنها على منهاج النبوة.
- استخلاف عثمان وقصة أصحاب الشورى الستة.
- أسس دولة الخلافة وأركانها.
- سياسة عثمان في الحكم.
- أحداث بارزة في عهد عثمان.

* * *



الفصل الأول

الإشارة النبوية إلى خلافة عثمان وأنها على منهاج النبوة

●● ١ ـ عن سعيد بن جُمْهَان ، عن سفينةَ مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«خلافةُ النبوَّة ثلاثون سنةً ، ثم يؤتي اللهُ المُلْكَ ـ أو: ملكَه ـ مَن يشاءُ»**.

وفي رواية: عن سعيد بن جُمْهان ، عن سفينة قال: (سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«الخلافةُ ثلاثون عاماً ، ثم يكون بعدَ ذلك المُلْكُ»**. قال سفينةُ: أمسِكْ: خلافةَ أبي بكر سنتين ، وخلافةَ عمر عشرَ سنين ، وخلافةَ عثمان اثنتي عشرة سنة ، وخلافةَ علي ستَّ سنين)[1].

٢ ـ وعن جابر بن عبد الله أنه كان يحدِّث: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أُرِيَ الليلةَ رجلٌ صالحٌ أن أبا بكر نِيطَ برسولِ الله ﷺ ، ونِيطَ عمرُ بأبي بكر ، ونِيطَ عثمانُ بعمرَ»**. قال جابر: فلما قُمنا من عند رسول الله ﷺ ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦ ، ٤٦٤٧)؛ والترمذي (٢٣٧٥)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٩٩)؛ وابن حبان (٦٦٥٧) و(٦٩٤٣) ، وغيرهم. وصححه ابن حبان وابن عبد البر والحاكم وابن تيمية وغيرهم. وقد شرحته في كتابي «نبوءات الرسول»: ٢/ ٢٢٥.

قلنا: أمَّا الرجلُ الصالح فرسولُ الله ﷺ، وأما تَنَوُّطُ بعضِهم ببعض فهم ولاةُ الأمرِ الذي بَعث الله به نبيَّه ﷺ)[1].

٣ ـ وعن أبي بَكْرة: (أنَّ النبي ﷺ قال ذات يوم: «مَن رأى منكم رؤيا؟» فقال رجل: أنا؛ رأيتُ كأنَّ ميزاناً نـزَل من السماء، فوُزِنْتَ أنتَ وأبو بكر فرجَحْتَ أنتَ بأبي بكر، ووُزِنَ عمرُ وأبو بكر فرجَحَ أبو بكر، ووُزِنَ عمرُ وعثمانُ فرجَح عمرُ، ثم رُفِعَ الميزانُ. فرأيْنَا الكراهيةَ في وجْهِ رسول الله ﷺ).

وفي رواية: (فاسْتَاءَ لها رسولُ الله ﷺ، يعني: فَسَاءَه ذلك، فقال: «**خِلافةُ نبوَّةٍ، ثم يُؤتي اللهُ المُلْكَ من يشاء**»)[2].

٤ ـ وعن سَمُرة بن جُنْدُب: (أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، رأيتُ كأن دَلْواً دُلِّي من السماء، فجاء أبو بكر فأخذ بِعَرَاقَيْها فشَرِب شُرباً ضعيفاً، ثم جاء عمرُ فأخذ بعَرَاقَيْها فشَرِب حتى تَضَلَّع، ثم جاء عثمانُ فأخذ بعراقَيْها فشَرِب حتى تضَلَّعَ، ثم جاء عليٌّ فأخذ بعراقيها، فانْـتَشَطَتْ، وانْـتُضِحَ عليه منها شيءٌ)[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٣٦)؛ وأحمد (١٤٨٢١)؛ وابنِ حبان (٦٩١٣)؛ والحاكم: ٣/ ٧١ ـ ٧٢، وصححه وأقره الذهبي. نِيط: عُلِّق.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٣٤) و(٤٦٣٥)؛ والترمذي (٢٤٤٠)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٨٠)، وحسنه الترمذي وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٣٧)؛ وأحمد (٢٠٢٤٢)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١٤١)، وحسنه شعيب الأرنؤوط، وأخطأ الألباني في تضعيفه.

قوله: (بعراقيها): العَرَاقان خشبتان تُجعلان على فم الدلو متخالفتان لربط الدلو.

وقوله عن أبي بكر: (فشَرِب شُرباً ضعيفاً): إشارة إلى قِصَر مدة خلافته. وأما عمر وعثمان فقد طالت مدّةُ ولايتهما، فكنى عن ذلك بقوله: (فشَرِب حتى تضَلَّع)، أي: أكثر من الشرب حتى تمدَّد جَنْبُه وأضلاعُه.

٥ ـ وعن عبد الله بن حَوَالة قال: (قال رسول الله ﷺ ذات يوم: **«تَهْجُمُون على رجلٍ مُعْتَجِرٍ ببُرْدَةٍ من أهل الجنة يُبايع الناسَ»**. قال: فَهَجمنا على عثمانَ بن عفان مُعْتجِراً بِبُرْدةٍ يبايعُ الناسَ)[١].

٦ ـ وعن النعمان بن بَشير، عن أمِّ المؤمنين عائشة قالت: (قال رسول الله ﷺ: **«يا عثمانُ، إنَّ الله عَسَى أن يُلْبِسَكَ قميصاً، فإنْ أرادَكَ المنافقون على خَلْعِه فلا تَخْلَعْه حتى تَلْقاني. يا عثمانُ، إنَّ الله عسى أن يُلبسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خَلْعِه فلا تخلَعْه حتى تلقاني»**، ثلاثاً)[٢].

وعبَّر عن الخلافة بالقميص، وهو من أحسن الاستعارات، تقول: قَمَّصْتُه هذا الأمرَ: أي فَوَّضْتُه إليه، وجعلتُه في عُهدته، وألبستُه إياه مثلَ القميص[٣].

●● وحديث سفينة الذي صدَّرْنا به هذا الفصلَ، والأحاديث الأخرى

---

(١) حديث صحيح تقدم مع تخريجه: ص ١٣٨ حاشية (٤) في هذا الكتاب.
(٢) أخرجه أحمد: ٦/ ٧٥، ٨٥ـ٨٦، ١١٤؛ والترمذي (٤٠٣٨)؛ وابن ماجه (١١٢)؛ وابن حبان (٦٩١٥)؛ والحاكم: ٣/ ٩٩ـ١٠٠، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.
(٣) النهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٠٨؛ جامع الأصول: ٨/ ٦٤٤ـ٦٤٥.

التي أوردناها وغيرها مما لم نذكره ـ أدلة واضحة على صحة خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة ، وأنها على منهاج النبوة .

وهو ـ كما يقول ابن تيمية ـ أمرٌ متَّفَق عليه بين الفقهاء وعلماء السُّنَّة ، وأهل المعرفة والتصوف ، وهو مذهب العامة[1] .

ونقل ابن تيمية عن الإمام أحمد : أنه سُئل عن خلافة النبوة ، فقال : (كل بيعة كانت بالمدينة)[2] .

وقال ابن كثير معقِّباً على حديث سَفينة : فكانت ولاية عثمان ـ ومدتُها ثنتا عشرة سنة ـ من جملة هذه الثلاثين بلا خلاف بين العلماء العاملين[3] .

●● وقد أخطأ عباس محمود العقاد خطأ فاحشاً حيث اتَّهم عثمانَ بأنه لم يَسلم من ميراثه الأموي بأجمعه ، فكانت له نظرةٌ إلى الإمامة قاربت أن تكون نظرة إلى المُلْك ، وأنه رقع الخلافة برقعة من الملك[4]! .

ويمثل هشام جعيط ومَن سبقه كطه حسين ومَنْ لحقه كإبراهيم بيضون اتجاهاً مفرِطاً في الغلوِّ والتحاملِ على عهد الخلفاء الراشدين ، ومضادّاً لشواهد القرآن والأحاديث الصحيحة في امتداح الصحابة عموماً والخلفاء الراشدين خصوصاً ، ويمثل منهجاً يتماهى مع الغزو الفكري والنهج

---

(١) مجموع الفتاوى : ٣٥/ ١٩ .
(٢) منهاج السنة : ٣/ ٦٠٩ .
(٣) البداية والنهاية : ٧/ ٢٠٦ .
(٤) انظر : عبقرية عثمان ، ص١٣٦ .

الاستشراقي في تشويه صورة الإسلام في أزهى مراحله ، ويضاد سيرورة التاريخ وحقائقه.

يقول هشام جعيط : (إن عثمان مزَّق أواصرَ التكافل التي كانت تربط بين الصحابة ، وتطاوَلَ بشكل خطر على سابقتِهم وحصانتهم وهالتِهم كقادة وأئمة طبيعيين للمؤمنين . . . زِدْ على ذلك أن تلك الأفعال كانت تُعتبر بمثابة أعمال تعسفية اعتباطية ، أعمال جَوْر خارجة عن تقاليد الإسلام وآدابه السياسية. عقلية ملكية ، محاباة الأقارب ، تبديد مال الجماعة ، استبداد!)[١].

وقال في موضع آخر : (لقد جدَّد انتخابُ عثمان وسياسته الأسروية أملَ الأرستقراطية الأُموية ، المتماهية مع قريش القديمة التي جَبَّها الإسلام ، وهي سياسة خرقاء لأنها أتت لتدمِّر النظام الإسلامي!)[٢].

لقد شهد الصادق المَصْدوق ﷺ لعثمانَ بأنه على الهدى ، وأن خلافتَه على منهاج النبوة ، وأجمع على بيعته المهاجرون والأنصار الممدوحون بنص القرآن ، ولم يخالِف على بيعته أحدٌ ، أفلم يقرأ هذا الرجل الذي يوصف (بالباحث المفكر) كل هذا؟! أم أنها حرية البحث المزعومة ، والذوق الحضاري والمنهج العلمي المتحرر منِ القيود؟ أم هو الهوى ومجافاة الحق وتشويه التاريخ وعزل الأمة عن سلفها وتقطيع أواصرها؟.

---

(١) الفتنة ، ص٨٩؛ وانظر : الحجاز والدولة الإسلامية ، لإبراهيم بيضون ، ص١١.

(٢) الفتنة ، ص ٢٠٦.

نترك الإجابة لعقل القارئ وضميره ليقرأ سيرة ذي النورين ، ثم ليحكم على هذا وأمثاله ونتاجاتهم الآسنة التي تلهث في سبيل الطعن على خير رجال خَلَفوا النبيَّ ﷺ في أمته بالحكم بالعدل ونظام الشورى ورفع راية الإسلام وتحقيق الحرية للشعوب .

●● لقد كانت دولة الخلافة على منهاج النبوة ، فالخليفة من أفضلِ الرجال في إيمانه وخُلقه وورعه وتقواه ، ومن أكفأ رجال الأمة وأعلمِهم وأقدرِهم على قيادتها ، ويدُه مغلولة عن المال العام ، وعَلَم الشورى راسخ مرفوع فلا افتئاتَ ولا استبداد ولا استعلاء ، والعملُ بالإسلام وله في الداخل والخارج كان شغله الشاغل .

وكانت خلافة هداية ورشاد وسداد ، وقد حثَّ النبي ﷺ على الاقتداء بأولئك الخلفاء الراشدين ، والاستمساك بهديهم ، والاستعصام بسُنَّتهم وطريقتهم ، فقال ﷺ : «عَلَيكُم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدين المَهْديِّين ، فتمسَّكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذ»[1] .

* * *

(١) انظر : كتابي «نبوءات الرسول ﷺ» : ٢/٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

الفَصْلُ الثَّانِي

استخلاف عثمان

وقصة أصحاب الشورى الستة

أولاً: حديث الاستخلاف وطريقة الفاروق عمر:

●● عن عبد الله بن عمر قال: (قيلَ لعمرَ: أَلاَ تَستخلِفُ؟ قال: إنْ أستخلِفْ فقد استخلَفَ مَنْ هو خيرٌ مني أبو بكر، وإنْ أَتْرُكْ فقد تَرَكَ من هو خيرٌ مني رسولُ الله ﷺ. فأثْنَوا عليه، فقال: راغبٌ وراهبٌ، وددْتُ أني نجوتُ منها كَفَافاً لا لي ولا علَيَّ، لا أتحمَّلُها حيّاً وميِّتاً!)[1].

وفي حديث استشهاد عمر الطويل الذي رواه عَمْرو بن مَيْمون: (وقالوا له حين حَضَره الموت: استخلِفْ، فقال: لا أجدُ أحداً أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النَّفَر الذين توفِّي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فأيُّهم استُخلِفَ فهو الخليفةُ من بعدي ـ فسمَّى: عليّاً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعداً ـ فإن أصابَتْ سعداً فذاكَ، وإلا فأيُّهم استُخلِف فَلْيستعِنْ به؛ فإني لم أعزِلْه عن عجز ولا خيانةٍ. قال: وجعل عبدَ الله بن عمر معهم يشاورونه، وليس له من الأمر شيء)[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢١٨)؛ ومسلم (١٨٢٣)، وغيرهما.

(٢) هو طرف من حديث طويل رواه البخاري (٣٧٠٠)؛ وابن سعد: =

وفي رواية عَمْرو بن ميمون أيضاً: (ثم قال: ادعوا لي عليّاً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعداً. فلم يكلِّم أحداً منهم غيرَ علي وعثمان، فقال: يا عليّ، لعلَّ هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتَكَ من النبي ﷺ وصِهْرَك، وما آتاك الله من الفقه والعلم، فإنْ وَلِيتَ هذا الأمر فاتَّقِ الله فيه. ثم دعا عثمان فقال: يا عثمانُ، لعلَّ هؤلاء القوم يعرفون لك صِهْرَك من رسول الله ﷺ، وسِنَّك وشرفَك، فإنْ وَلِيتَ هذا الأمر فاتَّقِ الله، ولا تحملنَّ بني أبي مُعَيْط على رقاب الناس. ثم قال: ادعوا لي صُهيباً، فدُعي، فقال: صلِّ بالناس ثلاثاً، وليَخْلُ هؤلاء القوم في بيت، فإذا اجتمعوا على رجل منهم، فمن خالَفَهم فاضْرِبوا رأسَه)[1].

●● **وهكذا فإن عمر سلك في هذا الأمر مسلكاً متوسطاً خشية الفتنة، فرأى أن الاستخلافَ أضبطُ لأمر المسلمين، فجعل الأمر معقوداً موقوفاً على الستة، لئلا يترك الاقتداء بالنبي ﷺ وأبي بكر،** فأخذ من فعل النبي ﷺ طرفاً وهو ترك التعيين، ومن فعل أبي بكر طرفاً وهو العقد لأحد الستة وإن لم ينص عليه[2].

وعَمِل عمر بما رجح عنده فلم يولِّ عهدَه واحداً بخصوصه، ولم يَستخلِفْ على الأمة شخصاً معيناً، لكنه مع ذلك لم يَذَر الأمر دون سياجٍ يحفظه من الانتشار والفوضى بين جمهور الناس وعامتهم؛ خشيةَ أنْ يَـنفلت عِقالُ الرأي من يد الخاصة وأهل العلم والعقل، وقد يُولَّى حينئذ من ليس بأهل، فيَفْسُد نظامُ الحكم في الأمة وينفرط عقدها الاجتماعي.

= ٣/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩، ٣٤٠ ـ ٣٤٢؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٧٥ ـ ٥٧٧.

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٣٤١ ـ ٣٤٢؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٧٧.

(٢) الفتح: ١٦/٦٠٨، شرح الحديث (٧٢١٨).

فتقدم عمر إلى الأمة فأسس لها مجلسَ الدولة الأعلى ، واختار أعضاءه ـ على سمع الأمة وبصرها ورضاها ـ ممن يَصْلُح كل واحد منهم لولاية الخلافة والإمامة العظمى ، ورشَّح اختياره هذا بأن هؤلاء الرهط توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ ، وهذه أعظمُ تزكية في هذا المقام ، ثم ذكَر عمرُ لكل واحد منهم من المميزات والخصائص ما يجعل الأمة تطمئن كل الاطمئنان إذا وقع اختيارها عليه بخلافتها وولاية الحكم عليها ، وسلَّمَتْه زمامَ سياستها.

وبذلك يكون عمر قد خطَا بالأمة الخطوة الأولى نحو اختيار حاكمها الأعلى ، وضيَّق الدائرة ، وقرَّب الأمرَ ، وقطَعَ أطماعَ العامة من الأغمار وأشباههم ، ثم تَرَكَ تعيينَ أحد هؤلاء المرشحين إلى اختيار الأمة وحكمها ، وهذا من أحكم التدابير وأحسن ضروب السياسة.

ولعل من أهم البواعث التي دخلت في حساب عمر لسلوك هذه الطريقة في (اختيار الخليفة)؛ هو تغيُّر عناصر المجتمع الإسلامي في خلافته عنها في عهد النبي ﷺ وخلافة أبي بكر ، حيث دَخلت إلى ساحة الإسلام عناصرُ جديدة لم يُشرب قلوبهم الفقه في الدين ، وقد يُخشى منها الفتنة لو حُكِّمت في الأمر ، وقد كان عمر وهو خليفة المسلمين ضحية تلك العناصر الجديدة على الإسلام والمسلمين[1].

●● ويزيد الإمام الطبري الأمر توضيحاً فيقول:

(لم يكن في أهل الإسلام أحدٌ له من المنزلة في الدين والهجرة

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٦٨ ـ ٦٩ ؛ عثمان بن عفان ، لهيكل ، ص١٥.

والسابقة والعقل والعلم والمعرفة بالسياسة ما للستة الذين جعل عمر الأمرَ شورى بينهم ، فإن قيل لكم : بعضُ هؤلاء الستة أفضلُ من بعض ، وكان رأي عمر أن الأحق بالخلافة أرضاهم ديناً ، وأنْ لا تصح وِلايةُ المفضول مع وجود الفاضل! فالجواب أنه لو صَرَّح بالأفضل منهم لكان قد نَصَّ على استخلافه ، وهو قَصَد أن لا يتقلَّد العُهدة في ذلك ، فجعلها في ستة متقاربين في الفضل؛ لأنه يتحقق أنهم لا يجتمعون على تولية المفضول ، ولا يألون المسلمين نُصْحاً في النظر والشورى ، وأن المفضول منهم لا يتقدم على الفاضل ، ولا يتكلم في منزلة وغيرُه أحقُّ بها منه ، وعَلِمَ رضا الأمة بمن رضي به الستة .

ويؤخذ منه بطلانُ قول الرافضة وغيرهم أن النبي ﷺ نصَّ على أن الإمامة في أشخاص بأعينهم ، إذْ لو كان كذلك لَمَا أطاعوا عمر في جعلها شورى ، ولقال قائل منهم : ما وجهُ التشاور في أمر كُفيناه ببيان الله لنا على لسان رسوله؟! ففي رضا الجميع بما أمرهم به دليلٌ على أن الذي كان عندهم من العهد في الإمامة أوصافٌ ، من وُجدت فيه استحقها ، وإدراكها يقع بالاجتهاد)[1] .

١ ـ مجلس الشورى أعلى هيئة سياسية في الأمة:

وقد أناط عمر بهؤلاء الستة اختيارَ (خليفة المسلمين) ، ولم يَفتئِتْ في هذا على الأمة وعلى الشورى ، فإن جماعة المسلمين قد أقرَّتْ هذا التدبير ورضيتْ به ، ولم نجد أحداً من أهل الشورى قد عارَضَه ، كما أن أحداً من الصحابة الآخرين لم يُثِر أيَّ اعتراض عليه ، ذلك ما تدل عليه

---

(١) الفتح : ١٦/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤ (٧٢٠٧).

النصوص التي بين أيدينا ، فنحن لا نعلم أن اقتراحاً آخرَ قد صدر عن أحد من الناس في ذلك العصر ، أو أن (معارضة) ثارت حول عمل عمر هذا خلال الساعات الأخيرة من حياته ، أو بعد وفاته ، وإنما رضي الناس كافة هذا التدبير ، ورأوا فيه مصلحة لجماعة المسلمين . **ويمكننا القول : إن عمر قد أحدث (هيئة سياسية عليا) مهمتها انتخاب رئيس الدولة أو الخليفة**[1] .

٢ ـ طريقة اختيار الخليفة:

قال عمر : (ادعُ لي صُهيباً ، فدُعي ، فقال : صلِّ بالناس ثلاثاً ، ولْيَخْلُ هؤلاء القوم في بيت ، فإذا اجتمعوا على رجل منهم ، فمن خالَفَهم فاضْرِبوا رأسَه)[2] .

وعمرُ قد أَمر بقَتْل من يُخالف جماعةَ المسلمين ، ويفرِّق بينهم ، ويشقّ عصا الطاعة ، ويُحدِث فتنة؛ وهو في ذلك يعمل بتوجيه نبوي حكيم حيث يقول ﷺ : «**مَنْ أتاكم وأمرُكم جميعٌ على رجلٍ واحد ، يريد أن يَشُقَّ عصاكم أو يُفرِّق جماعتكم ؛ فاقْتُلُوه**»[3] .

وفي تكليف عمر صهيباً بإمامة الناس قطع أي شبهة في ترجيح كفة أحد الستة ، فلو أنه أمر واحداً منهم أن يؤم الناس ؛ لكانت إشارة منه إلى ترجيحه .

---

(١) نظام الحكم ، لظافر القاسمي : ١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٢) تقدم : ص ١٧٠ في هذا الكتاب ، وإسناده صحيح .

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٢) (٦٠)؛ وأبو داود (٤٧٦٢)؛ والنسائي في الكبرى (٣٤٦٩) ، وغيرهم .

٣ ـ تحديد مدة المشاورة:

وحدَّد الفاروق للصحابة (المدة الزمنية) للشورى وانتخاب (رئيس الدولة)، وفَرض الحراس على سير العملية؛ فأمر أبا طلحة الأنصاري أن يقوم في خمسين من الأنصار فيحرسون البيت الذي اجتمع فيه أصحاب الشورى، وقال له: (قُمْ على ذلك الباب بأصحابك، فلا تَتْرُكْ أحداً يَدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يؤمِّروا أحدَهم. اللهم أنت خليفتي عليهم)[(١)].

٤ ـ المستشارون في انتخاب واحد من الستة:

جاء في الحديث الطويل الذي رواه عَمْرو بن ميمون، عن عمر قال: (يَشْهدُكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمرِ شيءٌ)[(٢)].

وذكر المدائني أن عمر قال لهم: (إذا اجتمع ثلاثة على رأي وثلاثة على رأي؛ فحكِّموا عبدَ الله بن عمر، فإن لم ترضوا بحُكْمِه فقدِّموا مَنْ معه عبد الرحمن بن عوف)[(٣)].

●● لقد كان عمر موفَّقاً مسدَّداً في عمله العظيم هذا، بمجمله وتفصيلاته وطرائقه وأدواته وتنفيذه واختيار كل امرئ لعمله، فأوفَوْا جميعاً بالأمانة المناطة بهم، وقام أبو طلحة بما عُهِد إليه في حراسة الانتخابات في أيام الشورى الثلاثة، فلم يَدَعْهم حتى فرغوا من عملهم في صبيحة اليوم الثالث، وكان فيه فصلُ الخِطاب.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٣٦٤؛ الفتح: ٨/ ٦٥٧ (٣٧٠٠).

(٢) البخاري (٣٧٠٠).

(٣) الفتح: ٨/ ٦٥٧.

وكان الفاروق كفؤاً لأمانة الخلافة إلى النفس الأخير من أنفاس حياته المباركة، فأوصى وصيته المحكمة التي نظر فيها نظرته الشاملة، ولم يَـدَعْ فيها بقية لنظرة ثانية!.

وكذلك فالصحابة المعنيُّون (باختيار الخليفة) كانوا أيضاً على أرفع درجات الأمانة والكفاءة والإخلاص في إمضاء الأمور إلى نهاياتها الحميدة.

فالوصايا مهما يبلغ من إحكامها وإلزامها لا تنفذ بغير منفذين يَـقدِرون على تنفيذها، ويَصْدُقون النية فيه؛ فلو لم يكن أصحاب الشورى وقائد الجند وإمام الصلاة في الأيام الثلاثة أهلاً لأمانتهم، لَمَا أغناهم حزمُ الخليفة الراحل شيئاً في تلك المهمة المعجلة التي يوشك أن يُـفسِدها كل خطأ في القيام عليها، وكل تأخير عن موعدها. وقد أدى الخليفة واجبه، وبقي واجب المنفذين الذين ائتمنهم على الأمة بعد حياته، **فمن حقهم على التاريخ أن يسجِّل لهم أداءَهم لواجبهم، وتصريفهم لأمانتهم على أتم الوجوه الميسرة لهم في تلك المهمة المحرجة**[1].

ثانياً: عمل عظيم جليل لعبد الرحمن بن عوف في اختيار الخليفة:

لم يكد يفرغ الناس من دفن عمر رضي الله عنه، حتى أسرع رهط الشورى وأعضاء مجلس الدولة الأعلى إلى الاجتماع في بيت أم المؤمنين عائشة، وقيل: إنهم اجتمعوا في بيت فاطمة بنت قيس الفِهْرية؛ ليقضوا في أعظم قضية عَرضت في حياة المسلمين. وقد تكلم القوم وبسطوا

(١) انظر: عبقرية عثمان، ص١٠٦ ـ ١٠٧.

آراءهم ، واهتدوا بتوفيق الله إلى كلمة سواء رضيها الخاصة والكافة من المسلمين[١] .

وجاء في حديث عَمْرو بن ميمون الطويل : لمَّا فرغوا من دفن عمر (اجتمعوا ، فقال عبد الرحمن بن عوف : اجعلوا أمرَكُم إلى ثلاثة نَفَرٍ منكم ، فجعل الزبير أمره[٢] إلى عليٍّ ، وجعل طلحة أمرَهُ إلى عثمان ، وجعل سعد أمرَه إلى عبد الرحمن . فائتَمر أولئك الثلاثة حين جُعل الأمرُ إليهم ، فقال عبد الرحمن : أيُّكُم يَـبْرَأُ من الأمر ويجعلُ الأمرَ إليَّ ، ولكم اللهُ عليَّ ألا آلُوكم[٣] عن أفضَلِكم وخيرِكم للمسلمين؟ فَأَسْكَتَ الشيخان عليٌّ وعثمانُ . فقال عبد الرحمن : تجعلانه إليَّ وأنا أَخرجُ منها ، فوالله لا آلُوكم عن أفضلِكم وخيرِكم للمسلمين؟ قالوا : نعم . فخَلاَ بعليٍّ ، فقال : إنَّ لك من القرابة من رسول الله ﷺ ، والقِدَم ، والله عليك لئن استُخلِفْتَ لَتعدلنَّ ، ولئن استُخلِف عثمانُ لتَسمعَنَّ ولَـتُطيعنَّ؟ فقال : نعم . قال : وخَلاَ بعثمان فقال مثلَ ذلك ، قال : فقال عثمان : فنعَم . قال : فقال : ابْسُط يدَك يا عثمانُ ، فبَسط يدَه ، فبايَعَه وبايَعَه عليٌّ والناس)[٤] .

وفي حديث آخر للبخاري : عن الزهري : أن حُميد بن عبد الرحمن أخبره : (أن المِسْوَر بن مَخْرَمَة أخبره : أنَّ الرَّهْط الذين ولاهم عمر

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٣٤ ؛ عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٦٢ ـ ٦٣ .
(٢) أي : تنازل عن حقه في الترشيح للخلافة! .
(٣) آلو : أُقَصِّر .
(٤) طبقات ابن سعد : ٣/ ٣٣٩ ؛ ومصنف ابن أبي شيبة : ٨/ ٥٧٧ ؛ وبنحوه في البخاري (٣٧٠٠) .

اجتمعوا فتشاوروا ، فقال لهم عبد الرحمن: لستُ بالذي أُنافِسُكم على هذا الأمر ، ولكنَّكُم إنْ شئتُم اخترتُ لكم منكم ، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن. فلما وَلَّوا عبدَ الرحمن أَمْرَهُم ، فمالَ الناسُ على عبد الرحمن ، حتى ما أرى أحداً من الناس يَتْبَعُ أولئك الرهْطَ ولا يَطأُ عَقِبَه ، ومالَ الناس على عبد الرحمن يُشاورونه تلك الليالي.

حتى إذا كانت الليلة التي أصبحنا منها فبايَعْنَا عثمان ، قال المِسْوَر: طَرَقَني عبد الرحمن بعد هَجْعٍ من الليل ، فضَربَ الباب حتى استيقظتُ ، فقال: أراكَ نائماً ، فوالله ما اكتحلتُ هذه الثلاثَ بكثيرِ نَوْم! انطلِقْ فادْعُ الزبيرَ وسعداً ، فدعوتُهما له ، فشاوَرَهُما. ثم دعاني فقال: ادْعُ لي علياً ، فدَعَوْتُه ، فناجاه حتى ابهارَّ الليل ، ثم قام عليٌّ من عنده وهو على طَمَعٍ ، وقد كان عبد الرحمن يَخشى من عليٍّ شيئاً. ثم قال: ادْعُ لي عثمانَ ، فدَعَوْتُه ، فناجاه حتى فرَّقَ بينهما المؤذِّنُ بالصُّبْح!.

فلما صلَّى للناس الصبحَ ، واجتمع أولئك الرهطُ عند المنبر ، فأرْسَلَ إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار ، وأرسَلَ إلى أمراء الأَجْناد ، وكانوا وافَوْا تلك الحَجَّة مع عمر. فلما اجتمعوا ، تشهَّدَ عبد الرحمن ثم قال: أمَّا بعدُ يا عليُّ ، إني قد نظرتُ في أمرِ الناس ، فلم أَرَهُم يَعْدِلون بعثمانَ ، فلا تَجعلَنَّ على نفسِك سبيلاً. فقال[1]: أُبايِعُك على سنَّة الله وسُنَّة رسولِه والخليفتين من بعدِه . فبايَعَه عبدُ الرحمن ، وبايَعَه الناسُ: المهاجرون، والأنصار، وأمراءُ الأجناد، والمسلمون)[2].

---

(١) أي: عبد الرحمن بن عوف مخاطباً لعثمان.

(٢) البخاري (٧٢٠٧). **هَجْع**: قطعة من الليل. **ابهارَّ الليل**: انتصف. **على طمع**: أي أن يوليه. **فلا تجعلن على نفسك سبيلاً**: أي من الملامة إذا لم توافق =

وفي رواية أخرى عن المِسْوَر: أنه لمَّا كانت الليلة التي في صبيحتها يَفرغ النَّفَر من أمر الشورى ، اجتمع الناس لصلاة الصبح كما يجتمعون للجمعة ، فأمر عبد الرحمن عثمان وعليّاً والزبير وسعداً أن يجلسوا بين يدي المنبر ، فلما أبصر الناسُ بعضهم بعضاً وطلعت الشمس ، قام عبد الرحمن وخطب الناس ، ثم استَقدَم أولئك الصحابة الأربعة رجلاً رجلاً ؛ (فقال: أي فلان ، عليك عهدُ الله وميثاقُه لَتَسمعنَّ ولَـتُطيعَنَّ لمن وليها ، ولَترضَينَّ ولتُسلمنَّها؟ فيقول: نعم رافعاً صوته. حتى فَرَغ منهم رجلاً رجلاً ، من عثمان وعلي والزبير وسعد ، قال: أما طلحة فأنا حميل[1] برضاه.

ثم قال: إني لم أزَلْ دائباً منذ ثلاثٍ أسألُكم عن هؤلاء النفر ، ثم سألتُهم عن أنفسِهم ، فوجدتكم أيها الناس وإياهم اجتمعتم على عثمان ، قم يا عثمان. فلم يَقُلْ رجل من المهاجرين ولا الأنصار ولا وفود العرب وصالحي الناس: إنك لم تستشرنا ولم تستأمرنا. فرضوا وسلَّموا ، فلَبِثوا ستَّ سنين لا يَعيبون شيئاً. قال: كان طائفة منهم يفضِّلونه على عمرَ؛ يقولون: العدلُ مثل عمر ، واللِّين ألينُ من عمر. ثم حدث ما حدث)[2].

= الجماعة. وأمراء **الأجناد هم**: معاوية أمير الشام ، وعُمير بن سعد أمير حمص ، والمغيرة بن شعبة أمير الكوفة ، وأبو موسى الأشعري أمير البصرة ، وعمرو بن العاص أمير مصر.

(١) أي: كفيل.

(٢) المطالب العالية: ٤/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧ ، وعزاه للحارث بن أبي سامة ، وقال البوصيري: سنده صحيح.

وتضيء رواية أخرى جانباً آخر من الموضوع فتبيِّن أن عبد الرحمن بن عوف اشترط على الخليفة أن يسير بسيرة أبي بكر وعمر ، فتوقَّف عليٌّ وقبِل عثمان ، فبايَعَه.

عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة قال: (كنتُ أعلمَ الناس بأمر الشورى لأني كنتُ رسولَ عبد الرحمن بن عوف) ، فذكر الخبر وفي آخره: (فقال: هل أنت يا عليُّ مبايعي إن وَلَّيتُكَ هذا الأمر على سُنَّة الله وسُنَّة رسوله وسنة الماضِيَيْن قبلُ؟ قال: لا ، ولكنْ على طاقتي ، فأعادها ثلاثاً ، فقال عثمان: أنا يا أبا محمد أبايُعك على ذلك ، قالها ثلاثاً. فقام عبد الرحمن واعتمَّ ولَبِس السيف ، فدخل المسجدَ ثم رقى المنبرَ ، فحمد الله وأثنى عليه ثم أشار إلى عثمان فبايعه)[1].

●● وبالتأمل في هذه الروايات الصحيحة يستبين للباحث أن عبد الرحمن بن عوف قد نهض بهذا العبء الثقيل على أتمِّ وجه وأرفعِه وأنبله وأخلصِه وأشمله ، فقام يستشير الناس في (عثمان وعلي) ، ويَجمع رأيَ المسلمين برأي رؤوس الناس جميعاً وأشتاتاً ، مثنى وفرادى ومجتمعين ، سرّاً وجهراً ، حتى خَلَص إلى النساء المخدَّرات في حجابهن ، وحتى سأل الولدانَ في المكاتب ، وسأل مَن يَرِد من الرُّكبان والأعراب إلى المدينة ، في مدة ثلاثة أيام بلياليها؛ فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان[2].

---

(١) أخرجه الذهلي في «الزهريات» وابن عساكر؛ الفتح: ١٦/ ٥٩٣؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٥٢.

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ١٤٦.

وتؤكد رواية الحارث بن أبي أسامة في «مسنده»: أن عبد الرحمن سأل عليّاً والزبير وسعداً: إنْ أَخطأَتْكَ الخلافةُ فمن تختارُ لها؟ فيقول: عثمان[1].

●● **وفي هذه الأخبار الثابتة ما يدلّنا على الحكمة الفذة التي تحلى بها عبد الرحمن بن عوف حيث نفذ خُطة الشورى بما دلّ على شرف عقله، ونُبل نفسه، وإيثاره مصلحةَ المسلمين العامة على مصلحته الخاصة، وترك عن طواعية ورضا أعظمَ منصب يطمح إليه إنسان في الدنيا، ليجمع كلمة المسلمين.** واصطنع من الأناة والصبر والحزم وحسن التدبير ما كَفَل له النجاح في أداء مهمته العظمى، ممثلاً فيما يلي:

أولاً: بسط برنامجه في أول جلسة عقدها مجلس الشورى في دائرة الزمن الذي حدده لهم عمر؛ وبذلك أمكنه أن يحمل جميع أعضاء الشورى على أن يُدلوا برأيهم، فعرف مذهب كل واحد منهم ومرماه، فسار في طريقه على بيِّنة من أمره.

ثانياً: خَلَع نفسَه وتنازل عن حقه في الخلافة ليدفعَ الظنون ويستمسك بعروة الثقة الوثقى.

ثالثاً: أخذ في تعرف نهاية ما يصبو إليه كل واحد من أصحابه وشركائه في الشورى، فلم يزل يقلِّب وجوه الرأي معهم حتى انتهى إلى شبه انتخاب جزئي، فاز فيه عثمان برأي سعد والزبير، فلاَحَتْ له أغلبيةُ آراء الأعضاء الحاضرين معه.

رابعاً: عَمَد إلى معرفة كل واحد من الإمامين: عثمان، وعلي؛ في

---

(١) المطالب العالية: ٤/ ٢٧٧.

صاحبه بالنسبة لوزنه من سائر الرهط الذين رشحهم عمر ، فعرف من كل واحد منهما أنه لا يَعْدِل بصاحبه أحداً إذا فاته الأمر .

خامساً: أخذ في تعرُّف رأي مَن وراء مجلس الشورى من خاصة الأمة وذوي رأيها ، ثم من عامتها وضعفائها ، فرأى أن الناس لا يَعْدِلون أحداً بعثمان ، فبايَعَ له ، وبايعه الناس بيعة عامة عن رضا واختيار[1] .

ثالثاً: أحقية عثمان بالخلافة ، وانعقاد الإجماع عليه:

وقصة الشورى هذه كشفت عن مكانة عثمان رضي الله عنه في قلوب الأمة ، ومحبة الناس له وميلهم إليه ، ورغبتهم في ولايته رغبة شملت خاصة المسلمين وعامتهم ، ورضائهم بحكمه وخلافته عليهم .

وقد أكد هذا الواقعُ استمرارَ مدلول حديث ابن عمر المتقدم: (كنَّا نتحدَّثُ على عهد رسول الله ﷺ أن خيرَ هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فيبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فلا يُنكِره)[2] .

والخيرية هنا تستغرق الشمائلَ الأخلاقية والصفات الشخصية والأعمال والمواقف والكفاءات وغير ذلك .

●● وتميَّز عثمان بخبرة طويلة من التربية السياسية وإدارة شؤون الحكم التي مرت به وتفاعل معها ، ولم تتهيأ لخليفة قبله ولا بعده ، فهي أطولُ من فترة التربية السياسية التي تهيأت لأبي بكر مع رسول الله ﷺ ، وأطول من الفترة التي تهيأت لعمر مع النبي ﷺ وخليفته الأول ، وهي أيضاً أطولُ من الفترات التي تهيأت لعليٍّ الخليفةِ الرابع الذي جاء بعده؛

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٧٠.
(٢) تقدم: ص ١٤٤ في هذا الكتاب.

لأنه رضي الله عنه أسلم وهو صبيٌّ ، ومَضَتْ عليه سنوات قبل مشاركته في أعمال الرأي وأعمال العقل والإنجاز.

أما عثمان فقد أسلم وعمره أزيد من ثلاثين سنة ، وكان مشهوداً له بالحزم والعزم والبصر ، وشارك منذ اللحظات الأولى في تأسيس الدعوة وحمايتها ونصرتها. وفي هذه المدة الطويلة التي ناهزت خمساً وثلاثين سنة ، وتمرَّس فيها عثمان بشؤون الدعوة ، وشؤون الخلافة ـ قد عَرَضَتْ له كل مشكلة ، وارتَسَمت كلُّ خطة في معاملة الصحابة وسائر المسلمين ، وارتسمت كذلك كل خطة في معاملة المشركين والمنافقين من مسالمين أو محاربين. واتضحت حدودُ الإمام وحدود الرعية ، ومواضع الترخص والتشدد في جميع هذه الحدود على اختلاف أحوال العسر واليسر. فكان اطلاعُ عثمان على كل قدوة وكل سابقة؛ عُدّةً له يستعد بها لولاية الخلافة وتدبير الولايات وأمور الناس[1].

●● وقد أكَّد الواقعُ العملي الحياتي للمسلمين عامة والرأيُ العام لهم ، وأقوالُ أعلام الصحابة والفاقهين لمسيرة التاريخ وأصحاب الفقه السياسي لسيرورة الحكم ـ أن المرشحَ للخلافة بعد عمر هو عثمانُ بن عفان.

ـ قال حذيفة بن اليمان: (سألني عمر: مَن ترى قومَك مؤمِّرين بعدي؟ قلت: رأيتُ الناسَ أسنَدوا أمرَهُم إلى عثمان بن عفان)[2].

---

(١) انظر: عبقرية عثمان ، ص ٧٩.

(٢) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٣/ ٩٣٢؛ الإمامة ، لأبي نعيم ، ص٣٠٦ ، وعزاه الحافظ في (الفتح: ١٦/ ٥٩٣) ليعقوب بن شيبة ، وصححه.

ـ وعن حارثة بن مُضَرِّب قال: (حَججتُ في إمارة عمر ، فلم يكونوا يَشكُّون أن الخلافة من بعده لعثمان)[١].

وفي رواية عنه قال: (حججتُ مع عمر ، فسمعتُ الحادي يحدو: إن الأمير بعده ابن عفان)[٢].

ـ وعن أبي وائل: (أن عبد الله بن مسعود سار من المدينة إلى الكوفة ثمانياً حين استُخلِفَ عثمانُ بن عفان ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مات ، فلم نرَ يوماً أكثر نَشيجاً من يومئذ ، وإنَّا اجتمعنا أصحابَ محمد ﷺ فلم نألُ عن خيرِنا ذِي فُوقٍ؛ فبايَعْنا أميرَ المؤمنين عثمانَ ، فبايِعُوه).

وفي رواية: (أمَّرْنا خيرَ مَن بقي ولم نألُ)[٣].

●● عن حفص بن غياث قال: (كان شَرِيك النَّخَعي يقول: مَن زَعَم أنه كان في الشورى خيرٌ من عثمان ، فقد خَوَّنَ أصحابَ محمد ﷺ!)[٤].

ـ وقال الإمام أحمد بن حنبل: (لم يجتمعوا على بيعةِ أحدٍ ما اجتمعوا على بيعة عثمان)[٥].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٨٢؛ الإمامة ، ص٣٠٦ ، وإسناده صحيح.
(٢) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٣/ ٩٣٢ ـ ٩٣٣ ؛ وعزاه الحافظ في (الفتح: ١٦/ ٥٩٣) لخيثمة في «فضائل الصحابة» ، وصححه.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣؛ فضائل الصحابة ، لأحمد (٧٤٧) ، وغيرهم من طرق ، وكلها صحيحة.
(٤) أخبار القضاة: ٣/ ١٦٣ . وانظر قولاً آخر له في ميزان الاعتدال: ٢/ ٢٧٣ .
(٥) منهاج السنة: ٣/ ٦٠٩ .

ـ وقال غير واحد من السلف والأئمة ، كأيوب السَّخْتِياني وأحمد والدَّارَقُطني وغيرهم: من لم يقدِّم عثمانَ على علي ، فقد أزرَى بالمهاجرين والأنصار.

وعقَّب ابن تيمية على هذا فقال: وهذا من الأدلة الدالة على أن عثمان أفضلُ ، لأنهم قدَّموه باختيارهم واشتوارهم[1].

ـ وقال أبو الحسن الأشعري: وثَبتت إمامةُ عثمان رضي الله عنه بعد عمر بعَقْد مَنْ عَقد له الإمامة من أصحاب الشورى ، الذين نصَّ عليهم عمر ، فاختاروه ورضوا بإمامته ، وأجمعوا على فضله وعدله[2].

ـ وقال أبو نُعيم الأصبهاني: فاجتمع أهل الشورى واختاروا بعد التشاور والاجتهاد في نصيحة الأمة عثمانَ بن عفان ، ولم يختلِف على ما اختاروه وتشاوروا فيه أحدٌ ، ولا طَعَن فيما اتفقوا عليه طاعِنٌ ، فأسرعوا إلى بيعته ، ولم يتخلَّف عن بيعته مَن تخلَّف عن أبي بكر ، ولا تسخَّطها متسخِّط ، بل اجتمعوا عليه راضين به محبِّين له[3].

ـ وقال ابن تيمية: عثمانُ لم يَصِرْ إماماً باختيار بعضِهم ، بل بمبايعة الناس له ، وجميعُ المسلمين بايعوا عثمان بن عفان ، ولم يتخلَّف عن بيعته أحد[4].

فهذه النصوص الثابتة والأقوال الكثيرة وحقائق التاريخ الشهيرة تُثبت

---

(١) منهاج السنة: ١/ ٣٣١.
(٢) الإبانة عن أصول الديانة ، ص٦٨.
(٣) الإمامة ، ص٢٩٩ ـ ٣٠٠.
(٤) منهاج السنة: ١/ ٣٣٠ ، وانظر: ٣/ ٦٠٩.

أن بيعة عثمان كانت بيعة تامة عامة بالإجماع ، شَدّت فيها على يمين عثمان أيمانُ أصحاب الشورى والمهاجرين والأنصار وأعلام الصحابة وعامتهم ، والتابعين بإحسان ، وقادة الجنود ، وولاة الأمصار ، ما خالف في ذلك أحد ، ولا نقل التاريخ تردداً أو مناوأة من أحد.

رابعاً: حقائق دامغة لأباطيل زائفة:

أختم هذا الفصل بهذه الفقرة التي أسلِّط الضوءَ فيها على بعض الروايات التالفة التي تضادّ ما قدَّمناه من أحاديث صحيحة ثابتة ، فشوَّهت سِير أعلام صحابة نبينا ﷺ الذين رباهم على عينه ، واستخلَفهم الله من بعده على دينه وائتمنهم على وحيه وسنة نبيه! وأشير أيضاً إلى طرف من أقوال الكتّاب الذين زاغت بهم الأهواء ، فتجانفوا للإثم وجنحوا للباطل ، وأَلْقَوا الكلامَ على عَوَاهنه ، وهانت عليهم أمانة الكلمة فأرسلوا الكلام جزافاً ، وأطلَقوا لأقلامهم العنان لتخوض في أعراض أفضل جيل عرفته البشرية ، فكشفوا بذلك عن جَوْر منهجهم وسوءِ طويَّـتهم وحَنَقِهم على الحق وأهله.

١ ـ بعض روايات المؤرخين:

أ ـ جاء في رواية أن عمر قال لصُهيب: (صلِّ بالناس ثلاثة أيام ، وأَدْخِل عليّاً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إنْ قَدِم ، وأَحضِرْ عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر ، وقُمْ على رؤوسهم ، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبَى واحد؛ فاشْدَخْ رأسَه بالسيف. وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان ، فاضرب رأسيهما. فإنْ رضي ثلاثةٌ رجلاً منهم وثلاثةٌ رجلاً منهم ، فحكِّموا عبدَ الله بن عمر ، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم ، فإن لم

يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس!)[1].

وهي رواية ساقطة رواها أبو مِخْنَف وغيره ، وأبو مخنف شيعي محترِق تالف. ثم إن المعروف المشهور أن صُهيباً قد عيَّنَه الفاروق لإمامة الناس في الصلاة ، وأمر أبا طلحة الأنصاري أن يكون في خمسين من الأنصار لحماية المرشحين والانتخابات. وهي أيضاً منكرة في غاية النكارة لأنها تضادُّ الروايةَ الصحيحة المتقدمة: (ولْيَخْلُ هؤلاء القوم في بيت ، فإذا اجتمعوا على رجل منهم ، فمن خالفهم فاضربوا رأسه)[2] ، أي مَن خالف أولئك النفر الستة أصحاب الشورى.

ثم كيف يُنسب هذا القول المنكر إلى عمر ، وهو يعلم وكل الصحابة وعامة المسلمين منزلةَ أصحاب الشورى في الإسلام ، والذين رضي عنهم النبي ﷺ وقدَّمهم عمر للشورى من أجل ذلك ، ولعلمه أنهم من صفوة الصحابة!.

لكن رواةَ الكذِب يَسهل عليهم إلقاءُ الكلام هكذا ، بل ونسبته إلى الفاروق عمر!.

ومثلها رواية ابن سعد عن سِمَاك بنِ حَرْب: أنَّ عمر سمَّى الستة أصحاب الشورى ، وقال للأنصار: (أَدْخِلُوهم بيتاً ثلاثة أيام ، فإن استقاموا ، وإلا فادْخُلوا عليهم فاضرِبوا أعناقَهم!)[3].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٢٩.

(٢) تقدم: ص ١٧٠ في هذا الكتاب.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ٣٤٢.

وهي رواية منقطعة ضعيفة؛ سِماك لم يدرك عمر وقد ولد بعد وفاته بدهر ، وهي أشد نكارة من سابقتها.

وقد روى رواية أبي مخنف: اليعقوبي[1] ، وابن أبي الحديد[2] ، وغيرهما ، وأوردها العقاد[3] ، واعتمدها صادق إبراهيم عرجون[4]! ولا عَتْبَ على الثلاثة الأوَّلين؛ فاليعقوبي وابن أبي الحديد شيعيان ، والعقاد لا يتحرى في الرواية ، ولكن العجب من العلامة صادق عرجون كيف راجَتْ عليه وهو العلامة الناقد المحقق؟!.

وهي رواية في غاية السقوط والبطلان والنكارة ، وتخالف النقل والعقل ، وقد أبطلها شيخ الإسلام ابن تيمية بكلام نفيس ، ومنه قوله: (هذا من الكذب على عمر ، ولم يَـنقل هذا أحدٌ من أهل العلم بإسناد يُعرف ، ولا أَمَر عمر قطُّ بقتل الستة الذين يَعلم أنهم خيارُ الأمة. وكيف يأمر بقتلهم ، وإذا قُتلوا كان الأمر بعد قتلهم أشد فساداً؟! وأيضاً فمن الذي يتمكن من قتل هؤلاء ، والأمة كلها مطيعة لهم ، والعساكر والجنود معهم؟! ولو قال هذا عمرُ فكيف كان يسكت هؤلاء الستة ، ويمكِّنون الأنصار منهم ، ويجتمعون في موضع ليس فيه من ينصرهم؟! . . . فهذا من اختلاقِ مفترٍ لا يدري ما يَكتب لا شرعاً ولا عادة)[5].

ب ـ واقتحم ابنُ أبي الحديد سُجُفَ الغيب ، وتألَّى على الله ، وحَكَم

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧١.

(٣) عبقرية عثمان ، ص١٠١.

(٤) عثمان بن عفان ، ص٦٢.

(٥) منهاج السنة: ٣/ ٦٢٠ ـ ٦٢١ ، باختصار.

على نيّات الصحابة وافترى عليهم؛ بأن طلحة تنازل عن حقه في الخلافة لتقوية جانب عثمان ، ولأنه منحرف عن علي ، فهو تَيْمي وابنُ عمٍّ أبي بكر ، وقد كان حَصَل في نفوس بني هاشم من بني تَيْم حَنَقٌ شديد لأجل الخلافة ، وكذلك صار في صدور بني تَيْم على بني هاشم ، وهذا أمر مركوز في طبيعة البشر ، وخصوصاً طينة العرب وطباعها! .

وكذلك الزبير وَهَب حقَّه لعلي ، لما رأى عليّاً قد ضَعُف وانخزل بهبةِ طلحة حقَّه لعثمان ، دخَلَتْه حميةُ النَّسب لأنه ابنُ عمة أمير المؤمنين علي[1]! .

هذه نماذج نذكرها للتمثيل لخطايا وأخطاء المؤرخين والكتّاب ، ليكونوا مثلاً لأشباههم .

فأصحاب رسول الله ﷺ كانوا أخلَص الناس عملاً ، وأطهرَهُم قلوباً ، وأصدَقَهم قولاً ، وأجرأَهم موقفاً ، وأبعدَهُم عن حميَّة النَّسب والجاهلية ، فرميُهم بمثلِ هذا الكلام خطيئة كبرى وجرأة فاجرة ، وهي من الكلمات التي تُورد قائلَها المهالك .

وابن أبي الحديد مع انحرافه عن الصحابة وغلوِّه بالوقيعة فيهم ، كيف تسنَّى له مثلُ هذا القول وهو لم يعاصِرْهم ولا كان قريباً من الأحداث ، ثم يستشف منها تلك النتائج الخطيرة ، أفتراه كُشِف له الغيب واطلع عما يدور في القلوب حتى قال ما قال؟! .

ج ـ ما رواه الطبري وغيره من اتهام عليٍّ لابن عوف بأنه خَدَعه ، وتلاحيهما :

---

(١) شرح نهج البلاغة : ١/ ١٧١ .

فرواية تذكر أن علياً قال لعبد الرحمن: (حَبَوْتَه حَبْوَ دهر، ليس هذا أولَ يوم تظاهرتُم فيه علينا، فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفون. والله ِما ولَّيتَ عثمانَ إلا ليردَّ الأمرَ إليك، واللهُ كل يوم هو في شأن. فقال عبد الرحمن: يا عليُّ، لا تجعلْ على نفسك سبيلاً، فإني قد نظرتُ وشاورتُ الناسَ، فإذا هم لا يَعْدِلون بعثمان. فخرج علي وهو يقول: سَيبلُغ الكتابُ أجلَه)[1].

وفي رواية أخرى: (وازدحَمَ الناسُ يبايعون عثمانَ حتى غَشَوْه عند المنبر، فقعد عبد الرحمن مقعدَ النبي ﷺ من المنبر، وأقعدَ عثمانَ على الدرجة الثانية، فجعل الناس يبايعونه، وتلكَّأ عليٌّ، فقال عبد الرحمن: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. فرَجَع عليٌّ يَشقُّ الناسَ حتى بايع وهو يقول: خَدْعة وأيّما خَدْعَة!)[2].

ومشى على هاتين الروايتين واعتمدهما كثير من الكتاب المعاصرين[3].

والرواية الأولى تالفة فيها أبو مِخْنف، والرواية الثانية موضوعة فيها عبد العزيز بن أبي ثابت: متروك، وقال يحيى بن معين: ليس بثقة!.

والذي قدمناه من روايات صحيحة وثابتة عند البخاري وغيره تدل بوضوح لا غموضَ فيه أن عبد الرحمن بن عوف أخذ على علي وعثمان:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٣.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.
(٣) انظر مثلاً: تاريخ الإسلام السياسي: ١/ ٢٠٩.

(فاللهُ عليكَ لئن أَمَّرتُكَ لتعدلنَّ ، ولئنْ أمَّرْتُ عثمانَ لتَسمعنَّ ولَتُطِيعنَّ؟ ثم خَلاَ بالآخر فقال مثلَ ذلك). (أيْ فلان ، عليكَ عهدُ الله وميثاقُه لَتَسمعنَّ لِمن وَليها ، ولَترضَيَنَّ ولتُسلمنَّها؟ فيقول: نعم رافعاً صوته. حتى فَرَغ منهم رجلاً رجلاً) ، فبايَعَ ابنُ عوف عثمانَ ، ثم بايعه عليٌّ والآخرون ، والعامة.

فهذه الأيمان والعهود والمواثيق والرضا بها؛ يجزم كل منصف أنها لو صدرت من آحاد المسلمين لوفَّى بها ، فكيف بأكابر سادات الصحابة وأعيانهم من أمثال علي؟!.

أَفَترى عليّاً يَنكث بوعده ويغدر بعهده ويَحنث بيمينه ، ويتخلى عن رجولته ومروءته ونُبْله وشجاعته؟! ما هذا السخف والإفك المفترى الذي تدَّعيه هذه الروايات؟!.

ثم هل اطَّلع عليٌّ على مكنون نفس ابن عوف وكَشَف مخبوءَه وعَلِم ما أضمره من إرادة تأمير عثمان لابن عوف بعد وفاته؟! وتزعمُ الرواية أن عليّاً أقسم قائلاً: والله ما ولَّيتَ عثمانَ إلا ليردَّ الأمر إليك! أَطَّلع عليٌّ على الغيب يا ترى؟!.

وأيضاً من الذي يضمن لابن عوف أن يعيش بعد عثمان ليعهدَ إليه بالخلافة من بعده؟! هل يضمن عبد الرحمن لنفسه الحياة؟! وقد كَشفت تدابيرُ القدر كذبَ الرواية؛ فتوفي ابن عوف سنة (٣٢هـ) قبل عثمان بثلاث سنين!.

زِدْ على ذلك أن عبد الرحمن قد زَهِد بالخلافة وقد جاءت إليه ،

وما زاحم عليها ، ولا تمناها ، بل خَلَع نفسَه منها ، وترك الأمر شورى بين اثنين : عثمان وعلي .

فمثل هذه الروايات التافهة ساقها مؤرِّخونا غفر الله لهم ، فوقعتْ بأيدي أناس غير منصفين وآخرين من ذوي الهوى والبغض للصحابة ، فجمَّلوها وروَّجُوها ونشروها بين العامة ، وشوَّهوا الحق وسيرةَ أولئك الرجال الأماجد العِظام ، واتهمتهم بأنهم مخادعون ماكرون طلاب سلطة .

وقد زَيَّف ابنُ كثير هذه الروايات وأشباهها ، فقال : وهي مردودة على قائليها وناقليها[1] .

د ـ اتهام الصحابة بأنهم حابوا عثمان ضد علي ، وجاروا على آل البيت :

وأصل هذه الأُخلوقة رواها الطبري عن أبي مِخْنَف وغيره : أن عبد الرحمن بن عوف قال : أشيروا عليَّ ، فقال عمار : إنْ أردتَ ألاَّ يختلف المسلمون فبايِعْ علياً ، فقال المقداد بن الأسود : صدق عمار ، إن بايعتَ علياً قلنا : سمعنا وأطَعنا . قال ابن أبي سَرْح : إنْ أردتَ ألا تختلفَ قريش فبايعْ عثمانَ ، فقال عبد الله بن أبي ربيعة : صدق ، إن بايعتَ عثمان قلنا : سمعنا وأطعنا . فشَتَم عمار ابنَ أبي سرح وقال : متى كنت تنصح المسلمين؟! فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، فقال عمار : أيها الناس ، إن الله عز وجل أكرمنا بنبيِّه ، وأعزَّنا بدينِه؛ فأنَّى تَصْرِفون هذا الأمرَ عن أهل بيت نبيِّكم؟![2] .

---

(١) البداية والنهاية : ٧/ ١٤٧ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

وطوَّر مؤرِّخو الشيعة هذه الرواية ، وأغرقوا في الغلو ، ونَقل أحدُهم الخبر فقال: (فروى بعضهم قال: دخلتُ مسجدَ رسول الله ، فرأيتُ رجلاً جاثياً على ركبتَيْه يتلهّفُ تلهُّفَ من كأن الدنيا كانت له فَسُلبها ، وهو يقول: واعجباً لقريش ، ودفعِهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم ، وفيهم أولُ المؤمنين ، وابنُ عم رسول الله أعلمُ الناس وأفقههم في دين الله ، وأعظمُهم غَناءً في الإسلام ، وأبصَرُهم بالطريق ، وأهداهم للصراط المستقيم. والله لقد زَوَوْها عن الهادي المهتدي الطاهر النقي ، وما أرادوا إصلاحاً للأمة ولا صواباً في المذهب، ولكنهم آثَروا الدنيا على الآخرة ، فبُعْداً وسُحْقاً للقوم الظالمين! فدنوتُ منه فقلت: مَن أنت يرحمك الله ، ومن هذا الرجل؟ فقال: أنا المقداد بن عَمْرو ، وهذا الرجل علي بن أبي طالب. قال: فقلت: ألاَ تقومُ بهذا الأمر فأُعِينك عليه؟ فقال: يا ابن أخي ، إن هذا الأمر لا يجري فيه الرجل ولا الرجلان. ثم خرجتُ ، فلقيتُ أبا ذر ، فذكرتُ له ذلك ، فقال: صدق أخي المقداد. ثم أتيت عبد الله بن مسعود ، فذكرت ذلك له ، فقال: لقد اخترنا فلم نألُ)[1].

ورواية الطبري ساقطة سَنَداً لأن فيها متهماً هو أبو مِخْنَف ، وساقطة متناً لأنها تخالف الروايات الصحيحة التي قدمناها.

وأما رواية اليعقوبي فَتَجِيشُ بالكذب والافتراء ، والرجل قد أَرسلها عن مجهولين قائلاً: (فروى بعضهم) ، ولو أَبرز لنا أسماءهم لكشفنا عن منزلتهم في ميزان (الجرح والتعديل). وكل جملة في متْنها تحمل الكذب والافتراء على آل البيت وعلي والصحابة رضي الله عنهم جميعاً ، الذين

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٥٧.

بايعوا عثمان من غير إكراه ولا رهبة ولا رغبة ، بل بايعوه متطاوعين متآخين .

وواقع التاريخ وحياة الصحابة وأخلاقهم وسيرورة الحياة في عهد عثمان؛ كل ذلك يدين تلك الرواية ويشهد ببطلانها .

والله لو أن رسول الله ﷺ أوصى إلى عليٍّ أو إلى أحدٍ من آل البيت أو غيرهم من أصحابه؛ لأنفذَ الصحابة جميعاً أمرَه ، ولاستبسلوا في تحقيقه ولو على قطع أعناقهم ، كما شَهدتْ لهم بذلك حقائق التاريخ في متابعتهم للنبي ﷺ والتزامهم بسنته وعملهم بهديه! وشهادة الله سبحانه لهم في كتابه ، وشهادة رسول الله ﷺ لهم في صحيح سنته؛ أعظمُ دليل على خيريَّتهم وصدقهم ونُبْلهم .

فكيف يروي عاقل مثل تلك الرواية التالفة، فضلاً عن أن يَقبلها ويصدِّقها ثم يدوِّنها في كتاب يتناقله الناس جيلاً بعد جيل؟ والكذبة التي تنتشر في الآفاق على صاحبها من الوزر بمقدار ما تُحْدِثه من ضلال وانحراف! .

٢ ـ نماذج من كتابات المعاصرين:

أ ـ روَّج كثير من الكتاب المعاصرين أن (بني أُميَّة أدَّوا دوراً نشطاً في توجيه «الرأي العام» نحو عثمان ، ونظَّموا دعاية واسعة له ، بهدف تعزيز نفوذهم الذي فقدوه بعد فتح مكة ، ونجحوا في استعادته جزئيّاً في عهد أبي بكر وعمر. فقد تنافسوا مع بني هاشم في تعاقب خطبائهم على منبر مسجد النبي ﷺ. كان هناك إذن تياران

متنافسان مرتبطان بالسابقة في الإسلام وبروابط الدم)[1].

وقد بنَى هؤلاء رأيَهم على رواية أبي مِخْنَف التي قدّمناها وبيَّنَّا وهاءَها[2]، وأثبتنا الروايات الصحيحة التي تنفي أي ملاحاة بين الصحابة أو تحزّبٍ أو خروجٍ على البيعة والإجماع، ومن ذلك قولُ عبد الرحمن بن عوف: (إني لَم أَزَلْ دائباً منذ ثلاثٍ أَسألكم عن هؤلاء النَّفَر، ثم سألتُهم عن أنفسهم، فوجدتُكم أيها الناس وإياهم اجتمعتم على عثمان، قم يا عثمان. فلم يقلْ رجلٌ من المهاجرين ولا الأنصار ولا وفود العرب وصالحي الناس: إنك لم تستشرْنا ولم تستأمرنا، فرضوا وسلَّموا). وكان عبد الرحمن كلما دعا رجلاً من المرشحين للخلافة ذكر مناقبهم، ثم قال: (إنك لها لأهلٌ، فإن أخطأَتْكَ فمن؟ فيقول: إن أخطأَتْني فعثمان)[3].

فأين ذلك الرأي المتهوِّر المفتري من هذه الرواية الناصعة النظيفة الثابتة، فها هم أولاء رجالُ الشورى والمهاجرون والأنصار ووفود العرب وصالحو الناس؛ كلهم رضي وبايع وسلَّم. وأين الأحزاب والدعاية الإعلامية وروابط الدم والنسب و... أين كل ذلك ومن أين جاؤوا به واختلقوه؟!.

وهؤلاء الكتاب: إما أنهم قد قَصَرَت هِمَمُهم فلم يطّلعوا على جميع

---

(١) انظر: عبقرية عثمان، ص٤٢ ـ ٤٦؛ عثمان بن عفان، لهيكل، ص ٣٢، ٩٨، ١٠١؛ الفتنة، لهشام جعيط، ص٦٦ ـ ٦٨؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لمحمد سهيل طقوش، ص٣٧٠.

(٢) تقدم: ص ١٩١ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

(٣) انظر ما تقدم: ص ١٧٦ ـ ١٨٠ في هذا الكتاب.

الروايات ، ووقفوا على الرواية الواهية فاعتمدوها وروَّجوها ، فهم بذلك مقصِّرون مخطئون ، قد جَنَوا على التاريخ فلم ينقدوا رواياته في ضوء الموازين الصحيحة التي تليق بجيل الصحابة وأعيانهم.

أو أنهم أحاطوا بجميع الروايات ، فدلَّسوا على الناس وأشاعوا الباطل منها وكتموا الصحيحة؛ وهذا وزرٌ مضاعف: كتمانُ العلم ، وبُغْض الحق ، وتضليل الرأي العام!.

ب ـ فرية أن اختيار عثمان كان قراراً اجتماعيّاً للانعتاق من منهج عمر القاسي!.

قال أحدهم: (لقد توضحت إذن الأجواء الاجتماعية والقوى الاجتماعية ـ السياسية ، التي أعاقت تسلُّمَ عليٍّ الخلافةَ بعد عمر ، وبدا واضحاً أن شدة علي ستُضاهي شدة عمر ، لكن قريشاً كانت تسعى إلى تحول في التعامل معها. وقد دفع هذا المزاجُ السائد عثمانَ إلى الخلافة حيث علَّقت عليه قريشٌ آمالَها في تصفية نهج عمر نحوها ، وبالتالي في فتح الباب أمامها للانطلاق نحو الأمصار ، كما دلَّت عليه التطورات اللاحقة ، فشخصيةُ عثمان كانت أقربَ إلى تفكير وطباع قريش من عمر وعلي. وهكذا كان اختيارُ عثمان خليفةً قراراً اجتماعيّاً ولم يكن مفاضلة بين صحابيين!)[1].

وهذا نمط جديد من الافتئات على الحقيقة وتزويرِ التاريخ واتهامِ

---

(١) الإسلام والسلطان والملك ، لأيمن إبراهيم ، ص ٢٣٣ ؛ وتابعه محمد سهيل طقوش في كتابه «تاريخ الخلفاء الراشدين» ، ص ٣٧٣؛ وبنحوه عند هيكل في كتاب «عثمان» ، ص ٣٢.

الصحابة وخاصة أكابرهم وعلى رأسهم عمر ، فلقد شهد القاصي والداني ، والعدوُّ والصديق ، والتاريخ القديم والحديث؛ لأمير المؤمنين عمر بالعدالة والنزاهة والرأفة والرحمة والقيام بأعباء المسؤولية على وجه لا يَطمع أحدٌ أن يصل إليه ، حتى نَعمت الحيوانات برحمته وعدله ، وكان يخشى أن يسأله الله عن عِثار دابة على شاطئ الفرات! فما الداعي إلى وَصْمِه بالقسوة والشدة ، وأن قريشاً قد سَئِمت منهجه ، وعملت على صرف الخلافة عن علي حتى لا يسير بهم بسيرة عمر؟! فأيُّ عيبٍ في خلافة الفاروق؟! .

ثم إن عليّاً استُخلف بعد عثمان ، فلم يتكلم أصحاب هذا (الاتجاه المزعوم) ولا مَنْ سبقهم ولا من لحقهم بأن عليّاً سار في الناس على سَنَن عمر. بل إن عليّاً نفسه لما اشترط عليه عبدُ الرحمن بن عوف أن يسير على هَدْي أبي بكر وعمر ، توقف علي وقال: على قدر طاقتي ، وقَبِل عثمان ، فبايَعَه ابنُ عوف وبايعه الناس. وهذا يَدْحَض هذه الدعوى المفضوحة التي اختلقها أمثال هؤلاء.

إن قرار اختيار عثمان كان قراراً إسلاميّاً شوريّاً اختياريّاً عامّاً ، أَمْلَتْه على جميع المسلمين ، الصحابة فمن سواهم ، المقارنةُ والموازنة والمفاضلة بين عثمان وعلي في فضائلهما وأعمالهما وسوابقهما وخصائصهما ، وليس واقع الحياة الاجتماعية والتيارات المتصارعة المزعومة.

ج ـ دعوى أن عليّاً وبني هاشم لم يستريحوا لبيعة عثمان:

يقول محمد حسين هيكل بعد حديثه عن «الشورى والاستخلاف»: (لكن ثَمَّةَ أمرين لا ريبة عندي في صحتهما: أولهما: أن عليّاً وبني هاشم

لم تسترِحْ نفوسُهم لبيعة عثمان ، بحجَّة أنهم أهلُ بيتِ النبيِّ ، فإذا أَلقت الخلافة مقاليدَها إليهم لم تخرج منهم أبداً. الأمر الثاني: أن الكثرة الكبرى من المسلمين استراحت لبيعة عثمان ، وأقبلَتْ عليها راضية مطمئنة)[1].

ونحن نقول: بل الريبُ كلُّ الريبِ في صحة الأمر الأول ، والجزمُ ببطلانه. وأما الأمر الثاني فالصواب أن الأمة كلها استراحت لبيعة عثمان ، وبايعوا بيعة إجماع ورضا وتسليم كما دلَّت على ذلك الرواياتُ الصحيحة التي أوردناها ، وأكَّدتْها حقائق التاريخ في عهد عثمان.

ولسنا بحاجةٍ إلى إطالة رِشاء القول في الردِّ على هذا الكلام المختلَق، ولكننا نقول:

مَن الذي أَجبر عليّاً وبني هاشم على البيعة؟ ولماذا بايعوه وسكتوا ؟ أفتراهم ضعفاء جبناء؟ حاشاهم! وأين النقل الصحيح الثابت في هذه المسألة الخطيرة؟ وهَبْهُم بايعوا مجبرين أو مجاملة ، فلِمَ سكتوا طيلةَ خلافة عثمان ، ولم يتبرَّموا به ويُثيروا الناسَ عليه؟ ولماذا وقف علي من (الخوارجِ السبئيين) موقفَ المدافع عن عثمان والمنافح المناصر له ، فهلاَّ أسْلمَه إليهم ليستريح منه؟! وعندما آلت الخلافة إلى علي لماذا لم نسمع منه أيَّ تصريحٍ صحيح بأنه بايع عثمان على مَضَض وكُرْه منه ومن بني هاشم؟!.

أسئلة كثيرة تدحضُ زعمَ هيكل ، وليس بمقدوره هو وسواه أن يجيب عليها بكلام مقنِع يضع الأمور في سياقها الصحيح.

---

(١) عثمان بن عفان ، ص ٣٦.

د ـ ما جرى في (قصة الشورى واستخلاف عثمان) بعيدٌ عن الشورى:

ذكر غيرُ واحد من الكتَّاب المعاصرين أن الشرط الذي اشترطه عبد الرحمن بن عوف في السير على (منهج أبي بكر وعمر) للترجيح بين المتنافسين قد يكون تصريحاً طُلب من عثمان وحده بعد اختيار الأغلبية له، ويُبرِزه وكأنه أكثرُ الأعضاء توافقاً مع التحولات المنشودة. فهو إلى جانب كونه واحداً من النخبة في الإسلام، كان ينفرد عن الآخرين بانتمائه إلى البيت الذي كانت له الزعامة الفعلية إبان ظهور الإسلام، ذلك البيت الذي بات يمثل، بعد اغتيال عمر، أحدَ أقوى مراكز النفوذ في الدولة الإسلامية.

ويضيف آخر فيقول: والواقع أن ما جَرى من مشاورات مكثَّفة داخل مجلس الشورى وخارجه، وما أحاط بهيئة المجلس من اتصالات خارجية؛ كانت بعيدةً عن الشورى في الشكل والمضمون[1]!.

نقول: هذا كلام كله حَيْفٌ وجَوْر ومجازفة واتهامٌ بالباطل للصحابة وللمنهج الذي اتبعوه والنتيجة التي توصلوا إليها واتفقوا عليها. فلكلِّ عصر طبيعتُه وملابساته وطرائقه وأساليبُه في انتخاب رئيس الدولة وتسليمه منبرَ الحكم في أعلى مؤسساته. ولا يصح في شرعة الحق وموازين العقل السليم وأسس البحث المنصف؛ تحكيمُ ما تعارف عليه الناس اليوم على جميع الأزمنة وعامة الأحوال والظروف ومختلِف

---

(١) انظر: الفتنة، لهشام جعيط، ص٦٧ ـ ٦٨؛ المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، لعدنان ملحم، ص٩٠؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لمحمد سهيل طقوش، ص٣٧١.

البيئات وأنواع الدول. فالمهم في الشورى أن يكون تولي الخليفة بإرادة الأمة وحسب منهجها والتمسك بمبادئها وأهدافها وغاياتها، بغضِّ النظر عن الأساليب المتبعة في تحقيق ذلك.

وإذا لم يكن ما فعله عبد الرحمن بن عوف في استشارة (أعضاء مجلس الحكم)، ورؤوس الصحابة، والمهاجرين والأنصار، وقادة الجند، وولاة الأمصار، وصالحي الناس، ووفود الأعراب، والغلمان في المكاتب، وذوات الخدور، ثم العمل الحثيث في الليل والنهار لاستيعاب أكبر قدر ممكن من الناس، حتى أجمع الصحابة على بيعة عثمان ـ نقول: إذا لم يكن ذلك كله شورى، فكيف تكون الشورى يا ترى؟! وكيف يريدها هذا الكاتب ومن على شاكلته؟!.

وإذا لم تكن شورى، فهو الاستبداد والتفرد بالحكم!.

وواقع الحال يخالف ذلك، فكل المسلمين قد رضوا بترشيح عثمان واستلامه قيادة الأمة، وبايعوه جميعاً، ولم يرفضْه أحدٌ ولا افتأَتَ عليه، ولم يحدثنا التاريخ عن معارضة ظاهرة أو خفية ضده، بل الجميع أثنى عليه، وعاشوا في حرية وأمان ورغد من الحياة في القسم الأعظم من خلافته... وهذه أينَعُ ثمرات الشورى التي تكون عن رضا الأمة عامتها وخاصتها.

وزعمُ الكاتب بأن شَرْط عبد الرحمن بن عوف (في السير على سنَّة الله ورسوله وسيرة أبي بكر وعمر) للترجيح بين عثمان وعلي، قد يكون طُلب من عثمان وحده ـ هو زعمٌ باطلٌ، وقد جاءت الرواية الثابتة بهذا

الطلب صريحاً لعثمان وعلي[1] ، بل إن عبد الرحمن بدأ بعليٍّ ، رضي الله عنهم .

ونكرر القول والتذكير بأن الكلمة أمانة ، سوف يُسأل عنها قائلها وكاتبها ويحاسب عليها في الدنيا والآخرة .

* * *

(١) انظر ما تقدم : ص ١٧٩ حاشية (١) في هذا الكتاب .

الفصل الثالث

أسس دولة الخلافة وأركانها

أولاً: اتباع منهج عمر:

كان من شروط بيعة عثمان ومن الأسباب التي قدَّمَتْه على عليٍّ في الاستخلاف؛ قبوله بالسير على هدي أبي بكر وعمر. ولقد وفَّى عثمان رضي الله عنه بما شُرط عليه، كما شهد له بذلك الخيِّرون المعاصرون له، وبرهنَتْ عليه أيام خلافته. والتغيير الذي حدث في أخريات عهده كان من افتئات عناصر لا ترجو لله وقاراً، ولا تريد بالأمة خيراً، فبدَّلت وغيَّرت وخالفت، فبدَّل الله أحوالهم.

وقد نبَّه عثمان على ملازمته منهج عمر، فقال في مستهل أيام خلافته: (وقد وَضَع لكم عمر ما لم يَغِبْ عنَّا، بل كان عن ملأ منَّا، ولا يبلُغَنِّي عن أحدٍ منكم تغيير ولا تبديل فيغيِّر الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون)[1].

وفي حديث المِسْوَر بن مَخْرَمة وهو شاهد عيان: (فلبثوا ستَّ سنين لا يعيبون شيئاً. قال: كان طائفة منهم يفضِّلونه على عمر؛ يقولون: العدلُ مثل عمر، واللِّينُ ألين من عمر. ثم حَدَث ما حدث)[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٥.

(٢) تقدم: ص ١٧٨ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

وأكَّد عثمان ذلك بتعميمه على العامة وأمرِهم باتباع سنّة النبي ﷺ وخليفتيه من بعده ، فكتب إليهم : (أما بعدُ ، فإنكم إنما بَلَغْتم ما بلغتُم بالاقتداء والاتباع ، فلا تَلْفِتنكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع)[1] .

وتمثَّلت سياسةُ عثمان في مراقبة الولاة والاستماع إلى رأي الناس فيهم ، والاجتماع بهم في موسم الحج لمدارسة أحوال الولايات جرياً على السياسة العمرية. وأرسل المفتشين إلى الأمصار للتعرف على أحوالها عن كَثَب ، كما أرسل كتباً إلى أهل تلك البلدان توضح سياسته تجاه الرعية وحرصه على حقوقهم وقبول شكاويهم على ولاتهم إذا أصابهم ظلم ، ودعا المظلومين إلى رفع ظلاماتهم إليه مباشرة في اجتماع عام في موسم الحج . . . وكل هذا من منهج الفاروق عمر[2] .

واستمرت مؤسسات الدولة ونُظُمها على النهج الذي أبدعه عمر ونظَّمه وقَنَّنَه ، ولم تنقل كتب التاريخ ما يشير إلى أن عثمان غيَّر فيه ، بل ربما طَوَّر في بعض جوانبه كما حدث ذلك في العطاء مثلاً . وسيتضح جميع ما سبق بالأمثلة في الفصول القادمة .

ونشير هنا إلى شيء مهم خالف عثمان فيه طريقة عمر وسياسته ، ويتمثل ذلك في تخفيف (المركزية) التي كان الفاروق يتصف بها بوضوح ، بينما كان عثمان ميَّالاً إلى المركزية في القضايا الكبرى والأمور المفصلية وأصول الحكم وأركانه ، وفي الوقت نفسه أتاح مساحة جيدة

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٤٥ .

(٢) انظر : الولاية على البلدان ، ص ٢٩٢ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٣٦ .

لمبدأ (اللامركزية) للولاة وقادة الفتوح. وليس في هذا مخالفة لهدي عمر ، فهو من أبواب الاجتهاد ، ولكل حاكم شخصيته وطريقته وأسلوبه في سياسة الدولة ، كما أن لكل عهد وجيل خصائصه ومتغيراته وظروفه وملابساته ، فإن اتساع رقعة الدولة وتطور المجتمعات وتمازج أنسجتها؛ يتطلب مواءمتها عبر أساليب جديدة تناسب الأحوال ، وتفقه الواقع الإنساني والاجتماعي والمادي.

ثانياً: العدالة:

●● نقل لنا المِسْوَر في حديثه الصحيح عن طائفة من الذين بايعوا عثمانَ وعاشوا في عهده وعاينوا سياسته ، قال: (كانوا يفضِّلونه على عمر ، يقولون: العدلُ مثلُ عمر ، واللِّين ألينُ من عمر).

وهذه الشهادة من الخيِّرين الصادقين الذين عاصروا عهدَي الخليفتين (عمر وعثمان)؛ كافية للدلالة على جلالة عثمان ومنهجه في إقامة العدل استمراراً لمسيرة الفاروق.

ولقد تجلَّت أبهى صُور العدل طيلة عهد عثمان ، حتى في أحرج الأوقات عندما ثارت الفتن واستهدف السبئيون نفسَه الطاهرة! فيروي لنا إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فيقول: (إنْ وجدتُم في كتاب الله أن تضعوا رجْلَيَّ في قيود فَضَعُوهما)[1].

وعن حبيب بن أبي مرزوق قال: (دخل عثمان بن عفان على غلامٍ له يَعلِف ناقة ، فرأى في عَلَفها ما كَرِه ، فأخذ بأُذن غلامه فعرَكَها ، ثم نَدِم

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٠؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٩١؛ زيادات عبد الله بن أحمد على مسند أبيه (٥٢٤) ، وصححه أحمد شاكر.

فقال لغلامه: اقتصَّ، فأبى الغلام، فلم يَدَعْه حتى أخذ بأُذُنه فجعل يَعركها، فقال له عثمان: شُدَّ، حتى ظَنَّ أنه قد بَلَغ منه مثلَ ما بلغ منه، ثم قال عثمان: واهاً لِقصَاص قبل قِصاص الآخرة!)[1].

ويقول الحسن البصري: (رأيتُ عثمانَ بن عفان يَـقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة، ويقوم وأثَـرُ الحَصْبَاء في جنْبِه، فنقول: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين)[2].

فهذا الرجل الكبير الذي يحكم دولة مترامية الأطراف، متعددة الأعراق والأجناس والقوميات، ينام في المسجد بلا حارسٍ ولا حاجبٍ، نومةَ إنسان مطمئن إلى أنه ليس في الأمة أحدٌ يَطلبه بمظْلِمة أو يشكو من جَوْر، فيحاول الانتقام منه أو البطش به!.

●● وعمَّمَ أمير المؤمنين عثمانُ العدالةَ على جميع الناس في الأمصار، ووجَّه كُتبه في ذلك إلى الولاة والقادة ووجوه الناس.

جاء في أول كتاب وجَّهَه إلى عماله: (ألاَ وإن أعدَل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُـثَنُّوا بالذِّمَّة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتِحوا عليهم بالوفاء!).

وكتب إلى عمال الخَراج ووزراء المال: (خذوا الحق وأعطوا الحق. . . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهَدَ؛ فإن الله خصم لمن ظلمهم)[3].

---

(١) تاريخ المدينة، لابن شبة: ٣/١٠١٨.

(٢) تقدم: ص ١١٥ في هذا الكتاب.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٢٤٥.

وكتب إلى واليه على الكوفة سعيد بن العاص: (واحفَظْ لكلٍّ منزلته، وأعْطِهم جميعاً بِقِسْطِهم من الحق، فإن المعرفة بالناس يُصاب بها العدل)[1].

وجاء في كتابه إلى عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح واليه على مصر: (إياك أن تَظلم مسلماً أو معاهِداً)[2].

وكتب إلى الناس في الأمصار: (أن ائْـتَمِروا بالمعروف، وتناهَوْا عن المنكر، ولا يُذِلُّ المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القويِّ ما دام مظلوماً إن شاء الله)[3].

●● وكان ولاة عثمان على مستوى رفيع من العدل كما سيأتي تفصيل ذلك مع أدلته، ومن أشهر الأمثلة أن الوليد بن عقبة ولي الكوفة مدة طويلة ولم يكن على دار إمارته باب! والوالي الفاتح الشهير عبد الله بن عامر بن كُرَيْز فتح بابه ـ في البصرة ـ لجميع الناس، حتى إنه عاقب الحاجب وأمره أن لا يُغلِق بابه ليلاً ولا نهاراً. وذكر الكِنْدي في «ولاة مصر» أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح مكث على مصر أميراً، ولاية عثمان كلها، محموداً في ولايته.

●● ومن أروع الأمثلة على (ركن العدالة) في خلافة عثمان؛ ملازمتُه العدلَ والإنصاف إبّان الفتنة الجامحة، رغم أكاذيب السبئيين وأراجيفهم وخروجهم على ولاتهم، وتزويرهم الكتب، وتنقُّلِ (المسيَّرين) بين

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٩.
(٢) ترجمة ابن أبي سرح في تاريخ ابن عساكر، ص٣٤.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/٣٩٧.

عدة أمصار ، والخليفةُ الراشد يوصي بهم ويأمر ولاته بمعاملتهم بالرغبة والرهبة لعلهم يَثُوبون إلى الحق! .

وفي أيام الحصار الظالم سَمَا عثمانُ إلى سماء عدالته ، فطالَبَ جيوشَ السبئيين بالبينات على أنه يستحق الخلع أو القتل، فألزمهم الحُجَّة ودَمَغَ باطلَهم، موطِّداً في تاريخ الحضارة الإنسانية دعائمَ العدل والرحمة.

ثالثاً: الشورى:

أَوْلَى الناس بملازمة الشورى هو (رئيسُ الدولة) ، لأن كل ما يُجرِيه من أعمال ويُمضِيه من قرارات؛ يُهِمّ الدينَ والدنيا والعباد والبلاد. ولقد وعى الخلفاء الراشدون ذلك فلازموه وعملوا به وكانوا فيه أئمة للناس عامتهم وخاصتهم.

وكان (مجلس شورى عثمان) يضم أكابر الصحابة وعلماءهم ، روى ابن عساكر : (أن عثمان كان إذا جلس على المقاعد[1] جاءه الخصمان ، فقال لأحدهما : اذهَبْ ادْعُ عليّاً ، وقال للآخر : اذهب فادْعُ طلحة والزبير ونفراً من أصحاب النبي ﷺ. ثم يقول لهما : تكلّما ، ثم يُقبِل على القوم فيقول: ما تقولون؟ فإن قالوا ما يوافق رأيه أمضاه ، وإلا نظر فيه بعدُ ، فيقومان وقد سَلَّما)[2] .

وعن عطاء بن يسار : (أن عمر وعثمان كانا يَدْعوان ابنَ عباس ، فيُشير مع أهلِ بدر)[3] .

---

(١) موضع عند باب المسجد النبوي ، أو مساطب حوله.

(٢) مختصر ابن عساكر : ١٦/ ١٤٧ .

(٣) طبقات ابن سعد : ٢/ ٣٦٦.

وشواهد رسوخ هذا المبدأ في عهد عثمان كثيرة ، فمن ذلك :

●● استشارة الصحابة في (جمع القرآن الكريم) ، عندما استفحل اختلافُ الناس في القراءات ، فجمع عثمان المهاجرين والأنصار ، وشاورهم في الأمر ، وفيهم أعيان الأمة ، وأعلام الأئمة ، وعلماء الصحابة ، وفي طليعتهم علي بن أبي طالب .

يقول سويد بن غَفَلَة : سمعتُ عليَّ بن أبي طالب يقول : (يا أيها الناس ، لا تَغْلُوا في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف ، وإحراقِ المصاحف ، فوالله ما فَعَل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منّا جميعاً)[1] .

ـ ولازَمَ الشورى في تسيير الجيوش وعَقْد الألوية وتوسيع الفتوحات ، ومن الأمثلة أن عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح استأذن عثمانَ في فتح إفريقية والتوغل فيها ، فاستشار عثمان من عنده من الصحابة ، فأشار أكثرهم بذلك ، فجهز جيشاً وأمدَّ به ابن أبي سرح .

ـ ولما شكا الناس إليه ضِيق المسجد النبوي وبخاصة يوم الجمعة ، شاور عثمان أهل الرأي من الصحابة ، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه ، ففعل ذلك[2] .

ـ وكان يستشير في القضاء والطلاق والفرائض ومسائل الفقه الكبرى .

●● وفي أحداث الفتنة استمر عثمان على هَدْيه في الشورى بل وسَّع

---

(١) المصاحف ، لابن أبي داود : ١/ ٢١٣ ـ ٢١٤ ، وإسناده صحيح . وسيأتي تفصيله .

(٢) حياة الصحابة : ٣/ ١٠١ .

دائرتها ، فاستشار (مجلس الشورى) وأعيانَ الأمة وولاة الأمصار ، وجعل من أهل المدينة ـ وهم سادة الأمة وأعلامها ـ مجلساً نيابيّاً له حقُّ الرقابة على أعمال السلطة العليا في الدولة ، وقال لهم: أنتم شركائي وشهودُ المؤمنين ، فأشيروا عَليَّ[1] . واستشارهم في معاملة الذين جاؤوه يستعفونه من بعض الولاة. كذلك استشار الولاة فيما يجري في أمصارهم من قالة السوء ، واستمع إلى آراء معاوية وابن أبي سَرْح وعَمْرو بن العاص وسعيد بن العاص وغيرهم من وجوه الناس ، كما سيأتي تفصيل ذلك كله.

●● وعمَّمَ الشورى على أمصار الدولة القريبة والبعيدة ، وكان الولاة والقادة يستشيرونه في شؤون الولاية والفتوحات ، فيوجِّههم ويصدر أوامره ويمدّهم بالجند ، ويأمر بتحرك الجيوش هنا وهناك.

كذلك تقدَّمَ إلى الولاة والقادة بملازمة الشورى واتخاذ مجلس من ذوي الاختصاص يشيرون فيما فيه الصالح العام وسلامة المسلمين.

كتب إلى الولاة والقادة: (أما بعدُ ، فقوموا على ما فارقتم عليه عمرَ ، ولا تبدِّلوا ، ومهما أشكل عليكم فردُّوه إلينا نجمع عليه الأمة ، ثم نردّه عليكم)[2] .

ومن ذلك ما كتبه إلى والي الكوفة سعيد بن العاص بأن يقرِّب إلى مجلسه أهلَ الشرف والسابقة والفضل[3] . وسيأتي مزيد من الأمثلة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤١.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٣) المرجع السابق: ٤/ ٢٧٩.

رابعاً: الأمانة:

وقد أكد الخليفة على هذا الركن الخطير منذ استقبل مقاليدَ الحكم ، فكتب إلى الأمناء على (مال الأمة) وعمال الخَرَاج في أول ما كتبه إليهم ، يقول: (خُذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانةَ الأمانةَ؛ قوموا عليها ولا تكونوا أولَ من يُسلبها ، فتكونوا شركاءَ مَنْ بعدكم إلى ما اكتسبتم)[1] .

ولا تقتصر الأمانة على حفظ المال في موارده ومصارفه ، بل تشمل القيام بحق كل عمل أُنِيط بالإنسان ، يستوي في ذلك الراعي والرعية ، وهي في المسؤولين أولى وأوجب .

وقد شهدت الحقائق الثابتة أن رجال (العهد العثماني) من ولاة وقادة وأمناء وجُبَاة وعلماء وقضاة وغيرهم؛ كانوا على مستوى رفيع من القيام بمهام الأمانة على وجهها المطلوب. وما قيل في حقهم من مطاعن هو محض افتراء وتزوير وأقاويل سوء ، سنبيِّن بطلانها في مواضعها .

خامساً: الحريات:

هذا الركن الضخم من أركان الدولة قد كفله الإسلام ، وتجلى في صور رائعة في عهود الخلفاء الراشدين .

ومن بارع الشواهد عليه في عهد عثمان ما حدث مع (المُسَيَّرين) الذين أساؤوا القول والعمل بشأن الخليفة والولاة ، فتولَّى عثمان وأمراءُ الأمصار ضَبْطَهم وإقناعَهم بالرجوع عن أخطائهم دون البطش بهم. وأَذِن

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٥ .

لهم بالتنقل من الكوفة إلى دمشق ثم حمص ثم الكوفة ، والوالي في كل بلد يتولاهم بالمناصحة والتوجيه لعلهم يرعَوُون.

ومن الأمثلة على حرية الناس في التعبير والتجمع والتنقل؛ موقف الدولة وعلى رأسها الخليفة من إشاعات ابن سبأ وأضاليله وتحركاته مع كبار أتباعه وأعوانه ما بين البصرة والكوفة ومصر ، مع علم الخليفة والولاة ، حتى حدث منهم ما حدث. ولو أن خليفة غير عثمان وولاة غير ولاته الكرام ، لَبَطشوا بهذا الرجل الخبيث وأتباعه وأبادوا خضراءهم! غير أن سماحة الإسلام والحرية التي نشرها للناس قد استوعبت هؤلاء الذين لا يستحقون سوى الضرب على الأيدي والأفواه؛ لأن ما اقترفوه ليس من باب الحرية المنضبطة الهادفة للإصلاح ، بل كانت من صميم الإفساد في الأرض والطعنِ على الإسلام ومبادئه وأركانه وقيمه ورموزه.

ومن قَبيل الاتساع في مبدأ الحرية ما أحدثَهُ الخارجون على والي الكوفة (يوم الجَرَعَة) وانقلابهم عليه ورفضهم ولايته ، مع افتئاتهم عليه وعدم صدقهم فيما ذهبوا إليه ، بيد أن مركز القرار في المدينة استجاب لمطالبهم وأبدَلَهم بأميرهم أميراً آخرَ لعلهم يثوبون إلى رُشْدهم.

وبَلَغ تسامحُ الخليفة مداه في موقفه من الإشاعات الكاذبة في الأمصار ، فأَرسل فريقاً للتحقق منها ، فاستبان له بطلانها ، فما اتخذ بحقِّ مروِّجيها أساليبَ التنكيل والسجن ومَنْع التنقل ، بل لجأ إلى الحوار والمجادلة بالحسنى ، حفاظاً على وحدة الأمة واستقرارها.

وهكذا كان الموقف مع الصحابي الجليل أبي ذَرّ الغِفاري وقد خالف في (مذهبه في المال) جمهورَ الصحابة ، وكان يجهر برأيه قائلاً: بشِّر الكانزين برَضْفٍ من النار يوم القيامة! فلم يُحجر عليه في هذا ،

ولا فُرضت عليه الإقامة الجبرية ، ولا مُنع من الحركة والتنقل والكلام .

وكذلك موقف الخليفة من الصحابي عمار بن ياسر ، وقد خالَفَ في بعض سياسات الدولة ، فما حُجر عليه في هذا ، كما سيأتي بيانه .

سادساً: الربانية:

وهذه الركيزة الأصيلة من أركان الدولة في عهد عثمان تعني نشرَ مبادئ الإسلام وأركانه وشعائره ، وحفظها وحراستها وترسيخها في الأقوال والأعمال والواقع ، والالتزامَ بأخلاقه وأوامره وهَدْيه في كل شيء ، وإضفاءَ مظاهر الرأفة والرحمة والإنسانية على جميع الناس ، وإعلاءَ كرامتهم ، وحراسة حقوقهم ، والوفاءَ لهم بكل ما يحفظ مروءتهم ويؤمِّن رَوْعاتِهم وينفي عنهم غوائلَ الخوف والظلم والتعدي ، ويُسبِغ عليهم الطمأنينةَ على أرواحهم ودمائهم وعيالهم وأموالهم .

●● وقد برز هذا الركن في عهد عثمان قولاً وعملاً ، ومما جاء في كتبه إلى الولاة: إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رُعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جُباة ، ألا وإن أعدلَ السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم .

وألزم الولاة والأمراء والقادة بما ألزمهم به عمر ، وكتب إلى عمال الصدقات والخَرَاج والأمناء: أما بعدُ ، فإن الله خَلَق الخلق بالحقّ ، فلا يَقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به. والوفاءَ الوفاءَ ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهَد .

وتجلَّت الربانية في إحقاق الحق والانتصاف للمظلوم في كل أيام الخلافة ، حتى عندما ماجت الفتن واجتاحت الشائعات الكاذبة كثيراً من

البلدان ، كتب عثمان إلى الأمصار يقول: (فيا مَنْ ضُرِب سِرّاً وشُتم سرّاً ، من ادَّعى شيئاً من ذلك فلْيوافِ الموسمَ فليأخذْ بحقه حيث كان ، منِّي أو من عمالي ، أو تصدَّقوا فإن الله يجزي المتصدقين)[1].

●● ومن دلائل (ربانية دولة الخلافة) حراسةُ الحقوق وتطبيقُ الحدود ، حتى لو طالت رموزَ الدولة ، ومن أشهر الأمثلة في هذا الميدان إقامةُ حدّ شرب الخمر على الوالي المجاهد الوليد بن عُقبة ، مع افتراء المفترين عليه في ذلك كما سيأتي.

وكتب عثمان إلى واليه الوليد بن عقبة يوصيه بأهل نجران النصارى الذين أسكنهم عمر في العراق ، وجاء في كتاب عثمان: (وإني قد خففتُ عنهم ثلاثين حُلَّة من جزيتهم ، وتركتُها لوجه الله تعالى ، وإني وفيتُ لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر عُقْبى مكان أرضهم باليمن. فاستوصِ بهم خيراً ، فإنهم أقوام لهم ذِمّة)[2].

وقريب من ذلك ما فعله والي مصر عَمْرو بن العاص عندما ردَّ الجزيةَ على أهل الإسكندرية حيث لم يكونوا في حماية المسلمين. وكذلك عفَّةُ جنود المسلمين عن أموال المصريين ، في الوقت الذي كان الروم فيه ينهبون أموالهم من المدن والقرى.

وشهدتْ سنوات الفتوحات الطويلة بربانية الفاتحين المسلمين قادةً وجنداً.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٢.
(٢) الخراج ، لأبي يوسف ، ص ٧٤.

سابعاً: الرأفة والرحمة الغامرة:

وهذا الركن من أركان الدولة كان واضح المعالم بارز الشمول فيها ، تماماً مثل وضوح الرأفة والرحمة وبروزهما في شخصية عثمان كما تقدم بيانه.

وشاعت هذه المَعْلمة النبيلة بين الناس عامة ، وشملَتْ مسيرةَ الدولة ومؤسساتها وأمصارها وفتوحاتها ومختلِف مناشطها. فكانت سياسة عثمان أخذَ الحياة من جوانبها السهلة اللينة ، وأَطْلَق للناس حرية العيش برغدٍ ونَعيم وتبسُّط من الدنيا ، دونما ضعف أو هوادة إذا ما تجاوزوا حدود الشرع أو انتهكوا حرمات الحق.

واستغرقت رأفةُ الخليفة ورحمته وعطفُه وسهولته عامةَ الناس ، حتى أولئك الذين أقلقوا الدولة وأشاعوا الأكاذيب وتألَّبوا على الولاة. وكذلك أولئك (المسيَّرين) وأحلاسَ الفتنة ورؤوس الشرِّ من الخوارج السبئيين الذين زحفوا إلى عاصمة الخلافة قاصدين خَلْع الخليفة وقتْلَه؛ فعاملهم بالأناة والحلم والرأفة والرحمة والمناظرة وإقامة الحجة ، ونَهى أشدَّ النهي عن مقاتلتهم حتى لا تراق بسببه مِحْجَمة من دم ، ولو أن دولة استُهدفت بمثل ما جرى (للدولة العثمانية) لجعلت من هؤلاء أشلاءً تحت صفائح القبور! ولكن في زمن عثمان خلافة رحمة على منهاج النبوة.

كذلك فإن أمير المؤمنين عثمان أمر الولاةَ وقادة الجند وجميعَ المسؤولين في الدولة بإعطاء الناس كامل حقوقهم ، ومعاملتهم بالرأفة والرحمة والمساهلة والمسامحة ، وكفِّ اللسان واليد عنهم بالأذى ،

واغتـفـار ما يُسيئون بـه لهم أو للخليفـة ، فـإذا تعدَّوا حدود الله تعـالى أُخذوا بها بالحزم والمحاسبة دونما هوادة ، وتلكم هي الدولة الربانية الرحيمة.



الفصل الرابع

سياسة عثمان في الحكم

أولاً: أسس وركائز عامة:

●● من بدهيات الأمور القولُ بأن خلافة عثمان قائمة على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وهَدْي أبي بكر وعمر ، فرسولُ الله ﷺ قد نصَّ على أن السنوات الثلاثين بعده تكون على منهاج النبوة ، كما قدمنا. ومنهاج النبوة هو التطبيق الفذّ الأمثلُ للقرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة والسيرة الطاهرة.

وعلى هذه السبيل قام أبو بكر وعمر ، ثم نهج نهجَهما ثالثُ الخلفاء الراشدين عثمان: عملاً بأمر النبي ﷺ: «**اقْتَدوا باللَّذَيْنِ من بعدي**» وأشار إلى أبي بكر وعمر[1] ، ووفاءً بعهده لعبد الرحمن بن عوف بأن يسير بسيرتهما ، وتصديقاً لخطبته بعدما بويع حيث قال: (أما بعدُ ، فإني قد حُمِّلتُ وقد قَبِلْتُ ، ألا وإني متَّبِـع ولست بمبتدع ، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب اللهِ عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتباعَ مَنْ كان قَبْلي فيما اجتمعتم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٩١)؛ وابن ماجه (٩٧)؛ وابن حبان (٦٩٠٢) ، وحسنه الترمذي وصححه الألباني.

عليه وسننتم ، وسَنَّ سُنَّةِ أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملأ ، والكَفَّ عنكم إلا فيما استوجبتم)[1].

●● وقد عاصر عثمان حقبة ضخمة من التاريخ الإسلامي هي أزهى عصوره وأقوى دوله وأقومها هدياً وتطبيقاً ونبلاً وسماحة ورحمة؛ فأسلم في بواكير الدعوة وكان أحدَ عَمَدِ التأسيس والبناء في الفترة المكية ، وبعدها أسهم بشكل بارز في بناء الدولة الإسلامية في المدينة . ثم صاحَبَ الإسلامَ في جهاده وفتوحه أيام حروب الردّة وفتوح الشام والعراق وفارس وخُراسان ، حتى أوشكت تلك الفتوح أن تحيط بالعالم المعمور يوم تسلَّم زمامه من عمر بن الخطاب .

فهو بهذا لم يَـفُتْه شيءٌ من أخبار النبوة الخاصة والعامة في حياة رسول الله ﷺ، ولم يَفُتْه شيء بعدها من أخبار الخلافة في حياة الشيخين، ولم يَفُتْه ـ بعبارة أخرى ـ شيءٌ مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس في الدولة الإسلامية[2].

وهذه الخبرة الطويلة التي مرّ بها عثمان في سياسة الرعية وشؤون الحكم وإدارة الدولة؛ لم تتهيأ لخليفة قبله ولا بعده[3].

●● **واتسمت سياسة عثمان في تسيير شؤون الحكم والولايات وأمور الرعية بالمزاوجة بين (المركزية) و(اللامركزية)** ، فالمدينة المنورة موئل الشورى ومصدر القرارات في الشؤون الكبرى والقضايا الرئيسة؛ كتعيين

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٢٢.
(٢) عبقرية عثمان ، ص٧٣ ، ٨٨.
(٣) انظر ما كتبناه: ص ١٨١ ـ ١٨٢ في هذا الكتاب.

الولاة ومتابعتهم وعزلهم ، واختيار القضاة وقادة الفتح الكبار ، وامتداد رقعة الفتوح ، وإنشاء الأسطول البحري وغزو البحر ، والسياسة الخارجية ، وإبرام المعاهدات ، وسياسة المال في موارده ومصارفه ، وقضايا التعليم ، والشؤون الإدارية والإسلامية كجمع القرآن الكريم وتطبيق الحدود.

ذلك كله كان تحت عين الخليفة ومشاورته ، وتلقي القرارات ـ بعد الشورى ـ منه.

وخَلَط ذلك بمرونة كبيرة أعطت (اللامركزية) مجالاً واسعاً؛ فكان للولاة باعتبارهم نواباً عن الخليفة حرية كبيرة في تعيين الولاة الفرعيين والقضاة في المدن والمعلمين ونحوهم ، فازداد في عهده نفوذ الولاة ضمن النظر العام لأمير المؤمنين[1].

وكذلك قادة الفتح الكبار يختارون قادة الفِرق والجيوش الأصغر حجماً ، ويديرون المعارك ويفتحون البلدان ، حسبما يقتضيه واقع الحال والجند والبلاد وأهلها.

وقُلْ مثلَ ذلك في بقية مؤسسات الدولة ومرافقها وإداراتها.

وهذا من أمير المؤمنين عثمان اجتهاد له وجاهته وقيمته الموضوعية والتاريخية والشخصية ، حيث امتدت رقعة الدولة ، وترسخت عادات الداخلين في الإسلام وقيمهم واتجاهاتهم وآراؤهم. وامتدت خطوط القتال ، وتباعدت المسافات بين البلدان وحاضرة الخلافة ، وتكاثرت العناصر والأجناس في جيوش المسلمين ونسيج المجتمع. كذلك

---

(١) انظر: الولاية على البلدان، ص ٢٣٧ ، ٢٦٠ ؛ عصر الخلافة الراشدة، ص١٥٨.

تطورت أطياف الحركة الاجتماعية ، مما يقتضي تطوراً موازياً في طبائع الولاة والقادة وصلاحياتـهم وأساليبهم . . . ففسح عثمان المجالات لتلك المتغيرات والإمكانات والخبرات أن تفعل فعلها بحرية ضمن الأسس والأطر العامة لمسيرة الدولة وسياستها .

وعثمان في هذا النهج يختلف عما كان عليه الفاروق عمر من (المركزيـة القويـة) ، وهمـا إمامان عظيمـان ومجتهدان كبيران ، ولكل طبيعته وشخصيته ، ولكل عصر اجتهاده .

●● **وفي السياسة الخارجية وحماية الدولة وتأمين حدودها وأطرافها من التحديات الخارجية والأخطار المحدقة؛** اتسمت سياسة ذي النورين بسرعة الاستجابة لها والحكمة فيها ، والاقتداء بمن سبقه والاجتهاد فيما تستوجبه المرحلة الراهنة .

فوجَّه أوامره إلى قادة الجيوش لمواجهة حركات الانتقاض في أطراف الدولة وتأديب الناكثين بالعهود والمواثيق ، وعلاج الأخطار الخارجية بحزم وضبط لحركات المتمردين ، فثبت أركان الدولة في الداخل وحمى حدودها من الخارج .

وأردف ذلك بقراره الجريء فأَذِنَ ببناء الأسطول البحري في الشام ومصر؛ لتأمين حدود الدولة من جهة الشواطئ والبحار ، وبذلك دفع غائلةَ الروم وغاراتهم على الثغور البحرية الإسلامية ، وهَيْمَن المسلمون على الجُزر القريبـة منهم وعـقـدوا مع أهلهـا الصلح ، وسيطروا على سُبل الملاحة في بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) خلال سنوات قليلة .

ثانياً: خطبه وكتبه توضح معالم سياسته:

١ ـ تاريخ استقباله للخلافة:

●● تمت البيعة لعثمان بإجماع الصحابة وسائر المسلمين ، واستقبل خلافته مطلع المحرم من سنة (٢٤هـ) الموافق لشهر نوفمبر «تشرين الثاني» من سنة (٦٤٤م) ، وكان عمره آنذاك (٧٠ سنة) هجرية وتعادل (٦٨ سنة) ميلادية .

٢ ـ بعض خطبه في مستهل خلافته:

●● لمَّا تمت بيعة عثمان قام فخطب المسلمين ، وتكاد الأقوال تتفق على مضمون خطبه الأولى ، وكان مدارها على: التحذير من فتنة الدنيا والتنافسِ عليها والتباغضِ والتحاسد من أجلها ، مما يُـفضي بالأمة إلى الخلاف والفُرقة. والوعد باتباع السنن واجتناب البدع وأمر الناس بذلك. وبيان عِظم المسؤولية التي تحملها ، وتحديد الخطوط العريضة لمنهجه في الحكم.

وتفيد أكثر الروايات أنه لما بايع أهلُ الشورى عثمانَ ، خرج وهو أشدّهم كآبة ، فأتى منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، وقال:

(إنكم في دار قُلْعة وفي بقية أعمار ، فبادِروا آجالكم بخير ما تقدِرون عليه ، فلقد أُتيتم؛ صُبِّحتم أو مُسِّيتُم. ألا وإن الدنيا طُويت على الغُرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغَرور. اعتبروا بمن مضى ، ثم جِدُّوا ولا تغفُلوا ، فإنه لا يُغفَل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعَمَروها ، ومُتِّعوا بها طويلاً ، ألم تلفِظْهم!

ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، وللذي هو خير؛ فقال عز وجل: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ . . .﴾ إلى قوله: ﴿أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥ ـ ٤٦]. وأقبل الناس يبايعونه)[١].

وتلقي رواية أخرى مزيداً من الضوء والتفاصيل على خطة عثمان ومنهجه في الخلافة ، فيروي عون بن عبد الله بن عتبة فيقول: (خطب عثمان الناسَ بعدما بويع ، فقال: أما بعد ، فإني قد حُمِّلتُ وقد قَبِلْتُ ، ألا وإني متَّبِعٌ ولستُ بمبتدعٍ ، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله عز وجل وسُنَّة نبيِّه ﷺ ثلاثاً: اتباعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسَنَنتم ، وسَنَّ سُنَّةِ أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملأ ، والكَفَّ عنكم إلا فيما استوجبتم. ألا وإن الدنيا خَضِرة قد شُهِّيتْ إلى الناس ، ومالَ إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها ، فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غيرُ تاركةٍ إلا مَنْ تركها!)[٢].

٣ ـ كتبه غداة استخلافه:

●● كتب أمير المؤمنين عثمان إلى العمال على البلدان ، وأمراء الجهاد ، والأئمة على الصلوات ، والأمناء على المال ، وعامة الرعية؛ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحثُّهم على طاعة الله وطاعة رسوله ، ويحضُّهم على الاتباع وترك الابتداع[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٣؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٤٧ ـ ١٤٨. **قُلْعة**: تحوُّل وارتحال.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٢٢.

(٣) البداية والنهاية: ٧/ ١٤٩.

ـ **وكان أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله**: (أما بعد ، فإن الله أَمر الأئمة أن يكونوا رُعاةً ، ولم يتقدَّمْ إليهم أن يكونوا جُبَاةً ، وإن صَدْر هذه الأمة خُلِقوا رعاة ولم يُخلقوا جباة ، وليُوشِكنَّ أئمتُكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدَلَ السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم. ثم تُـثَـنُّوا بالذِّمّة ، فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم. ثم العدو الذي تنتابون ، فاستفتِحوا عليهم بالوفاء)[1].

وكتب إلى معاوية والعمال: (أما بعد ، فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ، ولا تبدِّلوا ، ومهما أشكل عليكم فردُّوه إلينا نجمعْ عليه الأمة ، ثم نرده عليكم ، وإياكم أن تُغيِّروا ، فإني لستُ قابلاً منكم إلا ما كان عمر يَـقبل)[2].

ـ **وأول كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الثغور**: (أما بعدُ ، فإنكم حُماة المسلمين وذادَتُهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يَغِبْ عنا ، بل كان عن ملأ منّا ، ولا يَبلُغنِّي عن أحدٍ منكم تغيير ولا تبديل فيغيِّر الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظرَ فيه والقيامَ عليه).

ـ **وأول كتاب كتبه إلى عمال الخَرَاج**: (أما بعد ، فإن الله خَلق الخلق بالحق ، فلا يَـقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به. والأمانةَ

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٢.

الأمانةَ؛ قوموا عليها ولا تكونوا أولَ مَنْ يُسْلَبها ، فتكونوا شركاءَ من بعدكم إلى ما اكتسبتم. والوفاءَ الوفاءَ ، لا تظلموا اليتيمَ ولا المُعاهَد ، فإن الله خصمٌ لمن ظلمهم).

ـ **وكان كتابه إلى العامة**: (أما بعد ، فإنكم إنما بَلَغْتُم ما بَلَغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تَلفتنَّكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائرٌ إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثة فيكم: تكاملُ النِّعم ، وبلوغُ أولادكم من السبايا ، وقراءةُ الأعراب والأعاجم القرآنَ؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «**الكُفر في العُجْمة**» ، فإذا استَعْجَم عليهم أمرٌ تكلَّفوا وابتدعوا)[1].

ـ **وكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكونهم** ، **وكتب إلى الناس في الأمصار**: (أن ائتمِروا بالمعروف ، وتناهَوْا عن المنكر ، ولا يُذِلُّ المؤمن نفسه ، فإنّي مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً إن شاء الله)[2].

●● **وإذا تأملنا في هذه الكتب التي هي بمنزلة برنامج للسياسة التي اعتمد عثمان السير عليها ، وأخذ الأمة بها؛ تجلى لنا منها أمور**:

الأمر الأول: أن عثمان اجتهد في كتابه إلى عامة الأمراء أن يؤكد لهم أن واجب الأئمة والخلفاء أن يكونوا رعاة ، يَسُوسون الناسَ بالعدل والرحمة ، وأن ذلك هو نهج صدر هذه الأمة ، وأنه يخشى أن تتغيَّر الحال ، فبيَّن للأمراء السياسةَ التي يسوسون بها الأمة ؛ وهي: أخذ بالعدل ، وإعطاء بالحق ، ووفاء بالعهد.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥؛ مجموعة الوثائق السياسية ، ص٥٢٨ ـ ٥٢٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٧.

الأمر الثاني: أنه خصَّ وزراء المال الذين يجبونه من أفراد الأمة ليُنفَق في مصالحها العامة، فبيَّن لهم أن الله لا يَقبل إلا الحق، والحق قائم على الأمانة والوفاء. ثم ميَّز صنفين من الرعية؛ هما ضعيفاها: اليتيم والمعاهَد، فحَضَّ على التجافي عن ظلمهما، لأن الله هو المتولي حمايتهما.

الأمر الثالث: تقدم عثمان إلى قادة الجيوش وأمراء الحرب بإفهامهم العبءَ المُلقى على عاتقهم، وأنه يتخذ من سياسة عمر معهم سياسة له، لأنه كان على علم بها يوم وضعها عمر. وحذَّرهم مَغَبَّة التغيير والتبديل لئلا يغيِّر الله ما بهم. وذكَّرهم بأنه على علم بواجبه يؤديه ويقوم عليه، ليتلاقى عملُ الرعية وعمل الراعي في الشعور بالواجب والقيام به، ويشعر كل فرد أنه يعمل لأمته كما يعمل لنفسه.

الأمر الرابع: أن عثمان رغَّبَ عامة الأمة في الاتباع، وتركِ التكلُّف والابتداع، وأنه حَذَّرَهم تغيُّرَ الحال إذا اجتمعت لهم ثلاث خِلال:

- **تكاملُ النِّعَم**: الذي يُبطِر النفوس ويدفعُها إلى الترف، ويَصدُّها عن الاجتهاد والعمل، ويَصْرفها إلى الفراغ والكسل، حتى تفتر حيويتها وتخور عزائمها.

- **وبلوغُ أولادهم من السبايا**: وقد لمست الأمة في تاريخها أثر هؤلاء في المجتمع الإسلامي من الوجهة السياسية والاجتماعية والدينية.

- **وقراءةُ الأعراب والأعاجمِ القرآنَ**: وإنما يريد عثمان بذلك ما في طبائع الأعراب من الجَفْوة وغِلَظ الأكباد، فلا تَبلُغ هدايةُ القرآن مكانَ الخير من أفئدتهم. وكذلك يريد ما في الأعاجم من أخلاق موروثة، وعقائد متأصِّلة، وعادات قديمة؛ تُباعِد بينهم وبين سنن القرآن في

الهداية. وقد ظهر أثر الأعرابِ في فِرقة الخوارج الذين كانت كثرتهم من أولئك الجُفاة، فهم كانوا أقرأ الناس للقرآن وأبعدَهم عن هدايته. ثم ظهر فيمن عداهم أثر الأعاجم فيما ابتدعوه من مذاهبَ وتكلّفوه من آراء؛ كانت شرّاً على المسلمين في عقائدهم، ومنهم أكثر الفِرَق الضالَّة التي لعبت في تاريخ الإسلام أخطر دور، وقلما وجد الباحث رأسَ فرقة إلا أعجميّاً[1].

الأمر الخامس: هذه الكتب التي هي بمثابة (وثائق قانونية رسمية) تنتهجها الدولة، قد استوعبت مختلِفَ فئات الأمة، وحدَّدت السياسة الداخلية والخارجية، وأكدت على العدل والمساواة والأمانة والوفاء والرحمة والشورى وتكافؤ الفرص، ومحاسبة الولاة وجميع المسؤولين، ورقابة الأمة على الدولة ومؤسساتها، وإقامة مؤتمر سنوي عام في موسم الحج تُرفع فيه الشكايات والمظالم ويتحقق العدل والإنصاف العام على الملأ.

وهذا أعدلُ السِّيَر وأرقاها، وهو وفاء بما أخذه عثمان على نفسه من عهد بمتابعة مسيرة أبي بكر وعمر؛ مما يُطَمئِن جميعَ الرعية، فيسود الأمن ويستتب النظام وتستقر الأمور، بما لا يَدَع لشاكٍ أن يشكو ظلماً أو هضماً.

٤ ـ استمرار كتب الخليفة:

وتتابعت كتب أمير المؤمنين عثمان، تأمر وتنهى، وتُرشد وتوجِّه،

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص ١٩٨ ـ ١٩٩؛ وانظر: عثمان بن عفان، لهيكل، ص ٥٢ ـ ٥٤.

وترغِّب وترهِّب ، وتحذِّر وتُنذر ، مستوعبةً أعمال الولاة وعلاقتهم بالرعية ، وحركة الجيوش والفتوح ، وأمور المال والاقتصاد ، ومشكلات الناس ، وبزوغ الشائعات وقالة السوء ، وحدوث الفتن ، وغير ذلك مما سيأتي تفصيله .

٥ ـ مزاعم وردُّها:

●● روى الواقدي بسنده: (أن عثمان لمَّا بويع خرج إلى الناس فخَطَبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أيها الناس ، إنَّ أولَ مركبٍ صعبٌ ، وإن بعدَ اليوم أياماً ، وإنْ أَعِشْ تأتِكم الخطبةُ على وَجْهها ، وما كنّا خطباء وسَيُعلِّمنا الله)(١) .

وهي رواية واهية سَنَداً ؛ فيها الواقدي وهو متروك ، وباطلة مَتْناً: فإنما يُغلَق على الأغرار الذين لم يتمرَّسوا بالحياة ولم يواجهوا أحداثها ومشكلاتها ، أما أمير المؤمنين عثمان الذي ناهز السبعين من عمره ، وقد ضَرَّسَتْه الحياة ، وتقلَّب في الأرض بالتجارة والهجرة ، وكان سفيراً للنبي ﷺ في أقسى الظروف ، وخاض غمرات الغزوات والسرايا ، وكان مستشاراً للخليفتين أبي بكر وعمر ، وشارك بقوة في مسيرة الدولة ونظامها وحركة المجتمعات . . . كل هذه المزايا والخبرات تدفع في صدر هذه الرواية الواهية التي تزعم أن عثمان تهيب الموقف وأُغْلِق عليه فلم يدْرِ ما يقول! .

ما هذا الخليفة الذي يستقبل خلافته بعيٍّ في الكلام ، وضعف في التعبير ، وعجز عن مواجهة الناس؟! إذاً فكيف سيواجه مسؤوليات

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٢ .

الخلافة العظمى؟! وكيف سيتابع شؤون الأمصار ويتخذ القرارات ويحاسب الولاة ويجيش الجيوش للفتوحات؟!.

وقد ردَّ ابن كثير هذه الرواية فقال: لم أرها بإسناد تسكن النفس إليه[1].

ومن عجائب السيوطي أنه تابع أبا هلال العَسْكري فذكر هذه الحادثة المزعومة في (أوليات عثمان)، وأنه أول من أُرْتِج عليه في الخطبة[2]!.

وقَبلها العقاد ومحمد حسين هيكل[3].

●● وذكَر هيكل تلك الخطبة المزعومة التي أُرتج فيها على عثمان، وخطبته الأخرى: (أيها الناس إنكم في دار قُلْعة ...)[4]، ثم قال معقباً:

(أيّاً ما يكون الأمر فالخطبتان لا تصِف أيُّهما ما كان يدور بخاطر عثمان من سياسة الغد. وأكبر الظن أنه لم يكن بعدُ قد رسم سياسة واضحة الحدود كما فعل أبو بكر حين عزم قتال أهل الردة، وكما فعل عمر حين أمر بردِّ السَّبْي من العرب إلى عشائرهم... ولعل ما كان بين عمر وعثمان من اختلاف في المزاج بين الشدة واللِّين؛ هو الذي استأنَى عثمان فلم يرسم هذه السياسة)[5].

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٤٨.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص ١٦٤.

(٣) عبقرية عثمان، ص ١١٤؛ عثمان، لهيكل، ص ٤٨.

(٤) تقدمت: ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ في هذا الكتاب.

(٥) عثمان بن عفان، لهيكل، ص٤٩.

وهذا كلام لا سند له من الحقيقة ، ولا عماد له من التاريخ ، ولا أساس له في منطق العقل والنقد. ولقد قدمنا خطب عثمان وكتبه التي وضح فيها الأسس العامة لسياسته والتي استوعبت أركان الدولة: الخليفة ، والولاة ، وقادة الجيوش ، والأمناء ، والرعية. وأوضحنا مدلولاتها وآفاقها ، وأنها بيانات واضحة راسخة لخطة الحكم ومؤسساته وسياسة الأمة بمختلف شرائحها ، صيغت بإيجاز ، وألقيت على الناس في مستهل أيام خلافة عثمان ، وسارت عليها الدولة طيلة عهده.

●● وزَعم هيكل أن عثمان اضْطَلع بأعباء الخلافة ، وواجه مستجدات الأحداث (فَوُفِّق توفيقاً ظاهراً أولَ الأمر ، ثم أعجزَه تقدُّمُ السنِّ وأعجزَتْه الأحداث فلم يُحسِن تدبيره من بعد!)[1].

وهذا زعمٌ باطل ومجازفةٌ جائرة على الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ، الذي امتدحه النبي ﷺ بأن (خلافته على منهاجِ النبوة) ، وأنه يبقى حتى الساعة الأخيرة من خلافته (على الهدى) ، وأمر الناسَ بملازمته ومتابعته ومناصرته! فكيف تكون خلافة على منهاج النبوة وعلى الهدى ، ثم تكون عجزاً وسوءَ تدبيرٍ كما يزعم الزاعمون؟! وهل استثنى رسول الله ﷺ (الفترة الأخيرة من عهد عثمان) من أنها على منهاج النبوة وأنه على الهدى؟! ليت شعري ماذا يقول هيكل باشا وأضرابه ممن يتجرؤون على الحق ويُلقون الكلام جزافاً ، فيتهمون عثمان بالضعف واللِّين بل وبالعجز المترافق مع كِبر السن؟!.

لقد ساسَ ذو النورين دولة مترامية الأطراف متعددة الأعراق متشعبة

---

(١) عثمان بن عفان ، لهيكل ، ص ٣٧.

الأفكار والانتماءات التي صُهرت في بوتقة الإسلام ، وبقي يَسُوسها باللين الذي لا ضعفَ فيه ، وبالحزم الذي لا عُنف معه ، حتى آخر أيامه. وظل مهيمناً على أعمال الولاة والقادة وتطورات الأحداث وحركات الانتقاض ، ومتابعاً للشائعات والفتن ، ومعالجاً لها بالحكمة والرأفة والإصلاح والصبر على الحق الذي لا تهاونَ فيه؛ ذلكم الصبر والثبات والحزم والعزم الذي لم يُـفقِده حِلْمَه وحسنَ سياسته وهو يرى السيوف تهدِّد حياته في أيام الحصار الظالم! ولو كان عاجزاً ضعيفاً كما يزعم القاصرون المقصِّرون لرضي بالدون من الحياة ، ونزل عند رغبات الخوارج السبئيين ، ونجا بنفسه وأهله إلى حيث العيش الخَفِيض في الشام أو غيره.

ثالثاً: رقابة الأمة على سياسة الخليفة والولاة:

●● ضَرب الخليفة عثمان المثلَ الأعلى من نفسه وأَعلن رقابة الأمة على الحكومة متمثلة برأس السلطة فمن دونه ، فخطب الناس فقال: (إنْ وَجَدتُم في كتابِ الله ـ وفي رواية: في الحقِّ ـ أن تَضَعُوا رِجْلَيَّ في قيدٍ فضَعُوهما)[1].

وكتب إلى الأمصار: (أما بعدُ ، فإني آخُذُ العمالَ بموافاتي في كل موسم ، وقد سَلَّطتُ الأمة منذ وُلِّيتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يُرفع عليَّ شيءٌ ولا على أحدٍ من عمَّالي إلا أَعطيتُه. وليس لي ولعمَّالي حقّ قِبَل الرعية إلاّ متروكٌ لهم)[2].

---

(١) تاريخ خليفة ، ص١٧١ ، وغيره ، وإسناده صحيح. انظر ما تقدم: ص ٢٠٣ في هذا الكتاب.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٢.

●● وكان مجلس الشورى وكبار الصحابة يناقشون عثمان ويناظرونه وينصحون له؛ ابتغاءَ الحق وترشيد مسيرة الدولة وتحقيق مصالح الرعية وحفظ حقوق الناس.

عن أبي وائل شَقيق بن سَلَمة: (عن أسامة بنِ زيد قال: قيلَ له: ألا تَدخلُ على عثمانَ فَتُكلِّمَهُ؟ فقال: أَتَرونَ أنِّي لا أُكلِّمُه إلا أُسْمِعُكُم! والله لقد كلَّمْتُه فيما بيني وبينه ما دونَ أن أفتحَ أمراً لا أُحِبُّ أنْ أكونَ أولَ مَنْ فَتَحه)[1].

والمعنى: أن أسامة كلَّم أميرَ المؤمنينِ عثمان وناقشه في بعض الأمور التي أنكرها المنكِرون على عثمان، وسَلَك أسامة في ذلك سبيلَ الأدب النبوي مع الأمراء، واللطف بهم، ومناصحتهم سرّاً ما وَجَد إلى ذلك سبيلاً، دون أن يُجاهِر المرء بذلك في المَجَامِع بما يسبب للسلطان إهانته وشتْمه والتشهيرَ به على الملأ، وفي الناس العالمُ والجاهل، والمخلِصُ والمُغرض، والمحبُّ والشانئ[2].

وعن عروة بن الزبير: أن عُبيد الله بنِ عَديّ بن الخِيَار أخبره: (أن المِسْوَر بن مَخْرَمة وعبد الرحمن بن الأسْود بن عبد يَغُوث قالا له: ما يَمنعُكَ أن تكلِّم خالَكَ عثمانَ في أخيه الوليد بن عُقْبة؟ وكان أكثَرَ الناسُ فيما فَعَل به. قال عبيد الله: فانتصبتُ لعثمانَ حين خرج إلى الصلاة فقلتُ له: إنَّ لي إليك حاجةً، وهي نصيحةٌ. فقال: أيها المرءُ، أعوذُ بالله منك! فانصرفتُ. فلما قضيتُ الصلاة جلستُ إلى المِسْوَر وإلى ابن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٩٨)؛ ومسلم (٢٩٨٩)، وغيرهما.
(٢) انظر: الفتح: ١٦/ ٣٦٤ـ٣٦٦؛ تكملة فتح الملهم: ٦/ ٢٤٤ـ٢٤٦.

عبد يَغُوث ، فحدَّثْتُهما بالذي قلتُ لعثمان وقال لي ، فقالا : قد قضيتَ الذي كان عليك. فبينما أنا جالسٌ معهما ، إذ جاءني رسولُ عثمان ، فقالا لي : قد ابتلاك الله . فانطلقتُ حتى دخلتُ عليه ، فقال : ما نصيحتُك التي ذكرتَ آنفاً؟ . . .) الحديث[1] .

واجتمع سعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر في المسجد ، وطلبا إلى عثمان أن يحضر ليناقشاه وينصحاه فيما ترامى إليهما من أخبارالسبئيين والفتن التي أجَّجُوها. ومثلهما فعل غير واحد من الصحابة؛ مما يؤكد على أن المخلصين في الأمة كانوا ساهرين وحريصين على المصلحة العامة ، ورُقباء على مسيرة الخليفة والدولة وسيرورة الأحداث .

وتقدم ذِكْر مواقف وأدلة أخرى عن مراقبة أعمال أمير المؤمنين عثمان عندما (أَتمَّ الصلاة بِمنًى) ، فعارَضَه بعضُ أكابر الصحابة ، ثم رجعوا إلى رأيه لأنه اجتهاد ، حفاظاً على وحدة الأمة . ومثله أيضاً عندما أمر عثمان (بإفراد الحج) ، فناظره في ذلك علي بن أبي طالب وخالَفَه وعمل برأيه .

●● وسلَّط الخليفةُ الرعيةَ من عامة وجُنْد على الولاة والقادة ، وأعطاهم حقهم في مراقبتهم ومناصحتهم ، ورفع شكاواهم إلى أمير المؤمنين ، وشواهد ذلك كثيرة :

كان عثمان وَعَد الوالي القائد ابنَ أبي سَرْح إنْ فَتح الله عليه إفريقيَّة؛ أن يُنفِّله خمس الخمس ، فتمَّ ذلك ، فأبى الجند وشكوه إلى عثمان ، فاستجاب لهم .

وشكى الناس إلى عثمانَ : مروانَ بن الحَكَم وسعيد بن العاص

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٧٢) .

والوليد بن عقبة ، فكان يستجيب لهم ، وينفذ رأيهم ، ويعزل ولاته ولو كانوا لا يستحقون العزل؛ تحقيقاً لرغبة الناس ، وتساهلاً معهم ، ووأداً للفتنة. وهو يقتفي في ذلك هدي الفاروق عمر.

●● بل إن أمير المؤمنين عثمان ذَهَب إلى مدى أبعد ، حيث أصغى إلى رأي (السبئيين الخوارج) ، وهو يعلم كذبَهم وخطأهم وسوءَ نيَّاتهم وأعمالهم! فجلس إليهم وناظرهم وجادلهم وأقام عليهم الحجة في مشهد من الصحابة. وهذا من ذي النورين أبعدُ مدى يمكن لخليفة أو حاكم أو والٍ أن يَقبله من حرية الرأي وقبول الرقابة على الدولة في مختلِف مؤسساتها وجميع مسؤوليها.

رابعاً: متابعته أحوال الرعية:

١ ـ في العبادات والأخلاق والمعاملات:

من أكبر واجبات خليفة المسلمين أن يرعاهم في أمور دينهم وعباداتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم ، ويرشدهم وينصحهم ويقوِّم العوج ويُحاسِب على الأخطاء والتجاوزات فيما فيه صلاح الأمة وحفظ دينها. وقد رأينا عثمانَ الخليفة وفيّاً لدينه وأمته قائماً بأمانته في هذا الميدان الواسع ، تماماً كقيامه بواجباته الأخرى الكثيرة.

عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرة الأنصاريِّ قال: (خرج عثمان إلى العشاء الآخرةِ فوجد الناس قليلاً ، فاضْطَجَع قليلاً في مؤخَّر المسجد حتى كَثُر الناس ، قال: فاضطجعتُ ، فسألَني: مَنْ أنت؟ فأخبرتُه ، ثم سألَني ما معي من القرآن؟ فأخبرتُه ، فقال عثمان: أمَا إنه من شهد العَتَمَة

فكأنما قامَ نصفَ ليلةٍ ، ومَن شهد الصبحَ فكأنما قام ليلة)[١] .

وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، عن أبيه قال : (سمعتُ عثمانَ بن عفان يخطب الناسَ ، فقال : اجتنبوا الخمرَ فإنها أمُّ الخَبَائث) الحديثَ ، وفي آخره : (فاجتنبوا الخمر ، فوالله لا يجتمعُ الإيمانُ وإدمانُ الخمر في قلب رجلٍ إلا أَوْشَك أحدُهما أن يُخْرِجَ صاحبَه)[٢] .

وعن الحسن البصري قال : (شهدتُ عثمانَ يأمر في خطبته بقَتْلِ الكلاب وذَبْح الحَمَام)[٣] .

وعن حَكيم بن عبَّاد بن حُنَيف قال : (أولُ منكَرٍ ظَهر بالمدينة حين فاضَتِ الدنيا ، وانتهى وُسْعُ الناس : طيرانُ الحَمَام والرميُ على الجُلاَهِقات ، فاستعمل عليها عثمانُ رجلاً من بني لَيْث سنة ثمان ـ من خلافته ـ فقَصَّها وكَسَر الجُلاهِقات)[٤] .

وعن زُبيد بن الصلت : (أنه سمع عثمانَ وهو على المنبر يقول :

---

(١) أخرجه مالك : ١/١٣٢ ؛ وعبد الرزاق (٢٠٠٩) ؛ والفصل الأخير من الحديث جاء عن عثمان مرفوعاً عند مسلم (٦٥٦) ؛ والترمذي (٢١٩) ، وغيرهما .

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٧٠٦٠) ؛ والنسائي : ٨/٣١٥ ـ ٣١٦ ، وصححه الألباني . وروي مرفوعاً بإسناد ضعيف ؛ انظر : ابن حبان (٥٣٤٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٣٠١) ؛ وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥٢١) ، وصححه أحمد شاكر .

(٤) تاريخ الطبري : ٤/٣٩٨ ؛ مختصر ابن عساكر : ٢٦/١٦٤ . **الجُلاهِق** : البنْدق الذي يُرمى به .

يا أيها الناس ، إياكم والميسرَ ـ يريد النَّرْدَ ـ فإنها قد ذُكِرتْ لي أنها في بيوت ناس منكم ، فمن كان في بيته فلْيحرقها أو يكسرْها.

وقال عثمان مرة أخرى وهو على المنبر: يا أيها الناس ، إني قد كلَّمْتُكم في هذا النَّرد ، ولم أَرَكُم قد أخرجتُموها ، فلقد هممتُ أن آمُرَ بحزمِ الحطب ، ثم أُرسِل إلى بيوت الذين هنّ في بيوتهم فأحرقها عليهم!)[1].

وعن مالك بن أبي عامر جدِّ الإمام مالك: (أنه سمع عثمانَ بن عفان وهو يخطب ، وهو يقول: لا تكلِّفوا الأمَةَ غيرَ ذات الصَّنْعة الكَسْبَ ، فإنكم متى كلَّفْتُموها ذلك ، كَسَبتْ بفَرْجِها! ولا تكلِّفوا الصغيرَ الكسبَ ، فإنه إذا لم يَجِدْ سَرَقَ. وعِفُّوا إذْ أَعَفَّكم الله. وعليكم من المطاعم بما طابَ منها)[2].

وفي عهد عمر بن الخطاب (كان أُبيّ بن كعب وتميم الداري يصلِّيان بالرجال التراويحَ ، وكان سُليمان بن أبي حَثْمة يقوم بالنساء في رَحْبة المسجد. فلما كان عثمان بن عفان جَمَع الرجالَ والنساءَ على قارئ واحد: سُليمان بن أبي حَثْمة ، وكان يأمر بالنساء فيُحْبَسْنَ حتى يمضي الرجال ، ثم يُرسَلن)[3].

وستأتي أمثلة وشواهد أخرى عند كلامنا على مؤسسات الدولة.

---

(١) السنن الكبرى ، للبيهقي: ١٠/ ٢١٥؛ حياة الصحابة: ٣/ ٤٥٦.

(٢) موطأ مالك: ٢/ ٩٨١.

(٣) طبقات ابن سعد: ٥/ ٢٦ ـ ٢٧.

٢ ـ متابعة أحوال الناس وبيوعهم وأسعارهم ورخائهم ونحو ذلك:

عن موسى بن طلحة بن عبيد الله قال: (رأيتُ عثمانَ بن عفان والمؤذِّن يؤذِّن وهو يحدِّث الناس، يسألُهم ويستخبرهم عن الأسعار والأخبار).

وفي رواية عن موسى بن طلحة قال: (سمعت عثمان بن عفان وهو على المِنْبر، والمؤذِّن يُقيم الصلاةَ، وهو يستخبرُ الناسَ، يسألُهم عن أخبارهم وأسعارهم)[1].

وعن مَسْلَمة بن عبد الله الجُهَنيِّ، عن عمِّه أبي مَشْجَعَة قال: (عُدْنا مع عثمانَ مريضاً، فقال له عثمان: قلْ: لا إلـه إلا الله، فقالها، فقال: والذي نفسي بيده لقد رمى بها خطاياه فحَطَمَها حَطْماً. فقلتُ: أشيءٌ تقوله، أو شيءٌ سمعتَهُ من رسول الله ﷺ؟ فقال: بل سمعتُه من رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، هذا للمريض، فكيف هي للصحيح؟ فقال: «**هي للصحيح أَحْطَمُ**»)[2].

وعن مالك بن أبي عامر جدِّ الإمام مالك قال: (كنتُ مع عثمانَ بنِ عفان، فقامتِ الصلاةُ وأنا أكلِّمُه في أن يَفْرِضَ لي، فلم أَزَلْ أكلِّمُه، وهو يسوِّي الحَصْباءَ بنعلَيْه، حتى جاءه رجالٌ قد كان وَكَلَهم بتسوية الصفوف، فأخبروه أن الصفوفَ قد استوتْ، فقال لي: اسْتَوِ في الصفِّ. ثم كَبَّرَ)[3].

---

(١) أخرجه ابن سعد: ٣/ ٥٩؛ وأحمد (٥٤٠)، وصححه أحمد شاكر.

(٢) الحلية: ١/ ٦١.

(٣) موطأ مالك: ١/ ١٥٨، وإسناده صحيح. وانظر ما تقدم: ص ١٠٣ حاشية (١) في هذا الكتاب.

وروى محمد بن هلال المَديني ، عن أبيه ، عن جدَّتِه : (أنها كانت تَدخل على عثمان بن عفان ، ففقدها يوماً ، فقال لأهله : ما لي لا أرى فلانة؟ فقالت امرأته : يا أمير المؤمنين ، وَلَدتِ الليلة غلاماً . قالت : فأرسَلَ إليَّ بخمسين درهماً وشُقَيْقَةٍ سُنْبُلانيَّة ، ثم قال : هذا عطاءُ ابنك ، وهذه كسوتُه ، فإذا مرَّت بك سنة رفعناه إلى مئة)[1] .

ولمَّا عَلِم عثمانُ أن مولاه حُمْران بن أبَان تزوَّجَ امرأة في عِدَّتِها ، فَرَّقَ بينهما ، وضَرَبَه وسيَّرَهُ إلى البصرة . فلما أتى عليه ما شاء الله ، وأتاه عنه الذي يحبّ ، أَذِنَ له ، فقَدِمَ عليه المدينة[2] .

وكان دائم المتابعة لأخبار الناس في الأمصار والاطلاع على أحوالهم ، من خلال الكتب والرسل وسؤال الوافدين إلى موسم الحج والتواصل مع الولاة والمسؤولين والأمناء .

٣ ـ الخليفة ومتابعته لأخبار الرعية عند بزوغ الفتنة ثم اشتعالها:

وتتضح سياسة أمير المؤمنين عثمان مع الرعية بجلاء في جميع الأمصار عند بزوغ الفتن ثم اشتعالها واجتياحها عدداً من البلدان ، وتعامله معها ومع عناصرها وموقدي نارها وزعمائها ، باللين والشدة ، والمناقشة وإقامة الحجة ، والكفكفة والإصلاح ، وإزالة المبررات المزعومة ، حتى الساعات الأخيرة من عمره رضي الله عنه .

وتجلَّى ذلك بمتابعة أعمال اللصوص وتأديبهم وحَبْس بعضهم ،

---

(١) مختصر ابن عساكر : ١٦/ ١٦٣ ؛ البداية والنهاية : ١٧/ ٢١٤ . الشُّقَيْقَة : تصغير الشُّقَّة ، جنس من الثياب المستطيلة . سُنبلانية : سابغة الطول .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٢٧ .

وتعرُّف بذور الشر في الكوفة ، وتعاهده رؤوس الفتنة الذين عُرفوا (بالمُسَيَّرين) ، وترحيلهم للتأديب إلى دمشق ثم حمص ثم عودتهم للكوفة ، وتواصله التام مع ولاة الأمصار في كل ما يحدث ، وتوجيه أوامره في معاملتهم وتأديبهم. وتلقيه الأخبار والكتب التي تحمل أنباءَ الشائعات من (الكوفة والبصرة ومصر) وغيرها ، وإرساله جماعة من الصحابة للتحقيق في واقع الناس والتفتيش عن مصادر الشر ، ثم إرساله كتاباً واحداً قرئ في الأمصار يقول فيه :

(فيا مَنْ ضُرِب سِرّاً وشُتِم سرّاً ، من ادَّعَى شيئاً من ذلك فَلْيوافِ الموسمَ ، فليأخذْ بحقِّه حيث كان ، منِّي أو من عمالي ، أو تَصدَّقوا فإن الله يجزي المتصدقين). فلما قُرئ في الأمصار أبكى الناسَ ، ودَعَوْا لعثمانَ وقالوا : إن الأمة لَتمخض بشرٍّ[1]!.

واستدعى الولاةَ وسمع منهم أخبار أمصارهم ورعيتهم ، وأنصت لأقوالهم ومشورتهم ، وأصدر أوامره بالمعالجة والكفكفة ومحاصرة الفتن والشرور وتضييق الخِناق عليها بالحكمة والرحمة والحزم.

وبقي هكذا حتى السنة الأخيرة من عمره التي جاءت فيها جموع السبئيين وأتباعهم ، ونزلوا أطراف المدينة ، وقدَّموا اعتراضاتهم والأمورَ التي زعموها على الخليفة الراشد وولاته ، فناقشهم عثمان وألزمهم الحُجَّة ، حتى خرجوا من المدينة عائدين إلى بلدانهم ، وافتَعَلَ رؤوسُ الفتنة المجرمون (الكتابَ المزوَّر) على لسان عثمان ، ثم عادوا أدراجهم إلى المدينة وحاصروه ثم قتلوه!.

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٢.

خامساً: حزمه وضبطه لشؤون الدولة والرعية:

ما نُـثْبته في هذه الفقرة وأشباهها ليس دفاعاً عن عثمان رضي الله عنه ، أو ردّاً للتهمة الجائرة الموجَّهة له بأنه (كان ليّناً ضعيفاً) ، فعثمانُ في هَدْيه وأخلاقه وأعماله في خلافته أعلى شأناً من أن تعلَق به اتهامات المُرجِفين ، بل ما نكتبه هو تصحيح لِما ترسَّب في أفهام جمهور عريض عبر التاريخ القديم والحديث.

وما نورده من دلائل ليس شواردَ نؤلِّف بينها في نظام واحد ، بل براهين حاضرة شاهدة لدحضِ ما عَلِق في الأذهان من اقتران (خُلُق الحياء) الذي اشتهر ذو النورين به بـ(الضعف) المزعوم الذي يَصِمُه به الشانئون والقاصرون المقصرون.

●● لقد عالج (عثمان الخليفة) مشكلاتِ الدولة الخارجية التي فاجأته غداةَ استخلافه؛ كأحسن علاج يتولاه خليفة في تلك الظروف: عزم وسداد وسرعة ، مع الحيطة والأناة والرفق في سياسة الأولياء والخصوم. وكان مُعَاناً بحميَّة الجند وكفاية القادة وإخلاص الولاة.

فما إنْ شاعَ نبأ (استشهاد عمر) حتى تلاحقت الثورات والفتن ، وكَثُرت حركات الانتقاض في أطراف الدولة ، وتمرَّدت جموعُ الفرس والروم والترك فنَقَضت عهودها ، وكانت محنة تفوق محنة الردة في اتساع ميادينها وتباعدِ أطرافها!.

ومع ذلك أثبت عثمان كفاءته ومقدرته على مواجهتها ، وتصدى لتلك المعضلات المفاجئة وعالجها بالعزم والسداد والحيطة والسرعة الناجزة مع الأناة ونفاذ البصيرة ، وقام (الخليفة الشيخ) بأعبائه الجسام

على أحسن ما يُقـام بها في تلك المحنة الجائحة ، وكان له ولا شك أكبرُ الفضل في تثبيت مهابة الدولة الجديدة بعدما أصابها من الوهن والتخلخل عند مقتل عمر[1] . فأسرع في تسيير النجدات التي قضت على حركات الانتقاض ، وثبَّتَ أركان الدولة وأطرافها ، ومدَّ رُوَاقَ الفتوحات فأوغلَتْ جيوشه في الشرق والغرب . وأردف ذلك بالقرار الفذ في تكوين (القوة البحرية الإسلامية) . وعمَّم حُسْنَ تصرفه وسرعته وحزمه وعزمه على شؤون الدولة الداخلية ، فساسَ الناس وضبط شؤونهم في مختلِف المناشط ومرافق الدولة ومؤسساتها .

●● ومن أدلة حزمه وعزمه في الأمور الكبرى موقفه عند (جمع القرآن الكرِيم)[2] ، حيث ترامى إليه أن الناس عنده اختلفوا في القراءة حتى خطَّأ بعضُهم بعضاً ، فغضب عثمان لذلك وقام فخطب الناس وقال : (أنتم عندي تختلفون ، فمن نأى عني من الأمصار أشدُّ اختلافاً!) . وجاءه الخبر من العراق بمثل ذلك ، وقدِم إليه حذيفة بن اليمان من إرْمِينية بمثله أيضاً . فنهض عثمان للأمر الجَلَل ، وشكَّل لجنة من الصحابة بإشرافه فجمعوا القرآن الكريم ، ونسخوا منه (سبع نسخ) ، ووزَّعَها على الأمصار .

●● وفي الفتوحات كان يبعث الجيوش ، ويعيِّن القادة ، ويسيِّر الإمدادات ، ويوجِّه النجدات من هذا المِصْر إلى ذاك ، ويأمر بتكثيف الحماية في الثغور والأطراف المنتقضة ، ويحزم أمره بشأن الغزو في البحر ـ وهو أمر تردَّدَ فيه عمرُ طويلاً ـ ويأذَنُ ببناء السفن وتكوين أسطول

---

(١) انظر : عبقرية عثمان ، ص١١٩ ـ ١٢٠ .
(٢) سيأتي تفصيله في الفصل التالي : ص ٢٤٥ وما بعدها في هذا الكتاب .

بحري إسلامي ، وخاض المسلمون في عهده عشرات المعارك البحرية المظفرة!.

●● وكان في غاية الحزم الذي لا هوادةَ فيه بشأنِ تطبيق الحدود وإنفاذِها على القريب والبعيد ، والشريف والوضيع ، حتى لو كان من كبار الولاة. وكان يشرف عليها بنفسه ، ويأمر ولاته في الأمصار بأن ينفذوها ويصادقوا عليها ، وحَصَر (تنفيذَ حدّ القتل) بنفسه. وتقدَّم إلى الناس في ألا يَعملوا بالظنون ، وألا يُقيموا الحدود دون السلطان[1].

وحَدَث في عهده: (أن جاريةً لأم المؤمنين حفصة سَحَرتْها ، واعتَرفتْ بذلك ، فأمرت بها عبدَ الرحمن بن زيد فقتلها. فأنكر ذلك عليها عثمان ، فقال عبد الله بن عمر: ما تنكِرُ على أم المؤمنين من امرأة سَحرت واعترفت؟ فسكتَ عثمان)[2]. وعثمان لم ينكِر على حفصة القتلَ ، وإنما أنكر عليها الافتئاتَ على حقِّ الإمام في إقامة الحدود[3].

وعندما قُتل (ابن الحَيْسُمان الخُزاعي) بالكوفة ، أمر عثمان واليها بإقامة حدِّ القتل على القتلة ، فقال الشاعر مادحاً:

إنَّ ابنَ عفانَ الذي جَرَّبْتُمُ فَطَمَ اللصوصَ بِمُحْكمِ الفُرقانِ
ما زالَ يعملُ بالكتابِ مُهيمناً في كلِّ عُنْقٍ منهمُ وبَنَانِ[4]

وسُئل سالم بن عبد الله بن عمر عن محمد بن أبي بكر ، فقال: كانت

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧٥.
(٢) مصنف عبد الرزاق (١٨٧٤٧).
(٣) موسوعة فقه عثمان ، ص١٦٩ ـ ١٧٠.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧٢.

له دالَّةٌ عند عثمان ، فلَزِمَه حقٌّ ، فأخذه عثمان من ظهره ولم يُدْهِن[1] .

وادُّعِيَ على الوالي المجاهد أخي عثمان من الرضاعة الوليد بنِ عقبة أنه قارَفَ الخمر ، وشهد الشهود بذلك ، فأقام عثمان الحدَّ عليه ، مع وجود افتئاتٍ على الوليد كما سيأتي ! .

ولمَّا شكا الناس إلى عثمان إفسادَ اللصّ حُكَيْم بن جَبَلَة ، كتب إلى عامله على البصرة عبد الله بن عامر : أن احبِسْ حُكيماً ومَنْ كان مثله فلا يَخرجنَّ من البصرة حتى تأنسوا منه رُشْداً. فحَبَسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها[2] .

●● ومع مَيْل عثمان إلى (اللامركزية) وإعطائه الولاة كثيراً من الصلاحيات ، لكنه لم يُطلِقْ أيديَهم ليعملوا في أمصارهم ما شاؤوا دونما رقابة (مركز الخلافة) ، بل كان معهم جادّاً حازماً ، حتى في أمور تبدو صغيرة ، إذا ما تجاوزوا حدود سلطاتهم أو جاءت شكاية عليهم ، أو قصَّروا في بعض سنن الشريعة وآدابها . وكذلك كان في غاية الحزم مع كبار الصحابة إذا اقتضى الأمر ذلك .

وأخبار دولة الخلافة أعظمُ الشهود وأصدقُ الأدلة على حزم عثمان مع مسؤوليها وإجماعهم على طاعته وملازمة أوامره وتوجيهاته ، والنهوض بواجباتهم في جميع أقسامها ومجالاتها ، ولم يسجل التاريخ اضطرابَ أحدٍ منهم عليه ولا مخالفته أو تأليب الناس عليه ، مع تنائي بلدانهم واتساع سلطانهم وقوة مركزهم ! .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٠٠ ؛ مختصر ابن عساكر : ١٦/ ١٨٥ .
(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٢٦ .

فهذا هو الوالي الفاتح الكبير عبد الله بن عامر ، مع جلالته وأياديه البيضاء في فتوحاته وسياسته الناس ، وقع منه أمرٌ هو في ظاهره شكر لله تعالى ، لكن عثمان أنكره عليه لمخالفته هدي النبوة. فابن عامر لما فتح خراسان أراد أن يشكر الله على توفيقه فأحرم بالعمرة من نيسابور ، فلما قدِم على عثمان لامَهُ فيما صنع وكَرِهه[1].

ولما أخذ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح خمسَ الخمسِ من الغنيمة بناءً على عِدَة عثمان ، واعترض بعض الناس؛ لم يَخُنْ عثمانَ حزمُه وعزمه مع الوالي الفاتح ، فأمره بردِّ المال على المسلمين ، دون مراعاة لمكانة الوالي ، أو خشية من رفضه وتألُّبه.

وعندما أُقيمت الشهادة على الوليد بن عقبة ، لم يتردد عثمان في جَلْد الوليد ، وكان حازماً في تطبيق الحدود ، وقطع ألسنة المغرضين مما قد يشيعونه عليه من تهاون مع ولاته وأقاربه!.

ومثل ذلك مواقفه في عزل الولاة من كبار الصحابة فمن دونهم ، عند حدوث شكاية ، أو وقوع خلاف ، كما سيأتي بيانه.

وعندما أظهر الصحابي الجليل أبو ذر الغِفَاري (مذهبه في المال) ووجوب إنفاقه كله وأن ادخاره هو كنز يستحق صاحبه العقوبة عليه ـ أمر عثمان والي الشام معاويةَ بالتلطف بأبي ذر ، ثم أرسل إليه أن يَقْدَم المدينة ، ففعل ، وخيَّره بين الإقامة فيها أو اعتزال الناس في مكان قريب منها ، فاستجاب أبو ذر للخليفة ، ونزل الرَّبَذة مطيعاً مختاراً.

●● ولعل أبرزَ دلائل الحزم وأجلَّ مظاهره تمثَّلت في السنوات

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣١٤.

الأخيرة من عهد ذي النورين ، حيث ظهرت الفتنة والخروج عليه ثم حصاره وقتله[1] .

فشكَّل لجنةً من خيار الصحابة جالَتْ في الأمصار التي جاشَتْ فيها الفتنة ، وتحققت من الشائعات والأكاذيب والكتب المزورة .

وأصدر من (ديوان الخلافة) كتاباً موحداً للأمصار ، فقُرئ على الناس ، وحَثَّهم على الاجتماع في موسم الحج لأخذ حقوقهم ، كما أمر الولاة أن يَـقدموا عليه لحضور هذا الاجتماع العَلَني .

وخطب جمهورَ الناس خطبة رائعة ، وخَصَّ أولئك الفتَّانين فواجههم بكلام مزمجر قوي لا يصدر إلا عن فتيان الشباب في قمة الجد والحزم والصلابة .

واستمر الخليفة ابنُ الثانية والثمانين على خُطاه في الثبات والحزم والعزم والصلابة في الحق وعدمِ الملاينة فيه إذا ما اقتضت الظروف ذلك ، فلم يعطِ المحاصرين أيَّ أملٍ في تحقيق مطلبهم الجائر في التنحي عن الخلافة .

وشدَّدوا عليه الحصار ، وضَيَّقوا عليه الحركة ، وتهدَّدوه بالقتلِ ، وهو على صلابته وحزمه لا يلين ، وهو يقول: لا أَخلَعُ سِرْبالاً سَرْبَلَنِيه اللهُ تعالى ! .

ولم يكن إباؤه ضنّاً بشيء يحتويه ويشتهيه ، فلا شيءَ أغلى من الحياة وقد هانت عليه! بل استمساكاً بحقه في الخلافة حيث لم يخرج عليه المسلمون الذين بايعوه ، ثم استعصاماً بأمر النبي ﷺ له : «**فلا تخلَعْه**

---

(١) سيأتي تفصيله بإسهاب .

لهم»؛ فكان عثمان حازماً صَليباً في الحق وفيّاً له حتى آخر لحظة من حياته ولو كان الثمن حياته نفسها!.

ليت شعري أية شجاعة نفسية وأي حزم وصلابة وصبر يطلبه الناس وراء هذا[1]؟!.

سادساً: سياسته مع أقاربه:

من أسوأ ما شُوِّهَتْ به سيرةُ الخليفة الراشد عثمان ولُطِّخَتْ به أيامُ خلافته؛ الزعمُ بأنه جانَبَ هَدْيَ الإسلام وخالَفَ نهجَ النبي ﷺ والخليفتين من بعده في محاباة أقاربه وتقديمهم ـ مع عدم أهليتهم واستحقاقهم ـ على غيرهم في الولاية والأَعْطية والهبات والأرزاق. وأنه أَسْرفَ في سياسة المال فأعطاهموه جزافاً، بل ومخالفاً في هذا الحقَّ الذي جاء به الإسلام. وولَّى الأحداثَ من أقاربه، ومن هو مطعونٌ عليه في دينه وتاريخه، وعَزَل في مقابل ذلك كبارَ الصحابة الذين وَلُوا لأبي بكر وعمر.

وجاءت حملة التشويه هذه من جهة بعض الروايات التاريخية التالفة، وتداولَها المؤرخون ممن ينقل الأخبار بلا نقد ولا تمحيص، وروَّجَ لها أصحابُ الأهواء من المؤرخين الذين يَضْطَغِنون على الخلفاء الثلاثة العظام أبي بكر وعمر وعثمان. ووصلت تلك الروايات إلى أيدي مَنْ يُسمَّى في زماننا بالكتّاب والباحثين والمفكرين، فزَيَّنُوها ورَوَّجُوا لها.

فتكونت من أولئك السابقين وهؤلاء اللاحقين جبهةٌ قامت بحملة تشويه ودعاية حَجبتْ وجهَ الحقيقة، وسوَّدَتْ صورة تلك الحقبة من أيام

---

(١) انظر ما تقدم: ص ١٣١ ـ ١٣٢ في هذا الكتاب.

الخلافة الراشدة ، ورَسَّختْ في أذهان جيل عريض من السطحيين والغثائيين فكرةَ (تخبُّط عثمان) في تولية المناصب وإعطاء الأموال لأقاربه بغير وجه حق ، حتى غدا ذلك عندهم من (المسلَّمات) ، مثلما تسرَّب إلى عقولهم أنه (ليِّن ضعيف)! .

وحمل راية هذه الافتراءات في عهد عثمان أولئك السبئيون المفترون الذين خرجوا عليه ، وروَّجُوا لها وزَرَعوها في قلوب الرَّعَاع والسمَّاعين لهم ، واختلقوا الأكاذيب والكتب المزوَّرة ، حتى وصلوا بالأمر إلى حصر عثمان ثم قَتْله .

وقد ردَّ عثمان عليهم باطلَهم وافتراءاتهم ، وناظَرَهُم على الملأ في مشهد من أكابر الصحابة النبلاء الذي صَدَّقوه وشهدوا له بحسنِ سياسته وصواب رأيه وصدق حُجَّته .

وبيَّنَ للناس أنه حَدَبَ على أقاربه اقتداءً بهدي النبي ﷺ ، وأعطاهم الأموال من ماله الخاص ولم يَرْزأ بيت مال المسلمين بشيء .

وأما تولية بعض أقاربه من (الأُمويين) ، فقد سبقه في ذلك رسولُ الله ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر ، حيث وَلَّوا الكثيرين من بني أُمية لشرفهم ومكانتهم وكفاءتهم وكثرة عددهم . ومن طُعِن عليه منهم ـ ولو بغير حق ـ فإن عثمان استجاب لرأي الرعية فعزلهم ، وأَدَّبَ من يستحق التأديب منهم .

وقد كتبتُ هذا هنا مجملاً مختصراً لإكمالِ ملامح سياسة عثمان في خلافته ، وسوف أفصِّل القولَ فيه عند الحديث عن (ولاة عثمان وسياسته معهم) و(ما نقمه الناس على عثمان وبيان وجه الحق فيه) .

* * *

الفصل الخامس

أحداث بارزة في عهد عثمان

أولاً: جمع القرآن الكريم:

١ ـ حفظ القرآن وكتابته في العهد النبوي، وجمعه في خلافة أبي بكر:

إذا كان حِفظُ القرآن ـ بمعنى جمعِه في الصدور ـ وكتابتُه على الأوراق المختلفة المتفرقة قد تمَّ في عهد النبي ﷺ ، فإن جَمْعَه ـ بمعنى جمع أوراقه المكتوبة في مصحف واحد ـ قد تمَّ في عهد الخليفة الصديق. ثم (نُسِخ) من هذا المصحف عدَّة نُسَخٍ بُعثت إلى الأمصار زمن عثمان[1].

وفي حديث زيد بن ثابت أنهم عندما أتمُّوا جمعَ القرآن زمن أبي بكر: (كانت الصُّحُفُ عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمرَ حياتَهُ ، ثم عند حفصةَ بنتِ عمر)[2].

ولم توضع عند عثمان لأن عمر ترك الخلافة شورى من بعده في

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص١٠٥؛ وانظر تفصيل ذلك في: كتابي «أبو بكر» ، ص٥٦٦ ـ ٥٧٣ .

(٢) البخاري (٤٩٨٦).

ستة ، فلو دفع هذه الصحف إلى واحد منهم لفُهم على أنه من أمارات الترجيح . كذلك فإن حفصة كانت وصيَّةَ عمر على أوقافه وتركته[1] .

٢ ـ الحامل لعثمان على جمع القرآن الكريم:

●● روى أنس بنِ مالك: (أن حذيفة بن اليمان قدِمَ على عثمانَ ، وكان يُغازِي أهلَ الشَّأم في فتح إِرْمِينِيَة وأَذْرَبِيجَانَ مع أهل العراقِ ، فأَفْزَعَ حذيفةَ اختلافُهم في القراءة ، فقال حذيفةُ لعثمانَ: يا أميرَ المؤمنين ، أدْرِكْ هذه الأمةَ قبلَ أن يختلِفُوا في الكتاب اختلافَ اليهودِ والنصارى. فأَرْسَلَ عثمانُ إلى حفصةَ: أنْ أَرْسِلي إلينا بالصُّحُفِ نَنْسَخُها في المصاحفِ ثم نَردُّها إليكِ. فأَرْسَلتْ بها حفصةُ إلى عثمانَ ، فأَمَر زيدَ بن ثابت وعبدَ الله بن الزبير وسعيدَ بن العاص وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنَسَخُوها في المصاحفِ. وقال عثمانُ للرَّهْطِ القُرشِيِّينَ الثلاثةِ: إذا اخْتَلَفْتُم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيءٍ من القرآنِ؛ فاكْتُبوه بلسانِ قريشٍ فإنما نَـزَلَ بلسانِهم ، ففَعَلُوا. حتى إذا نَسَخُوا الصُّحفَ في المصاحفِ ردَّ عثمانُ الصُّحُفَ إلى حفصةَ ، وأَرْسَل إلى كل أُفُقٍ بمُصْحفٍ ممَّا نَسخُوا ، وأمر بما سِواهُ من القرآن في كلِّ صحيفةٍ أو مُصْحَفٍ أن يُحْرَقَ)[2] .

وقد فشا الاختلافُ في القراءات وتخطئةُ الناس بعضهم بعضاً في أمصار أخرى ، فروى بُكَيْر بن عبد الله بن الأَشَجّ: (أن ناساً كانوا بالعراق يُسْأَلُ أحدُهم عن الآية ، فإذا قرأها ، قال: فإني أكفر بهذه! ففَشَا ذلك في

---

(١) فضائل القرآن ، لابن كثير ، ص ١٧؛ الفتح: ١١ / ٢١٢؛ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨٧)؛ والترمذي (٣٣٦١)؛ وابن أبي داود في المصاحف: ١ / ٢٠٤ ـ ٢٠٥ (٦٧) ، وغيرهم.

الناس واختَلَفوا في القرآن ، فكُلِّمَ عثمانُ بن عفان في ذلك ، فأَمَر بجمعِ المصاحف فأَحْرَقها ، ثم بَثَّها في الأجناد ـ يعني التي كَتَبَ ـ)[1] .

بل حَدَث ذلك في حاضرة الخلافة؛ فعن أيوب السَّخْتِياني ، عن أبي قِلَابة قال: (لمَّا كان في خلافة عثمان جَعل المعلِّمُ يعلِّم قراءةَ الرجل ، والمعلم يُعلِّم قراءةَ الرجل ، فجعل الغِلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كَفَر بعضُهم بقراءةِ بعض! فبَلَغ ذلك عثمانَ ، فقام خطيباً فقال: أنتم عندي تختلِفون وتلْحَنُون ، فمن نأى عنِّي من الأمصار أشدُّ فيه اختلافاً وأشدُّ لَحْناً ، اجتمِعوا يا أصحابَ محمد ﷺ ، فاكتُبوا للناس إماماً)[2] .

وكان تاريخ هذا الحدث الجليل في صدر خلافة عثمان ، في أواخر سنة (٢٤هـ) وأوائل سنة (٢٥هـ)، وهو الوقت الذي ذكر أهلُ التاريخ أن إرمينية فُتحت فيه . وذكر بعضهم أن ذلك كان في حدود سنة (٣٠هـ) ، ولم يذكر لذلك مستنداً ، وهو غلط[3] .

●● رأَيْنا في حديث حذيفة وغيرِه كيف أن المسلمين كادوا يُفتنون في دينهم بالاختلاف في دستورهم المنزل من عند الله تعالى ، وأن بعضَهم رمى بعضاً بما هو شبيه بالكفر من أجل الاختلاف بالقراءات المنقولة عن الرسول ﷺ بالتواتر ، مما أفزع حذيفةَ كما أفزع أمير

---

(١) المصاحف: ١/ ٢١٥ (٨٠) ، وإسناده صحيح .

(٢) المصاحف: ١/ ٢١١ ـ ٢١٢ (٧٤)؛ الفتح: ١١/ ٢١٥ ، وفيه إرسال ؛ وأسنده الطحاوي في شرح مشكِل الآثار: ٨/ ١٣٢ ـ ١٣٣ ، عن الصحابي أنس بن مالك الكعبي ، وإسناده صحيح .

(٣) الفتح: ١١/ ٢١٤ .

المؤمنين عثمان ، فأسرع حذيفة وقطع الأرض من إرمينية إلى المدينة وطلب من عثمان أن ينهض بهذا العبء الجسيم ، ويدرك الأمة قبل أن تهلك .

أدرك أمير المؤمنين عثمان خطرَ ما سيُقدم عليه ، فلم يشأ أن ينفرد فيه برأي اعتماداً على سلطان الخلافة الذي لا يُدْفَع ، ولكنه لجأ إلى سُنَّة الإسلام في الشورى ، فجمع المهاجرين والأنصار وشاورهم في الأمر ، وفيهم أعيان الأمة وعلماء الصحابة ، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب الذي عرف عنه التاريخ أنه لو احتوشَتْه السيوف من كل جانب ما رضي دون ظلال الحق مَقيلاً .

عرض عثمان هذه المعضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين ، ودارسهم أمرها ودارسوه ، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه ، **فأجابوه إلى رأيه في صراحة لا تجعل للريب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً ، وظهر للناس في أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم ، فلم يُعرف قطُّ يومئذ لهم مخالِفٌ ، ولا عُرف عند أحد نكير** ، وليس شأن القرآن بالذي يخفى على آحاد الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها البارزين[1] .

عن سُويد بن غَفَلَة قال : (والله لا أحدِّثكم إلا شيئاً سمعتُه من علي بن أبي طالب ، سمعتُه يقول : **يا أيها الناس ، لا تَغْلُوا في عثمانَ ولا تقولوا له إلا خيراً ـ أو : قولوا له خيراً ـ في المصاحف وإحراقِ المصاحف ، فوالله ما فَعَل الذي فَعَل في المصاحف إلا عن ملأ منَّا جميعاً** ، قال :

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص١٧٤ ـ ١٧٥ ، بتصرف؛ تفسير القرطبي : ١/ ٨٨ .

ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بَلَغني أن بعضَهم يقول: إن قراءتي خيرٌ من قراءتك ، وهذا يكادُ أن يكون كفراً! قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن نَجمع الناسَ على مصحفٍ واحد ، فلا تكون فُرقة ولا يكون اختلافٌ ، قلنا: فنِعْمَ ما رأيتَ ، قال: فقيل: أيُّ الناسِ أفصحُ ، وأي الناس أقرأُ؟ قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص ، وأقرؤهم زيد بن ثابت ، فقال: لِيَكْتُبْ أحدُهما ويُمْلِ الآخر. ففعلا ، وجُمع الناس على مصحف. **قال: قال عليٌّ: والله لو وليتُ لفعلتُ مثلَ الذي فعل)**[1].

٣ ـ منهج الجمع العثماني:

●● يؤخذ من حديث زيد بن ثابت وحديث أنس عن حذيفة أن القرآن الكريم كان مجموعاً في (صُحُف) ومضموماً في خَيْط في عهد أبي بكر الصديق ، واتفقتْ كلمةُ الأمة اتفاقاً تامّاً على أن ما في تلك (الصحف) هو القرآن كما تلقَّتْه عن النبي ﷺ في آخر عَرْضَة على أمين الوحي جبريل عليه السلام. وأن تلك (الصُّحُف) كانت عند أبي بكر حَياتَهُ ، ثم عند عمرَ ، ثم أوصى عمر بحفظِها عند ابنته حفصة.

●● كذلك ينصُّ حديثُ أنس عن حذيفة والأحاديثُ الأخرى التي في معناه ، على أن السبب الحامل لعثمان على (جَمْع القرآن)؛ هو اختلافُ قرَّاء المسلمين في القراءة. وأن عثمان اعتَمَد في جمعه على (الصُّحف التي جُمعت في عهد الصديق) ، وعنها نَقل (مُصْحفَه الرسمي) ، كما جاء في الحديث: (فأَرْسَل عثمانُ إلى حفصةَ أنْ أَرْسِلي إلينا بالصُّحُفِ

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف»: ١/ ٢١٣ ـ ٢١٤ (٧٧)؛ وبنحوه في شرح السنة: ٤/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ؛ وصححه الحافظ في الفتح: ١١/ ٢١٥.

نَـنْسَخُها في المَصَاحفِ ثم نَرُدُّها إليك).

●● وفي الحديث أيضاً: أن عثمان أَمَر (أربعةً من أشهر قرَّاء الصحابة) إتقاناً لحفظ القرآن ووعياً لحروفه وأداءً لقراءته وفهماً لإعرابه ولغاته[1]: ثلاثة قرشيين، وواحداً أنصارياً هو زيد بن ثابت صاحب (الجمع الأول) في عهد الصديق. وقال للرَّهْط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتُم أنتم وزيدٌ في شيء من القرآن؛ فاكـتبوه بلسانِ قريش فإنَّما نَـزَل بلسانهم، ففعلوا.

ومعنى (إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن): أي إذا اختلفتم في رَسْم كتابتِهِ فاكتبوه بالرسم الذي يوافقُ لغةَ قريش ولهجتها من نحو همزٍ وغيره، فإنه نزل بها لأنها لغة الرسول ﷺ، وأفصحُ لغات العرب[2]. ومن ذلك ما قاله الزهري: (فاختلَفوا يومئذٍ في «التَّابوتِ» و«التَّابوهِ»، فقال القُرشيُّون: «التَّابوتُ»، وقال زيدٌ: «التَّابُوهُ»، فَرُفِعَ اختلافُهم إلى عثمانَ: فقال: اكْتُبوه «التَّابُوت»، فإنه نَـزَل بلسانِ قريش)[3].

●● وفي بعضِ الروايات الصحيحة: أن (لجنة الجمع العثماني) تضمُّ اثني عشر رجلاً أَمَرهم عثمان أن يكتبوا الصُّحُف، وكان هو يَـتعاهَدُهم وهو أحدُ كبار الحفظة.

عن كَثير بن أَفْلح[4] ـ وهو أحدُ كُتَّاب المصاحف التي كتبها عثمان ـ قال: (لمَّا أرادَ عثمانُ أن يَكتب المصاحفَ جَمع له اثني عشر رجلاً من

---

(١) انظر: عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٧١.
(٢) فضائل القرآن، لابن كثير، ص١٨ حاشية (٢)؛ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ص١٢١.
(٣) الترمذي (٣٣٦١)؛ الفتح: ١١/ ٢١٧.
(٤) تهذيب الكمال: ٢٤/ ١٠٥.

قريشٍ والأنصار ، فيهم أُبَيُّ بن كعب وزيد بن ثابت ، قال: فبَعَثُوا إلى الرَّبْعَة التي في بيت عمر فجيءَ بها . قال: وكان عثمان يتعاهدهم)[1] .

●● وليس يَخفى أن وجود زيد بن ثابت على رأس القائمين بنسخ (صُحُف الصديق) ونقلِها إلى (المُصْحَف الإمام) في عهد عثمان ـ وهو الذي كان قد تولَّى الجمعَ في عهد الصديق ـ دليلٌ قوي على أن عثمان لم يصنع شيئاً سوى نقل ما أجمعتْ عليه الأمة في عهد الخليفة الأول ، مقتصِراً ـ إذا كان خلاف في القراءات والأحرف التي أنزل بها القرآن ـ على لغةِ قريش ، قطْعاً لعواملِ الاختلاف في وجوه القراءات محتجّاً بأنه نزل بلسانهم ، ولم ينكِر عليه أحد .

ومن ذلك يتضح أن عثمان كان في هذا العمل الجليل الخالد ينظر بنور الله تعالى إلى مستقبل الإسلام البعيد ، فهو لم يعتمد على حفظه وإتقانه وحفظِ جماعات من المشهود لهم بالتجويد من أعلام الصحابة الذين لا يتعلَّق عليهم أحدٌ من الناس بهفوة ـ بل جعل العمدةَ في عمله (صُحُفَ الإجماع القاطع) . وكان من الموافقات الإلـٰهية المؤيدة لعثمان رضي الله عنه أن الذي كان على رأس القائمين بالعمل في (مُصحف توحيد القراءات) على عهد عثمان ، هو نفسه الذي نَهض بالعمل في (الجمع المطلَق) على يد الصديق والفاروق؛ ذلك العَيْلم الفيصل زيد بن ثابت الأنصاري أقرأ الناس للقرآن الكريم[2] .

---

(١) المصاحف: ١/٢٢١ (٨٩) ؛ وصححه ابن كثير في «فضائل القرآن» ، ص٢٤ ، وقال: الربعة: هي الكتب المجتمعة ، وكانت عند حفصة رضي الله عنها .

(٢) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص ١٧٤ ، ١٧٧ ، باختصار .

٤ ـ ترتيب الآيات والسور:

قال السيوطي: (الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفيٌّ لا شبهةَ في ذلك)[١].

أما ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه؛ فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء[٢].

وقد قرر الحافظ في «الفتح»، وغيرُه من الأئمة والعلماء قديماً وحديثاً أن: ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ.

فالقرآنُ على هذا الترتيب آياتُه وسُوَرُه؛ هكذا أنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ورتَّبه النبي ﷺ بإشارة جبريل على وَفْق ما هو باللوح المحفوظ، وحفظَتْه الصحابة رضي الله عنهم على هذا الترتيب[٣].

وأما ما رواه يزيدُ الفارسِيُّ قال: حدَّثني ابنُ عباس قال: (قلتُ لعثمانَ بن عفان: ما حَمَلَكُم أنْ عَمَدْتُم إلى الأنفالِ وهي من المَثَاني، وإلى براءةَ وهي من المِئِينَ، فَقَرَنْتُم بينهما ولم تكْتُبوا بينهما سطرَ: بسم الله الرحمن الرحيم، ووَضَعْتُموها في السَّبْع الطُّوَل، ما حَملكُم على

---

(١) الإتقان: ١/ ١٠٤؛ وانظر: الفتح ١١/ ٢٤٥، شرح الحديث (٤٩٩٣)؛ الزيادة والإحسان: ٢/٦ ـ ١٢.

(٢) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ص ١٣٧.

(٣) الفتح: ١١/٢٤٨؛ شرح السنة: ٤/ ٥٢١ ـ ٥٢٣؛ الزيادة والإحسان: ٢/ ١٢ ـ ١٧؛ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ص١٣٧ ـ ١٤٠.

ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمانُ وهو يُـنْزَل عليه السُّوَرُ ذواتُ العَدَد ، فكان إذا نَـزَل عليه الشيءُ دعا بعضَ من كان يَكْتُب فيقول: «**ضَعُوا هؤلاءِ الآياتِ في السورة التي يُذْكَر فيها كذا وكذا**» ، وإذا نَـزَلت عليه الآيةُ فيقول: «**ضَعُوا هذه الآيةَ في السورة التي يُذكَرُ فيها كذا وكذا**»، وكانتِ الأنفالُ من أوائل ما نَزَلَتْ بالمدينة، وكانت براءةُ من آخِرِ القرآن ، وكانت قِصَّتُها شبيهةً بقِصَّتِها ، فظَنَنتُ أنها منها ، فَقُبِضَ رسولُ الله ﷺ ولم يُـبَـيِّنْ لنا أنها منها ، فمن أجلِ ذلك قَرَنْتُ بينهما ولم أكتُبْ بينهما سطرَ: بسم الله الرحمن الرحيم ، فوضَعْتُها في السَّبْع الطُّوَل)[1].

فهو حديث ضعيف جدّاً ومتنه منكر ، وقد طعن فيه جماعة من المحدثين النقاد،فحكم ببطلانه العلامة محمد رشيد رضا، وقال المحدث الناقد أحمد شاكر: ضعيف جدّاً ، بل هو حديث لا أصل له ، ثم تكلم بكلام نفيس. وضعفه المحدث العلامة ناصر الدين الألباني ، وقال العلامة المحدث شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف ومتنه منكر. وبسط القول فيه في تعليقه على «صحيح ابن حبان» و«مسند أحمد»[2].

٥ ـ نتائج الجمع العثماني وأهميته ، وموقف الصحابة منه:

●● كلَّف أمير الميرمنين عثمان اللجنة بنسخ عددٍ من المصاحف بَعث بها إلى الأمصار الكبرى في الدولة الإسلامية ، وتُسمَّى هذه المصاحف

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩٩)؛ والترمذي (٣٣٤٠)؛ وأبو داود (٧٨٦)؛ وابن حبان (٤٣) ، وغيرهم.

(٢) انظر تعليقات هؤلاء العلماء الأفاضل على الحديث في مواضع تخريجه المذكورة ، حيث حققوا تلك الكتب وحكموا على أحاديثها صحة وضعفاً.

(**المصاحف العثمانية الأئمة**) ، ولم يكتبها عثمان بخطه ، بل لم يكتب واحداً منها ، وإنما هي بخط زيد بن ثابت وغيرِه ونُسبت إلى عثمان لأنها كتبت في عهده وبأمره وإشارته وإمامته وإشرافه ، ولأنها أصبحت (أئمةً) لكل المسلمين في اعتمادها وقراءتها والانتساخ عنها ، وقد قُرئت على الصحابة بين يدي عثمان ، ثم أنفذوها إلى الآفاق[١] .

أما عددها : ففي رواية أنها (خمس نسخ) ، وفي أخرى (سبع نسخ) .

قال الإمام المُقرئ أبو حاتم السِّجِسْتانيُّ : (لمّا كَتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن ، كتب سبعة مصاحف : فَبَعثَ واحداً إلى مكة ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى اليمن ، وآخر إلى البحرين ، وآخر إلى البصرة ، وآخر إلى الكوفة ، وحَبس بالمدينة واحداً)[٢] .

وأكثر العلماء على أنها (خمس نسخ) وصحَّحه القرطبي ، واستغربه ابن كثير[٣] والحق معه ، ونحن نميل إلى أنها (سبع نسخ) ، بل ثَمَّة رواية يسوقها عُمر بن شَبَّة ـ وهو من أكابر مؤرخي المدينة ـ أنها (تسع نسخ) أرسلها أمير المؤمنين إلى : الكوفة والبصرة ومكة ومصر والشام والبحرين واليمن والجزيرة بالإضافة إلى مصحف المدينة[٤] .

وهو كلام وجيهٌ سديدٌ ، فلا بدَّ أن يُعمِّم الخليفة هذا (المصحف الإمام) على كبرى أمصار الدولة الإسلامية .

---

(١) البداية والنهاية : ٧/ ٢١٧ ؛ فضائل القرآن ، لابن كثير ، ص٢٦ .

(٢) المصاحف : ١/ ٢٤٢ (١١٦) ؛ الفتح : ١١/ ٢١٨ ؛ الزيادة والإحسان : ٢/ ٢٧ ، وانظر : الحاشية السابقة .

(٣) فضائل القرآن ، ص٢١ ـ ٢٢ .

(٤) تاريخ المدينة المنورة : ٣/ ٩٩٧ .

ويؤيد ذلك عمومُ رواية البخاري: (وأَرْسَل إلى كل أُفُقٍ بمُصحفٍ مما نَسخوا)[1]. ورواية ابن أبي داود: (وأَرْسَل إلى كل جُنْد من أجناد المسلمين بمصحف)[2].

●● **ولما نسخ عثمان المصاحف ردَّ (الصُّحفَ) التي جُمعت في عهد الصديق إلى أم المؤمنين حفصة، وأَحرق ما سوى ذلك عنده، وأَمر الناس عنده وفي الأمصار بحرقِ ما عندهم.**

جاء في رواية البخاري: (وأَرْسَل إلى كل أُفُق بمصحفٍ مما نَسخُوا وأَمر بما سِواهُ من القرآنِ في كل صحيفةٍ أو مُصْحفٍ أن يُحْرَقَ)، وفي رواية: (أن يخرق)[3].

وفي رواية عند ابن أبِي داود وغيره: (وأَمرهم أن يَحرقوا كلَّ مصحف يُخالف المصحفَ الذي أَرسل به، فذاك زمان حُرقت المصاحفُ بالعراق بالنار).

وفي رواية أخرى: (فلما فرغ من المُصحف كَتب إلى أهل الأمصار: إني قد صنعتُ كذا وكذا ومحوتُ ما عندي، فامحُوا ما عندكم)[4].

●● **ومثلما وافَقَ الصحابةُ على عمل عثمان في (جمع القرآن)، كذلك أقرُّوه على تحريق ما سوى (المصحف الإمام)، وامتدحوه وأثنوا عليه فيه، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب.**

---

(١) البخاري (٤٩٨٧).

(٢) المصاحف: ١/ ٢٠٩ (٧٠)، بسند صحيح.

(٣) الفتح: ١١/ ٢١٨.

(٤) المصاحف: ١/ ٢٠٩ (٧٠)، ٢١٢ (٧٥)؛ الفتح: ١١/ ٢١٨، وأسانيدها صحيحة.

عن مصعب بن سعد قال: (أدركتُ الناسَ متوافرين حين حرَّق عثمان المصاحفَ ، فأعجَبَهم ذلك. أو قال: لم يُـنكِر ذلك منهم أحد)[1].

وعن سُويد بن غَفَلة قال: قال عليٌّ حين حرَّق عثمان المصاحف: (لو لم يَصْنَعْه هو لصنعتُه)[2]. وهذه الرواية فيها رجل مبهم ، لكن يشهد لها روايةٌ صحيحة عن عليٍّ قال: (لا تَغْلُوا في عثمانَ ، ولا تقولوا له إلا خيراً ـ أو: قولوا له خيراً ـ في المصاحف وإحراقِ المصاحف؛ فوالله ما فعلَ الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعاً)[3].

●● وإنما أمر عثمان بتحريق ما سوى (المصاحف الأئمة) من مصاحف وصُحف: لأن ما فيها قد كُتب وحُفظ في (المصحف الإمام) ، ولمنعِ التماري والشجار بين المسلمين بشأن القراءات ، وحمايةً للنص القرآني ذاته من أي تحريفٍ نتيجة إدخال بعض الصحابة على مصاحفهم ما كان شرحاً لمعنى أو بياناً لناسخ أو منسوخ أو نحو ذلك ، أو كان فيها ما نُسخ منه ، أو تختلِف في تأليفها وترتيبها للسور. فلو بقيتْ هذه المصاحف وطال بالناس الزمان؛ فقد يتوهم متوهِّم أن فيها ما يُغاير المصحف الإمام زيادة أو نقصاً ، فأمر الإمام أمير المؤمنين بحرقها ، وأقرَّه على ذلك الصحابة جميعاً[4].

●● ولم يَحرقْ عثمان (الصُّحُفَ التي عند حفصة) كما أحرق غيرها

---

(١) المصاحف: ١/ ١٨٧ (٤١) ؛ وصححه ابن كثير في فضائل القرآن ، ص ٢٢.

(٢) المصاحف: ١/ ١٨٦ (٤٠).

(٣) تقدم مطولاً: ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٤) انظر: العواصم من القواصم ، ص٨٣ ؛ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص١٢٠.

من مصاحف الأفراد؛ **لأن تلك الصحف كانت لها صفة رسمية وانعقد عليها الإجماع ، وهي أصل المصحف العثماني الذي انتقلت إليه منها الصفة الرسمية**؛ فكان من الخير أن يتلبَّث بها حتى ذيوع هذا المصحف بين عامة المسلمين وخاصتهم ، ويأخذ مكانه في مدارساتهم وتعلمهم وتعليمهم وحفظهم وإتقانهم ، لتقومَ الحجة بتلك الصحف على من تحدِّثه نفسه بشقِّ عصا الطاعة ورجْعِ الأمة إلى الاختلاف.

ولذلك لما انتهى هذا الدور بمرور عهد الخلافة العثمانية ، وعهد خلافة عليٍّ ، وقام بالأمر معاوية ، **طلب مروان بن الحكم ـ وكان والياً على المدينة من قِبل معاوية ـ هذه الصحف فغَسَلَها**[1].

روى الزُّهْري: عن سالم بن عبد الله بن عمر: (أن مروان كان يُرسِل إلى حفصةَ يسألُها الصُّحفَ التي كُتِب منها القرآن ، فتأبَى حفصة أن تعطيه إياها. قال سالم: فلما توفِّيت حفصةُ ورجعنا من دفْنِها ، أَرسلَ مروان بالعزيمةِ إلى عبد الله بن عمر لَيُرسِلنَّ إليه بتلك الصحف ، فأرسل بها إليه عبدُ الله بن عمر ، فأمَر بها مروانُ فَشُقِّقَتْ. وقال مروان: إنما فعلتُ هذا لأن ما فيها قد كُتب وحُفِظ بالمصحف ، فخشيتُ إنْ طال بالناس زمان أن يرتابَ في شأن هذه الصحف مرتابٌ ، أو يقول: إنه قد كان شيءٌ منها لم يُكتب!)[2].

●● **(أما ما يزعمه الغُلاة من الشيعة أن عثمان رضي الله عنه حرص على حرقِ المصاحف ليُخفي التبديلَ الذي أحدثه في النص القرآني! فأهونُ من**

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص١٧٢.

(٢) المصاحف: ١/ ٢١٩ (٨٥) وسنده صحيح ، وبنحوه (٧٢ ، ٧٣) ؛ وذكرها الحافظ في الفتح: ١١/ ٢١٧ ـ ٢١٨.

أن يُـلتفت إليه ، بعد كل ما قدَّمناه عن كتابة القرآن وحفظِه ، وعن المنهج الذي اتُّبع في جَمْعه ونَسْخه! ونكتفي فقط بالقول : إن عثمان لو فعل شيئاً من ذلك ، سواء أكان متعلِّقاً بعليٍّ على وجه الخصوص ، أم بغيره ـ لَراجَعَه حفظةُ القرآن! اللهم إلا إذا زَعَم هؤلاء أن هؤلاء الحَفَظة من المهاجرين والأنصار ، مَنْ بقي منهم بالمدينة ، ومن تفرَّق منهم في سائر الأمصار . . . تواطؤوا جميعاً على ذلك! والأسئلة التي تطرح نفسَها أمام هذا البهتان : لِمَ يفعلون ذلك؟ وكيف؟ ولماذا لم يُؤْثَر عن علي إنكارٌ أو اعتراض؟ ولمن شاء من العقلاء ، أو من أصحاب الأهواء ؛ أن يصدِّق أن الصحابة الذين لم يَشفع عندهم تكرارُ البسملة في صدر ثلاث عشرة ومئة سورة من القرآن الكريم : أن يُصَدِّروا بها السورة الوحيدةَ الباقية ـ سورة التوبة ـ لأنهم لم يسمعوا رسولَ الله ﷺ يفتتح بها هذه السورة! .

أقول : لمن شاء أن يصدِّق أن هؤلاء الذين بَلَغ بهم الالتزامُ والتدقيقُ هذا المبلغ ؛ يحرِّفون القرآنَ ، أو يتلاعبون فيه بالزيادة والنقصان! أيُّ سُخف هذا؟ بل أي جهل وزندقة وإلحاد!)[1] .

٦ ـ عثمان في هذا العمل الجليل له المِنّة في عنق كل مسلم إلى يوم الدين:

قال ثابت بن عُمارة الحَنَفي : سمعتُ أبا العَنْبر غُنَيم[2] بن قيس المازني قال : (قرأتُ القرآنَ على الحرفَيْن جميعاً ، والله ما يَسرُّني أن عثمان لم يَكتب المصحفَ وأنه وُلد لكلِّ مسلم كلما أصبح غلامٌ فأصبح

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ١٢٦ .
(٢) تابعي مخضرم ثقة ، أدرك النبي ﷺ ولم يره .

له مثل ما له! قال: قلنا له: يا أبا العنبر لِمَ؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف، لَطَفِقَ الناس يقرؤون الشعر!)[1].

وقال عبد الرحمن بن مَهْدي: (خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر: صَبْرُه نفسَه حتى قُتل مظلوماً، وجَمْعُه الناسَ على المصحف)[2].

وقال ابن كثير: (ومن مناقبه الكبار وحسناته العظيمة أنه جمع الناس على قراءة واحدة، وكتب المُصحف على العَرْضَة الأخيرة التي درسها جبريل على رسول الله ﷺ في آخر سِني حياتِه)[3].

وقال الزركشي: (ولقد وُفِّق لأمر عظيم، ورَفَع الاختلاف، وجَمع الكلمة، وأراحَ الأمة)[4].

وينفرد اليوم بين أعمال عثمان عملٌ جليل يوازنها جميعاً، يُذْكَر باسمه حيث يُذكر (المُصحف الشريف)، ويَعلمه من يعلم أن (المصحف العثماني) منسوب إليه. وإن عملَه في (المصحف) ماثِلٌ معلوم حيث يُقرأ المصحف وحيث يُقال: هذا مصحف عثمان، وكل مصحف اليوم هو (مصحف عثمان)[5].

---

(١) المصاحف: ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨ (٤٢)؛ فضائل القرآن، لابن كثير، ص٢٢، وإسناده حسن.

(٢) المصاحف: ١/ ١٨٨ (٤٤)؛ فضائل القرآن، لابن كثير، ص ٢٢، وإسناده صحيح.

(٣) البداية والنهاية: ٧/ ٢١٧.

(٤) البرهان: ١/ ٣٤٠.

(٥) عبقرية عثمان، ص١٣٩.

قد ينسى الناس سيرة عثمان وتاريخه وجهاده وفتوحاته وأعماله في خلافته ، لكن المسلمين جميعاً في كل بلدانهم وعلى امتداد تاريخهم وإلى قيام الساعة؛ لن ينسوا لعثمان هذا العملَ العظيم وهم يتلون كتابَ ربهم ودستورَ حياتهم في (المصحف العثماني) .

٧ ـ الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:

قال ابن التين وغيره : (الفرقُ بين جمع أبي بكر وبين جمع عثمان : أن جَمْعَ أبي بكر كان لخشية أن يَـذهب من القرآن شيءٌ بذهاب حَمَلَتِه ، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد ، فجمعه في صحائف مرتِّباً لآياتِ سُوَره على ما وَقفهم عليه النبي ﷺ. وجَمْع عثمان كان لمّا كَثُر الاختلافُ في وجوه القرآن حين قرؤوه بلغاتِهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك ببعضهم إلى تخطئة بعض ، فخَشِي من تفاقُم الأمر في ذلك ، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتِّباً لِسُوَرِه ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجّاً بأنه نَـزَلَ بِلُغَتِهم ، وإن كان قد وُسِّع في قراءته بلغةِ غيرهم رفعاً للحَرَج والمشقَّة في ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك انتهت فاقتصر على لغة واحدة)[١] .

وقال القاضي أبو بكر الباقِلَّاني : (لم يَـقْصِد عثمانُ قَصْدَ أبي بكر في جمع نَفْسِ القرآن بين لوحين ، إنما قصَدَ : جَمْعَهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ ، وإلغاءَ ما ليس كذلك . وأَخْذَهُم بمصحفٍ : لا تقديمٌ فيه ولا تأخير ، ولا تأويلٌ أُثْبِت مع تنزيل ، ولا منسوخٌ تلاوته

(١) الفتح : ١١/٢١٩ .

كُتِب مع مُثْبَتٍ رَسْمُه ومفروضٍ قراءتُه وحفظُه؛ خشيةَ دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعدُ)[1].

٨ ـ موقف الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود:

●● لما أمر أمير المؤمنين عثمان بإحراق المصاحف، وقف ابن مسعود باديءَ الأمر موقفاً مخالفاً لباقي الصحابة، ورفض إحراق مصحفه، وأمر تلاميذه بذلك!.

عن شَقيق بن سَلَمة، عن عبد الله بن مسعود: (أنه قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ثم قال: على قراءةِ مَنْ تأمُروني أن أقرأ؟ فلقد قرأتُ على رسول الله ﷺ بِضْعاً وسبعينَ سورةً، ولقد عَلِمَ أصحابُ رسول الله ﷺ أني أَعْلَمُهم بكتابِ الله، ولو أَعْلَمُ أن أحداً أعلمُ منِّي لَرحلْتُ إليه. قال شَقيقٌ: فجلستُ في حِلَقِ أصحاب محمدٍ ﷺ، فما سمعتُ أحداً يَـرُدُّ ذلك عليه، ولا يَعِيبُه)[2].

وقد بيَّنَتْ روايات أخرى السببَ صريحاً؛ فروى خُمير بن مالك، عن ابن مسعود قال: (لمّا أُمر بالمصاحف ـ يعني بتحريقها ـ ساء ذلك عبدَ الله بن مسعود وقال: من استطاع منكم أن يَغُلَّ مُصْحفاً فَلْيَغْلُلْ؛ فإنه مَن غَلَّ شيئاً جاء بما غَلَّ يوم القيامة.

ثم قال عبد الله: لقد قرأتُ القرآنَ من فِي رسول الله ﷺ سبعينَ سورةً،

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٧٨؛ وانظر: الزيادة والإحسان: ٢/٢٦.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٦٢)؛ وبنحوه: البخاري (٥٠٠٠)؛ والنسائي في الكبرى (٧٩٤٣).

وزيدُ بن ثابت صبيٌّ ، أَفأَتَركُ ما أخذتُ من فِي رسول الله ﷺ؟!)[1].

وعن أبي وائل شَقيق بن سَلَمة قال: (خطَبنا ابنُ مسعود على المنبر فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ، غُلُّوا مصاحفَكم ، وكيف يأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ، وقد قرأتُ من فِي رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة ، وإنَّ زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذُؤابتان؟! والله ما نزل من القرآن شيءٌ إلا وأنا أعلمُ في أيِ شيء نزل ، وما أحدٌ أعلمَ بكتاب الله منِّي ، وما أنا بخيرِكم ، ولو أعلمُ مكاناً تبلُغه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيتُه.

قال أبو وائل: فلما نزل عن المنبر جلستُ في الحِلَق ، فما أحدٌ يُنكر ما قال)[2].

قال ابن كثير: (وقولُ أبي وائل: فما أحدٌ يُنكر ما قال ، يعني من فضلِه وحفظِه وعلمِه ، والله أعلم. وأمَّا أمرُه بغَلِّ المصاحف وكتمانِها؛ فقد أنكره عليه غيرُ واحد).

عن علقمة بن قيس قال: (قدِمتُ الشامَ فلقيتُ أبا الدرداء ، فقال: كنّا نَعُدّ عبدَ الله حناناً ، فما بالُه يواثب الأمراءَ!)[3].

وفي رواية مرسَلة عن الزُّهري قال: (فبَلَغني أن ذلك كَرِهَهُ من مقالةِ

---

(١) المصاحف: ١/ ١٩٢ (٥١)؛ فضائل القرآن ، لابن كثير ، ص٢٢.

(٢) المصاحف: ١/ ١٩٥ (٥٥)؛ ، فضائل القرآن ، لابن كثير ، ص٢٢ ـ ٢٣ ، وهو حديث صحيح ، وأصله في الصحيحين: انظر: الصفحة السابقة ، الحاشية رقم (٢) في هذا الكتاب.

(٣) المصاحف: ١/ ٢٠١ (٦٥) وإسناده صحيح؛ فضائل القرآن ، لابن كثير ، ص٢٣.

ابن مسعود رجالٌ من أفاضلِ أصحاب النبي ﷺ)[1].

●● نقول: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صحابي جليل رفيع المحلِّ من أكابر علماء الصحابة، وله مؤهلات كثيرة تجعله حَقيقاً بأن يحضر مع (لجنة الجمع العثماني)، ومن ذلك:

١ ـ أنه أخذ عن النبي ﷺ أكثر من سبعين سورة مشافهةً.

٢ ـ أن رسول الله ﷺ امتدح قراءته.

٣ ـ ووجَّه ﷺ الناسَ لأخذ القرآن عنه.

٤ ـ كما أنه ﷺ طَلَب منه أن يقرأ عليه القرآن، مما يوحي بمنزلته العالية.

٥ ـ أنه شهد العَرْضَة الأخيرة.

وله أن يغضب لعدمِ مشاركته أو لعدم استدعائه لينالَ شرف هذا العمل الجليل الخالد، لكنه رضي الله عنه ـ وهو بشرٌ ـ ما كان له أن يُعرِّض بالصحابي العَلَم زيد بن ثابت وهو الذي كان يكتب الوحي للنبي ﷺ، ثم هو جامع القرآن في عهد أبي بكر وبحضور عمر وجلّة الصحابة ومنهم ابن مسعود رضي الله عنهم جميعاً. وما كان له أيضاً أن يأمر أصحابه بعدم حرقِ مصاحفهم. ولهذا كرِه جماعة من الصحابة هذا الموقف من ابن مسعود.

●● ولعثمان العذرُ في عدم استدعاء ابن مسعود، لأمور:

---

(١) سنن الترمذي، عقب الحديث (٣٣٦١).

١ ـ تمَّ الجمع بالمدينة المنورة ، وابن مسعود عندئذ بالكوفة ، والأمر لا يحتمل التأخير .

٢ ـ إن عثمان نَسخ الصُّحُف التي جُمعت في عهد أبي بكر ، والذي جمعها هو زيد لكونه كان كاتب الوحي ، فكانت له بذلك أولية ليست لغيره .

٣ ـ وزيدٌ شهِد العَرْضة الأخيرة ، وكَتَبها للنبي ﷺ وقرأَها عليه ، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات .

٤ ـ ثم إن ابن مسعود أخذ عن النبي ﷺ بضعاً وسبعين سورة ، واستكمل القرآنَ من الصحابة فيما بعدُ ، أما زيدٌ فحفِظَ القرآنَ كلَّه ورسول الله ﷺ حيٌّ ، وهذا يُضاف إلى مبررات عثمان في الاعتماد عليه .

٥ ـ كان زيد يكتب الوحيَ للنبي ﷺ فهو إمامٌ في الرسم ، وابنُ مسعود إمام في الأداء ، و(الجمع العثماني) يتطلب الميزة التي عند زيد ، ولذا أُمر بالكتابة ، وأُمر سعيد بن العاص بالإملاء .

٦ ـ إن ابن مسعود كان يقرأ بلهجة هُذَيْل ، والمصحف كُتب بلغة قريش .

٧ ـ رضي الصحابة جميعاً بصنيع عثمان في تحريق المصاحف ، واستجابوا له ، وهذا دليل صوابِ هذا العمل وخيريته[1] .

وعلى أية حال فإن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بعد أن سَكَت عنه الغضبُ ، أو بعد أن ذهبتْ حِدَّة المفاجأة ، وربما بعد أن اطَّلَع على عمل

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: كتابي «عبد الله بن مسعود» ، ص١٢١ ـ ١٢٤ .

اللجنة من خلال مصحف الكوفة ـ قام بإحراقِ مصحفه ، وأقرَّ بما قام به الخليفة الراشد عثمان ، ورجع إلى الوفاق ، والحمد لله تعالى[1] .

ثانياً: بناء الأسطول البحري:

●● من أعمال عثمان الجليلة ومآثرِه الخالدة منذ السنين الأولى من خلافته ؛ أمرُهُ بصناعة السفن وتكوين الأسطول البحري الإسلامي ، ومدُّ أجنحةِ الفتوحات لتشمل غزوَ البحر مع المعارك البرية .

فقد كان والي الشام الصحابي المجاهد معاوية بن أبي سفيان يَعرض على الفاروق عمر ويُلحُّ عليه بأن يَأْذَنَ له في غزو البحر ومقارعةِ قوى الرومان فيه لكفكفة عدوانهم وتأمين شواطئ الدولة الإسلامية من هجماتهم البحرية ـ فكتب إلى عمر: (يا أمير المؤمنين ، إن بالشام قرية[2] يسمع أهلُها نباحَ كلاب الروم وصياحَ ديوكهم ، وهم تِلقاء ساحل من سواحل حمص)[3] .

فأبىَ عمر ذلك ؛ لعدم معرفة العرب بالقتال البحري ، وخشيةَ التغرير بجند المسلمين ، وحفاظاً على أرواحهم ، وكان من سياسته أنه لا يَجعل بينه وبين جيوش المجاهدين بحراً ولا نهراً ولا قنطرة ، وأن يجنِّبهم ركوبَ البحر ما استطاع .

وعندما فتح المسلمون الثغور البحرية ، أضحت هذه عُرضةً لهجمات

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص١٢٦ ؛ كتابي «ابن مسعود» ، ص١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٢) هي جزيرة أَرْوَاد السورية .

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٢٥٨ ، ٢٥٩ .

الروم المنطلقين من الجُزر القريبة ، ونظراً لأن صراع المسلمين معهم هو في أحد وجهيه صراع بحري؛ أدرك معاوية أهمية بناء (أسطول إسلامي) بهدف: الدفاع عن السواحل ، وغزو الجزر البحرية المواجهة لسواحل بلاد الشلام ، والدفاع عن المناطق الداخلية المفتوحة. فعَرَض رأيه على عمر ورغَّبه فيه ، فلم يَستجب له.

وحَدَث في أواخر عهد عمر وأوائل عهد عثمان أن انتقضت بعض أطراف الدولة الإسلامية ، واستعاد الروم بعضَ المدن الساحلية ومنها الإسكندرية ، فزاد ذلك من تصميم معاوية على رأيه ، وتمكن من إقناع الخليفة عثمان حيث سَمح له بركوب البحر وغزو (قبرص).

وفورَ ذلك قرَّر معاوية إصلاحَ المراكب التي استولى عليها المسلمون من الروم وتقريبها إلى ساحل (حصن عكا) الذي أَمر بترميمه ، كما رمَّم ثغر (صور) ، وكتب إلى أهل السواحل بالاستعداد لغزو قبرص التي اختارها هدفاً عسكريّاً لنشاط الأسطول الإسلامي ، وبسبب موقعها الجغرافي لتكون قاعدة لغزو القُسطنطينية[1].

لقد تطورت الأحداث في مواجهة الدولة الإسلامية لكل من دولتي الفرس والروم ، وأصبح ركوب المسلمين البحر ضرورة لا محيدَ عنها ، فقد أصبحت قبرص ورودس وجزر الشاطئ القريب ملتقى تتربص فيه الأساطيل المتجمِّعة من أقطار دولة الروم ، وأصبح امتناع السفن المغيرة بها خطراً على الشام وفلسطين ومصر والقيروان.

---

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين ، لمحمد سهيل طقوش ، ص٣٧٩ ـ ٣٨٠؛ فتوح البلدان ، ص١٢٥ ، ١٤٨.

●● وقد كان عثمان في هذا العمل جريئاً موفَّقاً ومجتهداً عبقريّاً ، وهو من الدلائل على إقدامه حيث يُحجم من هو أشهر منه بالإقدام على هذا الأمر الخطير ، أعني سيدنا عمر الفَاروق.

كذلك كان عثمان محتاطاً ـ احتياطَ عمر ـ لأرواحِ المسلمين ، فهو عندما أَذِن لمعاوية كتب إليه يأمرُهُ قائلاً: (لا تنتخبِ الناسَ ، ولا تُقْرِعْ بينهم ، خَيِّرهم ، فمن اختار الغزوَ طائعاً فاحْمِلْه وأَعِنْه . ففعل)[1] .

وكان ذلك تحولاً ضخماً وخطوة جبَّارة ، كما أنها ضرورة لازِبة! فأسرع معاوية ببناء الأسطول في الشام ، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح في مصر ، وأقبل المجاهدون المتطوِّعون على الغزو في البحر ، وأصبح للدولة الإسلامية في زمن وجيز أسطول بحري مرهوب الجانب ، وصار أداة قوية في امتداد الفتوح. وحَسْب الباحث أن يعلم أن معاوية غزا في سنة (٣٣هـ) في (٥٠٠) مركب[2] .

وكان أمير البحرية في الشام عبد الله بن قَيْس الجاسِي الذي غزا (خمسين غزاة) من بين شاتية وصائفة في البحر ، ولم يغرق فيه أحد ولم يُـنكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده ، وألا يبتليه بمصاب أحدٍ منهم ، ففعل[3]! .

●● وفي الغرب الإسلامي خاض ابنُ أبي سَرْح معارك بحرية كثيرة ، كان من أجلِّها وقعاً وأكثرِها إيلاماً للروم (معركة ذات الصَّوَاري) ، التي

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٠.
(٢) فتوح البلدان ، ص١٤٨.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦١.

غيَّرت ميزان القوى البحرية لصالح المسلمين الذين جمعوا قواتهم (البحرية الشامية والمصرية) وحققوا فيها نصراً مؤزراً ، وبعد أن كان (بحر الروم = المتوسط) تحت سيطرة الروم خمسة قرون ، أضحى تحت سيطرة المسلمين ، وسُمِّي (بحر الشام)!.

ويبقى تشكيل (البحرية الإسلامية) مرتبطاً بالخليفة الراشد الثالث عثمان ، وبالوالي المجاهد معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنهما وأثابهما عن الإسلام والمسلمين خير الثواب وأجزله.

ثالثاً: مع بعض أكابر الصحابة (تحقيقات في شائعات وافتراءات):

١ ـ مع الصحابي العَلَم عبد الله بن مسعود:

من قديم في عهد عثمان رضي الله عنه افترى أصحابُ الفتنة من السبئيين وأذنابهم فِرًى كثيرة ، منها أن الخليفة عثمان ضَرب ابن مسعود حتى كَسر أضلاعه ، ومَنَعَه عطاءه[١].

وجاء مَنْ بعدَهم فزاد ذلك إفكاً وزوراً ، فذكر اليَعْقوبي أنه لما أَمر عثمان بحرق المصاحف ، امتنع ابن مسعود من دفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر ، فكتب عثمان إليه: (أن أَشْخِصْه ، إنه لم يكن هذا الدين خَبَالاً وهذه الأمة فساداً. فدخل المسجد وعثمانُ يخطب ، فقال عثمان: إنه قد قدِمَتْ عليكم دابَّـة سوء! فكلَّمه ابن مسعود بكلام غليظ ، فأَمر به عثمان فَجُرَّ برِجْلِه حتى كُسِر له ضلعان!).

ثم قال اليعقوبي: (واعتَلَّ ابن مسعود ، فأتاه عثمان يعودُه فقال له:

---

(١) العواصم من القواصم ، ص٧٨.

ما كلامٌ بَلَغني عنك؟ قال: ذكرتُ الذي فعلتَه بي؛ أنك أمرت بي فَوُطِئَ جوفي، فلم أعقِل صلاة الظهر ولا العصر، ومنعتني عطائي! قال: فإني أقِيدك من نفسي، فافعل بي مثلَ الذي فُعل بك، قال: ما كنتُ بالذي أفتح القِصاص على الخلفاء. قال: فهذا عطاؤك فخُذْه، قال: منَعْتَنِيه وأنا محتاج إليه، وتُعطينيه وأنا غنيٌّ عنه؟! لا حاجة لي به، فانصرف. فأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفي، وصلى عليه عمار بن ياسر، وكان عثمان غائباً، فَسُتر أمره)[١].

وتمادى ابن المُطَهَّر الحِلِّي الرافضِيُّ في الافتراء على عثمان فقال: (وكان ابن مسعود يطعن عليه ويكفِّره، ولما حَكَم ضَربَه حتى مات)[٢].

ونقل ابن أبي الحديد كلاماً موجزاً للقاضي عبد الجبار المعتزلي زَيَّف فيه ما ادُّعِي على عثمان من إساءته لابن مسعود، وطعنِ ابن مسعود عليه. ثم أتبعه ابن أبي الحديد بكلام طويل للشريف المرتضى[٣] يردُّ فيه على القاضي عبد الجبار، ويَسرد كلاماً طويلاً فيه منكرات وقبائح نُسبت إلى عثمان وابن مسعود، لا يصح قَبولُها في آحاد الناس فضلاً عن الصحابة بل عِلْيَتِهم وجِلّتِهم[٤]!.

قال المرتضى: (ولا يختلِف أهلُ النقل في طَعْنِ ابن مسعود على

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) منهاج السنة النبوية: ٣/ ٦٢٦.

(٣) هو علي بن الحسين الرافضي المعتزلي، توفي (٤٣٦هـ)، أخو الشريف الرضي، وهو المتهم بوضع كتاب «نهج البلاغة»، كما يقول الذهبي في ميزان الاعتدال: ٣/ ١٢٤.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٢ ـ ٣٥.

عثمان ، وقولِه فيه أشدَّ الأقوال وأعظمَها ، والعلمُ بذلك كالعلم بكل ما يُدَّعى فيه الضرورة! وقد روى كل مَن روى السيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طُرقهم أن ابن مسعود كان يقول: ليتني وعثمان برملِ عالِج[1] يحثو عليَّ وأحثُو عليه ، حتى يموت الأعجل مني ومنه!) . (وقد رُوي عن ابن مسعود من طرق لا تُحصى كثرةً أنه كان يقول: ما يَـزِنُ عثمان عند الله جناحَ ذُباب) .

ثم ذكر المرتضى أن عثمان منَع ابنَ مسعود عطاءه ، وأنه أمر بإخراجه من المسجد على أعنف الوجوه ، وأن ابن مسعود لمَّا قدِمَ المدينة من الكوفة ، قال عثمان: (أيها الناس ، إنه قد طَرَقكُم الليلة دُوَيْـبَة ، مَنْ تمشي على طعامه يَـقِيء ويَسْلَح!)[2] .

وروَّج هـذا الكـلام طـه حسيـن ، ونقـل معنـاه فـي كتـابـه «الفتنـة الكبرى»[3] .

وجاء مَن يُـزْعَم له أنه (مفكّر!) ، فصاغ تلك الأكاذيب (بأسلوب جَدَلي) وادعى أن عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود عُوقِبا لأنهما تجاسَرا على معارضة عثمان علناً ، وكانا في موقع اجتماعي سُفلي ، ولم يكونا من دم قرشي صَريح ، بل من أصل وضيع أو شبه وضيع ، فعاقبهما عثمان وأذلَّهما. وكان ابن مسعود يحطُّ على عثمان في دروسه ، فاستدعاه للمدينة وأوقع به عقاباً جسدياً خطيراً ، فكان حقدُ ابن مسعود

---

(١) رمل عظيم يمرُّ في شمال نَجد قرب مدينة حائل بالسعودية إلى شمال تَيْماء. انظر: المعالم الأثيرة ، ص ١٨٥ .

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٢ ـ ٣٤.

(٣) الفتنة الكبرى: ١/ ١٥٩ .

على عثمان شديداً ولم يَغفِر له الإهانة ، وأن عثمان عاقبه لأنه كان يروِّج فكرة تحليل دمه[1]!.

●● نقول: كل هذه المزاعم كلام مرسَل لا خِطام له ولا زِمام ، وليس له أسانيد مقبولة أو ضعيفة ، وادّعاءُ المرتضى بأن العلم بهذه الأخبار كالعلم بكل ما يُدَّعى فيه الضرورة؛ لا يقوله رجلٌ يحترم العلم وموازينه وقيمته وعقول قارئيه! وكذلك قوله في أحد الأخبار التي نسبها لابن مسعود بأنه روي من طرق لا تُحصى كثرةً؛ فإنه لم يُتحفْنا إلا بسياق إسناد واحد رواه (الواقدي).

وإذا كان عمدة هذا (المرتضى) و(اليعقوبي) وأمثالهما: هم الواقدي وأبو مِخْنَف والكَلْبي ونَصْر بن مُزاحم ومَنْ في هذا السبيل ـ عَلِمَ كل باحثٍ محقِّق منصف مقدارَ تلك الأخبار وقيمتها في موازين القبول والتصديق!.

ورواية الضعفاء من (بابَةِ الواقدي) يُرجَع إليها ويُستأنس بها في أخبار الغزوات والفتوحات وتفصيلاتها ، وتاريخ وفيات الأعيان وأنسابهم وجزئيات حياتهم ، ونحو ذلك مما لا ينبني عليه أمور جليلة وأحكام مبرمة.

أما في الحلال والحرام ، والأحكام ، واتهام الناس بالكبائر والموبقات ، وإثارة الفتنة ، وإقامة الحدود ، وأركان سياسة الدولة ومسيرة الحكم ، وبيان أخلاق الأعلام ـ وعلى رأسهم الصحابة ـ والطعن عليهم في سيرهم وفضائلهم ومناقبهم وأعمالهم وتدينهم وورعهم

---

(١) الفتنة ، لهشام جعيط ، ص ٨٧ ـ ٨٨.

وإخلاصهم ، وحرصهم على سلامة الدولة وحقوق الخليفة والأمة ومصالح الإسلام والمسلمين ، وما في هذه السبيل من الأمور الكبرى التي تقوم بها الدولة وحياة الأمة والمجتمع . . . فهذا مما لا يُقبل فيه إلا رواية الثقات الضابطين الأمناء النبلاء ، الذين سَلِمتْ عقولهم ، وثبتت عدالتهم ، وخَلَصتْ نياتهم ، وطَهُرتْ قلوبهم .

أما أن نستمع إلى تلك الأخبار الطائشة من الضعفاء والهلكى والمتروكين ممن يَضطغِنون على أصحاب نبينا ﷺ ، ويَبغون للبرآء العيب ، ولا يقيمون لموازين العلم وثوابته وزناً ، ولا يحترمون عقيدة الأمة وعقول القراء . . . فمثل هؤلاء لا نربأ برواياتهم ، ولا نلتفت إلى مجازفاتهم ، ولا كرامة لما يسوِّدونه من صفحات تاريخنا المفترى عليه .

إن مثل هذه الروايات العليلة الزائفة فيها من الاتهام بالباطل ما لا يقوله إنسان عنده مَسْكة من عقل ، أو ذرَّة من إنصاف ، أو أَثَارة من علم؛ بحق أولئك العظماء من أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين زكَّاهم الله في كتابه وامتنَّ على نبيه بأن أيَّدَه بهم ، وربَّاهُم النبي ﷺ على عَيْنه وأطابَ الثناء عليهم وتواتر عنه الوصية بهم والإحسان إليهم وعدم الطعن عليهم .

●● هذا على وجه الإجمال ، أما من حيث الروايةُ والدرايةُ ونقدُ متونِ الروايات :

فمن الثابت تاريخيّاً سموُّ العلاقة بين أمير المؤمنين عثمان والصحابة عامة ، وأكابرهم وجِلَّتهم خاصة ، والوفاء منهم لخليفتهم الجليل الذي أجمعوا على اختياره ، وشدُّوا بأيمانهم على يمينه في مبايعته ، والوفاء بطاعته بالمعروف ، وحمل الراية معه في سياسة الأمة وسيرورة الدولة .

ـ ثَبَت عن ابن مسعود أنه خطب الناسَ في الكوفة فقال: (إنَّا اجتمعنا أصحابَ محمد ﷺ فلم نألُ عن خيرِنا ذي فُوقٍ ، فبايَعْنا أميرَ المؤمنين عثمان ، فبايِعوه)(١).

وقال النزَّال بن سَبْرة: (شهدتُ عبدَ الله بن مسعود في هذا المسجد ما خَطَب خطبة إلا قال: أَمَّرْنا خيرَ مَنْ بقي ولم نألُ)(٢).

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن عثمان أتمَّ الصلاة بمِنًى ، وخالَفَه جماعةٌ من الصحابة في الاجتهاد ، لكنهم تابعوه وعملوا باجتهاده ، ومنهم ابن مسعود وهو من أكابر علماء الصحابة ومجتهديهم ، وصلى أربعاً وأمر تلاميذه بذلك ، (فقيل له: عِبْتَ على عثمانَ ، ثم صلَّيتَ أربعاً؟ قال: الخلافُ شَرٌّ!)(٣).

وفي الصحيحين وغيرهما عن عَلْقمة بن قيس قال: (كنتُ مع عبد الله بن مسعود ، فلقِيَه عثمانُ بمنًى فقال: يا أبا عبد الرحمن إنَّ لي إليكَ حاجةً . فخَلَيَا ، فقال عثمان: هل لك يا أبا عبد الرحمن في أن نُزوِّجَكَ بِكْراً تذكِّرُك ما كنتَ تَعْهَدُ؟ فلما رأى عبدُ الله أنْ ليس له حاجةٌ إلى هذا ، أشار إليَّ فقال: يا علقمة . فانتهيتُ إليه وهو يقول: أمَا لئنْ قلتَ ذلك؛ لقد قال لنا النبي ﷺ: «**يا معشرَ الشباب ، مَن استطاع منكم**

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٣ ، وإسناده صحيح. **لم نأل**: لم نقصر. **ذي فُوق**: الفُوق مستعار من فوق السهم وهو موضع الوتر منه ، أراد: ولَّينا خيرنا وأكملنا ، تامّاً في الإسلام والسابقة والفضل.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٣ ، وإسناده صحيح.

(٣) سنن أبي داود (١٩٦٠) ، وتقدم تفصيله: ص ٨٧ ـ ٨٨ في هذا الكتاب.

الباءةَ فَلْيَتزوَّجْ ، ومن لم يستطعْ فعليه بالصومِ فإنه له وِجَاءٌ»)[1].

وهذا من أمير المؤمنين عثمان في غاية التودّد لابن مسعود ، وحبِّه له ، ورغبتِهِ في أن يُـدخِلَ السرور على قلبه بتزويجه البِكْر. ثم انظر إلى مخاطبته ابنَ مسعود بقوله: (يا أبا عبد الرحمن) ، وفي هذا أدبٌ جمٌّ وإكبار واحترام من أمير المؤمنين لهذا الصحابي الجليل ومعرفة لمكانته وقدره عند النبي ﷺ[2].

●● وفي قضية (جمع المصحف) وتوحيد المسلمين على قراءة واحدة ، حيث أَمر الخليفة بإحراق المصاحف ، رفض ابن مسعود بادئ الأمر إحراقَ مصحفه ، وعزَّ عليه ذلك ، ثم لما نظر في حقيقة الأمر وبواعثه وغايته ونتائجه؛ سَلَّم لإجماع المسلمين ورضي وتابع كما أوضحناه. ولم تذكر رواية واحدة صحيحة أو ضعيفة أن ابن مسعود أساء الكلام في عثمان أو طَعن عليه أو أثار فتنة ضده. كما لم يَبدرْ من أمير المؤمنين أية إساءة قولية أو فعلية بحق الصحابي الجليل ابن مسعود. وكان ذلك في أول خلافة عثمان ، وابن مسعود (وزير مال الكوفة) وبقي عليها ، ولم يعزلْه عثمان ولا ضَيَّق عليه ، وإنما عزله فيما بعدُ عندما جرى بينه وبين سعد بن أبي وقاص ثم الوليد بن عقبة بعض الخلاف ، وليس في عزل عثمانَ ابنَ مسعود ما يَشين أيّاً منهما ، فقد عزل عمر من هو خير من ابن مسعود! .

وتتجلى العلاقة الطيبة بين عثمان وابن مسعود بصورة أوضح وعبقرية

---

(١) البخاري (٥٠٦٥)؛ ومسلم (١٤٠٠).

(٢) انظر: كتابي «ابن مسعود» ، ص٣٢٥ـ٣٢٦.

أعظم ، ساعة ذهاب ابن مسعود من الكوفة دون رجعة إلى المدينة؛ فقد روى زيد بن وَهْب قال: (لمَّا بَعث عثمانُ إلى عبد الله بن مسعود يأمرُه بالقُدوم عليه بالمدينة ، وكان بالكوفة ، اجتمع الناس عليه فقالوا: أَقِمْ ونحن نمنعُك أن يصلَ إليك شيءٌ تكرهُه! فقال عبد الله: إنَّ له عليَّ حقَّ الطاعة ، وإنها ستكون أمورٌ وفِتن فلا أُحبُّ أن أكونَ أولَ من فتحها. فردَّ الناسَ وخرج إليه)[1].

وخرج ابن مسعود من الكوفة بعد سنة (٣٠ هـ) ، ولم يكن سبب ذلك (قضية المصحف) التي قد أتى عليها زُهاء ست سنين[2].

وزعمُ الرواية أن عثمان مَنَع ابنَ مسعود عطاءه ، ثم أراد أن يردَّه إليه ، فقال ابن مسعود: منعتَنِيه وأنا محتاج إليه ، وتُعطينيه وأنا مستغنٍ عنه! قال: يكون لولدِك ، قال: رزقُهم على الله تعالى ، قال: استغفِرْ لي يا أبا عبد الرحمن ، قال: أسألُ الله أن يأخذَ منك حقي[3]!.

فهذا من الكذب السَّمج ، لأن ابن مسعود لم يكن محتاجاً كما يدل عليه ما رواه تلميذه زر بن حبيش قال: (ترك ابن مسعود تسعين ألف درهم)[4]. زاد الذهبي: (سوى رقيق وعروض وماشية)[5]. وهذا يكفيه عدة سنوات ولو قطع عنه العطاء ، فأين الحاجة التي ادعاها الراوي؟!.

زِدْ على هذا أن بعضَ أغنياء الكوفة تركوا عطاءهم عند وفاة عمر ،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٠٤؛ أسد الغابة: ٣/ ٢٦٠ ، وإسناده صحيح جدّاً.
(٢) انظر: كتابي «ابن مسعود» ، ص ٣٣٣.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٣.
(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٦٠.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١/ ٤٩٧.

ومنهم ابن مسعود كما نقل الإمام الذهبي[1].

●● وتأمَّلْ بعد ذلك الحوارَ الذي جرى بين الصحابيين الجليلين فيما تزعمه الرواية:

فابن مسعود يتعنت على عثمان، ويرفض إقالته من عَثْرته، ويُصرُّ على عدم مسامحته، ويدعو الله أن يأخذ له حقَّه منه، بل يودُّ لو أنه وعثمان يحثو كل منهما الرملَ على صاحبه حتى يَهلِك أحدُهما!.

ما هذا الإفك والافتراء على صحابة رسول الله ﷺ، وأين هي أخلاقهم وفضائلهم ونُبْلُهم ورحمتهم وتسامحهم وعفوهم وورعُهم وإخلاصهم وما وصفهم به ربهم: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]؟!.

لقد سجَّل التاريخ الصادق للصحابة الكرام أنبلَ المواقف، وأجملَ السِّير، وأفضَلَ الأخلاق، وأحسنَ الهدي، وأكرمَ المعاملة؛ فما بالُهم هكذا مع بعضهم كما يفتري هؤلاء المفترون على الله ورسوله وأصحابه والتاريخ والحقيقة؟!.

●● **ثم قف مرة أخرى أمام كلام عثمان وطعنه على ابن مسعود**: (تَقْدَم عليكم دُويبة سوء، من تمشي على طعامه يَـقيء ويَسْلح)!.

ألا يَستحي من ينقل مثلَ هذا الكذب وينسبه إلى ذي النورين الذي وصفه أصدقُ البشر ﷺ بأنه (أشدّ الناس حياءً)، وأن (الملائكة تستحي منه)؟! هل سجَّل التاريخ الصادق كلماتٍ نابية من عثمان في حق أولئك (السبئيين المجرمين) الذين سَعَّروا الفتن والأكاذيب في الأرض، ثم

---

(١) المرجع السابق؛ وكتابي: «ابن مسعود»، ص ٣٣٧.

زحفوا إليه لخلعِه وقتْلِه؟! ما سمعنا أن عثمان نَبَزَهم بمثلِ ذلك الكلام الذي تزعم الرواية أنه قاله في حق الصحابي الأجَل: ابن مسعود!.

●● **وأخيراً**: يعجب الباحثُ الأريب من جرأة (المؤرخين) باتهام عثمان أنه أَمر بضرب ابن مسعود وإخراجه من المسجد إخراجاً عنيفاً وجرِّه من رِجْله حتى كُسر ضِلْعاه!.

إن أمير المؤمنين عثمان لم يفعل مثلَ هذا ولا أقلَّ منه مع الذين خرجوا عليه ثم سفكوا دمه، ولو فعله معهم ما لامَه أحدٌ، فكيف يفعله مع عبد الله بن مسعود؟! ما هو الذنب الذي قارفه ابن مسعود حتى يُجرَّ من رجْله ويكسر ضلعاه؟! ولو أنه ارتكب ما يستحق التعزير، أفيكون من شروط ذلك أن يُكسر ضلعا المُعزَّر، ثم يمرض على أعقاب ذلك ويموت؟! ومن هو هذا الذي تولى ضرب ابن مسعود، ومن يتجرأ على أن يجرَّه من رجْله وقد قال النبي ﷺ: «**لَرِجْلُ عبد الله أثقلُ في الميزان يوم القيامة من أُحُدٍ**»[1]!.

٢ ـ مع الصحابي الزاهد أبي ذَرّ الغِفَاريِّ:

زعم أصحاب الأهواء من السبئيين وأتباعهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان أنه جاء في أيام خلافته بمظالم ومناكير؛ منها: أنه أجلَى أبا ذر الغِفاري ونَفَاه من المدينة إلى الرَّبَذة[2].

وتناقل ذلك عدد من المؤرخين القدامى والكُتَّاب المعاصرين،

---

(١) كتابي «ابن مسعود»، ص ٣٣٦.

(٢) العواصم من القواصم، ص ٧٦.

وتزيدوا فيه وافتروا من الأكاذيب وافتأتوا على الحق والتاريخ ، وضلوا وأضلوا ناساً كثيراً.

ـ يقول اليعقوبي: (وبَلَغ عثمانَ أن أبا ذر يقعد في مسجد رسول الله ﷺ ويجتمع إليه الناس ، فيحدِّث بما فيه الطعن عليه . . . وبَلَغ عثمان أيضاً أن أبا ذر يقع فيه ، ويذكر ما غيَّر وبَدَّلَ من سُنن رسول الله وسنن أبي بكر وعمر ، فسيَّره إلى الشام إلى معاوية ، وكان يجلس في المسجد فيقول كما كان يقول ، ويجتمع إليه الناس ، حتى كثُر من يجتمع إليه ويسمع منه. وكان يقف على باب دمشق إذا صلى صلاة الصبح فيقول: جاءت القطار تحمل النار ، لعنَ اللهُ الآمرين بالمعروف والتاركين له ، ولعنَ الله الناهينَ عن المنكر والآتين له.

وكتب معاوية إلى عثمان: إنك قد أفسدتَ الشام على نفسك بأبي ذر! فكتب إليه أن احمِلْه على قَتَب بغير وِطاء. فقُدِم به إلى المدينة وقد ذهب لحم فخذَيْه! فلما دخل عليه وعنده جماعة قال: بلغني أنك تقول: سمعت رسول الله يقول: إذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلاً اتخذوا بلاد الله دُوَلاً ، وعبادَ الله خَوَلاً ، ودينَ الله دَغَلاً؟ فقال: نعم سمعتُ رسول الله يقول ذلك. . .

فلم يُقِمْ بالمدينة إلا أياماً ، حتى أرسل إليه عثمان: والله لَتخرُجَنَّ عنها! قال: أتخرجُني من حَرَم رسول الله؟ قال: نعم وأنفُك راغِمٌ! قال: فإلى مكة؟ قال: لا ، قال: فإلى البصرة؟ قال: لا ، قال: فإلى الكوفة؟ قال: لا ، ولكن إلى الرَّبَذَة التي خرجتَ منها حتى تموت بها. يا مروانُ

أخرِجْهُ ، ولا تَدَعْ أحداً يكلمه حتى يخرج. فأخرجه على جمل ومعه امرأته وابنته)[١].

ـ ونقل مثلَه ابنُ أبي الحديد عن (المرتضى) ، وزاد فقال: (وفي رواية الواقدي: أن أبا ذر لما دخل على عثمان قال له: لا أَنْعَمَ الله بك عَيْناً يا جُنَيْدِب!) ، وذكر كلاماً طويلاً ، ثم قال: (وروى الواقدي في خبر آخر بإسناده: عن صهبان مولى الأسلميين قال: رأيت أبا ذر يوم دخل على عثمان ، فقال له: أنت الذي فعلت وفعلت؟ فقال له أبو ذر: نصحتُك فاستَغْشَشْتني ، ونصحتُ صاحبَك[٢] فاستغشَّني! فقال عثمان: كذبتَ ، ولكنك تريد الفتنة وتحبُّها ، قد أَنْغَلْتَ[٣] الشامَ علينا ، فقال له أبو ذر: اتَّبِـعْ سُنَّةَ صاحبَيْك لا يكن لأحدٍ عليك كلام ، قال عثمان: ما لَكَ وذلك لا أُمَّ لك! قال أبو ذر: والله ما وجدتُ لي عذراً إلا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر ، فغضب عثمان وقال: أشِيروا عليَّ في هذا الشيخ الكذاب؛ إمَّا أن أضرِبَه أو أحبسَه أو أقتلَه ، فإنه قد فرَّق جماعة المسلمين ، أو أنفيَه من أرض الإسلام!).

ثم قال (هذا المرتضى!): (والأخبارُ في هذا الباب أكثر من أن تُحصر ، وأوسَعُ من أن نذكرها ، وما يَحمِل نفسَه على ادِّعاءِ أن أبا ذر خَرج مختاراً إلى الرَّبَذة إلا مكابر!)[٤].

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦٧ ـ ٦٩.

(٢) هو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) أي: أفسدتَ.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٤٢ ـ ٤٤ ، وكرره في: ٤/ ٤٠١ ـ ٤٠٧.

ـ وذكر نحوه المسعودي في «تاريخه»[1] .

نقول: ساق اليعقوبي والمسعودي هذه الأخبار دون إسنادها إلى رواتها ، وأما ابن أبي الحديد فأورد كلام المرتضى الذي أسنده إلى الواقدي عن أشياخه ، وذكر عدة روايات مدارُها على الواقدي وهو متروك؛ فقيمةُ هذه الأخبار من حيث السندُ: أنها واهية تالفة ، لأنها لم تُروَ عن ثقة بل ولا عن ضعيف أو ضعفاء يَـنجبر ضعفُهم بكثرة الطرق لترتقي إلى الحسن لغيره! .

فما قيمةُ ذلك الركام من الكلام في ميزان العلم والنقد والتوثيق؟! وكيف يَقبل قارئ بله مؤرخ أو كاتب أو باحث أن تُسوِّد كل تلك الصفحات بحق خير الناس في ذلك الزمان ، وترميهم بالتُّهم والأباطيل ، وتلصق بهم مساوئ الأخلاق وقبائح الأفعال؟! .

هذا لو لم يوجد من الحقائق الثابتة التي جاءت عن الرواة الثقات الضابطين الأمناء في الأحاديث والروايات الصحيحة الكثيرة ، التي تَدْحَض تلك الأكاذيب ، وتُضيء ليلَها المظلم ، وتكشف لأهل الحق وطلابه ما كان عليه عثمان وأبو ذر وإخوانهما من الصحابة من أخلاق فاضلة وسيرة طاهرة ومحبة غامرة ، وإخلاص وصدق وطاعة وألفة ، ونصرة للحق وبُعْد عن الفتنة! .

●● فالصحيح الثابت أن أبا ذر كان من مذهبه أن الزهد واجب[2] ، وقد فَهِم (سياسة المال في الإسلام) فهماً لم يوافِقْه عليه أحدٌ من

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٢) انظر: منهاج السنة: ٣/ ٦٨٠ .

الصحابة ، حيثُ يَرى أنه يجبُ إنفاقُ كل ما يزيد عن حاجة الإنسان ، وأنَّ ادخارَ المال هو كنزٌ يُكوى به صاحبُه في النار يوم القيامة ، وكان يُجاهِر بذلك في الشام والمدينة ، ولم يأمره الخليفة ولا والي الشام معاوية بالرجوع عن هذا الرأي لأن له وجهاً يَخصُّ آحادَ الأفراد ، لكنه لا يجب على جميع الأمة. كذلك لم يَنْفِه عثمان من المدينة ، بل اختار هو النزولَ بالرَّبَذة عن طواعية وليس قَسْراً ولا (إقامة جبرية) ، ولم يُضيِّق عليه بل تعاهَدَه وأمره بأن يَبْقى على تواصلٍ مع المدينة النبوية وأمير المؤمنين والصحابة رضي الله عنهم.

عن زيد بن وَهْبٍ قال: (مررتُ بالرَّبَذَةِ ، فإذا أنا بأبي ذرٍّ رضي الله عنه ، فقلتُ له: ما أنزلكَ مَنزِلَكَ هذا؟ قال: كنتُ بالشأم ، فاختلفتُ أنا ومعاوية في ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] ، قال معاوية: نَزلَتْ في أهل الكتاب ، فقلتُ: نَزلَتْ فينا وفيهم ، فكان بيني وبينه في ذاك ، وكَتَب إلى عثمان رضي الله عنه يَشْكوني ، فكَتَب إليَّ عثمانُ أنِ اقْدَم المدينةَ ، فَقَدِمْتُها ، فكَثُر عَليَّ الناسُ حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك ، فذكرتُ ذلك لعثمان ، فقال لي: إنْ شئتَ تَنحَّيتَ فكنتَ قريباً. فذاك الذي أنزلني هذا المَنزل ، ولو أَمَّرُوا علَيَّ حَبشيّاً لَسَمعتُ وأَطعتُ)(١).

وعن الأحنف بن قيس قال: (قدِمتُ المدينة ، فبينا أنا في حَلْقة فيها ملأٌ من قريش ، إذ جاء رجلٌ أخشَنُ الثياب ، أخشنُ الجسدِ ، أخشنُ الوجهِ ، فقام عليهم فقال: بَشِّرِ الكانزين بِرَضْفٍ يُحمى عليه في نار

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٦)؛ والنسائي في الكبرى (١١١٥٤).

جهنم ، فيُوضَعُ على حَلَمةِ ثَدْي أحدِهم حتى يَخرُج من نُغْض كَتِفَيْه ، ويُوضع على نُغْضِ كتفَيْه حتى يَخرج من حَلَمة ثديَيْه يَتَزلزلُ! قال: فوَضَع القومُ رؤوسَهم ، فما رأيتُ أحداً منهم رَجَع إليه شيئاً. قال: فأدْبَر ، واتَّبعتُه حتى جلس إلى سارية ، فقلتُ: ما رأيتُ هؤلاء إلا كَرِهوا ما قلتَ لهم! قال: إنَّ هؤلاء لا يَعقلون شيئاً ، إنَّ خليلي أبا القاسم ﷺ دعاني فأجبتُه ، فقال: «**أتَرى أُحُداً؟**» فَنظَرتُ ما عليَّ من الشمس وأنا أظنُّ أنه يبعثُنِي في حاجةٍ له ، فقلتُ: أراه ، فقال: «**ما يَسُرُّني أنَّ لي مِثْلَه ذهباً أُنْفِقُه كلَّه ، إلا ثلاثةَ دنانيرَ**» ، ثم هؤلاء يَجمعون الدنيا ، لا يعقلون شيئاً! قال: قلتُ: ما لَكَ ولإخوتِك من قريش لا تَعْتَريهم وتُصِيبُ منهم؟ قال: لا وربِّك ، لا أَسألُهم عن دنيا ، ولا أَستفتيهم عن دين ، حتى أَلْحَقَ بالله ورسوله)[1].

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾: (قيل: الكَنز ما فَضَل عن الحاجة ، روي عن أبي ذر ، وهو مما نُقل من مذهبه ، وهو من شدائدِه ومما انفرد به رضي الله عنه).

ثم قال: (ولو كان ضَبْط المال ممنوعاً لكان حقه أن يُخرج كله ، وليس في الأمة من يُلزم هذا ، وحسبك حالُ الصحابة وأموالُهم رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٧ ، ١٤٠٨)؛ ومسلم (٩٩٢) واللفظ له ، وغيرهما.
برضف: هي الحجارة المحماة. **نغض كتفيه**: النغض هو العظم الرقيق الذي على طرف الكتف. **يتزلزل**: أي الرضف يتحرك من كتفه حتى يخرج من حلمة ثدييه. **ما عليَّ من الشمس**: أي كم بقي من النهار. **لا تعتريهم**: أي تأتيهم وتطلب منهم.

عنهم ، وأما ما ذُكر عن أبي ذر فهو مذهب له رضي الله عنه)[1] .

فمذهبُ أبي ذر أن الزهد واجبٌ ، وأن ما أَمسكه الإنسان فاضلاً عن حاجته فهو كنز يُكوى به في النار ، واحتجَّ على ذلك بما لا حجة فيه من الكتاب والسُّنَّة[2] .

وقال جمهور الصحابة: الكنز هو المال الذي لم تؤدَّ حقوقه ، فعن خالد بن أسلم قال: (خرجنا مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، فقال أعرابي: أخبرني عن قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ قال ابن عمر رضي الله عنهما: مَنْ كَنَزَها فلم يؤدِّ زكاتها فويلٌ له ، إنما كان هذا قبل أن تُنْزَل الزكاة ، فلما أُنزِلت جَعلَها الله طُهراً للأموال)[3] .

ومن حديث طلحة بن عبيد الله: أن النبي ﷺ ذَكر الزكاة ، فقال رجل: هل عليَّ غيرُها؟ قال: «**لا ، إلَّا أن تَطَوَّعَ**»[4] .

وفي قصة سعد بن أبي وقاص عندما مرض في حَجّة الوَدَاع ، لم يأْذَن له رسول الله ﷺ بأن يتصدق بثُلثي ماله ، ولا بِشَطْره ، وقال: «**الثُّلثُ ، والثلثُ كثير ، إنك أنْ تَذَرَ ورثَتَك أغنياءَ خيرٌ من أن تَذَرَهُم عالةً يَتكَفَّفُون الناسَ**»[5] .

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ١١٥ ، ١٢١ .
(٢) منهاج السنة: ٣/ ٦٨٠ .
(٣) أخرجه البخاري (١٤٠٤).
(٤) أخرجه البخاري (٤٦)؛ ومسلم (١١)؛ وأبو داود (٣٩١) ، وغيرهم.
(٥) أخرجه البخاري (١٢٩٥)؛ ومسلم (١٦٢٨)؛ والترمذي (٢٢٤٩) ، وغيرهم.

وقد قسَّمَ الله تعالى المواريثَ في القرآن ، ولا يكون الميراث إلا لمن خلَّف مالاً .

وكان غير واحد من الصحابة من المهاجرين والأنصار أصحابَ أموال ، وحسبك عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام ، فلقد كانوا من أصحاب عشرات الملايين! .

ومذهب أبي ذر في الأموال من أخطر الأمور على كيان الدولة الإسلامية ونظامها الاجتماعي كما شرعه رسول الله ﷺ ، ووضَع للناس أصولَه وقواعده بفعله وقوله وتقريره ، فقد رأى أموال كثير من أصحابه زاكية نامية وفيرة ، فما طالبهم إلا بحقها الذي فرضه الله تعالى ، وما وراء ذلك إحسان ، وما على المحسنين من سبيل. وأما ما جاء عن أبي ذر؛ فإن من أول واجبات الخليفة الأخذ على أيدي الداعين إلى هذا المذهب خشية الفتنة ، ولا سيما أن أبا ذر رضي الله عنه كان رجلاً لا يخاف في سبيل ما يعتقد لومة لائم ، وكان حديداً شديداً صريحاً! فلو تُرك أمره وأمر متبعيه لأدى ذلك إلى إسقاط هيبة الخلافة ، وإذهابِ حُرْمة المنصب من نفوس الأمة ، ولَفُتِح بابُ القيل والقال في الولاة والأمراء؛ وفي هذا من إفساد نظام الأمة وإشاعة الفوضى ما فيه! وليس في واجبات الإمام الأعظم واجب أسمى من حماية النظام العام للأمة ، وسدِّ سُبل الثورات والخروج على القانون ، ولو كان ذلك الخروج بضرب من التأويل. وليس من حق الفرد أن يَحمل الجماعةَ على مذهبه ، ومن حق رعاية الجماعة حمايتُها من المذاهب الاجتماعية المتطرفة ، وذلك ما صنعه عثمان رضي الله عنه في سياسة حكيمة حازمة.

وقصة أبي ذر كيفما صُوِّرَتْ لا تخرج عن كونها مظهراً من مظاهر

تقرير سلطان الرياسة العليا للدولة ، وتوطيد دعائم الحكم ، ولوناً من ألوان سياسة الأمة وحياطتها في نظامها العام بسياج من الحزم والقوة ، وحماية للتشريع من شذوذ الأفكار وتطرف المذاهب ، وخطر الآراء ونتائج الثورات الجامحة.

ولم تكن قصة أبي ذر لتلبس هذا الثوب الفضفاض الذي حاكه لها المنحرفون من نسج أغراضهم ، لولا عصبية الهوى! ولو أنصف التاريخ لكانت هذه القصة من (مفاخر الخلافة العثمانية) ، وآية على السياسة الحازمة الحكيمة التي كانت تُساس بها الأمة في هذه الخلافة الراشدة[1]!.

●● ومن تمام السياسة العثمانية الحكيمة ولطفِه ورحمته؛ أنه لم يَحْجر على أبي ذر هذا الاجتهاد والتأويل ، ولا ضَيَّقَ عليه في حرية الكلام والتنقل ، ولا أجبره على الإقامة في مكان محدد ، وكذلك والي الشام معاوية لم يَجْسُر على الإنكار على أبي ذر حتى كاتبَ (رئيسَ الدولة) في أمره.

والذي عَمِله الخليفة هو أنه أشار على أبي ذر أن يتنحَّى عن الناس في مكان قريب ، حتى لا يستغلَّ الرَّعَاع والغوغاء ممن لا يفقهون فقهَ أبي ذر ، ولا يُخلِصون لله مثل إخلاصه؛ فيُـثيرون فتنة متسترين بشخصية كبيرة مثل أبي ذر. وقد فَهِم ذلك أبو ذر نفسه ، وعرف ما قد ينطوي عليه بعضُ المغرضين ، فاستأذن الخليفة أن ينزل الرَّبَذَة ، فأَذِنَ له.

في رواية البخاري المتقدمة: قال أبو ذر: (فقال لي عثمان: إنْ شئتَ

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ؛ وانظر: كتابي «أعلام الحفاظ والمحدثين»: ١/ ٣٢٣ـ٣٢٨.

تنحَّيْتَ فكنتَ قريباً. فذاكَ الذي أَنزلَني هذا المنزلَ ، ولو أَمَّروا عليَّ حبشيّاً لَسمعتُ وأطعتُ).

وعن عبد الله بن الصامت قال: (قدِمَ أبو ذرٍّ على عثمانَ من الشام ، فقال: يا أمير المؤمنين ، افْتَح البابَ حتى يَدْخُلَ الناسُ ، أَتَحسبُني من قوم يقرؤون القرآنَ لا يُجاوز حناجِرَهُم يَمْرُقونَ من الدِّين مُروقَ السَّهْم من الرَّمِيَّة ، ثم لا يَعودون فيه حتى يعودَ السهمُ على فُوقه ، هم شَرُّ الخَلْق والخَليقة[1]! **والذي نفسي بيده لو أمرتَني أن أقعدَ لمَا قمتُ ، ولو أَمَرتني أن أكونَ قائماً لَقُمتُ ما أمكَنَتْني رِجْلاي ، ولو رَبَطْتني على بعيرٍ لم أُطْلِقْ نفسي حتى تكونَ أنتَ الذي تُطْلِقُني! ثم استأذَنَه أن يأتيَ الرَّبَذةَ ، فأذِنَ له ، فأتاها)**[2].

زاد عمر بن شَبَّة في روايته: (قال عثمان: صَدقتَ يا أبا ذر ، إنا إنما أَرسلنا إليك لخير؛ لِتجاورَنا بالمدينة! قال: لا حاجةَ لي في ذاك ، اِيذَنْ لي في الرَّبَذة ، قال: نعم ، ونأمرُ لك بنَعَمٍ من نَعَمِ الصَّدَقة تغدو عليك وتروح ، قال: لا حاجة لنا في ذاك ، يكفي أبا ذر صِرْمَتُه. قال: ثم خرج ، فلما بَلَغ البابَ التفتَ إليهم فقال: يا معشرَ قريش ، اعْذِمُوها ، ودَعُونا ودينَنَا)[3].

وقالت زوجتهُ أم ذَرّ: (والله ما سَيَّر عثمانُ أبا ذر، ولكن رسول الله ﷺ

---

(١) هذه صفات الخوارج ، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة الكثيرة.

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٩٦٤) واللفظ له ، وصححه شعيب الأرنؤوط؛ وأخرج الفصل المتعلق بالخوارج: مسلم (١٠٦٧)؛ وابن ماجه (١٧٠) ، وغيرهما.

(٣) تاريخ المدينة: ٣/١٠٣٦ ، وإسناده حسن. **الصِّرمة**: القطعة من الإبل. **اعذموها**: أي خذوها ، **والعذم**: العض والأكل بجفاء.

قال: «إذا بَلَغ البنيانُ سَلْعاً فاخرجْ منها»، فلما بَلَغ البنيان سلعاً وجاوزَ، خرج أبو ذر إلى الشام)[1].

هذه أوثق الروايات وأصحُّها في سيرورة أبي ذر إلى الربذة، ويَظهر عليها نورُ الصدق والورع والنُّبل، حيث تعكس حقيقةَ العلاقة الطيبة بين الصحابة، وبين الخليفة والرعية، القائمة على الإخلاص والصدق والنصيحة والطاعة والرحمة، وليس كظلمات روايات الواقدي وأضرابه ومَن نقل عنهم كاليعقوبي والمسعودي والمرتضى، التي لا تقيم لأصحاب رسول الله ﷺ وزناً، ولا ترعى لهم حرمة، ولا تحفظ وصية النبي ﷺ فيهم!.

كذلك فهذه الأخبار الصحيحة صريحة في أن عثمان لم يُسِئ الفعلَ أو القولَ لأبي ذر، ولم يُخرجْه إلى الربذة عقوبة ونفياً، وإنما استأذن أبو ذر الإمامَ الأعظم فأذِنَ له أن يقيم في مكان قريب، فاختار أبو ذر (الربذة) بنفسه. وقد لاحظَ أبو ذر تكاثُرَ الناس عليه، وهو يعلم استعدادَ الغوغاء لشيطان الفتنة، فأبى أن يقيم بينهم أو قريباً منهم.

هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، والرواية التي تذكر أن عثمان نفاه، وروَّج لها كثيرون منهم ابن أبي الحديد حيث قال في كتابه: (واعلمْ أن الذي عليه أكثر أرباب السيرة وعلماء الأخبار والنقل؛ أن عثمان نفَى أبا ذر أولاً إلى الشام، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاوية، ثم نَفَاه من المدينة إلى الربذة لمَّا عمِل بالمدينة نظيرَ ما كان يعمل بالشام!)[2] ـ هي

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ٣٤٤، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٤٠٣.

رواية باطلة وكذب صراح وافتراء على الحق ومعاندة للروايات الصحيحة الثابتة التي قدمناها.

ومن هذا الباب دعوى هيكل أن أبا ذر كان يعارض سياسة عثمان في المال، ويدعو إلى إصلاح أحوال المسلمين وتخفيفِ الفروق بين الأغنياء والفقراء[1]! وهو كلام فيه تحريفٌ للنصوص، وتألٍّ على الحقيقة، وتفسيرٌ جانح لحقيقة موقف أبي ذر ومذهبه في المال.

وبَلَغ بعضُهم حدّاً من الجَوْر والتهور والطعن على عثمان أنه قال: (لم يكن أبو ذر الصحابي الوحيد الذي تجشَّم غضبَ عثمان، بل كان واحداً من الأوائل، غير أن أبا ذر قام بعمل دعائيٍّ لا يَكلُّ ولا يَمَلّ، ليس ضد عثمان بوجه خاص، بل ضد الإثراء بوجه عام... إن عثمان إذ صبَّ جامَ غضبِه على عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر، بعد حدث نفيِ أبي ذر؛ إنما مزَّق أواصرَ التكافل التي كانت تربط بين الصحابة، وتطاوَلَ بشكل خطر على سابقتهم وحصانتِهم وهالتِهم كقادة وأئمة طبيعيين للمؤمنين، وبذلك بالذات كان ينسف أسسَ شرعيَّته! ... زِدْ على ذلك أن تلك الأفعال كانت تعتبر بمثابة أعمال تعسُّفية اعتباطيَّة، أعمال جَوْر خارجة عن تقاليد الإسلام وآدابه السياسية. عقلية ملكية، محاباة الأقارب، تبديد مال الجماعة، استبداد!)[2].

هذه هي النظرة المادية الجائرة، والتعويلُ على الرواة الكذابين والمتروكين والروايات التالفة، والتعامي عن الأحاديث الصحيحة

---

(١) عثمان بن عفان، لهيكل، ص ١١٦.

(٢) الفتنة، لهشام جعيط، ص ٨٧، ٨٩.

المنيرة ، والتجافي عن أخبار الثقات الأمناء! حتى يأتي مثل هذا (الكاتب) في إدبار من الزمان ويرمي أكابر الصحابة وخليفتَهم الأعظم بكل تلك الفِرى والأباطيل ، حتى ليبدو أنه أعلمُ منهم وأكثر امتثالاً لآداب الإسلام وحقائقه وأخلاقه وسياساته! وفي كتابه من الآثام والأكاذيب والتحامل على الصحابة والخلفاء ما لا يَحتمله عقل ، ولا يُطيقه منصف ، ولم يكتب أسوأَ منه مستشرق حانق!.

٣ ـ مع الصحابي الجليل عمار بن ياسر:

●● جاء في «تاريخ الطبري» من طريق سيف بن عمر بإسناده إلى سعيد بن المسيِّب: أنه كان بين عمار بن ياسر وبين عباس بن عُتْبة بن أبي لهب تقاذفٌ ، فضربهما أمير المؤمنين عثمان[(١)].

ولمّا نظم السبئيون حركة الإشاعات ، وصاروا يرسلون الكتب من كل مصر إلى الأمصار الأخرى بالأخبار الكاذبة ، فأشار الصحابة على عثمان بأن يبعث رجالاً ممن يثق بهم إلى الأمصار حتى يَرجِعوا إليه بحقيقة الحال ، تناسَى عثمان ما كان من عمار
وأرسله إلى مصر ليكون موضع ثقته في كشف حالها ، فأبطأ عمارٌ في مصر ، والتفَّ به السبئيون ليستميلوه إليهم ، فتدارك عثمان وعاملُه في مصر هذا الأمر وجيءَ بعمار إلى المدينة مكرماً[(٢)].

وجاء في ترجمة «عبد الله بن سبأ» عند ابن عساكر: أن والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح أكرم عماراً ، وكَفَّ عنه أيدي المصريين

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٩.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٤١؛ العواصم من القواصم ، ص ٧٨ حاشية (٧٣).

الذين أرادوا الإساءة إليه ، حتى أراد عمار القَفْلَ ، (فحَمَلَه وجهَّزَه بأمر عثمان ، فلما قدِمَ على عثمان قال: يا أبا اليقظان ، قذفتَ ابنَ أبي لهب أن قذَفَك ، وغضبتَ على أن أوطأك فعَنَّفَك ، وغضبتَ على أني أخذتُ لك بحقِّك وله بحقِّه! اللهم إني قد وهبتُ ما بين أمتي وبيني من مَظْلِمة ، اللهم إني متقرِّبٌ إليك بإقامةِ حدودك في كل أحدٍ ولا أُبالي ، اخرجْ عني يا عمار. فخرج فكان إذا لقِي العوامَّ نَضَح عن نفسه وانْـتَفَل من ذلك ، وإذا لقي من يأمَنُه أقَرَّ بذلك وأظهَرَ الندمَ؛ فلامَـهُ الناس وهَجَروه وكَرِهُوه)[1].

وروى ابن أبي شيبة عن أبي مِحْصن قال: حدثنا حُصين بن عبد الرحمن قال: حدثني جَهْم رجلٌ من بني فِهْر قال: (أنا شاهد هذا الأمرَ ، قال: جاء سعد بن أبي وقاص وعمار ، فأرسَلوا إلى عثمان أن ائْتِنا ، فإنا نريد أن نذكُر لك أشياءَ أحدَثْـتَها ـ أو: أشياء فعلتَها ـ قال: فأرْسَلِ إليهم أن انصرفوا اليوم فإني مشتغلٌ ، وميعادُكم يوم كذا وكذا حتى أَتَشَزَّنَ ـ قال أبو محصن: أتشزَّن: أستعد[2] ـ لخصومتِكم. قال: فانصرف سعدٌ وأَبَى عمارٌ أن ينصرف ، قالها أبو محصن مرتين ، قال: فتناولَه رسولُ عثمان فضَربَه. قال: فلما اجتمعوا للميعاد ومن معهم ، قال لهم عثمان: ما تَنْقِمون منِّي؟ قالوا: نَـنْقِم عليك ضَرْبَك عماراً ، قال: قال عثمان: جاء سعدٌ وعمار فأرسلتُ إليهما ، فانصرف سعدٌ وأَبَى عمار أن ينصرف، فتناوَلَه رسولي من غير أمري، فوالله ما أَمرتُ

(١) تاريخ ابن عساكر «ترجمة ابن سبأ» ، ص ٣ ـ ٤. نَضَح: دفع. انتفل: انتفى وتبرَّأ.
(٢) انظر: لسان العرب: ١٣/ ٢٣٧ ، وذكر حديث عثمان.

ولا رَضِيتُ ، فهذه يدي لعمار فَلْيَصطبِرْ ـ قال أبو محصن: يعني: يقتصّ ـ)[1].

هذه الروايات فيها رجال ضعفاء ، وفي بعضها انقطاع ، وبمجموعها يَـنجبر ضعفُها وتصبح مقبولة ، وهي أمثَلُ ما جاء من الروايات وتكشف عن وجه الحق في موقف أمير المؤمنين عثمان في قصة ضرب عمار بن ياسر ، رضي الله عنهما.

●● وفي هذه الأخبار مجموعة حقائق تكشف عن وجه الحق في موقف عثمان من عمار رضي الله عنهما:

الحقيقة الأولى: قيام عثمان بتأديب عمار وعباس بن عتبة ، بما لَه من حق الولاية على المسلمين ، وهو مما يفعله ولي الأمر قبل عثمان وبعده ، وكم فعل عمر بن الخطاب مثل ذلك بأمثال عمار ومن هم خير من عمار. فعثمان إمام مأمور بتقويم رعيته ، وكان أبعدَ عن الهوى ، وأولَى بالعلم والعدل فيما أدَّبَهم عليه ، رضي الله عنهم أجمعين[2].

الحقيقة الثانية: ثقة الخليفة عثمان بعمار بن ياسر ، وحبُّه وإعزازه وتكريمه له ، يتجلى في إرساله إلى مصر ليكون (سفير الخليفة) وليكشف عن حقيقة الشائعات هناك. ثم حرصُ عثمان على عمار من أن ينزلق وراء مروِّجي الفتن ، واستنقاذُه منهم عندما التفُّوا به ، واستجابة والي مصر بحمل عمار إلى (دار الخلافة) مكرَّماً موقراً.

الحقيقة الثالثة: حزم عثمان وصرامته في إحقاق الحق وإقامة الحدود

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٩ ـ ٦٩٠.

(٢) انظر: منهاج السنة: ٣/ ٦٧٥؛ الإمامة ، ص ٣١٥.

على كل أحد ، واعتباره ذلك قُربى يتقرَّب بها إلى الله ، ولا يبالي لومة لائم ، مع نُبله الفذ في تنازله عن حقه فيما يحدث من مَظْلِمة بينه وبين الأمة! وهذا أقصى ما يمكن تصوره في إمام المسلمين وخليفتهم.

الحقيقة الرابعة: شعور عمَّار بالخطأ في تلك المواقف يظهر فيما يَبثُّه لأخلاَّئه ومن يأتمنهم على سِرِّه ، بينما لا يُفشي ذلك للعامة ، وهذا فيه حفظ لمنزلته من جهة ، وفيه فقه عميق لواقع الحال حتى لا تطيرَ به الغوغاء وتُشِيعَه ، فيتعصَّب الرعاع له عن قصد أو جهالة!.

الحقيقة الخامسة: أن عماراً وسعد بن أبي وقاص بما لهما من المكانة وعليهما من واجب النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم ، وقد وصل إلى علمهما بعضُ ما يَتَهامَس به الناس في مجالسهم ـ أرسلا إلى الخليفة أن يوافيهما في المسجد ليذاكراه بما يُشاع حتى يتدارك الأمر قبل أن يضطرب حبلُ الأمن ويستفحل الخطب.

الحقيقة السادسة: أن الخليفة اعتذر إلى سعد وعمار من عدم استطاعته مقابلتَهما في يومهما ، وحدَّد لهما موعداً آخر ، وذلك أقلّ ما يُتَصوَّر في حق الأفراد من عامة الناس ، بله خليفة المسلمين. فانصرف سعد ، وأبَى عمار وأصرَّ على أن يأتيه أمير المؤمنين إلى المسجد في يومه وساعته! والخبر قد طوى تفصيلَ ما حدث بين عمار ورسول الخليفة ، لكن يمكن تصور أنه حدثت بينهما مقاولة نَتَجَ عنها تعنيفٌ للرسول وتعداه إلى دائرة الخلافة ، فأساء هذا الرسول للصحابي الجليل عمار بالضرب! وهذا ما ينكره كل مسلم بلا ريب ، ولكن ما ذنْبُ عثمان فيه وما حيلتُه؟!.

الحقيقة السابعة: أن أمير المؤمنين عثمان حَلَف حين عُوتب أنه ما أمر رسولَه بتناول عمار، ولا رضي بذلك، بل كرِهه، وليس في شرائع الله تعالى طريق لتبرئة عثمان من تبعة رسوله غير ذلك لو أنصف التاريخ واستقامت موازين العقول.

الحقيقة الثامنة: أن الخليفة عثمان لم يقف من عمار عند هذا الحدِّ، بل أسرع إليه بأبلغ ما يقع به التراضي في أشد الخصومات؛ فقال على سمع الصحابة: هذه يدي لعمار فليقتصَّ مني إن شاء! وفي ذلك تقدير جليل من عثمان لعمار، لأنه كافأه بنفسه إذ جعل القِصاصَ منه ولم يجعله من رسوله إلى عمار[١]!.

وبتدبر هذه الحقائق ندرك ما تصنع الروايات الزائفة في تشويه التاريخ، وندرك حقيقة موقف عثمان من عمار رضي الله عنهما.

●● أما أصحاب الهوى والاضطغان على الصحابة والمنحرفون عنهم، فقد تجانَفُوا للإثم وزوَّروا الحقيقة، ونسجوا من الأباطيل حول قصة عثمان مع عمار؛ ما يترفَّع عن قولِ مثله المنصفون، بل من عنده مَسْكَة من عقل وبقيَّة من حياء ودين.

فروى أبو مِخْنَف أن عثمان أَمر بضرب عمار حتى غُشي عليه، وحتى فَتَقَ أمعاءه[٢]!.

---

(١) من الحقيقة الخامسة إلى هنا، من كتاب «عثمان بن عفان»، للصادق عرجون، ص١٤٦ ـ ١٤٧، باختصار.

(٢) أنساب الأشراف: ٥/٤٨ ـ ٤٩؛ العواصم من القواصم، ص ٧٦.

وقد زيَّـفَ هذا الكلامَ: ابنُ العربي فقال: ضَرْبُه لعمار إفكٌ ، ولو فَتق أمعاءه ما عاش أبداً[1]!

وابنُ أبي بكر المالَقي فقال: (هذا لا يَـثبت ، ولو ثَبَت فإن للإمام أن يؤدِّب بعضَ رعيته بما يراه وإن كان خطأ؛ ألا تَرى أن النبي ﷺ أَقصَّ من نفسه وأقاد!)[2].

وأبو نُعيم الأصبهاني[3] ، والقاضي عبدُ الجبار المعتزلي فيما نقله عنه ابن أبي الحديد[4].

لكن (الشريف المرتضى) ـ وهو رافضي إمامي معتزلي ، وكان يسبُّ الصحابة ـ شنَّ حملة شعواء على القاضي عبد الجبار؛ فقال: (أما الدفعُ لضرب عمارٍ فهو كالإنكار لطلوع الشمس ظهوراً وانتشاراً ، وكل من قرأ الأخبار وتصفَّح السِّير ، يعلم من هذا الأمر ما لا تُثنِيه عنه مكابرةٌ ولا مدافعة! وهذا الفعل ـ أعني ضربَ عمار ـ لم تختلف الرواة فيه ، وإنما اختلفوا في سببه؛ فروى عباس بن هشام الكلبي عن أبي مِخْنَف في إسناده: أنه كان في بيت المال بالمدينة سَفَط فيه حَلْيٌ وجواهر ، فأخذ منه عثمانُ ما حَلَّى به بعضَ أهله ، فأظهَرَ الناسُ الطعنَ عليه في ذلك...) واقتصَّ خبراً طويلاً فيه طعنُ عليٍّ وعمار على عثمان ، وضربُ عثمان عماراً حتى أصابه الفَتْق وغُشي عليه ، وأن عثمان عَيَّر

(١) العواصم من القواصم ، ص ٧٨.
(٢) التمهيد والبيان ، ص ١٩٠ ـ ١٩١.
(٣) الإمامة ، ص ٣١٥.
(٤) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٦.

عماراً بأمه ، وأنه تَرَك سُنّة النبي ﷺ[1]!.

ثم قال: (وقد رُوي من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة: أن عماراً كان يقول: ثلاثة يشهدون على عثمان بالكفر وأنا الرابع ، وأنا شرُّ الأربعة؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وأنا أشهدُ أنه قد حكم بغير ما أنزل الله.

ورُوي عن زيد بن أَرْقم من طرق مختلفة: أنه قيل له: بأي شيء كَفَّرتم عثمانَ؟ فقال: بثلاث: جَعَلَ المال دُولَة بين الأغنياء ، وجَعَل المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ بمنزلة مَنْ حاربَ اللهَ ورسولَه ، وعَمِل بغير كتاب الله!)[2].

●● يا لله وللمسلمين ، ثم يا الله وللمسلمين! عثمان ذو النورين المبشر بالجنة والمبشَّر بالشهادة ، وصِهْر النبي ﷺ على ابنتَيْه، وصاحبُ الهجرتين والأيادي البيضاء على المسلمين ، وأحدُ الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وسفيرُ النبي ﷺ ومن بايع عنه بيده الكريمة بيعة الرضوان ، ومستشار أبي بكر وعمر ، الحيي الكريم الذي تستحي منه الملائكة، والذي أَخبر ﷺ أنه على الهدى وأَمر أمتَه بمبايعته، وأنه يبقى هكذا على الحق حتى آخر رمق، وأَمَره ﷺ بالصبر وأن لا يَخْلَع سِرْبال الخلافة ، وأنَّ الخارجين عليه منافقون ، وأن خلافته على منهاج النبوة ، وأجمعت الأمة على بيعته ، وسار على هَدْي الشيخين في خلافته. . . عثمان عند (هذا المرتضى) وأتباعه: يختلِس مال

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٨ ـ ٣٩.

الأمة ، وترك سنة النبي ﷺ ، وعيَّر عماراً بأمِّه ـ وهي الصحابية الشهيدة ـ ووَطئِه وطأً شديداً حتى فَتق أمعاءه ، وأن عماراً وزيد بن أرقم وغيرهما شهدوا على عثمان بالكفر ، وأنه عمل بغير كتاب الله ! .

هكذا يقول هذا الإمامي الأفاك المتهور ، ويزعم أن ذلك رُوي من طرق بأسانيد كثيرة ، وهو حقيقة مثل الشمس الطالعة! ولقد قرأنا الفِرى التي اختَلَقها (عبد الله بن سبأ) وأتباعه ، فلم يأتوا بأقبح من أباطيل المرتضى .

وقد ضَرب لنا (هذا المرتضى) مثلاً لأسانيده فقال : (عباس الكَلْبي عن أبي مِخْنَف)! ما شاء الله ، هكذا فليكن العلمُ ، وبمثلِ هؤلاء (الرجال) يُـتَّهم أرفَعُ أصحاب النبي ﷺ وأفضلُهم آنذاك ! .

عباس الكلبي مثل أبيه وجدِّه أخباري هالك يروي الأكاذيب والموضوعات ، وأبو مخنف لوط بن يحيى شيعي محترِق لا يُوثق به ، وناقل الخبر (المرتضى) إمامي جَلْد يسبُّ الصحابة؛ إسناده ظلمات بعضها فوق بعض .

●● ونحن نقول للمرتضى وابن أبي الحديد الذي سوَّد وجه كتابه في مئات الصفحات بمثل هذه الأكاذيب ، وكلٍّ من على شاكلتهما :

إذا كان عثمان كافراً ، وبدَّل كتاب الله ، وخالَفَ سنَّة رسوله ﷺ ، وجعل المهاجرين والأنصار بمنزلة من حارب الله ورسوله ، واختلَس أموال الدولة ، وتعدَّى على كبار الصحابة . . . **فأين علي بن أبي طالب ونجلاه الحسن والحسين وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأضرابهم من أكابر الصحابة؟! لِم لم يثوروا عليه ويخلعوه؟! ولماذا**

يتركون هذه الأمور المزعومة يتولّى تحريكَها ابنُ سبأ والأَشتر النَّخَعي وحُكَيم بن جَبَلَة وعبد الرحمن بن عُدَيْس وأمثالهم؟! بل أين المهاجرون والأنصار الذين نصروا دين الله في أحلك الظروف وضد طغيان قريش؟! لماذا سكت كل هؤلاء؟!.

بل لماذا استبسلوا في الدفاع عن عثمان وقت الحصار ويوم الدار، ولماذا دافع عليٌّ عنه وأرسل إليه ولدَيْه الحسن والحسين للمشاركة في حمايته؟ أتراهم ينافحون عن رجل صفاته كما افترى المرتضى؟!.

أين عقلُ المرتضى وأتباعه قديماً وحديثاً، وأين دينُهم وخوفُهم من الله تعالى؟ ألم يسمعوا كلام الله في الثناء على المهاجرين وعثمان في مقدمتهم! أمَا طرقَتْ أسماعَهم الآيات الكريمة التي تزكي الصحابة عامة وأهلَ بيعة الرضوان وجيش العسرة خاصة وعثمان في طليعتهم! أمَا بَلَغهم الثناءُ النبوي المستفيض على عثمان في حيائه وورعه ونُبْله وسخائه وحسن هديه في خلافته؟!.

إن عثمان في إيمانه وأخلاقه ونُبْله وحيائه ولينِ عريكته ورحمته ومسامحته وجليل مكانه؛ ليأبى أن ينزل إلى ذلك الدرك من التصرف مع رجل من أجلاء الصحابة وسابقيهم! وسيرته في أحلك الظروف تشهد أنه لم يفعل مثل تلك (الأفعال المزعومة) مع الذين خرجوا عليه ثم قتلوه!.

ليت من يدوِّن تاريخ الإسلام ورجالاته يُعنى بنقد الروايات، وينفي عنها أكاذيب الوضاعين ويكشف دخائل المفترين والمنحرفين!.

* * *



مؤسسات الدولة

- مؤسسة الشؤون الإسلامية .
- مؤسسة القضاء والحسبة .
- المؤسسة المالية .
- المؤسسة الاقتصادية والعمرانية .
- المؤسسة العسكرية .
- المؤسسة الإدارية .
- المؤسسة التعليمية .

* * *



الفصل الأول

مؤسسة الشؤون الإسلامية

بنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دولة ضخمة قوية ، وأقام مؤسساتها وإدارتها وهيكلها التنظيمي بما يشبه (الوزارات والأنظمة) في الدول الحديثة في عصرنا ، كما أوضحنا ذلك بدلائله في كتابنا الموسع عن الفاروق وعهده العبقري المبارك.

ومشى عثمان على منهج عمر وطريقته ، وأَحَدث تطورات ذات بال في مؤسسات الدولة ، حسبما تقتضيه متطلبات العصر ومستجداته من تطوير وتجديد ، وبما يتناسب أيضاً مع سياسة الخليفة الثالث ونمط تفكيره.

●● وفي مؤسسة الشؤون الإسلامية؛ فإن أعظم أعمال عثمان وأجلَّها هو جمعُ المسلمين على (مصحف واحد) وتوزيع (المصاحف العثمانية الأئمة) على ولايات الدولة ، وبذلك حَفِظ (دستور الإسلام) ، وحَفظ على الأمة وحدتها الدينية ، ودَفَع عنها غائلة الفتنة والاختلاف.

ـ ووجَّه عناية كبيرة لبناء المساجد ، وأَوْلَى الحرمين الشريفين عناية خاصة ، فجدَّد بناء المسجد النبوي ، ووسَّع مساحة المسجد الحرام.
وقام ولاته بتوجيهاتٍ منه وبمبادرات طيبة منهم ببناء المساجد في الأمصار المفتوحة ، مثل الإسكندرية وقبرص وإصطخر وغيرها ، كما

سيأتي بيانه في «المؤسسة العمرانية».

ـ وفرض الرواتب للأئمة والمؤذِّنين والمعلمين والقضاة وغيرهم ممن يقوم على مؤسسة المساجد[1].

ـ وكان عثمان هو أمير الحج عشر سنين ولاءً من خلافته، من سنة (٢٥هـ) إلى (٣٤هـ)، وفي سنة (٢٤هـ) أمَّر على الموسم عبد الرحمن بن عوف، وفي سنة (٣٥هـ) حيث حُصِر بعث عبد الله بن عباس فأقام للناس حجَّهم[2].

ـ ويَسَّر السُّبل في طريق الحجاج، ومن ذلك أعمال والي البصرة عبد الله بن عامر في توفير الخدمات للحاجّ العراقي من تأمين الطرق وحفر الآبار وتوفير الاستراحات[3].

●● وانطبعت هذه المؤسسة بشخصية عثمان، وظهرت عليها بجلاء معالم اجتهاداته: ففي صلاة التراويح جَمع الرجال والنساء على إمام واحد[4]، وزاد الأذان الثاني يوم الجمعة على الزَّوْرَاء، وأتمَّ الصلاة بمنًى، ونَهى عن التمتع بالحج، وأمر المعتدة الحاجة بالعودة إلى بيتها، ونهى عن نكاح المحلِّل، وأَهْدَر طلاق السكران . . . وغير ذلك من الاجتهادات[5] التي مشت عليها هذه المؤسسة في عهده.

* * *

---

(١) تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١٠٤؛ موسوعة فقه عثمان، ص ١٤.

(٢) تاريخ خليفة، ص ١٥٧ ـ ١٥٩؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٥٠.

(٣) الولاية على البلدان، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٤) انظر ما تقدم: ص ٢٣٣ في هذا الكتاب.

(٥) سبق تفصيلها: ص ٨٧ ـ ٩٥ في هذا الكتاب.

الفصل الثاني

مؤسسة القضاء والحِسْبة

أولاً: مزايا القضاء في العهد الراشدي:

●● كان عهد الخلفاء الراشدين على مستوى الكفاية والمسؤولية والتنظيم لمواجهة المتغيرات والمستجدات ، ووضع الأسس والقواعد والتنظيمات التي تكفُل حماية الحقوق وتأمين العدالة وحفظ الأنفس والأموال.

وتميز العهد الراشدي في (ميدان القضاء) بأمرين أساسيين :

١ ـ المحافظة على نصوص العهد النبوي في القضاء ، والتقيد بما جاء فيه ، والاستمرار في الالتزام به.

٢ ـ وضع التنظيمات القضائية الجديدة لترسيخ دعائم الدولة الإسلامية الجديدة ، ومواجهة المستجدات المتنوعة[١].

وقد أحدث الفاروق عمر نُقْلة متميزة واسعة المدى متعددة الجوانب ، في أسس القضاء وقواعده وتنظيماته وتعيين القضاة وصفاتهم واختصاصاتهم وصلاحياتهم وأرزاقهم ، وغير ذلك مما أوضحناه في كتابنا عن (عمر).

---

(١) تاريخ القضاء في الإسلام ، ص ٨٤.

وجاء عثمان فاتبع هدي رسول الله ﷺ في القضاء ، وبنَى على سوابق أبي بكر وعمر ، وطوَّر في السياسة القضائية بما يناسب عهده والمستجدات فيه .

ذَكَرت الفُرَيْعَة بنتُ مالك ـ أختُ أبي سعيد الخُدْري ـ أن زوجَها توفِّي عنها ، فقال لها النبي ﷺ: «**امْكُثِي في بيتِك حتى يَبْلُغَ الكتابُ أجلَه**». قالت: فاعتددتُ فيه أربعة أشهر وعشراً ، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أَرسل إليَّ فسألَني عن ذلك ، فأخبرتُه ، فاتَّبعَه وقضَى به[1] .

●● ومصادر القضاء في عهده هي:

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ السُّنَّة النبوية .

٣ ـ الاجتهاد .

٤ ـ الإجماع .

٥ ـ القياس .

٦ ـ السوابق القضائية .

ويظلل ذلك كله الشورى والمشاروة في المسائل والقضايا والأحكام[2] .

ولم يكن للقضاء مكان مخصص ، بل يقضي القاضي في البيت

---

(١) أخرجه مالك: ٢/ ٥٩١؛ وأبو داود (٢٣٠٠)؛ والترمذي (١٢٤٣) ، وغيرهم ، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط .

(٢) تاريخ القضاء في الإسلام ، ص ١١٨ .

والمسجد ، والشائع جلوسهم في المسجد[1] .

●● **وفي عهد عثمان اتخذ (داراً للقضاء)** ، لتكون مكاناً مخصصاً له ، مع إبعاد الضجيج عن المسجد ، وتنزيهه عن اللغو ، وفسح المجال لجميع الناس من الدخول إليه ، فكان عثمان أول من اتخذ داراً للقضاء في المدينة ، ثم شاع الأمر وانتشر بالتدريج في بقية المدن والأمصار[2] .

●● **وامتاز العهد الراشدي بالتنظيم الموضوعي للقضاء ، بجانب التنظيم الإداري** ، فاهتم الخلفاء الراشدون بوضع النظام الدقيق للقضاء ، وشؤونه الصحيحة ، لتغطيةِ التوسع في الدولة والقضاء ، وشرحِ المبادئ والأصول التي قرَّرها القرآن والسُّنَّة .

وكان التنظيم الموضوعي نظريّاً بالكتب والرسائل والتوجيهات التي كتبها وأرسلها الخلفاء الراشدون إلى الولاة والقضاة ، وعمليّاً في التطبيق والممارسة لشؤون القضاء والنظر في الدعاوى والأقضية ، وفصل الخصومات والخلافات .

وبلَغ هذا التنظيم الموضوعي قمته في عهد الفاروق عمر نظريّاً وعمليّاً ، واستمرَّ كذلك من الناحية العملية بعد ذلك في عهد عثمان فمن بعده[3] .

---

(١) عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(٢) القضاء في الإسلام ، لمحمد سلام مدكور ، ص ٢٦ ؛ تاريخ القضاء في الإسلام ، للزحيلي ، ص ١٠٥ .

(٣) تاريخ القضاء في الإسلام ، ص ١٠٧ .

وكتب عثمان كتباً إلى عمال الخَراج والقضاة يحثُّهم على التزام الحق والعدل مع الرعية والوفاء والأمانة ، قال : (أما بعدُ ، فإن الله خلَق الخلق بالحقِّ ، فلا يَقبل إلا الحق ، خُذوا الحق وأعطوا الحق به. والأمانةَ الأمانةَ قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يُسلبها ، فتكونوا شركاءَ مَنْ بعدكم إلى ما اكتسبتم. والوفاءَ الوفاءَ ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهَد ، فإن الله خصمٌ لمن ظلمهم)[١].

●● **والقاعدة العامة في العهد الراشدي : أن القاضي كان ذا اختصاص شامل لجميع القضايا المالية والأحوال الشخصية** ، وفي الأبدان والجنايات والقِصاص ، والحدود. وكان الخلفاء غالباً ما يرسِلون القضاة ولا يحدِّدون لهم ما يَحكمون فيه ، ولا يطلبون منهم الرجوعَ إليهم ، إلا في الأحوال المعضِلة وخاصة فيما لا نصّ فيه من القرآن والسُّنَّة ، وما يعتمد على الاجتهاد والرأي[٢].

وأما الاختصاصُ الموضوعي أو النوعي فكان استثناءً ، وفي حالات قليلة ومحصورة. ومن أمثلة ذلك : أن أبا الدرداء عُيِّن قاضياً في زمن عمر وعثمان للنظر في منازعات العسكر ، أينما ارتحلوا أو حَلّوا[٣].

وتعيينُ قضاة للأمور المهمة والخطيرة ، وهذا ما أَحْدَثه عمر حيث ولَّى عاملَه على الكوفة (قضاء الأحداث) ، أي القضايا والجرائم الكبرى

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٤٥ ؛ والمرجع السابق ، ص ١١٦.
(٢) أخبار القضاة : ٢/ ١٨٩ ؛ إعلام الموقعين : ١/ ٨٥؛ تاريخ القضاء في الإسلام ، ص ١٢٩ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٥٩.
(٣) أخبار القضاة : ٣/ ١٩٩ ؛ تاريخ القضاء في الإسلام ، ص ١٢٧.

التي تحدث في المجتمع. ولما استُخْلِف عثمان أقرَّ أبا موسى الأشعري على قضاء البصرة وأحداثها[1].

وكانت القضايا الكبيرة والمهمة والخطيرة في الجنايات والقصاص والحدود تُنظَر في الغالب من قِبل الخليفة في (العاصمة)، وهذا ما حرص عليه عثمان رضي الله عنه. وانحصرت الموافقة على تنفيذ حدِّ القتل بالخليفة وحده، وبقي للولاة حق المصادقة على أحكام القصاص دون القتل[2].

وكان بإمكان القاضي حبسُ المتَّهم للتأنيب واستيفاء الحقوق، وقد فعل ذلك عمر وعثمان وعلي[3].

●● **وتكونت نواة (قضاء المظالم والحِسْبة) في العهد النبوي**، ثم أحدث فيه عمر بن الخطاب تطوراً ضخماً وشمولياً كما فصلناه في سيرته، وجاء عثمان فسار على منهجه، وحافظ على الأوضاع التي رسمها عمر، وكتب إلى أمراء الأجناد: (وقد وضع لكم عمر ما لم يَغِبْ عنَّا، بل كان عن ملأ منا، ولا يبلغنِّي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغيِّر الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم)[4].

ثانياً: أشهر القضاة في خلافة عثمان:

١ ـ زيد بن ثابت (المدينة).

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٢٧٤؛ تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١٢٨.
(٢) تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١٢٨؛ مجموعة الوثائق السياسية، ص ٥٢١.
(٣) عصر الخلافة الراشدة، ص ١٦٠.
(٤) انظر ما تقدم: ص ٢٠١، ٢٢١ في هذا الكتاب.

٢ ـ أبو الدرداء (دمشق).

٣ ـ كعب بن سُور (البصرة).

٤ ـ شُريح (الكوفة).

٥ ـ يَعْلى بن أمية (اليمن).

٦ ـ ثُمامة (صنعاء).

٧ ـ عثمان بن قيس بن أبي العاص (مصر).

وكان كثير من الولاة يجمعون بين الإمارة والقضاء، ومن أولئك:

٨ ـ أبو موسى الأشعري، والي البصرة وولاه عثمان قضاء أحداثها.

٩ ـ نافع بن عبد الله الخُزاعي، أمير مكة وقاضيها.

١٠ ـ سفيان بن عبد الله الثقفي، أمير الطائف وقاضيها[١].

وكان أمير المؤمنين عثمان يتولى قضاءَ المدينة بنفسه؛ فعن الحسن البصري قال: (دخلتُ المسجد، فإذا أنا بعثمانَ بن عفان متكئاً على ردائه، فأتاه سقَّاءان يختصمان، فقضى بينهما)[٢].

وروى عبد الرحمن بن سعيد بن يَرْبوع قال: (رأيتُ عثمانَ بن عفان في المسجد إذا جاءه الخَصْمان، قال لهذا: اذهَبْ فادْعُ عليّاً، وللآخر:

---

(١) تاريخ خليفة، ص ١٧٩؛ تاريخ الطبري: ٤/٤٢١ ـ ٤٢٢؛ عصر الخلافة الراشدة، ص ١٧٤ ـ ١٧٥؛ تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٣٩٦.

اذهَبْ فادْعُ طلحةَ بن عبيد الله والزبير وعبد الرحمن ، فجاؤوا فجلسوا ، فقال لكما: تكلَّما ، ثم يُـقْبل عليهم فيقول: أشيروا عليَّ ، فإن قالوا ما يوافق رأيه أمضاه عليهما ، وإلا نظر ، فيقومون مسلِّمين)[١].

وهذا لا يُعارض كونَ زيد بن ثابت قاضياً على المدينة ، فعثمانُ كان خليفة يدير شؤون الدولة ، وزيدٌ يعاونه في الفصل في قضايا الناس ، ويقضي بينهم عند غياب عثمان لحجٍّ أو غيره ، كذلك يكون زيد من مستشاريه عندما يَـفصل في المعضلات.

●● **وتعيين القضاة** يكون من قِبل الخليفة أحياناً ، وفي الغالب يقوم الوالي بتعيينهم ، كما فعل ـ مثلاً ـ والي البصرة عبد الله بن عامر حيث ولَّى كعبَ بن سُور قضاء البصرة فلم يزل قاضياً حتى قُتل يوم الجَمَل[٢].

وقد أمَر عثمان عبدَ الله بن عمر أن يتولَّى القضاء ، فاعتذر ابنُ عمر إليه وطلب منه أن يعفيه وألَحَّ في ذلك ، فأعفاه عثمان[٣].

●● **وقد فرضت الدولة (رواتب مجزية) للقضاة** ، ليعيشوا حياة كريمة ، ورفعاً لمنزلتهم ، وقطعاً لدابر الرشوة والجَوْر في الحكم. وكان عمر يأمر ولاته بالتوسعة على القضاة من أموال الأمة. واستمر رزقُ القضاة في عهد عثمان كما كان في عهد عمر ، بل قد توسعت الأموال والعطايا في عهد عثمان إلى القضاة والولاة وجميع الناس؛ قال الحسن البصري: كان عمر وعثمان يرزقان الأئمة والمؤذنين والمعلمين

(١) أخبار القضاة: ١/ ١١٠.

(٢) أخبار القضاة: ١/ ٢٧٥ ، ٢٨١؛ تاريخ خليفة ، ص ١٧٩.

(٣) مسند أحمد (٤٧٥)؛ سنن الترمذي (١٣٧٠).

والقضاة. وكانت التوسعة على القضاة مقصودة وواضحة، حتى إنهم كانوا يستلمون رواتبهم سَلَفاً[1]!.

ثالثاً: نماذج من أقضية عثمان:

١ ـ رجل قتل تاجراً لمالِه؛ العقوبة: القتل قِصاصاً.

٢ ـ الساحر: عقوبته القتل إذا لم يتب[2].

٣ ـ جناية الأعمى هَدْر: قال عثمان: أيُّما رجلٍ جالَس أعمى، فأصابه الأعمى بشيء؛ فهو هدر.

٤ ـ جناية المقتتلَيْن على بعضهما: إذا تشاجَر شخصان فجنَى كل منهما على الآخر، فالواجب القِصاص. قال عثمان: إذا اقتتل المقتتلان، فما كان بينهما من جراح فهو قصاص.

٥ ـ الصائل دمُه هَدْر: إذا صالَ ـ أي سطا ـ شخص على آخر في نفسه أو عِرْضه أو مالِه، فقتَلَه المصولُ عليه؛ فدَمُه هدرٌ.

روى ابن حزم في «المحلَّى»: أن رجلاً رأى مع امرأته رجلاً، فقتله، فارتفعوا إلى عثمان، فأَبْطَلَ دمَه[3].

٦ ـ قَتْلُ الجماعة بالواحد: نَقَب شباب من أهل الكوفة على ابن الحَيْسُمان الخُزَاعي، فخرج عليهم بالسيف، فأحاطوا به وقتلوه.

---

(١) تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١٠٤ ـ ١٠٥؛ الإدارة الإسلامية، لمحمد كرد علي، ص ٤٧.

(٢) عصر الخلافة الراشدة، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٣) موسوعة فقه عثمان، ص ٩٩، ١٠٠، ١٠٣.

فأُخذوا ، ورُفع أمرُهم إلى عثمان ، فأمر بقتلهم ، فقُتلوا[1].

٧ ـ المرتد: يُستتاب ثلاثَ مرات ، فإن لم يَـتُب يُـقتل.

٨ ـ شتمُ الرسول ﷺ: العقوبة هي القتل[2].

٩ ـ شُرب الخمر: جعل عثمان عقوبةَ من زَلَّ فشَرب الخمر أربعين جلدة ، ومن أَدْمَن عليها ثمانين جلدة. فكأنه جعل الأربعين الأولى حدّاً ، والأربعين الثانية تعزيراً.

١٠ ـ سرقةُ الغلام: أُتِي عثمان بغلام سَرَق ، فقال: انظُروا إلى مؤتَـزَرِه ، فنظروا فلم يجدوه أَنْبَت ، فلم يَـقطعْه[3].

١١ ـ قطْعُ يد السارق: قطع عثمان يدَ السارق في ربع دينار[4].

١٢ ـ الولد للفِراش: قضَى فيه عثمان بقضاءِ رسول الله ﷺ[5].

١٣ ـ نكاحُ المُحَلِّل: جاء رجل إلى عثمان في خلافته وقد ركب ، فسأله فقال: إنَّ لي إليك حاجةً يا أمير المؤمنين ، فقال له عثمان: إني الآن مستعجل ، فإنْ أردتَ أن تركب خلفي حتى تقضي حاجتك ، فركب خلْفَه ، فقال: إن لي جاراً طلّق امرأته في غضبه ، ولقِي شدَّةً ، فأردتُ أن أحتسِبَ بنفسي ومالي ، فأتزوَّجَها ثم أبتني بها ، ثم أطلِّقَها ، فترجعَ إلى

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧١ ـ ٢٧٢. نقب الجدار: خرقه.

(٢) عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٦٥ ، ١٦٧.

(٣) موسوعة فقه عثمان ، ص ٩٣ ، ١٧١. أَنْبتَ: أي نَبَت شَعر عانته ، وهو من علامات البلوغ.

(٤) موطأ مالك: ٢ / ٨٣٢؛ سنن الترمذي ، عقب الحديث (١٥١٢).

(٥) سنن أبي داود (٢٢٧٥)؛ مسند أحمد (٤١٦) و(٥٠٢).

زوجها الأول؟ فقال له عثمان: لا تَنكِحْها إلا نكاحَ رغبة)[1].

رابعاً: من أمثلة قيام عثمان بالحسبة:

١ ـ رأى على محمد بن جعفر بن أبي طالب ثياباً مُعَصْفَرة، فأَنكر عليه وانتَهره وأَفَّفه وقال: أَتلبس المُعصفَرَ، وقد نَهى عنه رسول الله ﷺ؟![2].

٢ ـ وأَنكر على نساء خرجنَ للحج والعمرة وهنَّ في العِدَّة، وأَمرهُنَّ بالرجوع إلى بيوتهن.

٣ ـ ووَرَّث المرأةَ التي طلَّقها زوجُها في مرضه.

٤ ـ وحَجَر على المُفلِس[3].

٥ ـ ونَهى عن لُعب النَّرْد، وأمر بكسرها.

٦ ـ وأَمَر بذَبْح الحَمَام وكَسْر الجُلاَهِقات.

٧ ـ ونَهى عن تكليفِ الصغير الكسبَ، وكذا الأَمَة غير ذات الصَّنْعة[4].

٨ ـ وأمر بجلدِ شاربي النَّبيذ عندما وصل إلى حدِّ الإسكار[5].

٩ ـ وأقام الحدود على الولاة فمن دونهم.

---

(١) موسوعة فقه عثمان، ص ٨١؛ وانظر: مصنف ابن أبي شيبة: ٣/ ٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٢) مسند أحمد (٥١٧).

(٣) انظر ما تقدم: ص ٩٤ ـ ٩٥ في هذا الكتاب، وثمة أمثلة أخرى.

(٤) انظر ما تقدم: ص ٢٣٣ في هذا الكتاب، وفيها أمثلة أخرى.

(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٨؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٦٤.

١٠ ـ وضَرب رجلاً في منازعةٍ استَخفَّ فيها بالعباس عمّ رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ يُفخِّمه[(١)].

١١ ـ ونَفَى من المدينة من يُخشى منه الشرُّ ، أو شَهر سلاحاً عصاً فما فوقها[(٢)].

١٢ ـ ونَهى الوالي الفاتح عبد الله بن عامر عن الإحرام بالعمرة من قبل الميقات المكاني[(٣)].

وفي ثنايا الكتاب أمثلة أخرى كثيرة.

* * *

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٠٠؛ حياة الصحابة: ٢/ ٤٤٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٩.

(٣) تقدم: ص ٢٤١ في هذا الكتاب.

الفصل الثالث

المؤسسة المالية

أولاً: أسس وقواعد:

تشير أعمال عثمان وكُتبه ورسائله إلى الولاة والأمناء وجُبَاة المال وخَزَنته والقائمين على مصارفه؛ إلى المحاور الرئيسة في سياسته المالية للدولة والرعية.

فتقدَّم إلى الولاة فكَتَب إليهم أن يكونوا رُعاة لا جُباة ، وأن يعطوا المسلمين وأهلَ الذمة ما لَهم ويأخذوهم بالذي عليهم.

وجاء في كتابه إلى عمال الخَرَاج ووزراء المال: (أما بعدُ ، فإن الله خَلَق الخلق بالحق فلا يَقبل إلا الحق ، خُذوا الحقَّ وأعطوا الحق به. والأمانةَ الأمانةَ ، قوموا عليها ولا تكونوا أولَ من يُسلَبها فتكونوا شركاءَ من بعدكم إلى ما اكتسبتم. والوفاءَ الوفاءَ ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهَد ، فإن الله خصمٌ لمن ظَلَمهم)[1].

ويُستنتج من هذا (البيان الرئاسي):

١ ـ تطبيقُ سياسة مالية عامة على جميع الناس مسلمين وسواهم.

٢ ـ عدم إخلال الجباية بالرعاية.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، وقد تقدم: ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ في هذا الكتاب.

٣ ـ التزام الحق والعدل والأمانة والوفاء في الأخذ والعطاء.

٤ ـ أخذُ ما يتوجب على المسلمين وأهل الذمة من حقوق لبيت مال المسلمين.

٥ ـ إعطاء كافة الرعية ما لَهم من حقوق مالية متوجبة على الدولة.

٦ ـ إلزام جميع موظفي (وزارة المالية) بالأمانة والوفاء والعدل.

٧ ـ التحذير من مخالفة أي أمر مما سبق.

ومن المعالم الرئيسة (للسياسة المالية) في عهد عثمان: أنه كان يتحرَّج في (المال العام)، ولم أقف على خبر واحد يفيد أنه كان يتقاضى (راتباً) من بيت مال المسلمين، مع أنَّ له الحقَّ في ذلك أسوة بأبي بكر وعمر. بل إنه أنفق من (ماله الخاص) ـ قبل الخلافة وبعدها ـ على نفسه وأسرته وأقاربه، وتعدَّى ذلك إلى استصلاح أمور عامة هي من خصائص الدولة، وثبَت أنه تحرَّج من إنفاق المال على حرس يحميه في أقسى الظروف عند حصاره واستشهاده!.

واقتفى ذو النورين سيرة الفاروق في (سياسة المال)، وأقرَّ الأوضاعَ الإدارية السائدة التي أسسها وشيدها[1]، كالدواوين والعطاء والموارد والمصارف والحِمى وإقطاع الأراضي، مع إضافات واضحة في زيادة النفقات والعطاء والرخاء المادي والتوسع في النعيم الذي عمَّ جميع الناس.

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٣٢.

ثانياً: موارد الأموال وتوجيهات عثمان واجتهاداته:

١ ـ الزكاة:

تتولى الدولة الإسلامية القيامَ بهذا الركن الخطير ، عن طريق المُصَدِّقين والأمناء وموظفي بيت المال وأضرابهم.

وقد كان أمير المؤمنين عثمان يأمر المسلمين بأداء زكوات أموالهم بوجود المصدِّقين والسُّعَاة أو عدم وجودهم.

روى إبراهيم بن سَعْد بن إبراهيم الزُّهري ، عن ابن شهاب ، عن السائب بن يزيد قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: (هذا شهرُ زكاتكم ، فمن كان عليه دَينٌ فليؤدِّه ، حتى تُخرجوا زكاة أموالكم[١] ، ومن لم تكن عنده لم تُطلب منه حتى يأتي بها تطوعاً ، ومن أُخذ منه حتى يأتي هذا الشهر من قابل[٢]).

قال إبراهيم: أُراه يعني شهرَ رمضان[٣]. وروى أبو عُبيد: أنه شهر المحرم.

ومن اجتهادات عثمان وفقهه أنه كان يرى وجوبَ زكاة الدَّين إذا كان مضموناً ، فقد روى السائب بن يزيد: أن عثمان كان يقول: (إن الصدقة تجبُ في الدين الذي لو شئتَ تقاضيتَه من صاحبه؛ والذي هو على مليءٍ ، تَدَعُه حياءً أو مصانعة؛ ففيه الصدقة)[٤].

---

(١) أي: تخرج زكاة المال بعد أداء الدين.

(٢) يعني: أن الزكاة لا تتكرر عليه في عام.

(٣) الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٤٤٢ ، رقم (١٢٤٧) ، وإسناده صحيح.

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٣٥ ، رقم (١٢١٣) ، وإسناده صحيح.

وكان عثمان وهو خليفة يأَخذ الزكاة في عاصمة الدولة ، ومن أدلة ذلك: ما رواه قُدَامة بن مَظْعُون قال: (كنتُ إذا جئتُ عثمانَ بن عفان أَقبِضُ عطائي ، سألني: هل عندك من مالٍ وَجبتْ عليك فيه الزكاة؟ قال: فإنْ قلتُ: نعم ، أخذ من عطائي زكاة ذلك المال ، وإن قلت: لا ، دَفَع إليَّ عطائي)[1].

٢ ـ الغنائم:

الغنائم: هي ما غَلب عليه المسلمون من أموال أهل الحرب حتى يأخذوه عَنْوةً ، فلا يَدخل فيها الفَيْءُ وهو ما أُخذ من أموال أهل الحرب دون قتال[2].

ومن المعلوم أن القرآن نصَّ على توزيع الغنائم؛ فأربعة أخماسها للمقاتلين وخمسها للدولة[3].

وقد شكلت الغنائم مورداً جيداً لبيت المال ، حيث توسعت الفتوحات في عهد عثمان في خراسان شرقاً وبلاد إفريقية غرباً ، وذكرت كتب التاريخ والفتوح بعض الأرقام التي تدل على ضخامة هذا المورد.

ومن الأمثلة: أنه في فتح إفريقية (تونس) بلغ سهم الفارس (ثلاثة آلاف) دينار ، وللراجل (ألف) دينار ، وكان الجيش الفاتح بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وتعداده (٢٠٠٠٠) مقاتل[4].

---

(١) موطأ مالك: ١/٢٤٦ ، وإسناده صحيح.
(٢) الخراج ، لأبي يوسف ، ص ١٩؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٠٢.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٤١.
(٤) فتوح مصر ، ص ٢١١؛ تاريخ أبي زرعة الدمشقي ، ص ١٨٥؛ تاريخ =

فتكون قيمة الغنائم (٢٠ مليوناً) على أقل تقدير ، إذا كان جميع الجيش مشاة ، وخمسها للدولة ومقداره (٤ ملايين) دينار ، وتعادل (٤٠ مليون) درهم ، من فتح تونس وحدها.

٣ ـ ٤ ـ الجزية والخَرَاج:

الجزية: مقدار من المال يُفرض على أهل الكتاب الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي كاليهود والنصارى ومن يُلحق بهم ممن لهم شبهة كتاب كالمجوس. وتؤخذ من البالغين من الرجال دون النساء والأطفال.

وهي ضريبة لحماية غير المسلمين والدفاع عنهم ، وهم لا يشتركون في الحرب ، وتؤول إلى بيت المال وتوزع مع العطاء.

والخَرَاج: ضريبة على الأراضي التي فتحها المسلمون عَنْوة ، وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام.

وهو بخلاف الجزية المفروضة على الأفراد لا يَسقط بإسلام صاحب الحق في استثمار الأرض ، سواء كان رجلاً أو امرأة ، عبداً أو حرّاً[1].

نتيجة امتداد الفتوحات ودخول كثير من البلاد في رقعة الدولة الإسلامية ، فإن كثيراً من أهل تلك الأمصار قد صالحوا المسلمين وأمِنوا في بلادهم ، وأصبحوا من رعايا الدولة الإسلامية ، ويدفعون مقابل

= خليفة ، ص ١٦٠ ؛ تاريخ ابن عساكر ـ ترجمة ابن أبي سرح ، ص ٣٢ ، ٣٤.

(١) الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٥٢ ، ٧٨ ؛ الخراج ، لأبي يوسف ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٨١ ، ١٩٨ ـ ١٩٩ ؛ الدولة الأموية ، للعش ، ص ٢٩.

حمايتهم ضريبة الجزية. كذلك زادت الأراضي الزراعية الخَراجية؛ حيث كان عمر بن الخطاب قد أَمر ببقاء أهلها فيها ويدفعون خراج تلك الأراضي لبيت مال المسلمين، واستمر ذلك في عهد عثمان فما بعده.

●● ولا نجد روايات توضح عوائدَ الجزية والخراج على بيت المال في خلافة عثمان، ويبدو أن السياسة العمرية استمرت دون تغيير يُذكر في المناطق المفتوحة، ومنها ظاهرة تتمثل في تحديد مبلغ من المال تدفعه المنطقة المفتوحة بالتضامن بين سكانها، وتجبيه السلطة المحلية وتقدمه إلى الدولة الإسلامية، وهذا ما يُعرف (بولاية العهد)؛ فالولاية مُعَاهِدة للدولة الإسلامية، ومن ذلك أن عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح صالح بطريق إفريقية (تونس) على (٢,٥٠٠,٠٠٠) مليوني دينار ونصف المليون[١].

وصالح الوليد بن عقبة أهل أَذْرَبيجان على (٨٠٠,٠٠٠) ثمان مئة ألف درهم، وصالح معظم مدن إيران وخراسان على مبالغ محددة تدفعها المدينة أو الأقليم بالتضامن وتشتمل على الجزية والخراج معاً، وإذا جمعنا الأرقام فإن دخل الدولة الإسلامية من الجزية والخراج يتجاوز (٢٢٠ مليون درهم)[٢].

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢١٣؛ تاريخ الطبري: ٤/٢٥٦؛ عصر الخلافة الراشدة، ص ١٩٤.

(٢) انظر: تاريخ خليفة، ص ١٥٨، ١٥٩، ١٦٤ ـ ١٦٥؛ فتوح البلدان، ص ٣٠١، ٣٠٩، ٣٦٤ ـ ٣٦٥؛ تاريخ الطبري: ٤/٢٤٧، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٧١، ٣٠٣، ٣١١؛ البداية والنهاية: ٧/١٥٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٩، ١٦٠؛ عصر الخلافة الراشدة، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

وذكر أبو هلال العسكري أن جباية السَّوَاد في عهد عثمان بلغت (١٢٠ مليون درهم)[١].

وتضاعفت جبايةُ مِصر من الجزية والخراج في خلافة عثمان ، فقد كانت جبايتها في خلافة عمر (مليوني دينار) ، وارتفعت في خلافة عثمان وولاية ابن أبي سَرْح عليها إلى (أربعة ملايين دينار). ولعل ذلك عائدٌ إلى دخول مدن وقرى جديدة في ولاية ابن أبي سرح من جهة ، وإلى النمو السكاني والإصلاحات الزراعية والازدهار الاقتصادي من جهة أخرى[٢].

٥ ـ العشور:

هي ضرائب تُفرض على تجارة التجار غير المسلمين الذين يمرُّون بتجاراتهم بأرض الدولة الإسلامية ، وهي تشبه (الرسوم الجمركية) في عصرنا ، والموظف الذي يقوم بتحصيلها يسمى (العاشر).

وقد فرض عمر ضريبة (العشور) ومقدارها (١٠٪) ، واستمرت في عهد عثمان ، وهي توفر دخولاً إضافية لخزينة الدولة حيث نشطت التجارة والاستيراد والتصدير ، لكن لا توجد إحصائيات توضح موارد بيت المال من العشور في عصر الخلافة الراشدة.

٦ ـ واردات إقطاع الأراضي وإحياء الأرض الموات:

أَقطع رسولُ الله ﷺ بعضَ الصحابة أراضي لاستصلاحها واستثمارها ، وعلى هديه مشى الخلفاء الراشدون.

---

(١) الأوائل: ١/٢٤٦.

(٢) فتوح البلدان ، ص ٢٠٤؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٩٥.

ولما تولى عثمان الخلافة توسع في الإقطاع ، وخاصة في المناطق المفتوحة؛ حيث ترك عدد من الملاكين أراضيهم فارّين ، فصارت صَوَافيَ تقوم الدولة باستثمارها ، فأقطع عثمان منها خوفاً من بَوَارها ، وكثير من (الصَّوَافي) يقع في (سَوَاد العراق).

وهذا الإقطاع من الصوافي رفع غلَّتَها من (٩ ملايين درهم) في عهد الفاروق عمر ، إلى (٥٠ مليون درهم) في خلافة عثمان[١] ، مما يدل على نجاح سياسته في إدارة الصوافي.

وتذكر المصادر قائمة بأسماء الذين أقطَعهم عثمانُ ومعظمهم ليسوا من قريش ، ومعظم الروايات في إقطاع عثمان ضعيفة وهي بمجموعها تُثبِت توسُّعَه في الإقطاع[٢].

ثالثاً: مصارف الأموال على مؤسسات الدولة ومرافقها:

مثلما تدفقت الأموال على خزائن الدولة ، كذلك كثرت مصارفها وتنوعت مشاريع التنمية والخدمات العامة والخاصة. واستوعَبتْ (ميزانيةُ الدولة) جميعَ مؤسساتها ومرافقها وقطاعاتها ، حتى شعر كل إنسان أنه قد نال حقه من (مال الأمة). وشهد التاريخ بأن المال الذي نمت جبايتُه قد تمَّ توظيفُه في مواضعه ، ولم يَحتجِن الخليفة والمسؤولون منه بيضاء ولا صفراء ، ولا استأثروا به على عامة الرعية.

---

(١) الأحكام السلطانية ، للماوردي ، ص ٣٢٩.
(٢) الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٢٩١ ، ٢٩٥ ـ ٢٩٧؛ فتوح البلدان ، ص ٢٥٤؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

١ ـ الجهاد في سبيل الله:

أخذ عثمان قسماً من أموال الزكاة وأنفقه في تموين الجيوش وتوسيع رقعة الفتوح ، وكان يَـرد تلك الأموال إلى بيت المال إذا اتسعت الموارد الأخرى لردِّه ، ومن حق الإمام أن يقترض من مصرف لمصرف آخر . مع العلم بأن رأياً وجيهاً لعلماء الأمة يَعتبر أن (الجهاد) أحدُ مصارف الزكاة الثمانية ومندرج تحت قوله تعالى : ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦٠][(١)] .

٢ ـ موائد الخير في رمضان:

ومما سَنَّه عثمان أنه صنع للناس (موائد رمضان) وجَمع عليها الفقراء وغيرهم ، وقال: (للمتعبد الذي يتخلَّف في المسجد وابنِ السبيل والمعترِّين بالناس في رمضان)[(٢)] .

٣ ـ إنشاء منازل الضيافة:

ومما أحدثه ذو النورين من سُنن الخير أنه بَلَغه أن أبا سَمَّال الأَسَديَّ في نَفَر من أهل الكوفة ينادي مناديهم في السوق ـ إذا قدم المُيَّار وهم جالبو الطعام ـ: من كان هاهنا من القبائل ليس لقومهم بها منزل؛ فمنزلُه على أبي سَمَّال. فاتخذ عثمانُ بعضَ الدور كمنازلَ للضيافة ، ينزل بها الغرباء ممن ليس لهم منزل ، ومن تلك الدور في الكوفة دار عبد الله بن مسعود ، فكان الأضياف ينزلون داره في هذيل إذا ضاق عليهم ما حول المسجد[(٣)] .

---

(١) السياسية المالية لعثمان ، قطب إبراهيم محمد ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٤٦ . **المُعْتَرّ**: المعترِض للسُّؤال ، اعتَرَّه وعَرَّه إذا تعرَّض لِما عنده أو طلبه .

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧٣ .

٤ ـ التوسعة على المملوكين:

للمملوك نصيب في أموال الزكاة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠] ، وقد استغرقتْهم خيرات الدولة في عهد عثمان؛ فكان مما زاد عثمان الناسَ على يده أن ردَّ على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة دراهم في كل شهر يتسعون بها ، من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم[١].

٥ ـ إنفاق خمس الغنائم في وجوهه المشروعة:

بعد النبي ﷺ يتولى الخليفة إنفاق (خمس الغنائم) ، وهو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده ، فيعطي منه قرابة النبي ﷺ باجتهاد ، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين. وبه قال الخلفاء الأربعة ، وبه عملوا[٢].

وعليه يدل قوله ﷺ: «**يا أيها الناسُ ، إنه ليس لي من هذا الفَيْءِ شيءٌ إلا الخُمُسَ ، والخُمُس مردودٌ عليكم**»[٣].

٦ ـ الإنفاق على الحج ومرافقه:

كان الإنفاق العام على الحج في عهد أمير المؤمنين عثمان من بيت المال ، وكانت كسوة الكعبة من القَبَاطي وهي ثياب من كَتَّان من نسيج مصر[٤].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٨/ ١٤.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٩٤)؛ والنسائي في الكبرى (٤٤٢٥) ، وحسنه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٤) السياسة المالية لعثمان ، قطب إبراهيم محمد ، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

٧ ـ نفقات الإعمار والمرافق المتنوعة:

وشهد عهد عثمان توسعاً واضحاً في النفقات على مشاريع إعمار المساجد ، وتسبيل الماء ، والعناية بالموانئ ، وحفر الأنهار والقنوات، وبناء الثغور ، وترميم الحصون ، وبناء الجسور ، وغير ذلك من المرافق العامة في مختلِف ولايات الدولة ، كما سنوضحه في حديثنا عن (المؤسسة العمرانية والاقتصادية) .

٨ ـ المرتبات والأرزاق:

وهذا باب واسع يستهلك أموالاً ضخمة ، ويشتمل هذا المصرف : رواتب الولاة ، وقادة الفتح والجنود ، والأئمة والمؤذنين ، والقضاة ، والمعلمين ، وعامة موظفي الدولة في مؤسساتها المختلفة .

ومن أمثلة ذلك : كتاب عثمان إلى والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح : (قد علمتَ كيف كان همُّ أمير المؤمنين ـ عمر ـ بالإسكندرية ، وقد نَقَضت الرومُ مرتين ، فألْزِم الإسكندريةَ رابطتَها ، ثم أَجْرِ عليهم أرزاقَهم ، وأَعْقِبْ بينهم في كل ستة أشهر)[١] .

٩ ـ نفقات المؤسسة العسكرية:

استأثرت المؤسسة العسكرية بمبالغ كبيرة من مصروفات الدولة ، وذلك لضخامتها وكثرة أقسامها واتساع مجالاتها وأعمالها .

وفي مقدمة ذلك (الأسطول البحري) في الشام ومصر ، وقد أنفق عليه الواليان معاوية وابن أبي سرح أموالاً طائلة . وكذلك تموين الجيش

---

(١) فتوح مصر ، لابن عبد الحكم ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٠٨ .

بالخيل والجمال والمُؤَن والسلاح ، وإمداد المجاهدين بما يلزمهم في السلم والحرب. وتحصين الثغور ، وتجهيز المسالح ، وإعالة أُسر الجنود ، ورواتب الجنود ، ومضاعفة الأرزاق للمرابطين في الثغور[1] .

رابعاً: فيض المال وكثرة العطاء:

●● تدفقت الأموال على خزائن الدولة ، وبَسَط عثمان يمينَه بالبذل والعطاء ، حتى عاش الناس في رغد ونعيم ورخاء ، يصوِّره شاهد عيان وهو الحسن البصري في كلمة بارعة فيقول:

(أدركتُ عثمانَ وأنا يومئذ قد راهَقْتُ الحُلُمَ ، فسمعتُه يخطب ، وما من يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً ، فيُقال لهم: يا معشرَ المسلمين ، اغْدُوا على أَعْطياتِكم . فيأخذونها وافرةً. ثم يُقال لهم: يا معشر المسلمين ، اغْدُوا على أرزاقكم[2] . فيغدون فيأخذونها وافرةً. ثم يُقال: يا معشر المسلمين ، اغدوا على كُسْوَتكم . فيُجاء بالحُلَل تُقسَم بينهم. قال الحسن: حتى والله سمعَتْه أُذنايَ يقول: اغدوا على السَّمْن والعسل! .

قال الحسن: الأَعطيات جاريةٌ ، والأرزاق دارَّة ، والعدوُّ مَنْفِيٌّ ، وذات البَيْن حسنٌ ، والخير كثير ، ما على الأرض مؤمنٌ يَخاف مؤمناً ، مَنْ لقِيه فهو أخوه مَن كان ، أُلْفَتُه ونصيحتُه ومودَّتُه)[3] .

---

(١) انظر: الحاشية السابقة.

(٢) أي: رواتبكم ، وهي غير العطاء.

(٣) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٣/ ١٠٢٣ ـ ١٠٢٤ ؛ الاستيعاب: ٣/ ٧٣ ـ ٧٤؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٦٣ ـ ١٦٤ ، وسنده صحيح.

وهذا كان له الأثر البالغ في الازدهار الاقتصادي ، ونشاط الزراعة والتجارة ، واستقرار الأمن ، والنمو السكاني ، والرخاء الواسع.

روى ابن شَبَّة عن عبد الله بن سَعْدي الصحابي قال: (كَثُر المالُ في زمن عثمان حتى بِيعَتْ جارية بوزنها ، وفرسٌ بمئة ألف درهم ، ونخلةٌ بألف درهم!)[1].

●● واستمر عثمان على هَدْي عمر في العطاء ، وطوَّر فيه ، وزاد الأَعْطيات في حالات متعددة وصور متنوعة، واستوعب جميع أفراد الأمة:

عن عروة بن الزبير قال: (أدركتُ زمنَ عثمان رضي الله عنه وما من نفسٍ مسلمةٍ إلا ولها في مال الله حقٌّ!)[2].

وهي شهادة غالية تغني عن التفصيل ، لكننا نورد بعض الأمثلة والشواهد:

قال عامر الشعبي: (أولُ خليفة زاد الناسَ في أَعْطياتهم مئةً عثمانُ ، فَجَرَتْ. وكان عمر يجعل لكل نفس منفوسة من أهل الفيء في رمضان درهماً في كل يوم ، وفَرض لأزواج رسول الله ﷺ درهمين درهمين ، فقيل له: لو صنعتَ لهم طعاماً فجمعتَهم عليه! فقال: أَشْبِع الناسَ في بيوتهم. فأقرَّ عثمانُ الذي كان صنع عمر ، وزادَ فوضَعَ طعامَ رمضان ، فقال: للمتعبِّد الذي يتخلَّف في المسجد وابنِ السبيل والمعترِّين بالناس في رمضان)[3].

---

(١) تاريخ المدينة: ٣/ ١٠٢١.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٠٢٢ ـ ١٠٢٣ ، وسنده صحيح.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦. نفس منفوسة: أي المولود.

وروى الإمام أبو إسحاق السَّبِيعي قال: (قدِم جدّي الخِيار على عثمان، فقال: كم معك من عيالك يا شيخ؟ فقال: إن معي ستين، فقال: أمَّا أنتَ يا شيخ فقد فَرَضْنا لك خمسَ عشرة ـ يعني: ألفاً وخمس مئة ـ ولعيالِك مئةً مئةً)[1].

وكانت امرأة تَدخل دار عثمان، فافتقدها يوماً، فأعلَمَه أهلُه أنها ولدت غلاماً، فأرسل إليها بخمسين درهماً وشُقَيقة سُنْبُلاَنيَّة، ثم قال: (هذا عطاءُ ابنك، وهذه كُسْوته، فإذا مرَّت به سنة رفعناه إلى مئة)[2].

وقال ابنُ سعيد بن يَرْبُوع المَخْزومي: (انطلقتُ وأنا غلام في الظهيرة ومعي طيرٌ أُرسله من المسجد، والمسجد يُبنى، فإذا شيخٌ جميل حَسَن الوجه نائمٌ، تحت رأسه لَبِنَة أو بعضُ لبنة، فقمتُ أنظرُ إليه أتعجَّب من جمالِه! ففتح عينيه فقال: مَن أنت يا غلام؟ فأخبرته، فنادى غلاماً نائماً قريباً منه فلم يُجِبْه، فقال لي: ادْعُه، فدعوتُه، فأمره بشيء، وقال لي: اقعُدْ، قال: فذهب الغلام فجاء بحُلَّة وجاء بألفِ درهم، فنزع ثوبي وألبسني الحُلَّة، وجعل الألفَ درهم فيها. فرجعتُ إلى أبي فأخبرتُه، فقال: يا بني، من فعل هذا بك؟ فقلتُ: لا أدري، إلا أنه رجلٌ في المسجد نائم لم أرَ قطُّ أحسنَ منه! قال: ذلك أميرُ المؤمنين عثمان بن عفان!)[3].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ٣١٣ ـ ٣١٤؛ المعرفة والتاريخ: ٢/ ٦٢٣.

(٢) تقدم: ص ٢٣٥ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٣) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٦٥. وسعيد بن يَرْبوع: صحابي، وقد عَمِي فأرسل له عمر بن الخطاب قائداً يرافقه لصلاة الجماعة!.

خامساً: مكملات في السياسة المالية:

١ ـ الحِمَى:

هي أراضٍ خُصصت لرعي الإبل والخيل التي تملكها الدولة ، وقد حَمَى رسول الله ﷺ (النَّقيع) ، وتبعه أبو بكر ، وجاء عمر فزادَ رقعة المناطق المحميَّة ، وتبِعهم عثمان فوسَّع أراضي الحمى وزاد فيها .

٢ ـ إقطاع الأراضي:

وهي سنة نبوية مشى عليها أبو بكر وعمر في إقطاع الأراضي للناس طلباً لاستصلاحها .

وتوسَّع عثمانُ في الإقطاع وخاصة في المناطق المفتوحة[١] ، ومن الصحابة الذين أَقْطَعهم عثمان : عبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وخَبَّاب بن الأَرَتّ ، وسعد بن أبي وقاص ، وجرير بن عبد الله البجلي ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمان بن أبي العاص[٢] .

٣ ـ ضرب النقود وتعريبها:

استخدم المسلمون في عصر الرسالة وعهد أبي بكر (الدنانير الهرقلية) و(الدراهم الكسروية) كما هي ، وفي خلافة عمر وضع المسلمون بصمتهم بإضافة نقوش عربية وإسلامية على العملات المتداولة .

---

(١) انظر ما تقدم : ص ٣٢١ في هذا الكتاب .

(٢) الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٢٩١ ، ٢٩٦ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٥٤ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

ومشى عثمان على هدي عمر في ذلك ، حيث ضرب نقوداً ونقش عليها عبارة (الله أكبر)[1] .

واقتدى بالخليفة عثمان بعضُ ولاته؛ ففي فترة ولاية عبد الله بن عامر على البصرة: ضُربت الدراهم في أنحاء فارس التابعة لولايته وعليها ألفاظ عربية ، في الفترة من سنة (٣٠ هـ) حتى سنة (٣٥ هـ)[2] .

* * *

(١) انظر : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٠٢ ـ ١٠٥ .
(٢) الولاية على البلدان ، ص ٢٦١ .

الفصل الرابع

المؤسسة الاقتصادية والعمرانية

ازدهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية في خلافة عثمان ، لكثرة موارد الدولة والمجتمع ، فتوسع عثمان في العطاء وتوزيع الأرزاق على مختلِف شرائح الرعية ، كما توسع الناس في الإنفاق والرخاء.

وكانت لعثمان (سياسة اقتصادية) متقدمة يلاحظ فيها تدبير مرافق الدولة ، وتيسير أمور التجارة والزراعة والعمارة ، وإصلاح الموانئ والطرق ، وتنظيم الأسواق ، والإنفاق على المنشآت العامة ، وتحسين المواصلات البرية والبحرية وإنشاء الخدمة اللازمة لها.

ومن أبرز ملامح الأعمال الاقتصادية والعمرانية:

أولاً: بناء المساجد والعناية بها:

- ويأتي في مقدمتها الحرمان الشريفان ، ففي سنة (٢٦ هـ) أمر عثمان بتجديد أَنْصاب الحرم ، وزاد في المسجد ووسَّعه[١].

- ووسَّع في مساحة المسجد النبوي وزاده زيادة كبيرة ، وجدَّد بناءه وجعله من الحجارة المنقوشة.

---

(١) تاريخ خليفة ، ص ١٥٩؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥١.

عن عبد الله بن عمر : (أن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مَبنِيّاً باللَّبِن وسَقْفُه الجَريدُ وعَمَدُهُ خشبُ النَّخْل ، فلم يَزِدْ فيه أبو بكر شيئاً ، وزادَ فيه عمرُ وبَنَاه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللَّبِن والجَريد وأعاد عَمَده خَشَباً. ثم غيَّره عثمانُ فزاد فيه زيادة كثيرة ، وبنى جدارَه بالحجارة المنقوشة والقَصَّة ، وجعَلَ عَمَدَه من حجارةٍ منقوشةٍ ، وسَقَفَه بالسَّاجِ)[1].

وكان هذا العمل الجليل سنة (٢٩هـ) ، وكانت القَصَّة تُحمل إلى عثمان من بَطْن نَخْل ـ شرق المدينة على مسافة (١٠٠ كم) ـ وجَعل طولَه (١٦٠ ذراعاً) وعرضَه (١٥٠ ذراعاً) ، وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر ، ستة أبواب[2].

ـ وشيَّد عَمْرو بن العاص (مسجد الرحمة) بالإسكندرية[3].

ـ ولمَّا فتح المسلمون (قبرص) أقام فيها عدد كبير منهم ، وبَنَوا فيها (المساجد) ، ونشروا فيها الإسلام[4].

ـ وفي فتوحات عبد الله بن عامر في بلاد فارس ، استعمل على (إِصْطَخر) شَريك بن الأعور الحارثي ، فبنى هذا الوالي (مسجد

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦)؛ وأبو داود (٤٥١) ، وغيرهما. **الجَريد**: أغصان النخل التي جُرد عنها الورق. **القَصَّة**: الجِصّ. **الساج**: نوع من الخشب معروف يُؤتى به من الهند.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٧.

(٣) فتوح مصر ، ص ٢٠٣.

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٤٨؛ الولاية على البلدان ، ص ٢٣٦.

إصطخر)[1]. وإِصْطَخر من أجلِّ مدن إيران، في الشمال.

ثانياً: حفر الأنهار والقنوات وتنظيم المدن:

- قام والي البصرة أبو موسى الأشعري بدورٍ مهمّ في تنظيم الري وحفر القنوات والأنهار في البصرة، حيث تمَّ حفرُ قناة لجلب مياه الشرب إلى البصرة، اعتمد عليها الناس بعد ذلك في شربهم. وبدأ في مشاريع لحفر قنوات أخرى، لكنَّ عزْلَه عن الولاية حالَ دون إتمامها، فقام الوالي بعده عبد الله بن عامر بإتمامها[2].

- وفي ولاية ابن عامر على البصرة تمَّ حفرُ العديد من الأنهر والقنوات، منها حفر (نهر الأُبُلَّة) سنة (٣٠هـ). ونظراً لانشغاله بأمور الفتوحات، أناب من يتولى شق الأنهار، فحُفِرت أنهار أخرى سنة (٣١هـ) وما بعدها[3].

ولبيان أهمية هذه الأعمال يكفي أن نعلم أن (نهر الأُبلَّة) قد بلغ طوله (٢٤ كم)[4].

وقد اعتنى عبد الله بن عامر (بسوق البصرة) وتنظيمه، حيث اشترى بعضَ الدور القريبة منه وقام بهدمها وإدخالها فيه وإعادة تنظيمه من جديد. وتدل هذه التوسعة على الرخاء الذي كانت تنعم به البصرة في أيام

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٠١.
(٢) فتوح البلدان، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩؛ الولاية على البلدان، ص ٢٥٢.
(٣) تاريخ خليفة، ص ١٦٥ ـ ١٦٦؛ فتوح البلدان، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩؛ الولاية على البلدان، ص ٢٥٨.
(٤) عصر الخلافة الراشدة، ص ٨٤.

ابن عامر ، وعلى مدى نمو السكان فيها وازدهار تجارتها ، ولعل ذلك عائد إلى كثرة فتوح البصرة في تلك الأيام ، وكثرة سكانها؛ سواء من القبائل العربية التي زادت هجرتها إليها من (البحرين) وغيرها ، أو من الفُرس الذين دخلوا في الإسلام وآثروا مخالطة المسلمين في البصرة لتعلم أمور الإسلام.

ولم تقتصر إصلاحات ابن عامر على ولايته ، بل قام بحفر بعض العيون في (نَجْد) وأقام فيها العبيد ليعملوا بالزراعة ، ومنها: (النِّبَاج)[1] التي شَقَّ فيها عيوناً وغَرس نخلاً ، وسكن بها ولده ورَهْطه من بني كُريز ومن انضم إليهم من العرب[2]. و(القريتان) بالقرب من (النِّبَاج) ، وهما بلد نَخْل بين أضعافه عيون تُعرف بعيون ابن عامر[3].

بل إن عبد الله بن عامر وسَّع مشاريعَه حتى حفر العيون قريباً من المدينة المنورة ، ووصل إلى (عرفات) واتخذ بها حِياضاً ونخلاً.

وقد ساعدت هذه الأعمال الجليلة على تأمين طريق الحاجِّ العراقي من إغارات الأعراب ، وتوفير سُبُل الحياة والراحة للمسافرين إلى مكة والمدينة[4].

ـ وعندما فتح البراء بن عازب ثَغْر (قَزْوين)؛ رتَّبَ فيهم (٥٠٠ رجل)

---

(١) يسمى حالياً (الأسياح) لا يزال عامراً بالمزارع إلى اليوم ، ويقع شمال شرق مدينة بريدة بحوالي (٦٠ كم).
(٢) معجم البلدان: ٥/٢٥٦.
(٣) المرجع السابق: ٤/٣٣٦؛ المعارف ، لابن قتيبة ، ص ٣٢١.
(٤) الولاية على البلدان ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٣٣؛ المعارف ، ص ٣٢١.

من جند المسلمين ، وعيَّن عليهم قائداً ، وأقطَعَهم أرضاً وضِياعاً لا حَقَّ لأحدٍ فيها ، فعَمَروها وأَجْرَوا أنهارها ، وحفروا آبارها[1].

ـ وفي مصر أنفق عَمْرو بن العاص أموالاً طائلة لإقامة الجسور وبناء القناطر[2].

وهكذا جرى في بقية الأمصار ، وما ذكرناه إنما هو أمثلة جادت بها المصادر وأوردَتْها قَصْداً أو عَرَضاً.

ثالثاً: بناء الثغور وترميم الحصون وشحنها بالجنود:

كان من هدي قادة الفتح أنهم إذا استولوا على حصون العدو قاموا بصيانتها وترميمها ، وإسكان المجاهدين المرابطين فيها. إضافة إلى إنشائهم تحصينات دفاعية جديدة وبخاصة في الثغور المتاخمة للأعداء.

ومن أمثلة ذلك: أن المسلمين عندما فتحوا بلاد إِرْمِينية قام معاوية بن أبي سفيان بترميم حصون: سُمَيْسَاط وقَلَطْيَة وشِمْشَاط وقالِيقَلا وغيرها ، وسكنها الجند[3].

ولما فتح حَبيب بن مَسْلَمة مدينة (قاليقلا) ، بعث معاوية إليه ألفي رجل ، فأسكنهم تلك المدينة ، وأقطَعَهم بها القطائع ، وجعلهم مرابطةً بها[4].

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨؛ الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية: ٢/٤٦٩.

(٢) فتوح مصر ، ص ١٧٧ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٤٧ .

(٣) من تاريخ التحصينات ، لمحمد عبد الهادي ، ص ٤٣٤ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٨٨ .

وفعل مثلَه البراء بن عازب في (ثغر قَزْوين)[1].

وحين فتح سعيد بن العاص (طَمِيسة) سنة (٣٠هـ) ، وهي آخر حدود طَبَرسِتان من ناحية خراسان ، جعل بها مرابطة من ألفي رجل ، وعيَّن عليهم قائداً[2].

وغير ذلك من (التحصينات) التي أُنشئت في الثغور وكانت تُشحن بالجنود ، لحماية حدود الدولة الإسلامية.

رابعاً: إنشاء مرفأ جُدَّة:

وهو من مآثر عثمان رضي الله عنه في مجال تخطيط المدن وبناء المرافئ تسهيلاً للتجارة وخدمة للناس.

وما عُرفت (جُدَّة) إلا في عهد أمير المؤمنين عثمان ، فقد كانت قرية صغيرة تسكنها قُضاعة قبل الإسلام ، وكان الميناء المعروف في ذلك الوقت (الشُّعَيْبة) ، هو مرفأ مكة ومرسى سُفنها. وقد اشتكى الناس إلى عثمان ما يلاقونه من التعب في هذا الميناء لكثرة (الشعاب المرجانية) التي تعيق حركة السفن ، وطلبوا منه أن يجعل (جُدَّة) ميناء لمكة بدلاً من (الشعيبة).

فخرج أمير المؤمنين عثمان إلى (جُدَّة) ، ورأى موضعها ، وأمر بجعل جدة ميناء لمكَّة ، ومنذ ذلك اليوم عُرفت جدة واشتهرت لدى الناس.

---

(١) تقدم: ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٢) معجم البلدان: ٤/ ٤١ ؛ الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية: ٢/ ٤٦٩ .

ومما يُذكَر أن عثمان عند قدومه إلى جدّة نزل إلى البحر واغتسل ، وأمر قومه بالاغتسال فيه كذلك وأن يتخذوا المئزر عليهم .

و(الشُّعيبة) لا تزال إلى اليوم ، وهي معروفة ، وتقع جنوب جدة على مسافة (٦٨ كم)[١] .

* * *

(١) التاريخ القويم : ٦/٣٠٥؛ وانظر : المعالم الأثيرة ، ص ٨٨ ، ١٥١ .

الفصل الخامس

المؤسسة العسكرية

●● لقد أرسى الرسول القائد ﷺ القواعدَ العسكرية الإسلامية ، ووضع تعاليمها النظرية والتطبيقية ، وحذَا الخلفاء الراشدون حَذْوَه في تطبيق هذه التعاليم ، ولذلك استطاعوا تحقيق أكبر الانتصارات على أقوى جيوش فارس والروم ، وفتحوا البلدان في وقت قياسي قصير[1].

وكانت القبيلة هي (الوحدة العسكرية) في ميدان القتال ، ورغم أن الروابط القَبَلية ظلَّتْ فاعلة في علاقات القبائل ببعضها وبالدولة ، إلا أن تغلغل الإسلام في المجتمع وقوة العقيدة الإسلامية في النفوس أدى إلى إضعاف الروح القبلية شيئاً فشيئاً ، فظهرت معايير وروابط جديدة على أساس المساواة والتقوى ، كذلك نشأت روابط فكرية ودينية وسياسية على حساب الروابط القبلية القديمة[2].

وكان الجيش عربيّاً في البدء ، ثم استسلمت أعداد من قوات الفرس

---

(١) النظم العسكرية ، نشأة الجيش النظامي في الإسلام ، فاروق عمر فوزي: ٢/ ٢٣٥.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٣٩؛ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، لصالح العلي ، ص ١٣٧.

والروم ودخلت في الإسلام ، ورغبت في الالتحاق بالقوات الإسلامية. وقد عاملَتْهم الدولة الإسلامية بمرونة ، فألحقَتْهم بقواتها مع احتفاظهم باستقلال وحداتهم وفِرَقهم ، وسُمح لهم إذا رغبوا بالتحالف والارتباط بالقبائل العربية ، كما أُدخِلوا ديوانَ العطاء ، ومن هؤلاء: (الحمراء) من الروم ، و(الأبناء) من أهل صنعاء ، و(الديالمة) و(القيقانية) و(الأساورة) من الفرس[1].

وقد عرف الجيش الإسلامي عدة رُتَب عسكرية تتمثل في أمير الجيش ونائبه وأمراء الكراديس وأمراء التعبئة والنقباء والعرفاء. وكان الجيش يرفع لواءً أبيضَ وراية سوداءَ ، كما كان عليه الأمر في عهد النبوة. وكان المقاتلون فرساناً ومشاة ، وكانت الدولة حريصة على تربية الخيل لأغراض الجهاد ، وتحمي لها الحمى ، ويُعطَى الفارس من الغنيمة سهمين والراجِل سهماً واحداً[2].

وكانت (التعبئة الحربية) تعتمد على نظام الصفوف ونظام الكَرَاديس ونظام الخميس؛ حيث يُقسم الجيش إلى خمسة أقسام: الميمنة والميسرة ـ وهما الجناحان ـ والقلب والساقة والمؤخرة. وكل قسم يضمُّ عدة كراديس ، ويتألف كل كُرْدُوس من ألف مقاتل وله قائده وحاشيته وراياته ، وبين كل كردوس وآخر فسحة من الأرض مناسبة تسمح بحرية الحركة والقتال.

---

(١) أنساب الأشراف ، ص ٣٦٦ ـ ٣٧٩ ؛ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ، ص ٥٩ ؛ النظم العسكرية: ٢/ ٢٤٢.

(٢) ديوان الجند ، لعبد العزيز السلومي ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٦.

وكانت الدولة تموِّن الجيش بما يلزمه من الطعام والسلاح والخيول والجمال[1].

●● وعرف الجيش الإسلامي (نظامَ الاستطلاع) ، فكان الوالي أو القائد يقوم بتوجيه بعض البعوث للاستكشاف والاطلاع على أحوال البلاد المجاورة ومعرفة قوتها ، والاستعداد لغزوها إذا أثبتت الاستخبارات أن المصلحة في الغزو. ومن ذلك أن أمير المؤمنين عثمان كتب إلى واليه عبد الله بن عامر أن يوجِّه إلى ثغر الهند مَن يَعلم عِلْمَه وينصرف إليه بخبره ، ففعل[2].

●● وكان قادة الفتوحات على درجة عالية من الكفاءة والخبرة والجرأة وتطوير أساليب القتال والدفاع والهجوم وحماية الثغور وتأمين خطوط القتال والإمدادات ، وغير ذلك من فنون الحرب.

ومن أبرع الأمثلة الشاهدة أعمالُ الوالي القائد الفاتح الوليد بن عُقْبة؛ حيث كانت له قابلية فذة على التنظيم الدقيق ، ذاك التنظيم الذي نعجب به حتى اليوم كل الإعجاب:

فقد كانت مغازي أهل الكوفة في أيامه: (الري) و(أَذْرَبيجان) ، وكان بهذين الثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ـ وذلك لاستخدامها في الدفاع الفوري ضد المعتدين على بلاد المسلمين حتى تردَّهم النَّجدات من قواعد المسلمين الأمامية في الكوفة والبصرة ـ وكان بالكوفة حينذاك أربعون ألف مقاتل ، وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرةُ آلاف مقاتل

---

(١) عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨١ ، وانظر هوامشه.

(٢) الولاية على البلدان ، ص ٢٥٨؛ فتوح البلدان ، ص ٣٨٤.

كل سنة ، فكان الرجل يُصيبه في كل أربع سنين غزوة[1].

تنظيم ما أروعَه من تنظيم: قوات في الثغور للدفاع الفوري ، وقوات احتياطية من القاعدة الأمامية للهجوم المقابل أو للفتح ، وتقسيم دقيق للواجبات ، بحيث يعرف كل شخص ما له وما عليه ومتى وكيف وأين يغزو العدو!.

تلك هي تنظيمات الوليد (التعبوية والسَّوْقية) للقضاء على تحرشات العدو الداخلي والخارجي ، فلا عجبَ إذا لم ينتقض عليه بلدٌ من البلدان حتى عُزل عن عمله.

لقد كان الوليد يطبق مبدأ (التعرُّض) في حروبه ، وقد كانت كل معاركه تعرُّضيَّة ، وكان يمتاز بتطبيق مبدأ (تحشيد القوى) بشكل ممتاز للغاية: يتخذ له مقرّاً مناسباً ، ثم يبثُّ قوة مناسبة إلى هدف مناسب ، فإذا انتهى من ذلك الهدف أرسل قوة مناسبة أخرى إلى هدف مناسب آخر ، وبذلك انتصر بيُسرٍ وسهولة على أعدائه الكثيرين في بلادهم الوعرة الشاسعة[2].

●● ويُعتبر (الأسطول البحري الإسلامي) من أبرز معالم المؤسسة العسكرية في عهد عثمان رضي الله عنه ، فقد تكونت نواته ونَمَت عدَّتُه ونجحت تجربتُه وظهرت كفاءته بصورة رائعة ، وهيمن على (البحر المتوسط) خلال مدة وجيزة، وقهر الأسطول الرومي في معارك كثيرة[3].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٤٦.
(٢) قادة فتح العراق والجزيرة ، ص ٥١١.
(٣) انظر ما تقدم: ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨ في هذا الكتاب.

●● كذلك تم إنشاء (المَسَالح) في الثغور وأطراف الدولة وحدودها مع الفرس والروم ، وبخاصة في الحدود البحرية والجُزر التي فتحها المسلمون ، كما فعل معاوية ـ مثلاً ـ عندما فتح (جزيرة قبرص) نقل إليها (١٢٠٠٠) مسلم سكنوا فيها وبنوا المساجد ونشروا الإسلام ، وأمَّنوا حدودَ الدولة من غارات الروم.

●● وكانت المعسكرات والمسالح هي عواصم الدولة الكبرى: فأعظمُ المعسكرات الشامية مركزة في دمشق وحِمْص ، ومعسكرات العراق: هي الكوفة والبصرة ، ومعسكر مصر في الفسطاط ، وفي جزيرة العرب: البحرين.

ففي هذه المعسكرات تجمعات الجنود ، ومنها تنطلق البعوث والجيوش والإمدادات.

واهتمت الدولة ببناء الحصون وترميمها وإصلاحها وشحنها بالجنود ، وكذلك نظام غزوات الصيف والشتاء التي عرفت (بالصوائف والشواتي).

وتميزت (قطع الجيش) بخفَّة الحركة وسرعة النجدات للمناطق التي تكون جبهاتها عاتية وعدوها شديداً ، يستوي في ذلك حركة الإمدادات والنجدات البرية والبحرية.

●● ومن المعالم البارزة للمؤسسة العسكرية في عهد عثمان أن الخليفة تميز (بمركزية القرار في الإطار العام) ، وذلك بتحديد الأهداف الكبرى لولاة الأقاليم وتعيينِ كبار القادة والاضطلاعِ بأمور السياسة الاستراتيجية أو السياسة العليا (وفقاً للمصطلحات الحديثة) ، وتركِ أمور

إدارة الحرب على مستوى العمليات لولاة الأقاليم ، وكان على أمير المؤمنين اختيارُ القادة الذين يَعهد فيهم توافرَ الإمكانات القيادية الجيدة[1] . وكذلك تنسيق التعاون بين الجبهات ، وتأمين الدعم والإمدادات للقوات على الجبهات المختلفة .

وعثمان في هذا يشبه أبا بكر الصديق حيث كانت (اللامركزية) ظاهرة بوضوح في سياسته وممارسته ، كذلك فإنه يتماهَى مع روح عصره واتساع رقعة دولته وتباعد أطرافها عن مركز القرار في العاصمة ، ويفسح المجال للكفاءات أن تُبرِز مهاراتها في ميادين الفتح حسب معطيات الساعة الراهنة والتكتيكات المطلوبة لكل حالة[2] .

* * *

---

(١) ذو النورين القائد ، بسام العسلي ، ص ١٣٧ .
(٢) انظر ما تقدم : ص ٢١٥ ـ ٢١٨ في هذا الكتاب .

الفصل السادس

المؤسسة الإدارية

أولاً: معالم النظم الإدارية في العهد الراشدي:

●● اتضحت معالم (النظم الإدارية) في خلافة عمر بن الخطاب ، وصار التمييز واضحاً بين الوالي والقاضي وكاتب الديوان وغيرهم من الموظفين والعمال ، سواء في العاصمة أو الأمصار.

واستمر الأمر كذلك في عهد عثمان.

وكان الوالي يعتمد على عدد من الموظفين في تسيير أمور الولاية: مثل قائد الشرطة ، وعمال الخراج ، وموظفي بيت المال ، وموظفي الدواوين ، وأحياناً يكون الموظف على بيت المال في الولاية مستقلاً عن الوالي ومرتبطاً بالخليفة مباشرة[1].

وهناك الموظفون المسؤولون عن (مؤسسة الزكاة) ، والمسؤولون عن (خزائن الدولة) في العاصمة وبقية البلدان ، والموظفون المشرفون على (مؤسسة الجِزية) من حيث تقديرُها وجبايتُها ، و(العشارون) وهم بمرتبة موظفي الجمارك في عصرنا ، ورجال آخرون عملُهم مساحة أرض

---

(١) الولاية على البلدان ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ ، ٤٣٦؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٤٦.

(الخَرَاج) وتقدير الأموال المترتبة عليها وتحصيلها ، وكذلك كتبة الدواوين وتوزيع العطاء ، ورجال الشرطة ، ومسؤولو الحِسْبة ، ومشرفون وظيفتهم مراقبة الأسواق وحركة البيع والشراء والأسعار والاحتكار ، والقضاة المتفرغون للقضاء أو الذين جمعوا بين الإمارة والقضاء ، والأمراء المسؤولون عن قوافل الحج وتسييرها من الأمصار إلى مكة والمدينة ، والعرفاء والنقباء (المدنيون والعسكريون) فالعريف مسؤول عن قبيلته أو عن جماعة من الناس ، وفي الجند يكون مسؤولاً عن فئة منهم.

ومن الموظفين في الدولة: الأئمة والمؤذِّنون والمعلمون ، والكُتَّاب والرسل ورجال البريد الذين يحملون الكتب والرسائل من الخليفة إلى الولاة والقادة والقضاة ، ومنهم إليه ، وكذلك موظفو (الحِمى) الذي أُعِدَّ لإبل الصدقة وخيول المجاهدين[1].

ثانياً: أبرز التراتيب الإدارية:

●● ومما يميز الدولة الإسلامية ويُبرز شخصيتها المستقلة امتدادُ (التراتيب الإدارية) لتشمل وَضْعَ الأنظمة وسَنَّ القوانين التي تواكب التطور وتستوعب المستجدات وتضبط حركة الشعوب والمجتمعات؛ ومن أبرز ذلك:

١ ـ وضع التاريخ الهجري:

وهو يعتبر نقلة حضارية ميزت الدولة الإسلامية عن غيرها ، فكما امتازت بعقيدتها ، كذلك استقلت بتأريخها الذي يطبع هويتها وحضارتها

---

(١) انظر: كتابي «عمر بن الخطاب» ، مبحث الشؤون الإدارية.

بسمةٍ مميزة لا تزال تُعرف به إلى الآن ، مباينةً في ذلك التأريخ المسيحي والفارسي وغيرهما.

وكان وَضْع هذا التاريخ في عهد الفاروق عمر ، واستمر في خلافة عثمان وإلى الآن[١].

٢ ـ خاتم الدولة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (صَنَعَ النبيُّ ﷺ خاتَماً ، قال: «**إنا اتخذنا خاتَماً ونقشنا فيه نقشاً ، فلا يَنْقُشْ عليه أحدٌ**». قال: فإنِّي لأرى بَرِيقَه في خِنْصَرِه)[٢].

وكان هذا الخاتم من فضة ، ونَقْشُه: (محمد رسول الله) ، قد اتخذه رسول الله ﷺ وكان يَخْتِم به الكتبَ إلى الملوك والولاة وأمراء السرايا ، ثم كان في يد أبي بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، وسَقط منه لستٍّ سنين من خلافته في (بئر أرِيس)[٣]. فالتُمِس الخاتَمُ فلم يُوجَد ، فأَمَر عثمانُ بخاتَمٍ مثلِه ، ونَقَشَ فيه (محمدٌ رسولُ الله)[٤].

٣ ـ نظام البريد وموظفوه.

٤ ـ نظام العُرفاء والنُّقباء:

وقد شمل هذا النظام الأمصارَ المختلفة ، وهو يساعد الوالي في

---

(١) انظر: كتابي «عمر بن الخطاب» ، مبحث الشؤون الإدارية.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٧٤)؛ ومسلم (٢٠٩٢) ، وغيرهما.

(٣) انظر: الفتح: ١٣/ ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٨؛ تكملة فتح الملهم: ٤/ ٧٩ ـ ٨٠.

(٤) البخاري (٥٨٦٦)؛ ومسلم (٢٠٩١)؛ والنسائي في الكبرى (٩٤٧٨) ، وغيرهم.

توزيع العطاء ، وضبط المجتمع ، وتسليم المطلوبين للقضاء ، وتجنيد المقاتلين ، ومعرفة آراء الناس ، وتمثيلهم أمام الوالي[(١)] .

٥ ـ نظام البيوع والتجارة:

وُضِعت في عهد عمر ضوابط للمعاملات التجارية ودخولِ البضائع والمواد الغذائية وغيرها ، وفُرِضَت العشور (الضرائب) ، وكذلك مراقبة الأسواق ، ومنع الغش والاحتكار والتلاعب بالأسعار ، ونحو ذلك. واستمر هذا في خلافة عثمان .

٦ ـ أنظمة في الشؤون المالية:

ابتُـكِرت أنظمة كثيرة لضبط موارد الأموال ومصارفها ، وتمَّ تعيينُ الموظفين لإدارة شؤون الزكاة والخَراج والجزية والغنائم والعشور ، وتدوين الدواوين وتوزيع العطاء ، والإشراف على خزائن الدولة وبيوت المال ، وضَرْب النقود . . . وكان ذلك امتداداً لما تمَّ في عهد عمر[(٢)] .

٧ ـ اتخاذ منازل للأضياف[(٣)].

٨ ـ إدارة ولايات الدولة وأمصارها.

اختار عثمان الولاة الأكفاء ، وكان يتعاهدهم بالمتابعة والمكاتبة ، وسؤال الناس عنهم ، والاجتماع بهم في المواسم ، وفسح لهم مجالاً

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٤٨٨ ، ٤/٤٨ ـ ٤٩ ؛ الولاية على البلدان ، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٧ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٢) انظر : كتابي «عمر بن الخطاب» ، مبحث الشؤون الإدارية .

(٣) تقدم: ص ٣٢٢ في هذا الكتاب .

واسعاً من حرية التصرف ضمن (السياسة اللامركزية)[1].

ومن الموظفين في عهد عثمان:

١ ـ زكريا بن جَهْم بن قيس (صاحب شرطة مصر).

٢ ـ خارجة بن حُذافة العدوي (صاحب شرطة مصر).

٣ ـ عبد الله بن قنفذ (صاحب الشرط).

٤ ـ حُمران بن أبَان (حاجب).

٥ ـ عبد الله بن أرقم (بيت المال).

٦ ـ مروان بن الحَكَم (كاتب ديوان الخلافة).

٧ ـ جابر بن عَمْرو المُزني (خراج السواد).

٨ ـ سِمَاك الأنصاري (خراج السواد).

٩ ـ عُقْبة بن عَمْرو (بيت المال).

١٠ ـ أربعون من السيابجة (حراس بيت مال البصرة)[2].

* * *

---

(١) سيأتي تفصيله في (الباب التاسع).

(٢) ولاة مصر، ص ٣٣؛ عصر الخلافة الراشدة، ص ١٥٣ ـ ١٥٤؛ وانظر: طبقات ابن سعد: ٤/ ٣٢.

الفصل السابع

المؤسسة التعليمية

أولاً: أسس عامة:

أعاد الإسلام صياغة الإنسان وبناء شخصيته على الإيمان والعلم ، كما تجلَّى ذلك في توجيهات القرآن وعملِ النبي ﷺ ، حتى إذا جاء عصر الخلفاء الراشدين وخاصة عهدَيْ عمر وعثمان؛ اتسع نطاق التعليم وامتد رُوَاقُه ليشمل الكتاتيب وحلقات العلم ومجالسه في المساجد وفي دور العلماء .

وظهرت جذورُ المدارس الفكرية والعلمية المتنوعة ، متمثلة بمدرسة أبي موسى الأشعري في (القراءات) في البصرة ، ومدرسة عبد الله بن مسعود في (الفقه) في الكوفة ، ومدرسة عبد الله بن عباس في (التفسير) في مكة ، والمدرستين البصرية والكوفية في (النحو) .

واتسم التعليم في ذَيْنَك العهدين بسماتٍ راقية وبارزة تجلَّتْ في : (**حرية التعليم**) ، وكان دور الدولة هو الإشراف والرعاية والدعم والنفقات ، وثانياً (**مجانية التعليم**) ، وثالثاً (**التعليم للجميع**). واستمرت هذه المبادئ قروناً طويلة ، كان التعليم خلالها شعبيّاً بما تحمله هذه

الكلمة من معنى ، يناله الغني والفقير ، بل إن حظَّ الفقراء فيه أعظمُ من حظ الأغنياء[1]!.

ثانياً: موضوعات التعليم:

انتشرت القراءة والكتابة في عصر عمر وعثمان وما بعدهما بصورة واسعة ، وقد كانت الوسيلة الغالبة لنشر العلم هي السماع والمشافهة والاعتماد على الذاكرة التي اشتهر بها العرب.

وعرف المسلمون أنماطاً عالية وتخصصات دقيقة من العلوم المختلفة والتي تمثلت موضوعاتها في: **القرآن وعلومه** ، **والحديث** ، **والفقه** ، **واللغة العربية** ، **والتاريخ** ، **والأنساب** ، **والشعر** ، **والقصص** ، **والحِكَم** ، **والأمثال**.

وأسهمت جماهير غفيرة من الصحابة والتابعين في نشر العلم وتفتيح العقول وتثقيف عامة المسلمين والشعوب التي دخلت أفواجاً في دين الله تعالى[2].

١ ـ تمَّ (جمعُ القرآن الكريم) في عهد عثمان ، ونُسخت منه عدة نُسخ وُزِّعَتْ على الأمصار ، وأصبحت (أئمةً) لكل المصاحف التي انْتَسَخَها المسلمون ، وسينتسخونها إلى قيام الساعة[3].

---

(١) انظر: كتابي «عمر بن الخطاب» ، المؤسسة التعليمية؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٧١ ، ٢٧٦.
(٢) انظر: كتابي «عمر» ، المؤسسة التعليمية؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٠٤.
(٣) تقدم تفصيل ذلك: ص ٢٤٥ فما بعدها في هذا الكتاب.

٢ ـ اعتنى المسلمون بالسُّنَّة النبوية ، وبرز أئمة أعلام من رواة الحديث من الصحابة والتابعين. وانتشر بين الناس ما في (الصحف المدوَّنة) ، مثل: الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عَمْرو ، وكُتُب أبي هريرة مثل صحيفة هَمَّام ، وصحيفة جابر بن عبد الله ، وغيرهم.

٣ ـ تنامَى النشاط الفقهي ، وبرز في الفقه أعلام كبار من الصحابة والتابعين ، وخلَّفوا ثروة فقهية ضخمة انتقلت عبر الأجيال ، وهي محفوظة في (مدوَّنات الفقه الكبيرة)[١].

٤ ـ وأما علمُ التاريخ فقد انصبَّت العناية به على السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ. يقول إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: (كان أَبي يعلِّمنا مغازي رسول الله ﷺ ، ويَعدُّها علينا ، وسراياه ، ويقول: يا بَنيَّ ، هذه مآثِرُ آبائكم ، فلا تضيِّعوا ذِكرها)[٢].

ثالثاً: شمولية التعليم ومؤسساته:

وكانت الدولة تدعم جهودَ التعليم ، وتفرض الرواتب للمعلمين والأئمة والمقرئين ، كذلك كان من واجبات الولاة نشرُ علوم الإسلام بين الناس. وقامت الدولة بإرسال بعثات تعليمية إلى الأمصار والبوادي والأماكن النائية عن مراكز الولايات ومدنها.

وشاركت المرأة في التعليم الذي شمل الكبير والصغير والذكر

---

(١) انظر: كتابي «عمر» ، المؤسسة التعليمية. وقد جمع الدكتور محمد رواس قلعجي «موسوعات فقه» الخلفاء الراشدين الأربعة وغيرهم من الصحابة وسواهم.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي ، رقم (١٦٤٨).

والأنثى. وكانت المساجد هي منارات العلم فيها تُعقد مجالسه وحلقاته، كما أُنشِئت الكتاتيب لتعليم الأطفال مفصولةً عن المساجد[1].

رابعاً: مدارس العلم ومناراته الكبرى:

١ ـ مدرسة المدينة المنورة:

هي أهم مراكز الحركة العلمية والفكرية في عصر النبوة والخلافة الراشدة، فهي دار السُّنَّة ومجتمع الصحابة، ومنها انبعث العلم وانتشر العلماء إلى كافة الأمصار. وفيها شاع ثم انتشر علمُ الخلفاء الأربعة والمكثرين من الصحابة في الحديث والفقه والفتوى، وظهرت آثارها على جميع المدارس في البلاد الإسلامية.

ومن أشهر الشخصيات: زيد بن ثابت كاتب الوحي، وأبو هريرة راوية الإسلام، وعبد الله بن عُمر، وأم المؤمنين عائشة. وجاء بعدهم الفقهاء السبعة الذين ملؤوا الأرض علماً.

٢ ـ مدرسة مكة المكرمة:

وكان دورها أقلَّ أثراً وشأناً من المدينة، وبرز أكثر في عصر التابعين. وقد عَظُم دورها لأن مكة مركز ديني وفيها اجتماع العلماء في مواسم الحج.

ويُعتبر أبرز معالمها عبد الله بن عباس (ومدرسته في التفسير والفقه والحديث واللغة) التي تركَت آثارَها على جميع المدارس. ومن مشاهير علمائها: عبدُ الله بن عمر، وكان يجلس مع ابن عباس يفتون الناس في المواسم.

---

(١) انظر: عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٩١ ـ ٢٩٩.

٣ ـ مدرسة البصرة:

بُنيت البصرة بأمرِ الفاروق عمر سنة (١٤هـ) ، وقد نزلها أكثر من (١٠٠) صحابي ، من أشهرهم: أبو موسى الأشعري ، وأنس بن مالك ، وعمران بن حُصَيْن ، نشروا فيها علوم الإسلام ، وكانت تنافس الكوفة في مختلِف العلوم.

وحسبك أن تعلم أنه قد بَلَغ الذين حفظوا القرآن على أبي موسى ثلاثَ مئة وبضعة رجال[1]. وقد سرد الإمام المِزِّي أسماءَ الذين حملوا الحديث عن أنس فبلَغوا (٢٣٠) نفساً[2].

٤ ـ مدرسة الكوفة:

بُنيت الكوفة سنة (١٧هـ) عن أمرِ عمر رضي الله عنه ، ونشأت فيها مدرسة هي من أبرز مدارس العلم ومناراته في الإسلام ، وكانت تُضاهي (مدرسة المدينة). وقد نزلها (٣٠٠) صحابي من أصحاب الشجرة و(٧٠) من أهل بدر! من أبرزهم: علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وسعد بن أبي وقاص ، وحذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارسي. . .

وعلى أيدي أولئك الصحابة نشأت أجيال ضخمة من أئمة التابعين في مختلِف علوم الإسلام ، وكان لابن مسعود أكبر الأثر فيها ، وهو صاحب مدرسة مشهورة على مرِّ التاريخ.

---

(١) أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ٥٧٦.

(٢) تهذيب الكمال: ٣/ ٣٥٤ ـ ٣٦٣.

٥ ـ مدرسة الشام:

وهي من كبريات مدارس العلم في الإسلام ، ونزلها الجَمُّ الغَفير من الصحابة ، وقد ترجم ابنُ سعد في «طبقاته» لـ (١٠٧) أنفس منهم ، نزلوا (دمشق) و(حمص) و(فلسطين) وسواها ، ومن أعلامهم: أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وعُبادة بن الصامت ، وخالد بن الوليد ، ومعاوية بن أبي سفيان.

ومن الصور الرائعة في نشاط هذه المدرسة: أن أبا الدرداء كان إذا صلى الفجر في جامع دمشق ، اجتمع الناس للقراءة عليه ، فكان يَجعلُهم عشرةً عشرةً ، وعلى كل عشرة عَريفاً يرجعون إليه إذا غَلِطوا ، ويَرجع العرفاءُ إلى أبي الدرداء. وقد أحصَوْا من كان في تلك الحلقات فبلغوا زُهاء (١٦٠٠) نفس[١]!.

٦ ـ مدرسة مصر:

كان في الجيش الذي فتح مصر طائفة من جِلَّة الصحابة وعلمائهم ، وقد نشروا علوم الإسلام هناك ، ومن أشهرهم: عبد الله بن عُمر ، وعبد الله بن عَمْرو ، وعُقْبة بن عامر.

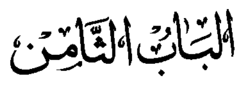
وكان عقبة مقرئاً محدثاً فقيهاً شاعراً كاتباً ، روى عنه أهل مصر حديثاً كثيراً ، مثلما روى أهل الكوفة عن ابن مسعود[٢]. وبَثَّ ابنُ عُمر وابن عَمْرو بمصر حديثاً كثيراً أيضاً.

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٤٦؛ أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ٣٨٧؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٩٨.

(٢) أعلام الحفاظ والمحدثين: ٢/ ٤٩١؛ وانظر في الكلام عن تلك المدارس: كتابي «عمر بن الخطاب» ، المؤسسة التعليمية.



الباب الثامن

الفتوحات

- أسس ومبادئ عامة
- مع قادة الفتوحات .
- الفتوحات في المشرق .
- الفتوحات في الشام .
- الفتوحات في المغرب وإفريقية .
- سمات الفتوحات وآثارها وصفات القادة الفاتحين .

* * *

الفصل الأول

أسس ومبادئ عامة

●● كانت جيوش المسلمين ترابط وتقاتل على ثلاث جبهات ضخمة متباعدة: الفرس في المشرق، والروم في الشام، والروم في إفريقية.

وكان من هَدْي أمير المؤمنين عثمان وسياسته العسكرية في الفتوحات أنه أمر الولاة والقادة بأن يُعْقِبوا بين الجيوش وكتائب المجاهدين، حيث يتناوبون في الجهاد والغزو على الجبهات، ويترك لهم أوقاتاً يستجمُّون فيها، ويتعاهدون أسلحتهم وخيولهم وأهليهم، فيكون ذلك أقوى لهم وأدعَى إلى تحملهم مشاق القتال وأرأفَ بهم وبأهليهم. ولا يلجأ إلى استمرارهم في الغزو إلا في أوقات الضرورة والحالات الطارئة.

ففي الكوفة مثلاً ـ وهي إحدى أكبر معسكرات المسلمين ـ كان فيها (٤٠٠٠٠ مقاتل)، فكان يغزو منهم (١٠٠٠٠ مقاتل) في كل سنة، فيصيب الرجل منهم كل أربع سنين غزوة واحدة[١].

وكتب عثمان إلى والي مصر وقائد جيوشها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح يأمره بأن يُلْزِم ثغرَ الإسكندرية رابطةً لا تُفارقها، ويُدِرَّ عليهم الأرزاق، ويُعْقِب بينهم في كل ستة أشهر[٢].

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٤٦.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٠٨؛ فتوح مصر، ص ٢٢٠.

●● ومن الأسس التي رسَّخَها الخليفة وأعانه الولاة والقادة في تنفيذها: تحصينُ الثغور وصيانتها وشحنُها بالمجاهدين ، وبناء الحصون وترميمها[١] . وعندما وافق عثمان على غزو البحر أمر القادة بأن يخيِّروا الناسَ ولا يُجبروهم ، وأن يتقدموهم ليكونوا لهم أسوة؛ فكتب إلى معاوية: (لا تَنتخِب الناسَ ، ولا تُقْرِع بينَهم ، خَيِّرهم ، فمن اختار الغزوَ طائعاً فاحمِلْه وأَعِنْه) ، (فإنْ ركبتَ البحر ومعك امرأتُك فاركَبْه مأذوناً لك ، وإلا فلا)[٢] .

وكانت القرارات سريعة وحازمة عند تكالبِ العدو على المسلمين ، وذلك بإرسال النجدات إلى (الجبهات الساخنة) ، ومن الأمثلة الرائعة كتابُ عثمان إلى أمير الجهاد في الجبهة الشرقية (الوليد بن عُقبة) وهو قافلٌ إلى الموصل ولم يحطّ جيشه رحالَه ، فجاءه أمر عثمان: (أما بعدُ ، فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني أن الروم قد أَجلَبَتْ على المسلمين بجموع عظيمة ، وقد رأيتُ أن يُمِدَّهم إخوانُهم من أهل الكوفة؛ فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسَه وشجاعته وإسلامَه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي! والسلام)[٣] .

●● ومن الأركان الثابتة التي استندت عليها مسيرة الفتوحات وجود (معسكرات إسلامية كبرى) تتمركز فيها الجيوش ، وتنطلق منها

---

(١) انظر ما تقدم: ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ في هذا الكتاب.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٠؛ فتوح البلدان ، ص ١٤٨ .
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

الكتائب ، كل إلى الجبهة التي تشرف عليها ، كما تتلقى الأوامر من الخليفة أو الولاة بتسيير الإمدادات والنجدات ، وأبرز تلك المعسكرات : دمشق وحمص في الشام ، الكوفة والبصرة في العراق ، الفسطاط في مصر ، البحرين في الجزيرة العربية[1] .

وبرز في (استراتيجية الفتوحات) نظامُ (الصَّوَائف والشَّوَاتي) ، وهو يعني الغزو في الصيف وفي الشتاء ، وقد عُني الخليفة بذلك وأمر بتسيير الكتائب في كل عام ، وكان يتولاها كبار قادته من أمثال معاوية حيث كان يؤمِّر القادة على قطع الجيش ويُغزيهم بلاد الروم صيفاً وشتاءً في البر والبحر ، فيقومون بالجهاد والفتح ونشر الإسلام في بلاد الروم[2] .

●● ومن أسس الفتوحات في عهد عثمان : ضبطُ حدود الدولة وإلجامُ حركات الانتقاض في أطرافها ، والذي أَطمعَهم في ذلك : مقتلُ أمير المؤمنين عمر ، فظنُّوا أن ثمَّة فراغاً سياسيّاً في رأس السلطة . كذلك بُعْدُهم عن عاصمة الخلافة ومراكز المعسكرات الإسلامية . إضافة إلى أن تلك الأطراف حديثةُ الانضمام إلى الدولة الإسلامية . وهناك عامل رابع هو الضِّغن على الإسلام من قِبل أصحاب العقائد المناوئة والقوميات المتأصلة والزعامات التي أُطيح بها ـ كل ذلك أطمعَ بعضَ الملوك والأمراء والجماعات من الفرس والروم والترك في نقض العهود ، فأحدَثوا انتقاضاتٍ كثيرة في الجبهة الشرقية في أَذْرَبيجان وإِرْمينية

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٤٦ ؛ الولاية على البلدان ، ص ٢٣٠ ، ٢٥١ ؛ عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

(٢) تاريخ خليفة ، ص ١٨٠ ؛ تاريخ الطبري : ٤/ ٢٦٠ ، الولاية على البلدان ، ص ٢٣٦ .

وهَمَذَان والرَّي وكَرْمان وغيرها. كما نهض الروم في تأجيج الثورة ضد المسلمين في الإسكندرية ، وحاولوا مثلَ ذلك في شمال البلاد الشامية! .

لكن الخليفة وقادة الفتح والمجاهدين تمكنوا من لَجْمِ تلك الانتقاضات التي لم تعدُ أن تكون بُؤَراً متناثرة لا يدعمها عمقٌ استراتيجي من أهالي تلكَ البلاد والأصقاع المجاورة.

●● والإنصافُ يقتضينا القولَ أن الفاروق عمر قد ترك دولةً مترامية الأطراف متعددة الأعراق والجنسيات والقوميات التي صُهِر كثيرٌ منها حديثاً في بوتقة الإسلام ، وإن المحافظةَ على حدود هذه الدولة ، وإرساءَ استقرارها ، والقضاءَ على المناوئين بمختلِف انتماءاتهم وأهوائهم ، وهيمنةَ الدولة على أطرافها ـ لَهُوَ عملٌ جبّار ضخم يستحقُّ الإشادةَ والإكبارَ ، كما يدل على مقدرة باهرة من الخليفة الجديد! فما بالك إذا أضفتَ إليه مدَّ رُواق الفتوحات بعيداً في الشرق والغرب ، واقتحامَ جنده عُبَاب البحار حتى هزموا أساطيل الروم؟! .

●● ونُضيف إلى ذلك بُعْداً آخرَ يُلحُّ بالسؤال وينتظر الجوابَ:

في السنوات الأخيرة من عهد أمير المؤمنين عثمان اشتعلت الفتن في ثلاثة أمصار خطيرة لها شأنها في الدولة هي الكوفة والبصرة ومصر ، وقَصدَتْ جحافلُ السبئيين المدينةَ المنورة وحاصرت الخليفة وأنهت المأساة بقتله ـ فلماذا لم يَحدث أي انتقاضٍ في هذه الظروف العصيبة في أطراف الدولة التي زادت رقعتُها؛ حيث عاصمة الخلافة في أمرٍ مَرِيجٍ ، ومركز القرار في اضطراب ، والخليفة عثمان وكبار مستشاريه قد أُحِيط بهم وشُغلوا بتلك الفتنة الجامحة؟! لماذا تقاعَسَت بقايا الفرس وجَبُنت

قوى الروم ، فلم ينتهزوا الفرصة لإشعال الثورات والانتقاضات على الدولة الإسلامية ، لاسترداد مجدِهم الغابر؟!.

لسنا مع هيكل[1] في إرجاع ذلك بشكل رئيس إلى تصدُّع قوى الروم وتلاشي شأن الفرس! نعم هذا له دور بلا ريب ، لكن الأسباب الأبرزِ والأقوى تتمثل في أن: شعوب البلدان التي فتحها المسلمون قد أمضتْ سنينَ طويلة من الدخول في الإسلام ، وترسخت أقدامُها في الدين الجديد ، وتماهَتْ مع عقائده ومبادئه ، وتفيَّأتْ ظلال رحماته ، فأصبحت من لُحْمته ، بل حمل أهلُها رايته واندفعوا مجاهدين فاتحين. والذين كانوا يدفعون الجزية قد رأوا من مبادئ الإسلام ومعاملة الفاتحين ما أغراهم بالاستمساك بعهودهم ، بل ومناصرة المسلمين ضد مَنْ على ملَّتهم من الرومان وغيرهم كما أثبتت وقائع التاريخ. ويضاف إلى ذلك قوة الدولة وهيبتُها ، والزخم الدفّاع الذي تغلغل في عروق الولاة والقادة والجند الفاتحين ، مما لمسه أهل تلك الأمصار. كذلك (اللامركزية) التي انتهجها عثمان قد أعطت بُعْداً آخرَ زاد من قوة الولاة وهيبتهم وسيطرتهم على مقاليد الأمور في بلدانهم. هذا فضلاً عن السِّيَر الرائعة والمواقف الإنسانية الخالدة التي سطرها قادة الفتح والجند المجاهدون ، والمعاملة الرفيعة النبيلة التي عاشها أهل البلاد المفتوحة ، وشهد لهم بها العدو والصديق.

هذه أمور ترسخت في مدن الدولة وأطرافها وحواضرها وبواديها ، وعاش الناس في أمن وعدل ورخاء ، فلم يَنتهض إلى الثورة أو الانتقاض

---

(١) عثمان بن عفان ، ص ٩٧ ـ ٩٨.

مشهورٌ ولا مغمور ، ولا كبير أو صغير ، في ظروف هي أنسَبُ ما تكون للانتقاض والانقضاض على عاصمة الخلافة ، لكن التاريخ أثبت عكس ذلك .

●● ومن الأسس والمعالم الكبرى في (تاريخ الفتوحات): أن الخليفة عثمان بعد أن قضى على حركات الانتقاض ، وأَمَّن حدودَ الدولة؛ وجَّه أوامره وكتبه إلى الولاة والقادة بمتابعة الفتوحات على جميع الجبهات ، وضَمَّ الغزوَ في البحر إلى القتال في البر ، وتراحبت الفتوح شرقاً وغرباً وجنوباً ، وبقيت جذوتها متّقدة إلى قُبيل استشهاده بسنتين ، حيث تشير أخبار المؤرخين الثقات إلى غزوات كثيرة في (سنة ٣٣ هـ) في المشرق ، وإفريقية في المغرب ، وحتى الحبشة في الجنوب[١] .

وتوسعت الدولة الإسلامية ، وبَلَغت الرسالة المحمدية مشارقَ الأرض ومغاربـها ، وظهر للناس مصداقُ قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ ﴾ [النور: ٥٥][٢] .

* * *

(١) تاريخ خليفة ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ، وسيأتي تفصيل ذلك .

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ٢٠١ .

الفَصْلُ الثَّانِي

مع قادة الفتوحات

أولاً: كتب وأوامر وتوجيهات:

أوضح أمير المؤمنين عثمان في الأيام الأولى من خلافته (برنامجه السياسي والعسكري) فكتب إلى القادة وأمراء الأجناد في الثغور:

(أما بعد ، فإنكم حُماة المسلمين وزادَتُهم ، وقد وَضَع لكم عمر ما لم يَغِب عنّا ، بل كان عن ملأ منّا ، ولا يَبلُغَنِّي عن أحد منكم تغييرٌ ولا تبديل فيغيِّرَ الله ما بكم ويَستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيامَ عليه)[١].

وتوالت كتبه إلى الولاة والقادة في أمصارهم ، فكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح يأمره بحماية (ثغر الإسكندرية) ، وأن يقيم فيه الجند المرابطين ، ويغدق عليهم الأرزاق[٢].

وجمع لمعاوية بن أبي سفيان الشام والجزيرة ـ بين نهري دجلة والفرات ـ وثغورهما ، وأمره أن يَغزو شِمْشَاط أو يُغزِيها[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٥.

(٢) تقدم: ص ٣٥٧ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

(٣) فتوح البلدان ، ص١٧٦. **وشمشاط**: مدينة مشهورة قديماً ، تقع الآن في تركية.

وكتب إلى حَبيب بن مَسْلَمة يأمره بغزو إِرْمِينِية ، فنَهض حبيب في ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة ، وأتى قالِيقَلا ففتحها ، وبلَغه أن العدو قد جمعوا له جمعاً عظيماً ، فكتب إلى عثمان يسأله المددَ ، فأرسل عثمان لساعته إلى معاوية بأن يُمدَّه بجيش من أهل الشام والجزيرة ، فبعث إليه معاوية بألفَي رجل. كما كتب عثمان إلى والي الكوفة سعيد بن العاص يأمره بإمداد حبيب بجيش عليه سَلْمان بن ربيعة الباهلي وهو سلمان الخيل ، فسار سلمان في ستة آلاف من أهل الكوفة[1] .

وفي سنة (٣٢هـ) كتب إلى سعيد بن العاص أن يُغزي سلمانَ بن ربيعة (الباب)[2] .

وكتب إلى الوليد بن عقبة في الموصل بالعراق أن ينجد معاوية بالشام بجيش قوامه (٨ ـ ١٠ آلاف رجل)[3] .

والكتب كثيرة سيأتي المزيد منها عند حديثنا عن الفتوحات .

ثانياً: في الأمور الكبرى كان القادة لا يقضون شيئاً دون الخليفة:

كان من سياسة عثمان مع الولاة وقادة الفتح أنه على تواصل مستمر معهم ، يكتب لهم الكتب ويأمر بإرسال النجدات ، ويوجه القادة ضمن الأُطر العامة للقتال والفتح ، ويترك لهم الخيار في التنفيذ وتعيين القادة

---

(١) فتوح البلدان ، ص١٨٧ ـ ١٨٨ .
(٢) تاريخ الطبري: ٤ / ٣٠٤. الباب: هي (باكو) عاصمة أذربيجان ، وتقع على بحر قزوين.
(٣) المرجع السابق: ٤/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

الفرعيين وأمراء أقسام الجيش ونحو ذلك.

وفي الأمور الكبرى لا يَقْضون شيئاً دون علم عثمان، بل يستأمرونه ويستشيرونه ويكتبون إليه ويستنجدون به للإمدادات وغيرها.

ومن أوضح الأمثلة موقفه من معاوية في (غزو البحر وبناء الأسطول)، فأذِن له بعد إلحاحٍ وقناعة، واشترط عليه أن يخيِّر الناسَ، وأن يكون هو وزوجته في مقدمتهم.

ولمَّا أَجْلَبت الروم بجموع عظيمة على معاوية، كتب إلى الخليفة يستمدُّه، فلَبَّاه في ذلك وأمر الوليد بن عقبة بنجدته.

وكتب ابن أبي سَرْح إلى عثمان يستأذِنُه في غزو إفريقيَّة، فأَذِن له، وكان عثمان متوقفاً في غزوها، ثم استشار في ذلك وعزم عليه، وكتب إلى ابن أبي سرح يأمره بغزوها، وأمدَّه بجيش عظيم، كما سيأتي.

وقد سطَّر القادة والجند في طول مدة خلافة عثمان أروعَ صور الطاعة للخليفة والتطاوع فيما بينهم؛ فإنه على طول سِنِي الخلافة واتساع رقعة الفتوح وكثرة الجبهات والوقائع ـ لم يسجِّل التاريخ أي خلاف منهم على عثمان أو افتئات عليه أو انقلاب على أوامره أو عصيان لتوجيهاته. والحادثة الفذة التي وقعت بين جند الشام بقيادة حبيب بن مَسْلمة وجند العراق بقيادة سلمان بن ربيعة ـ الذين جاؤوا مدداً لهم ـ بشأن تقاسم الغنائم؛ قد حَكَم فيها الخليفة وكتب إليهم: (إن الغنيمة باردة لأهل الشام)! وأمرهم أن يقاسِموا إخوانَهم الذين جاؤوا مدداً لهم، فلما ورد كتاب عثمان على حبيب قرأه على جند أهل الشام، فقالوا: السمع

والطاعة لأمير المؤمنين! ثم إنهم قاسَموا أهلَ العراق ما غنموا[1].

ثالثاً: إمدادات الجيوش:

وهذا الأمر من كبار مهمات الخليفة في (إدارة حركة الفتوحات)، وقد كان عثمان دائمَ التواصل مع الجبهات، سريعاً في تلبية النجدات، حازماً في اتخاذ القرارات وتنفيذها، بعد مداولتها مع أصحاب الرأي.

- وقد تقدم ما ذكرنا من توقُّفِه في التوسعِ في فتح إفريقيَّة، حتى استشار مَن عنده في المدينة، وأبرم رأيه، وأمدَّ ابنَ أبي سرح بجيش عظيم فيه عدد من أبطال الصحابة[2].

- وفي معركة ذات الصَّوَاري البحرية أمر معاويةَ في الشام بإمداد ابن أبي سَرْح في مصر، فلبى معاوية[3] وأرسل مراكبَ الشام بقيادة بُسْر بن أبي أَرْطاة[4].

- ولما جاشَتِ الروم على معاوية بالشام، استنجد بالخليفة، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة في العراق أن يُمدَّ معاوية بجيش فيه (٨ ـ ١٠ آلاف مقاتل)، ففعل.

رابعاً: الشورى في الفتوحات:

كان عثمان يستشير مجلس الشورى وذوي الاختصاص في فتح البلدان وتسيير الجيوش، وأمر قادة الفتح أن يلزموا هذا النهج

---

(١) فتوح البلدان، ص١٨٨؛ الفتوح، لابن أعثم: ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.
(٢) انظر: فتوح البلدان، ص ٢١٢.
(٣) وفي رواية: أن معاوية خرج بنفسه قائداً لجيش الشام.
(٤) فتوح مصر، ص ٢١٧ ـ ٢١٨؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

ولا يتفردوا بالقرار دونه أو دون مشاورة وجوه المجاهدين والجنود.

ـ ففي (الجبهة الغربية) وقد استأذن ابن أبي سَرْح في فتح إفريقية ، قام عثمان باستشارة الصحابة في الفتح والإعداد والتنفيذ ، ثم نَدَب الناسَ لغزو إفريقية ، فلما تكاملَتْ جموعهم أمَّر عليهم الحارث بن الحَكَمَ ووجَّهه بالجيش إلى مصر[(١)].

وفي فتوحات الأحنف بن قيس في (طَخَارُسْتان) ، وقد جمع أهلُها له الجموعَ ، فاستشار الناسَ فاختلفوا؛ فبينَ قائلٍ: نرجع إلى مرو ، وقائل: نرجع إلى أَبْرَشَهْر ، وقائل: نُقيم نستمدّ ، وقائل: نلقاهم فنناجزُهم! وفي هَدْأة الليل جالَ الأحنف بين خيام العسكر ، فسمع جنديّاً يقول لزملائه برأي سديد في منزل جيش المسلمين ، فأخذ به الأحنف ، وكان الفتح[(٢)]!.

وكان القائد المظفر حَبيب بن مَسْلَمة الفِهْري يستشير جنده ، ويعقد جلسات للنظر والشورى ، وفي إحدى وقائعه مع الروم وقد تكاثروا عليه وبات ينتظر المَدد ، قام يتفقد عسكره ، فسمع رجلاً يقول لأصحابه: لو كنتُ ممن يَسمع حبيبٌ مشورته لأشرتُ عليه بأمر ، يجعل الله لنا ولدينه نصراً وفرجاً إن شاء الله! فاستمع حبيب لقوله وهو يحدث أصحابه ، وانصرف فعمل برأيه ، ففتح الله عليهم[(٣)].

وفي فتوح إفريقية وقتال المسلمين جُرْجير وجيشه ، أشار عبد الله بن

(١) فتوح مصر ، ص ٢١٠.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/٣١١ـ٣١٢.
(٣) مختصر ابن عساكر «ترجمة حبيب»: ٦/١٩٠ ـ ١٩١ ، وذكر القصة بتمامها.

الزبير على قائد الجيش ابن أبي سرح أن يأمر منادياً ينادي: مَن أتاني برأس جُرجير نَفَّلتُه مئة ألف وزوّجتُه ابنته واستعملتُه على بلاده! وأشار أيضاً بقتال العدو ، وأن يتركوا من الجند كتيبةً صالحة في خيامهم ، حتى إذا ملَّ الطرفان من القتال وعادوا إلى معسكراتهم؛ قامت تلك الكتيبة ففاجأت العدو ، فهزموه. ففعل القائد ذلك ، وكان النصر(١).

خامساً: كفاءة قادة الفتوحات ، وقائمة بأسماء مشاهيرهم:

بنظرة متأنية منصفة لأعمال قادة الفتح وبطولاتهم وسِيَرهم على جميع الجبهات؛ يتضح للباحث كفاءةُ أولئك الأماجد وتميّزُهم وحسنُ اختيار الخليفة لهم. وقد أثبتت حقائق التاريخ ومسيرة الفتوحات أنهم جميعاً كانوا من الممتازين المميَّزين بقدرتهم القيادية ، وحسنِ سياستهم لجندهم ولأهل البلاد المفتوحة ، فلم يَشْكُهم أحد من الرعية أو من مسلمة الفتوحات. ولقد خاضوا غمار البحار ، وقطعوا الفيافي وجابوا الجبال والوديان ، فما انتكست لهم راية ، ولا هُزم لهم جَمْع(٢).

وهذه قائمة بأسماء مشاهير قادة الفتوح في البر والبحر:

١ ـ معاوية بن أبي سفيان.

٢ ـ عَمْرو بن العاص.

٣ ـ حذيفة بن اليمان.

٤ ـ جرير بن عبد الله البَجَلي.

---

(١) ذو النورين القائد ، ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سيأتي تفصيل (صفات الفاتحين وكفاءتهم): ص ٤٠٨ وما بعدها في هذا الكتاب.

٥ ـ القعقاع بن عَمْرو .

٦ ـ الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط .

٧ ـ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح .

٨ ـ حبيب بن مَسْلمة .

٩ ـ سعيد بن العاص .

١٠ ـ عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي .

١١ ـ سلمان بن ربيعة الباهلي .

١٢ ـ الأحنف بن قيس .

١٣ ـ عبد الله بن عامر بن كُرَيْز .

١٤ ـ مُجاشِع بن مسعود .

١٥ ـ عقبة بن نافع .

١٦ ـ عبد الرحمن بن سَمُرة .

١٧ ـ عبد الله بن قيس الجاسي .

١٨ ـ الأشعث بن قيس .

١٩ ـ عثمان بن أبي العاص .

٢٠ ـ الأسود بن كُلثوم .

٢١ ـ عبد الله بن شُبيل .

٢٢ ـ عبد الله بن نافع بن عبد القيس .

٢٣ ـ عبد الله بن نافع بن الحُصَين .

٢٤ ـ عبد الله بن خازم .

* * *

الفصل الثالث

الفتوحات في المشرق

في عهد الفاروق عمر فُتحت بلاد فارس ووصل الفاتحون إلى أقصاها ، وتوغلوا في أراضي خراسان ، وبعد استشهاده انتَقَضت بعض الأمصار القصيَّة ، فاستلم الراية عثمان وقامت جيوشه بتأديب المنتقِضين وضبط حدود الدولة الإسلامية ، ثم تابعوا الفتوحات.

أولاً: في أَذْرَبِيجان والرَّي[1](سنة ٢٤ هـ أو ٢٥ هـ):

فتحتا في خلافة عمر ، وانتقضت الرَّي وكذلك انتقضت أَذْرَبِيجان أكثر من مرة ، ثم استقر فتحها واستسلم مؤرِّثو الفتنة لقوة الإسلام ، وهذا ما يفسر ما ذكره المؤرخون من فتحهما أكثر من مرة على يدي غير واحد من قادة الفتح. وتمَّ فتحُ هذين المِصرين الكبيرين واستقر أمرهما في صدر خلافة عثمان ، سنة (٢٤هـ) أو (٢٥هـ)[2].

ويذكر الطبري وغيره أن مغازي أهل الكوفة كانت الرَّيّ وأَذْرَبِيجان ،

---

(١) **أَذْرَبِيجان**: كلمة فارسية معناها أرض النار أو معابد النار ، سُميت بذلك لكثرة معابد النار فيها. وهي إقليم واسع يقع شمال غرب إيران ، من أهم مدنه: تبريز. **والري**: هي حاليّاً من مدن إيران وتبعد عن طهران (٥٠ كم).

(٢) تاريخ خليفة ، ص ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣.

وكان بهذين الثغرين (١٠٠٠٠ مقاتل) من أهل الكوفة ، (٦٠٠٠) بأَذْرَبِيجان و(٤٠٠٠) بالري. وكان بالكوفة إذ ذاك (٤٠٠٠٠ مقاتل) ، يغزو ذَيْنَك الثغرين منهم (عَشرةُ آلاف) في كل سنة ، فيُصيب الرجل منهم كل أربع سنين غزوة واحدة.

فغزا الوليد بن عقبة في ولايته على الكوفة (أَذْربيجان) و(إِرْمِينِية) ، فبعث سَلْمان بن ربيعة الباهلي أمامه مقدمةً له ، وخرج الوليد في جماعة الناس وهو يريد أن يُمعِن في أرض إرمينية ، فمضى في الناس حتى دخل أذربيجان ، فبعث عبد الله بن شُبيل الأَحْمسي في (أربعة آلاف) ، فأغار على أهل (مُوْقان والبَبْر والطَّيْلَسان) ، فأصاب من أموالهم وغَنِم ، وأقبل إلى الوليد.

ثم إن الوليد بن عقبة صالحَ أهلَ أذربيجان على (٨٠٠ ألف درهم) ، وهو ما كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان في عهد عمر ، وخَضَعوا للوليد ، وبثَّ فيمن حولهم من أعداء المسلمين حملاته العسكرية. ولما رجع إليه عبد الله بن شُبيل ظافراً ، بعث سلمانَ بن ربيعة الباهلي إلى (إِرْمِينية) في (اثني عشر ألفاً) سنة (٢٤هـ) ، فأَوْغَل في أرض إرمينية وبَسَط عليها سلطان الإسلام ، ورجع إلى الوليد وقد ملأ يديه. فانصرف الوليد وقد ظفر وحقق هدفه[١].

وولَّى الوليد الأشعثَ بن قيس على أَذْرَبِيجان.

ولم يلبث الموتورون من الفرس أن حرَّكوا أهلَ أذربيجان فانتقضوا ، فكتب الأشعث إلى الوليد يستمدُّه ، فأمدَّه بجيش عظيم من أهل الكوفة ،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٤٦ ـ ٢٤٧؛ فتوح البلدان ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

فتتبع الأشعث أوكار الفتنة والانتقاض فهزمهم ، فطلب أهلها الصلح ، فأعطاهم ذلك على مثل صلح حذيفة بن اليمان وعُتْبة بن فَرْقد.

وخشي الأشعث أن يعيدوا الكَرَّة فينتقِضوا ، فوضع (حامية من العرب) وفَرض لهم أَعْطيات وسَجَّلهم في الديوان ، وأمرهم بدعوة الناس إلى الإسلام. ولما ولي الكوفة سعيد بن العاص ، عاد أهل أذربيجان فتمردوا على واليهم ، فبعث سعيد إليهم جرير بن عبد الله البَجليَّ ، فقتل رئيسَهم وهزمهم ، ثم استقرت الأمور بعد أن دخل أكثر شعبها في الإسلام ، وتعلموا القرآن الكريم.

وأما (الرَّيّ) فإن أمير المؤمنين عثمان كتب إلى أبي موسى الأشعري عندما ولي الكوفة ، يأمره بإرسال جيش ليكبح تمرُّدَها ، فبعث إليها قَرَظة بن كعب الأنصاري فأعاد فتحها[1].

ثانياً: فتح طَبَرِسْتان وجُرْجَان[2] (سنة ٣٠ هـ):

كان أمير المؤمنين عثمان يرغِّب الولاة والقادة بالجهاد وفتح البلاد ، فكتب إلى والي الكوفة سعيد بن العاص ووالي البصرة عبد الله بن عامر: أيكما سَبَق إلى خُراسان فهو أميرٌ عليها! فاستَبَق الواليان؛ ففتح ابنُ عامر خراسان ، وفتح سعيدٌ طَبَرِسْتان[3].

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤؛ تاريخ خليفة ، ص ١٥٧.

(٢) **طَبَرِسْتان**: تعني بلاد الجبل ، بلاد واسعة تقع اليوم شمال إيران وجنوب بحر قزوين ، وتسمى مازَنْدَرَان. **جُرْجَان**: إقليم مشهور يقع في أقصى شمال إيران جنوب شرق بحر قزوين.

(٣) فتوح البلدان ، ص ٣٠٩؛ تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦١.

وشَمَّر سعيد بن العاص للجهاد وخرج غازياً بنفسه على رأس جيش عظيم قاصداً خُراسان ، وكان معه في جيشه: حذيفة بن اليمان ، والحسن والحسين ابنا علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عَمرو ، وعبد الله بن الزبير ، في ناس من الصحابة ، وكان عبد الله بن عامر والي البصرة قد انبعث منها يريد ما أراد سعيد من خُراسان ، فسَبَق سعيداً إليها ، ونزل سعيد (قُوْمِس)[1] وهي على صلح حذيفة في عهد عمر ، ثم أتى (جُرْجان) فصالحها ومضى منها إلى (طَمِيسة) ـ وهي مدينة على ساحل بحر قزوين ـ من بلاد طَبَرِسْتان في تخوم جُرْجان ، فقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى صلَّى بالمسلمين صلاة الخوف ، وقال لحذيفة: كيف صلى رسول الله ﷺ؟ فأخبره حذيفة ، فصلَّاها وهم يقتتلون! ويومئذ ضَرب سعيدٌ رجلاً من المشركين على حَبْل عاتقه فخرج السيف من تحت مِرْفقه ، وحاصروهم حتى سألوا سعيداً الأمان ، فأعطاهم ذلك ، وفتحوا الحصن ، وعاد سعيد إلى الكوفة[2] .

ثالثاً: هروب يَزْدَجِرد آخر ملوك الفرس ثم مقتله (٣١ هـ):

وكان المسلمون خلال فتوحاتهم يطاردون يَزْدَجِرد آخرَ ملوك الفرس الذي كان يجمع فُلول قومه لقتال المسلمين وطردِهم من بلاد فارس ، إلا أن عبد الله بن عامر ضيَّق عليه ودَمَّر عليه تدبيرَه ، فكانت الفتوحات في فارس وخُراسان موجَّهة للفتح ولمطاردته ، فأصبح يزدجرد شريداً طريداً

---

(١) إقليم واسع في ذيل جبال طبرستان.

(٢) تاريخ خليفة ، ص ١٦٣ ، ١٦٥؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠؛ عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص ٢٠٢.

لا يكاد يَـقرّ له قرار. وكان من نتيجة تلاحق الفتوح وانهزام جند الفرس وإصرار ابن عامر في طلب يزدجرد؛ أن قام بعض الفرس بقتل يزدجرد بسبب نزاع نَشِب بينهم ، وذلك سنة (٣١ هـ).

والروايات في مقتله كثيرة ومتضاربة[١].

ودخلت عامة بلاد فارس في سلطان الإسلام ، وتحقق قول النبي ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» ، وقد شرحت ذلك في كتابي «نبوءات الرسول ﷺ».

رابعاً: فتوح خُرَاسان وسِجِسْتان[٢] :

●● كانت البصرة تحت إمرة أبي موسى الأشعري حيناً من خلافة عمر ، وحيناً من خلافة عثمان ، فلما اختلَف عليه أهلُها وهو خارج بهم لقتال أهل (إِيْذَج) والأكراد لانتقاضهم ، عزلَه عنها عثمان وولَّى مكانه ابنَ خاله عبدَ الله بن عامر بن كُرَيْز وهو يومئذ في فتوة الشباب ، وقوة الفتوة ، لم تزِدْ سنُّه على خمس وعشرين سنة ، وفيه قال أبو موسى لأهل البصـرة: (يـأتيكـم غـلام خَـرَّاج ولاَّج ، كـريـمُ الجـدَّات والخـالات والعمات ، يُجمع له الجنْدان)! وقد جمع له عثمان جندَ أبي موسى

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٩٣ ـ ٣٠٠؛ البداية والنهاية: ٧/١٥٨ ـ ١٥٩؛ الولاية على البلدان ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) خراسان: معناها بلاد الشمس المشرقة ، وهي بلاد واسعة القسم الأكبر منها ـ الآن ـ في أفغانستان ومن مدنها بلخ وهراة ، وقسم في إيران ومن مدنها نيسابور ، وقسم في روسية ومن مدنها مرو. **وسجستان**: إقليم أعظم من خراسان وأكبر مساحة ، ويقع الآن في الجنوب والجنوب الغربي لأفغانستان ويمتد إلى بعض مناطق إيران الشرقية إلى الجنوب منها.

الأشعري ، وجندَ عثمان بن أبي العاص الثقفي من عُمَان والبحرين.
وكانت فارس قد جاشَتْ وانتَقضَتْ بأميرها عُبيد الله بن مَعْمر ، فاجتمعوا له بِإصْطَخْر ، والتقوا معه على بابها ، فهُزم ابنُ معمر ، وقُتل. وبلَغ خبرُه عبدَ الله بن عامر ، فاستنفر الناس فنفروا معه ، وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص الثقفي ، فالتقى الجمعان بإصْطَخْر ، فقتل ابنُ عامر منهم مقتلة عظيمة ، وفتح إصطخر عَنْوة ، ثم فارقهم إلى مَنْ حولهم ، فعادوا إلى الانتقاض والثورة ، فعاد إليهم ، وأوقع بهم وقعة تكافئ غدرَهم ، ووطئهم وطأة لم يزالوا منها في ذل ، وكتب بذلك إلى عثمان.

●● وكانت خراسان قد انتَقَضت بعد استشهاد عمر ، فلما فرغ عبد الله بن عامر من إصْطَخْر وما جاورها ، سار إلى خُراسان وعلى مقدمته الأحنف بن قيس ، فأتى (الطَّبَسَيْن) وهما حِصنان وبابا خراسان ، فصالحه أهلُهما. فسار إلى (قُهُسْتان) ، فلقيه أهلها وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم ، فقدِم عليها عبد الله بن عامر وصالح أهلها.

ووجَّه ابنُ عامر الأحنفَ إلى (طَخَارُسْتان)، فأتى الموضع الذي يُقال له : قصر الأحنف وهو (حصن مَرْو الرُّوذ) ، وله رُسْتاق عظيم ـ والرستاق مجموعة القرى ـ فحصر الأحنف أهلَه ، فصالحوه على ثلاث مئة ألف درهم. ومضى الأحنف إلى (مَرْو الرُّوذ) فصالح أهلها بعد قتال شديد ، وسيَّر سريةً استولت على (رُسْتاق بَغْ) ـ ويُقال لها : بَغْشُور ـ وصالحتْ أهلَه.

وجمع أهل (طَخَارُسْتان) للأحنف؛ فاجتمع أهل (الجُوْزْجَان) و(الطَّالَقَان) و(الفَارِياب) ومن حولهم فبلغوا ثلاثين ألفاً ، وجاءهم أهل (الصَّغَانيان) وهم من الجانب الشرقي من نهر جَيْحون ، فالتقوا ودارت

رحى معركة قاسية ، وانهزم الفرس وحلفاؤهم ، وطاردهم المسلمون وأوقعوا فيهم خسائر فادحة.

ولحق بعض العدو (بالجُوْزَجَان) ، فوجَّه الأحنف إليهم الأقرعَ بن حابس التميمي في خيل ، فسارع الأقرع ولقي العدوَّ بالجوزجان ، فكانت بالمسلمين جولة ثم عادوا فهزموا عدوَّهم وفتحوا الجوزجان عَنْوة.

واستعاد الأحنف فتح (الطَّالَقان) صلحاً ، وفتح (الفارياب) ، ثم سار إلى (بَلْخ) فصالحه أهلها أيضاً ، فسار إلى خُوَارَزْم وهي على نهر جَيْحون ، فلم يَقدر عليها ، فاستشار أصحابه ، فأشاروا عليه بالعودة إلى بَلْخ.

وهكذا استعاد الأحنف فتح خراسان ثانية.

●● وأما سِجِسْتان: فكان ابتداءُ فتحها في خلافة عمر ، لكن أهلها نقضوا العهد من بعده ، فلما توجَّه عبد الله بن عامر إلى خراسان سنة (٣١هـ) سيَّر إليها من كَرْمان الربيعَ بن زياد الحارثي ، فقَطع مفازة شاسعة مقدارها (٧٥ فرسخاً) ـ أي: ما يعادل (٤١٥,٨ كم) ـ ونزل المدنَ والقرى والرَّسَاتيق وفتحها صلحاً أو عَنْوة.

ومن جهة أخرى بعث عبدُ الله بن عامر الصحابيَّ القائد مجاشعَ بنَ مسعود السُّلَمي إلى (كابُل) فغزاها ، فصالحه حاكمها. ودخل مجاشع بيتَ أصنامهم وأخذ جوهرة جليلة من عين أكبر تلك الأصنام وقال: لم آخذْها إلا لتعملوا أنه لا يَضرّ ولا ينفع!.

واستعمل ابن عامر مجاشعاً على كَرْمان وأمره بمحاربة أهلها وكانوا

قد نكثوا أيضاً ، ففتح (بِيَمنْد) عَنْوة واستبقى أهلَها وأعطاهم أماناً ، وأتى (الشِّيرجَان) وهي مدينة كرمان ففتحها عنوة أيضاً. وسار في أرض كَرمان ودوَّخ أهلها، وفتح المدن والجبال، وهرب كثير من أهلها، فأقطع العربَ منازلَهم وأراضيهم ، فعمروها واحتفروا لها الأقنية وأدّوا العشر فيها.

ولم يتوقف الصراع على جبهة الشرق ، فقد جمع قارِن ـ مَرْزُبَان من الفرس ـ جيشاً من أهل الطَّبَسَيْن وباذَغَيس وهَرَاة وقُهُسْتان ، حتى بلغ جمعُه أربعين ألفاً، فتوجَّه إليه عبد الله بن خازم في أربعة آلاف، فقتل قارنَ وهَزم أصحابه، وأصابوا سبايا كثيرة. وكتب إلى عبد الله بن عامر بالفتح، فأقرَّه على خراسان أميراً، فبقي عليها حتى قُتل عثمان بن عفان[1].

خامساً: فتح الباب وبَلَنْجر وحرب الترك[2](٣٢ هـ):

في أواخر خلافة عمر وصلت فتوحات المسلمين في بلاد المشرق حتى (باب الأبواب) وهي (الدَّرْبَنْد) ، وتقع على بحر قَزْوين (الخَزَر) غرباً ، وفي جنوبه يقع (ميناء باكو) حاليّاً.

وقطع عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي بجيشه (باب الأبواب) وقاتل الترك وأوغَلَ في بلاد بَلَنْجر مئتي فرسخ (١١٠٠ كم)!.

وكتب عثمان إلى والي الكوفة سعيد بن العاص أن أغزِ سلمانَ بن

(١) ما كتبته ملخص من: تاريخ خليفة، ص ١٦١ ـ ١٦٨؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ، ٣٠٠ ـ ٣٠٢ ، ٣٠٩ ـ ٣١٦؛ فتوح البلدان ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ، ٣٦٣ ـ ٣٦٧؛ قادة فتح بلاد فارس ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ، ٢٢٦ ـ ٢٢٨ ، ٢٥٧ ـ ٢٥٨؛ ومعاجم البلدان.

(٢) أخبر النبي ﷺ بأن المسلمين سيقاتلون الترك ، وقد شرحت ذلك في كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٧.

ربيعة (الباب) ، وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة رسالة جاء فيها : (أما بعد ، إنَّ الرعية قد أبطرَ كثيراً منهم البطنة ، فقصِّر ، ولا تقتحم بالمسلمين ، فإني خاشٍ أن يُبتلوا)! فلم يزجر ذلك عبدَ الرحمن عن غايته ، فغزا سنة تسع من خلافة عثمان (٣٢هـ) حتى إذا بلغ بلنجر ، حصروها ونصبوا عليها المجانيق والعَرَّادات[١] ، فجعل لا يدنو منها أحد إلا أعنتوه أو قتلوه.

ولما تتابعت الغزوات على الخَزَر ، تذامَروا وتعايروا وقالوا: كنا أمة لا يقوم لنا أحد ، حتى جاءت هذه الأمة القليلة ، فصِرْنا لا نقوم لها! فقال بعضهم لبعض: إن هؤلاء لا يموتون ، ولو كانوا يموتون لما اقتحموا علينا ، وما أُصيب في غزواتهم أحد! قالوا: أفلا تجربون؟ فَكَمنوا في الغِياض ، فمرَّ بأولئك الكمين مُرَّار من الجند ، فرموهم منها ، فقتلوهم.

ثم إن الترك اتعدوا يوماً ، فخرج أهل بلنجر ، وتوافت إليهم الترك ، فاشتد قتالهم ، ونادى مناد من الجو: صبراً آل عبد الرحمن وموعدكم الجنة ، فقاتل عبد الرحمن حتى قُتل ، وانكشف الناس. وأخذ سلمان بن ربيعة الراية فقاتل بها ، ونادى المنادي من الجو: صبراً آل سلمان بن ربيعة! فقال سلمان: أو ترى جزعاً؟!.

وقام سلمان بحركة بارعة لإنقاذ الجيش ، فخرج به ومعه أبو هريرة وسلمان الفارسي ، فمروا على (جِيْلان) فقطعوها إلى (جُرْجان) منسحباً من معركة خاسرة ، بعد أن دفن أخاه عبد الرحمن في نواحي بلنجر ،

---

(١) من آلات الحرب ترمي بالحجارة المرمى البعيد.

وبهذا الانسحاب أنقذ سلمان بقية باقية من جيش أخيه.

وهذا الانسحاب أشبهُ بقتال المسلمين يومئذ ، وذلك في حالة اشتداد الضغط عليهم من العدو، وتكبُّدهم خسائر فادحة في الأرواحِ، والانسحاب هو من أجل الانحياز إلى فئة من المسلمين ، ليعيدوا الكَرَّة ثانية على عدوهم. والمؤرخون القدامى كانوا يستعملون تعبير: (الهزيمة) وهم يريدون بها تعبير (الانسحاب) ، ذلك لأن أكثرهم مدنيون لا يفرِّقون بين هذين التعبيرين: (الهزيمة) تركُ ساحة القتال دون نظام ولا قيادة ، فهي كارثة ، و(الانسحاب) تركُ ساحة القتال وفق خطة مرسومة بقيادة واحدة ، فهو ـ أي: الانسحاب ـ صفحة من صفحات القتال ، الهدف منه إعادة الكَرَّة على العدو بعد إكمال متطلبات المعركة عَدداً وعُدداً[1].

وهكذا امتدت فتوحات جيوش أمير المؤمنين عثمان في المشرق إلى الشمال والغرب حتى أعماق بلاد الترك فدخل (بحر قزوين) في الدولة الإسلامية ، وإلى الجنوب الشرقي حتى أعماق أفغانستان وحدود باكستان ، وأضيفت إلى تلك الأصقاع (إرمينية) ، وسيأتي الحديث عنها في الفصل التالي.

* * *

(١) ما كتبته في هذه الفقرة ملخص من: تاريخ الطبري: ٤/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦؛ تاريخ خليفة ، ص ١٦٣؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠؛ قادة الفتح الإسلامي في إرمينية ، ص ١٥١ ـ ١٥٣.

الفَصْلُ الرَّابعُ

الفتوحات في الشام

أولاً: معسكر الشام وأعماله:

في عهد أمير المؤمنين عثمان جُمعت بلاد الشام كلها تحت إمرة الصحابي المجاهد معاوية بن أبي سفيان ، وقد قام مع جميع ولاة أمصار الشام وقادة الفتح بأعمال جليلة من تثبيت حدود الدولة وقمع حركات الانتقاض ، وإمداد الجبهات الأخرى بالمجاهدين ، ومدِّ رُوَاق الفتوح على جبهته العريضة ، وإنشاء الأسطول البحري وغزو البحر وفتح عدة جُزُر ، وتسيير غزوات (الصوائف والشواتي) ، وكان معاوية يخرج أحياناً قائداً لبعض الغزوات[1] .

ثانياً: فتوحات حبيب بن مَسْلَمة الفِهْري في إزمِينِية (سنة ٢٤ هـ):

إِزْمِينية بلاد واسعة أفسحُ بكثير من رقعة إرمينية التي نعرفها اليوم ، فهي إقليم كبير في آسية الصغرى جنوب القفقاز بين أنجاد إيران والأناضول غرباً ، وبين بحر قزوين ومسيل نهر الفرات الأعلى. وهو مقسم بين ثلاث دول: إيران وتركية والاتحاد السوفييتي (سابقاً) .

---

(١) انظر: تاريخ خليفة ، ص ١٨٠؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٠؛ الولاية على البلدان ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

كانت قوات المسلمين قد غزت (الباب) و(إِرْمِينية) سنة (٢٢هـ) في عهد الفاروق عمر ، وتولى قيادة الغزو سُراقة بن عَمْرو وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي. واستمرت الغزوات في عهد عثمان؛ ففي سنة (٢٤هـ) بدأت الجيوش الإسلامية بالتوجه إلى إرمينية ، وكان أول جيش يقصدها من الشام أقربِ الولايات الإسلامية إليها ، وعلى رأسه الصحابي حَبيب بن مَسْلَمة صاحب الماضي المجيد في الجهاد والفتوحات ، وكان قوامه (ثمانية آلاف مقاتل).

فقد كتب عثمان إلى معاوية يأمره بأن يُغزي حبيبَ بن مَسْلَمة في أهل الشام (إرمينيةَ) ، فوجَّهه إليها ، فبلغ حبيباً أن (المَوْريان الرومي) قد توجه نحوه في (ثمانين ألفاً) من الروم والترك ، فكتب بذلك حبيب إلى معاوية ، فكتب معاوية به إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى سعيد بن العاص يأمره بإمداد حَبيب بن مَسْلمة ، فأمدَّه بسلمان بن ربيعة في (ستة آلاف). وكان حبيب صاحبَ كيد ، فأجمع على أن يبيِّت[1] المَوْريان ، فسمعَتْه امرأتُه أم عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك ، فقالت له: فأين موعدك؟ قال: سُرادق الموريان أو الجنة! ثم بَيَّتَهم ، فقَتَل من أشرف له ، وأتى السُّرادق فوجد امرأته قد سَبَقت! وكانت أول امرأة من العرب ضُرب عليها سرادق[2].

وتذكر رواية أخرى: أن عثمان كتب إلى عامله بالكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط: (أما بعد ، فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ

---

(١) أي: يوقع به ليلاً بغتة.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٤٨ ـ ٢٤٩؛ فتوح البلدان ، ص ١٨٨.

يخبرني أن الروم قد أَجلبتْ على المسلمين بجموع عظيمة ، وقد رأيتُ أن يُمدَّهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضَى نجدته وبأسَه وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي والسلام)[١] .

فلبى الوليد أمر الخليفة لساعته وانتَدَب الناسَ لغوث إخوانهم من أهل الشام على جبهة الروم ، فانتدب خلق كثير انتظموا في جيش قوامه (ثمانية آلاف مقاتل) ، تحركوا في اليوم الثالث من وصول كتاب عثمان إلى الوليد ، فمضوا حتى دخلوا أرض الروم مع أهل الشام .

ورجح البَلاذُرِي الرواية الأولى ، والنتيجة واحدة ، حيث اجتمع جيشا الشام والكوفة ، وواجهوا الروم صفّاً واحداً ، وهزموهم وافتتحوا حصوناً كثيرة ، وملؤوا أيديهم من الغنائم[٢] .

وقد دخلت مناطق إرمينية لأول مرة تحت سلطان الإسلام في عهد عثمان ، وتعد هذه الولاية الضخمة الواسعة إضافة جديدة أضافها عثمان للدولة الإسلامية ، وقد اختلفت الروايات في تاريخ فتحها[٣] .

ثالثاً: معاوية يغزو الروم فيبلغ عمورية وأنطاكية (٢٥ هـ):

لما تمَّ أمرُ الشام كله لمعاوية تجهز بنفسه لغزو الروم في سنة (٢٥هـ) ، فسار في جموع المسلمين حتى بلغ (عَمُّورية) ، ووجد

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .
(٢) فتوح البلدان ، ص ١٨٨ ؛ تاريخ الطبري : ٤/ ٢٤٨ .
(٣) الولاية على البلدان ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

الحصون التي بين (طَرَسُوس) و(أنطاكية)[1] خالية ، فجعل عندها جنداً من أهل الشام والجزيرة ، وأغزى يزيدَ بن الحرّ العبسي الصائفةَ. ولما فرغ معاوية من غزوه هَدَم الحصون القريبة من أنطاكية كي لا يستخدمها الروم ضده[2].

رابعاً: فتح جزيرة قبرص (٢٨ هـ):

ذكرنا أن معاوية بن أبي سفيان ألحَّ على أمير المؤمنين عثمان بأهمية خوض المسلمين غمارَ الحروب البحرية ، فوافق عثمان على ذلك. وبهذا فإن معاوية أدرك بعبقريته العسكرية أنه من المحال ضمان الاستقرار للدولة الإسلامية ، ما لم يتمَّ حرمانُ الروم من حرية العمل العسكري ، وذلك بمجابهتهم في الغزو البحري الذي ينفردون به ، والحدِّ من قدرتهم البحرية ، وجاءت وقائع المواجهات في سواحل الشام ومصر لتؤكد هذه الحقيقة.

ومن أجلِّ الأعمال العسكرية البحرية التي تمت في خلافة عثمان: (فتحُ قبرص) ، وقد جاءت فيها بشارة نبوية جليلة ، تحققت على يدي جيش الشام بقيادة معاوية.

عن أنس بن مالك قال: (كان رسول الله ﷺ إذا ذهب إلى قُبَاءٍ ، يدخل على أم حَرَام بنت مِلْحَان فتطعمُه ، وكانت تحت عبادة بن الصامت. فدخل يوماً فأطعَمَتْه ، فنام رسول الله ﷺ ، ثم استيقظ يضحكُ ، قالت: فقلتُ: ما يُضحِكُك يا رسول الله؟ فقال: «**ناسٌ من**

---

(١) المدن الثلاث من المدن التركية الآن ، وأبعدها (عمورية) جنوب غرب أنقرة.

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٥٩ ؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥٠.

أمتي عُرِضُوا عليَّ غزاةً في سبيل الله ، يركبون ثَبَجَ هذا البحر ، ملوكاً على الأَسِرَّة ـ أو قال: مثلَ الملوك على الأسرَّة » ، قلت: ادْعُ الله أن يجعلني منهم ، فدَعَا. ثم وضع رأسه فنام ، ثم استيقظ يضحك ، فقلتُ: ما يُضحِكُك يا رسول الله؟ قال: «ناسٌ من أمتي عُرِضُوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله ، يركبون ثَبَجَ هذا البحر ، ملوكاً على الأَسِرَّة ، أو: مثلَ الملوك على الأسرَّة» ، فقلتُ: ادْعُ الله أن يجعلَني منهم ، قال: «أنتِ من الأَوَّلِينَ». فركبتِ البحرَ زمن معاوية ، فصُرِعَتْ عن دابّتها حين خرجتْ من البحر ، فهلكَتْ)[1].

خرج معاوية بجنده وركبوا في مراكب كثيرة ، ويَمَّموا شَطْر (جزيرة قبرص) ، وكان في الجيش طائفة من جِلَّة الصحابة ، منهم معاوية ومعه زوجته فاختة بنت قَرَظَة ، وعبادة بن الصامت ومعه زوجه أم حَرَام بنت مِلْحَان ، والمِقداد بن عَمْرو ، وشدَّاد بن أوس ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغِفَاري.

ونزلوا على سواحل قبرص ، وأرسلوا إلى أهلها أنهم ما جاؤوا للاستيلاء على بلادهم ، وإنما لنشر دعوة الإسلام ، وتأمين حدود الدولة الإسلامية؛ حيث إن الروم يتخذون من قبرص قاعدة لانطلاقهم وتموينهم ، فرفض أهلها الصلح باديءَ الأمر وطمعوا في نصرة الروم. فشدَّد المسلمون الحصار عليهم ، وما هي إلا مدة يسيرة حتى قبِل القبرصيون بالصلح ، فصالحهم معاوية واشترط عليهم:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٢٤) و(٦٢٨٢)؛ ومسلم (١٩١٢)؛ وأبو داود (٢٤٩٠) ، وغيرهم. **ثبج البحر**: مَتْنُه وظَهْرُه ، والمقصود بالبحر هو البحر الأبيض المتوسط.

١ ـ أن يدفعوا سبعة آلاف دينار يؤدونها للمسلمين كل سنة.

٢ ـ أن يُؤْذِنوا المسلمين بمسير عدوِّهم من الروم إليهم.

٣ ـ ألا يساعدوا الروم إذا أرادوا غزو بلاد المسلمين، ولا يُطْلِعوهم على أسرارهم.

وعند قفول المسلمين عائدين إلى الشام، قُدِّمَتْ لأم حَرَام بغلتُها فركبتْها، فوَقَصَتْها فاندقَّتْ عنقُها، فماتت شهيدة رضي الله عنها.

وبعد نحو أربع سنين من فتح قبرص وإبرام العهد مع أهلها، خان القبارصة العهد ونقضوا الصلح؛ حيث أعانوا الروم وأمدُّوا جيشهم لغزو المسلمين، فعلم معاوية بذلك، فأسرع لتأديبهم، وغزاهم في (٥٠٠) مركب، ووافاه عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح بالأسطول المصري من جانب آخر، والتقى الجيشان في قبرص، وأطبقوا على أهلها، ونازلوهم في قتال عنيف، اضطر حاكم قبرص بعدها للاستسلام والتماس الصلح مع المسلمين، فأقرَّهم معاوية على صلحهم الأول، وهذا من كمال العدل والرحمة.

لكن معاوية في هذه المرة أدخل قبرصَ في سلطان المسلمين، وبعث إليها باثني عشر ألفاً من المجاهدين، فبَنَوا فيها المساجد، ونقل كذلك جماعة من بَعْلَبكّ وبنى بها مدينة[1].

---

(١) فتوح البلدان، ص ١٤٨ ـ ١٤٩؛ تاريخ الطبري: ٤ / ٢٦٢؛ تاريخ خليفة، ص ١٦٠؛ قادة فتح الشام ومصر، ص ١٧٨ ـ ١٨٠؛ كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ١ / ١٣٦ ـ ١٤٠، ٢٨١ ـ ٢٨٨.

خامساً: فتح بعض الجُزُر في البحر الأبيض المتوسط:

تتابعت غزوات المسلمين لجزر البحر المتوسط مثل (أَرواد) و(كوس) و(رودس)، وهي التي تتحكم في المضائق البحرية. وبدأ المسلمون بجزيرة (أرواد) ـ القريبة من مدينة طَرطوس السورية ـ فهاجمتها الحملة العائدة من جزيرة قبرص، ونزل الجند المسلمون على أرض جزيرة أرواد، فاعتصم أهلُها بالقلعة، ولم تُفتح إلا في عام (٢٩هـ)، في الوقت نفسه الذي فتحت فيه جزيرة كوس. ويذكر البَلاذُري أن جزيرة أرواد فُتحت (سنة ٥٤هـ) في عهد معاوية، وكذلك جزيرة رودس[1].

ونحن نميل إلى أن جيش الشام توجَّه إلى فتح هذه الجُزر في عهد عثمان على يدي معاوية حتى يقطع نقاط تمركز الجيش الرومي وهجومه على المسلمين من البحر، وكانت الحملات تتوالى على تلك الجزر حتى تمَّ فتحها في خلافة معاوية رضي الله عنه.

سادساً: غزوات الصوائف والشواتي، وأعمال أمير البحرية عبد الله بن قيس الجاسي:

كتب أمير المؤمنين عثمان إلى معاوية يأمره بأن يُغزِي المسلمين في بلاد الروم في فصلَي الصيف والشتاء، وهو ما عُرف بنظام (الصوائف والشواتي).

فوجَّه معاوية يزيد بن الحُر العَبْسي ثم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٢١؛ الفتوح، لابن أعثم: ٢/ ١٤٥ ـ ١٤٦؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص ٣٨١.

على الصائفتين جميعاً ، ثم عزله وولى سفيان بن عوف الغامدي ، فكان سفيان يخرج في البر ، ويستخلف على البحر جُنادة بن أبي أمية ، فلم يزل كذلك حتى مات سفيان ، فولى معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ثم ولى عبيد الله بن رباح ، وشتى في أرض الروم[1].

ولزم معاوية أوامر الخليفة عثمان في غزو البحر حيث كتب إليه: (لا تنتخبِ الناس ، ولا تُقْرع بينهم ، خيِّرْهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمِلْه وأَعِنْه).

فدعا معاوية الناسَ إلى الغزو ، فلم يُكرِه عليه أحداً ، ولم يختر له أحداً ، وقد كان جند الشام أطوعَ جندٍ لأميرهم ، وأسرعَهم لتحقيق رغائبه ، فانتدبوا لِما نَدَبهم إليه ، وعقد لواء البحر لعبد الله بن قيس الجاسي ، فكان أولَ قائد بحري في الإسلام ، وكما عقد الله تعالى النصرَ بناصية خالد بن الوليد في البر جعل الظفرَ حليفَ ابن قيس في البحر ، فقد غزا الأسطول الإسلامي تحت قيادته خمسين غزاة بين صائفة وشاتية ، فلم يُهزم في واحدة منها ، ولم يغرق من جنده أحد. وكان أحدَبَ قائد على جنده ، وكانوا عنده أعزَّ جند على قائدهم ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية فيهم ، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم! حتى إذا أراد الله أن يُصيبه وحدَه خرج في قارب طليعةً ، فانتهى إلى المرقى من أرض الروم ، وعليه سُؤّالٌ يَعترُّون بذلك المكان ، فتصدق عليهم ، فرجعت امرأة من السؤّال إلى قريتها ، فقالت لرجال قومها: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى ، قالوا: أي عدوة الله! ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبَّخَتْهم ، وقالت لهم: أنتم

---

(١) تاريخ خليفة ، ص ١٨٠.

أعجزُ من أن يخفى عبد الله على أحد! فثاروا إليه فهجموا عليه فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وحده، ونجا الملاَّح حتى أُتى أصحابه، فنهضوا لقتال الروم وعليهم سفيان بن عوف الأَزدي، وأُصيب في المسلمين يومئذ. وقيل لتلك المرأة بعدُ: بأي شيء عرفتيه؟ قالت: بصدقته؛ أعطى كما يُعطي الملوك، ولم يقبِض قبضَ التجار[1]!.

سابعاً: غزو القسطنطينية (٣٢ هـ):

وفي سنة (٣٢هـ) قام معاوية بنفسه على رأس جيش وغزا عاصمة الروم (القُسطنطينية)، وهذا يعطينا دلالة قوية على قوة جيش الشام الذي قطع أرض الروم في آسية الصغرى (تركية حاليّاً)، وغزاهم في عُقر دارهم، وهدَّد عاصمتهم التاريخية، مما كان له الأثر الكبير في رفع معنويات الجيش الإسلامي[2].

* * *

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) تاريخ خليفة، ص ١٦٧؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٣٠٤؛ قادة فتح الشام ومصر، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

الفصل الخامس

الفتوحات في المغرب وإفريقية

أولاً: انتقاض الإسكندرية وإفساد الروم فيها، وإعادة فتحها بقيادة عمرو (٢٥ هـ):

●● كان والي مصر في ذاك الوقت من قِبل عثمان هو عمرو بن العاص، وتذكر بعض الروايات أن عثمان عزل عَمْراً وولى عبدَ الله بن سعد بن أبي سَرْح، فلما انتقضت الإسكندرية ونزل الروم بها، سأل أهلُ مصر عثمانَ أن يقرَّ عمرو بنَ العاص لعلمه بالحرب ومعرفته بمصر وأهلها وخبرته بمكايد الروم فيها، ففعل عثمان[1].

وهي برأينا رواية واهية لا تقف أمام النقد؛ لأن عمر أوصى الخليفة من بعده أن يُقرّ ولاته سنة، وقد فعل عثمان ذلك. ثم إن عثمان لم يكن يعزل والياً إلا عن شكاة أو استعفاء[2]، وكلاهما لم يكن من عمرو، بل كانت أمور مصر مستقيمة عليه ومستقرة أيما استقامة واستقرار[3].

---

(١) فتوح مصر، ص ٢٠٢؛ فتوح البلدان، ص ٢٠٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٤، ٢٥٣.

(٣) وقد أساء محمد حسين هيكل هنا، وجنح قلمه فتكلم بكلام ساقط بحق الصحابة الأجلاء: عمر وعثمان وعمرو! انظر: كتابه «عثمان»، ص ٦٤، ٧١، ونحن لا نشتغل بالرد عليه لسقوطه!.

ولما تمَّ فتحُ مصر في عهد الفاروق عمر ، واستقر أمر البلاد؛ أبقى الفاتح عمرو بنُ العاص مدينة الإسكندرية بحصونها المنيعة ، وأقام فيها حامية إسلامية نحو الألف رجل تحمي النظام فيها وتفرض سلطان المسلمين عليها.

وقد كَبُر على الروم أن خرجت من أيديهم مصر عامة والإسكندرية خاصة ، فكانوا يتحيَّنون الفرصة لإعادتها إلى سلطانهم ، واستغلوا مقتل عمر لظنِّهم وجودَ فراغ سياسي في سلطة الدولة الإسلامية ، فحرَّضوا مَنْ في الإسكندرية من الروم على الانتقاض ، وصادف ذلك هوى في نفوس سكانها ، فاستجابوا للدعوة ، وكاتب الرومُ المقيمون بالإسكندرية عاهلَ بيزنطة ليمدَّهم بالسفن والجنود ، وأطمعوه بالاستيلاء على الإسكندرية ، ثم يسير منها في أرجاء مصر ويستردها لتعود فتمدّ بيزنطة بخيرها الوفير.

وقد قوَّى عزمَ أهل الإسكندرية على الانتقاض وزاد من طمع الروم في عودتهم إليها؛ أن المسلمين لم يكن لهم وجودٌ في البحر ، وليس لديهم أسطول يحمي المدينة الحصينة من جهة الشمال حيث البحر المتوسط وهيمنة الروم عليه.

وجهَّز (قسطنطين) إمبراطور الروم أسطولاً ضخماً قوامه (٣٠٠ سفينة) مشحونة بكل ما يلزم من الرجال والسلاح والعتاد ، وعلى رأسهم القائد الرومي (مَنْوِيل الخَصيُّ) ، ويمَّموا شطرَ الإسكندرية حتى وصلوها وأرسَوا مراكبهم فيها. فأجابهم مَنْ بها من الروم وانضموا إليهم ونقضوا العهد الذي أُخذ عليهم ، ورفض (المقوقس) والقبطُ الانحيازَ إلى مَنْويل

وجيشه ، وحافظوا على عهدهم مع المسلمين[١] .

وهجم جيش منويل على مَسْلَحة المسلمين فقتلوا رجالَها فلم ينجُ منهم إلا القليل ، وسيطروا على الإسكندرية وذلك في الأشهر الأولى من سنة (٢٥هـ) ، ثم توجهوا إلى مدن مصر وقراها ليعيثوا فيها نهباً وفساداً ودماراً. فخرجوا من الإسكندرية ومعهم مَن نقض من أهل القرى ، فجعلوا يَنزلون القرية فيشربون خمورَها ويأكلون أطعمتَها وينتهبون ما بها. وسار جيشهم في أرجاء مصر السفلى ينتهبون القمح والثمار والأموال من قُراها لا يدافعهم مُدافع .

وأراد جيش المسلمين وعلى رأسهم الوالي القائد عمرو بن العاص أن يرى أهلُ مصر الفرقَ الشاسع بين المسلمين وعدلهم ورحمتهم وبين الروم وظلمهم وجبروتهم وتخريبهم؛ لتمتلئَ قلوبُ أهل مصر من جديد بالحب للمسلمين والكراهية للروم الغاصبين. وأراد عمرو أيضاً أن ينتشر الجيش الرومي بمصر ويسير بعيداً عن المدينة الحصينة الإسكندرية .

قال خارجة بن حُذَافة ـ أمير الجند في حصن بابليون ـ لعمرو: ناهِضْهم قبل أن يكثر مددُهم ، ولا آمَنُ أن تنتقض مصر كلها! فقال عمرو: لا ، ولكن أَدَعُهم حتى يسيروا إليَّ ، فإنهم يصيبون من مرُّوا به فيُخزي الله بعضهم ببعض .

ولما ترامى إلى عَمْرو انتقاضُ الإسكندرية ، حلف لئن أظهره الله عليهم ليهدمنَّ سورها حتى تكون مثلَ بيت الزانية تُؤتى من كل

---

(١) فتوح مصر ، ص ٢٠٢؛ فتوح البلدان ، ص ٢٠٤؛ قادة فتح الشام ومصر ، ص ١٤٣ .

مكان! فخرج إليهم عمرو في البر والبحر[1].

●● أَهمل عَمْرو الرومَ في انتشارهم وإفسادهم ، وكان ينظم بحصن بابليون جنده ويعدُّ للقتال عدّته ، فلما علم أن الروم اقتربوا من (نَقْيُوس)[2] ، خرج على رأس جيش قوامه (١٥٠٠٠ مقاتل) ، والتقى الجيشان تحت أسوار حصن نقيوس على شاطئ نهر النيل.

واستبسل الفريقان وصبر كل منهم للآخر ، وأمعن عمرو في القتال واخترق صفوف العدو فأصاب فرسَه سهمٌ فقتله ، فترجَّل عمرو وانخَرَطَ مع المشاة من جنده ، فلما رأوه أحاطوا به ، واشتدت ضراوة قتالهم ، ووَهَنَتْ عزائمُ الروم وخارت قواهم وولَّوا مدبرين يقصدون الإسكندرية ليتحصّنوا فيها من شبح الموت الذي يطاردهم! وفي طريقهم حَطّموا الجسور وأفسدوا الطرق ، فهرع القِبط من أهل القرى حين رأوا المسلمين يتعقبون أولئك الطغاة المفسدين ، فأصلحوا ما أفسده الروم ، وأَمدُّوا المسلمين بما يحتاجونه من عدة ومؤونة ، وأظهروا الاغتباطَ بما حلَّ بالروم ، مما زاد المسلمين اطمئناناً أنهم لن يُؤتَوا من خلفهم[3].

واتجه عمرو بجيشه لمطاردة فلول الروم حتى وصل الإسكندرية ، فضَرب الحصار عليها ، ونصب المجانيق وألحَّ بضربها حتى تصدعت أسوارها ، وفَتحت المدينة الحصينة أبوابها ودخلها المسلمون ، وأوقعوا في الروم القتل والأَسْر ، وفرَّ آخرون من الموت ونجَوا بالسفن عائدين من حيث أتوا ، وكان (مَنْويل الخَصيّ) في عداد القتلى. ولما توسط

---

(١) فتوح مصر ، ص٢٠٢. **والبحر** : يعني نهر النيل.

(٢) قرية بين الفسطاط والإسكندرية.

(٣) فتوح مصر ، ص٢٠٣؛ عثمان بن عفان ، لهيكل ، ص٦٩.

المسلمون المدينة أَمر عمرو بتوقيف القتال ، وفي هذا المكان الذي حَقن عمرو فيه الدماء أمر ببناء مسجد سماه (مسجد الرحمة)[١]! .

●● وجاء زعيم القبط (المقوقس بنيامين) إلى عمرو بن العاص وطلب إليه ألا يسيء للقبط لأنهم لم ينقضوا العهد ، ففعل .

وأقبل المصريون من كل حَدَب وصَوْب من أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض العهد فقالوا: قد كنّا على صلحنا ، وقد مرَّ علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابّنا وهو قائم في يديك . فردَّ عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة[٢]! .

وعادت (مصر كلها) من جديد وكذلك الإسكندرية إلى سلطان الإسلام ، واستقرت أمورها ، وذلك في سنة (٢٥هـ) ، وهي السنة الثانية من خلافة عثمان ، وذلك هو الفتح الثاني[٣] .

ثانياً: فتح إفريقية (٢٧ هـ):

●● لما استقرت مصر للمسلمين وجَّه عمرو بن العاص وجْهَه شطر إفريقية للغزو والجهاد ، فجهز إليها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح وكان من جنده بمصر ، فسار عبد الله حتى بلغ أطراف إفريقية ، ففتح وغنِم ، وعاد إلى مصر ونفسه تحدثه بفتح إفريقية فتحاً يثبِّت بها الإسلام ، فاستأذن أميرَ المؤمنين عثمانَ في غزو إفريقية ورغَّبه في فتحها ، فأذِنَ له وشجعه وقال له: إنْ فتح الله عز وجل عليك غداً إفريقية ، فلكَ مما أفاء

---

(١) فتوح مصر ، ص ٢٠٣ ؛ جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ، ص٣٣٨ .
(٢) فتوح مصر ، ص ٢٠٣ .
(٣) تاريخ خليفة ، ص١٥٨ ؛ تاريخ الطبري: ٤ / ٢٥٠ ؛ فتوح مصر ، ص٢٠٥ ؛ قادة فتح الشام ومصر ، ص١٤٣ ، ١٤٥ .

الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً. ثم جهَّز في طريقه عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحُصين الفِهْريين على جيشين، وأمرهما بالاجتماع عليه. فخرجوا جميعاً حتى أوغلوا في سواحل إفريقية، ولقوا جموعها فاقتتلوا، واستبسل المسلمون حتى فتح الله عليهم سهولها وجبالها، ودخل كثير من أهلها في الإسلام وحسنت طاعتهم.

وقسم ابن أبي سرح ما أفاء الله على المسلمين بين الجند، وأخذ لنفسه خمسَ الخمس نفلاً تحقيقاً لوعد أمير المؤمنين، وبعث بأربعة أخماسه إلى دار الخلافة، وضرب فسطاطاً على موضع القيروان. ولكن الجند لم يُرضِهم أن يأخذ أميرهم لنفسه خمس الخمس نفلاً، فوفَّدوا وفداً إلى عثمان، فشكوا إليه ابن أبي سرح فيما أخذ لنفسه، فقال لهم عثمان: أنا نفَّلتُه، وقد أمرت له بذلك، وذاك إليكم الآن، فإن رضيتم فقد جاز، وإن سَخِطتم فهو رَدٌّ، قالوا: فإنا نَسخطه، قال: فهو ردّ! وكتب عثمان إلى ابن أبي سرح بردِّ ذلك واستصلاحهم، قالوا: فاعزِلْه عنا، فإنا لا نريد أن يتأمَّر علينا وقد وقع ما وقع. فكتب إليه أن استخلِفْ على إفريقية رجلاً ممن ترضى ويرضون، واقسم الخمس الذي كنت نَفَّلتُكَ في سبيل الله، فإنهم قد سخطوا النفل[1].

●● استجاب ابن أبي سرح لأمر أمير المؤمنين ففعل ما أشار به عليه، وعاد إلى مصر، فولاه عثمان خَراجَها، وأبقى لعمرو بن العاص إمارة الحرب، فالتوت بهما الأمور واختلفا، فشكا كل واحد منهما

---

(١) تشمل إفريقية في تسمية العرب شمال القارة الإفريقية الممتد من طرابلس الغرب إلى طنجة في المملكة المغربية.

صاحبه ، فقال ابن أبي سرحٍ : إن عَمْراً كَسَر عليَّ الخَراج ، وقال عمرو : إن عبد الله بن سعد كَسَر عليَّ حيلةَ الحربِ! فخشي عثمان مَغَبَّة الاختلاف وخاف الفتنة ، ورأى أن الإمارة لا تَصْلُح على الشركة ، فصرف عمراً عن مصر وأخلَصَها لابن أبي سرح ، فأغضب ذلك عمرو بن العاص.

●● كان عبد الله بن سعد من أعلمِ الناس بإفريقية وأرغبِهم في جهادها وأطمعِهم في فتحها كلها ، فلما خَلَصت له إمارة مصر وقيادة جندها استشار عثمان في غزو إفريقية غزواً عامّاً وطلب منه الاستكثار من الجند ، فجهَّز له عثمان الجيوش من عاصمة الخلافة ، وفيهم كثير من الصحابة منهم: عبد الله بن عُمر ، وعبد الله بن عَمْرو ، وعبد الله بن الزبير ، والمِسْوَر بن مَخْرمة ، وعبد الرحمن بن أبي بكر.

سار ابن أبي سَرْح بهذه الجيوش الجرارة إلى إفريقية ، وكان عليها ملك من قبل الروم يقال له : (جُرْجير) ، فلما بلغه نبأ الجيوش الإسلامية تجهز لهم والتقى بهم. فراسله أمير الجيوش ابنُ أبي سرح يدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، فأبى ، واقتتل الفريقان ، وكانت المعارك تدور بينهم كل يوم إلى الظهر ، ثم يتحاجزون إلى صبح اليوم الثاني. وطال الأمر على المسلمين ، فأشار عبد الله بن الزبير على ابن أبي سرح أن يقسم الجنود إلى قسمين: قسم يقاتل إلى الظهر ، وقسم يَخْلُفه فيقاتل سائر اليوم حتى يَهِن المشركون. فأخذ ابن أبي سرح بمشورته ، فلما أراد المشركون المحاجزة عند الظهيرة ، لم يمكنهم المسلمون ، وحملوا عليهم حملة قوية حتى كشفوهم فانهزموا ، وقَتل ابنُ الزبير ملكَهم (جُرجير) ، وتم للمسلمين الفتح ، ودخل أهل إفريقية في دين الله ، فكانوا من أحسن الناس إسلاماً وطاعة.

ثم بث ابن أبي سرح السرايا حتى بَلَغت (قَفْصَة) وافتتحتها ، وأسرع ببشرى الفتح إلى دار الخلافة فأوفد بها عبد الله بن الزبير. فلما قدِم ابن الزبير على أمير المؤمنين عثمان أخبره وقصَّ عليه كيف كانت الوقعة ، فأعجبه ذلك وفرح فرحاً شديداً ، وقام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أيها الناس ، إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يُخبركم خبرَها إن شاء الله. فقام ابن الزبير فخطب في الناس خطبة جليلة وصف فيها الجيش ووقائع المعركة وشدتها ونزول النصر على المسلمين وكثرة الغنائم والفتح المبين.

وأخذ أمير الغزو ابن أبي سرح بعد انتهاء القتال في حصر الغنائم والسبي وتقسيمها على الجند ، وتعجَّل بإرسال البشرى بالفتح والنصر إلى أمير المؤمنين ، ولمّا استقر الأمر وصفا الموقف وتم تقسيمُ الغنائم ، أرسل بالأخماس وتفصيل الحال مع مروان بن الحكم ، فقدِم مروان على أمير المؤمنينِ بما معه وسلَّمه له. وكانت قد بقيت من الغنائم أشياء لا يُستطاع نقلُها وتقسيمها ، فاشتراها مروان بموافقة أمير الغزو وجنده ورضائهم.

ثم عاد ابن أبي سرح إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاثة أشهر ، وولى عليها أحدَ أمراء الأجناد عبدَ الله بن نافع بن عبد القيس الفِهري بأمر عثمان رضي الله عنه[1].

---

(١) ما كتبته ملخص من: فتوح مصر ، ص٢١٠ ـ ٢١٣؛ فتح البلدان ، ص٢١٢ـ٢١٣؛ تاريخ خليفة ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠؛ تاريخ الطبري: ٤ / ٢٥٣ـ٢٥٧؛ البداية والنهاية: ٧ / ١٥١ ، ١٥٢؛ عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص ٢١١ ـ ٢١٤.

ثالثاً: فتح بلاد النُّوْبة (٣١ هـ):

النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ، أول بلادهم بعد (أسوان) ، وكانت بدايات فتح هذه البلاد في عهد عمر على يدي عمرو بن العاص. وفي خلافة عثمان ولّى على مصر ـ بعد عمرو ـ عبدَ الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان من أعماله الجليلة غزوه لبلاد النوبة ، وتسمى (غزوة الأساود) أو (غزوة الحبشة) عند بعض المؤرخين.

وقد وقعت هذه الغزوة سنة (٣١هـ) ، ودار قتال شديد بين أجناد المسلمين وجنود النُّوبة ، وأصيب عدد من المسلمين في أعينهم لإجادة أهالي النوبة للرمي ، وانتهت الغزوة بصلح وقّعه ابنُ أبي سرح مع أهل النوبة بوضع جزية محددة عليهم.

ويُعدّ ابن أبي سرح أولَ قائد مسلم تمكن من اقتحام النوبة وقاتل أهلَها وفرض عليهم الجزية ، واستقرت الحال على ذلك في أيامه بين المسلمين وبين أهل النوبة[١].

وتمَّ عقدُ الصلح في رمضان ، ومما جاء فيه: (وعليكم حفظُ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفِناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصلِّياً. وعليكم كَنْسُه وإسراجُه وتكرمتُه!)[٢].

---

(١) فتوح مصر ، ص٢١٥ ـ ٢١٧؛ فتوح البلدان ، ص٢٢٣؛ تاريخ أبي زرعة الدمشقي ، ص١٨٥ ـ ١٨٦؛ ولاة مصر ، ص٣٦ ؛ الولاية على البلدان ، ص٢٤٤.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص٥٣٠ ـ ٥٣١.

رابعاً: معركة ذات الصَّوَاري (٣٤هـ)[1] :

١ ـ سبب تسمية الوقعة ومكانها وتاريخها:

سُمِّيت هذه المعركة بذات الصَّوَاري لكثرة صَوَاري المراكب واجتماعها. **والصَّاري**: عمود يُقام في السفينة يُشد عليه الشراع. فالاسم مشتق من كثرة السفن التي اجتمعت في المعركة.

ومكان المعركة: غرب مدينة الإسكندرية بالقرب من مدينة مرسى مطروح.

وأكثر المؤرخين على أنها كانت سنة (٣٤هـ)، وقال بعضهم: سنة (٣١هـ).

٢ ـ أسباب المعركة:

تداعت عدة عوامل لنشوبِ هذه الوقعة وزحفِ القوات الرومية بسفنها لمواجهة المسلمين في معركة بحرية ضخمة، ويتلخص ذلك فيما يلي:

١ ـ الانتصارات المتلاحقة التي حققها المسلمون في إفريقية، وهزموا فيها الروم في الإسكندرية ومصر حتى حدود ليبية.

٢ ـ هزيمة الروم في السواحل الشرقية للبحر المتوسط، وكذلك فتح المسلمين لجزيرة قبرص وعقد المعاهدة مع أهلها.

٣ ـ تنامي القوة البحرية الإسلامية وتهديدها لعاصمة بيزنطة التاريخية

---

(١) انظر التفصيل في: تاريخ خليفة، ص١٦٨؛ تاريخ الطبري: ٤/٢٨٨، ٢٩٠ ـ ٢٩٢؛ فتوح مصر، ص٢١٧ ـ ٢١٨؛ «ذات الصواري»، لشوقي أبو خليل.

(القسطنطينية) حيث غزاها معاوية سنة (٣٢هـ) ، مما زاد خشية الروم على سلطانهم وخاصة في البحر.

٤ ـ إرادة الروم استعادةَ هيبتهم وبَسْطَ سلطانهم على البحر المتوسط وسواحله الشرقية والغربية ، والتمكين لهم في جُزُره ، ومحاولة استرجاع مركزهم في الإسكندرية.

كل ذلك أجّج طمع الروم وأغراهم في خوض معركة بحرية ضخمة فاصلة مع القوات البحرية الإسلامية ووأد نشاطها في حوض (البحر المتوسط) الذي لا يزال يسمى (بحر الروم)[١].

٣ ـ مجريات المعركة ونصر مبين للمسلمين:

خرج قائد الروم (قُسْطنطين بن هِرَقل) في جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام ، ومعهم أسطول بحري ضخم يتألف من (٥٠٠ مركب) ، وفي بعض الروايات (١٠٠٠ مركب).

أما جيش المسلمين فقد أمر عثمان معاويةَ بن أبي سفيان بأن يُمدَّ أهلَ مصر بقوات بحرية ، فجهَّز إليهم أسطولاً وسيَّره تحت قيادة بُسْر بن أبي أرطاة ، انضم إلى الأسطول المصري ، فاجتمع للمسلمين أسطول بلغ (مئتي سفينة ونيِّفاً) ، والجميع تحت قيادة والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح.

ويروي مالك بن أوس بن الحَدَثان ـ أحدُ جنود المعركة ـ فيقول: (كنتُ معهم ، فالتقينا في البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأَيْنا مثلَها قطُّ ،

---

(١) ذات الصواري ، ص ٦٠ ـ ٦١ ؛ تاريخ الخلفاء الراشدين ، لطقوش ، ص٣٨٢.

وكانت الريح علينا ، فأرسَيْنا ساعة ، وأرسَوا قريباً منا ، وسكنت الريح عنا ، فقلنا: الأمنُ بيننا وبينكم ، قالوا: ذلك لكم ، ولنا منكم ، ثم قلنا: إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجلُ منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر ، قال: فنَخَروا نخرة واحدة ، وقالوا: الماء الماء!).

وإنما فضل الروم القتال في الماء لخبرتهم الطويلة به وثقتهم وقدرتهم القتالية في البحر من جهة ، ومعرفتهم الميدانية بمقدرة العرب المسلمين وتفوقهم في المعارك البرية من جهة أخرى.

لم يتردَّد المسلمون في قبول المواجهة ، وقام القائد ابنِ أبي سَرْح باستشارة الجند ووضعهم أمام الواقع الميداني ، فقال: قد بَلَغني أن ابنَ هِرَقْل قد أقبل إليكم في ألف مركب ، فأشيروا عليَّ. فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع ابن أبي سرح ، فقال: أيها الأمير ، إن الله جل ثناؤه يقول: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]! فقال ابن أبي سرح: اركَبوا باسم الله ، فركبوا.

وتابع القائد توجيهاته وأوامره مشجِّعاً على القتال ، ومرغّباً في الأجر ، ومؤكِّداً على اللجوء إلى الله تعالى منزلِ النصر وهازمِ العدو ، فبات المسلمون يصلون ويدعون الله ، وبات الروم يضربون بالنواقيس.

ونفَّذَ الإمبراطور البيزنطي ـ الذي قاد المعركة بنفسه ـ خطة ذكية لإنهاك المسلمين؛ بأن دَفَعهم لرمي البيزنطيين بالسهام والقِسِيِّ حتى نَفِدت ذخيرتُهم ، ولم يحاول الاقتراب بسفنه من السفن الإسلامية ، فاضطر المسلمون عند ذلك لقذفهم بالرماح والحجارة. عندئذ اطمأن الإمبراطور البيزنطي إلى سلامة وضعه العسكري ، وظنَّ أن النصر بات

حليفَه ، وأنه لا يحتاج أكثر من هجمة يحطِّم فيها الأسطولَ الإسلامي ، فنادى بغرور: (غَلَبت الرومُ)! لكن المسلمين ابتكروا خطة أذكى من خطته؛ فربطوا سفنَهم إلى بعضها واصطفوا على ظهورها متسلحين بالسيوف والخناجر ، وقذفوا السفن البيزنطية بالكلاليب والخطاطيف وجَذَبوها إليهم؛ وبذلك تحوَّلت ظهورُ السفن إلى ميدان قتال ، فحوَّلُوا بذلك المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية؛ حيث بلغ عدد سفن الجيشين زُهَاء (١٠٠٠ سفينة) أصبحت ظهورها أرضاً للمعركة! .

يقول مالك بن أَوْس بن الحَدَثان: (فدَنَوْنا منهم ، فربطنا السفنَ بعضها إلى بعض ، حتى كنا يَضرِب بعضُنا بعضاً على سفننا وسفنِهم ، فقاتلنا أشدَّ القتال ، ووَثبت الرجالُ على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ، ويتواجؤون بالخناجر ، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جُثث الرجال رُكاماً!) .

ويقول جندي آخر حضر الوقعة: (رأيتُ الساحل حيث تضرب الريح الموجَ ، وإن عليه لمثلَ الظَّرِب ـ أي الجبل ـ العظيم من جُثث الرجال ، وإن الدم لغالبٌ على الماء ، ولقد قُتل يومئذ من المسلمين بشر كثير ، وقُتل من الكفار ما لا يُحصى ، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قطُّ مثلَه! ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام ، وانهزم القسطنطين مدبراً ، فما انكشف إلا لِما أصابه من القتل والجِراح ، ولقد أصابه يومئذ جراحات مكث منها حيناً جريحاً) .

وفي أثناء المعركة حاول الروم أن يُغرِقوا سفينةَ القائد المسلم ابن أبي سرح ، حيث تقدَّمت سفينةٌ رومية وألقت السلاسلَ على سفينته

لتسحبها ، لكن المجاهد علقمة بن يزيد الغطيفي أنقذ القائد وسفينته ، حيث ألقى بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه! .

وبهذه العزائم الصبَّارة والتخطيط البارع والاستبسال في القتال ، والإيمان والربانية عند المجاهدين الذين لجؤوا إلى الله تعالى وعبادته وتلاوة القرآن والدعاء مع اشتعال المعركة؛ كان النصر حليف المسلمين ، والهزيمة المنكرة للمشركين.

٤ ـ نتائج المعركة:

تمخضت هذه المعركة الفاصلة عن نتائج خطيرة وجليلة تركت آثارها في التاريخ على المسلمين والرومان جميعاً:

١ ـ أكَّدت هذه المعركة على نمو البحرية الإسلامية وقوتها وجدارتها بالتصدر في غزو البحار في الأيام القادمة.

٢ ـ أبرزت براعةَ المسلمين في التخطيط والتكتيك قبل المعركة وفي إبَّانها ، كما يتجلى ذلك في استخدام الخطاطيف وتقييد حركة سفن العدو ، ومقاتلتهم صفاً كالبنيان ، وتحويل المعركة البحرية إلى برية يتقنها المسلمون آنذاك أكثر من البحرية.

٣ ـ تُعتبر ذات الصواري معركةً حاسمة في التاريخ الوسيط حيث حوَّلت العلاقات الإسلامية ـ البيزنطية نحو اتجاه جديد في حوض البحر المتوسط ، حيث دخله المسلمون كقوة ناشئة يُحسب لها حسابها.

٤ ـ كَسَرت شوكة أسطول الروم القوية ، ووضعت البدايات لتحويل بحر الروم (المتوسط) إلى (بحيرة إسلامية) فيما بعد.

٥ ـ حَثّت المسلمين على تنمية الأسطول الإسلامي وتطوير أساليب القتال البحري وطرقه وأسلحته.

٦ ـ مهَّدت السبيلَ إلى فتح كثير من الجُزر في البحار، مثل: كريت، وكورسيكا، وسردينيا، وصقلية، وجزر البليار، حتى وصل المسلمون إلى جنوة ومرسيليا.

٧ ـ نَسفت كلَّ آمال الروم في استعادة ما فقدوه من مدن استراتيجية ومواقع بحرية كالإسكندرية وغيرها[1].

* * *

(١) ذات الصواري، لشوقي أبو خليل، ص٦٨ ـ ٧٦؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص٣٨٤.

الفصل السادس

سمات الفتوحات وآثارها وصفات الفاتحين

تمهيد: حجم الدولة وحدودها:

نتيجة تلك الفتوحات والإضافات الكبيرة من الأراضي والأمصار في عهد عثمان؛ أصبحت الدولة الإسلامية تمتد في حدودها الساحلية من (أنطاكية) على شاطئ البحر المتوسط في شمال الشام وفي أقصى الشرق من ذلك البحر وإلى أقصى الغرب في شمال إفريقية. وعلى اليابسة تمتد إلى حدود الهند والصين شرقاً ، وإلى تخوم الأندلس غرباً ، وإلى ما وراء البحر الأسود شمالاً ، وإلى السودان وجوانب الحبشة جنوباً.

أولاً: سمات الفتوحات ونتائجها وآثارها:

●● من أجلِّ مميزات مسيرة الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة الراشد عثمان: طاعةُ القادة للخليفة ، وطاعةُ الجند لقادتهم. ومن أبرز الأدلة على ذلك موعدة عثمان لابن أبي سَرْح بأن ينفِّله خمس الخمس من غنائم إفريقية ، فتسخَّط الجند ذلك ، فأمره عثمان بردِّ ذلك النفل ، فردَّه على السمع والطاعة وما ألقى للدنيا بالاً. وكذلك طاعة القادة لعثمان بالتوجه إلى مواقع الفتح ، وإرسال النجدات ، وغير ذلك.

وأما تلاحم الأجناد مع قادتهم فقد أثبتتها وقائع المعارك في جميع الجبهات ، ولم يسجل التاريخ خروجاً واحداً أو عصياناً أو افتئاتاً منهم

على قادتهم ، مع كثرة المعارك وتباعد الجبهات .

●● وتسجِّل وقائع الفتوح مواقفَ رائعةً للخليفة الشيخ الطاعن في السن؛ في سرعة استجابته لمتطلبات المعارك وضرورات المرحلة الراهنة والوقوف على مجرياتها ، وتعاون الجبهات المختلفة ، وتلبية النجدات ، وإرسال الإمدادات ، وتطويق القلاقل ، ومعالجة حركات الانتقاض ، وتثبيت حدود الدولة في أطرافها ، كما شهدَتْ بذلك كله الوقائع في جبهات الشام وفارس ومصر وإفريقية والمعارك البحرية .

●● ومن السمات الرائعة سريانُ مبدأ الشورى في مفاصل الدولة وعند القادة والخليفة ، وبين القائد وجنده ، وفي قلب المعركة وإبَّان احتدام القتال ، كما تقدمت الأمثلة على ذلك في مواقف شتى . وهذا يرفع الروح المعنوية وبخاصة عند المجاهدين ، حيث يشعر كل واحد منهم أن له رأياً ومشاركة في توجيه المعارك وصنع الأحداث .

●● وأضفَى الخليفة سمة مهمة على معالم الفتوح حيث طبعها بطابع (اللامركزية) ، وأجرى ذلك في مختلِف الجبهات وجميع الأحوال ، حيث يعيِّن الولاة والقادة الكبار وأمراء الجند ، ثم يترك لهم حرية اختيار القادة الفرعيين للجيوش والكتائب وأقسام الجيش. وكذلك أساليب القتال والمواجهة وتوقيت المعركة وغير ذلك مما يراه القائد مناسباً للواقع والحال وحجم العدو وجغرافية الأرض . . .

●● وعُقِدت بالفتوحات (سمةُ الظفر والنصر)؛ فقد شهدت الوقائع على جميع الجبهات انتصاراتٍ حاسمةً مستمرة ، فلم يُهزم للمسلمين جيش ، ولا انكسرت لهم راية ، ما خلا وقعة واحدة عندما أوغلوا في بلاد الترك ، وكانت حركة انسحاب لا هزيمة في المفهوم العسكري.

وفي الحروب البحرية حقق المسلمون انتصارات أذهلت الروم مع تمرُّسِهم بغزو البحار! وكان (ذات الصواري) تتويجاً للمعارك البحرية.

●● ويُعتبر نشوءُ البحرية الإسلامية وتكوين الأسطولين الشامي والمصري من أبرز مزايا الفتوحات في عهد عثمان ، وشكّل دعماً قويّاً للمعارك البرية ، ومهَّد لهيمنة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط وجعلِه بحيرة إسلامية فيما بعد.

●● ومما يجب تسجيله في مزايا الفتوحات اطمئنانُ أهل البلاد المفتوحة للمسلمين ، وفرحهم بحكمهم وسعادتهم بعدلهم ورحمتهم ، مما جعلهم يرحِّبون بالفاتحين ، بل وأعانوهم على الروم المستعمرين لعَسْفِهم وظلمهم وقهرهم ، كما جرى من قبل أهل الشام والمصريين الذين قدموا للمسلمين ما يحتاجونه من المؤن والسلاح. وكذلك ما سجَّله التاريخ من معاملة المسلمين للقِبْط ورحمتهم بهم ، وردّ أملاك المصريين التي انتهبها الروم منهم.

وقد آتت هذه الفتوحات المباركة ثمرات جليلة للدولة الإسلامية والإسلام والمسلمين وأهل البلاد المفتوحة ، نشير إليها بإيجاز:

١ ـ من أهم تلك النتائج والثمرات القضاءُ على حركات الانتقاض ، وتأديبُ الناكثين بالعهود والخارجين على سلطان الدولة ، وتأمينُ الاستقرار على جميع الجبهات بما في ذلك السواحل البحرية ، وتثبيت مهابة الدولة في أطرافها القصِيَّة.

٢ ـ مدُّ رُوَاق الفتوحات في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وفتح بعض الجُزر في البحر المتوسط ، مما زاد رقعة الدولة وأضاف إليها

أمصاراً جديدة كثيرة ودخل أهلها في دين الله. وأضحت الدولة تُشرِف على البحر الأبيض المتوسط والأحمر والأسود وقزوين وبحر العرب.

٣ ـ توطُّد الدولة ورسوخُ أركانها ونشاط أعمال مؤسساتها، وتحقيق وعد الله تعالى للمؤمنين بالتمكين وظهور الإسلام وهيمنته على الأديان والمِلَل الأخرى، كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

٤ ـ التطور العمراني والحضاري والمالي، وتوسيع نطاق الخدمات التي قدمَتْها الدولة ممثّلةً بالخليفة وولاة الأمصار.

٥ ـ تطور أساليب الحروب وفنونها ومعداتها، والتخطيط الدقيق، والعناية بالاستطلاع والجاسوسية وغيرها، وهيمنةُ العقيدة على سلوك القادة والجند ومعاملاتهم خلال المعركة وبعدها.

٦ ـ وجود ما يشبه الجيش النظامي والتجنيد الإجباري أو التطوعي، وترتيبُ الرواتب والأرزاق، وتحديدُ الرُّتَب والقيادات والوظائف والأعمال لأفراد الجيش الفاتح.

٧ ـ إقامة المسالح والحاميات وشحنها بالجنود والعتاد وحماية الثغور البرية والبحرية، وتطبيق نظام الصوائف والشواتي، وإعقاب الجيوش وعدم إنهاكها في غزوات متواصلة.

٨ ـ اضمحلالُ أمرِ دولتي الفرس والروم، حيث تمزَّق شملُ الفرس وانزوت دولتُهم في رقعة صغيرة، وطُرِد الروم المستعمرون من بلاد

الشام وأطرافها ومصر ونواحيها ، وحمل العرب المسلمون رسالة الإسلام إلى جميع البلدان المفتوحة .

٩ ـ دخلَتْ شعوبُ البلاد المفتوحة في دين الله أفواجاً ، وانتشرت مبادئ الإسلام السامية في ربوعها ، وتلك ثمرةُ الثمرات وأعلاها وأدومُها .

ثانياً: صفات القادة الفاتحين وكفاءتهم:

تميز قادة الفتح في عهد عثمان بصفات جليلة رفيعة أهَّلَتْهم للنصر والتمكين وفتح البلاد وغرسِ الحب في قلوب العباد ، نشير إلى رؤوس تلك الخصال مع ضرب الأمثال :

١ ـ الإيمان والإخلاص والربانية:

وتجلَّى ذلك في القادة الكبار والصغار ، ومن أروع الأمثلة على ذلك أن (الأسود بن كلثوم العَدَويّ) وقد سار إلى (بَيْهَق) لفتحها ، وكان يدعو الله أن يحشره من بطون السباع والطير ، فاستُشهد ، فلم يوارِه أخوه أدهم ، ودَفَن من استشهد من أصحابه[(١)] .

وبَلَغ من إخلاص قائد البحرية عبد الله بن قيس الجاسي وإيمانه وربانيته أنه كان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده ، وألا يبتليَه بمصاب أحدٍ منهم ، ففعل ، حتى إذا أراد الله أن يُصيبَه وحدَه ، خرج في قارب طليعةً ، وعلِمَ به العدو فتكاثروا عليه وقتلوه وحده[(٢)] ! .

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ .
(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٦١ .

ويضرب القائدان الكبيران عبد الله بن عامر والي البصرة وسعيد بن العاص والي الكوفة أروعَ نماذج الإخلاص للإسلام ودعوته وتوطيد دولته في تعاونهم على الجبهتين في محاصرة قوى الفرس والقضاء على يَـزْدَجِرد.

٢ ـ ملازمة مبادئ الإسلام وهدي النبوة في الحروب:

ففي فتوح طَبَرِسْتان يتحرَّى القائد الفاتح سعيد بن العاص سنةَ النبي ﷺ في صلاة الخوف، ويسأل مَن صلَّى مع النبي ﷺ صلاة الخوف، فيقول حذيفة بن اليمان: أنا، ثم يقوم حذيفة ويصلي بالناس[(١)].

وفي ساعات الشدة واحتدام المعركة ترى عبد الله بن سعد بن أبي سَرْحٍ من (ذات الصَّوَارِي) يأمر الجنودَ بالصلاة والعبادة وتلاوة القرآن، فتراهم يبيتون مصلِّين متهجِّدين يدعون الله بالنصر والرحمة، ولهم في الليل دويٌّ بالقرآن كدويِّ النحل وهم يتلون سورة الأنفال[(٢)].

٣ ـ التضحية والفداء والشجاعة الباهرة:

وهي صفة واضحة امتاز بها عامةُ القادة والجند في البر والبحر، وحسبك أعمال معاوية وهو يُلِحّ على الخليفة في ركوب البحر للغزو والفتح، وليس للعرب في ذلك سابق خبرة. وبطولات ابن أبي سرح وعبد الله بن عامر وعبد الله بن قيس الجاسي والأحنف بن قيس والوليد بن عقبة... في تضحياتهم ونجداتهم واستبسالهم، وقد قدَّمنا أمثلة كثيرة على هذا.

بل إن النساء ضربنَ مثلاً أعلى في البطولة؛ فهذه زوجة معاوية وأم

---

(١) سنن أبي داود (١٢٤٦)؛ صحيح ابن حبان (١٤٥٢)؛ وغيرهما.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٩١؛ عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٢١٣.

حَرَام بنت مِلْحان وغيرهما يركبن البحر ويخرجن مجاهدات لفتح جزيرة قبرص. واسمع زوجة حَبيب بن مَسْلَمة في فتح إِرْمِينية وهي تقول لزوجها: فأين موعدُك؟ فيقول: سُرَادق المَوْريان أو الجنة ، وعندما أتى السُّرَادق وجدَ امرأته قد سبقتْه[١]!.

٤ ـ الروح المعنوية العالية وطلب الشهادة:

ويتمثل ذلك في مواقفة العدو إبَّان المعارك وبعدها ، ويتأيد ذلك بالأحداث التي رواها التاريخ حيث خاضت الجيوش وقائع كثيرة جدّاً ، كان المسلمون فيها أقلَّ عدداً وأخفَّ سلاحاً وعَتاداً ، فما ألقَوْا لذلك بالاً ، وعَقدوا النصر بالله تعالى ثم بأعمالهم الصالحة وأهدافهم السامية ، فحلَّقوا بمعنوياتهم عالياً حتى أوقعوا الرعب في قلوب الأعداء ، وظَنَّ الترك ـ على شراستهم في القتال ـ أن المسلمين لا يموتون ، وأرادوا التأكد من ذلك فكَمَنوا في الغِياض إلى أن مرَّت بهم طائفةٌ من جند المسلمين ، فرموهم فقتلوهم[٢]!.

وهذا عمرو بن العاص في أَتُون المعركة يصيب فرسَه سهمٌ فيقتله ، فيترجَّل عَمْرو ثم يقاتل مع المشاة ببسالة وهو يطلب النصر أو الشهادة ، وقد نيَّف على السبعين[٣].

٥ ـ التواضع والرحمة وإكرام الجند:

انظر مثلاً إلى القائد الفاتح الشاب عبد الله بن عامر حيث يقول له الناس: ما فُتح على أحدٍ ما قد فُتح عليك؛ فارس وكَرْمان وسِجِسْتان

---

(١) تاريخ الطبري: ٤ / ٢٤٨.
(٢) المرجع السابق: ٤ / ٣٠٥.
(٣) تقدم: ص ٣٩٢ في هذا الكتاب.

وعامة خُراسان! فقال: لا جَرَمَ ، لأجعلنَّ شُكري لله على ذلك أن أَخرج مُحْرِماً مُعتمِراً من موقفي هذا. فأحرَمَ بعُمرة من نَـيْسابور! فلما قدِم على عثمان ، لامَهُ على إحرامه من خُراسانٍ ، وقال: ليتَك تضبط ذلك من الوقت الذي يُحْرم منه الناس[1].

وبَلَغت الرحمة عندهم شأواً جعل كبارَ أعدائهم يُشيدون بها ويتمنون أن يتفيؤوا ظلالَها؛ فيذكر التاريخ أن (يَـزْدَجِرد) بعد أن انكسر وتقهقر ، أوى إلى فئة من قومه ، فتوجَّس منهم الغدر ، فقال لهم: لا تقتلوني ، وآتوني الدُّهقان ، أو سَرِّحوني إلى العرب؛ فإنهم يستحيون مثلي من الملوكِ[2].

ومن بارعِ الأمثلة على اهتمام القادة بجُنْدهم وإكرامهم لهم ، أن أحد الفرسان المجاهدين واسمه (حَوْمَل) قد استُشهد في فتح الإسكندرية بعد مبارزة مثيرة مع أحد أبطال الروم ، فأَرسل عمرو بن العاص جثة الشهيد حَوْمِل إلى الفسطاط ، ودفنه في مشهد مهيب ، (ورُئي عَمْرو يحمل سريرَه بين عَمودَي نَعْشِه ، حتى دفنه بالمُقَطَّم)[3].

وقُلْ مثلَ ذلك فيما كان يتمناه عبد الله بن قيس الجاسي: أن يرزقه الله العافية في جنده ، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم!.

٦ ـ عفة القادة ونبلهم:

يذكر التاريخ أن ملك الصين أَرسل بهدايا فيها (ياقوتة ثمينة) إلى ملك

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣١٤.
(٢) المرجع السابق: ٤/٢٩٨.
(٣) فتوح مصر ، ص٢٠٣.

الباب ، ولمّا تمَّ فتحُها كان هذا الملك في مجلس القائد الفاتح عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، فناوله ملك الباب الياقوتة ، فردَّها عبد الرحمن إليه ، فهتف الملك قائلاً : (لهذه الياقوتةُ خيرٌ من هذا البلد - يعني باب الأبواب - وايمُ الله ، لأنتم أحبُّ إليَّ حكاماً من آلِ كسرى ، فلو كنتُ في سلطانهم ثم بلَغهم خبرها ، لانتزعوها منِّي! وايمُ الله ، لا يقومُ لكم شيء ما وفيتم ، ووفى ملككم الأكبر!)[1] .

وعندما أرسل أمير المؤمنين عثمان إلى القائد ابن أبي سَرْح بمصر يأمره بردِّ ما نَفّله من خمس الخمس من الغنائم ، استجاب عن رضاً وطواعية مع ضخامة ذلك المال! .

وقد شهدت سِير القادة جميعاً أروعَ ملاحم العفة والأمانة والنبل والنزاهة في المال العام والخاص .

٧ - كفاءتهم العالية:

وقائع الفتوحات وشهادات التاريخ تؤكد أن الخليفة عثمان كان مُعَاناً بجمهرة من القادة الأكفاء في مختلف ميادين الكفاية الإيمانية والخلقية والعسكرية وحسن الإدارة والسياسة لشؤون العباد والبلاد. فالقادة قد انتقلوا من نصر إلى نصر ، ومن فتح إلى فتح للقلوب والعقول والأمصار ، وتابعوا المسيرة المظفرة التي بدؤوها في بدرٍ ثم اليرموك والقادسية ، وهكذا إلى الفتوح كلها على جميع الجبهات في البر والبحر .

وباستعراض سريع متفحص لأسماء القادة وإنجازاتهم الضخام؛

---

(١) قادة فتح إرمينية ، ص١٥٤ .

يتحقق الباحث من الكفايات المتميزة التي تحلَّى بها أولئك الرجال ، وأقاموها منارات شاهدة في واقع الحال.

فترى العبقرية في (التكتيك) والانسحاب بالجيش إبقاء عليه عند تكالب العدو وكثافة جيوشه ، كما فعل ـ مثلاً ـ سَلْمان بن ربيعة في وقعته مع الترك.

والبراعة في تغيير خطة القتال حسب مقتضى المعركة كما تجلى ذلك في (ذات الصَّوَاري) ، وأعمال ابن أبي سرح وانتصاره الساحق ، وكذلك خطة عبد الله بن الزبير في وقائع المسلمين مع (جُرْجير).

والتنظيم الرائع للجيش وقطعه وكتائبه التي ابتكرها الوليد بن عقبة حيث: قوات في الثغور للدفاع الفوري ، وقوات احتياطية من القاعدة الأمامية للهجوم المقابل أو للفتح ، وتقسيم دقيق للواجبات ، بحيث يعرف كل شخص ما لَه وما عليه ومتى وكيف وأين يغزو العدو[1].

وبراعة عَمْرو بن العاص في فتوح مصر وسواها ، حيث كان يحارب بعقله وسيفه ، فيعمل على (مباغتة) عدوِّه ، ويُنجز (تحشيدَ قواته) قبل الإقدام على خوض معاركه ، ويحرص على تطبيق مبدأ (الأمن) وذلك بفتح ليبية لتأمين مصر من الغرب ، ومحاولة فتح النُّوبة لتأمين مصر من الجنوب[2].

وهذا معاوية في أعماله العبقرية في غزو البحر وفتح قبرص ،

---

(١) انظر ما تقدم: ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ في هذا الكتاب.

(٢) قادة فتح الشام ومصر ، ص١٦٢.

وفتوحاته في بلاد الشام ، حتى أنطاكية في أقصى شمال البحر المتوسط .

ويدهشك الأحنف بن قيس بكفاءته النادرة في قيادة الزحوف ، وإعداد الخطط البارعة وإبرام القرارات السريعة الصائبة ، وشجاعته النفسية ، مع تميزه بقابليته السَّوقية (الاستراتيجية) ، وقدرته على انتخاب مواقع القتال المناسبة لقواته ، وتنويعه في أساليب القتال (التعرضية) و(الدفاعية) و(المباغتة) حسب واقع الحال[(١)] .

ويحدثنا التاريخ عن كفاءة القائد سلمان بن ربيعة الباهلي ، وبراعته في الحرب ، وخبرته بالعدو ومَقَاتِله؛ فيقول الإمام عامر الشعبي : (والله لَسَلَمانُ بن ربيعة كان أبصَرَ بالمَضارب من الجازِر بمفاصِل الجَزُور!)[(٢)] .

والشواهد كثيرة ، وانظر ما تقدم (قائمة بأسماء مشاهير قادة الفتح)[(٣)] .

* * *

---

(١) قادة فتح بلاد فارس ، ص٢٤٤ ـ ٢٤٦ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٠٥ .

(٣) تقدم : ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ في هذا الكتاب .



الباب التاسع

ولايات الدولة وولاتها

- الولاة وكفاءاتهم .
- وقفات مع الولاة وتعريف بمشاهيرهم .
- أعمال الولاة وواجباتهم .
- سياسة عثمان مع الولاة .
- ولايات الدولة .

* * *



الفَصْلُ الأَوَّل

الولاة وكفاءاتهم

أولاً: الولاة الأمويون من عصر الرسالة إلى عهد عثمان:

●● عَتَب كثير من القدماء والمعاصرين على الخليفة الراشد عثمان أن ولَّى كثيراً من بني أُميَّة وهم أقاربه ، والبحث المنصف يجد أن عثمان قد جرى في (اختيار الولاة) على سَنَن النبي ﷺ والشيخين من بعده في تولية كثير من فتيان بني أمية ورجالهم ، بغضِّ النظر عن كونهم أقارب عثمان.

فقد ذكر الأستاذ العلامة محمد كُرْد علي : (أن ثلاثة أرباع عمال النبي ﷺ من بني أميَّة ، لأنه إنما طَلَبَ للأعمال أهلَ الجَزَاء من المسلمين والغَنَاء ، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها . وفي ذلك أعظمُ دليل على أن قيادة الجيوش وولاية السياسة وإدارة الحكم ؛ إنما هي من شأن الإمام الأعظم ، لا ينظر فيها إلى ثراء أو شرفِ قبيلة ، أو قِدَم صحبة ، أو كِبَر سنٍّ ، بل ينظر فيها إلى العلم والكفاية ، والقدرة على تدبير ما وُسِّد إلى شخص وسياسته سياسة حكيمة راشدة)[1] .

ويزيد شيخ الإسلام ابن تيمية الأمر وضوحاً فيقول : (إنَّ بني أُميَّة كان رسول الله ﷺ يستعملُهم في حياته ، واستعملَهم بعده مَن لا يُتَّهم بقرابةٍ

---

(١) الإدارة الإسلامية ، لمحمد كرد علي ، ص١٠٢ .

فيهم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه.

ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال رسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس؛ لأنهم كانوا كثيرين، وكان فيهم شرف وسُؤْدُد، فاستعمل النبي ﷺ في عزَّة الإسلام على أفضل الأرض (مكة) عَتَّاب بن أَسِيد بن أبي العاص بن أمية، واستعمل على نَجْران أبا سفيان بن حرب بن أمية، واستعمل أيضاً خالد بن سعيد بن العاص على صدقات بني مَذْحِج وعلى صنعاء اليمن، فلم يزل عليها حتى مات رسول الله ﷺ، واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على تَيْماء وخيبر وقرى عُرَيْنة، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على بعض السرايا، ثم استعمله على البحرين فلم يزل عليها بعد العلاء بن الحَضْرمي حتى توفي النبي ﷺ، واستعمل الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط حتى أنزل الله فيه[1]: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

فيقول عثمان: أنا لم أستعمل إلا مَن استعمله النبي ﷺ منهم ومن جنسهم ومن قبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر بعده؛ فقد ولَّى أبو بكر يزيدَ بن أبي سفيان بن حرب في فتوح الشام، وأقرَّه عمر، ثم ولى عمرُ بعده أخاه معاوية.

وهذا النقل عن النبي ﷺ في استعمال هؤلاء، ثابتٌ مشهور عنه، بل متواتر عند أهل العلم)[2].

---

(١) لم يصح نزول هذه الآية في حق الوليد بن عقبة كما سنبينه: ص ٤٤١ ـ ٤٤٣ في هذا الكتاب.

(٢) منهاج السنة: ٣/ ٦٣٢.

وباستعراض أسماء ولاة عثمان نجد أنهم أكثر من (٤٢) والياً[١] ، سبعة منهم فقط من بني أمية ومن أقارب عثمان ، وهم :

١ ـ معاوية بن أبي سفيان الأُموي .

٢ ـ علي بن ربيعة بن عبد العزى العَبْشَمي .

٣ ـ مروان بن الحَكَم الأموي .

٤ ـ الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط الأموي .

٥ ـ سعيد بن العاص الأموي .

٦ ـ عبد الله بن عامر بن كُرَيْز العَبْشَمي ابن خال عثمان .

٧ ـ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح القرشي أخو عثمان من الرضاعة .

وهو يردُّ الافتئاتَ على عثمان بأن أقاربه قد سيطروا على ولايات الدولة ، هذا مع التأكيد على أن سَلَفَه في تولية الأمويين هو النبي ﷺ وأبو بكر وعمر ، أضف إلى ذلك كفاءتهم وأهليتهم ونزاهتهم كما شهدت بذلك حقائق التاريخ .

والذين يُبغِضون عثمان ويَعْتِبون عليه من الرافضة ومن تابعهم لأنه ولَّى أقاربه : يتغافلون عن أن علي بن أبي طالب فعل مثلَه ، فمن المعلوم أن عليّاً ولى أقاربه من قِبل أبيه وأمه : فولى عُبيد الله بن العباس على (اليمن) ، وقُثم بن العباس على (مكة والطائف) ، وعبد الله بن العباس على (البصرة) ، وولى رَبيبه محمد بن أبي بكر على (مصر)[٢] .

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك مع التعريف بمشاهيرهم في الفصل التالي .

(٢) منهاج السنة : ٣/ ٦٢٧ .

وتأمَّلْ هـذه العبـارة الموجزة من (ابن أبي الحديد) التي يسوقها في ولاة عثمان ، ثم احكـم عليهـا بإنصاف ، لتعرفَ مدى الحقد والتجنِّي علـى عثمـــان وولاتـــه وتـاريـخ أمتنـــا عــامـة ، يقـول ملخِّصاً أسبـابَ الاضطراب على أمير المؤمنين عثمان: (وخلاصة ذلك أن عثمان أحدَثَ أحداثاً مشهورة نَقَمها الناس عليه ، من تأمير بني أمية ولاسيما الفسَّاق منهم وأرباب السَّفَه وقلَّة الدين ، وإخراج مال الفيء إليهم!)[1].

ولسوف نفصِّل في الفصول التالية ما يَدْحَض أكاذيب هذا الرجل وأمثاله.

●● وسيرة عثمان مجموعة مبادئ إنسانية سامية تمثِّل أروعَ جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة ، وقد رأى عثمان من رسول الله ﷺ ، وعلِم من حاله ما لم يَـرَ أو يعلم كثيرٌ غيره ، وعَقَل من الفقه والدِّين ما لم يَعْقِل مثلَه الجمهرةُ ممن سواه؛ وكان مما رأى وفَقِه شدَّةَ حَدَبِ رسول الله ﷺ على أقاربه وبرَّه لهم وإحسانَه إليهم ، وقد أعطى عمه العباس ما لم يُعطِ أحداً ، وولي عليّاً وهو ابن عمه وصهره ، ولعثمان وسائر المؤمنين في رسول الله ﷺ أعظم الأسوة.

ولا حرجَ على الإمام أن يولِّي أقاربه ما داموا أكفاءً ، طاهري السيرة ، مشهورين بالعدل والإنصاف والقيام بواجبات الولاية ، مع خضوعهم للمتابعة والمحاسبة من قِبل الخليفة والرعية ، بلا محاباة أو تساهل ، وهذا ما كان من عثمان وولاته كما سنوضحه.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٩٥.

أليس من حق عثمان وقد غدا أمير المؤمنين أن يضمَّ إلى كَنَفِهِ من أهله وأقاربه مَن حُرموا السكينة والهدوء وقد آمنوا كما آمن غيرهم ، والإسلام يجبُّ ما قبله؟! أوَلَيس من حق عثمان وهو خليفة المسلمين أن يعتمد في بعض شؤون ما قُلِّد من الحكم على مَنْ يطمئن إليه من ذوي الكفاية ممن يثق به في العمل؟![1].

وقد كان عثمان يعزل من يراه مستحقّاً للعزل أو وَأْداً للفتنة ، ويُقيم الحد على من توجَّبَ عليه إقامة الحد ، ولو كان من أقاربه ، فعَزَلَ سعيد بن العاص والوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة ، وأقام الحدَّ على الوليد بن عقبة ، ولم يولِّ محمد بن أبي حذيفة وكان رَبيبه في حَجْره ، وقد سألَه الولاية ، فقال له عثمان: (يا بُني ، لو كنتَ رِضاً ثم سألتَني العمل لاستعملتُك ، ولكن لستَ هناك!)[2].

ثانياً: بعض أجلاء الصحابة من ولاة عثمان، ومواقف الصحابة من ولاته:

يلاحظ أن معظم الولاة في عصر الخلافة الراشدة كانوا من الصحابة ، وذلك لتحلِّيهم بصفات ومؤهلات من ناحية ، ولثقة الخليفة بهم واحترام الناس لهم مما يجعلهم يطيعونهم ويؤازرونهم من ناحية أخرى[3].

وباستعراض أسماء ولاة عثمان يتضح تحقق ذلك ، كما سيأتي .

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص١٠١ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/٣٩٩ .

(٣) عصر الخلافة الراشدة ، ص ١١٥ ـ ١١٦ .

ودعوى أن عثمان كان لا يولي أكابر الصحابة ، والحط عليه لذلك ، هي دعوى باطلة تدل على هوى في نفس صاحبها وشنآنه للخليفة الراشد عثمان؛ فلقد كان الفاروق عمر يفعل ذلك[1] ، وهؤلاء الأكابر كعليٍّ وطلحة والزبير وابن عوف وسعيد بن زيد وأمثالهم كانوا معه في المدينة ، وهم رؤوس مجلس الشورى لا يستغني عنهم في تدبير شؤون الخلافة. وقد أراد عمر أن لا يدنِّسهم بالدنيا ، وخشي من افتتان الناس بهم ، ولعثمان الأسوة الصالحة في هذا.

زِدْ على ذلك أن أولئك الأكابر من الصحابة قد تقدم بهم العمر في خلافة عثمان ، وكانوا قـلَّة أيضاً ، وأراد عثمان أن يفيد من طاقات الشباب مع ما جمعوه من الفضل والكفاءة. كما أن تقديم المفضول على الفاضل في الولاية لا عيبَ فيه ، كيف وقـد فعلـه رسول الله ﷺ حيث ولَّى الشباب ونحوَهم ولم يؤمِّر كثيراً من أكابر الصحابة رضي الله عـنهم!.

وولاة عثمان قد شهدَتْ حقائق التاريخ بفضلهم وكفاءتهم وحُسْنِ سيرتهم والأعمال الجليلة التي قدموها للإسلام والأمة. وأخيارُ الصحابة قد شهدوا بفضلهم أيضاً ، وكانوا تحت إمرتهم في الولاية وفي ساحات الجهاد ، ولم يَعْتِبوا عليهم ولا طعنوا في سيرتهم ، وهم الشهودُ الحق الذين يُخضَع لقولهم ، فما بال أصحاب الهوى والشنآن يطعنون على أمير المؤمنين عثمان وولاته؟!.

لقد كان في ولايتهم بالأمصار وتحت إمرتهم في الغزو أمثال:

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٨٢ ـ ٣٨٣.

أبي ذَرّ، وعُبادة بن الصامت ، وأبي الدرداء ، والمِقداد بن عمرو ، وشدَّاد بن أوس ، وحذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عُمر ، وعبد الله بن عَمرو ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، والحسن والحسين ، وغيرهم كثير جدّاً.

ثالثاً: كفاءة الولاة وخدماتهم للإسلام والأمة والدولة:

●● لقد اختار عثمان ولاة الأمصار من أهل الكفاءة الإدارية والدربة العسكرية ، وقد أثنى المؤرخون على عددٍ من ولاته ، فقال المَقْريزي عن والي عثمان على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح : (ومكث أميراً مدة ولاية عثمان رضي الله عنه كلها محموداً في ولايته)[1] .

والذي يستعرض حياة عمال عثمان وجهادَهم وفضائلَهم يراهم في الذروة العليا من رجال الدولة ، ولا يتردَّد في أنهم من بُناة الأساس الأقوم في مجد الإسلام الإداري والعسكري ، ولهم ثواب نتائجه في الفتوح وانتشار دعوة الإسلام بما يعدّه التاريخ من معجزاته الخارقة للعادات[2] .

وكان عدد من ولاته هم ولاة الفاروق عمر ، فأقرَّ بعضَهم عدة سنين ، وبقي بعضهم طيلة خلافة عثمان ، مثل : زيد بن ثابت ، وأبي موسى الأشعري ، والمغيرة بن شعبة ، ويعلى بن مُنْيَة ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وغيرهم.

---

(١) خطط المقريزي : ١/ ٢٩٩ .

(٢) العواصم من القواصم ، ص١٠٠ ، من تعليقات محب الدين الخطيب .

●● وكان الولاة أكفاءً في مختلفِ الميادين ، لا مطعنَ فيهم ، وسيرُهم وأعمالُهم تشهد لهم:

فطائفة منهم كانوا من علماء الصحابة وأخيارهم ، وطائفة أخرى كانوا دون أولئك ، بيد أن الجميع كانوا قائمين بأمور الشرع ، معظِّمين لأركان الدين ، ولم يفرِّطوا في حقوق الله والإسلام والأمة والبلاد ، بل كانوا حراصاً على شؤون الولاية ، قوامين بحقوق العباد ، مناصرين لدعوة الإسلام. وإنْ ذُكِرت لبعضهم ذنوب ـ قد تصح أو لا تصح ـ فهو مما يحتمل وقوعه من البشر ، وقد بَدَرَ ذلك من بعض ولاة عمر ، فما عَتَبَ عليه في ذلك أحد.

وإذا تتبَّعتَ آثار ولاة عثمان في تسيير شؤون الولايات وقيامهم بواجباتهم تجاه الناس؛ وجدتَ السيرة الطيبة والآثار الجليلة. وأما الفتوحات فقد تحدَّثنا عنها ، وتبين لنا أن ولاة عثمان قد رفعوا رايات الجهاد وضحَّوا بالنفس والولد والراحة والنعيم ، وهجروا الدَّعَة والكسلَ مما يقبع فيه البطّالون الذين يَفتئِتون على أولئك العظماء!.

ونتيجة تلك الأعمال المجيدة امتدت رقعة الإسلام ، ودخلت الشعوب في دين الله أفواجاً ، وهي مآثر خالدة في سجل تاريخهم المشرق ، وشهادة ناطقة على فضلهم ونُبْلهم.

●● ومما ميَّزَ أولئك الولاة أنهم كانوا مِطْوَاعين لأمير المؤمنين منفِّذين لأوامره ، بعيدين عن الشر والخلاف ، لم يختلف عليه واحد منهم ، ولا أثار الفتنة في وجهه ، بل كانوا يئدونها ويُجهِضون أسبابها ،

ولو وقع عليهم حَيْف من الرعية أو عزلٌ من الخليفة ، كما يشهد لهم بذلك التاريخ الصادق.

فلقد اختلف الناس على أمثال أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، ووقعوا في الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وابن أبي سرح ، فعالج الخليفة ذلك بالعزل أو التأديب للولاة ، وبقيت شؤون البلاد سائرة على الخير والرضا ، وما انقلب أي والٍ على أمر الخلافة.

●● ومما اتصف به ولاة عثمان واشتهر من سيرتهم في أيام عملهم أنهم كانوا يضبطون شؤون الولايات ، ويتابعون سيرورة الحياة ، ويتعرفون مشكلات الناس ويعالجونها ، مع تطوير مرافقها وتحسين مختلف وسائل العيش فيها ، ويحرصون على وحدة الأمة والسمع والطاعة للخليفة ، وفتح أبواب الشورى والنصيحة في العسر واليسر.

* * *

الفصل الثاني

وقفات مع الولاة وتعريف بمشاهيرهم

أولاً: قائمة بأسماء الولاة والولايات التي ولوا عليها[1] :

١ ـ مكة المكرمة:

١ ـ خالد بن العاص بن هشام المَخْزومي ، وكان والياً على مكة في خلافة عمر ، وأبقاه عثمان مدة ثم عزله .

٢ ـ علي بن ربيعة بن عبد العزى العَبْشَمي .

٣ ـ عبد الله بن عَمْرُو بن الحضرمي .

ـ خالد بن العاص بن هشام المخزومي ، ولاه عثمان ثانية في أواخر خلافته ، واستشهد عثمان وهو والٍ عليها .

٢ ـ المدينة المنورة:

هي عاصمة الخلافة ، وفيها يقيم أمير المؤمنين ، وكان إذا خرج إلى الحج أو غيره يستخلف عليها :

(١) انظر: تاريخ خليفة ، ص١٧٨ ـ ١٨٠ ؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ، ٣٣٠ ـ ٣٣١ ، ٤٢١ ـ ٤٢٢ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص١٣٧ ـ ١٣٨ ؛ الولاية على البلدان ، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ ، ٢٢٨ ـ ٢٣١ ، ٢٣٣ ـ ٢٤٠ ، ٢٥١ ـ ٢٨٨ .

٤ ـ زيد بن ثابت ، وكان عثمان يستخلفه كثيراً.

٣ ـ البحرين واليمامة:

٥ ـ عثمان بن أبي العاص ، توفي عمر وهو والٍ على البحرين ، فأقرَّه عثمان.

٦ ـ مروان بن الحَكَم بن أبي العاص الأموي.

٧ ـ عبد الله بن سوّار العَبْدي.

٨ ـ سَبْرة بن عَمْرو العَنْبري على اليمامة.

٤ ـ الطائف:

٩ ـ القاسم بن ربيعة الثقفي.

٥ ـ اليمن وحضرموت:

١٠ ـ يعلى بن مُنْـيَة ، ولي صنعاء طيلة خلافة عثمان.

١١ ـ عبد الله بن أبي ربيعة ، ولي الجَنَد طيلة خلافة عثمان.

٦ ـ الشام:

كان على أمصار الشام الكبيرة عدَّة ولاة ، كما كان هناك ولاة فرعيون على بلدان أصغر ، وقد جَمع عثمان (الشامَ كله) لمعاوية بن أبي سفيان ، وصار هو يولي الولاة على بلدان الشام وأمصاره.

١٢ ـ معاوية بن أبي سفيان ، على معظم الشام ، ثم على الشام كلِّه.

١٣ ـ عُمير بن سعد الأنصاري ، والي (حمص) ، وقد استعفَى من الولاية فأعفاه عثمان.

١٤ ـ عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ولي (حمص) من قِبل معاوية .

١٥ ـ علقمة بن حَكيم الكِناني ، على (فِلَسْطين) .

١٦ ـ حَبيب بن مَسْلَمة ، على (قِنَّسرين) من قِبل معاوية .

١٧ ـ أبو الأعور السُّلَمي ، على (الأردن) من قِبل معاوية .

١٨ ـ عبد الله بن قيس الجاسي ، على (نواحي البحر) من قِبل معاوية .

٧ ـ العراق:

١٩ ـ أبو موسى الأشعري ، استشهد عمر وأبو موسى والٍ على (البصرة) ، وأبقاه عثمان عليها أربع سنين تنفيذاً لوصاة عمر بذلك .

٢٠ ـ عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، ولي (البصرة) بعد أبي موسى ، واستمر عليها بقية خلافة عثمان .

٢١ ـ المغيرة بن شعبة الثقفي ، على (الكوفة) ، وكان واليها عند استشهاد عمر ، وبقي عليها في خلافة عثمان نحو سنة ، ثم عُزل .

٢٢ ـ سعد بن أبي وقاص ، ولاه عثمان (الكوفة) بعد المغيرة ، وشاركه عبد الله بن مسعود ، وكان على (بيت مال الكوفة) ، وليها سعد سنة وأشهراً .

٢٣ ـ الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط ، ولاه عثمان (الكوفة) بعد سعد، فبقي عليها ما بين سنتي (٢٥ ـ ٣٠هـ) ، ثم عزله بتهمة شرب الخمر .

٢٤ ـ سعيد بن العاص الأموي ، ولي (الكوفة) بعد الوليد سنة

(٣٠هـ) ، وبقي والياً عليها إلى سنة (٣٣هـ) ، وعزله عثمان إخماداً لنار الفتنة التي أشعلها بعض أهل الكوفة .

ـ أبو موسى الأشعري ، ولاه عثمان (الكوفة) بعد سعيد بن العاص .

٢٥ ـ جرير بن عبد الله البَجَلي ، على (قَرْقِيسِياء) .

٢٦ ـ عُتَيْبة بن النّهاس ، ولي (حُلْوان) .

٨ ـ إرْمِينية وأَذْرَبِيجان وما والاهما:

٢٧ ـ سلمان بن ربيعة الباهلي ، ولاه عثمان (إرْمِينية) .

٢٨ ـ حذيفة بن اليمان ، ولي (أَذْرَبِيجان) ، ثم ضَمَّ عثمان إليه (إرْمِينية) حيث وجَّهَ سلمانَ بن ربيعة إلى الجزيرة .

٢٩ ـ الأشعث بن قيس ، ولي (أَذْرَبِيجان) .

ـ المغيرة بن شعبة ، ولاه عثمان (إرمينية) بعد حذيفة ، فاستمر والياً عليها حتى توفي عثمان وهو عليها وعلى (أَذْرَبيجان) في الوقت نفسه .

٩ ـ مصر وما والاها:

٣٠ ـ عمرو بن العاص ، فاتح مصر وواليها ، وتوفي عمر وهو والٍ عليها ، وأقرَّه عثمان صدراً من خلافته .

٣١ ـ عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ولي مصر بعد عمرو ، وبقي عليها حتى استشهد عثمان .

١٠ ـ خراسان وكُوَر بلاد فارس:

٣٢ ـ سعيد بن قيس ، ولي (الرَّيّ) .

٣٣ ـ السائب بن الأقرع ، ولي (أَصْبهان).

٣٤ ـ حُبيش ، ولي (ماسَبَذَان).

٣٥ ـ عُمير بن عثمان بن سعد ، ولاه عثمان (خُراسان).

٣٦ ـ عبد الله بن عُمير الليثي ، ولي (سِجِسْتان).

٣٧ ـ النُّسير العِجلي ، على (هَمَذَان).

٣٨ ـ الأحنف بن قيس ، على (المَرْوَين) أي مَرْو الشَّاهِجَان ، ومَرْو الرُّوْذ.

٣٩ ـ حَبيب بن قُرّة اليَرْبُوعي ، ولي (بَلْخ).

٤٠ ـ خالد بن عبد الله بن زهير ، على (هَرَاة).

٤١ ـ أُمَيْن بن أحمد اليشكري ، على (طُوس).

٤٢ ـ قيس بن الهيثم السُّلَمي ، على (نَـيْسابور).

وثمة ولاة فرعيون آخرون[١].

ثانياً: تعريفات موجزة بمشاهير ولاة عثمان:

١ ـ سعد بن أبي وقاص:

أول عامل بعثه أمير المؤمنين عثمان ، فعزل المغيرة بن شعبة عن (الكوفة) ، وأمَّر سعداً ، فعمل عليها سنة وبعض أخرى.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٤ـ٢٦٦ ، ٣٣٠ـ٣٣١ ، ٤٢١ـ٤٢٢.

وهو من أكابر أصحاب النبي ﷺ ، ومن أعظم المجاهدين الفاتحين وخيار الولاة الأمناء ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة الذين آهَلَهم عمر للخلافة. وفضائله مشهورة وسيرته الطيبة منشورة[1] .

٢ ـ حذيفة بن اليمان:

ولاه عثمان على (أَذْرَبِيجان) ثم ضَمَّ إليه (إِرْمِينِية) ، وقد شارك في عدة غزوات نحو بلاد الخَزَر من إرمينيةَ ، وقد سار من هناك مسرعاً إلى المدينة ليحضَّ عثمانَ على جمع الناس على (مصحف واحد) كما قدمنا. وبقي والياً على ذَيْنَك المِصْرين الكبيرين زُهاء السنة.

كان عمر قد ولاه (المدائن) ، وأقرّه عثمان عليها ، فلم يزل بها حتى مات بعد استشهاد عثمان وبعد بيعة علي بأربعين يوماً.

وحذيفة صحابي جليل من المهاجرين وأحدُ السابقين إلى الإسلام ، وكان مقرَّباً عند النبي ﷺ ، وأمينَ سرّه على المنافقين ، كما كان مبجَّلاً عند الخلفاء الثلاثة وجميع الصحابة. وهو أحد العلماء الكبار والفاتحين العِظام[2] .

٣ ـ المغيرة بن شعبة:

كان المغيرة والي (الكوفة) حين بويع عثمان بالخلافة ، فأقرّه عثمان عليها ، وامتدت ولايته نحو سنة واحدة ، وتفيد الأخبار أن المغيرة قاد أجناد الكوفة لفتح بعض المواقع الفارسية وعلى رأسها (هَمَذان) في

---

(١) ترجمت له في كتابَيَّ: أعلام الحفاظ والمحدثين؛ والعشرة المبشرون بالجنة.
(٢) له ترجمة في كتابي: أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ٤٤٢ ـ ٤٧٢.

الشهر الرابع أو الخامس من سنة (٢٤هـ)[١].

كذلك ولي أمصاراً أخرى ، فقد عزل عثمان حذيفة ، وولى المغيرةَ على (إِرمينية) واستمر والياً عليها وعلى (أَذْرَبِيجان) حتى توفي عثمان[٢].

والمغيرة من كبار الصحابة وأجلائهم ، ومن أهل بيعة الرضوان ، وكان مقرباً عند رسول الله ﷺ ، مبجَّلاً بين الناس ، من أُولي الشجاعة والمكيدة والحزم ، وأحد دهاة الدنيا ، ومن المجاهدين الفاتحين ، وأحد ولاة الفاروق عمر.

٤ ـ أبو موسى الأشعري:

ولي لعثمان (البصرة) ، ثم الكوفة ، فقد استشهد عمر وواليه على البصرة أبو موسى ، فأقرَّه عثمان عليها أربع سنين عملاً بوصية عمر في هذا[٣].

وكانت فترة ولاية أبي موسى على البصرة مليئة بالجهاد والفتوح في بلاد فارس ، وتثبيتِ أقدام المسلمين في المواقع المفتوحة وكبحِ حركات الانتقاض[٤].

وفي سنة (٣٤هـ) تألَّب أهل الكوفة على واليهم سعيد بن العاص ، فقطع عثمان دابر الفتنة وولى مكانه أبا موسى الأشعري ، الذي أمسك بزمام الأمور واستهل ولايته بخطبة أخذ فيها العهدَ على الناس بلزوم

---

(١) تاريخ خليفة ، ص١٥٧ ؛ فتوح البلدان ، ص٢٨٦.

(٢) الولاية على البلدان ، ص٢٣٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٩١.

(٤) الولاية على البلدان ، ص٢٥٢.

الجماعة والسمع والطاعة لعثمان[1] ، وبقي والياً على الكوفة حتى استشهاد عثمان.

وأبو موسى أحد أعلام الصحابة وفقهائهم وذوي الفضل فيهم ، وقد استعمله النبي ﷺ مع معاذ بن جبل على (اليمن) ، وولي لعمر الكوفة والبصرة ، وقد ملأ هذين المِصْرَين علماً وفقهاً ، وله فتوحات جليلة في عهدَي عمر وعثمان. وكان صوَّاماً قواماً ربانيّاً زاهداً عابداً ، ممن جمع العلم والعمل والجهد ، لم تغيِّره الإمارة ، ولا اغتر بالدنيا[2].

٥ ـ عمرو بن العاص:

فتح مصر ونشر الإسلام فيها ، ووليها لعمر نحو أربع سنين ، وتوفي عمر وهو والٍ عليها. وأقرَّه عثمان عليها صدراً من خلافته ، وله أيادٍ بيضاء في تثبيت الإسلام بمصر وكبتِ حركات الانتقاض هناك ، ثم مدّ الفتوحات إلى البلاد المجاورة.

حدث خلافٌ بينه وبين عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، فعزله عثمان ، وجَمع مصر لابن أبي سرح ، كما سيأتي بيانه[3].

وعمرو صحابي جليل ومن أعيان المهاجرين ، ومن رجال قريش رأياً ودهاءً وحزماً وكفاءةً وبصراً بالحروب ، ومن أشراف ملوك العرب ، وممن يُضرب به المثل في الفطنة والذكاء والدهاء[4].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٩٦.
(٣) انظر: ص ٤٧٩ ـ ٤٨١ في هذا الكتاب.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٥ ـ ٥٩.

وكان الفاروق عمر يقول: ما ينبغي لعمرو أن يمشي على الأرض إلا أميراً[(١)]!.

وعمرو من أكابر ولاة الدولة الإسلامية وأعيان قادة الفتح الإسلامي ، أمَّره النبي ﷺ على جيش (ذات السَّلاسل) وفيه أبو بكر وعمر! وكان أحدَ قادة فتوح الشام في عهد أبي بكر ، ثم ولاه عمر في الفتوحات في مصر وغيرها ، وكذلك فعل عثمان.

وكان النصر معقوداً برايته في الفتوحات ، كما رافقه النجاح الباهر في سياسة الرعية في عامة أحواله وحياته في الشام ومصر؛ لذا استثقله السبئيُّون وأصحاب الهوى فأوقعوا بينه وبين ابن أبي سَرْح ، فعزله عثمان قطعاً لدابر الفتنة.

٦ ـ معاوية بن أبي سفيان[(٢)]:

●● صحابي جليل أسلم عام الفتح ، وشهد مع النبي ﷺ غزوة حُنين وقد أنزل الله تعالى فيها: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦] فهو مشمول بمن نزلت عليهم السكينة من المؤمنين مع رسول الله ﷺ.

ونالَه ثناءُ النبي ﷺ كما في الحديث الذي روته أم حَرَام بنت مِلْحَان: (أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**أولُ جيشٍ من أمتي يَغزون البحرَ قد أَوْجَبُوا**» ، قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله ، أنا فيهم؟ قال: «**أنتِ**

---

(١) فتوح مصر ، ص٢٠٧.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ٣/ ١١٩ ـ ١٦٢؛ منهاج السنة: ٣/ ٦٥٥ ـ ٦٥٨ ، ٦٦٤ ـ ٦٦٥؛ العواصم من القواصم ، ص٥٩ ـ ٩٧.

فيهم». ثم قال النبي ﷺ: «**أولُ جيشٍ من أمتي يَغزون مدينة قَيْصَرَ مغفورٌ لهم**» فقلتُ: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «**لا**»[1].

وأول جيشٍ غزا البحر هو الجيش الذي فتح قبرص بقيادة معاوية، سنة (٢٨هـ). ومعنى «**أَوْجَبُوا**»: فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة، وهو الجهاد في سبيل الله[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ عَلِّمْ معاوية الكتابَ والحسابَ، وقِهِ العذاب**»[3].

وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ قال لمعاوية: «**اللهمَّ اجعَلْه هادياً مهديّاً، واهْدِ به**»[4].

وثبت من أكثر من طريق أن معاوية كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ[5].

●● وكان معاوية من ولاة الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان؛ وحسبك بذلك شهادة له بالفضل والنُّبل والثقة وجمال السيرة وحسن السياسة وحبّ الرعية له[6].

وقد أثنى عليه جماعة من الصحابة والتابعين؛ فقال سعد بن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٢٤)، وانظر ما تقدم: ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥ في هذا الكتاب.
(٢) انظر: كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ١/ ٢٨١ ـ ٢٨٨.
(٣) أخرجه ابن حبان (٧٢١٠)؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٣٢٢٧).
(٤) أخرجه الترمذي (٤١٧٧)، وصححه الألباني.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٢٣.
(٦) انظر كلام ابن العربي في: العواصم من القواصم، ص ٩٥؛ والذهبي في: سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٣٣.

أبي وقاص: ما رأيتُ أحداً بعد عثمان أقضَى بحقٍّ من صاحب هذا الباب - يعني معاوية -.

وقال ابن عباس: ما رأيتُ رجلاً أَخْلَق بالمُلك من معاوية[1].

وعن مجاهد قال: لو أدركتُم معاوية لَقُلتُم: هذا المهديّ!.

وذكروا عمر بنَ عبد العزيز وعدلَه عند الأعمش، فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاويةَ؟! قالوا: في حِلْمِه؟ قال: لا والله بل في عَدْلِه[2]!.

●● وقد حكم معاوية بلاد الشام أربعين سنة؛ عشرين منها والياً لعمر وعثمان، وعشرين أخرى على جهة الاستقلال أميراً للمؤمنين، فاجتمعت عليه القلوب، وعاش الناس في عهده حياة عدل ورحمة وسعادة وفتوحات.

وفي الحديث الصحيح: عن النبي ﷺ قال: «**خيارُ أَئِمَّتِكم الذين تحبُّونهم ويُحبُّونكم، ويُصَلُّون عليكم وتُصَلُّون عليهم. وشرارُ أئمتكم الذين تُبْغِضُونَهم ويُبْغِضُونكم، وتَلْعَنُونهم ويَلْعَنُونكم**»[3]!.

٧ - سعيد بن العاص الأموي:

سعيد من صغار الصحابة؛ أدرك من حياة النبي ﷺ تسعَ سنين، وهو أحد الرجال الذين انتدبهم عثمان لكتابة المصحف وأُقيمت عربية القرآن

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ١٣٣، ١٣٥؛ العواصم من القواصم، هامش ص٦٩.

(٢) منهاج السنة: ٣/ ٦٥٦.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٥)؛ وابن حبان (٤٥٨٩)، وغيرهما.

على لسانه لأنه كان أشبَهَهُم لهجةً برسول الله ﷺ ، وكان هو يُملي ويكتب زيد بن ثابت.

وصفه الذهبي بقوله: وكان أميراً شريفاً جواداً ممدَّحاً حليماً وقوراً ذا حزم وعقل ، يَصلح للخلافة!.

وفيه يقول الفرزدق:

تَرَى الغُـرَّ الجَحَاجِـحَ من قـريشٍ إذا مـا الأمـرُ ذو الحَـدَثـانِ عـالا
قيـامـاً يَنظـرونَ إلـى سعيـدٍ كـأنَّهُـمُ يَـرَوْنَ بِـهِ هِـلالا[1]

وقد بَلَغ في الجود والكرمِ ونداوة اليد وسماحة النفس شأواً لم يَلحقه فيه حاتم الطائي ، وذكر ابن كثير من القصص في ذلك ما يُدهش الألباب[2]!.

وفضائله ومكارمه كثيرة شهيرة ، ذكرها من ترجم له كابن عساكر والذهبي وابن كثير.

ولاه عثمان الكوفة بعد أن عَزل عنها الوليد بن عُقبة حيث تألَّبَ عليه أهلها وتآمروا عليه ، فجاء سعيد وقد علِمَ ما تمورُ به الكوفة من الأهواء والفتن من قِبل الموتورين والرَّعَاع ، فأرسل إلى أشراف الكوفة ووِجوهها ممن شهد القادسية وغيرها من معارك الإسلام العظيمة وممن أَبْلَوا بلاءً حسناً في الإسلام؛ فجمعهم وجمع معهم من ذوي العقل والحكمة ممن

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٤٥. **الجحاجح**: السادة. **الحدثان**: نوائب الدهر. **عال**: أثقل وفدح.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٨٥ ـ ٨٧.

هاجر إلى الكوفة ، وطلب منهم أن يبلِّغوه حاجات الناس ، وأخذ يجالس القراء منهم والفقهاء .

ورغم الاضطرابات التي تمور بها الكوفة والشائعات وأعمال الفتَّانين؛ استطاع سعيد أن ينظم أمور ولايته ويعيِّن الولاة والأمراء ، في مختلف الثغور التابعة للكوفة ويضبط أمورها(١) .

وكانت له أعمال جليلة في الفتوحات ، فبعث القادة للغزو والفتح ، وأمدَّ الجبهات الأخرى بالجيوش ، وغزا بنفسه جُرْجَان وطَبَرِسْتان وغيرها ، وكان تحت إمرته صحابة أجلّاء مثل حذيفة وابن عُمر وابن عباس وابن الزبير والحسن والحسين(٢) . . . وكلها شواهد على فضله ونبله وإخلاصه للإسلام وقيامه بشؤون الولاية والأمة .

٨ ـ عبد الله بن عامر بن كُريز العَبْشَمي القرشي:

●● ابن خال عثمان ، أم عثمان أروى بنت كُرَيْز أخت عامر والد عبد الله .

لما وُلد عبد الله بن عامر أُتي به إلى النبي ﷺ فقال لبني عبد شمس : «**وهذا أشبَهُ بنا منه بكم**» ثم تَفَل في فيـهِ فازدرده ، فقال ﷺ : «**أرجو أن يكون مسقياً**»؛ فكان لا يُعالج أرضاً إلا ظهر منها الماء .

ونشأ سخيّاً كريماً شجاعاً ميمون النقيبة كثير المناقب .

عزل عثمان أبا موسى الأشعري عن البصرة سنة (٢٩هـ) ، وولى عبد الله بن عامر وعمره (٢٥ سنة) .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٧٩ ، ٣٠٤؛ الولاية على البلدان ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .
(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٦٩ .

له أعمال جليلة في الفتوحات: افتتح خُراسان كلها وأطراف فارس وسِجِسْتان وكَرْمان حتى بَلَغ أعمال غَزْنة ، وقضى على يَـزْدَجِرد آخر ملوك الفرس ، وهي حرقة في قلوب أهل النزعة المجوسية على الإسلام وعلى عثمان وواليه الشاب ابن كُريز[1]!.

كذلك كانت له جهود ضخمة في ميادين الإدارة والاقتصاد والبناء وإصلاح الطرق وحفر الأقنية والأنهار ومراقبة الأسواق، وسياسة الرعية، وتولية الأمراء على المناطق التابعة له ومن أهمها: عُمان والبحرين وسِجِسْتان وخُراسان وفارس والأهواز بما في هذه الأقاليم من مدن مختلفة ومناطق شاسعة. ووصلت أعماله الجليلة إلى بلاد الحرمين فكان أول من اتخذ الحياض بعرفات للحجاج وأجرى إليها الماء المَعين[2].

●● وعندما ولى عثمان ابن عامر على البصرة ، قال أبو موسى الأشعري: يـأتيكـم غـلام خَـرَّاج ولأَّج ، كـريـمُ الجـدات والخـالات والعمات ، يُجمع له الجندان! فجمع له عثمان جندَ أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي[3].

فانظر إلى هذه الشهادة الغالية من الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ، مع أنه عُزل عن البصرة بهذا الشاب ، فرضي الله عن الصحابة ما أَجَلَّهم وما أروعَ إخلاصَهم ونُـبْلهم!.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٨ ـ ٢٠؛ البداية والنهاية: ٨/ ٨٨؛ العواصم من القواصم ، ص٩٧ حاشية (١٠٥).

(٢) انظر ما تقدم: ص ٣٣٣ في هذا الكتاب؛ وعصر الخلافة الراشدة ، ص١٣٣؛ والولاية على البلدان ، ص٢٥٥ ـ ٢٦٢.

(٣) تاريخ خليفة ، ص١٦١؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٦.

٩ ـ الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط الأموي:

أخو أمير المؤمنين عثمان لأمه ، أمهما أروى بنت كُريز.

●● صحابي صغير من مسلمة الفتح ، وكان يوم الفتح صبيّاً كما جاء في حديثين موصولين رجالهما ثقات.

قال الإمام أحمد: حدثنا فيّاض بن محمد الرَّقِّي ، عن جعفر بن بُرْقان ، عن ثابت بن الحجَّاج الكِلاَبيّ ، عن عبد الله الهَمْداني ، عن الوليد بن عُقْبة قال: (لمّا فتَح رسولُ الله ﷺ مكة ، جعلَ أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيمسحُ على رؤوسهم ، ويدعو لهم ، فجيءَ بي إليه وإني مُطيَّب بالخَلُوق ، ولم يمسحْ على رأسي ، ولم يمنعْه من ذلك إلا أن أمي خَلَّقَتْني بالخَلوق ، فلم يَمسَّني من أجلِ الخَلُوق)[1].

وعبد الله بن مالك الهَمْداني: قال عنه الحافظ: مقبول ، وذكره ابن حبان في «الثقات» ، وخلطه ابن عبد البر[2] وتابعه كثيرون (بأبي موسى الهَمْداني مالك بن الحارث) وهو مجهول.

والذين ترجموا (لأبي موسى الهمداني) لم يذكروا في الرواة عنه (ثابت بن الحجاج) ، ولا أنه روى عن الوليد بن عقبة أو عبد الله بن عمر وعلي بن أبي طالب ، لأنه يصغر عن ذلك ، ولم يذكروا أيضاً أنه ممن روى لهم أبو داود في «السنن» ، وإنما ذكروا ذلك كله لعبد الله بن مالك الهمداني[3].

---

(١) مسند أحمد: ٤/ ٣٢؛ وبنحوه عند أبي داود (٤١٨١). **الخَلوق**: طِيب معروف مركب من الزعفران وغيره.

(٢) في الاستيعاب: ٣/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥.

(٣) تهذيب الكمال: ١٥/ ٥٠٦.

وعندما ترجم المزي لثابت بن الحجَّاج ، قال: روى عن زُفر بن الحارث. . . وأبي موسى عبد الله الهَمْداني (د) ، ورقم له رواية أبي داود. وهذا مصير منه إلى أن أبا موسى هو عبد الله الهمداني وليس مالك بن الحارث ، وهو الصحيح إن شاء الله.

ويؤيده صنيعُ البخاري حيث روى حديث الخَلُوق هكذا: عن ثابت عن أبي موسى عن الوليد ، عن ثابت عن أبي موسى الهَمْداني عن الوليد ، عن ثابت عن عبد الله عن الوليد[1]. وذهب إلى أن (أبا موسى) و(عبد الله) رجلان!.

والذي نراه ـ والله أعلم ـ أنهما واحد هو عبد الله الهَمْداني وكنيته أبو موسى كما قرره الحافظ المِزّي ، وإليه ذهب الحافظ بن أبي خَيْثمة والحافظ ابن عساكر[2].

وبهذا يرتفع الإشكال ويقوى الحديث الذي ينص على أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط كان عام الفتح صبيّاً.

●● والقصة التي يوردها المفسرون والمؤرخون من أن قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] ، **نزلت في الوليد بن عقبة؛ لا تصح.** وخلاصتها:

أن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة مُصَدِّقاً إلى بني المُصْطَلِق ،

---

(١) التاريخ الأوسط: ١/ ١٩٢.

(٢) انظر: العواصم من القواصم ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ وتعليقات محب الدين الخطيب ؛ عبد الله بن سبأ ، للعودة ، ص١٢٢.

فعاد فأخبر عنهم أنهم ارتدوا وأبَوا أداء الصدقة ، وذلك أنهم خرجوا يتلقونه وعليهم السلاح ، فظن أنهم خرجوا يقاتلونه ، فانصرف عنهم وأخبر بارتدادهم! فبعث النبي ﷺ إليهم خالد بن الوليد ليتثبت من الأمر ، فأتاهم فوجدهم متمسكين بالإسلام ، فنزلت الآية[1].

قال الحافظ: هذه القصة أخرجها عبد الرزاق في تفسيره عن مَعْمر عن قتادة. وأخرجه عبد بن حُميد عن يونس بن محمد عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة. ومن طريق الحَكَم بن أبان عن عكرمة نحوه. ومن طريق ابن أبي نَجيح عن مجاهد[2].

وهكذا فليس للقصة سند موصول صحيح ، فكل الطرق مرسَلة ، ولم يذكر أحدٌ منهم الصحابيَّ الذي شهد الواقعة.

وهناك حديث موصول عند الإمام أحمد[3] ، عن الحارث بن أبي ضِرار الخُزاعي ، ذكره الحافظ ثم عقَّب عليه فقال: وفي السند من لا يُعرف. وهو دينار والد عيسى بن دينار.

ثم عارَضَه الحافظ بالحديث الذي قدمناه من أن الوليد بن عُقبة كان يوم الفتح صبيّاً ، فكيف يُرسِله النبي ﷺ مُصَدِّقاً؟!.

وفي القصة أخبار أخرى واهية[4].

وقول ابن عبد البر ومن تابعه: (ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل

---

(١) الإصابة: ٣/ ٦٠١. **المصدِّق**: عامل الزكاة.

(٢) المرجع السابق ، باختصار.

(٣) مسند أحمد: ٤/ ٢٧٩.

(٤) انظر: العواصم من القواصم ، ص١٠٣ ، بالحاشية.

القرآن ـ فيما علمت ـ أن قوله عز وجل: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة)[1] ، قول مردود؛ فأين النقل الصحيح في ذلك؟! فهذا مما يتوجَّب التحري فيه ، ولا تُقبل إلا الأخبار الصحيحة السند والمتن؛ لأنها تتهم صحابيّاً بالفِسْق ، كما أن فيها اتهاماً لمن وَلَّوا مَن ثبت فِسقُه ـ كما تزعم الرواية ـ وهم أبو بكر وعمر وعثمان! والآية نفسها تحض على التثبت في قبول الأخبار.

وجازفَ ابن عبد البر ـ غفر الله له ـ مجازفة أخرى ، فقال في ترجمة الوليد: (وله أخبار فيها نكارةٌ وشناعة تَقطَعُ على سوء حاله وقُبْح أفعاله ، غفر الله لنا وله)[2]! وذكر قصة شربه الخمر، وسيأتي بيان وجه الحَق فيها.

●● حاز الوليد بن عقبة على ثقة الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ، وحسبه بذلك فضلاً ونبلاً وثقةً وجلالةً وشهادة على رفعة خصائصه وطهارة سيرته وحسن سياسته.

١ ـ كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة أبي بكر وقائده خالد بن الوليد في وقعة (المَذَار) مع الفرس سنة (١٢هـ).

٢ ـ وجَّهه أبو بكر مدداً إلى القائد عِياض بن غَنْم الفِهْري.

٣ ـ ولاَّه أبو بكر سنة (١٣هـ) صدقات قُضَاعة (في أقصى شمال السعودية قرب تبوك).

٤ ـ ولما عزم الصديق على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزلة

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٥٩٥.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٥٩٦.

عمرو بن العاص في الحرمة والثقة والكرامة ، فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى الوليد بن عقبة يدعوهما لقيادة فيالق الجهاد ، فسار عمرو بلواء الإسلام نحو فلسطين ، وسار الوليد قائداً إلى شرق الأردن[1].

٥ ـ وفي عهد الفاروق عمر ولاَّه على بلاد الجزيرة[2].

٦ ـ وولاه عثمان بن عفان على الكوفة سنة (٢٥هـ).

بهذا الماضي المجيد جاء الوليد في خلافة عثمان فتولى الكوفة له ، وكان من خير ولاتها عدلاً ورفقاً وإحساناً ، وكانت جيوشه مدة ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحة ظافرة موفقة كما قدمنا[3].

وتأمل شهادة عامر الشعبي ـ وهو من أئمة الإسلام وشاهد عيان لذلك العصر ـ وقد ذُكرت عنده فتوحاتُ مَسْلَمة بن عبد الملك ، فقال: (كيف لو أدركتم الوليد؛ غَزْوَه وإمارته! إنْ كان ليغزو فينتهي إلى كذا وكذا ، ما قصَّر ، ولا انتَقض عليه أحدٌ حتى عُزِل عن عمله)[4].

●● ولى عثمان على (الكوفة) الوليدَ بن عقبة بعد سعد بن أبي وقاص، فلبث الوليد خمسَ سنين يَسوس الكوفة بحزم وجَلَد كانت أحوج ما تكون إليهما من مثله؛ ففي عهده انتقضت أَذْرَبيجان، وكانت ولايةً تابعة للكوفة، فغزاها حتى استسلمت وصالحت ، وغزا مَن حولها من أعداء

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٣/ ٣٥١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٩ ـ ٣٩١.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٦٠٢ . والجزيرة تقع بين نهري دجلة والفرات ، وهي اليوم مجزأة بين سورية والعراق وتركية.

(٣) انظر: تعليقات محب الدين الخطيب على «العواصم من القواصم» ، ص٩٨ ـ ٩٩.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧٤.

الإسلام حتى وطَّد دعائمه. ثم يَمَّم إلى إرمينية فبعث سلمان بن ربيعة الباهلي في اثني عشر ألفاً، فشتّت شملهم. وأمره عثمان أن يُمدَّ أهلَ الشام بجيش، فوجَّه من فوره ثمانية آلاف يقودهم سلمان الباهلي. وهكذا بقي الوليد مدة ولايته يسوس الناس بحزم وحكمة وقوة مع الجهاد والغزو[1].

وكانت سيرته مع الناس من خيار سِيَر الولاة، يروي الطبري بإسناده فيقول: (وأَمَّر عثمانُ مكان سعدِ بن أبي وقاص الوليدَ بنَ عُقبة ـ وكان على عرب الجزيرة عاملاً لعمر بن الخطاب ـ فقدِمَ الوليد في السنة الثانية من إمارة عثمان، وقد كان سعدٌ عمل عليها سنة وبعضَ أخرى، فقدِم الكوفةَ؛ وكان أحَبَّ الناس في الناس وأرفقَهم بهم، فكان كذلك خمسَ سنين وليس على داره باب!).

وفي رواية أخرى: يقول عبد الله بن عُكَيْم: (واستعمل عثمانُ الوليد بنَ عقبة، فقَدِمَ الكوفة فلم يَـتَّخِذ لداره باباً حتى خرج من الكوفة)[2]!.

●● ومن الفِرى التي أُلصِقت بهذا الوالي الرحيم والفاتح العظيم؛ اتهامُه بمعاقرة الخمر، وأنه كان يَسْكَر حتى ظهر منه ذلك في صلاة الفجر فصلى ركعتين ثم قال للناس: أزيدُكم؟ وفي رواية: أنه صلاها أربعاً!.

وإن مَن عنده مَسْكَة من عقل أو ذرة من تحقيق وإنصاف لَيَستبعدُ أن يصدر هذا العمل المتهوِّر من إمام مسجد صغير في زماننا حتى لا يفتضح

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص ١٠٦؛ وانظر ما كتبناه عن فتوحات الوليد: ص ٣٧١ ـ ٣٧٢، ٣٨١ ـ ٣٨٢ في هذا الكتاب.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥٢.

أمرُه ، فكيف بوالٍ عظيم وفاتح مجاهد قد أجمع على توليته أعظمُ رجالات الإسلام : أبو بكر وعمر وعثمان؟! ثم هو في بلد كبير شهير وفي مسجد جامع يشهده أكابر الصحابة والتابعين ، فأين أصواتهم وإنكارهم المنكرَ ورفع الأمر إلى الخليفة الراشد؟! فلقد شهد لهم التاريخ أنهم لم يسكتوا عن أشياء أصغر من هذا الأمر بكثير؛ فلماذا سكت التاريخ عن إثبات شهاداتهم ونَقْلِ مواقفهم يا ترى؟!.

وخلاصة الحكاية جاءت في «صحيح مسلم» :

قال حُضَيْن بن المُنذر أبو سَاسَان : (شهدتُ عثمانَ بن عفان وأُتي بالوليد ، قد صلَّى الصبحَ ركعتين ، ثم قال : أَزيدُكُم؟ فشهدَ عليه رجلان أحدُهما حُمران أنه شَرِب الخمر ، وشهد آخَرُ أنه رآه يَـتَقَيّأُ ، فقال عثمان : إنه لم يَـتقيّأْ حتى شَرِبَها! فقال : يا عليُّ ، قُمْ فاجْلِدْه ، فقال عليٌّ : قُمْ يا حسنُ فاجْلِدْه ، فقال الحسن : وَلِّ حارَّها من تولَّى قارَّها[1]! فكأنه وَجَدَ عليه. فقال : يا عبد الله بن جعفر قُمْ فاجْلِدْه ، فجَلَدَه وعليٌّ يَعُدُّ ، حتى بَلَغَ أربعينَ ، فقال : أَمْسِكْ. ثم قال : جَلَد النبيُّ ﷺ أربعين ، وجَلَد أبو بكر أربعين ، وعمرُ ثمانين ، وكلٌّ سُنَّةٌ ، وهذا أَحَبُّ إليَّ)[2].

•• ويذكر الإمام الطبري عدة روايات تبرِّئُ هذا الصحابي الوالي

---

(١) **الحار** : الشديد المكروه ، **والقار** : البارد الهنيء الطيب. والمراد : ولِّ شرَّها من تولى خيرَها ، أو : ولِّ صعبَها من تولى سهلها! والمقصود من (**الحارّ**) في كلام الحسن : إقامة الحد ، و(**القارّ**) : الخلافة ، أي ليتولَّ هذا الجلدَ عثمانُ أو بعض خاصة أقاربه الأدنين ، ومعناه : كما أن عثمان وأقاربه يتولون هنيء الخلافة ، يتولون نكدها.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٠٧)؛ وأبو داود (٤٤٨٠)؛ وابن ماجه (٢٥٧١) ، وغيرهم.

الفاتح المجاهد من هذه الموبقة ، وأنه افتُري عليه من موتورين ،
وخلاصة ما رواه الطبري :

أن الوليد قدِم الكوفة وكان أحبَّ الناس في الناس ، وأرفقَهم بهم ، فكان كذلك خمسَ سنين وليس على داره باب. ثم إن شباباً من أهل الكوفة نَقَبوا على ابن الحَيْسُمان الخُزاعي فقتلوه ، وأحاط بهم الناس وأُخذوا ، وكان فيهم : زهير بن جُندب الأَزْدي ، ومُوَرِّع بن أبي مورِّع الأَسَدي ، وشُبيل بن أُبيّ الأَزْدي ، في عدة. فشهد عليهم أبو شُريح الخُزاعي وهو من أصحاب رسول الله ﷺ ، وابنُه ، وكانا جارَيْن لابن الحَيْسُمان ، فكتب فيهم الوليد إلى عثمان ، فكتب إليه عثمان في قَـتْلِهم ، فقَـتَلهم الوليد.

ثم إن الوليد أتاه صديق له نصراني يُـدعى أبا زُبَيد ، كان الوليد قد انتصر له في بني تَغْلب حينما كان على الجزيرة من قِبل عمر بن الخطاب ، وكان أبو زُبيد نازلاً في بني تغلب ، وهم أخواله ، فاضطهدوه ، فأخذ له الوليد بحقِّه ، فشكرها له أبو زبيد ، وانقطع إليه.

فلما ولي الوليد الكوفة أتاه أبو زبيد مسلِّماً معظِّماً على مثل ما كان يأتيه في الجزيرة والمدينة ، فلم يزل به الوليد يدعوه إلى الإسلام حتى أسلم وحَسُن إسلامه ، فكان من خاصته. فاستدخله الوليد ، وكان عربيّاً شاعراً ، فأتى آتٍ أبا زينب وأبا مورِّع وجُنْدباً ـ وهم يحقدون على الوليد مذ قَتل أبناءهم ، ويَضَعُون له العيون ـ فقال لهم : هل لكم في الوليد يشارب أبا زُبيد؟ فثاروا في ذلك. فقالوا لأناس من وجوه أهل الكوفة : هذا أميرُكم وأبو زُبيد خِيرتُه ، وهما عاكفان على الخمر! فقاموا معهم ، ومنزل الوليد في الرحبة مع عمارة بن عقبة ، وليس عليه باب ، فاقتحموا

عليه من المسجد وبابه إلى المسجد ، فلم يُـفْجَأ الوليد إلا بهم ، فنحَّى شيئاً فأدخله تحت السرير ، فأدخل بعضهم يده فأخرجه ، لا يؤامره ، فإذا طبقٌ عليه تفاريقُ عنب ـ وإنما نحَّاه استحياءً أن يروا طبقَه ليس عليه إلا تفاريق عنب! ـ فقاموا ، فخرجوا على الناس ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وسمع الناس بذلك ، فأقبل الناس عليهم يسبُّونهم ويلعنونهم. فسَتَر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان ، ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء ، وكره أن يُـفسد بينهم ، فسكت عن ذلك وصبر! .

وفي رواية أخرى: عن عون بن عبد الله قال: جاء جندب ورهطٌ معه إلى ابن مسعود ، فقالوا: الوليد يعتكف على الخمر ، وأذاعوا ذلك حتى طُرح على أَلْسُن الناس ، فقال ابن مسعود: مَن استتر عنّا بشيء لم نتتبَّع عورته ، ولم نهتك سِتره. فأرسل إلى ابن مسعود فأتاه ، فعاتَبَه في ذلك وقال: أَيُرضَى من مِثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبتَ عَلَيَّ! أيُّ شيء أستتِرُ به؟ إنما يُـقال هذا للمريب! .

ثم إن أبا زينب وأبا مورِّع سرقا خاتمَ الوليد ، فقدِما به على عثمان ، ومعهما نفرٌ ممن يعرف عثمانُ ممن قد عزل الوليدُ عن الأعمال ، فقالوا له ، فقال لهم: مَن يشهد؟ قالوا: أبو زينب وأبو مورِّع ، وكَعَّ[1] الآخرون. فقال: كيف رأيتما؟ قالا: كنّا من غاشيته ، فدخلنا عليه وهو يَـقيءُ الخمر ، فقال عثمان: ما يقيءُ الخمر إلا شاربها. فبعث إليه ، فلما دخل على عثمان رآهما ، فقال متمثلاً:

ما إنْ خشيتُ على أمرٍ خلوتُ به فلم أَخَفْكَ على أمثالها حارِ

---

(١) أي: جَبُنَ وضَعُف.

فحلف الوليد لعثمان وأخبره خبرهم ، فقال عثمان : نُقيم الحدودَ ، ويبوءُ شاهد الزور بالنار ، فاصبِرْ يا أخي[1] !.

●● واستنكر ابن عبد البر روايات الطبري هذه لضعف إسنادها ، ورجَّح رواية حُضين بن المنذر ، وأنه أُقيم عليه الحدّ حقّاً ، وأنه كان شِرِّيب خمر[2] !.

والذي يظهر لنا أنه لا ينبغي القطع ببطلان روايات الطبري ، ولا بأن الوليد كان شرب الخمر في نفس الأمر ، وذلك لوجوه :

١ ـ إن رواية «صحيح مسلم» إنما تدل على أن الوليد أقيم عليه الحدُّ بشهادة شهود ، ولا تدل على شرب الخمر في نفس الأمر ، وإن الإمام إنما يعمل بظاهر الشهادات ، وإن عمله في إقامة الحد على رجل لا يستلزم أن يكون الرجل جانياً في الواقع ، كما هو مقتضى قوله ﷺ : «**ولعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجَّته من الآخر**».

فروايات مسلم لا تنافي روايات الطبري إلا في أن حُمران كان أحد الشهود ، وهو ثقة ، ولكن لم يُذكر اسم حمران في الشهود إلا في هذه الرواية ، ولا يُستبعد أن يكون أحد الرواة ، مثل عبد الله الداناج الذي تكلم فيه الطحاوي ، وَهِمَ في تسميته ، ووَهَمُ الراوي في بعض أجزاء الرواية لا ينافي كونَ الرواية صحيحةً من حيث المجموع. وإن نسبة الوَهَم إلى بعض الرواة في هذا الجزء البسيط من القصة أهونُ من نسبة اختلاق القصة الطويلة التي ذكرها الطبري إلى رواتها، وهم أكثر من واحد.

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٧١ ـ ٢٧٧ .

(٢) الاستيعاب : ٣/ ٥٩٦ ـ ٥٩٨ .

٢ ـ إن روايات الطبري أَوْفَقُ بسِيَر الصحابة ، والوليد بن عقبة رضي الله عنه من الصحابة الذين حَسُنَ إسلامُهم ، وكان له من المناقب أيام إمرته ما قدمناه في ترجمته.

٣ ـ إن الوليد بن عقبة تربَّى في كَنَف عثمان رضي الله عنه ، ويُستبعد من مثله أن يتعاطى مثل هذه الفضائح ، وإن روايات الطبري تبيِّن براءته من ذلك.

٤ ـ قد ذكرنا أن الوليد لم يكن على داره باب ، وظاهر أن ذلك لكثرة من يأتيه من الناس لحاجاتهم ، وإن الرجل إذا كان شِرِّيب خمر ، فإنه لا يَترك أبوابه مفتوحة لكل من يقتحم عليه ، وإنما يهتم بأن تتهيأ له خلوة لا يتدخل أحد فيها ، فروايات الطبري تؤيدها الدراية أيضاً.

٥ ـ أخرج عمر بن شبة[١] عن أبي الضُّحى قال: (كان أبو زينب الأسدي وأبو مُوَرِّع يلتمسان عثرة الوليد) ، ثم ذكر أنهما رأيا الوليد يقيء ، فنزعا خاتمه ، وذهبا إلى عثمان ، ثم قال: (فشهدوا عليه: أبو زينب ، وأبو مُوَرِّع ، وجُنْدب الأسدي ، وسعد بن مالك الأشعري) ، فذكر أن الوليد إنما حُدَّ بسبب هؤلاء الذين كانوا يلتمسون عَثْرته ، ولم يذكر حُمران في الشهود. فهذا مما يؤيد روايات الطبري ، وقد أشار الحافظ إلى هذه الرواية وحسَّن إسنادها[٢].

٦ ـ وأخرج عمر بن شَبَّة أيضاً عن خالد بن سعد قال: (لما ضَرب

---

(١) أخبار المدينة: ٣/ ٩٧٢.

(٢) الفتح: ٨/ ٦٤١ شرح الحديث (٣٦٩٦).

عثمانُ الوليدَ الحدَّ ، قال: أَبصرتَني اليوم بشهادةِ قوم لَيَقتلنَّك عاماً قابلاً!)[١].

٧ ـ ثم الذي يظهر أن سيدنا عثمان بن عفان لم يزل في شك في صحة شهادة الشهود على الوليد ، ويتبين ذلك مما كتبه إلى أهل الكوفة بعد عزل الوليد ، فقد أخرج ابن شَبَّة عن سلمة بن أبي اليقظان قال: (لمَّا ولى عثمان سعيد بن العاص الكوفة كتب إلى أهلها: من عبدِ الله عثمان أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، سلامٌ ، أما بعدُ؛ فإني استعملت عليكم الوليد بن عقبة ، حتى تولّت مَنَعتُه ، واستقامت طريقتُه ، وكان من صالحي أهله ، وأوصيته بكم ولم أوصكم به ، فلما بَذَل لكم خيره ، وكَفَّ عنكم شرَّه ، وغلبتكم علانيتُه؛ طعنتم في سريرته ، والله أعلم بكم وبه. . .)[٢].

فهذه الروايات والقرائن كلها تؤيد روايات الطبري[٣].

وانظر إلى موقف الخليفة الراشد عثمان فإن قرابةَ الوليد منه ـ والتي يزعم الكَذَبة أنها سببُ محاباته له ـ لم تشفَعْ له ، بل لزِم عثمانُ الشدة والصرامة فأقام الحدَّ على الوليد وعَزَلَه ، وطيَّب خاطر الوالي المجاهد المظلوم بأن يصبر والله ولي الجزاء.

●● ولقد أساء كثير من المتقدمين والمتأخرين القولَ في هذا الصحابي الوالي الفاتح الكبير ، الذي زكَّاه الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان ،

---

(١) أخبار المدينة: ٣/ ٩٧٤.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) تكملة فتح الملهم: ٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

فأَلْقَوا الكلام على عواهِنِه ولم يُغربلوا الروايات ، ولم يمحِّصوا الحقائق!.

فلقد أخطأ الذهبي خطأ فاحشاً حيث نقل خبراً معزوّاً للوليد وأنه قال في شرب الخمر:

لَأَشربَنَّ وإنْ كانت محرَّمةً وأَشرَبَنَّ على رغمِ أنفِ مَنْ رَغِمَا!

فهذا كلامٌ لا يقوله إلا رجلٌ مستهتر سكِّير عربيد!..

ثم أثبتَ الذهبي على الوليد أنه صلى الفجر أربعاً وهو سكران ، دون أن يحقق في المسألة على خطورتها ، بل عقَّبَ على ذلك فقال: (وهذا مما نَقَموا على عثمان أن عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة ، وولَّى هذا. وكان مع فسقه ـ والله يسامحه ـ شجاعاً قائماً بأمر الجهاد!)[1].

وهذا مصير من الذهبي ـ وهو الإمام الناقد ـ إلى أن السبئيين كانوا محقِّين في بعض ما نقموه على عثمان! ثم لا يستطيع عاقل أن يفهم تناسقَ كلام الذهبي في أوله وآخره؛ إذ كيف يكون الرجل سكّيراً ومجاهداً؟! وهو كلام باطل أحببتُ الإشارة إليه حتى لا يغترّ امرؤٌ به ولو كان قائله مثل الذهبي على جلالته ومكانه من العلم!.

فإذا كان أئمة مؤرخينا يقولون هذا ، فماذا يقول أصحاب الأهواء؟! تأمَّلْ ما يقوله المؤرخ الشيعي أبو الحسن المسعودي في الوليد:

(وهو ممن أَخبر النبيُّ ﷺ أنه من أهل النار!). ما هذا الكذب على رسول الله ﷺ ، والتألي على الله تعالى ، يا من تلقَّب بالإمام؟!.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤١٤ ـ ٤١٥.

ثم قال: (وكان السبب في صَرْف الوليد بن عقبة وولاية سعيد بن العاص على ما روي: أن الوليد كان يَشرب مع نُدمائه ومغنّيه من أول الليل إلى الصباح، فلما آذَنه المؤذن بالصلاة، خرج متفضِّلاً في غلائله، فتقدَّم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلى بهم أربعاً وقال: أتريدون أن أزيدكم؟ وقيل: إنه قال في سجوده وقد أطال: اشرَبْ واسقِني!)[1].

هذه عمدة هذا (الإمام المؤرخ): (على ما روي)، (وقيل)! في حق صحابي مجاهد فاتح حاز رضا أبي بكر وعمر وعثمان، وتزكيتَهم له، وائتمانه على الولاية والجهاد!.

وكلام المسعودي نموذج لِما كتبه المفترون على تاريخنا المثخن بجراح الروايات التائهة التي لا نسب لها ولا سند ولا خطام ولا زمام! فهل يُقال هذا الكلام إلا في رجل كان يلازم التردد إلى الحانات؟!.

وللمسعودي وأمثاله موقف بين يدي العزيز الجبار على ما يُطلقونه من الكلام المرسَل المكذوب، ويقعون في أعراض البرآء، وخاصة أصحاب نبينا ﷺ.

١٠ ـ عبد الله بن سعد بن أبي السَّرْح:

●● هو الأمير قائد الجيوش عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري. أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، له صحبة ورواية حديث[2].

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٣.

أَزَلَّه الشيطان فارتدَّ ، وفي فتح مكة شَفَع له عثمان عند النبي ﷺ فقَبِل شفاعته[1] ، وحَسُن إسلامه رضي الله عنه.

كان مصاحباً لعمرو بن العاص منذ أيام فتوحه في فلسطين حيث كان أحدَ قواده ، واشترك معه في فتوح مصر وجعله عَمرو على ميمنة جيشه. وعَيَّنه الفاروق عمر على صعيد مصر ، وتوفي عمر وهو والٍ عليها[2].

وفي عهد عثمان أقرَّ عَمْراً أميراً على مصر ، فاستمر في عمله فاتحاً مظفَّراً ، وأنهى انتقاض الروم في الإسكندرية وغيرها ، وابنُ أبي سَرْح معه. ثم عَهِد عثمان لعمرو بإمرة الحرب والفتوحات ، ولابن أبي سرح على الجزية وخَرَاج مصر. وأَحَدث أهل الفتنة وشايةً بين عمرو وابن أبي سرح ، فتباغَضَا ، فعَزَل عثمان عَمْرَاً ، وجَمع ولاية مصر كلها لابن أبي سرح ، وذلك في سنة (٢٥هـ).

قال عالم مصر وفقيهها الليث بن سعد: (كان عبد الله بن سعد والياً لعمر بن الخطاب بمصرَ على الصَّعيد ، ثم ولاَّه عثمان مصرَ كلَّها ، وكان محمودا)[3].

وقام هذا الصحابي المجاهد بمدِّ رُوَاق الفتوحات إلى أعماق شمال إفريقية ، وغزا غزوات كثيرة بنفسه وكان في مقدمة الكتائب ، وفي جيشه ببعض تلك الغزوات عدد من جِلّة الصحابة مثل عبد الله بن عُمر وعبد الله بن عَمْرو وعبد الله بن الزبير ، وحسبك بذلك جلالةً أن يتأمَّر

---

(١) انظر ما تقدم: ص ٦٩ ـ ٧٠ في هذا الكتاب.

(٢) فتوح مصر، ص٢٠٠؛ ولاة مصر، ص٣٤ ـ ٣٥؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٣.

(٣) ابن عساكر ـ ترجمة ابن أبي سرح ، ص٣٢.

على أمثال هؤلاء الصحابة الكرام[1].

وكان في أثناء المعارك يَصفُّ جندَه ويأمرهم بقراءة القرآن وبالصبر[2].

وقد أثنى عليه عبد الله بن الزبير ـ وابن الزبير مشهور بصلابته وجرأته في الحق ، وقد صَحِبَ ابنَ أبي سرح طويلاً وجاهد تحت لوائه ـ عندما قدِمَ من إفريقية إلى المدينة ليبشِّر الخليفة والمؤمنين بفتح إفريقية ، فقام أمام عثمان وحشدٍ من الصحابة فيهم أبوه الزبير ، فقال: (أيها الناس ، رحمكم الله ، إنَّا خرجْنَا للوجه الذي علمتُم ، فكُنَّا مع والٍ حافظ ، حَفِظَ وصيةَ أمير المؤمنين؛ كان يسير بنا الأَبْرَدَيْن ، ويَخفض بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل جَمَلاً ، ويعجِّل الرحلة من المنزل الجَدْب ، ويُطيل اللَّبْث في المنزل الخِصْب ، فلم نزل على أحسن حالٍ نعرفُها من ربِّنا حتى انتهينا إلى عدوِّنا. . .)[3].

وهي شهادة جليلة ووصفٌ دقيق لسيرة ابن أبي سَرْح وحسنِ سياسته ورحمته ونُبله وبراعةِ قيادته ، وما سمعنا من أحدٍ من الصحابة ـ وهم الشهود العدول ـ أنه شكا هذا الأمير أو طعن عليه.

●● وكان عفيفاً زاهداً جواداً كريماً ، مطيعاً للخليفة ، حريصاً على وحدة الأمة ووأدِ أي بوادر للفتنة فيها. ومن ذلك أن أمير المؤمنين عثمان

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٤؛ وانظر ما تقدم: ص ٣٩٣ ـ ٤٠٣ في هذا الكتاب.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٩١ ـ ٢٩٢.
(٣) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٢١٣؛ وانظر: نسب قريش ، ص٢٣٨ ـ ٢٣٩. **الأَبْردان**: الغداة والعشيّ. **اتخذ الليل جَمَلاً**: مَثَل يُضرب للرجل إذا سَرَى ليلته جمعاء ، أو أحياها بصلاة أو غيرها من العبادات.

وعده إنْ فتح إفريقية أن ينفِّله خمسَ الخمس ، فلما تمَّ ذلك وأخذ ابن أبي سرح النَّفَل الذي وُعِد به ، ارتعدت آنافُ رهط من الرعية واعترضوا على عثمان في ذلك ، فأمر عثمان واليه بردِّ ذلك المال ، فسمع وأطاع وما ألقى للدنيا وأموالها بالاً[1]! .

وقد افتأتَ بعض الشانئين وأصحاب الهوى على أمير المؤمنين عثمان وابنِ أبي سرح ، وغمزوا من توليته ، فقالوا: (واستعمل عثمان على مصر عبد الله بن أبي سَرْح أخاه من الرضاعة)[2] .

ولا ضَيرَ على عثمان في هذا ، فقد استعمله عمر من قبله ، وشهدَتْ أيام ولايته على كفاءته ونزاهته ، وحسنِ سياسته ، كما شهد له بذلك الصحابة الذين جاهدوا تحت لوائه، وهم الصادقون المُصدَّقون في ذلك .

●● وفي سنة (٣٥هـ) ذهب ابن أبي سرح إلى المدينة عن أمر الخليفة حيث تفاقمت الفتنة عليه ، وعيَّن عبدُ الله على مصر مَن يَخْلُفه. وفي غيابه تغيرت الأمور وتولى كِبْرَها محمد بن أبي حذيفة ، ولمّا رجع ابن أبي سرح إلى مصر ردَّته جند ابن أبي حذيفة ، فآثر السلامةَ وعدمَ الفتنة فتوجَّه إلى فلسطين[3] .

ومن تورعه أنه اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان ، فلم يبايع لعلي ولا لمعاوية[4] .

(١) تقدم: ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ في هذا الكتاب.
(٢) الكامل في التاريخ: ٣/ ٨٨؛ الولاية على البلدان ، ص٢٤٢ .
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧٨؛ ولاة مصر ، ص٤٠ .
(٤) ابن عساكر ـ ترجمته ، ص٢٠ ـ ٢١ ، ٢٣ .

ونزل فلسطين ومات بالرَّمْلة ، وقد أكرمه الله بحسن الخاتمة؛ روى يزيد بن أبي حبيب قال: (لما حضرتْ عبدَ الله بن سعد الوفاةُ وهو بالرملة ، وكان خرج إليها فارّاً من الفتنة ، فجعل يقول لهم من الليل: أصبحتُم؟ فيقولون: لا . فلما كان عند الصبح قال: يا هشامُ بن كِنانة ، إني لأَجدُ بَرْدَ الصبح فانظرْ ، ثم قال: اللهمَّ اجعلْ خاتمة عملي الصبحَ . فتوضأ ثم صلى ، فقرأ بأول ركعة بأمِّ القرآن والعاديات ، وفي الأخرى بأم القرآن وسورة ، فسَلَّمَ عن يمينه ، وذَهَبَ يُسلِّم عن يساره ، فقَبَض الله روحَه!)[1] .

١١ ـ مروان بن الحَكَم بن أبي العاص الأموي:

ابن عم عثمان وكاتبه وأمين سِرِّه ، ولد في عهد النبي ﷺ ورآه .

●● روى الحديث عن: عثمان وعلي وزيد بن ثابت وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة .

وحدث عنه: الصحابي سَهْل بن سعد ، وعدد من أكابر التابعين منهم زين العابدين علي بن الحسين ، وابن المسيِّب ، وعُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، وغيرهم[2] .

والذي يتأمل في الأحاديث المروية عن مروان يجد حَمَلتَها من الأئمة الثقات تتسلسل روايتُهم عنه مدة جيلين وأكثر ، وكلُّهم أعلى مرتبةً في

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٩؛ وذكره الحافظ في الإصابة: ٢/٣٠٩ ـ ٣١٠ ، وعزاه للبغوي ، وصححه .

(٢) تهذيب الكمال: ٢٧/٣٨٨ .

الإسلام من الذين يَبْرُدُونَ الغِلَّ الذي في قلوبهم بالطعن في مروان ومن هو خير من مروان[1]!.

ومروان رجل عَدْلٌ من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين. وفقهاءُ الأمصار كلّهم على تعظيمه واعتبارِ خلافته والتلفت إلى فتواه والانقياد إلى روايته[2].

أخرج حديثَه البخاري وأصحاب السنن وأحمد وعبد الرزاق وغيرهم من أئمة الإسلام.

والذي يتتبَّع حديثَه في كتب هؤلاء الأئمة يرى حرصَه الشديد على الحديث النبوي، وغيرتَهُ على السُّنَّة، وملازمتَه تطبيقَ فرائضها وسُننها وآدابها، ومناصحة الصحابة له وهو أمير المدينة لمعاوية، فكان يعمل بمناصحتهم ويلازم هدي السُّنَّة.

عن سعيد المَقْبُرِيِّ قال: (كنَّا في جَنَازة فأَخذ أبو هريرة بيدِ مروانَ فجلسنا قبل أن تُوضَع، فجاء أبو سعيد ـ الخُدْري ـ رضي الله عنه فأخذ بيد مروان فقال: قُمْ؛ فوالله لقد عَلِمَ هذا أن النبي ﷺ نَهانا عن ذلك، فقال أبو هريرة: صَدَق)[3].

ومن روائع حرصِه على السُّنَّة وإقامتها ونَشْرِها ومناقشة علماء الصحابة في توثيقها وتثبيتها؛ ما رواه أبو بكر بن عبد الرحمن بن

---

(١) من تعليقات العلامة محب الدين الخطيب على «العواصم من القواصم»، ص ١٠١.

(٢) من كلام ابن العربي في: العواصم من القواصم، ص١٠١ ـ ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٠٩).

الحارث بن هشام قال: (كنتُ أنا وأبي عند مروان بن الحَكَم ، وهو أميرُ المدينة ، فذُكِرَ له أن أبا هريرة يقول: مَن أصبح جُنُباً أَفطرَ ذلك اليومَ! قال مروان: أقسمتُ عليك يا عبد الرحمن لَتَذهبنَّ إلى أُمَّيِ المؤمنين عائشة وأم سلمة ، فَلَتسألَنَّهما عن ذلك. فذَهَبَ عبد الرحمن وذهبتُ معه ، حتى دخلنا على عائشة ، فسلَّم عليها ، ثم قال: يا أمَّ المؤمنين ، إنَّا كنا عند مروان بن الحكم ، فذُكرَ له أن أبا هريرة يقول: مَن أصبحَ جُنُباً أفطر ذلكَ اليوم! قالت عائشة: ليس كما قال أبو هريرة ، يا عبدَ الرحمن أترغَبُ عمَّا كان رسول الله ﷺ يَصنَعُ؟ فقال عبد الرحمن: لا والله ، قالت عائشة: فأشهدُ على رسول الله ﷺ أنه كان يُصْبِحُ جُنُباً من جماعٍ غيرِ احتلامٍ ، ثم يصوم ذلك اليوم. قال: ثم خرجنا ، حتى دخلنا علَى أم سَلَمة ، فسألَها عَن ذلك ، فقالت مثلَ ما قالت عائشة. قال: فخرجنا حتى جئنا مروانَ بن الحَكَم ، فذَكَرَ له عبد الرحمن ما قالتا ، فقال مروان: أَقسمتُ عليكَ يا أبا محمد ، لَتركَبَنَّ دابَّتي ، فإنها بالباب ، فَلَتذهَبنَّ إلى أبي هريرة ، فإنه بأرضِهِ بالعَقِيق ، فَلَتُخبِرنَّه ذلك. فركِبَ عبد الرحمن وركبتُ معه ، حتى أتينا أبا هريرة ، فتحدَّث معه عبد الرحمن ساعةً ، ثم ذَكَرَ له ذلك ، فقال له أبو هريرة: لا عِلْمَ لي بذاك ، إنما أَخْبَرنِيه مُخْبِرٌ)[1] .

وأخباره في هذا كثيرة أكتفي بما ذكرته .

وكان مروان سيداً من سادات شباب قريش ، وعَلاَ نجمُه في أيام

---

(١) أخرجه مالك: ١/ ٢٩٠؛ والبخاري (١٩٢٥) و(١٩٢٦)؛ ومسلم (١١٠٩) ، وغيرهم.

عثمان بن عفان ، وقد شَهِد له الإمام مالك بالفقه واحتجَّ بقضائه وفتاواه في مواضع من كتابه (الموطأ)[1] .

وعن قَبِيصة بن جابر ـ أحدِ ثقات التابعين ـ أنه قال لمعاوية بن أبي سفيان : مَنْ تركتَ لهذا الأمر ـ أي الخلافة ـ من بعدِك؟ فقال : أمَّا القارئ لكتاب الله ، الفقيهُ في دين الله ، الشديدُ في حدود الله ؛ مروان بن الحكم . وقد ولاه معاوية (المدينة) غير مرة[2] .

وأثنى ابن تيمية على مروان في مواضع من كتبه ، ومما قاله : وكان مروان مسلماً باطناً وظاهراً ، يقرأ القرآن ويتفقه في الدين ، ولم يكن قبل الفتنة معروفاً بشيء يُعاب به[3] .

●● ومن جلائل أعمال مروان عندما كان أميراً على المدينة أنه أَحرق (الصُّحف التي كانت عند أم المؤمنين حفصة) كما قدمنا عند حديثنا عن (جمع القرآن)[4] ، وذلك خشيةَ أن يقع توهّمٌ للأجيال القادمة أنه قد كان منها شيء لم يُكتب في (المصحف الإمام) الذي استقر عليه الأمر . وهي لفتة من لفتات العقل الوثاب عند هذا الرجل العبقري .

وفي ولايته على المدينة في عهد معاوية كان يُقيم للناس الحج عدة سنين[5] ، وكان فيها أكابر الصحابة يسألهم ويستفتيهم في تسيير أمور

---

(١) انظر مثلاً : موطأ مالك : ٢/ ٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٧٢٨ .
(٢) البداية والنهاية : ٨/ ٢٥٧ .
(٣) منهاج السنة : ٣/ ٦٧٨ .
(٤) انظر ما تقدم : ص ٢٥٧ في هذا الكتاب .
(٥) البداية والنهاية : ٨/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

الولاية على السُّنَّة ، وإذا قصَّر أو خالَفَ نصحوه ، فعمل برأيهم. ولم يتكلَّم أحدٌ منهم فيه بسوء ، أو يَطعن عليه ، وإنما أتى الغِلّ والضِّغْن من الخالِفين وأصحاب الهوى الذين يُبغضون عثمان ، ليشنِّعوا عليه في تقريبه مروانَ وجعله كاتبه وأمينَ سرِّه على خاتمه!.

والأحاديث التي فيها ذمُّ مروان بن الحكم كلها كَذِبٌ كما قال ابن القيِّم[1].

●● وأهل الهوى ومَن لا يعرفون صدر هذه الأمة وفضائلها وإخلاصها يظنون أن عثمان قد جاء بمروان ـ وغيره ـ من عُرْض الطريق ، فولاَّه بعضَ شؤون الدولة وائتمنه عليها! والذين أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام والصدق والإنصاف؛ يعلمون حق العلم مكانة أولئك الرجال من ولاة عثمان وفضائلهم وكفاءتهم.

ومن ذنوب التاريخ والمؤرخين روايةُ أخبار ساقطة فيها اتهامات باطلة ، تعلَّق بأهدابها مرضى القلوب ، فأَعْمَتْ أبصارَهم ، أو أنهم تعامَوا عمداً عن الروايات الثابتة الكثيرة والتاريخ الناصع المجيد وثقةِ أكابر الأمة بأولئك الولاة من مثل مروان ومن هو خير من مروان!.

فكيف يَقبل عاقل أن يُتَّهم عثمان الخليفة الراشد أنه ولى رجلاً خؤوناً نهَّازاً للفرص ، متآمراً على الخلافة ، متجاوزاً للحدود ، مضحِّياً بمصير الأمة وتاريخها ورجالها وأمجادها؟! أو أن يَظن بعثمان الضعف والغفلة عن أفاعيل مروان المزعومة؟!.

وكيف يُقبل من حافظ مؤرخ نقَّاد كالإمام الذهبي أن يفتتح ترجمة

---

(١) المنار المنيف ، ص ١١٧ رقم (٢٦٢).

مروان بقوله: (وكان كاتِبَ ابن عمِّه عثمانَ، وإليه الخاتم، فَخَانَه، وأَجْلَبوا بسببه على عثمان! ثم نَجَا هو، وسار مع طلحة والزبير للطلب بدم عثمان، فقَتَلَ طلحةَ يوم الجمل، ونَجا ـ لا نُجِّيَ! ـ ثم ولي المدينةَ غير مرة لمعاوية)[1].

والزعم بأن مروان خان عثمانَ ـ يعني في كتابة الكتاب المزوَّر ـ هو زعمٌ ساقط متهافت، وقصة الكتاب مفتعَلة ملفَّقة كما سنوضحه فيما يأتي[2]. واتهامُ مروان بهذا الأمر يقتضي تبرئةَ رؤوس الفتنة من السبئيين الذين زوَّروا هذا الكتاب وغيره!.

والقول بأن مروان هو قاتلُ طلحة ليس عليه دليل ثابت، كما حققنا ذلك في ترجمة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه[3].

ولسنا بذلك نزعم عصمة مروان من ارتكاب أخطاء أو تقصير، لكننا قصدنا إلى التنبيه على مجاوزة المعقول في شأن هذا الرجل الذي قدمنا لمحة طيبة عن سيرته وتاريخه، والذي يَضعُه علماؤنا وأئمتنا ومَن أخذنا عنهم ديننا؛ بين رجال الطبقة الأولى من التابعين، وهم خير الناس بعد أصحاب رسول الله ﷺ[4].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٧٧.

(٢) انظر ما سيأتي: ص ٦٣٤ وما بعدها في هذا الكتاب.

(٣) انظر: كتابي «العشرة المبشرون بالجنة»، ص٥٤٠ ـ ٥٤٤.

(٤) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٣٥، بتصرف.

الفصل الثالث

أعمال الولاة وواجباتهم

أولاً: وظائف الدولة الإسلامية:

أعمال كل والٍ في ولايته وواجباتُه فيها هي صورة مصغرة من وظائف الدولة الإسلامية ، والتي تتمحور في أمور كبرى وركائز ضخمة ، تتلخص بما يلي :

١ ـ تأمين الأمن الداخلي والدفاع الخارجي .

٢ ـ الوظيفة القضائية ، وتشمل إقامة العدل بإنصاف المظلوم ومَنْع الاعتداء والظلم ومعاقبة الجُنَاة .

٣ ـ الوظيفة المالية والاقتصادية .

٤ ـ الوظيفة العقائدية الأخلاقية .

٥ ـ حماية الدعوة إلى الإسلام ونظامه وحكمه (الجهاد) .

٦ ـ تولية من يقومون بوظائف الولاية وشؤونها من أهل الكفاية والأمانة[١] .

ثانياً: أعمال الولاة وواجباتهم:

وسيرة الولاة في عهد عثمان وأعمالهم وواجباتهم مضت على الخط

---

(١) نظام الإسلام «الحكم والدولة» ، محمد المبارك ، ص٨٦ ـ ٩٣ .

العام الـذي استقر عليه في عهد الفاروق عمر ، ونجمل ذلك باختصار فيما يلي[1]:

١ ـ إقامة أمور الإسلام ومبادئه ورعاية شؤونه:

ويتجلى ذلك في نشر الإسلام في البلاد المفتوحة ، وإقامة الصلاة ويقوم الوالي بإمامة الناس وخطبتهم في مركز الولاية ، وحفظ الدين وأصوله ، وتخطيط المساجد وبنائها وتأمين كل ما يلزمها ، وتيسير سُبل الحج وتأمين طرقه ، وإقامة الحدود الشرعية ، وتنظيم العلاقة مع أهل الذمة ومعاملتهم بأحكام الشريعة ، وحفظ حقوقهم ومطالبتهم بالواجبات الملقاة عليهم .

٢ ـ تأمين حياة الناس والحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم:

بإقامة الحدود ، وحراسة الثغور ، وحفظ الأمن ، وملاحقة المفسدين ، ومنع أسباب فساد الأخلاق ، وتأمين الطرق وحركة التنقل والتجارة ونحو ذلك .

٣ ـ الجهاد والفتوحات:

وذلك بتنظيم الجيوش ، وترتيب شؤونها ، وتوفير العتاد ولوازم القتال ، وتعليم الغلمان الرمي وركوب الخيل وإعدادهم للجهاد ، ودعم الأجناد بالمتطوعين والإمدادات ، وتحصين البلاد ، وحماية الثغور وشحنها بالجند والسلاح ، ومتابعة دواوين الجنود ، ومراقبة العدو

---

(١) انظر: الولاية على البلدان ، ص٢٩٥ ـ ٢٩٩؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص١١٧ ، ٢٩٦ .

وتتبع أخباره ، وعقد المعاهدات مع الأعداء وأهل البلاد المفتوحة.

٤ ـ إدارة الشؤون المالية والقيام عليها:

ويقوم الوالي بذلك من خلال المُصَدِّقين وعمال الخَراج وموظفي بيت المال والديوان ، حيث يتم توزيع الرواتب والأَعْطيات والأرزاق على الناس ، وكذلك الزكوات والغنائم والأخماس.

٥ ـ القيام على الشؤون الإدارية وتصريف الأعمال:

حيث كان الولاة مسؤولين عن تعيين العمال الفرعيين على المناطق التابعة لهم ، بطريقة مباشرة أو باستشارة الخليفة. وتعيين الموظفين والقضاة ، ومراقبة الأسواق والبيوع والشراء والتجارة وغيرها ، ومتابعة جميع المسؤولين ومحاسبتهم. وكذلك تكوين مجلس شورى للولاية يُختار من الوجهاء والأشراف ، وأخذ آرائهم في تدبير شؤون الولاية والناس عامة.

٦ ـ إقامة شؤون العمران وتنظيمها:

وذلك بقيام الولاة وإشرافهم على عمران الأقاليم من حفر الأنهار والعيون ، وبناء الجسور ، وتخطيط المدن ، وتعبيد الطرق ، وبناء المساجد والأسواق ، وتأمين المياه ، وإقطاع الأراضي لبناء الدور للسكان ، وإحياء الأراضي الموات لتوسيع الأراضي الزراعية.

٧ ـ رعاية شؤون التعليم:

وقد أسس ذلك الفاروق عمر ، ورتَّب لوازمَه في الأمصار ، واستمرت الأمور عليه في خلافة عثمان ، ويكون الوالي أَوْلى الناس

بتحقيق هذا الركن من أركان الدولة؛ بتعليم الناس القرآن والسنن وآداب الإسلام ، وتعيين المعلمين ومقرئي القرآن في المساجد والكتاتيب ، وفرض الرواتب والأعطيات والمكافآت لهم.

* * *

الفصل الرابع

سياسة عثمان مع الولاة

أولاً: عمله بوصية عمر واتباعه سياسته:

استقبل عثمان بخلافته سنة (٢٤هـ) ، فأقرَّ عمالَ عمر ـ ولم يَعزل أحداً منهم ـ عاماً كاملاً ، وأقرَّ أبا موسى الأشعري خاصة أربع سنين ، كما ولى سعد بن أبي وقاص ، وكل ذلك عملاً بوصية الفاروق عمر.

عن الشعبي قال: (كَتب عمر في وصيته: أن لا يَقِرَّ لي عاملٌ أكثرَ من سنة ، وأقِرُّوا الأشعريَّ أربع سنين).

وأول عامل بعث به عثمان هو سعد بن أبي وقاص إلى الكوفة[1].

وتتمثل سياسة عثمان في مراقبة الولاة والاستماع إلى رأي الناس فيهم ، والاجتماع بهم في موسم الحج لمدارسة أحوال الولايات جرياً على السياسة العمرية. كما أرسل الكتب إلى ولاته للمشاركة في حلّ مشكلات الأقاليم ، وأرسل المفتشين إلى الولاة للتعرف على أحوال الولايات عن كَثَب. كذلك أرسل كتباً إلى أهل الأمصار توضح سياسته تجاه الرعية وحرصَه على حقوقهم ، واستعدادَه لقبول شكاويهم على

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٣٩١؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٤/٢٤٤ ، ٢٦٤ ، ٢٨٩.

ولاتهم إذا أصابهم منهم ظلم ، داعياً المظلومين إلى رفع ظُلاماتهم إليه مباشرة في موسم الحج.

وكانت الاتصالات المستمرة قائمةً بين الخليفة عثمان وبين ولاته لبحث مختلِف شؤون الدولة. كما كان حريصاً على قيام الولاة بواجباتهم ، وفي حالة وقوع أية مخالفة منهم فإنه يؤدِّبهم على ذلك الخطأ إذا وصل إلى علمه(١).

ثانياً: بين المركزية واللامركزية:

●● كان منهج الفاروق عمر يميل إلى (المركزية الشديدة) مع الولاة والقادة وتسيير شؤون الولايات وحركة الفتوحات ، أما عثمان فقد سلك سبيلاً وسطاً جمع فيه بين (المركزية واللامركزية) ، بل كانت (اللامركزية) أوضح في سياسته وأكثر ممارسة وتطبيقاً.

فقد حدث تطور جديد في عهد عثمان حيث تمتع بعض الولاة بسلطات لم يتمعوا بها قبله؛ فمعاوية ـ مثلاً ـ أصبح والياً على الشام والجزيرة وفلسطين ، وهي مناطق كان يتولاها من قبل نحو أربعة ولاة أساسيين. وهذا التطور في حجم الولايات كان قد بدأ في آخر عهد عمر واكتمل في عهد عثمان. وكما هو الحال في الشام ، كذلك كان في البصرة حيث ولى عثمان عليها عبد الله بن عامر وضَمَّ إليه البحرين وعُمان واليمامة ، بالإضافة إلى المناطق التي فتحها ابن عامر حيث وصل إلى ما وراء نهر جَيْحون. وبالتالي فإن معاوية وابن عامر كانا يعيِّنان الولاة الفرعيين على المناطق التابعة لهما ويديرانها بمشاورة أمير المؤمنين

---

(١) الولاية على البلدان ، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص١٣٦.

عثمان. إلا أن اتصالات عمال تلك الأقاليم التابعة لمعاوية وابن عامر كانت في الغالب تتم معهما دون الرجوع إلى الخليفة. وبالتالي كان لهذين الواليين ولغيرهما ، كعبد الله بن سعد بن أبي سرح في مصر وشمال إفريقية ثقل سياسي كبير في الدولة الإسلامية في عهد عثمان[1].

وهذا فيما نرى ـ وكما ذكرنا من قبلُ ـ يتوافَقُ مع المرحلة التاريخية؛ حيث اتسعت الدولة وامتدت أطرافها ، وكثُرت الشعوب الإسلامية المكوِّنة لها ، وظهرت مشكلات معقدة اجتماعية وحركات انتقاض وغيرها؛ مما يقتضي توفيرَ قسطٍ أكبر من حرية التصرف للولاة في الأقاليم[2].

وليس كما يزعم البعض أن ذلك من أخطاء عثمان ، وأنه أدى إلى انقلاب بعض الولاة الكبار من هيمنة الخلافة المركزية[3]. وهكذا عندما يكون العوج الفكري يرى الناس الحسنات مثالب!.

●● بَـيْدَ أن هذا لا يعني غيابَ المركزية ، فقد كان الولاة على اتصال دائم مع مركز الخلافة ، ويرجعون إلى أمير المؤمنين في كل موقف يتجاوز حدودَ اختصاصهم؛ كتوسيع الفتوح ، وحركة الجيوش إلى الجبهات ، وركوب البحر وتكوين الأسطول ، وعقد المعاهدات ، وإدارة الأقاليم ، وتطبيق حدِّ القتل ، وغير ذلك.

ـ هذه الكوفة وقد اضطرب أمرها ، فولى عثمان سعيد بن العاص

---

(١) الولاية على البلدان ، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٢) انظر ما تقدم: ص ٢١٦ ـ ٢١٨ ، ٣٦١ في هذا الكتاب.
(٣) انظر مثلاً: الإسلام والخلافة ، للدكتور علي حسني الخربوطلي ، ص٩٣.

عليها ، فجاءها وعرف حالها ووصفَه للخليفة بأن الرَّعَاع قد غَلَبوا أهلَ الشرف والأعيان ، فكتب عثمان إليه آمراً وموجِّهاً: (أما بعدُ ، ففَضِّلْ أهلَ السابقة والقُدْمة ممن فَتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن مَن نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيامَ به وقام به هؤلاء. واحفَظْ لكل منزلته ، وأَعْطِهم جميعاً بِقِسْطِهم من الحق ، فإن المعرفة بالناس بها يُصاب العدل)[1].

ـ وكتب إلى والي الشام معاوية بن أبي سفيان بالترفُّق بأبي ذر الغِفاري وعدمِ تهييجه ، حتى ضَجِر به معاوية ، فكتب إليه الخليفة يأمره بتوجيهه إلى المدينة المنورة.

ـ ووجَّه أوامره إلى سعيد بن العاص ومعاوية وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد؛ بتدبير شأن (المُسَيَّرِين) أثناء الفتنة ، كما سيأتي.

ـ وبعد استشارته بشأن الغزو في البحر ، وجَّه أوامره إلى معاوية وابن أبي سرح بتكوين الأسطول البحري الإسلامي.

ـ وبَعث بكتبه ورسائله التي تحمل أوامره وتوجيهاته إلى قادة الفتوحات وجبهات القتال ، لتحرِّك الجيوش إلى هذه الجبهة أو تلك ، ونصرة إخوانهم هنا وهناك ، مما أوجد روحاً واحدة وتعاوناً رائعاً بين الولاة والقادة وجبهات القتال ، كما تقدم.

ـ بل إن الخليفة ليتدخل في أمور صغيرة ويأمر الولاة بالتزامها وتنفيذها ، كما حدث مثلاً مع عبد الله بن عامر عندما أحرم بالعمرة من نَيْسابور ، فأمره عثمان بأن يُحْرِم من حيث يحرم الناس من الميقات.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧٩.

ـ ولما نَسَخَ عدة نُسخ من (المصحف الإمام) ، وزَّعه على الأمصار الكبيرة ، وكتب كتاباً عامّاً إلى الولاة جميعاً يأمرهم بإلزام الناس (بالمصحف الإمام) ، وجَمْعِ المصاحف الأخرى وإحراقها.

وهذه (السياسة العثمانية) التي جمعت بين المركزية واللامركزية؛ من أنجع السياسة ، وقد أثبتت جدارتها ونجاحها ، ولم تسجل أحداث التاريخ أن واحداً من الولاة تمرد على أوامر الخليفة ، أو تقاعس عنها ، أو تألب على عثمان حتى ولو بعد عزله عن الإمرة!.

ثالثاً: معالم رئيسة وخطوط عامة:

ـ حدَّد أمير المؤمنين عثمان لولاته خطوطاً عامّاً ومعالم رئيسة أوضحها غداة استقباله الخلافة في كتاب عام للولاة والرعية ، وسار عليها معهم إلى آخر عهده:

(أما بعدُ ، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جُبَاة. . . ألا وإن أعدلَ السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم. ثم تُثَنّوا بالذمّة فتعطوهم الذي لهم ، وتأخذوهم بالذي عليهم. ثم العدو الذي تنتابون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء)[1].

ـ وحَضَّهم على الجهاد والفتوحات ، وتوالت كتبه إليهم وإلى قادة الفتح بتحريك قطع الجيش من جبهة إلى أخرى ، وإمداد بلد آخر تكالب عليهم العدو ، وألهب فيهم روحَ التنافس على الفتح فكتب إلى

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥؛ وانظر ما تقدم: ص ٢٢٠ ـ ٢٢٤ في هذا الكتاب.

عبد الله بن عامر في البصرة وإلى سعيد بن العاص في الكوفة: أيكما سبق إلى خُراسان فهو والٍ عليها! مما دفعَ ابنَ عامر إلى فتح خراسان وسعيد بن العاص إلى فتح طَبَرِسْتان[1].

ـ وقد كان باب الخلافة مفتوحاً طيلة عهد عثمان لاستقبال الناس والاستماع إلى حاجاتهم، وكذلك كانت أبواب ولاته، بل اشتهر عن بعضهم أنه لم يكن لداره ـ أي دار الإمارة ـ باب فيدخل عليهم الناس في أي وقت شاؤوا، ومنهم الوليد بن عُقْبة[2]. وبعضهم كانت لهم مجالس يحضرها أشراف الناس ووجهاؤهم، يتبادلون فيها الآراء حول شؤون الولاية، كسعيد بن العاص وابن أبي سرح وأبي موسى الأشعري، وذلك عن أمر عثمان وتوجيهاته ورضا ولاته[3].

ـ وكان يشترط أحياناً بعض الشروط على الولاة، ليضمن أن يكون تصرفهم في صالح المسلمين، ومن أمثلة ذلك أنه لما أَذِنَ لمعاوية في غزو البحر اشترط عليه أن يكون هو وامرأته مع الناس، وأن يخيِّر الناس ولا يجبرهم[4].

ـ وألزم الولاة بالشورى وبخاصة في الأمور الكبرى والقضايا المصيرية التي تتعلق بأرواح الناس ومصلحة الدين والدولة والأمة[5].

ـ ومن الملامح البارزة في سياسة عثمان مع الولاة أن يَضمّ أكثر من

---

(١) تقدم: ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ في هذا الكتاب.
(٢) انظر ما تقدم: ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦ في هذا الكتاب.
(٣) الولاية على البلدان، ص٢٩٥ ـ ٢٩٦.
(٤) فتوح البلدان، ص ١٤٨؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٠.
(٥) انظر ما تقدم: ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ في هذا الكتاب.

بلد أو مِصْرٍ لسلطان أحد الولاة لتقوية سلطته ، وذلك نظراً لأهمية موقعه الجغرافي ومواجهة عدو ضخم عنيد ، كما نرى ذلك مثلاً في توسيع سلطان معاوية على الشام والجزيرة وفلسطين ، وأيضاً ضم البحرين وعُمان واليمامة إلى ولاية البصرة تحت إمرة عبد الله بن عامر ، وكذلك كان ابن أبي سَرْح يبسط سلطانه على مصر وشمال إفريقية .

رابعاً: أساليب وطرق المتابعة والمحاسبة:

مشى ذو النورين على هدي الفاروق عمر في متابعة الولاة ومراقبتهم ومحاسبتهم ، والوقوف على أحوال الناس في ولايتهم وبلدانهم البعيدة منها والقريبة .

١ ـ كتب كتباً عامة للولاة يوجِّههم وينصحهم ويذكِّرهم بالقيم الإسلامية الرفيعة وأن لا يتخذوا الولاية مغنماً ، وأن ينصرفوا للحفاظ على مصالح الناس الدينية والدنيوية ، فالولاية أمانة خطيرة والتفريط بها خيانة للأمة[١] .

وكذلك كتب إلى قادة الفتح وأمراء الأجناد والثغور وأمناء بيوت المال وموظفي الزكاة والخَراج[٢] .

٢ ـ ومنذ وَلِي الخلافة حرص عثمان على أن يحج بالناس ، وأَمر الولاة وعامة الرعية أن يجتمعوا في موسم الحج لرفع المظالم والشكاوى ، وتقويم الوضع العام في البلاد ، وإقامة الحق. يذكر سالم بن عبد الله : أن عثمان لما ولي كتب في الأمصار أن يوافِيَه العمال

---

(١) عصر الخلافة الراشدة ، ص١١٨ .

(٢) انظر نصوص هذه الكتب فيما تقدم: ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢ في هذا الكتاب .

في كل موسم ومَن يشكونهم. وكتب إلى الناس إلى الأمصار؛ أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، ولا يُـذِلّ المؤمن نفسَه، فإني مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً إن شاء الله[١].

وكانت هذه الطريقة حاضرة واضحة متكررة في عهدَيْ عمر وعثمان.

وأكَّد ذو النورين ذلك في مناسبات عديدة، منها عندما أخذت الفتن تنتشر في بعض الأمصار من قِبل السَّبئيِّين، فكتب إلى أهل الأمصار: (أما بعد، فإني آخذُ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد سلَّطتُ الأمة منذ وَليتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفَع عَلَّيَ شيء ولا على أحدٍ من عمَّالي إلا أعطيتُه، وليس لي ولا لعمَّالي حق قِبَل الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إليَّ أهلُ المدينة أن أقواماً يُشْتَمون، وآخرين يُضربون، فيا مَنْ ضُرِب سرّاً وشُتِمَ سرّاً، من ادَّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسمَ فليأخذْ بحقِّه حيث كان، منِّي أو من عمالي، أو تصدَّقوا فإن الله يجزي المتصدقين. فلما قُرِئ في الأمصار أبكى الناس، ودعوا لعثمان)[٢].

٣ ـ كما كان عثمان يستقبل الكتب التي تُرسِلها الرعية من الأمصار إلى المدينة بما فيها من شكاوى، من ذلك أنه استقبل كتاباً أرسله أهل الكوفة إليه، وآخر من مصر، ومن الشام أيضاً، فاطلع على هذه الكتب وعالج ما فيها[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٧.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٤٢؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٨٦.

(٣) تاريخ المدينة، لابن شبة: ٣/ ١١٢٠، ١١٤٢؛ الفتوح، لابن أعثم: ٢/ ١٨٨؛ الولاية على البلدان، ص٢٩٢.

٤ ـ ومن تلك الطرق في متابعة الولاة ومحاسبتهم؛ أنه كان يَقبل شكاوى الرعية على ولاته ، ولو كانت غير محقَّة في كثير من الحالات ، وذلك قطعاً لدابر الفتنة! فلما اشتكى أهل البصرة واليهم أبا موسى الأشعري عزله وعيَّن عليهم عبد الله بن عامر ، وستأتي أمثلة أخرى في الفقرة التالية. وهي سياسة سبقه إليها عمر بن الخطاب.

٥ ـ المراسلة مع الولاة وطلب التقارير منهم عن أحوال رعيتهم وبلادهم ، وقد اشتهرت هذه الطريقة خلال عصور الخلفاء الراشدين الأربعة[١].

٦ ـ سؤال القادمين من الأمصار والولايات إلى مقر الخلافة عن أحوال بلادهم وعملِ أمرائهم فيهم ، وهي من أيسر الطرق وأحسنها؛ لأنها تأتي دون ترتيب مسبق ، ولكثرة الوافدين إلى المدينة للزيارة وفي موسم الحج ، حيث يلتقون بأمير المؤمنين.

٧ ـ طلبُ الموفدين من الولايات لسؤالهم عن أمرائهم وولاتهم ، وقد كان الخلفاء في كثير من الأحيان يطلبون من الولاة أن يبعثوا إليهم بأناس من أهل البلاد ليسألوهم ، وقد تكرر ذلك من عمر ومن عثمان ومن علي.

ومن أمثلة ذلك في عهد عثمان: قدوم وفد من مصر بشأن أخذ ابن أبي سرح خمس الخمس من غنائم إفريقية ، كما تقدم.

٨ ـ استقدام الوالي وسؤاله عن أحوال ولايته ، وقد حدث ذلك خلال مواسم الحج في خلافة عمر وعثمان ، كما حدث ذلك في عهدَيْهما

---

(١) الولاية على البلدان ، ص٤٧٥.

في غير مواسم الحج لأمور مهمة أو لشكاوى قُدِّمت على الولاة استوجبت استدعاءهم ومساءلتهم ومحاسبتهم[1].

٩ ـ إرسال المفتشين إلى الأمصار عند قدوم الشكاوى أو انتشار الشائعات ، ليحققوا فيها ويأتوا الخليفة بأخبارها ، فيتصرف حيالها. ومن ذلك إرساله عدداً من الصحابة إلى مصر والكوفة والبصرة والشام ، للتحقق مما يُشاع عن الخليفة والولاة كما سنفصِّله عند كلامنا عن الفتنة واستشهاد عثمان.

وبهذه الأساليب والطرق تتكامل لدى عثمان عملية المراقبة للولاة ومتابعتهم ومحاسبتهم ، وتتحقق المحافظة على السيرورة الصحيحة لعملهم ، وفي الوقت نفسه يحفظ هيبة الولاة ويبرئ ساحته وساحتهم من الأقوال الطائشة والهمسات المغرضة ، ويقيم الحجة على الفتانين ويقطع قالة السوء حيث يجعل الأمر علنياً وعلى الأشهاد في مواسم الحج.

خامساً: عزل الولاة:

●● بالنظر في سياسة عثمان وحالات العزل التي أجراها نجد أنها انحصرت في الكوفة والبصرة ومصر. والكوفة والبصرة قد جرى فيها عزل الولاة غير مرة في عهد عمر ، مع صلابته وحزمه وشهرته بتخيُّرِ الولاة وشدَّته في محاسبتهم! حتى إنه ضَجِرَ من أهل الكوفة وأَعْيَوه وكانوا مصدرَ قلقٍ وتعبٍ له سنين عدداً ، وقد قاموا على سعد بن أبي وقاص وشَكَوا المغيرة بن شعبة وعمار بن ياسر وغيرهم ، ووصل الأمر بالفاروق أنه دعا عليهم فقال: (اللهمَّ إنهم قد لَبَّسوا عليَّ فَلَبِّسْ عليهم!) ،

---

(١) الولاية على البلدان ، ص٤٧٥ ـ ٤٧٧ ، باختصار.

وقال: (أَعْياني وأَعْضَل بي أهلُ الكوفة ، ما يَرضون أحداً ولا يَرضى بهم ، ولا يَصلحون ولا يَصلح عليهم)[1] .

وأما مصر فقد انتقل إليها أصحاب الهوى والفَتَّانون من السبئِّيين وأفسدوا جماعة فيها ، وعلى رأسهم محمد بن أبي حذيفة الذي كان يُجاهِر بالعيب على عثمان والطعن على ولاته ، وكان الوالي ابن أبي سَرْح ينهاه ويؤنِّبه ويتهدَّده ، لكنه يتحاماه حتى لا يَفتق الفتن ويغيِّر عليه قلب أمير المؤمنين عثمان.

●● وقد جرت عدة حالات عزل للولاة في عهد عثمان ، وكان لذلك أسباب متنوعة؛ منها: أن يعزل الخليفة لشكاة أهل المِصر على واليهم، أو لخصومتهم له، أو بسبب إثارة فتنة ضده، أو لذنبٍ أصابه الوالي ـ حقيقةً أو ادعاءً من الشهود ـ مما يستدعي إقامة الحد الشرعي، أو لمصلحة يراها الخليفة دون خطأ ارتكبه الوالي ، أو للتأديب إذا صدر من الوالي شيء لا يليق بمنزلته ، أو بسبب استعفاء الوالي واستقالته وهذه حالات نادرة جدّاً منها استعفاء والي حمص عُمير بن سعد لمرض طال به[2] .

١ ـ عزل أبي موسى الأشعري:

استشهد عمر وكان أبو موسى واليه على البصرة ، فأقرَّه عثمان عليها ، وبقي كذلك إلى (سنة ٢٩هـ) ، وكان سبب العزل: أن أهل إِيْذَج والأكراد انتقضوا ونكثوا العهد ، فنادى أبو موسى في الناس وحَضَّهم

---

(١) المعرفة والتاريخ ، للفسوي: ٢/ ٧٥٤ ، ٧٥٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥٣ ، ٢٨٩؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٧٠؛ الولاية على البلدان ، ص٢٦٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص١١٩.

ونَدَبَهم وذكر من فضل الجهاد في الرُّجْلة ، حتى حمل نفر على دوابِّهم وأجمعوا أن يخرجوا رِجَالاً ، وقال آخرون: لا والله ، لا نَعجل حتى ننظر ما صنيعُه؟ فإن أشبه قولَه فعلُه فعلنا كما فعل أصحابنا . فلما كان يوم خرج ، أخرج ثَقَلَه من قصره على أربعين بغلاً ، فتعلَّقوا بعنانه وقالوا: احملْنا على بعض هذه الفُضول ، وارْغَبْ من الرُّجْلة فيما رغَّبْتَنا فيه . فقنَّعهم حتى تركوا دابته ومضى. فاستعفَوا عثمانَ منه فأعفاهم[1]! .

وهذا السبب كما ترى لا يستوجب عزل والٍ كبير كأبي موسى ، لكن الخليفة قطع دابر الخلاف بين الأمير وجنده في ظروف صعبة حيث ثورة الأكراد ونشاط زعيم الفرس يَـزْدَجِرد لزعزعة سلطان المسلمين في البصرة.

وأرسل عثمان عبدَ الله بن عامر والياً على البصرة ، وهو شاب قرشي في فورة النشاط ووثبات العزائم وكرم المَحْتِد. **ويُدهِشك موقف الوالي المعزول أبي موسى وتسكينه من رَوْعِ الناس وثناؤه على الوالي الجديد؛** حيث يقول: يأتيكم غلام خرَّاج ولاَّج ، كريم الجدات والخالات والعمات ، يُجمع له الجندان[2]! .

ولم يكن هذا العزل من عثمان لأبي موسى عقوبةً له أو حَطّاً من قَدْره ، بل بقي في المنزلة الأسمى عند أمير المؤمنين؛ وبرهانُ ذلك أنه بعثه والياً على مُدَيْدة على مِصْرٍ يُضاهي البصرةَ هو الكوفة ، وبدلاً من وال عظيم هو سعيد بن العاص.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥ . **الرُّجْلة**: المشي راجلاً.

(٢) تقدم: ص ٤٣٩ حاشية (٣) في هذا الكتاب.

٢ ـ عزل عمرو بن العاص:

عَمرو هو فاتح مصر وواليها في عهد عمر ، واستشهد عمر وهو أميرها ، وأقرَّه عثمان عليها فبقي الوالي العام لها نحو أربع سنين ، وكان عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح من كبار معاونيه .

وكان أهل الشر ومثيرو الفتن مقموعين مرذولين في مدة حكم هذا الوالي الداهية الكبير ، ولم تهدأ نارُ البغضاء المتوقدة في صدورهم عليه ، فراحوا يُثيرون الأراجيف ضده ، ويُغرون عثمان بعزله وتولية آخر غيره ، يكون فيما يحسبون أضعفَ شخصية وأقلَّ هيمنة ؛ ليستطيعوا بعد ذلك تحقيق مآربهم في إثارة الفوضى والخروج على الوالي والخليفة .

روى ابن عساكر وغيره: عن يزيد الفَقْعَسِيّ قال: (لما خرج ابن السوداء[1] إلى مصر نزل على كِنانة بن بِشْر مرةً ، وعلى سُودان بن حُمْران مرة ، وانقطع إلى الغافقي بن حرب ، فشجَّعَه الغافقيُّ ، فتكلم ، وأطاف به خالد بن مُلْجَم وعبد الله بن زُرَيْر وأشباهٌ لهم ، فصَرف لهم القولَ فلم يجدْهم يجيبون إلى شيء مما يجيبون إلى الوصيَّة ، فقال: عليكم نابَ العرب وحَجَرَهُم[2] ولسنا من رجاله ، فأرُوهُ أنكم تزرعون ولا تزرعون العامَ شيئاً حتى تنكسِرَ مصر ، فتشكونه ، فيُعزل عنكم ، ونسألُ من هو أضعف منه ونخلو بما نريد ونُظهِر الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر! .

وكان أسرعَهم إلى ذلك محمدُ بن أبي حذيفة ، وكان يتيماً في حَجْر

---

(١) يعني: عبد الله بن سبأ .

(٢) **ناب القوم**: سيدهم ، **والحجر** هنا: الداهية ، يعني عمرو بن العاص .

عثمان ، فلما ولي استأذَنَه في الهجرة إلى بعض الأمصار ، فخرج إلى مصر ، وكان الذي دعاه إلى ذلك أنه سأل عثمانَ العملَ ، فقال له: لستَ هناك! ففعلوا ما أمرهم به ابنُ السوداء. ثم إنهم خرجوا وشكَوْا عَمْراً واستعفَوْا منه ، وكلما نَهْنَهَ[1] عثمانُ عن عَمْرٍو قوماً وسكَّنَهم وأرضاهم وقال: إنما هو أمين ؛ انبعث آخرون بشيء آخر ، وكلُّهم يطلب عبدَ الله بن سعد بن أبي سرح.

فقال لهم عثمان: أمَّا عَمْرو فسننزِعُه عنكم إلى ما زعمتم أنه أفسد ، وأما الحرب فسَنُقِرُّه عليها ، ونولي من سألتم؛ فولَّى عبدَ الله بن سعد خَراجَهم خراجَ مصر ، وترك عَمْراً على صلاتها.

فمشى في ذلك سُودان بن حُمران وكِنانة بن بِشْر وخارجة وأشباهُهم فيما بين عَمرو وعبدِ الله بن سعد ، وأغرَوْا بينهما ، حتى احتَمَلَ كل واحدٍ منهما على صاحبه ، وتكاتبا على قدر ما أَبلغوا كلَّ واحد منهما! فكتَبَ عبد الله بن سعد: إن خَراجي لا يستقيم ما دام عمرو على الصلاة ، وخرجوا فصَدَّقوه واستعفَوْا من عمرٍو ، وسألوا عبدَ اللهِ! فكتب عثمان إلى عمرو: إنه لا خيرَ لك في صحبة مَنْ يَكرهُك ، فأقبِلْ. وجَمَعَ مصرَ لعبد الله صلاتها وخراجها.

فقدِم عمرو ، فقال له عثمان: أبا عبد الله ، ما شأنُك استُحيل[2] رأيُك؟! فقال: يا أمير المؤمنين ، دَعْني ، فوالله ما أدري من أين أُتيت ،

---

(١) زَجَر.

(٢) كل شيء تغير من الاستواء إلى العوج فقد حال واستحال.

وما أَتَّهِمُ عبدَ الله بن سعد ، وإنْ كنتُ لأهلِ عملي كالوالدة ، وما قدَرَ العارفُ الشاكر على معونتي!)[1].

٣ ـ ٤ ـ عزل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود:

ولى عثمان سنة (٢٥هـ) على الكوفة رجلين من أجلَّاء الصحابة: أحدهما سعد بن أبي وقاص ، وكان قد وليها زمن عمر ، وعزله عنها من غير عجز ولا خيانة ، والثاني هو عبد الله بن مسعود.

وحدث أن وقع خلافٌ بين هذين الصحابيين ، وسببه أن سعداً اقترض مبلغاً من بيت المال إلى أجَلٍ، وكان ابن مسعود على بيت المال، فجاء الأجَلُ ولم يكن عند سعد ما يسدِّد به ذلك القرض، فطالبه ابن مسعود بالسداد ، فتقاولا واشتدا في الكلام واجتمع حولهما الناس ، فغضب أمير المؤمنين لوقوع ذلك منهما، فعزل سعداً وأبقى ابن مسعود[2].

وهذا التنازع الذي وقع أدى إلى افتراق المسلمين وتحزُّبهم للأميرين ، وهذا داءٌ عَياء لا يَحسِمُه الصلح والمهادنة ، فرأى عثمان أن يَنزع من الولاية مَن ظهر له أن نَزْعَه أقربُ إلى السياسة الحكيمة؛ فعزل سعداً ، وكان عُذره في عزله هو عذر عمر بن الخطاب ، فما وسع عمر لا يَضيق عن عثمان في شرعة الإنصاف. وأيضاً فإنه كان بين سعد وبين أهل الكوفة خصومة في عهد عمر ، فخشي عثمان أن يستغلوا شخصية

---

(١) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٨٢ ـ ١٨٣؛ التمهيد والبيان ، للمالقي ، ص٨٨ ـ ٨٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥١ ـ ٢٥٢؛ وانظر تفصيل ذلك في: كتابي «عبد الله بن مسعود» ، ص٣٠٨ ـ ٣١١.

سعد في تحريك الفتنة ، فقطع عليهم الطريقِ وعزل سعداً وولّى مكانه مَن رجحتْ عنده كفايتُه لسياسة هذا البلد الذي أعْيَا الولاة[1] .

ولّى عثمان على الكوفة الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط ، فأقام على ولاء مع صاحبه ابن مسعود؛ يحفظ له عهده ، ويعرف له سابقته وفضله . ووقع خلاف بين الرجلين بسبب أن الوليد كان ذات يوم في شأن من شؤون الولاية فأخَّر الصلاة ، فأقام ابن مسعود الصلاة وصلى بالناس ، فجرى بينهما كلام لذلك ، ومَشى بينهما المشاؤون ، فدَبَّ إليهما الشِّقاق واستشرى أمره ، وخِيف أن يعود إلى الحكومة ما كان أصابها في ولاية سعد وابن مسعود ، فشكا الوليد إلى عثمان ، فعزل ابنَ مسعود ، وخَلَصت الكوفة للوليد .

وهكذا فإن أمير المؤمنين عثمان قد رأى بعد هذه التجربة أن الولاية لا تصلح على الشركة ، فوحَّدها للوليد ، وصَرف ابنَ مسعود رضي الله عنه ، لأنه لم يكن من قادة الجيوش وأصحاب الولاية العامة ، وإنما كان من العلماء الذين يَحْذِقون موارد المال ومصارفه الشرعية . ومَنْ عَرف الكوفة وخبر حالَها وكثرة تشكِّيها من ولاتها وفتنها وتحزباتها؛ أدرك حسنَ سياسة عثمان وحِذْقَه في رميها بالوليد بعد عزل الصحابيين الجليلين لأمر سوَّغَتْه السياسة الرشيدة ، وليس في هذا العزل ما يَمسُّهما ، وقد كان عمر يولي الرجل ويترك من هو أفضل منه[2] .

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٢) انظر : الفتح : ٨/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩ ، شرح الحديث (٣٦٩٦)؛ كتابي «ابن مسعود» ، ص٣١١ ـ ٣١٣؛ عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص١٠٦ ، ١٠٨ .

٥ ـ عزل الوليد بن عقبة بن أبي معيط:

عزل عثمان سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى عليها الوليد بنَ عقبة سنة (٢٥هـ) ، فبقي والياً عليها حتى سنة (٣٠هـ)[١]. وكانت سيرته من خيار سير الولاة ، فقد مكث خمس سنين لم يكن لدار إمارته باب يُحجب عنه أحد ، وفتح الفتوحات الجليلة العظيمة. وقد افترى عليه بعض الموتورين من أهل الكوفة أنه شرب الخمر ، وشهدوا عند عثمان بذلك ، فأقام عليه الحدَّ لتوفُّر الشهود ، ولمَّا ذَكَرَ الوليد أن الشهود مفترون موتورون ، قال له عثمان: نُقيم الحدود ويبوءُ شاهد الزور بالنار ، فاصبر يا أخي!.

ومع ذلك فإن عثمان عزله قطعاً لقالة السوء ، واجتثاثاً لدواعي الفتنة ، وأكد في كتاب العزل براءة هذا الوالي ، فكتب إلى أهل الكوفة: (أما بعدُ ، فإني استعملتُ عليكم الوليد بن عقبة حتى تولت منَعَتُه واستقامت طريقتُه ، وكان من صالحي أهله ، وأوصيتُه بكم ولم أوصِكُم به ، فلما بَذَلَ لكم خيرَه ، وكَفَّ عنكم شرَّه ، وغلبتكم علانيتُه ، طعنتم في سريرته ، والله أعلم بكم وبه ، وقد بعثتُ عليكم سعيد بن العاص أميراً)[٢].

٦ ـ سعيد بن العاص الأموي:

كان سعيد من عِلْيَة الرجال وأشراف الناس ، قدِمَ الكوفة والياً عليها

---

(١) تاريخ خليفة ، ص١٥٧ ، ١٦٣.

(٢) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٣/ ٩٧٤؛ وانظر ما تقدم في ولاية الوليد وسيرته: ص ٤٤٠ ـ ٤٥٣ في هذا الكتاب.

سنة (٣٠هـ) ، فجمع حوله أهل البيوتات والأشراف والقراء والمتسمِّتين وجعلهم حاشيته وخاصته[١] ، فأبى أهل الكوفة إلا كُفْرانَ النعمة والتشبُّثَ بقَرْن الشيطان ، فانقلَبوا على أميرهم الجديد أشدَّ من انقلابهم على سَلَفه الوليد ، وكأنما كانت الكوفة يَـبْساً شَمَلتْه نار! فانقطع إلى الثائرين المفتونين أضرابُهم ، وفشت القالة بالقدح في عثمان وولاته ، وصبر عليهم سعيد حتى لامه في أمرهم بعض ذوي البصيرة والعقل من أهل الكوفة ، ثم كتب إلى عثمان فيهم ، فأمره بحملهم إلى معاوية بالشام[٢] ، ففعل ، وعُرِف هؤلاء (بالمُسَيَّرين)[٣] . وتنقَّل هؤلاء بين عدة أمصار ، وكان ولاتها يحاولون إصلاحَهم بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى ، فما يزيدون إلا شرّاً وفساداً واختلاقاً للفِرى وإذاعةً للأكاذيب! .

وحَدَثَ أن سعيد بن العاص ذهب في سنة (٣٤هـ) إلى المدينة ليوقف الخليفةَ على أحوال الناس في الكوفة وما حولها ، وقد عيَّن الولاة الفرعيين على المناطق التابعة لولايته . فاستغل أحلاسُ الفتنة خلوَّ الكوفة من الوالي العام (سعيد) ، ونادوا بالخروج عليه وعلى الخليفة ، وتواعدوا مكاناً قرب القادسية يدعى (الجَرَعَة) . وجاء مِسْعَر الشرّ الأشترُ النَّخَعي إلى الكوفة وزاد الفتنة اضطراماً؛ فزعم أنه قدِمَ من عند الخليفة عثمان وقد ترك سعيداً عنده وهو يَحملُه على نقصان أهل الكوفة أعطياتهم وأرزاقهم! وقام خُطباء الفتنة في المسجد وحَضُّوا الناسَ على خَلْعِ

---

(١) تقدم التعريف به : ص ٤٣٦ ـ ٤٣٨ في هذا الكتاب .

(٢) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص ١١٣ ؛ وانظر : تاريخ الطبري : ٤/ ٣١٧ ـ ٣١٩ .

(٣) ستأتي قصتهم مفصلة : ص ٥٧٧ ـ ٥٨١ في هذا الكتاب .

واليهم ، وخرجوا إلى الجَرَعَة ، حتى إذا قَدِمَ سعيد بن العاص من المدينة واقترب من الكوفة ، طلعوا عليه معسكِرين وقالوا: لا حاجة لنا بك ، فقال: فما اختلفتم الآن! إنما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وتضعوا إليَّ رجلاً ، وهل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل؟! ثم انصرف عنهم[1] .

وعاد سعيد إلى أمير المؤمنين عثمان وأخبره الخبر ، وأنهم يريدون أبا موسى الأشعري ، فأعطاهم عثمان ذلك ، وكتب إليهم:

(بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ ، فقد أَمَّرتُ عليكم مَن اخترتم ، وأَعفَيْتُكم من سعيد ، والله لأَفْرُشَنَّكم عِرْضي ، ولأَبذُلنَّ لكم صبري ، ولأَستصلحنَّكم بِجُهْدي ، فلا تَدَعُوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى اللهُ فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه ولا يُعْصَى الله فيه إلا استعفيتم منه؛ أنزل فيه عند ما أحببتم ، حتى لا يكون لكم عليَّ حجَّة!)[2] .

سادساً: وقفات وعبر وتزييف أكاذيب:

أولاً ـ قدمنا خلاصة موجزة عن حالات العزل التي وقعت طيلة مدة خلافة عثمان وهي (١٢ سنة) ، وكما يرى كل عاقل منصف أنها حالات قليلة وقعت لولاة من خيار الرجال وأشراف الناس وأكابر الفاتحين ، وكان وراء أسباب العزل أصحابُ الهوى ومبتغو الفتنة ، وما كان واحد من أولئك الولاة مُداناً بوجهٍ من الحق الأبلج كما أوضحنا.

ومع ذلك فإن أمير المؤمنين عثمان يمسك بزمام الأمور ، ويقطع دابر

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٢.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٣٦.

الفتن ، فيعزل ولاته ويُبدلهم بآخرين؛ ليحفظَ أمنَ الأمة ووحدتها ، ويبرأ إلى الله من شبهة أي ظلم ، ويفوِّت على الفتَّانين والمتآمرين خُططهم ويُبطل حجَّتَهم.

ثانياً ـ الصحابة الكرام والرجال الأفاضل ذوو النفوس العالية يترفعون بشمائلهم ونُـبْلهم عن الضِّغْن والكيد ومساوئ الأخلاق، إذا ما حَدَث بينهم خلافٌ في الرأي أو تصرف حِيالَ بعضهم هو في مصلحة الأمة ، ولا يَغضُّ ذلك من منزلتهم.

وهكذا نرى أن العلاقة بين عثمان والولاة الذين عزلهم قد بقيتْ على خير ما تكون سِيَر الرجال ، فلم نقف على خبر صادق أو نص ثابت يشير من قريب أو بعيد إلى اضطغانٍ من عثمان على ولايته أو تجنٍّ عليهم أو كراهيةٍ لهم. وكذلك هم لا نجدُ في تاريخهم سوى الطاعة لعثمان ، والإخلاص للدين والحرص على مصلحة الأمة ، ما نافروه ولا باغضوه ولا ألَّبوا عليه ولا أساؤوا القول أو الفعل ، بل نجدهم قد وقفوا بجانبه وناصروه ودافعوا عنه عند وقوعِ الفتنة الجامحة التي انتهت باستشهاده.

ثالثاً ـ ومن هنا فإن من مستلزمات البحث وضروريات التأريخ وواجبات الكتّاب؛ أن يلزم المرء سبيلَ النقد والتمحيص في كتب الأقدمين والمعاصرين ، ويَـزِنَ الروايات بميزانِ الاعتدالِ ، ويتحرى في أخبار الرواة وبخاصة أصحاب الأهواء والبدع والمجازفات التي يرفضها العقل ويأباها منطق التاريخ وواقع الحال ومجريات الأحداث وطبيعة الرجال ومبادئ الأمة وأخلاقها.

كذلك يتوجب على القارئ أن لا يستسلم لكل ما تقع عليه يده ويقرؤه ويسمعه ، وبخاصة إذا عَلِمَ أن هذا الكتاب أو ذاك الكاتب عنده هوى أو

في نفسه دَغَل . وبكل حال فالكلمة أمانة سواء كانت من قائلها أو ناقلها أو قارئها أو سامعها ! .

رابعاً ـ المتتبع لتاريخنا الإسلامي يجد في «تاريخ الطبري» وغيره من الكتب التي أرخت (لخلافة عثمان وخاصة الفتنة التي انتهت باستشهاده) ـ ركاماً من الروايات المتناقضة والتي أَفْلَت زمامُها وحَملت الغثاء الكثير والأخبار التي يمجها الذوق السليم ويأباها العقل النقاد :

١ ـ **فلا يصح** قبول قول السبئية أن عثمان (ولَّى الأحداث)[١] ، وقد سُقْنا الأدلة على ذلك بذكر تاريخ جمهرة من أولئك الولاةِ الأماجد .

٢ ـ **ومن القول الباطل زعم العقاد** أن عثمان ضَعُفت طمأنينتُه إلى الولاة فولى أقاربه[٢] ، لأننا أثبتنا أن أغلب ولاته ليسوا من أقاربه .

٣ ـ **ومثله زعمُ بعضهم أن عثمان ولى أقاربه ليوطد أركان حكمه** ؛ كما يدعي صبحي محمصاني وراضي عبد الرحيم ومحمد الملحم وغيرهم[٣] ، فنسبة الولاة من أقاربه هي (٧/ ٤٢) ، وهذا فضلاً عن أنه عزل غير واحد من أقاربه ، وبعضهم عُزل في أوج الفتنة ! .

٤ ـ ومن الافتراء على عثمان وعلى عهده المبارك المشمول بقول النبي ﷺ أنه (على منهاج النبوة) ؛ قول صبحي الصالح : (وسار عثمان

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٧ .

(٢) عبقرية عثمان ، ص١٣٤ .

(٣) تراث الخلفاء الراشدين ، لصبحي محمصاني ، ص٤٥ ؛ النظام الإداري والحربي ، لراضي عبد الرحيم ، ص١٠٦ ؛ تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري ، لمحمد الملحم ، ص٢٠٧ .

سيرة عمر ، وإن كان في آخر أيامه قد ضَعُف عن الإدارة القوية الحازمة ، وتأثر بعشيرته الأقربين إليه، فتذمرت الرعية في مختلف الولايات. . .)[1].

ونحوه قول مولوي حسيني[2].

٥ ـ ولم يتورَّع طه حسين ـ على عادته ـ عن الولوغ في عِرض الشهيد عثمان ، والطعن عليه وعلى خلافته وسياسته ، وبالَغَ في التشكيك في إجراءات عثمان من تولية أو عزل ، وادعى أنه لم يراعِ الذمة في ذلك! ومما قاله: (وكان عثمان يعلمُ حقَّ العلم أن عبد الله بن عامر شاب حَدَثٌ لم تتجاوز سنُّه الخامسة والعشرين بعدُ ، وأن في المهاجرين والأنصار وغيرهم من العرب من هم أكبر منه سنّاً وأكثر منه تجربة وأقدم منه سابقة في الدين. وكان عثمان يعلمُ أن الله قد أنزل قرآناً في عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وأن النبي كان قد هدر دمَه يوم الفتح فلم تكن حال الناس مستورة ، وإنما كانت أظهرَ من أن تخفى على مثل عثمان).

ثم قال: (فسياسةُ عثمان في العزل والتولية لم تكن ملائمة للعهد الذي أعطاه ، وليس من شك في أن الذين ضاقوا بهؤلاء العمال وثاروا عليهم ونَقَموا من عثمان توليتهم؛ لم يكونوا مخطئين!)[3].

وهو كلام كلُّه تحاملٌ وكذِبٌ ومجافاةٌ للمنهج العلمي ، وقد أوضحنا من سير الولاة وقصص عزلهم ما يَدْحَض هذه المزاعمَ ، وقد ولى

---

(١) النظم الإسلامية ، ص٣١٠.

(٢) الإدارة العربية ، ص٢٤٤.

(٣) الفتنة الكبرى: ١ / ١٨٨ ـ ١٨٩.

رسول الله ﷺ من هو في مثل سنِّ عبد الله بن عامر بل وأصغر منه ، فأمَّر معاذ بن جبل على اليمن وعمره نحو ست وعشرين سنة ، وولَّى عتَّاب بن أَسِيد على أعظم البلاد (مكة المكرمة) وعمره زُهاء عشرين سنة. وابن أبي سَرْح لم ينزل فيه قرآن كما زعم الدكتور طه ، بل جاءت روايات ضعيفة بشأن الوليد بن عقبة كما تقدم. وزاد الأمرَ سوءاً فادَّعَى أن الذين خرجوا على عثمان ثم قتلوه لم يكونوا مخطئين! .

٦ ـ **وتمادى كاتب آخر فزعم أن عثمان وولاته قد اعتادوا أن يَمُدُّوا أيديهم إلى أموال المسلمين ويتصرفوا فيها بغير حقها** ، يقول راضي عبد الرحيم: (ولكننا نرى أن عثمان قد سمح لولاته الذين عيَّنَهم في الولايات أن ينهجوا نهجَه من الناحية المالية؛ فمدُّوا أيديَهم إلى أموال المسلمين ، بحجَّة التقرب إلى الناس بالأموال والعطايا ، فأثار هذا الحقدَ عليه وقوى المعارضة ضده!)[1].

وما سُقْناه في صفحات هذا الكتاب يدفَعُ في صدر هذا الكاتب ويزيِّف افتراءَه! .

وحسبنا هذه الإشارات ففيها دلالة على مثيلاتها من الأباطيل التي عَجَّت بها كتب المتقدمين والمتأخرين ، والحق يسطع بنوره ليبدد ظلام الباطل ، وإن تراءى للبعض أن غثاء الأكاذيب قد يغطي وجه الحقيقة يوماً ما ، فمنشأ ذلك هو الغشاوة التي رانت على العقول والقلوب طيلة عهود ممتدة! .

* * *

---

(١) النظام الإداري والحربي ، ص ١٣٥ ؛ وانظر: الولاية على البلدان ، ص٣٠٤ ـ ٣٠٧.

الفصل الخامس
ولايات الدولة

استمرت الوحدات الإدارية التي كانت في عهد عمر بن الخطاب عموماً في عهد عثمان ، وأُضيفت بلدات كبيرة أخرى نتيجة التوسع في الفتوحات. كذلك حدث تطور آخر وتعديلات حيث قام عثمان بضمٍّ عدة ولايات معاً لتشكِّل ولاياتٍ كبرى؛ كما حدث عندما ضم عُمان والبحرين إلى ولاية البصرة تحت إمرة عبد الله بن عامر ، كذلك جمع بلاد الشام كلها لمعاوية.

أولاً: ولايات الحجاز:

١ ـ مكة المكرمة:

توفي عمر وواليه على مكة خالد بن العاص بن هشام المخزومي ، فأبقاه عثمان مدة ثم عزله وولى عليها علي بن ربيعة بن عبد العزى. وولى عثمان عدة أمراء لم تفصح المصادر التاريخية عن فترات ولاياتهم؛ منهم عبد الله بن عَمْرو الحضرمي. ويُستفاد من النصوص أن عثمان أعاد عليها خالد بن العاص المخزومي ، وتوفي عثمان وهو والٍ عليها[١].

---

(١) تاريخ خليفة ، ص ١٥٣ ، ١٧٨؛ الولاية على البلدان ، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

٢ ـ المدينة المنورة:

هي في عهد الخلافة الراشدة أهم المدن الإسلامية ، ففيها مركز الخلافة ، ومقرُّ أمير المؤمنين ، وأعيان مجلس الشورى، وبيت المال والديوان، وإليها تَفِد الوفود من مختلِف الأمصار، ومنها مصدر (القرارات الرئاسية) ، وتوجيه الولاة والفتوحات.

وكانت أكثر الأمصار هدوءاً وقت الفتنة ، حتى جاءت جيوش السبئيين. وكان أمير المؤمنين إذا خرج للحج كثيراً ما يَستخلف زيد بن ثابت[1].

ثانياً: اليمن:

٣ ـ صنعاء:

استشهد عمر وعامله على اليمن يَعْلى بن مُنْيَة ، وعندما استُخلف عثمان جعله والياً على صنعاء ، واستمر عليها إلى وقت استشهاد عثمان.

٤ ـ الجَنَد:

كان واليها عبد الله بن أبي ربيعة ، فأقرَّه عثمان ، واستمر والياً عليها طيلة عهده.

ويبدو أن هناك ولاة آخرين كانوا على بقية مدن اليمن ، لكن المصادر قد ركزت على هذين المِصرَيْن والواليَيْن.

وقد اشتهر أهل اليمن خلال عهد عثمان بطاعتهم التامة له وانقيادهم

---

(١) تاريخ خليفة ،ص ١٧٨ ؛ الولاية على البلدان ، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

لولاتهم. ومنذ خلافة عمر هاجرت قبائل يمانية كثيرة إلى مصر والعراق والشام، ولهم دور جليل في الفتوحات[1].

ثالثاً: البحرين واليمامة وعُمان:

٥ ـ البحرين:

هي الآن (منطقة الأحساء) في السعودية. كان واليها من قِبل عمر: عثمان بن أبي العاصِ الثقفي، ومات عمر وهو والٍ عليها، وأقرَّه عثمان عليها. وفي عهده أُلحِقت بالبصرة التي أصبحت قاعدةً لفتوح فارس وجنوب إيران، فصار ولاة البحرين تابعين لأمير البصرة، وقد عزَّز هذا صلةَ البحرين بالبصرة ووثقها[2].

ومن ولاتها: مروان بن الحَكَم، وعبد الله بن سوّار العَبْدي الذي بقي عليها حتى توفي عثمان[3].

وكان للبحرين دور جليل في بعث الجنود للفتوحات شرق فارس، وتدل الأخبار على أن البحرين كانت مستقرة حتى استشهد عثمان[4].

٦ ـ اليمامة:

كانت في عهد عمر تابعة لوالي البحرين وهو الذي يبعث عليها الأمراء أحياناً، وفي عهد عثمان كان هو الذي يولي عليها، وممن ذُكر من

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٧٩؛ الولاية على البلدان، ص٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٢) البحرين في صدر الإسلام، لعبد الرحمن النجم، ص١٤١.
(٣) تاريخ خليفة، ص١٨٠.
(٤) الولاية على البلدان، ص٢٢٩ ـ ٢٣٠.

ولاتها في آخر خلافة عثمان: سَبْرة بن عَمْرو العَنْبري[1].

٧ ـ عُمان:

وتمتد أراضيه على بحر العرب لتتصل بما يُعرف الآن بدولة الإمارات العربية، وإلى حدود الأحساء. وكان عمر قد جمع ولاية (البحرين وعُمان) لعثمان بن أبي العاص، وفي عهد عثمان ضَمَّ البحرين وعُمان إلى ولاية البصرة، وجميعها تحت إمرة عبد الله بن عامر بن كريز[2].

رابعاً: بلاد الشام[3]:

٨ ـ في آخر عهد عمر كان معاوية والياً على معظم الشام، واستمر في خلافة عثمان.

حمص: كان عليها عُمير بن سعد الأنصاري، ونزل به مرض اضطره إلى أن يستعفي من الولاية، فأعفاه عثمان وضَمَّ حمصَ إلى إمرة معاوية.

فلسطين: وكان واليها علقمة بن حَكيم الكِناني، وتوفي، فضَمَّ عثمان فلسطين إلى معاوية.

ثم ضم عثمان إلى معاوية بقية مدن الشام، فأصبح والي الشام كله طيلة خلافة عثمان.

وقد كان معاوية يعين الولاة من قِبله: فعيَّن على **حمص** عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى **الأردن** أبا الأعور السُّلمي، وعلى قِنَّسرين حَبيب بن مَسْلمة الفِهْري.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٧٢؛ الولاية على البلدان، ص٢٣٠.

(٢) عصر الخلافة الراشدة، ص١٣٣؛ الولاية على البلدان، ص٢٢٩.

(٣) تاريخ خليفة، ص١١٥؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٤٢١.

وأصبح معاوية في عهد عثمان أقوى ولاته وأشدَّهم نفوذاً ، وقد شهدت بلاد الشام في أيامه استقراراً تامّاً ، وطاعةً للخليفة والأمراء ، وكان لبلاد الشام وأمرائها وبخاصة واليها العام معاوية دور جليل في امتداد الفتوحات وفتح الجزر وتكوين الأسطول البحري ، وكذلك مقاومة الفتن ورؤوسها ، ومناصرة أمير المؤمنين.

خامساً: العراق:

٩ ـ البصرة[١]:

هي من أمصار الإسلام الكبيرة الشهيرة ، وكانت في عهد عمر من أكبر المعسكرات الإسلامية ، حيث هاجر إليها العديد من القبائل. واستشهد الفاروق وواليها أبو موسى الأشعري ، وقد أوصى عمر أن يُقَرَّ عليها أربع سنين ، فنفذ عثمان وصيته بل بقي واليها زُهاء ست سنين. وقام أبو موسى بأعمال جليلة في الفتوح والتطوير الحضاري والخدمات كما تقدم[٢].

وجاء عبد الله بن عامر بعد أبي موسى ، وقد أجرى أمير المؤمنين عثمان تغييراً أساسيّاً في إدارة الولاية ، فضَمَّ إليها أجنادَ عُمان والبحرين ، فزاد ذلك من نفوذ ابن عامر ، كما أثَّر على البصرة نفسها فأصبحت إحدى العواصم الإسلامية المستقرة ، وزادت هجرة القبائل إليها ، وكذلك زادت أعباؤها في الديوان وتنظيم شؤون الولاية الإدارية

---

(١) انظر: الولاية على البلدان ، ص٢٥١ ـ ٢٥٥ ، ٢٥٨ ـ ٢٦٣.
(٢) تقدم: ص ٣٣٢ ، ٤٣٢ ـ ٤٣٣ في هذا الكتاب.

والأمنية والمالية وغيرها. وامتدت منها الفتوحات نحو المشرق، وقدَّم واليها الشاب أعمالاً جليلة حضارية في البناء والتخطيط وشق الطرق وحفر الأقنية والأنهار، حتى وصلت جهوده المباركة إلى أرض الحرمين الشريفين[1].

١٠ ـ الكوفة[2]:

وهي المِصْر العظيم الذي يُـنافس البصرةَ في تاريخ الإسلام وحضارته وفتوحاته.

لما مات عمر كان واليها المغيرة بن شعبة، فأقرَّه عثمان نحو سنة، ثم عزله وولى سعد بن أبي وقاص ومعه ابن مسعود على بيت المال، وجاء بعدهما الوليد بن عُقبة وخَلَصت له الكوفة ما بين سنتي (٢٥هـ ـ ٣٠هـ)، عزله عثمان بعدها وولى سعيد بن العاص فمكث إلى سنة (٣٤هـ) حيث خرج عليه أهلها يوم الجَرَعَة، فعزله عثمان وولى أبا موسى الأشعري الذي بقي عليها حتى استشهد عثمان.

ومثل البصرة فإن الكوفة كانت من أضخم معسكرات المسلمين، وأقام الولاة للناس أمورهم وساسوهم بالعدل والرحمة، وتابعوا الفتوحات في جهات بلاد فارس وخراسان، وأدَّبوا حركات الانتقاض، وحَمَوا ثغور الدولة، وأَمدُّوا الجبهات الأخرى بالجيوش.

لكن الكوفة كانت مصدرَ قلقٍ وخطر، وفيها نشأت بُؤَر الفتن وتحرَّك مساعيرُ الشر وإشاعة الأكاذيب والخروج على الولاة والتأليب على

---

(١) انظر ما تقدم: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣، ٣٧٤ ـ ٣٧٧ في هذا الكتاب.

(٢) الولاية على البلدان، ص٢٦٣ ـ ٢٦٦، ٢٢٧ ـ ٢٨١، ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

الخليفة ثم المشاركة الكبيرة في الخروج عليه وحصاره ثم قتله كما سيأتي.

سادساً: بلاد فارس وخراسان:

وكان فيها مدن ضخمة مثل (الرَّيّ) و(هَمَذَان) ، وكانت تابعة لولاية الكوفة؛ فواليها هو الذي يبعث الولاة عليها ، ويتابع تدبيرَهم لشؤونها وسياستهم فيها.

والأَهْواز ـ في إيران اليوم ـ وسِجِستان إقليم واسع جدّاً وفيه مدن كثيرة شهيرة ، وهي تابعة لولاية البصرة ، وكان عبد الله بن عامر يعيِّن العمال والقادة ويُجري التنقلات تبعاً للمصلحة العامة[1].

سابعاً: إرمينية وأذربيجان:

ولي (إِرْمِينية) من قِبل عثمان: حَبيب بن مَسْلَمة ، ثم حُذيفة بن اليمان بالإضافة لولايته على (أَذْرَبِيجان) ، ثم وليهما بعده المغيرة بن شعبة وبقي عليها حتى توفي عثمان[2].

ثامناً: مصر والمغرب:

فتح عمرو بن العاص مصرَ ووليها في عهد عمر ، وكان في جيشه عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح فولاه عمر على الصَّعيد ، واستشهد وهما على ذلك. واستُخلف عثمان فأقرَّهما ، ثم عزل عَمْراً وأخلَصَ مصرَ لابن أبي سرح.

---

(١) الولاية على البلدان ، ص٢٦٠ ـ ٢٦١ ، ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٢) المرجع السابق ، ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

قام عمرو ثم ابن أبي سرح من بعده بأعمال جليلة خالدة؛ فتمَّ القضاءُ على حركات الانتقاض ، وتثبيتُ حكم الإسلام بمصر ، ثم مدّ رُوَاق الفتوح إلى أقصى الشمال الإفريقي ، ونحو الجنوب إلى أراضي الحبشة وأعماق ليبية. وخاض المسلمون معارك بحرية مظفرة بعد تكوين الأسطول البحري الإسلامي ، وكسروا هيمنة الروم على البحر المتوسط.

وفي أواخر عهد عثمان كان لمصر دور سيئ في تحريك الفتن وتوجيه جيش خرج عن سلطان الخلافة ، وشارك في حصار أمير المؤمنين ثم قتله ، وكان لابن سبأ دور خطير في ذلك.

ومن خلال هذا العرض الموجز نرى أن الدولة الإسلامية الممتدة كانت في أمن واستقرار وعدل ورحمة ونمو وحضارة بناءة ، ما عدا بؤرة في الشرق هي الكوفة والبصرة ، وأخرى في الغرب هي مصر؛ منها خرجت جيوش السبئيين على عثمان وقامت بقتله! وهذا ما سنفصله في الباب التالي.

* * *





الباب العاشر

من الفتنة إلى الاستشهاد

- متغيرات ومستجدات.
- إخبار النبي ﷺ بالفتنة زمن عثمان وأن عثمان على الهدى وأنه يقتل مظلوماً.
- دراسة منهجية للفتنة ومروياتها ورواتها وما كتب فيها.
- ما عتبه الناس على عثمان وما نقمه المفترون المنافقون عليه (تمحيص وتحقيق ونقد).
- مؤامرات في الظلام ومنهجها وأخطر رموزها ومواقف الخليفة الراشد في علاجها.
- أمير المؤمنين عثمان مع دعاة الفتنة وجهاً لوجه في المدينة.
- الحصار الآثم ومجريات أحداثه ومواقف أمير المؤمنين والصحابة.
- استشهاد عثمان.
- الوداع.

* * *



الفصل الأول

متغيرات ومستجِدات

لم تمضِ سنوات من خلافة عثمان حتى بَسط الإسلام جناحيه وامتدت رقعته على مساحات شاسعة من العالم المعمور ، وأصبحت الصبغة الإسلامية صبغة عالمية تشمل العربي والأعجمي والرومي والبربري ، وتَسْلُكهم جميعاً في دولة واحدة. ومن طبائع الأشياء أن تحدث في المجتمع الإسلامي الجديد تغيرات في نطاق واسع ، وتنشأ مستجِدات تتفاعل فيما بينها إيجابيّاً أحياناً وسلبيّاً أحياناً أخرى .

وقد لفتَ أمير المؤمنين عثمان إلى بعض جوانب المتغيرات التي تتربص بالأمة ، فقال في مستهل خلافته في كتاب وجَّهَه للأمة : (أما بعد، فإنكم إنما بَلَغتُم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تَلْفِتَنَّكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمرَ هذه الأمة صائرٌ إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكاملُ النِّعم ، وبلوغُ أولادكم من السبايا ، وقراءةُ الأعراب والأعاجم القرآن!).

وهو بهذا يحذِّرهم تغير الحال إذا اجتمعت لهم تلك الخِلال الثلاث[1].

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٤٥ ؛ وانظر ما كتبناه : ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ في هذا الكتاب.

ونشير في هذا الفصل إلى أبرز تلك المتغيرات والمستجِدات ، ونتلمس بواعثها وعناصرها ومحاورها وآثارها ، من خلال سيرورة التاريخ والمجتمع والأمة والدولة والمؤثرات الداخلية والخارجية طيلة عهد عثمان ، مع تداخلها مع نهايات خلافة عمر؛ وذلك لتوضيح معالم الانقلاب الخطير الذي زلزل الأمة الإسلامية بالخروج على الخليفة وقتله ، والهدف الكامن وراء ذلك هو إسقاط الخلافة! .

أولاً: مجيء عثمان بعد عمر والاختلاف في طبعهما ومعاملتهما الرعية:

نشأ الفاروق مخشوشناً صليباً قويّاً مهيباً في الجاهلية ، ومضى على ذلك في الإسلام ، وترسخ في فطرته ومسلكه في خلافته ، وكان في ذلك مضربَ المَثَل مع نفسه وأسرته وأقاربه. وساعده اخشيشانُه على أن يكون المثلَ الأعلى فيما حدَّث عنه التاريخ من أعاجيب ، في مأكله ومشربه وملبسه ومرقده ومجلسه ، وتعرُّفِ شؤون رعيته ، وأخذِه أمراءَه وولاته بما أخذ به نفسه ، وقد جاءته الدنيا صاغرة في ظل خلافته فأعرض عنها ، وولجت عليه كنوز الأكاسرة والقياصرة ، وخيرات فارس والروم ، فنفر عنها نِفاراً شديداً! .

ومشى على ذلك في حكم الدولة وسياسة الناس ، وهو من هو شدةً في الحق ، وبطشاً بأعداء الله ، وحزماً في السياسة ، وصلابة في الرأي ، وعزماً في النفاذ. وشَغَلَ الناسَ بالجهادِ والفتح ، فلم يترك لهم فرصة فراغ يقلِّبون فيها صحائف الناس ، ويُديرون في مجالسهم أحاديثَ الولايات والتأمير ، وأعمال الولاة ، وسياسة الأمراء ، بله سياسة الخلافة العليا! .

ويقابل ذلك عثمان وما كان في فطرته من وداعة ورحمة وعطف، تنوعت مظاهرها في السماحة والجود إلى أبعد غايات المكارم. ونشأةُ عثمان في لطفه، ولينِ عريكته، ورقة طبعه، ودَمَاثةِ خُلُقه؛ كان لها بعض الأثر في مظاهر الفَرْق عند حُدَثاء الإسلام بين عهده وعهد سلفه في الخلافة عمر بن الخطاب.

ومن عجيب الأمر وغامض الحكمة أن هذه الصفات التي كانت دعائمَ محبة لعثمان في قلوب الناس؛ هي نفسها التي كانت نوافذَ الأحداث الكارثة والعظائم القاصمة[1]!.

وقد أشار عثمان إلى شيء من ذلك ذات مرة، وقد عَزَم على توسعة المسجد الحرام، فابتاع بعض البيوت المجاورة، وهدمها، وأبَى عليه قوم وصَيَّحوا به، فأدَّبَهم وقال: أتدرون ما جَرَّأكم عليَّ؟! ما جرَّأكم عليَّ إلا حِلْمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تُصيِّحوا به[2]!.

ثانياً: مقتل عمر:

ثبت في الحديث الصحيح: أن عمر بن الخطاب هو (غَلَقُ الفتنة)[3]، وبمقتله كُسِر الباب الذي كان يحجز الفتنَ ويَحول بينها وبين المسلمين، فاجتاحت الفتن أنفسَهم ودولتهم، وتركت آثارها الخطيرة على المجتمع الإسلامي منذ عهد عثمان وما بعده!.

والجانب الأخطر في مقتل الفاروق أنه لم يكن أمراً عارضاً ولا تدبيراً

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٧٢ ـ ٧٣، ٨١؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥١.
(٣) انظر: كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ٢/ ٢٩ ـ ٣٦.

فردياً ، بل نجزم بأنه كان بتدبير فارسي يهودي نصراني؛ كما تدل عليه عناصر الجريمة وأفرادها! وقد ترتب عليه انتقاضُ عدد من الأمصار في أطراف الدولة الإسلامية ، وتمرُّدُ أهلها من الفرس والروم والترك على سلطان الخلافة في بداية عهد عثمان؛ مما يشي بتغيرات في أحوال المجتمع ، وما يَمُور به من أفكار واتجاهات ، وما تنطوي عليه قلوب خصوم الإسلام الذين يتربصون به الدوائر ، ليثيروا الفتن هنا وهناك كلما سَنَحت لهم الفرصة بذلك.

ثالثاً: الفتوحات الواسعة وتدفق أجناس شتى إلى دوحة الإسلام:

امتدت الفتوحات في خلافة عمر ، ثم تراحَبَتْ في عهد عثمان لتُضيف أمصاراً كثيرة ومساحات شاسعة وشعوباً جديدة انطوت تحت راية الإسلام. وبقيتْ هذه الفتوحات مستمرة حتى آخر عهد عثمان وعلى جميع الجبهات ، وفي البر والبحر ، في بلاد الترك وخراسان والروم وإفريقية والحبشة حتى سنة (٣٣هـ) ، والمعارك البحرية حتى سنة (٣٤هـ) في وقعة ذات الصواري. ولم تستطعْ أعمالُ الموتورين والحاقدين والسبئيين وأشباههم أن توقفَ سير الفتوحات وتدفقها ، ولكن تلك الفتن أضعفَتْها في السنتين الأخيرتين من عهد عثمان ، حتى توقفت إثر استشهاده ، ثم بسبب ما جرى من فتن في عهد علي.

فالرأي القائل بأن من أسباب الفتنة توقف الفتوحات ، أو أنها وصلَتْ إلى حدٍّ يجب أن تقف عنده قبل أن تُستأنف[1]؛ هو رأي مرجوح ، بل

---

(١) انظر: عثمان بن عفان ، للصلابي ، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥؛ الدولة الأموية ، للعش ، ص٧٧.

الواقع التاريخي يُبطِله وينقضه ، وتوقفُ الفتوحات كان نتيجة اضطراب الفتن والخروج على الولاة والخليفة ، وليس سبباً لتلك الفتن .

هذه الفتوحات قد ضمت أمشاجاً شتى من العناصر والأجناس ، والمذاهب والأفكار ، والطبائع والأخلاق ، والرضا والسخط ، مع وجود الحاقدين والموتورين ، والذين دخلوا الإسلام على دَغَل وألقَوا السلاح صاغرين . . .

وآثار ذلك قد ظهرت في معالم متعددة ذات اتجاهات متباينة ، لكنها تجتمع تحت هدف واحد هو تأجيجُ الفتن والانقضاض على الإسلام ودولته: **فاتجاه** تمثَّل باستهداف الخليفة وقتْلِه فبدأ بعمر ثم عثمان. **واتجاه ثان** توجه إلى القيام على الولاة والتأليب على حكمهم والطعن عليهم. واعتمدت **ثالث** حركاتِ الانتقاض من الفرس والروم والترك ليزعزع أركان الدولة. بينما استهدف **اتجاه رابع** مبادئَ الإسلام وأركانه وسعى لتشويهها وحرفها عن مسارها الصحيح .

وثمة أمرٌ بالغُ الخطورة والأهمية في اتساع الفتوحات وكونها من أسباب الانقلاب الخطير الذي حدث في نهاية عهد عثمان؛ وهو أن امتداد تلك الفتوحات لم يُصاحبْه استيعاب عميق لمبادئ الإسلام ، (فدخولُ شعوب بأكملها في الإسلام في سنوات قليلة جدّاً ، لا كانت هناك أمامها فرصة لتتلقى قِسطاً حقيقيّاً من التربية الإسلامية كما تربَّى المهاجرون والأنصار في مكة والمدينة ، ولا كان في طَوْق كل المربِّين في الأمة الإسلامية أن يربُّوهم في تلك السنوات القليلة ليصبحوا على المستوى المطلوب للمجتمع المسلم)[1] .

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ؟، ص١٠٩ .

رابعاً: التغيرات الاجتماعية وتنوع أمشاج المجتمع وتمازج الأعراق:

وكان من نتيجة الفتوحات الواسعة والسريعة؛ اختلاطُ أهالي البلاد المفتوحة وتمازجُهم مع الفاتحين والقبائل المهاجرة من جيوش الفتح. فلو استقرأنا ـ مثلاً ـ نزلاءَ الكوفة ، لوجدنا الامتزاجَ واضحاً جلياً ، فإلى جانب قبائل من الشمال توجد قبائل من الجنوب ، ونلحظ قبائلَ من ربيعة وقبائل من مُضَر ، وقبائل من الحجاز وأخرى من نجد ، وهكذا. . .[1] .

أضف إلى ذلك تمازجَها مع الشعوب غير العربية من الفرس والروم والترك والبربر وغيرهم ، ممن دخلوا في الإسلام وصُهروا جميعاً في بوتقته ، لكن لم تُصهر أنفسهم وقلوبهم وأفكارهم بمثل ما كان عليه المهاجرون والأنصار والأجيال الأولى ممن قامت على سواعدهم دولة الإسلام ، ولم يتمازجوا في كتلة واحدة منسجمة كتلك التي شكلت مجتمع المدينة في العهد النبوي وامتد زَخَمُها إلى عهد أبي بكر وعمر ، ثم أصبحت دائرتها صغيرة مقايسة بالدائرة الكبرى التي كونت المجتمع المسلم الكبير في عهدَيْ عمر وعثمان ، والذي تكوَّن من أمشاج العناصر والأجناس ، والأفكار والمذاهب ، والأخلاق والطبائع ، والغنى والفقر ، والطموح والزهادة ، والرضا والسخط ، والهدوء والثورة. وانضوى تحت لواء الإسلام أممٌ وبلاد مختلفة الأجناس واللغات ، متباينة الأخلاق والعادات ، متعددة المشارب والمعتقدات ، وامتزجَتْ

---

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، لشكري فيصل ، ص٣٧؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٤٥.

أخلاق بأخلاق ، وعادات بعادات ، وأفكار بأفكار ، ودماء بدماء ، وألوان بألوان[1] !.

ويشير الوالي العبقري سعيد بن العاص إلى نمط من التحولات الاجتماعية في الكوفة ، فيكتب إلى عثمان: (إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرُهم ، وغُلب أهلُ الشرف منهم والبُيوتات والسابقة والقُدْمة ، والغالبُ على تلك البلاد روادِفُ رَدِفَتْ ، وأعرابٌ لَحِقَتْ ، حتى ما يُـنظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازِلَتِها ولا نابِتَتِها)[2].

في هذا المجتمع المتسع المتنوع (الفُسَيفسائي التركيب) ، نشأ جيل (المُسَيَّرين)[3] الذين وصفهم معاوية بن أبي سفيان في كتابه إلى أمير المؤمنين عثمان بقوله: (إنه قدِمَ علَيَّ أقوامٌ ليست لهم عقول ولا أديان ، أَثقَلَهم الإسلام ، وأَضْجَرَهم العدلُ ، لا يريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجَّة ، إنما همُّهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضحهم ومخزيهم)[4].

ومن ملامح التحولات الاجتماعية في المجتمع: وجود (جيل السَّبْي) ، الذي يكوِّن أحد أنسجة المجتمع ، والذي لم تترقَّ نفسُه إلى أفق معاني الإسلام الرفيعة ، وتعلَّمَ القرآنَ لا رغبة فيه بل طمعاً في الجُعْلِ الذي جعله له الخليفة تشجيعاً وتأليفاً أو منحة وعطاء.

وأيضاً: ذاك (النَّشْءُ من البطَّالين) الذين تفرغوا للجدل والمُلاحاة

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص ٧٣ ، ٧٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٤ / ٢٧٩. **الروادف**: أتباع القوم المؤخَّرون.
(٣) سيأتي الحديث عنهم: ص ٥٧٧ ـ ٥٨١ في هذا الكتاب.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢١.

والقيل والقال ، وتلقفِ الأراجيف والشائعات تم تضخيمها ونشرها بين الرَّعَاع ، وهيِ تتناول هذا الوالي أو ذاكَ القائد الفاتح وربما أمير المؤمنين! مما أَسْهَم في تشكيل تيار لعبثْ به الفتنة ولعب بها.

كذلك من مكونات المجتمع التي أثَّرت في تحولاته ولعبت دوراً خطيراً في أحداث الفتنة: أولئك (الأعراب ونُـزَّاع القبائل المشرَّدون)، وقد حذّر أمير المؤمنين عثمان منهم ومن (جيل السبي)؛ في أول كتبه التي وجهها إلى عامة المسلمين[1].

وقد ظهرت خطورة (الأعراب والمشردين) بأنهم كانوا في الفتنة كالبعير المَخْشُوش يتبع قائدَه، فيكفي أن تُشعل الفتنة بمشعل، ويكفي أن يُحرَّك هؤلاء الأعراب، وأن تُجمع كلمتهم، وأن يُوجَّهوا توجيهاً؛ فإذا هم يثورون ويأكلون الأخضر واليابس[2]!.

خامساً: الرخاء المادي والتوسع من الدنيا والتنافس عليها:

ومن نتائج الفتوحات كثرةُ الأموال بين أيدي الناس من الجزية والخَراج والعشور والغنائم والأسلاب وغيرها، وفُتحت أبواب الدنيا على الناس، فتغالَب عليها قطاع كبير منهم، وجمعوا الأموال، وغرسوا الحدائق، وأكثروا من الإماء والعبيد، واتخذوا الضِّياع، وهجر كثير منهم حياة الزهادة والتقشف، وأَلِفَتْ أنفسُهم الدَّعَة والرَّفَه.

وقد صوَّر الحسن البصري ذلك النعيم والاسترخاء الذي ظهر في

(١) انظر ما تقدم: ص ٥٠١ في هذا الكتاب.
(٢) الدولة الأموية، للعش، ص٧٨.

المجتمع بأن الأَعطيات جارية ، والأرزاق دارَّة ، حتى كان يُنادى في الناس بأن يأخذوا الأكسية والحُلَل ، والسَّمْن والعسل[1]!.

ولم تمضِ سنة من خلافة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش ضِياعاً في الأمصار ، وانقطع إليهم الناس ، وقد كان عمر بن الخطاب حَجَر عليهم الخروج في البلدانِ إلا بإذن وأجَل. فلما تولى عثمان وسَّع لهم فتوسعوا واتسعوا ، وشَبَّ بين أصحاب النبي ﷺ جيلٌ جديد لم يأخذ نفسه بأدب الإسلام في فهم قيمة الدنيا والأموال وطرائق إنفاقها في الوجوه التي أذِنَ الله تعالى بالإنفاق فيها؛ فأدى ذلك بهؤلاء إلى التكالب والمكايدة ، وقذف بهم في جحيم الفتنة فخاضوها مع الخائضين[2].

وقد نبَّه أمير المؤمنين عثمان على ذلك المزلق الخطر غداةَ استقباله الخلافة ، فيما كتبه إلى العامة فقال: (فلا تَلفِتنَّكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النِّعم...)[3]. ووقع الناس فيما حذَّرهم عثمان منه ، فاكتوى الجميع بجريرته ، وهذا ما كتب به عثمان إلى بعض أمرائه وقادة جنده ، يأمره بأن يراعي في جهاده وإقدامه ظروفَ الناس الذين معه ، وأن حالهم ليس كرجال الطبقات العليا من المجاهدين الذين أضاؤوا شعلة الفتوحات الأولى؛ فكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ـ وهو على الباب (على بحر قزوين) ـ: (إن الرعية قد أبطَر كثيراً منهم البِطْنة ، فقصِّر ،

---

(١) تقدم كلامه بتمامه: ص ٣٢٥ في هذا الكتاب.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٩٦/٤ ـ ٣٩٧؛ عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٤١ ـ ٤٢.

(٣) تقدم: ص ٥٠١ في هذا الكتاب.

ولا تقتحم بالمسلمين ، فإني خاشٍ أن يُبتلوا!)[1].

فالأعراب الجُفاة الذين انساحوا في الأرض مع جيوش الفتح قد مُلِئت أيديهم بالدنيا والغنائم ، والفقراء الذين استغنوا من الديوان والأَعْطيات والهبات ، وأولئك الأرقاء من عُبدان وإماء من الأجناس المختلفة الذين امتزجوا بالعرب وخدموا الأشراف وعاشوا في النعيم ، وكذلك المشرَّدون ونُزاع القبائل ممن نالهم خيرُ الدولة وسخاءُ الخليفة. . . كل أولئك لم يفقهوا وظائفَ المال وطرائقَ إنفاقه الصحيحة ، وهم قد شكلوا نسيجاً في المجتمع أسهم بدور واضح في التغيرات التي استجدت في المجتمع خلال عهد عثمان.

سادساً: اندماج المرتدين في المجتمع واستعمالهم:

كان من هدي أبي بكر ، وهو الذي حارب المرتدين وقهرهم ، أنه لم يستعن في جهاده وفتوحاته بأحد منهم حتى مات. وعندما جاء عمر سلك سبيل الصديق في التضييق عليهم ، لكنه استعملهم في الحروب ولم يُطْمِعْهم بالوِلاية والرئاسة والقيادة. وفي خلافة عثمان رأى أن عامل الزمن قد عفَى على تلك الحركة ، وأن صلاح بعض المرتدين كافٍ لأن يندمجوا في المجتمع ؛ فاستعمل المرتدين استصلاحاً لهم[2].

ونحن نسجل للتاريخ أن طائفة كبيرة من المرتدين قد حَسُن إسلامهم وصَلُحت أحوالهم ، لكن ذلك لا يعني أن جمهورهم كان كذلك ، فلقد أكَّدت مجريات الأحداث في السنين الأخيرة من خلافة عثمان أن عناصر

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٠٤.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٥ ، ١٥٨ ؛ عبد الله بن سبأ ، ص٣٥.

من قبائل كانت قد ارتدت عن الإسلام ، قد شاركت في قتله رضي الله عنه! من أمثال سُودان بن حُمْران السَّكُوني وقُتيرة السَّكوني من قبيلة (السَّكُون) من مرتدة حضرموت ، والأشتر النَّخَعي من رؤوس الفتنة ومساعيرها ، وهو من (النَّخَع) والنخع من (مَذْحِج) من القبائل المرتدة وعليها الأَسْود العَنْسي[1].

سابعاً: عروق الجاهلية تنبض في مسلمة الفتوحات:

يلخص ابنِ خلدون ذلك بكلام جيد فيقول: (لما استُكمِل الفتح ، واستكمل للملَّة المُلك ، ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر ، وكان المختصون بصحبة الرسول ﷺ والاقتداء بهديه وآدابه: المهاجرين والأنصار وقريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم. وأما سائر العرب: من بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأَزْد وكِنْدة وتميم وقُضَاعة وغيرهم؛ فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانت لهم في الفتوحات قدمٌ ، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ـ من الصحابة ـ ومعرفة حقهم ، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة ، وتردُّدِ الوحي ، وتنزُّل الملائكة. فلما انحسر ذلك العُباب ، وتُنوسِي الحال بعض الشيء ، وذلَّ العدو ، واستفحل المُلك؛ كانت عروق الجاهلية تنبِض ، ووجدوا الرياسة عليهم من المهاجرين والأنصار وقريش وسواهم؛ فأَنِفَتْ نفوسهم منه! ووافق ذلك أيامَ عثمان ، فكانوا يُظهرون الطعنَ في ولاته بالأمصار ، والمؤاخذةَ لهم باللحظات والخطرات ، والاستبطاء عليهم بالطاعات ، والتجنِّي بسؤال

---

(١) عبد الله بن سبأ ، ص٣٥ ـ ٣٦.

الاستبدال منهم والعزل ، ويُفيضون في النكير على عثمان ، وفَشَت المقالة في ذلك في أتباعهم)[1].

ثامناً: الطامحون للزعامة والولاية:

بينما كان الجيل الأول من الصحابة يخافون من الإمارة ويهربون منها لعِظَم الأمانة والمسؤولية المناطة بها ، نشأ جيلٌ يطمح للزعامة ويسعى إليها ويقاتل عليها، وكان الخلفاء يؤخِّرونهم عنها. ومن الأمثلة على ذلك محمد بن أبي حذيفة وقد طلب الولاية من عثمان ، فأنَّبَه وقال له: لو كنتَ رِضاً ثم سألتَني العملَ لاستعملتُك ، ولكن لستَ هناك[2]! وبقي يسعى لذلك حتى نزا على حكم مصر في غياب واليها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح.

بل نشأ جيل ممن لا قَدَمَ له في الإسلام ، ولا سابقة في فضل ، ولا مكانة من شرف قومه ، ينشر الأراجيف ويسعى للفتن ويؤلِّب على الولاة ويطعن عليهم ويطلب عزلهم؛ لتخلُص إليه الإمارة. وتمثل ذلك بتلك الطائفة الذين عُرِفوا (بالمُسَيَّرين) ، والذين واجههم والي الشام معاوية فقال واعظاً ومرغِّباً ومرهِّباً: (إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة ، فلا تَشِذُّوا عن جُنَّتِكم ، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجَوْر ، ويَحتملون منكم المؤونة ، والله لَتَنتهُنَّ أو لَيبتلينَّكم الله بمن يَسُومكم ، ثم لا يَحمدكم على الصبر!) ، فقال رجل من القوم: (أمَّا ما ذكرتَ من الجُنَّة ، فإن الجُنَّة إذا اخترِقتْ خُلِصَ إلينا!)[3].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٢/ ٤٧٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٩.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٣١٩. **الجُنَّة**: الوقاية والحماية.

فقد أفصحوا عما في أنفسهم من طموح للولاية وسعي إليها ، ولو كان في ذلك التضحية بمصير الأمة والدين والبلاد .

تاسعاً: الأهواء وإشعال الفتن وتهييج الرَّعَاع:

ونتيجة اختلاط الأجناس والأعراقِ والأفكار والعادات والتقاليد والمذاهب ، وأوكار المنحرفين الذين أُقيمت عليهم الحدود فضَجِروا بها ، والموتورين والحاقدين ، والمهزومين الذين ألقَوا سلاحَ المقاومة صاغرين وأظهروا الإسلام راغمين غير مخلصين ـ فتجمع من ذلك الخليط شراذم لم يمتزجوا بالنسيج الإسلامي العام حق الامتزاج ، ولا أخلصوا للدين الذي طواهم تحت عدالته ، بل لجؤوا للمهاجمة من الداخل بأساليب شتى ، وشعارهم الأبرز وصية عبد الله بن سبأ اليهودي[1] .

فأخذوا يُلقون الأراجيفَ ويُشيعون الأكاذيب على الولاة والقادة ثم على أمير المؤمنين عثمان ، وافتروا عليهم أنهم قصَّروا في القيام بأمور الولاية ، وخانوا الأمانة ، وظلموا الرعية ، وتعدَّوا الحدود ، وركبوا الخطايا ، ومَدُّوا أيديهم إلى مال الأمة! وسعوا إلى عزلهم ، وتحقق لهم ذلك في مرات عديدة ، وحرَّضوا على الخروج عليهم وقادوا الرَّعَاع في هذا ، وزوَّروا كتباً على ألسنة كبار الصحابة وأمهات المؤمنين .

وهيَّجوا جماعات من الجهلة والحمقى والمشردين وأصحاب الهوى والمطامع الدنيئة ، وأخذوا يشيعون بينهم هذا وذاك من الافتراءات ، حتى انتقلت إلى الأمصار ، وترامت إلى الناس الأخبار الكاذبة

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤١ . وسيأتي الحديث عن ابن سبأ وأعماله .

والمُلفَّقة، فتناقلَتْها الألسنة، وتَلقَّـفَـتْها الآذان، وعَمِلَت الدعايـة عملها، وفشتْ قالةُ السوءِ في حق ولاة الأمصار، حتى وصلوا إلى الخليفة وطعنوا عليه ورموه بالعجز والضعف وعدم العلم بما يجري وأنه لا يتحكم بأمر الأمـة والولاة، حتى وصلوا إلى الخروج عليه والمطالبة بخلعه ثم قتلـه!.

عاشراً: بذور الفرق والبدع:

وفـي عهـد عثمـان بـدأ ظهـور الفِـرق والبـدع التـي مـزَّقـت وحـدة المسلمين؛ وأخطر تلك البدع (بدعة التشيع) التي تُظهر الحب للآل من بيت النبوة، وتُضمِر الكيد لأهل الإسلام، وتعلن الوفاء للإمام، وتُبطِن الغدر بالإسلام، اتخذت من التشيع ستاراً لهدم هذا الدين المتين، فكايدته مكايدة ماكرة خبيثة، وتربصت به الدوائر حتى إذا لَمَعَتْ لها بارقةُ الخلاف بين المسلمين في خلافة عثمان رضي الله عنه؛ هبت واثبة إلى مكان القيادة تسوق الناس بعصا الفتنة العمياء، وتَهمِزُهم إذا فَـتُروا بِمِهْمز المكر والدهاء، والتشيعُ الخالص المخلص من نزعها براءٌ!.

وكان رأس هذا اللون المُعْتِم من التشيع ذلك الرجل اليَهودي الخبيث عبد الله بن سبأ[1] الملقب بابن السوداء، من يهود اليمن، الذي أَحْدَث القولَ بوصية رسول الله ﷺ لعليٍّ بالخلافة من بعده، فهو وصيُّ رسول الله ﷺ وخليفتُه على أمته من بعده بالنصِّ، وأَحْدَث القولَ برجعة علي بعد موته إلى الدنيا، وبرجعة رسول الله ﷺ أيضاً.

وفي أعطاف هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي حَبَا (مذهبُ

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٣٠ ـ ٣١، وسيأتي كلام مفصل عن ابن سبأ ودوره الخبيث.

الخوارج) من مهده حتى نما واشتد في عهد علي رضي الله عنه ، والخوارج فرقة تمتد جذورها إلى عهد النبي ﷺ[1] .

ومن متقدمي الخوارج الذين اشتركوا في إشعال نار الفتنة العثمانية (ابن الكَوّاء) ، الذي خرج في جماعة من أهل الكوفة على عثمان ، وكوَّنَ مع آخرين (جماعة المُسَيَّرين) الذين كانوا من مساعير الفتنة ، وكانوا ممن تولى كِبْرَها ، وذكَّوا نارها وغمسوا أيديهم في دمائها ، وهم يرون التبري من عثمان رضي الله عنه أصلاً لمذهبهم! .

●● هذا فيما نحسب مجمل لأبرز المتغيرات والمستجِدت التي طرأت على المجتمع الإسلامي في عهد عثمان ، ونَشِبت أظفارُها في جسم الأمة ، وأدَّت إلى زلزال خطير انتهى باستشهاد ذي النورين ثم علي رضي الله عنهما ، وأَحدَثَتْ تصدعات ضخمة وغائرة في بنيان الدولة الإسلامية! .

ولقد أَخبر النبي ﷺ بوقوع هذا الحدث المروِّع ، ودلَّ المسلمين على السبيل الذي يستمسكون به إذا ما دَهَمهم ، وهذا ما نبحثه في الفصل التالي .

* * *

(١) انظر : كتابي «نبوءات الرسول ﷺ» : ٢/ ١١٤ ـ ١٤١ .

الفصل الثاني

إخبار النبي ﷺ بالفتنة زمن عثمان

وأن عثمان على الهدى وأنه يُقتل مظلوماً

كثُرت الأحاديث النبوية الصحيحة التي تخبر عن وقوع الفتنة الكبرى زمن عثمان ، وتحثُّ المسلمين على أن يبايعوهويناصروه؛ لأنه رضي الله عنه على الهدى وكذلك مَنْ بايعه وناصره ، وأنه سيَقضي شهيداً سعيداً ويُـقتل مظلوماً ، وأن مختلِقي الأكاذيب ومروِّجي الأباطيل سيخرجون عليه ، ويَسْعَون إلى قتله فيتحقق لهم ذلك ، وتكشف الأحاديث نواياهم وتفضح سرائرهم؛ فَهُم كَذَبة مجرمون منافقون لا يرون بعملهم وجه الله ولا صالح الأمة والدين.

أولاً: عن مُرَّة البَهْزِيِّ قال: (بينما نحن مع رسول الله ﷺ في طريق من طرق المدينة ، قال: «**كيف تصنعون في فتنة تثور في أقطار الأرض كأنها صَيَاصِي البقر؟**» قالوا: نصنعُ ماذا يا نبيَّ الله؟ قال: «**عليكم بهذا وأصحابه**». قال: فأسرعتُ حتى عَطَفْتُ إلى الرجل ، قلتُ: هذا يا نبي الله؟ قال: «**هذا**». فإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله عنه)[1].

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/٣٣ ؛ ٣٥ ، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٩٦) ؛ وابن حبان (٦٩١٤) ، وصححه شعيب الأرنؤوط ؛ وجوَّد الألباني إسناده في الصحيحة (٣١١٨).

ـ وعن عبد الله بن حَوَالة الأَزْدِيِّ قال: (قال رسول الله ﷺ: «**يا ابنَ حَوَالَة، كيف تفعل في فتنة تخرج في أطراف الأرض كأنها صَيَاصِي بقر؟**» قلت: لا أدري، ما خارَ الله لي ورسولُه. قال: «**وكيف تفعل في أخرى تخرج بعدَها، كأن الأولى فيها انْتِفَاجَةُ أَرنَبٍ؟!**» قلت: لا أدري، ما خارَ الله لي ورسوله. قال: «**اتَّبِعوا هذا**». قال: ورجل مُقَفِّي حينئذٍ، قال: فانطلقتُ، فسَعَيْتُ وأخذتُ بمَنْكِبَيْه، فأقبلْتُ بوجهه إلى رسول الله ﷺ فقلتُ: هذا؟ قال: «**نعم**». قال: وإذا هو عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه).

زاد ابن أبي عاصم في روايته: «**اتَّبِـعْ هذا؛ فإنه يومئذٍ ومَنِ اتَّبَعَه على الحق**»[1].

ـ وعن أبي هريرة قال: (إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنكم تَلْقَوْنَ بعدي فتنةً واختلافاً**» أو قال: «**اختلافاً وفتنة**»، فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «**عليكم بالأَمين وأصحابِه**»، وهو يُشير إلى عثمان بذلك)[2].

ـ وعن عوف بن مالك قال: (أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوكَ، وهو في قُبَّة من أَدَمٍ، فقال: «**اعْدُدْ سِتّاً بين يدي الساعة...**» الحديث، وفيه: «**ثم فتنةٌ لا يبقى بيتٌ من العرب إلا دخَلَتْه**»!)[3].

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ١٠٩ ـ ١١٠؛ وابن أبي عاصم (١٢٩٤)؛ وصححه الألباني في الصحيحة (٣١١٨).

(٢) أخرجه أحمد: ٢/ ٣٤٥؛ والحاكم: ٤/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤، وصححه ووافقه الذهبي؛ والألباني في الصحيحة (٣١١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٧٦)؛ وابن ماجه (٤٠٤٢)؛ وابن حبان (٦٦٧٥)، وغيرهم.

تشير هذه النبوءة إلى الفِتن التي ستقع في عهد أمير المؤمنين عثمان ، وشبَّهَتْها الأحاديث بأنها مثلُ صَيَاصي البقر ؛ أي قرونها ، وشبَّه الفتنة بها لشدَّتها وصعوبةِ الأمر فيها ، وكل شيء امتُنِعَ به وتُحُصِّنَ به فهو صِيصِيَةٌ ، ومنه قيل للحصون: صياصي. وقيل: شبَّه الرماحَ التي تُشرع في الفتنة وما يشْبهها من سلاح بقرون بقرٍ مجتمعة. ويبدو أن الأمرين مقصودان! .

وجاء وصف الفتن بأنها تثور في أطراف الأرض ، وفي حديث آخر بيَّن أنه لا يبقى بيت من العرب إلاَّ دخلَتْه؛ تنبيهاً على شمولها كثيراً من أقطار الإسلام ، واضطراب عامة البيوت بشأنها. وهكذا كان كما سيأتي تفصيله.

ثانياً: وأوضحت الأحاديث النبوية المعالم الرئيسة للفتنة ، وكَشفتْ عن كثير من عناصرها ، ورسَّختْ حقائقها الكبرى؛ فصرَّح الرسول ﷺ بأن عثمان خليفة راشد ، وأن الله تعالى سيُلبسه سِرْبالَ الخلافة ، وحَضَّ المسلمين على مبايعته وملازمته ومناصرته ، وفضَح الخارجين عليه ووَصَمَهم بأنهم منافقون ضَالُّون مجرمون يريدون خلْعَه ، وأمر عثمانَ بالثبات على مبدئه والتمسكِ بما أعطاه الله من الخلافة وبايعه المسلمون عليها.

ـ عن عبد الله بن حَوَالة قال: (قال رسول الله ﷺ ذات يوم: «**تَهْجُمونَ على رجلٍ مُعْتَجِرٍ ببُرْدَةٍ من أهل الجنة يُبايعُ الناسَ**». قال: فَهَجَمْنا على عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنه مُعْتَجِراً ببُرْدَةٍ يُبايع الناسَ)[1].

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٥٠)؛ وابن أبي عاصم (١٢٩٢)؛ والحاكم: ٣/٩٨ ، =

ـ وعن أم المؤمنين عائشة قالت: (قال رسول الله ﷺ: «يا عثمانُ، إنَّ الله عز وجل عَسى أن يُلْبِسَكَ قَميصاً، فإنْ أَرادَكَ المُنافِقونَ على خَلْعِه، فلا تَخْلَعْهُ حتى تَلْقاني. يا عثمانُ، إن الله عسى أن يُلْبِسكَ قميصاً، فإنْ أَرادك المنافقون على خَلْعِه، فلا تخلَعْه حتى تلقاني»، ثلاثاً).

وفي رواية: «فإنْ أرادك المنافقون على أن تَخْلَعَهُ، فلا تَخْلَعْه لهم ولا كَرامةَ».

وفي رواية أخرى عن عائشة: أنها قالت: (فلما رأيتُ عثمانَ يَبذُل لهم ما سألُوه إلا خَلْعَهُ؛ علمتُ أنه من عَهْدِ رسول الله ﷺ الذي عَهِدَ إليه)[1].

أما بيعتُه بالخلافة فقد تحقق ذلك حيث اختاره المسلمون بالإجماع من بين الستة أصحاب الشورى كما قدمناه مفصلاً.

وأما الخروج عليه ومحاصرتُه وحَمْلُه على أن يخلَعَ نفسَه من الخلافة؛ فقد تحقق في آخر أيامِ خلافته، كما سيأتي تفصيله، وقد أَبَى ذلك عثمان أشدَّ الإباء وقال: (أَمَّا أن أخلع لهم أمرهم، فما كنت لأخلَعَ سِرْبالاً سَربلنيه الله عز وجل). وسيأتي تفصيله.

ثالثاً: وخَتَمت الأحاديث الشريفة الكلامَ عن فصول الكارثة

= وصححه ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة (٣١١٨).

(١) أخرجه أحمد: ٦/ ٧٥، ٨٥ ـ ٨٦، ١١٤؛ والترمذي (٤٠٣٨)؛ وابن ماجه (١١٢)؛ وابن حبان (٦٩١٥) وغيرهم؛ وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

المروِّعة ، بأن عثمان رضي الله عنه سيُقتل مظلوماً ، وأن الخارجين عليه ظالمون قتلة مجرمون.

ـ عن عبد الله بن عُمر قال: (ذَكَرَ رسول الله ﷺ فتنةً ، فمرَّ رجلٌ ، فقال: «يُـقْتَلُ فيها هذا المُقَنَّعُ يومئذٍ مظلوماً»! قال: فنظرتُ ، فإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله تعالى عنه)[1].

حقّاً لقد قُتل عثمان ظلماً ، وكانت الخسارة بمقتله فادحة ، وارتكب القتلة مظالمَ كبرى وأفسدوا في الأرضِ وانتهكوا كل الحرمات. . . وسيأتي تفصيل ذلك[2].

* * *

(١) أخرجه أحمد: ٢ / ١١٥؛ والترمذي (٤٠٤١) ؛ وصححه الحافظ في الفتح: ٨ / ٦٠٩ ، شرح الحديث (٣٦٧٤).

(٢) وانظر: كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ٢/ ٣٧ ـ ٧٤.

الفصل الثالث

دراسة منهجية للفتنة ومروياتها ورواتها وما كُتِب فيها

أولاً: ركام من الروايات تتخللها خيوط الحقيقة:

في تاريخنا الإسلامي عامة ومرحلة الفتنة في عهدي عثمان وعلي خاصة ركام هائل من الأغلوطات والأخلوقات والأكاذيب والافتراءات والمجازفات ونتاجات الأهواء والفرق والمذاهب والبدع ، خاصة إذا علمنا أن كثيراً من (نصوص التاريخ) قد دُوِّن بعد نشوء وانتشار كثير من الأهواء والبدع والمذاهب المعتدل منها والغالي. . . ولهذا وضع أئمتنا من المحدثين كتب الجرح والتعديل ، وصنفوا في المجروحين والضعفاء والمتروكين والوضاعين .

واضطرب أمر (التاريخ والمؤرخين) ، حيث استحكمت العصبية المذهبية ، وطغت الأغراض السياسية ، وضَعُف الوازع النفسي والخلقي ، والتبست الحقائق بالأباطيل ، ولوِّنت الحقائق بألوان الأساطير ، وعمِّي التاريخ ، واستسهلت طائفة من الرواة والمصنفين تدوينَ الأخبار الخرافية والساذجة والمتناقضة ، واستخفَّت بعقول المعاصرين واللاحقين! .

والحقائق الناصعة خيوط لامعة وصُوًى مضيئة في خِضمٍّ هذا الظلام الدامس من أنقاض الروايات! لكن الحق وهو أعظم مظاهر الجلال الإلـٰهي ، لا يمكن أن تخفي أشعتَه سحائبُ الباطل مهما تراكمت. وإذا كان التاريخ قد أُثقِل بأوزار الباطل ، فإنه قد حمل بين معاطفه لمعاً من الحقائق تكفل للباحث البعيد عن المؤثرات الزمنية أو المذهبية أو الاجتماعية السلامةَ من التورط فيما تورط فيه من خضعوا لتلك المؤثرات في عصورها ، أو من خُدعوا بالرواية عنهم من القصاصين ورواة السير وحوادث التاريخ عمن هبَّ ودَبّ ، ومشى مع الناس ، وعندئذٍ قد يُتاح له الوقوف على شيء من الوقائع الصحيحة[1].

ثانياً: المؤلفات في الفتن زمن عثمان وعلي ، وتعريف بأشهر رواة أحداثها وأخبارها:

●● المصادر عن الفتنة والأخبار فيها كثيرة جدّاً تملأ المجلدات ، ويُخيَّل للقارئ أنه يجد فيها تفاصيلَ الحادثة بدقائقها وتفاصيلها وأبطالها وتطورها ونزعاتها.

وكتب فيها المتقدمون ممن كانوا قريبي العهد بها ، وكذلك المؤرخون أصحابُ المطوَّلات ، والمعاصرون من المسلمين والمستشرقين وتلامذتهم من المستغربين. واشتمل ذلك على كتب مفرَدة ، أو سردٍ مطوَّل ضمن موسوعات تاريخية.

ومن كتب فيها من المتقدمين: أبو مِخْنَف لوط بن يحيى ، في كتبه:

---

(١) انظر: عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص١٦٧ ـ ١٦٨؛ عبد الله بن سبأ ، للعودة ، ص٧.

مقتل عثمان، مقتل علي، الجمل، صِفِّين. نَصْر بن مُزاحم، ومن كتبه: الجمل، وصِفين. سيف بن عُمر الضبي، في كتبه: الردَّة، الجمل. محمد بن عمر الواقدي، ومن كتبه: الردَّة والدار، الجمل، صفين. عمر بن شَبَّة، في كتبه: مقتل عثمان، تاريخ المدينة المنورة.

ومن كتب المطولات: تاريخ الطبري، تاريخ ابن عساكر، الكامل لابن الأثير، البداية والنهاية لابن كثير، تاريخ الإسلام للذهبي، تاريخ اليعقوبي، مروج الذهب للمسعودي... وغيرهم.

وقد أجمعوا في كتبهم روايات محمد بن السائب الكلبي وأبي مخنف ونصر بن مزاحم والواقدي وسيف...

ويُلحق بذلك موارد كثيرة شهيرة من كتب الأدب وقصص السمر والحكايات العامية والكتب المنحولة والضعيفة، ونحوها، مثل: الأغاني للأصفهاني، البيان والتبيين للجاحظ، الكامل في الأدب للمبرد، الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، نهج البلاغة وشرحه لابن أبي الحديد وغيره.

ثالثاً: تعريف[1] برواة رووا (معظم أحداث الفتنة):

١ ـ محمد بن السائب الكَلْبيّ:

أخباري مفسر نسابة مشهور، متروك، ليس بثقة، متهم بالكذب، ورُمي بالرفض، وجاء عنه أنه (سَبَئيّ) من أتباع عبد الله بن سبأ.

---

(١) ملخص من كتب التراجم والجرح والتعديل.

سئل الإمام أحمد عن «تفسير الكلبي»؟ فقال: كذبٌ، قيل له: يَحلُّ النظر فيه؟ قال: لا !.

٢ ـ محمد بن عمر الواقدي:

قال فيه الذهبي: أحد أوعية العلم على ضَعْفه المتَّفَق عليه. جمع فأوعى، وخَلَطَ الغثَّ بالسَّمين، والخَرَز بالدُّرِّ الثمين، فاطَّرَحوه لذلك، ومع هذا فلا يُستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم... وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يُحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثارَه من غير احتجاج.

ولخَّص ابن حجر القولَ فيه فقال: متروك ـ أي في الحديث ـ مع سعة علمه.

٣ ـ أبو مِخْنَف لوط بن يحيى:

أخباري تالف لا يوثَق به، وقال ابن معين: ليس بثقة. وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحبُ أخبارهم.

٤ ـ نصر بن مزاحم الكوفي:

رافضيٌّ جَلْد، تركوه. قال أبو خيثمة: كان كذاباً. وقال أبو حاتم: واهي الحديث، متروك.

٥ ـ سيف بن عُمر الضَّبِّي:

قال يحيى بن معين وأبو زرعة الرازي والنسائي والدَّارَقُطْني: ضعيف الحديث. وقال أبو حاتم: متروك. وقال ابن حِبَّان: وكان يَضَع الحديث، وكان قد اتُّهم بالزندقة!.

هذا رأي الأئمة فيه في الحديث ، وأما في التاريخ وهو غرضنا من الترجمة هنا؛ فقد قال فيه الذهبي : كان أخبارياً عارفاً ، وقال ابن حجر : ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ .

وكلام ابن حِبَّان فيه مردود؛ فلم يتَّهمْه أحد بوضع الحديث ، ولا يَصحُّ اتهامه بالزندقة فهو جرحٌ غيرمفسَّر ، بل رواياته في الفتنة وعن سير الصحابة وأحوالهم تهدم هذا القولَ ، وهي أبعدُ ما تكون عن الزندقة! وقد رد الحافظ ابن حجر على ابن حبان قولَه ، فقال في «تقريب التهذيب» : أَفحشَ ابنُ حبان القولَ فيه .

●● وكثير جدّاً مما في روايات هؤلاء وكتبهم ومَن نقل عنهم مِن بعدهم؛ مرسَلات ومُعضَلات ومنقطعات ، بل فيها الكثير من الكذب والباطل والمحال[١] ، مما يجب دراسته دراسة جادة نقدية سنداً ومتناً ، وغربلته ، وعدم الاستسلام له أو تزيينه وترويجه .

وهذا الكم الضخم من (التراث التاريخي) أصبح مورداً دسماً وسامّاً لكثير من الكتَّاب في هذا العصر ، فاغترفوا من (رواياته المظلمة) ، وقدموه للقراء بأسلوب رائق من التصنيف والتبويب ، ونهل منه العامة والمثقفون ، بل بات مصدراً سهلَ المُتناوَل لكثير من الكتب المدرسية التي درسناها نحن والأجيال التي جاءت من بعدنا ، فتخرجت أفواج من المسلمين تعرف نُتفاً من الحقيقة وسط ركامٍ من أشلاء الأحداث الدامية

---

(١) وقد أشار الذهبي إلى نحو ذلك في سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٩٢ ، مع أنه ـ سامحه الله ـ ينقل في كتابه هذا وفي «تاريخ الإسلام» أشياء كثيرة من هذا القبيل ويسكت عليها! .

التي تشوِّه ـ غالباً ـ الواقعَ الحقيقي لذلك الجيل من أسلافنا وتلك الحقبة من تاريخنا!.

(لقد كتب المعاصرون من الكتاب والمؤرخين عن (فتنة مقتل عثمان) الكثير، وذهبوا فيها مذاهب شتى، فوقفوا فيها مواقف مختلفة، كلٌّ يجدُ في الحوادث ما يؤيد قولَه ونزعاته، ويُسند رأيه واتجاهه: بين مؤيد لعثمان ومخالِف له، وبين شاكٍّ في موقفه ومدافع عنه، وبين طاعنٍ في الصحابة أنهم تخاذلوا عنه أو حرَّضوا عليه، ومدافع عنهم أنهم لم يقصِّروا نحوه حين دعت الحاجة. ومنهم من يجمع بين المتناقضات فيدافع تارة ويهاجم أخرى، يحاول أن يستنفد الأخبار، وأن يضع كلاً منها في موضعها، مع أنها متناقضة متضاربة لا يمكن أن تجتمع!)[1].

●● **وثمة دراسات منهجية نقدية جادة ومفيدة هنا وهناك، لكنها قليلة، بيد أنها خطوة على الطريق** في تقديم صورة صحيحة عن تلك الحقبة، وسليمة الوجهة والموقف من (خصوصية الصحابة) ومنزلتهم والاستغفار لهم، وعدم النَّيل منهم أو التعريض بهم أو التشكيك في دينهم وصدقهم وإخلاصهم.

ومن أمثلة ذلك: عثمان بن عفان للصادق عرجون، تعليقات محب الدين الخطيب على «العواصم من القواصم» و«المنتقى من منهاج الاعتدال» وكتابه «مع الرعيل الأول»، عبد الله بن سبأ لسليمان العودة، تحقيق مواقف الصحابة لمحمد أمحزون، واستشهاد عثمان لخالد بن محمد الغيث، الولاية على البلدان لعبد العزيز العمري، عصر الخلافة

---

(١) الدولة الأموية، ليوسف العش، ص٣٢.

الراشدة لأكرم العمري ، الإنصاف فيما وقع في العصر الراشدي من الخلاف لحامد محمد الخليفة ، الدولة الأموية ليوسف العش .

وأرجو أن تكون كتبي عن الصحابة عامة (والخلفاء الراشدين) خاصة؛ لبنة في هذا الميدان ، وخالصة لوجه الله تعالى .

رابعاً: عيوب كتب التاريخ وأخطاء المؤرخين:

ليس في التاريخ الإسلامي مرحلة أشدَّ تعقيداً ، ولا أعظم غموضاً ، ولا أكثر التواء؛ من المرحلة التي تبدأ باستشهاد عمر واستخلاف عثمان رضي الله عنهما ، وتنتهي بتسليم الحسن بن علي أمرَ الخلافة إلى معاوية رضي الله عنهما .

فهذه المرحلة قد التَبَسَ على الناس فهمُها ، وتشابهت حوادثها على العقول والأفكار ، وكانت غامضة أشد الغموض ، فالتاريخ إذا حدَّثَك في موضوع برواية سَرْعَ ما ينقضها برواية أخرى في الموضوع نفسه ، وهو إذا وقف بك على سبب حادث من الأحداث استدرك عليه بسبب آخر يهدمه! وفي حالات كثيرة فإن الناظر في هذا التاريخ إذا قرأ في موضوع من الموضوعات ، فإنه لا يخرج منه بنتيجة واحدة لمقدمات واحدة في الموضوع الواحد ، ولكنه سيخرج من الموضوع الواحد بنتائج مختلفة لمقدمات مختلفة بروايات مختلفة[1] ! .

ومن هنا تأتي أهمية غربلة الروايات ، ونقدها سنداً ومتناً ، ومقابلتها بالركائز الأساسية لحياة الصحابة وسيرهم وأخلاقهم وتربيتهم .

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٩ ـ ١٠ .

وإن من حقِّ العلم والبحث عن الحقيقة ، كما أنه من حق أجيال المسلمين علينا؛ أن نجهر بالقول بأن كتب التاريخ الإسلامي قد أساءت كثيراً إلى تلك الحقبة وإلى رجالها ، وأن مؤرِّخينا قد أخطؤوا قليلاً أو كثيراً أيضاً؛ عندما سوَّدوا وجْهَ (كتب التاريخ) بروايات باطلة تافهة مكذوبة ، نقلوها عن رواة كذابين أو متروكين أو وضاعين أو مبتدعة حانقين ، في حق صحابة أجلَّاء عظماء هم في أرفع مراتب النُّبل والطُّهر والصدق والإخلاص والعقل والعلم! .

أين تزكيةُ القرآن للصحابة وثناؤه عليهم في آيات كثيرة ورضوان الله عليهم في مواقف عدة؟! وأين الثناءُ النبوي العريض عليهم عامة وخاصة من السابقين واللاحقين ، ونهيُه الشديد وتحذيرُه الصريح من الطعن عليهم أو معاداتهم؟! ثم أين ما اشتهر عنهم وذاع من المُثُل العليا والأخلاق الرفيعة والسيرة الحميدة والأعمال المجيدة؟! .

أين كل هذا من روايات تتهمهم بالخيانة والكذب والغدر والجبن والتآمر والكيد والتباغض والسرقة والأثرة والنذالة. . . حتى جعلت تلك الروايات عبداً حقوداً كأبي لؤلؤة مقوِّماً لعدالة عمر! وأَظهرتْ ابنَ سبأ والسبئيين أنهم دعاةُ إصلاح وتقويم لمنهج عثمان! وروَّجَتْ للأشتر النخعي وحُكَيم بن جَبَلة والغافِقِي بن حرب وأمثالهم أنهم طُلابُ حق وإقامة للشعائر ، وهم الذين زحفوا إلى المدينة في هيئة الحجاج ثم حاصروا الخليفة وقتلوه! .

تأمل مثلاً هذه الروايات في (تاريخ الطبري):

ـ عثمان يهدم بيوت الناس ليوسِّع المسجد الحرام ، ويضع أثمانَ بيوتهم في بيت المال.

ـ ويعطي أقاربه (آل الحَكَم) (٣٠٠ قنطار ذهب!) هي ما صالح عليه أهل إفريقية.

ـ عثمان يطعن في عمرو بن العاص، ويستطيل عليه، فيردّ عليه عمرو بأن أباه أشرف من أبي عثمان.

ـ عثمان يرجو عليّاً أن يكلِّم (وفد المصريين) وقت الحصار، فيؤنِّبه علي لأنه لم يسمع نصيحته، بل رَكَن إلى أقاربه وعصى عليّاً.

ـ وأن عثمان بكى على المنبر وتاب وأعطى (الخارجين عليه) الرضا، وقد كلَّمه علي بكلام قبيح وصفه فيه بأنه دابَّة.

ـ وأن عليّاً ومحمد بن مَسْلَمة لامَا عثمان لأنه لم يفِ للخارجين عليه بما وعدهم به.

ـ وأن طلحة كان يؤلِّب على عثمان، وعثمان دعا عليه.

ـ وأن عائشة تحثّ ابنَ عباس على أن يدعو الناسَ لبيعة طلحة بعد مقتل عثمان[١].

فهل هذه صور حقيقية لأولئك الصحابة الذين رباهم النبي ﷺ، وائتمنهم على رسالته من بعده؟! وهل يُعذر مؤرِّخونا بسياق هذه الروايات دون نقدها، اعتماداً على مقولة (مَنْ أَسْنَدَ لك فقد أَحالَكَ)؟! وقد أصبحت هذه الروايات الساقطة (مادة إعلامية) لكثير من الشانئين وخاصة في عصرنا!.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٤/٢٥١، ٢٥٦، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٣ ـ ٣٦٤، ٣٦٩ ـ ٣٧١، ٣٧٢ ـ ٣٧٥، ٣٧٩، ٤٠٧، على الترتيب.

●● وروايات ابن سعد عن شيخه الواقدي بشأن الفتنة ، كلها تدين أمير المؤمنين عثمان ، وهي بالنتيجة تبرئ الخارجين عليه! .

وابن عبد البر في «الاستيعاب» يسوق ـ مثلاً ـ في ترجمة الوالي المجاهد الوليد بن عقبة روايات كلها تجرحه وتطعن في تاريخه وتجرِّمه بالسُّكْر وأنه صلى بالناس مخموراً .

والذهبي ينقل كثيراً في «تاريخه» و«سير أعلام النبلاء» عن الواقدي والطبري وغيرهما ، ويسلِّم لما يرويه في مواضع كثيرة جدّاً . ومن أقرب الأمثلة : أنه يتهم مروان بن الحكم بأنه خان عثمان وزَوَّر خاتمه ، فأجْلَبوا بسببه على عثمان[1] .

وابن كثير أيضاً ينقل عن الطبري ، فينقد أحياناً ، ويُرسِل الروايات على عَوَاهنها أحياناً أخرى : فيُقِرّ رواية أن عمرو بن العاص يؤلِّب على عثمان ، وأن عمار بن ياسر يتحامل على عثمان ويتآمر عليه ، وأن مروان بن الحكم يتلاعب بعثمان ، وأن عليّاً وصف عثمان بأنه مثل جمل الظعينة[2]! .

خامساً: التمحيص والنقد:

●● فلابد من المعرفة التامة بتاريخ تلك الحقبة ، وأخلاق رجالها وشمائلهم وأعمالهم ومنزلتهم ، وأثرِ القرآن الذي لا يزال غضّاً في تربية أتباعه في صدر الإسلام وتزكية أرواحهم ، وتوجيه تصرفاتهم

(١) سير أعلام النبلاء : ٣/ ٤٧٧ .
(٢) البداية والنهاية : ٧/ ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ .

وأعمالهم ، وثقافتهم العامة التي يهيمن عليها الوازع الديني الأخلاقي لا المآرب الشخصية والدوافع المادية الدنيوية .

ولا يُقبل البتَّة أي خبر يطعن في عدالة الصحابة وتنزُّهِهم عن الطمع والغدر والخديعة والفسق والظلم والاستبداد وأكل الأموال بالباطل وكل ما هو من الفسق وخوارم المروءة[(١)] .

●● كما يتوجب على الباحث الخبرةُ الشاملة بالراوي والمرويِّ ، وفحصُ الأخبار ومقارنتها ببعضها ، ونقدُ السند والمتن ، وغربلةُ الروايات واستخلاص الحقائق من أضابيرها ونفي غَلَس الأساطير والأكاذيب عنها؛ فنأخذ بالصحيح والحسن والقريب منه ، ولا بأس بأخذ الضعيف الذي يَسدُّ فراغاً ويملأ ثغرة ويفك لُغزاً ويشرح غامضاً ، ما دام ذلك متفقاً مع الروح التي تسود ذلك المجتمع والسلوك الذي اشتهر به أهله ، وصانعو أحداثه . (ومرحى للنقد النزيه مصوغاً في نمط أهل الأدب من الباحثين ، وليس أحد ـ حاشا النبيين ـ بمعصوم)[(٢)] .

وليس من طرائق أهل الحق ولا من سبيل ذوي الإنصاف والنقد النزيه ، ما يعمد إليه كثير من المستشرقين ومن تابعهم من بني جلدتنا؛ الذين يَحكُمون على الإسلام وتاريخه معتمدين على قيمهم ومقاييسهم الثقافية وبيئتهم التي نشؤوا فيها والظروف التي عاصروها والرجال الذين قادوا دَفَّة السياسة في دولتهم ، بدلاً من الاعتماد على المصادر التاريخية الأصيلة مع كتب الحديث الصحيحة ، والأخذ بالاعتبار قيم الإسلام

---

(١) منهج دراسة التاريخ الإسلامي ، ص٨٦ .

(٢) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص١٩ .

ومبادئه ، وأعراف المجتمع الذي وقعت فيه الأحداث وسير الرجال الذين كانوا محور تلك الأحداث ، والظروف الاجتماعية والسياسية والنفسية التي جرت فيها وشاركت في صناعتها تيارات شتى وتوجهات متباينة متعاندة(١) .

●● ومن خيانة العلم والتنكر للأمة وتاريخها والحَيْف على سَلَفها الكريم؛ ما يقوم به بعض (الكتَّاب) الذي ينتقون الأخبار حسب ميولهم ، ويأخذون الروايات الضعيفة والواهية والباطلة التي تخدم ميولهم ومذاهبهم ، ويكتفون بالإشارة إلى أنها عن الواقدي أو الطبري أو المسعودي. أو أولئك الذين يسوقون الأخبار بغَثِّها وسَمينها ، مكتفين بالعزو إلى بعض مصادرها مما أوردنا قائمة ببعضها. ثم يبني هذا الفريق وذاك على تلك الأخبار بنياناً من الآثام والافتراءات التي تشوه العصر الراشدي الذي هو (العصر الذهبي للإسلام) بعد عصر النبوة ، والذي تحققت فيه (عالمية الإسلام) على يدي رجاله من خلال الفتوحات العظيمة المباركة.

وإذا كان التحري في نقل الأخبار والتمحيص في قبولها والتثبت من مصداقية رواتها ونزاهتهم؛ واجباً بصورة عامة ولكل جيل ، فهو آكَدُ وجوباً بحق جيل الصحابة وعصر الراشدين ، التزاماً بهدي القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

---

(١) انظر: منهج دراسة التاريخ الإسلامي ، ص٨٦ ، ٩٥ ـ ٩٧؛ الدولة الأموية ، للعش ، ص٣٣.

سادساً: تقييم للرواة الثلاثة (لوط بن يحيى، الواقدي، سيف بن عمر) ورواياتهم:

من خلال ما قدمناه من أقوال أئمة الجرح والتعديل في أشهر رواة (أخبار الفتنة)، لاحظنا تضعيفَهم لهم جميعاً من حيث الصنعةُ الحديثيةُ، لكن أقوال المحدِّثين في (المؤرخين) يجب أن لا تُعتبر حكماً قاطعاً عليهم، وأن لا تُجعل ميزاناً نهائيّاً في التاريخ؛ لأن المحدثين إنما حكموا عليهم باعتبار (قبول الأحاديث)، ومن المعروف أن أئمتنا يتشددون في هذا الباب لأنه يتعلق بالعقائد والأحكام والحلال والحرام، ولو أخذنا بهذا المنهج لَسَقَط الشطر الأكبر من المغازي والفتوح والتواريخ وتراجم الرجال[1].

ولقد وجدنا كبار النقاد من المحدثين يتساهلون في روايات فضائل الأعمال، بله المغازي والسير والتواريخ والفتوح.

وعلى هذا اعتمد المؤرخون ـ وفيهم جمهرة من جهابذة المحدِّثين ـ ميزاناً ثانياً في قبول الرواية التاريخية وهو: التساهلُ في رواية (الضعفاء في الحديث) عند روايتهم الأخبار والأحداث والفتوح والتواريخ والأنساب ونحوها، إذا كانت تلك المرويات تتسق مع منهج القرآن والسُّنَّة وسير الصحابة وأتباعهم من الأكابر، وما عُرف عنهم من الشمائل الحميدة والنُّبل والطهر والأعمال المجيدة والإخلاص والصدق والأمانة.

---

(١) انظر: منهج دراسة التاريخ الإسلامي، ص٥٠ ـ ٥٢؛ دراسات تاريخية، لأكرم العمري، ص٢٧.

وهكذا وجدنا كبار المحدثين وجهابذة المؤرخين يسوقون روايات الواقدي وأبي مخنف وسيف والمدائني وأمثالهم ، ويستشهدون برواياتهم ويعتمدونها في كثير من أحداث التاريخ والغزوات وأخبار الأمم والملوك والرجال ، كما يفعل ذلك ابن تيمية وابن كثير والذهبي وابن حجر والسَّخَاوي وغيرهم. مع الاحتياط في هذا والتنبه إلى ما قدمناه من ردِّ أي رواية تَحطُّ على الصحابة أو تطعن في سِيَرهم ، أو تتناقض مع الخطوط العريضة التي رسمها القرآن والسُّنَّة.

(يجب علينا إذن أن نجد أخباراً صحيحة عن الفتنة ، نقيس عليها ما ورد عن الواقدي وأبي مخنف وسيف ، فما اتفق معها مما أورده هؤلاء عَدَدْناه حَرِيّاً بالأخذ به ، وما خالفها ألقيناه ونبذناه. وتلك طريقة ليست صالحة في الحديث فقط ، بل هل مقبولة في التاريخ)[1].

ونتيجة استقراء واسع لمرويات (لوط بن يحيى والواقدي وسيف بن عمر) وجدنا :

●● **أن أبا مِخْنَف لوط بن يحيى** - وهو شيعي محترق صاحب هوى وبدعة - **قد سَهُل عليه أن يُظهِر عثمانَ بمظهر الخليفة الذي كثُرت سقطاته فاستحقَّ ما جرى له** ، وأن يبيِّن أن طلحة بن عبيد الله من المؤلِّبين على عثمان والثائرين عليه ، ويُؤْثِر أن يُظهِر عليَّ بن أبي طالب بمظهر مَن يعطف على عثمان ويدافع عنه مع غضبه من أفعاله وأقواله[2]!.

●● **ولا تقِلُّ روايات الواقدي سوءاً عن أخبار أبي مخنف** ، فهذا

(١) الدولة الأموية ، للعش ، ص٣٧.
(٢) المرجع السابق ، ص٣٤ - ٣٥.

الطبري وقد روى (طامَّات) في تاريخه ، نجده يتحامَى كثيراً من مرويات الواقدي ، فيقول ـ مثلاً ـ: (وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب مسيرِ المصريين إلى عثمان ونزولهم ذا خُشُب أموراً كثيرة ، ومنها ما قد تقدم ذِكْرِيـهِ ، ومنها ما أَعرضْتُ عن ذِكْرِه كراهةً مني لبشاعته!)[1].

وإنك لترى الواقدي في رواياته يُـكثِر التشنيعَ على عثمان ، ولا يتورع عن إظهار الصحابة بمظهر المتآمرين على عثمان ، ويخصّ بالذِّكْر منهم طلحة وعمرو بن العاص ، ويُظهِر علي بن أبي طالب أنه مخالِف لعثمان حانقٌ منه[2].

●● وأما روايات سيف بن عمر فهي أمثل ما عند المؤرخين وأصفاها ، وأكثرها سلامة على الصحابة ، وأبعدها عن الطعن عليهم أو سوء الظن بهم.

ولقد دَرَجتُ في قراءاتي وكتاباتي على أن أستوعب ما جاء في كتب السُّنَّة عن الصحابة والفتن التي حدثت في عهدهم ، واعتبرتُها الأصلَ والمحور فيما أكتب ، ثم تواريخ وكتب تراجم الأئمة الثقات المتقدمين كخليفة بن خياط والفَسَوي وابن سعد والخطيب ، وبعدها مطولات التاريخ والتراجم كالطبري وابن عساكر والبداية والنهاية وتاريخ الإسلام للذهبي وسير أعلام النبلاء له ، ومعها تواريخ اليعقوبي والمسعودي وكتب الأدب ونحوها.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٥٦.

(٢) انظر ما تقدم: ص ٥٣٠ حاشية (١) في هذا الكتاب؛ الدولة الأموية ، للعش ، ص٣٥.

والذي تبيَّن لي أنه لا يصحُّ البتة وضْعُ (روايات سيف) مع روايات الواقدي وأبي مخنف ونصر بن مزاحم والكلبي في كفة واحدة؛ فلقد (سَبَرتُ روايات سيف واختبرتها) وقايستها بمنهج الصحابة وأخلاقهم في القرآن والسُّنَّة ، وأعمالهم في عصر الرسالة وعهد الراشدين ، ثم قارنتها بروايات الواقدي فمن دونه؛ فوجدت روايات سيف نظيفة سليمة الصدر والنهج ، تبرئ الصحابة ، وتؤكد رفعة أخلاقهم ، وتدين أصحابَ الأهواء والافتراء ، فسيفُ بن عمر أبعدُ الناس عن (الزندقة) ، بل إنه برواياته التفصيلية الجيدة هو الذي فَضَح الزندقة متمثِّلة برأسها ومخترِعها عبدِ الله بن سبأ! فما قيمة تلك الكلمة الجارحة أرسلها ابن حبان بلا دليل؟!.

وهذه النتيجة التي خرجتُ بها تتفق مع ما توصَّل إليه الدكتور يوسف العش ، حيث يَنفي عن سيف (تهمةَ الزندقة) ، ويقول: (إن روايته ـ للفتنة ـ بعيدةٌ كل البُعد عن أن تضَعَه موضعَ هذه التهمة ، بل تبرئه منها؛ فموقفُه فيها موقفُ رجال السلف في احترامه للصحابة ، وتنزيهه لهم عن فعل القبيح)[1].

* * *

(١) الدولة الأموية ، ص٦٦.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

ما عَتَبَهُ الناسُ على عثمان

وما نَقَمَهُ المفترون المنافقون عليه

(تمحيصٌ وتحقيقٌ ونقدٌ)

أولاً: وقفات مهمة عند الحديث عن عثمان والفتنة التي انتهت بمقتله:

لعثمان رضي الله عنه من السوابق والفضائل والشمائل الحميدة والأعمال المجيدة والجهاد والعلم والنُّبل والسماحة والعدل والإنصاف والرأفة والرحمة... ما لا ينافسه فيه كثير من أكابر الصحابة بلْهَ عامتهم، دَعْ عنك الرَّعَاع المغموصين ممن روَّجوا الأكاذيب واخترعوا الأباطيل وانتهوا بالخروج عليه؛ فهؤلاء لا فضائل لهم ولا سوابق ولا أعمال حسنة ولا شرف محتد ولا نُبل مقصد، فكيف يكونون قوَّامين على عثمان وأعماله وعهده المبارك؟!.

ولقد نبَّه عثمان إلى هذه الحقيقة الكبرى بكلمة موجزة رواها عنه عبَّاد بن زاهر قال: سمعت عثمان يخطب فقال: (إنَّا والله قد صحبْنا رسولَ الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يَعُود مرضانا، ويَتْبع جنائزنا،

ويغزو معنا ، ويواسينا بالقليل والكثير ، وإن ناساً يُعْلموني به عسى أن لا يكون أحدُهم رآه قطُّ!)[1].

ويكشف الصحابي العبقري حذيفة عن نوازع الشر والهوى التي طُويت عليها قلوبُ المفترين على عثمان ، فيقول: (اللهمَّ العَنْ قَتَلَة عثمان وغُزاةَ عثمان وشَنَأَة عثمان ، اللهم إنَّا كنا نُعاتبه ويُعاتِبنا ، متى ما كان مَنْ قبله يُعاتبنا ونعاتبه ، فاتَّخَذوا ذلك سُلَّماً إلى الفتنة! اللهم لا تُمِتْهم إلا بالسيوف)[2].

ولقد شهد الصادقون بأنه في عهد عثمان كان الإسلام عزيزاً منيعاً ، والفتوحات في أَوْجِها ، والناس قد غمرتْهم مشاعر المحبة والإخاء والتوادّ ، وهم في بُلَهْنِيَة من العيش والأمان ، والخير كثير ، والأرزاق دارَّة ، وكلمة الحق عالية ، وذات البين حسن ، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً ، مَن لقيه فهو أخوه مَن كان ، أُلفته ونصيحتُه ومودَّته[3].

والذين قَلَبوا الأمور رأساً على عَقِب ، وأحالوا أمنَ الأمة وتوادَّها وصلاحها ورفعة كلمتها إلى الخوف والفوضى والتباغض وفساد ذات البَيْن وتوقف مسيرة الفتح والنصر. . . هم أولئك المجرمون المنحرفون الذين خرجوا على الخليفة ، وجعلوا نهار المسلمين ظلاماً دامساً!.

ولسنا في هذا الفصل وغيره ندافع عن الخليفة الراشد ذي النورين ، ومن العبث أن يَظن امرؤٌ يتلو ما اتُّهِم به عثمان؛ بأن الردَّ عليه من باب

---

(١) أخرجه أحمد (٥٠٤) ، وحسنه أحمد شاكر.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٠٧.

(٣) انظر كلمة الحسن البصري المتقدمة: ص ٣٢٥ في هذا الكتاب.

(دفع التهمة) ، بل هو في الحقيقة إشارات إلى نوازع (أولئك السبئيين) الذين افتروا تلك الفِرى أو حرَّفوا بعض الوقائع واتهموا بها الخليفة. ثم بيان تهافت تلك التُّهم وتجلية وجه الحق فيها. وإلا فإن عثمان في سيرته وأخلاقه وأعماله منذ دخل الإسلام وإلى يوم استشهاده؛ هو كالمُزْن الذي يحمل الغيث إلى الأرض ، طهارةً ونقاءً ورحمةً ونفعاً عامّاً.

والذين عَتَبوا على أمير المؤمنين عثمان أنه عزل بعض الصحابة وولَّى مَن هم دونهم في السابقة والفضل ، أو انتقدوه في إقامة الحدود أو التعزير أو التأديب لبعض الرعية أو اجتهاده في بعض المسائل... فمن يقول ذلك ويطنطن به إنما هو جاهل بمنزلة الخليفة وصلاحياته ، أو مكابر ، أو مبغض شانئ يريد الشر والفتنة.

فللإمام الحقُّ في العزل والتولية ، وكذلك إقامة الحدود والتعزير والتأديب ، بل هو من الواجب عليه لحفظ شعائر الإسلام وحماية الدولة واستئصال شأفة الشر والفساد والفتنة ، وقد فعل ذلك من قبله أبو بكر وعمر ، ومن بعده علي وغيره. ودِرَّةُ عمر مشهورة في التاريخ ، وقد نالَتْ من بعض كبار الصحابة ، فما عَتَبَ عليه أحد!.

وعثمان رضي الله عنه إمام مجتهد معذور فيما أدَّبَهم عليه ، وهو أيضاً إمام مأمور بتقويم رعيته ، وكان أبعدَ عن الهوى وأولى بالعلم والعدل فيما أدبهم عليه[1].

ثانياً: أصحاب الأهواء المبغضون لعثمان الحانقون عليه قدماء:

●● من الأمور التي يتوجب تثبيتُها والتنبه لها أن تلك المزاعم التي

---

(١) انظر: الإمامة ، لأبي نعيم الأصفهاني ، ص٣١٥ ـ ٣١٧؛ منهاج السنة: ٣/ ٦٧٠ ـ ٦٧١ ، ٦٧٥.

افتُريت على عثمان وعِيب عليه بسببها، لم يَدَّعِها عليه الصحابة ولا الخيِّرون من المسلمين ولا قبِلوها ، فضلاً عن أن يطعنوا على عثمان بسببها.

إنما الذين افتروها واخترعوها واتهموا عثمان بها هم طائفة من المغموصين والموتورين والمحدودين وأصحاب الأهواء والمطامع ، ثم تلقَّفَها السبئيون وأتباعهم من الرَّعَاع وأذاعوها بين الناس للتستر وراءها في خروجهم المبيَّت على الخليفة بهدف عزله أو قتله؛ فقد جاء في رواية سيف بن عمر : (قالوا : نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم أنا قرَّرْنَاه بها، فلم يخرج منها ولم يتبْ . . .)(١).

ولقد أشار شاعر رسول الله ﷺ كعب بن مالك الأنصاري بإيجاز رائع إلى كذب أولئك ، فقال في مرثـيَّتِه لعثمان :

مـا قـاتَلُـوهُ علـى ذَنْـبٍ أَلَـمَّ بـهِ   إلا الذي نَطَقُوا زُوراً ولم يَكُنِ(٢)

●● وأصحاب العقول القاصرة والأنفس المريضة والصدور الحَرِجة والمتنطعون موجودون في كل أمة ، وللأسف المُمِضّ أن يكون حظ أمتنا منهم غيرَ قليل ، ثم هو مستمر مع مرور الأيام حتى زاد ووصل إلى زماننا.

وكان أعداء عثمان وشانئوه من هذا الصنف كثيرين ، وقُدماء أيضاً يمثِّلون الجرثومة المُمْرِضة لأولئك الذين خرجوا عليه. ومبغضوه والحانقون عليه عابوه بأشياء فعلها في زمن النبي ﷺ ، إحداها قد غُفرت

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٦.

(٢) تهذيب الكمال : ١٩/ ٤٥٩.

له من الله تعالى بنصِّ كتابه ، وباقيها مكارم وفضائل أحالها المفترون المتنطِّعون مثالبَ ومعايبَ! .

ويمثل هذا الصنف الأرعن ذاك الرجل القادم من مصر ، وقد سأل عبدَ الله بنَ عمر عن عثمان ، وهو يريد أن يُدِينه ببعض المعايب وهي: أنه فرَّ يوم أُحد ، ولم يشهد غزوة بـدر ، ولا حضر بيعة الرِّضوان! فبيَّن له ابنُ عمر وجه الحق في ذلك وأَبْطَلَ حجَّتَه وأوضح له سوءَ فهمه[1].

وهذا رجل آخر[2] يسأل عبدَ الله بن عمر متعنِّتاً: (فما قَوْلُك في عليٍّ وعثمانَ؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟! أمَّا عثمانُ فكان الله قد عفا عنه[3] ، فكَرِهْتُم أن يعفوَ عنه! وأما عليٌّ فابنُ عمِّ رسولِ الله ﷺ وخَتَنُه ـ وأشار بيده ـ وهذه ابنتُه أو بِنْـتُه حيثُ ترون!)[4].

وينضوي تحت هذا الصنف نموذج آخر يفتري على أمير المؤمنين عثمان فرية عجيبة؛ فيروي عَبَّاد بن عبَّاد الأَزْدي يقول: (سمعتُ يونس بن خَبَّاب يقول: عثمان بن عفان قتل ابنتَي النبي ﷺ! قلتُ: قتلَ واحدةً فلِمَ زَوَّجَه الأخرى؟! فقال: اخرجْ عنِّي فإنك عُثمانيٌّ خبيث)[5].

ويونس بن خَبَّاب رافضيٌّ كان يَسبُّ عثمانَ ، وقد أَلقمه تلميذُه عبَّاد حجراً ، فلم يستطع الردَّ عليه إلا بشتمه والإقذاع عليه! .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري وغيره ، وقد تقدم بتمامه: ص ٦٤ ـ ٦٥ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٢) رجَّح الحافظ أنه من الخوارج ، والرجل المصري الذي قبله من الرافضة. الفتح: ١٠/ ٢٤٣.

(٣) حيث كان في جملة من فر يوم أُحد.

(٤) أخرجه البخاري ، حديث (٤٦٥٠).

(٥) تهذيب الكمال: ٣٢/ ٥٠٧.

هذه النماذج هي أمثلة عن شراذم موجودة في المجتمع ، وهم من أولئك السبئيين المنحرفين المجرمين الذين افتروا على عثمان الأكاذيبَ؛ قد تجنَّوا على أمير المؤمنين وظلموه وظلموا الحقيقة والخلافة والتاريخ .

إنهم عَتَبوا عليه أشياءَ قد فعل مثلَها الفاروق عمر ، وأَبَوْا عليه أن يَسُوسهم كما كان عمر يسوس الناس ، وهذا من أعجب العجب أن تُعدَّ الحادثة في مفاخر رجل ، وتعد أختها في مساوئ رجل؛ وذلك لأن رعية عمر كان فيها عثمان ونظراؤه ، ورعية عثمان كان فيها السبئيون والروافض وأشباههم! .

وقد أوضح ذلك صحابي جليل كان من الشهود الحق في تلك الحقبة وعليها ، فروى سالم عن أبيه عبد الله بن عمر قال: (لقد عَتَبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوها عليه)[1] .

ثالثاً: خلاصة ما نقمه المنافقون المجرمون على أمير المؤمنين عثمان[2] :

يروي جعفر بن بُرْقان عن مَيْمون بن مِهْران قال: (إن أناساً أنكروا على عثمان ، جاؤوا بما هو أَنكَرُ منه ، أنكروا عليه أمراً هم فيه كَذَبة)[3] .

فهؤلاء الذين وصفناهم فيما تقدم قد افتروا على عثمان وعلى

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٧٣؛ تهذيب الكمال: ١٩/ ٤٥١ .

(٢) انظر: العواصم من القواصم ، ص٧٦ـ٧٧؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٦ـ٣٤٨؛ صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٧٠ ـ ٧١؛ منهاج السنة: ٣/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦ .

(٣) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٦٤ .

الصحابة والولاة وقادة الفتوح ، ونَقَموا على عثمان سياسته ، وتذرَّعوا بأشياءَ اختلقوها أو ضخموها أو حرَّفوها عن حقيقتها ، وزرعوها في قلوب الناس؛ ليبرِّروا خروجَهم الآثم وهدفَهم في خَلْعِ عثمان وقتله. وزحفوا على المدينة وواجهوا عثمان بها ، فردَّها عليهم واحدة بعد الأخرى ، وأبطَلَ حُجَجهم ، وفَلَّ رأيَهم ، وكَشف خطأهم وضلالَهم ، كما سيأتي تفصيله.

ويجب التنبه إلى أن (هذه الانتقادات والمعايب) التي وجَّهوها لأمير المؤمنين عثمان ، قد أقرَّها الشيعة وزادوا عليها ، كما نقل كبيرهم ابن المُطَهَّر الحِلِّي ، وقد ردَّ عليه مفصلاً شيخ الإسلام ابن تيمية[1].

ونحن نلخِّص هنا تلك (الدعاوى والافتراءات) ، ونوجز الردَّ عليها وبيان وهائِها وبطلانها، ليكون ذلك واضحاً بين يدي الحديث عن (مسيرة الفتنة الكبرى) التي انتهت باستشهاد عثمان رضي الله عنه وأرضاه.

١ ـ تهم موجهة إلى عثمان في مواقفه وتاريخه:

ـ قال المفترون: إن عثمان لم يَشهد بدراً ، وانهزم يوم أُحد ، وغاب عن بيعة الرضوان.

وأنه قعد على درجة المِنْبر التي قعد عليها النبي ﷺ ، وقد انحطَّ عنها أبو بكر وعمر[2].

والتُّهمَات الثلاث الأولى قد تولى الصحابي الجليل عبد الله بن عمر

---

(١) انظر: منهاج السنة: ٣/ ٦٢٥ ـ ٦٩٥.

(٢) العواصم من القواصم ، ص٧٧؛ التاريخ الأوسط: ١/ ١٦٥؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٤٨.

ردَّها ، والدفاعَ عن عثمان بشأنها ، وبيانَ جَوْر مَن حمل عليه بسببها : أما تغيُّبه عن غزوة بدر فلأن زوجته رقية بنت النبي ﷺ كانت مريضة ، فأقام عثمان عليها عن أمر رسول الله ﷺ. وأما فراره يوم أُحد ، فإن الله تعالى عفا عَمَّن فَرَّ يومها وغفر لهم. وأما تخلُّفه عن بيعة الرضوان ، فلأن الرسول ﷺ بعثه سفيراً إلى قريش ، ولما تمت البيعة كان عثمان بمكة فبايع عنه النبي ﷺ وضرب بيده اليمنى على اليسرى[1] !.

وأما أن عثمان جلس على المنبر حيث جلس النبي ﷺ : فإن أبا بكر لمَّا استُخلف كان إذا خطب يقوم على الدرجة التي تحت الدرجة التي كان رسول الله ﷺ يقف عليها ، فلما ولي عمر نزل درجة أخرى عن درجة أبي بكر رضي الله عنهما ، فلما ولي عثمان قال : إن هذا يطول ، فصعد إلى الدرجة التي كان يخطب عليها رسول الله ﷺ[2] .

ولو كان في هذا شبهةُ مخالفةٍ للنبي ﷺ أو عيبٌ على عثمان ، لَمَا فعله هو رضي الله عنه وهو الرجل الحيي الكريم! كما أن فعله هذا ليس فيه تجاوز لهدي الشيخين ، ولا جرأة على أن يجلس حيث جلس الرسول ﷺ ، ولو كان ثمة شيءٌ من هذا أو ذاك لأنكره عليه الصحابة ولَمَا سكتوا عليه رضوان الله عليهم جميعاً.

وقد كان المسجد النبوي ضيقَ المساحة ، فزاده عمر في عهده ، ثم ازداد عدد المصلين فوسَّعه عثمان توسعة كبيرة ، فاتساع المسجد وازدياد غاشيته وبُعْد أمكنة الناس عن المنبر؛ حمل عثمان على أن يعلو على

---

(١) تقدم الحديث بتمامه : ص ٦٤ ـ ٦٥ في هذا الكتاب.

(٢) البداية والنهاية : ٧/ ١٤٨ .

المنبر ليراه الناس ويسمعوه. وفي قول عثمان: (إن هذا يطول) لفتة إلى أن أبا بكر وعمر نزلا درجتين، فلو نزل هو درجة أخرى، والخليفة بعده ماذا سيفعل؟ هل سيقف بين الناس يا ترى؟!.

٢ ـ تقريبه أقاربه في الولاية والعطاء:

ـ وقالوا: إن عثمان ولى أمور المسلمين مَن لا يَصْلُح للولاية حتى ظهر من بعضهم الفسوق، ومن بعضهم الخيانة، وقسَّم الوِلايات بين أقاربه، وعوتِب على ذلك مراراً فلم يَرجِعْ... وكان يُؤْثِر أهلَه بالأموال الكثيرة من بيت المال، حتى إنه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوَّجَهم بناتِه أربعَ مئةِ ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار[1]!.

●● أما توليةُ عثمان أقاربه: فقد أوضحنا بالتفصيل مع الأدلة[2] أن عِدَّة ولاة عثمان أزيدُ من (٤٢) والياً، منهم (سبعة فقط من أقاربه). وبَسطتُ القولَ في سِيرِهم جميعاً، وأنهم كانوا على درجة عالية من الكفاءة والإخلاص والطاعة والأعمال المجيدة. وحقَّقتُ القولَ فيما رُمي به بعضهم مثل الوليد بن عُقْبة وابن أبي سَرْح، وبيَّنتُ أن أمير المؤمنين عثمان كان يتابعهم ويحاسبهم وعَزل غير واحد منهم، وإن كان في كثير من الحالات لا يستحق العزل، قطعاً لدابر الفتنة.

وأكَّدنا على ناحية مهمة وهي أنه كان عددٌ جَمٌّ من كبار الصحابة ومشاهيرهم تحت إمرة أولئك الولاة، وشهدوا معهم فتوحاتهم، وراقبوا سياستهم، فما بدرت منهم شكوى على واحدٍ منهم، ولا حَفِظَ

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦؛ العواصم من القواصم، ص٧٦ ـ ٧٧.

(٢) انظر ما تقدم: ص ٤١٧ ـ ٤٦٢ في هذا الكتاب.

لنا التاريخ خروجاً منهم على ولاتهم ، أو طلباً من عثمان بأن يعزلهم ، إنما كانت الخروقات والأراجيف والشكاوى من الأغمار والرَّعَاع وأصحاب الهوى! .

●● وأما ما نُسب إلى عثمان من أنه آثر أقاربه من الأمويين بالأعطيات ، وأغدق عليهم من بيت المال[١] :

فنقول: إن عثمان كان يُؤْثِر أهلَه وأقاربه تأليفاً لقلوبهم من متاع الحياة الدنيا ، لعله يرغِّبهم في إيثار ما يبقى على ما يفنى ، لكنه ما كان يَمدُّ يده إلى بيت مال المسلمين ، بل ينفق من ماله الخاص ، وهو أحد أثرياء قريش كما يعرف القاصي والداني ، وقد أفصح عن ذلك فقال ـ وهو الصادق البار الراشد ـ لأولئك الذين خرجوا عليه واتهموه بخيانة الأمانة: (وقالوا: إني أُحِبُّ أهلَ بيتي وأعطيهم ، فأما حُبِّي فإنه لم يَمِلْ معهم على جَوْر ، بل أحمل الحقوق عليهم. وأما إعطاؤهم فإنما أُعطيهم من مالي ، ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس! ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صُلْبِ مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأنا يومئذٍ شحيح حريص ، أَفَحينَ أتيتُ على أسنان أهل بيتي ، وفَنِيَ عُمري ، وودَّعْتُ الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا!)[٢].

وقول القائل بأن عثمان دفع إلى أربعة نَفَرٍ من قريش زوَّجَهم بناته أربعَ مئة ألف دينار ، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار ـ هو قولٌ مرسَل لا زمام

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد: ١/ ١٧٩ ـ ١٨٠.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

له ولا خطام ، وأين النقل الثابت في ذلك؟ وهو من الكذب البيِّن؛ فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ. ومن المعلوم أن معاوية كان يعطي من يتألَّفُه أكثر من عثمان ، ومع هذا فغاية ما أعطى الحسنَ بن علي مئة ألف أو ثلاث مئة ألف درهم[1]!.

بل الذي حَفِظه التاريخ عكس ذلك ، فقد كان أمير المؤمنين عثمان وَعَد الوالي الفاتحِ ابنَ أبي سَرْح ـ وهو أخوه من الرضاعة ـ إنْ فتح الله عليه إفريقية أن ينفِّلَه خُمس الخمس ، فلما تمَّ الفتح وأخذ ابن أبي سرح ما وعده به الخليفة ، رفض ذلك بعض الجند وشكوه إلى عثمان ، فأمره عثمان بردِّ ذلك المبلغ ، ففعل[2].

وجازفَ الواقدي مجازفةً لا يقبلها عاقل ، فزعم أن عثمان جاءه من إفريقية (٣٠٠ قنطار ذهب) فأمر بها لآل الحَكَم أو لمروان! وقد شكَّكَ الطبري في هذه الرواية حيث ساقها بعد رواية ردِّ عثمان هبتَه لابن أبي سَرْح[3].

وتزيد الروايات تجليةً لهذا الجانب وتبرئة لأمير المؤمنين عثمان؛ فتذكر أنه قد قسم (مالَه) و(أرضَه) في بني أمية ، وجعل ولدَه كبعض مَن يعطي ، فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آلَ الحَكَم رجالَهم عشرةَ آلاف عشرة آلاف ، فأخذوا مئة ألف ، وأعطى بني عثمان مثلَ ذلك ، وقسم

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ٦٦٦.
(٢) تقدم: ص ٣٩٣ ـ ٣٩٥ في هذا الكتاب.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥٤ ، ٢٥٦.

في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب[1].

بل ثمة روايات تبيِّن أن عثمان إذا أعطى أحداً من أقاربه هبةً مالية من بيت مال المسلمين لقضاء حاجة ضرورية أو طارئة؛ كان يستردّها منه بوجود شهود من المسلمين ، لكن بعض رواة المصادر والكتَّاب يسكتون عن عملية الاسترداد لإثارة الرأي العام ضده[2]!.

وقد وقع كثيرون في أحابيل الروايات الباطلة ، وممن كنا نحب أن لا يستسلم لها الدكتور يوسف العش رحمه الله حيث يقول: (فبنوا أمية بَلَغوا في عهد عثمان مجدَهم ، فالولاية لهم والأموال بين أيديهم يتصرفون فيها ، والخليفة يُغدِق عليهم ويحبّهم)[3].

٣ ـ إتمام الصلاة بمنى:

ـ وقال المنحرفون: إن عثمان أتمَّ الصلاة بمنًى أربعاً ، فخالَفَ بذلك هديَ النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر ، حيث كانوا يُصلُّون الصلاة الرباعية ركعتين قصراً ، وكذلك هو صلاها ركعتين ست سنين من خلافته ثم أتم الصلاة سنة (٢٩هـ).

نقول: إتمام عثمان الصلاة بمنى أمرٌ ثابت في الصحيح ، كما تقدم تفصيلُه واجتهاد عثمان في هذه المسألة ومبرراته في ذلك.

لكن المنحرفين قوم بُهْتٌ يريدون عيبَ عثمان وإدانتَه والإرجافَ بسيرته الطاهرة في كل موطن ، ويدَّعون لأنفسهم حقَّ الفهم والاجتهاد

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٨.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٤٥؛ تاريخ الخلفاء الراشدين ، لطقوش ، ص٣٩٣.

(٣) الدولة الأموية ، ص٦١.

في الدين أكثر من الصحابة بل ومن عِلْيَتِهِم وأئمتهم. فعثمانُ ـ وهو ثـالث الخلفاء الراشدين الذين هم أعلمُ وأجلُّ أصحاب النبي ﷺ ـ ليس له في نظر المنحرفين أن يجتهد في مسائل الدين التي لم ينصَّ عـلى أحكامها! ولا ندري وايمُ الحق لمن شَرع الله الاجتهاد إذا لم يكن من حق عثمان وأضرابه من أئمة الهدى؟!.

وجمهور الفقهاء في سائر أمصار الإسلام على أن قصر الصلاة في السفر رخصة، والإتمام عزيمة، والله تعالى يحبُّ أن تُؤتى رُخَصُه كما يجب أن تؤتى عزائمه، فإذا كان عثمان لم يأخذ برخصة قصر الصلاة، فقد أخذ بالعزيمة. وقد وافقه على اجتهاده جمهرة من الصحابة.

وزيادة على ذلك فإن عثمان قد أوضح على الملأ وجاهةَ اجتهاده وأسباب إتمامه؛ ومن أجلِّ ذلك وأخطره أنه خَشِي على الأعراب في مضاربهم ومن بَعُدت بلادُهم في أطرافَ الأرض أن يروا الخليفة وكبار الصحابة قد صلوا ركعتين، فيظنون أن الصلاة دائماً هكذا، وقد لا يتصل أناس منهم بمن يعلِّمهم ويُرشِدهم. وقد جاء عن ابن جُريج أن أعرابيّاً نادى عثمان في مِنًى: يا أمير المؤمنين، ما زلتُ أصلِّيها منذ رأيتُك عامَ أول ركعتين[1]!.

٤ ـ زيادة الأذان يوم الجمعة:

ـ وعاب المنحرفون على عثمان أنه زاد الأذانَ الثاني يوم الجمعة، وهو بدعة.

---

(١) انظر ما تقدم: ص ٨٧ ـ ٩٠؛ في هذا الكتاب عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٩٠ ـ ١٩٤.

نقول: زيادة عثمان الأذان يوم الجمعة أمرٌ ثابت في صحيح البخاري وغيره، فصار هناك يوم الجمعة ثلاثة نداءات: الأول: لإعلام الناس بوقت الجمعة، وهو الذي زاد عثمان على (الزَّوْرَاء)، وكان ذلك سنة (٣٠هـ). والثاني: بين يدي الخطيب، والثالث: هو الإقامة[1].

وهذا الذي عابه المنحرفون على عثمان وكان من جملة ما نَقَموه عليه؛ هو مما يُتعَجَّب منهم أن يَدَّعُوه، وقد زاده عثمان لمَّا كثر المسلمون لتعميم إبلاغهم بهذه الشعيرة الجليلة، وفعل ذلك اجتهاداً منه، وفي المدينة أكابر الصحابة وعلماؤهم مثل علي وطلحة والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن عمر وغيرهم، وبمشهد من المهاجرين والأنصار، ولم ينكروه عليه، واتبعه المسلمون جميعاً[2]، ووافقوه عليه فصار إجماعاً سكوتيّاً! فما بالُ أولئك الشانئين السَّبَئيِّين من هذه الأراجيف، وأين يقع مكانهم من جِلَّة الصحابة، وهل هم أولى بالاجتهاد منهم، أم تُراهم أحرصَ على نقاء الإسلام منهم؟!.

٥ ـ جمع القرآن الكريم وحرق ما سوى المصحف الإمام:

ـ وقالوا: وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف.

وسامع هذا القول يترحم على المتنبي إذ يقول:

وهَبْني قلتُ: هذا الصبح ليلٌ ... أيَعمى العالَمون عن الضياء؟!

إن العناية العظيمة التي أَوْلاها أبو بكر وعمر، وأتمَّها صِنْوهما

(١) انظر ما تقدم: ص ٩٠ ـ ٩١ في هذا الكتاب.
(٢) منهاج السنة: ٣/ ٦٩٢.

عثمان؛ في جمع القرآن وتثبيته وتوحيد رسمه وجمع الأمة قاطبة على (المصحف الإمام) ـ هو أعظم عمل قاموا به ، ولهم أعظمُ المِنَّـة على المسلمين إلى يوم الدين! .

(ولم يكن يدور بخَلَد عاقل أن يَعمد أولئك الخارجون المنحرفون إلى أجلِّ فرائد عثمان ، وأحسنِ محاسن رجالات الإسلام ، وأفضلِ أعمال الخلفاء الراشدين ، وأبقى أثرٍ إسلامي وأنفعِه وأعْوَدِه على الأمة بالخير والبركة في حاضرها وماضيها ومستقبلها ـ فَيَنظِموها في سِلْك المعايب والمآخذ! ولكنها الأهواء إذا عمَّت أَعْمَتْ ، وإذا سادت أفسدت! وأي عقل مستقيم يفهم أن جمع القرآن الكريم ، وتوحيد مصاحفه ، واجتماع الأمة كلها في مشارق الأرض ومغاربها على نص موحَّد لدستورها المسيطر على مقومات حياتها ـ عيبٌ من العيوب التي تُعدُّ على أمير المؤمنين عثمان ، ويكون دعامة لشر انقلاب عرفه المسلمون؟!)[1] .

وجمعُ المسلمين قاطبة على (مصحف إمام واحد) ، **وحرق ما سواه من مصاحف وصحف؛ قد شهده الصحابة في المدينة وأجمعوا عليه وتابعهم كافة الصحابة والناس في الأمصار** ، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ، وقد خالف ابن مسعود في الكوفة ثم رضي وتابع ، كما أوضحناه مفصلاً[2] . فما شأن المنحرفين والسبئيين والرعاع وهذا الأمر؟! وما قيمة إرجافهم ورفعهم تلك الذريعة التي قلبوا فيها الحق

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص١٦٨ ـ ١٦٩ .

(٢) انظر ما تقدم: ص ٢٤٥ ـ ٢٦٥ في هذا الكتاب.

باطلاً ، وضموها إلى جملة أباطيلهم التي ادعوها على الخليفة الراشد رضي الله عنه؟! .

وأمرُ هؤلاء مُغْرِق في الغرابة والعجب ، فجمعُ المصحف الإمام كان في آخر سنة (٢٤هـ) وأوائل سنة (٢٥هـ) ، وبداياتُ الفتن والخروج على عثمان كان نحو سنة (٣٣هـ) ، فأين كانت عقولُ هؤلاء الأفاكين وألسنتُهم ومزاعمُهم في الحرص على الإسلام وكتابه مدة هذه السنين الطويلة؟! .

٦ ـ شأن الحِمَى:

وعاب المنحرفون عليه أنه حمى الحمى! .

والحِمى: أراضٍ خُصِّصَت لرعي الإبل والخيل التي تملكها الدولة ، وتشمل ما كان للصدقات أو المعدَّة للجهاد.

وكان رسول الله ﷺ قد حمى (وادي النَّقيع) ، واستمرت حمايته في عهد أبي بكر وعمر ، وزادت المناطق المحميَّة في عهد عمر ومن ذلك (حِمى الرَّبَذَة) و(الشَّرَف).

واقتفَى الخليفة الثالث سبيلَ رسولِ الله ﷺ وصاحبيه ، ولم يأتِ في ذلك شيئاً نكراً ، وقال لوفد الخارجين عليه لمَّا واجههم وردّ عليهم جميع انتقاداتهم: (فأمَّا الحِمى: فإن عمر حَمَاه قبلي لإبل الصدقة ، فلما وَليتُ زادت إبل الصدقة ، فزدتُ في الحمى لِما زاد من إبل الصدقة)[1].

وأيضاً فإن عثمان فعل ذلك بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم ، فما

---

(١) تاريخ خليفة ، ص١٦٩ ؛ صحيح ابن حبان (٦٩١٩).

عَلِمنا أحداً منهم أنكر ذلك عليه ، حتى جاء في أَخَرة من الزمان هؤلاء الضالُّون المنحرفون يريدون أن يعلِّموا أمير المؤمنين وأصحابه من المهاجرين والأنصار الورعَ والنُّبلَ والحرصَ على مال الأمة وإقامة العدل! .

على أنها الأيام قد صِرْنَ كلها عجائبَ، حتى ليس فيها عجائبُ!

ومن الفِرى ما نقله ابن أبي الحديد في قوله: (وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم ، إلا عن بني أمية)(١) .

ويخطئ بعضهم حين يزعم أن بعض الصحابة وأهل المدينة انتقدوا عثمان على توسيعه الحمى(٢) ، وإنما الذين عابوا عليه ذلك هم شراذم المنحرفين من أهل الأمصار ، وناقشوه وردَّ عليهم افتراءاتهم ، لمَّا قدموا المدينة ـ خارجين عليه ـ سنة (٣٥هـ)(٣) .

٧ ـ رد الحكم بن أبي العاص:

ـ وقالوا : (وطَردَ رسولُ الله ﷺ الحَكَمَ بن أبي العاص عمَّ عثمان عن المدينة ، ومعه ابنه مروان ، فلم يزَلْ هو وابنه طريدين في زمن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما وَلي عثمان آواه ورَدَّه إلى المدينة)(٤) .

نقول: الحكم بن أبي العاص من مُسْلِمة الفتح من الطُّلَقاء ، ولم يكونوا يسكنون المدينة في حياة النبي ﷺ ، فإنْ كان قد طَرده فإنما طرده

---

(١) شرح نهج البلاغة : ١/ ١٧٩ .

(٢) تاريخ الخلفاء الراشدين ، لطقوش ، ص٤٠٣ .

(٣) انظر : تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٧ ، ٣٥٤؛ وما سبق في الحاشية (١) من الصفحة السابقة .

(٤) العواصم من القواصم ، ص٧٦؛ منهاج السنة : ٣/ ٦٢٦ ، ٦٧٦ ؛ شرح نهج البلاغة : ١/ ١٧٩ .

من مكة لا من المدينة ، ولو طرده من المدينة لكان يرسله إلى مكة . وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه وقالوا : هو ذهب باختياره . وقصة نفي الحَكَم ليست في الصحاح ، ولا لها إسناد يُعرف به أمرها[1] .

والطرد هو النَّفيُ ، والنفي قد جاءت به السنة في الزاني والمُخَنَّثين ، وكانوا يُعزَّرون بالنفي ، وإذا كان النبي ﷺ قد عزَّر رجلاً بالنفي ، لم يَلزم أن يبقى منفيّاً طول الزمان ، فإن هذا لا يُعرف في شيء من الذنوب ، ولم تأتِ الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفيّاً دائماً . وقد كان عثمان شَفَع في عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح فقَبِل ﷺ شفاعته فيه وبايعه ، فكيف لا يَقبل شفاعته في الحَكَم! وقد رووا أن عثمان سأله أن يَردَّه فأَذِن له في ذلك ، ونحن نعلم أن ذَنْبه دون ذنب ابن أبي سرح .

والمعلوم من فضائل عثمان ، ومحبة النبي ﷺ له وثنائه عليه وتخصيصه بابنتَيْه وشهادته له بالجنة ، وأنه توفي وهو عنه راض ، وتقديم الصحابة له بالخلافة ، وأمثال ذلك ـ مما يُوجب العلمَ القطعيَّ بأنه من كبار أولياء الله المتقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، فلا يُدْفَعُ هذا بنقلٍ لا يثبت إسناده ولا يُعرف كيف وقع ، ويُجعل لعثمان ذنب بأمر لا تُعرف حقيقته[2] .

بل إن أمير المؤمنين عثمان قد رَدَّ على المنحرفين هذه التهمة له فأَقَرُّوا له بذلك ، قال رضي الله عنه : (وقالوا : إنِّي رددتُ الحَكَمَ وقد

---

(١) منهاج السنة : ٣/ ٦٧٦ .

(٢) منهاج السنة : ٣/ ٦٧٦ ـ ٦٧٧ ؛ العواصم من القواصم ، ص٨٩ ـ ٩٠ تعليقات محب الدين الخطيب .

سَيَّره رسولُ الله ﷺ! والحَكَم مكِّيٌّ ، سيَّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ، ثم ردَّه رسولُ الله ﷺ ، فرسولُ الله ﷺ سَيَّره ، ورسولُ الله ﷺ رَدَّه ، أكذلك؟ قالوا : اللهم نعم)[1] .

٨ ـ مواقفه من بعض أكابر الصحابة:

وقال المفترون : وضرب عثمان عمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه ، وضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه ، وأجلَى أبا ذر إلى الرَّبَذَة[2] .

وهذه فِرى جديدة نَسَجَها القصاصون وألصقوها بسيرة عثمان الطاهرة ، وهي تسير على المنهج الملتوي الذي سار عليه الأخباريون ممن قصدوا النَّيل من عثمان وعهده المبارك .

وقد أفردت فصلاً أوسعت فيه البحث في أخبار هؤلاء الصحابة الأجلَّاء وسيرتهم في عهد عثمان ، وبعض ما صدر منهم ، وأوضحت وجه الحق في مواقف عثمان منهم[3] .

وكل مسلم بل كل منصِف يعلم حقَّ العلم أن أخلاق عثمان في سنِّه وإيمانه وحيائه ولين عَريكته ودَمَاثة طبعه ونُبْله وسابقته وجليل مكانه في الإسلام ـ أَجَلُّ من أن تنزل به إلى هذا الدَّرْك من التصرف مع هؤلاء الصحابة الأماجد الكرام .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٧ .

(٢) العواصم من القواصم ، ص٧٦؛ منهاج السنة : ٣/ ٦٢٦؛ شرح نهج البلاغة : ١/ ١٨٠ .

(٣) انظر ما تقدم : ص ٢٦٨ ـ ٢٩٧ في هذا الكتاب .

أَفَيَرضى عثمان لنفسه وهو الذي أَبَى على الناس أن يقاتلوا دونه أولئك الأوباش الأوغاد الخارجين على سلطان الخلافة ، ورضي بالموت قتلاً صابراً محتسباً اتقاءَ الفتنة العامة ـ أَفَيرضى أن يَفعل بإخوته عمار وابن مسعود وأبي ذر ما يزعمه أولئك المفترون ، وما تحيكه تلك الروايات الطائشة الفاسدة؟!.

ويأبى فريق من المعاصرين إلا أن يُعيدوا إحياءَ أكاذيب أسلافهم الأوائل المفترين على عثمان ، ويكرِّروا نفسَ التهم بأسلوب يزعمون له (الحيادَ والعلميةَ والبحثَ الجاد) ، ويزعمُ لهم من يُسوِّق كتبهم أنهم (مفكرون مجدِّدون)[1]!.

٩ ـ تعطيل إقامة الحدود:

ـ وقال المفترون المنحرفون في عيب عثمان: وضَيَّع حدودَ الله فلم يَـقتل عُبيد الله بن عمر حين قَتل الهُرْمُزان ، وأراد أن يعطِّل حدَّ الشُّرب في الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط حتى حَدَّه علي بن أبي طالب[2].

●● **نقول**: المتتبِّع لسيرة الهرمزان يرتاب في صحة إسلامه ، ويجزم بتدبيره الدسائسَ والمكايد للمسلمين واستمراره بالخديعة حتى مع عمر بن الخطاب. والمحققون من الباحثين يرون أن قتل أمير المؤمنين عمر كان بتدبير ومشاركة وإشراف الهرمزان ، وتنفيذ الخبيث أبي لؤلؤة؛ وقد دلَّ على ذلك رواية صحيحة عن سعيد بن المسيِّب: (أن

---

(١) انظر مثلاً: الفتنة ، لهشام جعيط ، ص٨٩ ، وقد ذكرت نموذجاً من كلامه: ص ٢٨٨ في هذا الكتاب.

(٢) العواصم من القواصم ، ص٧٧؛ منهاج السنة: ٣/ ٦٢٦.

عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداةَ طُعن عمر: مررتُ على أبي لؤلؤة عشيَّ أمس، ومعه جُفَيْنة والهُرمزان، وهم نَجِيٌّ، فلما رَهِقْتُهم ثاروا، وسَقط منهم خِنْجر له رأسان نِصابُه في وسطه، فانظروا بأي شيء قُتل! وقد تخلَّل ـ أبو لؤلؤة ـ أهلَ المسجد، وخرج في طلبه رجل من بني تميم، فرجع إليهم التميمي، وقد كان أَلَظَّ بأبي لؤلؤة منصرفَه عن عمر، حتى أخذه فقتله، وجاء بالخنجر الذي وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر. فسمع بذلك عبيد الله بن عمر، فأمسك حتى مات عمر، ثم اشتمل على السيف، فأتى الهرمزان فقتله)[١].

وثمة شواهد ودلائل تُمسك بأصابع الهرمزان الفارسي وجُفَيْنة النصراني وآخرين الله يعلمهم، منغمسة مع الخبيث أبي لؤلؤة في دم أمير المؤمنين فاروق الإسلام عمر رضي الله عنه، وتُنادي بأن الأمر كيدُ ماكِرٍ دُبِّر للإسلام في ذاتِ أقوى رجالاته بطشاً بالمنافقين، وإلى هذا ذهب كثير من المؤرخين القدامى والمُحدَثين.

(**أَفإذا قام عُبيد الله بن عمر بن الخطاب وغضِب لقتل أبيه، بيد مجوسي أثيم، وتدبير دخيل في الإسلام نكَّاث للعهود، وممالأة نصراني خبيث وجرثومة من جراثيم النفاق ـ طُلب إلى الخليفة الراشد عثمان أن يكون أولُ عمله في خلافته قتْلَ عُبيد الله بن عمر دون تثبت وتحقيق؟! فإذا** أبى عثمان أن يجري على هذه السياسة الخرقاء، قال المنحرفون: إنه عطَّل حدودَ الله تعالى! وهل في حدود الله تعالى وشريعته أن يُقتل وليُّ دمٍ قَتَل مَنْ ثَبَت عنده أنه مالأ وأعانَ على قتل أبيه خليفةِ المسلمين؟ لا، بل

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٠. رَهِقْتُهم: ضيَّقتُ عليهم. أَلَظَّ به: أمسَكَه.

الذي يعرفه الفقه الإسلامي أن مَن أعانَ على القتل عمداً ، وكان لإعانته مدخلٌ في التنفيذ؛ أُبيح قتْلُه ، والهُرمزان وجُفَيْنة ثَبَت بشهادة عبد الرحمن بن أبي بكر وأبي هريرة أنهما أعانا ومالآ على قتل عمر ، وعبد الرحمن وأبو هريرة مجزومٌ بعدالتهما ونزاهتهما وبُعْدِهما عن الشبهة وَمظِنَّةِ الغرض)[1] .

ومع ذلك فإن عثمان لم يعطِّل حدَّ الله في القصاص من القاتل ، وثمة روايتان في الموضوع :

الأولى : هي تتمة حديث سعيد بن المسيب في قصة عبد الرحمن بن أبي بكر ووقوفه على ائتمار الهرمزان لقتل عمر ، ففي آخرها : (فلما استُخلف عثمان دعا المهاجرين والأنصار فقال : أشيروا عليَّ في قتل هذا الرجل الذي فَتَق في الدين ما فتق! فاجتمع المهاجرون على كلمة واحدة يشايعون عثمانَ على قتله ، وجُلُّ الناس الأعظمُ مع عبيد الله يقولون : لعلكم تريدون أن تُتْبِعوا عمرَ ابنَه؟! فكَثُر في ذلك اللَّغَط والاختلاف ، ثم قال عمرو بن العاص لعثمان : يا أمير المؤمنين ، إن هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على الناس سلطان ، فأَعْرِضْ عنهم . وتفرَّق الناس عن خطبة عمرو ، وانتهى إليه عثمان ، ووُدي الرجلان والجارية)[2] .

وفي رواية الطبري : (قال عثمان : أنا وليُّهم ، وقد جعلتُها ديةً ، واحتَملتُها في مالي)[3] .

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٣/ ٣٥٦ . **والرجلان** : هما الهرمزان وجفينة النصراني ، **والجارية** : هي ابنة أبي لؤلؤة ، وقد قتلهم جميعاً عبيد الله بن عمر .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٣٩ .

والثانية: عن (القماذبان وهو ابن الهرمزان ، يحدِّث أن عثمان دعاه وأمكنه من عُبيد الله بن عمر ، وقال: يا بُنَيَّ ، هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منّا ، فاذهب فاقتلْه! قال القماذبان: فخرجتُ به وما في الأرض أحدٌ إلا معي ، إلا أنهم يطلبون إليَّ فيه ، فقلت لهم: أَلِيَ قتلُه؟ قالوا: نعم ، فقلت: أَفَلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا ، فتركتُه لله ولهم. فاحتملوني، فوالله ما بلغتُ المنزلَ إلا على رؤوس الرجال وأكفِّهم!)[1].

ويمكن التوفيق بين الرواتيين ، فابن الهرمزان أسقط حقه في دم أبيه ، ومع ذلك فإن أمير المؤمنين عثمان أخرج ديته من ماله الخاص.

وبعد نقول: إن كل منصف يعتقد ـ ولعل ابن الهرمزان أيضاً كان يعتقد ـ أن دمَ أمير المؤمنين عمر في عنق الهرمزان ، وأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا آلةً في يدِ هذا الفارسي ، وأن موقف عثمان وإخوانه أصحاب رسول الله ﷺ من هذا الحادث لا نظير له في تاريخ العدالة الإنسانية[2]!.

ومن العجيب أن دمَ الهُرمزان المتهم بالنفاق ، والمحاربةِ لله ورسوله ، والسعيِ في الأرض بالفساد ـ تُقام فيه القيامة ، ودمَ عثمان يُجعل لا حرمةَ له ، وهو إمام المسلمين المشهود له بالجنة ، الذي هو وإخوانه أفضل الخلق بعد النبيين[3]!.

ويأتي هؤلاء السبئيون المنافقون ومن بعدهِم الرافضة ، فيتَّهمون عثمان بأنه عطَّل حدود الله!.

---

(١) المرجع السابق: ٤/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ وانظر: منهاج السنة: ٣/ ٦٨٤ ـ ٦٨٥.
(٢) العواصم من القواصم ، ص١١٧ ، من تعليقات محب الدين الخطيب.
(٣) منهاج السنة: ٣/ ٦٨٨.

●● وأما قولهم: (أراد عثمان تعطيلَ حدّ الشُّرب في الوليد بن عقبة، حتى حَدّه عليٌّ)، فهو كذب على عثمان وعلى عليٍّ، بل عثمان هو الذي أمر عليّاً بإقامة الحدِّ على الوليد، كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم»، وأوضحناه مفصلاً[1].

وبعض المعاصرين كانوا أسوأ من أسلافهم الذين طعنوا على عثمان بتلك الأكاذيب، فيزعم أحدهم: (أن عثمان أظهرَ نوعاً من المقاومة، وتردَّد في تسليم شقيقه من أمه للسَّوط، الذي كان الحدّ العقوبة الجسدية التي يُنزلها القرآن بالشرب، وهو حدّ من حدود الله لا يمكن التساهل فيه، لكنه أذعَنَ تحت ضغط عليٍّ، وإزاء تهرب الآخرين ورفضهم، قام علي نفسه بإنزال العقوبة المهينة كثيراً.. إنه مشهد درامي يظهِر عثمانَ متألماً حزيناً إلى جانب عليٍّ المنافح عن حدود الله!)[2].

تأمل هذا الكذب السَّمج من هذا (المُخرِج الدرامي!)، وتذكَّر قول السبئيين في عثمان، فهل تجد من فرق؟!.

* * *

---

(١) تقدم: ص ٤٤٦ ـ ٤٥٣ في هذا الكتاب؛ وانظر: منهاج السنة: ٣/ ٦٨٨ ـ ٦٨٩.

(٢) الفتنة، لهشام جعيط، ص٩٢ ـ ٩٣.

الفصل الخامس

مؤامرات في الظلام ومنهجها وأخطر رموزها ومواقف الخليفة الراشد في علاجها

أولاً: بذور الفتنة وتعريف بأسوأ رموزها وأخطرهم:

كانت الصدمة الأولى التي تلقاها أمير المؤمنين عثمان في مستهل خلافته؛ تلك الانتقاضات القاسية في أطراف الدولة، والتي يكمن وراءها فلول الفرس والروم والخزر والترك وغيرهم، فصمد لها عثمان وظفر بها، وخرج بالدولة سليمة منيعة.

وتَلَتْها بعد ذلك الصدمة الثانية التي كانت أعنف من الأولى وأوسع انتشاراً وأعمق آثاراً؛ وهي تتمثل بتلك التغييرات الكبيرة في نسيج المجتمع، وما يمور به من أفكار واتجاهات وتقاليد وأجناس وأعراق ونعيم ورخاء وتنافس على الدنيا... وغير ذلك مما أوضحناه، واستغلته فئات وزعامات وأوكار وأجسام ممرضة، سعت حثيثاً لتفتك بجسم الدولة والأمة، حين تتاح لها الفرصة.

وهذه أسلمت الخليفة والدولة والأمة إلى **الصدمة الثالثة المروِّعة التي كانت بمثابة زلزال شكل أخطر انقلاب في التاريخ الإسلامي**، وتمثل ذلك بقتل الخليفة الشهيد المظلوم.

و(الفتنة الكبرى) في عهد عثمان هي امتداد للحرب ضد الإسلام ودولته وكبار رموزه ، منذ بداية ظهوره ، **وهي ذات صلة بحروب الردة** التي اجتاحت الدولة في عهد الصديق ، وتتشابه معها من حيث الهدف وتختلف من جهة الأساليب والأدوات ، ويمكن ردُّ ذلك إلى أن موقديها ومساعيرها كانوا يتظاهرون بالإسلام ، أو أنهم دخلوه على خوف أو دغل وحقد ، وجرفت في تيارها جماهير من الرعاع والأعراب الذين يشبهون كثيراً أولئك الذين وقفوا في وجه رسول الله ﷺ ثم كانوا معاول هدم في أيام الردة ، وأولئك الذين لم يكن الإسلام في ضميرهم أكثر من شعائر باهتة سرعان ما يتمزق إهابها إذا ما هبَّت عليه رياح الفتنة .

وبدأت بذور (الفتنة العثمانية) بإيتاء ثمارها المرة منذ استشهاد الفاروق عمر ، الذي مثل قتلُه (فتْحَ باب الفتن) التي تموج كموج البحر ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة[(1)] .

ونقدِّم بين يدي هذا الفصل تعريفاً بأسوأ رجال هذه الفتنة ، وأشدهم خطراً ، وأكثرهم سعياً في الفساد وتأجيج الفتن وقيادة الجهلة والرعاع ، وذلك لكثرة تردد أسمائهم وتكرر أدوارهم وأعمالهم الإجرامية .

١ ـ عبد الله بن سبأ[(2)]:

يهودي من أهل صنعاء ، ويُعرف بابن السَّوداء نسبة إلى أمه وكانت حبشية .

---

(١) انظر : كتابي «نبوءات الرسول ﷺ» : ٢/ ٢٩ ـ ٣٦ ؛ وكتابي «عمر بن الخطاب» .

(٢) له ترجمة مظلمة في : تاريخ ابن عساكر ، وميزان الاعتدال ، ولسان الميزان ، وغيرها .

أظهر إسلامه في زمن عثمان ، وتشير عدة روايات إلى أن أول ظهور له كان في سنة (٣٠هـ) ، وتنقَّل في بلدان المسلمين من قطر إلى آخر محاولاً ضلالتهم ، فابتدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، فالكوفة ، ثم الشام فلم يَـقدر على شيء فيها ، فأتى مصر واستقرَّ بها وطابَتْ له أجواؤها .

وهو من غُلاة الزنادقة ، ضالٌّ مُضِلٌّ ، قال برجعة النبي ﷺ إلى الدنيا ، وهو الذي افترى أن رسول الله ﷺ أوصى بالأمر من بعده لعليٍّ . وكان يكذب على الله ورسوله ، ويطعن على أبي بكر وعمر ، وقال لعلي : أنت دابة الأرض ! .

وقد عَلِمَ عليٌّ افتراءَه وكذِبَه ، فدعا به وعرضه على السيف ، فكُلِّم فيه ، فقال : لا يساكنني في بلد أنا فيه ، وسيَّره إلى المدائن . وقال علي يوماً لابن سبأ : والله ما أفضَى إليَّ رسول الله ﷺ بشيء كَتَمه أحداً من الناس ، ولقد سمعتُه يقول : «**إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً**» ، وإنك لأحدُهم .

له أتباع يقال لهم : (السَّبِئية) ، يعتقدون إلاهية علي بن أبي طالب ، وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته .

كان رأس الشر والفتن في عهد عثمان ، كما سيتضح في الفصول التالية .

٢ ـ حُكَيم بن جَبَلة العَبْدي:

من قبيلة عبد القيس وأصلهم من عُمان ، توطَّن البصرة بعد تمصيرها ، وكان رجلاً لصّاً ، إذا قفلت الجيوش خَنَس عنهم ، فسعى في أرض فارس ، فيُغِير على أهل الذمة ويتنكر لهم ، ويفسد في الأرض ،

ويصيب ما شاء ثم يرجع. فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر أن احبسْه ومن كان مثله فلا يخرجنَّ من البصرة، فحبسه ابن عامر، أي: منعه من مغادرة البصرة.

ولما قدِم عبد الله بن سبأ البصرة نزل على حُكيم هذا[1]!.

٣ ـ الأشتر النَّخَعي:

مالك بن الحارث النخعي، أحدُ الأبطال المذكورين، وكان شَهْماً مُطاعاً زَعِراً، لكنه ما استعمل ذلك لوجه الله.

ولقد صَدَقتْ فيه فراسةُ العبقري الملهم عمر عندما رآه، فصعَّد فيه النظرَ وصَوَّبه، ثم قال: إنَّ للمسلمين مِن هذا يوماً عَصيباً!.

كان أحدَ كبار مساعير الفتنة، ونَقض توبته التي تابها على يدي عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وافترى كثيراً على الولاة، وألَّب ـ لا رعاه الله ـ على الخليفة الشهيد عثمان، وسار إليه في الكتائب وحاصره وقاتله. وشهد (صِفِّين) مع عليٍّ، وكان صعب المِراس، وكان علي يتبرَّم به ويَكرهه، وقد بعثه والياً على مصر، فمات بالطريق مسموماً، فلما بلغه موته قال: للمنخرين والفم[2]!.

ومسيرة مساوئه وأفعاله القبيحة طويلة مظلمة؛ فلا تكاد تجد فتنة إلا وله فيها يد، ولا افتراءً إلا وله فيه صوت، ولا سعياً لتسعير خلاف إلا وله فيه رأي، ولا طعناً على والٍ أو خليفة إلا وتجده في مقدم الركب!.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٦.

(٢) انظر: ولاة مصر، للكندي، ص٤٦ ـ ٤٨؛ سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤ ـ ٣٥.

٤ ـ ابن الكَوَّاء[1]:

عبد الله بن أوفى اليَشْكُري المشهور بابن الكوَّاء ، شارك في الفتنة ، وشَغَب على الولاة ، وكان أحد (المُسَيَّرين) كما سيأتي ، شارك مع علي في وقعة (صِفِّين) ، ثم كان بعدها أحدَ رؤوس الخوارج ، نعوذ بالله من الهوى! .

٥ ـ كُمَيْل بن زياد النَّخَعي:

من أهل الكوفة ، ومن السُّعَاة في الفتنة ، بل كان من ضلاله أنه تعاهَدَ مع عُمير بن ضابئ على قتل عثمان غِيلةً ، وسار لفعلته الآثمة ، فوقع في شرِّ عمله ، واكتشف عثمان أمره ، ومع هذا عفا عنه! وبقي كُميل حتى ولي الحَجَّاج العراق ، فقتله[2] .

٦ ـ عُمير بن ضابئ التميمي:

ممن أثار الشغب على الولاة ، وأحد (المُسيَّرين) ، وسعى لقتل عثمان رضي الله عنه ، وكان من أتباع ابن سبأ ، قتله الحَجَّاج حين ولي العراق[3] .

٧ ـ صَعْصَعة بن صُوحان العَبْدي:

ممن كان يَشْغَب على الولاة ، ويطعن على عثمان ، وأحد (المُسيَّرين) ، ولما قال معاوية لهم: إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة فلا

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن عساكر ـ «عبد الله بن أوفى» ، ص٣٩٠ ـ ٣٩٩ .
(٢) تاريخ الطبري: ٣١٨/٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .
(٣) انظر: الحاشية السابقة .

تَشِذُّوا عن جُنَّتِكم ، ردَّ عليه صعصعة فقال : إن الجُنَّة إذا اخترُقت خُلِص إلينا ! .

وكان من أصحاب علي وشهد معه معركة (الجمل)[1] .

٨ ـ سُودان بن حُمْران السَّكُوني:

من قبائل مراد اليمنية النازلة في مصر ، أحد رؤوس الشر والفتنة ، وممن انقطع إلى ابن سبأ بمصر ، ومن قادة الفِرَق المجرمة التي خرجت من مصر إلى المدينة لمحاصرة عثمان وخلعه ، وممن دخل عليه وشارك في قتله[2] .

وكان واحداً ممن قدِموا مع قبيلة السَّكُون في خلافة عمر ، فلما عُرضوا عليه كَرِهَهم ، ثم أعرض عنهم وقال: ما مرَّ بي قوم من العرب أكره إليَّ منهم! وتعجب الناس من رأي عمر ، وكان فيهم سُودان هذا ، وابن مُلْجَم الذي قتل عليّاً[3] ! .

٩ ـ كِنانة بن بِشْر بن عتَّاب التُّجِيبيّ:

من أتباع ابن سبأ ، وأحد قادة الفِرَق المصرية التي خرجَتْ إلى المدينة لحصر الخليفة وقتله ، وكان ممن تولى كِبْر الجريمة في اقتحام دار عثمان ، وشارك في قتله[4] .

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣١٩ ، ٣٢٣؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٨ .
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ .
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .
(٤) المرجع السابق: ٤/ ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٨٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

١٠ ـ عبد الرحمن بن عُدَيْس:

فارس شاعر ، نزل مصر مع جيش الفتح ، ولم يُعرف له في سيرته شيءٌ انفرد بالامتياز به غير اشتراكه في هذه الفتنة ، مع دعواه أنه كان من الذين بايعوا تحت الشجرة ، كما جاء في حديث ضعيف.

استغل مدبرو الفتنة ميلَه إلى الرئاسة ، فوَلَّوه قيادةَ إحدى الفرق الأربع التي خرجت من مصر إلى المدينة. وكان في مدة الحصار شديدَ الوطأة على أمير المؤمنين عثمان وأهل بيته[١].

١١ ـ الغافِقي بن حَرْب العَكِّيّ:

من القبائل اليمنية التي نزلت مصر عند الفتح ، وأحد صنائع ابن سبأ وأتباعه ، كان محبّاً للرئاسة والظهور ، وتولى الرئاسة العامة للفِرق الأربع التي خرجت من مصر. ولما مُنِع عثمان من الخروج للصلاة كان هذا الغافقي يصلي بالناس! وقد اشترك مباشرة بالجريمة الكبرى في الاقتحام على عثمان وقتله[٢].

١٢ ـ محمد بن أبي حذيفة:

هو ربيبُ عثمان وتربَّى في حَجْره ، وطلب من عثمان الولاية فمنعه منها لأنه ليس بأهل ، فغضب وذهب إلى مصر ، وأَبَقَ من نعمة عثمان ، وكان اليد اليمنى لتنفيذ خطط السَّبئيين في مصر.

---

(١) الإصابة: ٢/٤٠٣؛ العواصم من القواصم ، ص١٣١ ، حاشية من تعليق محب الدين الخطيب.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٩١؛ العواصم من القواصم ، ص١٢١ ـ ١٢٢.

كان يَطعن على والي مصر ابن أبي سَرْح ، وعلى أمير المؤمنين عثمان ويحرِّض عليه ، ويزعم أنه غيَّر وبدَّل وخالَفَ هدْيَ النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ، وأن جهاده هو الجهاد الحق ، وأن دمه حلال! وكان يزوِّر الكُتب على لسان أمهات المؤمنين[1] .

١٣ ـ محمد بن أبي بكر الصديق:

كانت له دالَّة عند عثمان ، لكنه فَعل أمراً فأَخذه عثمان من ظهره ، فَحَنِقَ عليه ، وائتمر مع محمد بن أبي حذيفة فكانا يحرِّضان على عثمان ، ويَنقِمان عليه. وكان من جملة من سار مع المنحرفين الخارجين لحصر عثمان وقتله[2] .

ثانياً: أوكار الفتنة في الكوفة:

●● بدايةً نَلْفِت النظر إلى أمر مهمٍّ جدّاً وحقيقة واضحة بارزة ستتضح خلال استقرائنا الأحداث ـ وهي أن السمة العامة لأمصار الدولة الإسلامية في عهد عثمان كانت الاستقرار والأمان والطمأنينة والرضا والعافية من الفتن وإثارتها والسير بها وإشاعتها ، والعامة مشغولون بين الجهاد والفتح وترسيخ قواعد الإسلام وبناء الدولة ، **وانحصرت الفتن وإشعالها وإذاعتها في ثلاثة أمصار فقط هي: الكوفة ومصر بصورة كبيرة ، ثم البصرة بالدرجة الثانية** ، وهذه الأمصار لا تشكل شيئاً كبيراً من جسم الدولة[3] ،

---

(١) ولاة مصر ، ص٣٨؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٩٢ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٧ ، ٤٠٠.

(٣) وهذا بخلاف من يزعم أن مصادر الانحراف والفتن قد جاشت بها كثير من الأمصار ، وشارك فيها جمهور القبائل وبعض الصحابة وأبناء الصحابة. انظر: =

لكنها أَحدَثت شروخاً هائلة أدَّت إلى أخطر انقلاب في تاريخ الإسلام.

وناحية أخرى لا تقلُّ عنها أهمية، وبالنظر في تلك البؤر التي أَنتجت الفتنة وأنضجتْها وروَّجَت لها وسَعَتْ فيها إلى آخر الشوط؛ **نجد أن مؤرِّثيها ليسوا من الصحابة ولا من المهاجرين والأنصار، وليس فيهم قرشي أو أنصاري أو مُزَني أو جُهَني أو... بل هم من مسلمة الفتوحات**، وعامتهم من النَّخَع والأَزْد من القبائل اليمانية والسمَّاعين لهم ممن نزلوا الكوفة والبصرة ومصر.

●● **وكانت الكوفة أول الأمصار وأسبقها في طريق الشر والفتنة**، وقد حدَّث الإمام عامر الشعبي فقال: (الكوفة أول مِصْرٍ نَـزَغَ الشيطان بينهم في الإسلام)[1].

وقد ضَجِر الفاروق عمر بأهل الكوفة، وأصابه همٌّ كبير، حتى رأى الصحابة ذلك عليه واضحاً، وعَبَّر عن مصيبته فيهم فقال: (وأيُّ نائبٍ أعظمُ من مئةِ ألف لا يَرضَوْن عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير!)[2].

ووصف حالَ الكوفة رجلٌ منهم خبيرٌ بهم هو ابن الكَوَّاء، فقال: وأمَّا أهلُ الإحداث من أهل الكوفة، فإنهم أَنْظَرُ الناس في صغير، وأركَبُه لكبير[3]!.

والمتتبع لأوكار الشرور في الكوفة يجد أن الفتنة نمت فيها، واشتهر

= الإسلام والسلطان والملك، لأيمن إبراهيم، ص٢٥١؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص٤١٠.

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥١.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٦٥. **النائب**: النازلة والمصيبة.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٣٢٩.

عن أهلها تألُّبهم على ولاتهم ورفضُهم لهم مهما استرضوهم؛ فقد شكَوْا سعد بن أبي وقاص ، وأرجفوا بالوليد بن عقبة ، وطردوا سعيد بن العاص.

●● وخلال سِني خلافة عثمان وقعت أحداث شتى يقع مثلها في أي دولة كبيرة أو أمة متعددة الأعراق والأجناس. وكانت تلك الأحداث تتحرك تحت السطح ، ورمادُها يتّقد على هِينَتِه ، وقامت الأيدي الخبيثة والنفوس الماكرة الحاقدة بجمع رُفاتها والنفخِ في رمادها ، وضَمَّت إليها فريقاً من اللصوص والمحدودين والموتورين وضعاف النفوس وسفهاء الأحلام ومبتغي الفتنة ومحبِّي الزعامة. . .

ذكر الطبري وغيره أن الوليد بن عُقبة ولي الكوفة ، (وكان أحبَّ الناس في الناس وأرفقَهم بهم ، فكان كذلك خمس سنين ، وليس على داره باب. ثم إن شباباً من شباب أهل الكوفة نَقَبوا على ابن الحَيْسُمان الخُزاعي وكاثَروه ، فنَذِر بهم ، فخرج عليهم بالسيف ، فلما رأى كثرتهم استَصْرخ ، فقالوا له: اسكت ، فإنما هي ضربة حتى نُريحك من رَوْعة هذه الليلة ، وأبو شُريح الخزاعي مشرف عليهم ، فصاح بهم ، وضربوه فقتلوه ، وأحاط الناس بهم فأخذوهم ، وفيهم: زهير بن جُندب الأَزْدي ، ومُورِّع بن أبي مورِّع الأَسَدي ، وشُبيل بن أُبيّ الأَزْدي ، في عدة. فشهد عليهم أبو شُريح وابنه أنهم دخلوا عليه ، فمنَع بعضُهم بعضاً من الناس ، فقتله بعضهم. فكتب ـ الوليد ـ فيهم إلى عثمان ، فكتب إليه في قتلهم ، فقتلهم على باب القصر في الرَّحبة. وقال في ذلك عَمرو بن عاصم التميمي:

لا تأكلوا أبداً جيرانَكم سَرَفاً   أهلَ الزَّعَارَةِ في مُلْكِ ابنِ عفَّانِ

إنَّ ابنَ عفَّانَ الذي جَرَّبْتُمُ فَطَمَ اللصوصَ بمُحْكَمِ الفُرقانِ
ما زال يعملُ بالكتابِ مُهَيمِناً في كلِّ عُنْقٍ منهمُ وبَنَانِ[1]

وغضِب أهلُ هؤلاء الذين قُتلوا قِصاصاً ، واضْطَغنوا على الوالي (الوليد بن عقبة) ، وعلى رأسهم: أبو زينب بن عوف وأبو مورِّع الأَسَدي وجُندب الأَزْدي ، وأخذوا يتتبعون غِرَّة للوالي ، واقتحموا عليه بيته ليلفِّقوا له تهمة ، فلم يظفروا بمرادهم ، وخرجوا يتلاومون ، وأقبل عليهم الناس يسبُّونهم ، أما الوليد فسَامَحَهم وسَتَر عليهم وطوى الأمر عن عثمان[2]! .

●● لكن هؤلاء المفترين مَشَوا في طريق الضلال ، وأتوا عبد الله بن مسعود ، وقالوا: إن الوليد يعتكف على شرب الخمر ، وأذاعوا ذلك حتى طُرح على أَلْسُن الناس .

واستمروا في الافتئات على الوليد وإثارة أهل الكوفة عليه ، ويروي الطبري وغيره: أن الوليد أُتِي بساحر ، فأرسل إلى ابن مسعود يسألُه عن حدِّه ، فقال: اقتلْه. فانطلَقَ الوليد لإقامة الحدِّ عليه ، ونُودي في المسجد أن رجلاً يلعب بالسحر عند الوليد ، فأقبلوا ، وأقبل جُندب الأَزْدي ـ واغتنمها ـ يقول: أينَ هو؟ أين هو؟ حتى أُرِيَه ، فضَرَبَه! فاجتمع ابن مسعود والوليد على حَبْس جُندب ، حتى كَتب إلى عثمان ، فأجابهم عثمان: أن استحلِفوه بالله ما عَلِم برأيكم فيه ، وإنه لصادق بقوله

---

(١) المرجع السابق: ٤/ ٢٧١ ـ ٢٧٢؛ الكامل ، لابن الأثير: ٣/ ١٠٥؛ التمهيد والبيان ، ص٣٧ ـ ٣٨.
(٢) انظر ما تقدم: ص ٤٤٦ ـ ٤٤٩ في هذا الكتاب.

فيما ظَنَّ من تعطيل حدِّه ، وعزِّروه وخَلُّوا سبيلَه . وتقدم إلى الناس في أن لا يعملوا بالظنون ، وأن لا يُـقيموا الحدود دون السلطان ، فإنا نُقيد المخطئ ونؤدِّب المصيب .

وهكذا نرى أن جندباً الأزدي الموتور على الوالي الوليد بن عقبة قد افتات عليه وتدخّل في عمله وقَتل الساحر ، وليس لجندب أن يتدخل في إقامة الحدِّ مع وجود الوالي ، وكان يمكنه أن يطالبه بإقامة الحد لو تأخر في ذلك .

وغضِبَ لجندب أصحابُه ، فخرجوا إلى المدينة ، فيهم : أبو خُشَّة الغِفاري وجَثَّامة بن الصَّعْب بن جثَّامة ومعهم جُندب ، فاستعفَوْه من الوليد ، فقال لهم عثمان : تعملون بالظنون ، وتخطئون في الإسلام ، وتخرجون بغير إذنٍ! ارجعوا ، فردَّهم . فلما رجعوا إلى الكوفة لم يبقَ موتورٌ في نفسه إلا أتاهم ، فاجتمعوا على رأي فأَصْدَروه ، ثم تغفَّلوا الوليد ـ وكان ليس عليه حجاب ـ فدخل عليه أبو زينب الأَزْدي وأبو مورِّع الأسدي ، فسلاَّ خاتَمَه ، ثم خرجا إلى عثمان ، فشهدا عليه ، ومعهما نفر من يعرف من أعوانهم . فبعث إليه عثمان ، فلما قدِم أَمرَ به سعيدَ بن العاص ، فقال الوليد : يا أمير المؤمنين ، أُنشدُك الله ، فوالله إنهما لخصمان موتوران! فقال : لا يَضرُّك ذلك ، إنما نعمل بما ينتهي إلينا ، فمن ظَلَم فالله وليُّ انتقامه ، ومن ظُلِم فالله ولي جزائه[1] .

وتوضح رواية أخرى أن الرجل الذي استلَّ خاتَمَ الوليد استغلَّ نومَه العميق فاستلَّ خاتمه[2]! .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ؛ الكامل ، لابن الأثير : ٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٢) تاريخ المدينة ، لابن شبة : ٣/ ٩٧٢ .

ولَفَّق هؤلاء المجرمون الموتورون على الوليد أنه كان يشرب الخمر ، وقد شهدوه وهو يقيء الخمر! فأقام عثمان الحدَّ على الوليد لتوفُّر الشهود لا لصحة الواقعة ، فحلف له الوليد وأخبره خبرهم ، فقال عثمان: نُقيم الحدودَ ، ويُبوء شاهد الزور بالنار ، فاصبِرْ يا أخي[1]!.

●● قطع أمير المؤمنين عثمان دابرَ الفتنة فعزل الوليد عن الكوفة ، وولَّى عليها سعيد بن العاص ، وكان في المدينة ، فاتجه إلى الكوفة ومعه أولئك الذين قدِموا على عثمان في شكاية الوليد، (الأشتر النخعي، وأبو خُشَّة الغفاري ، وجُندب بن عبد الله ، وأبو مُصعب بن جثَّامة)[2].

فلما وصل سعيد الكوفة صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (والله لقد بُعِثتُ إليكم وإنِّي لكارهٌ ، ولكني لم أجدْ بُدّاً إذ أُمِرت أن أتَمِرَ. ألا إن الفتنة قد أطلعَتْ خَطْمَها وعينَيْها ، ووالله لأضربنَّ وجهها حتى أقمعَها أو تُعييني ، وإني لرائد نفسي اليوم) ونزل.

وهكذا يتبين لنا معرفة سعيد ببدايات الفتنة وإرهاصاتها التي أخذت تظهر في الكوفة ، وأنه تهدَّد أصحابَها بالقضاء عليهم وعليها. ثم أخذ يتعرف على أحوال الكوفة ويستقصي أخبار أهلها ، ثم كتب تقريراً وجَّهَه إلى أمير المؤمنين يقول فيه: (إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغُلب أهلُ الشرف منهم والبُيوتات والسابقة والقُدْمة ، والغالبُ على تلك البلاد روادِف رَدِفَتْ ، وأعرابٌ لَحِقَتْ ، حتى ما يُنظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ونابتتها!).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧٦؛ وانظر ما تقدم: ص ٤٤٦ ـ ٤٥٣ في هذا الكتاب.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧٩.

فكتب إليه عثمان: (أما بعدُ ، ففَضِّلْ أهلَ السابقة والقُدْمة ممن فَتَح الله عليه تلك البلاد ، وليكن مَن نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكلٍّ منزلته ، وأَعْطِهم جميعاً بقِسْطِهم من الحق، فإن المعرفةَ بالناس بها يُصَاب العدل).

وتدل هاتان الرسالتان المتبادلتان بين الخليفة والوالي عن إدراكهما لمصدر المشكلات في الكوفة ، وهو وجود الأعراب الروادف الذين نزلوا البلاد بعد أهلها الذين نبتوا فيها والسابقين الذين فتحوها ، ونافسوهم في تصريف الأمور ولم يعرفوا مكانة لذوي الشرف ولا فضلاً لذوي السابقة والقدم في الإسلام ، فلم يتورَّعوا عن الأذى وإلصاق التُّهم وإثارة الفتن! .

وقد اتخذ الوالي سعيد بن العاص إجراءً حكيماً يحدُّ من تسلُّط أولئك الدُّخلاء عملاً بنصيحة أمير المؤمنين عثمان؛ فأرسَل إلى وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية فقال: أنتم وجوه مَنْ وراءَكم ، والوجهُ ينبئ عن الجسد ، فأبْلِغونا حاجة ذي الحاجة وخَلَّة ذي الخَلَّة. وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف ، وخلَص بالقراءِ والمتسمِّتين في سَمَره. فكأنما كانت الكوفة يَبْساً شَمَلَتْه نار ، فانقطع إلى ذلك الضَّرب ضَرْبُهم. وفَشَت القالة والإذاعة.

وأوقف سعيدٌ أميرَ المؤمنين عثمانَ على حقيقة الأمر بالكوفة واضطراب أمرِ هؤلاء الفتانين ، فقام عثمان ثانية وخطب الناس ، وكان

مما قاله: يا أهلَ المدينة استعِدُّوا واستمسكوا ، فقد دبَّت إليكم الفتن[1]!.

●● بقي أهل الشر والانحراف على أخلاقهم الفاسدة يهتبلون كل فرصة لإثارة الفتن والطعن على الولاة والخليفة ، ووالي الكوفة سعيد بن العاص على عادته كان مجلسه الخاص لا يغشاه إلا نازلة أهل الكوفة ووجوه أهل الفتوحات والقرَّاء والمُتسمِّتون ، وكان هؤلاء دَخْلَته إذا خلا ، فأما إذا جلس للناس فإنه يدخل عليه كل أحد[2].

جلس سعيد للناس يوماً ، فدخل عليه جمع فيهم (الأَشتر النخعي ، وابن ذي الحَبَكة ، وجُندب ، وصَعْصَعة ، وابن الكوَّاء ، وكُميل بن زياد ، وعُمير بن ضابئ ، وعَمْرو بن الحَمِق الخزاعي ، وعلقمة بن قيس) ، وفيهم خُنَيس بن حُبيش وابنه عبد الرحمن ، وغيرهم. وبينما هم يتحدثون قال خُنيس: ما أجودَ طلحة بن عبيد الله! فقال سعيد: إن من له مثل (النَّشَاسْتَج)[3] لحقيقٌ أن يكون جواداً ، والله لو كان لي مثله لأعاشكم الله منها عيشاً رغداً ، فقال عبد الرحمن بن خُنيس ـ وهو حَدَث ـ: والله لَوَدِدتُ أن هذا المِلْطاط لك ـ يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات مما يلي الكوفة ـ فثار عليه القوم (الأشتر ومن معه) وقالوا: فَضَّ الله فاكَ ، والله لقد هممنا بك! فقال أبوه: حَدَثٌ ، فلا تؤاخذوه ، فقالوا: يتمنَّى له من سَوَادنا؟! قال: ويتمنَّى لكم أضعافَه ، قالوا: لا يتمنى لنا ولا له ، ثم قالوا: أنت أمرتَه بذلك ، وثاروا إليه ، فحاول

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٧٨ ـ ٢٨٠؛ الكامل ، لابن الأثير: ٣/ ١٠٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣١٧ ـ ٣١٨. دَخْلته: بطانته وخواص جلسائه.

(٣) صنيعة أو نهر بالكوفة لطلحة بن عبيد الله ، وكانت عظيمة كثيرة الدخل.

أبوه منعهم ، فضربوهما حتى غُشِي عليهما! وسعيدٌ يُناشِدهم ويأبَوْن ، حتى قَضَوا منهما وطَراً.

وسمعتْ بذلك بنو أَسَد ، فجاؤوا وأحاطوا بمجلس الوالي ليدافعوا عن رَجُلَيْهما ، فتلافَى سعيد بحكمته هذه الفتنة ، وردَّ بني أسد عن الأشتر وجماعته.

ولما أفاق الرجلان قال لهما سعيد: أبكما حياة؟ قالا: قَتَلَتْنا غاشِيَتُك ! قال: لا يَغْشَوني والله أبداً ، فاحفَظَا علَيَّ ألسنتكما ، ولا تجرِّئا علَيَّ الناس ، ففعلا.

لكن الأشتر وأصحابه جلسوا في بيوتهم ، وأقبلوا على نشر الشائعات ، وشَتْم عثمان وسعيد ، وأقبل الناس عليهم ، حتى جاء صلحاءُ الكوفة سعيداً في أمرهم ، فقال: هذا عثمان قد نهاني أن أُحرِّك شيئاً ، فمن أراد منكم شيئاً فليكتب إلى عثمان.

فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم ، فكتب أميرِ المؤمنين إلى سعيد وأهل الكوفة: (إذا اجتمع مَلَؤكم على ذلك ، فأَلْحِقُوهم بمعاوية). فسيَّرهم إلى معاوية بالشام ، وسُمُّوا (المُسَيَّرين) ، وهم: الأشتر النخعي ، وابن الكَوَّاء اليَشْكُري ، وصَعْصَعة بن صُوحان العبيدي ، وأخوه زيد ، وكُميل بن زياد النَّخَعي ، وجُندب بن زهير الغامدي ، وجندب بن كعب الأَزْدي ، وثابت بن قيس النخعي ، وعروة بن الجَعْد البارقي ، وعَمْرو بن الحَمِق الخُزاعي.

وكتب عثمان إلى معاوية: (إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً قد

خُلقوا للفتنة ، فَرُعْهُمْ وقُم عليهم ، فإن آنستَ منهم رُشداً فاقبَلْ منهم ، وإن أعْيَوْكَ فارْدُدْهم عليهم).

وكان ذلك سنة (٣٣هـ)[١].

وثمة رواية تفيد أن من بين المضروبين (قائد شرطة الكوفة) ، وكان في مجلس الوالي سعيد بن العاص[٢]!.

وباستعراض أسماء هؤلاء المنحرفين الفَتَّانين مساعيرِ الشر والفتنة ، نرى أن لهم علاقةً قويةً بالافتيات على الوليد بن عقبة ، ثم هاهم يثيرون الاضطراب والفتنة على سعيد بن العاص ، وهم كذلك ستكون لهم يدٌ طُولى في الخروج على أمير المؤمنين وقتله!.

● قصة المُسَيَّرِين:

●● استقبل والي الشام معاوية بن أبي سفيان (المُسَيَّرين) ، وتولاهم برعايته ، وشملهم بحلْمِه ، وتعاهدهم بأدبه وحسنِ سياسته ، وبذَلَ لهم الترغيب ولوَّح بالترهيب ، وتقلَّب بهم بين الشدة واللِّين ، وأنزلهم كنيسة تسمى (مريم) ، وأجرى عليهم ـ بأمر عثمان ـ ما كان يُجرى عليهم بالعراق ، وجعل لا يزال يتغدَّى ويتعشى معهم ، فقال لهم يوماً: (إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً ، وغلبتم الأممَ وحويتم مراتبهم ومواريثهم ، وقد بَلَغَني أنكم نَقَمتم قريشاً ، وإن

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣١٧ ـ ٣١٩؛ الكامل ، لابن الأثير: ٣/١٣٨ ـ ١٣٩؛ البداية والنهاية: ٧/١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٣٢٣.

قريشاً[1] لو لم تكن عُدْتم أذلةً كما كنتم. إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة ، فلا تَشِذُّوا عن جُنَّتكم ، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجَوْر ، ويَحتمِلون منكم المؤونة. والله لتنتهنَّ أو لَيبتلينَّـكم الله بمن يسومكم ، ثم لا يَحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم).

فقال صَعْصَعة بن صُوحان: (أمَّا ما ذكرتَ من قريش ، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعَها في الجاهلية ، فتخوِّفنا! وأما ما ذكرتَ من الجُنَّـة ، فإن الجُنَّة إذا اخْتُرِقتْ خُلِص إلينا).

وهذا يعبِّر عن مخبوء أنفس هؤلاء ، وأنهم ما أرادوا وجه الله ، ولا تقويمَ الأخطاء التي ادَّعوا وجودَها ، فهم يرون أن الجُنَّة ـ وهم الولاة ـ إذا اختُرقت خلص الأمر إليهم ، وأصبحوا ولاة الأمر!.

وهنا ردَّ عليه معاوية فقال مخاطباً جماعتهم: (عرفتكم ، الآن علمتُ أن الذي أغراكم على هذا قلةُ العقول ، وأنت خطيب القوم ، ولا أرى لك عقلاً! أُعْظِم عليك أمر الإسلام وأذكِّرك به ، وتذكِّرني الجاهلية ، وقد وعظتك؟! وتزعم لِما يجنُّكَ أنه يُخترق ، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنَّة! أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم ، ورفعوا إلى خليفتكم! افقهوا ـ ولا أظنكم تفقهون ـ أن قريشاً لم تُعَزَّ في جاهلية ولا إسلام إلا بالله عز وجل ، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم ، ولكنهم كانوا أكرمَهم أحساباً ، وأمحَضَهم أنساباً ، وأعظمهم أخطاراً ، وأكمَلَهم مروءةً ، ولم

---

(١) لم يرد معاوية رضي الله عنه التعصب لقريش ، إنما لفت أنظارهم إلى أن قريشاً هم حملة هذا الدين إلى الدنيا؛ فلهم السابقة والفضل.

يتمنعوا في الجاهلية ـ والناس يأكل بعضهم بعضاً ـ إلا بالله الذي لا يُستذل من أعزَّ ، ولا يُوضَع من رفع ، فبوَّأَهم حَرَماً آمناً يُتخَطَّفُ الناس من حولهم).

ثم أنَّبَهم ووبَّخَهم وقرَّعَهم ، ثم بذل لهم النصح ، وأرشدهم إلى طريق الحق إن كانوا يريدونه ، فقال: (وبعدُ فإنْ أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ، ولْيَسَعْكُم ما وسع الدهماءَ ، ولا يُبطِرنَّكم الإنعامُ ، فإن البطر لا يعتري الخيار ، اذهبوا حيث شئتم ، فإني كاتب إلى أمير المؤمنين فيكم).

فكتب معاوية إلى عثمان: (إنه قدِمَ علَيَّ أقوام ليس لهم عقول ولا أديان ، أَثقلَهم الإسلام ، وأضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجة ، إنما همُّهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، واللهُ مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضحهم ومخزيهم. وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم ، فانْـهَ سعيداً ومن قِـبَلَه عنهم ، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير).

●● فكتب إليه عثمان أن يردَّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة ، فردَّهم إليه ، فلم يكونوا إلا أطلَقَ ألسنةً منهم حين رجعوا!.

وضَجَّ بهم سعيد ، فكتب إلى عثمان بذلك ، فكتب عثمان إليه بأن يسيِّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان أميراً على حمص ، وكتب إلى الأشتر وأصحابه: (أما بعدُ ، فإني قد سيَّرتُكم إلى حمص ، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها ، فإنكم لستم تألون الإسلام وأهلَه شرّاً ، والسلام!).

فلما قرأ الأشتر الكتاب قال: (اللهم أسوأنا نظراً للرعية، وأعملنا فيهم بالمعصية؛ فعجِّل له النقمة!).

وقدم سعيد بن العاص على عثمان بالمدينة، واستعمل عَمْرو بن حُريث على الكوفة، والقعقاع بن عمرو على الحرب.

●● ولما قدِم (المُسَيَّرون) على عبد الرحمن بن خالد، قبض عليهم بمثلِ مخالب أبيه رضي الله عنهما، وأنزلهم بجزيرة ابن عُمر، وقال لهم: (يا آلَةَ الشيطان، لا مرحباً بكم ولا أهلاً! قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نِشاط! خَسَّر الله عبدَ الرحمن إن لم يؤدِّبْكم حتى يحسركم. يا معشر مَن لا أدري أَعربٌ أم عَجم، لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عَجَمتْه العاجمات، أنا ابن فاقئ الردَّة، والله لئن بلغني يا صعصعة ابن ذل أن أحداً ممن معي دَقَّ أنفك ثم أَمَصَّكَ[1]، لأطيرنَّ بك طَيْرة بعيدة المهوى!).

ولوَّحَ لهم عبد الرحمن بهذه الكلمات التي هي كبريق سيف أبيه، وأقامهم أشهراً كلما ركب أمشاهم، فإذا مرَّ به صعصعة قال: (يا ابنَ الخطيئة؛ أعلمتَ أن من لم يُصلحْه الخير أصلحه الشر؟! ما لَكَ لا تقول كما كان يبلغني أنك تقول لسعيد ومعاوية! فيقول ويقولون: نتوب إلى الله، أقِلْنا أقالَكَ الله! فما زالوا به حتى قال: تاب الله عليكم).

ثم سَرَّح الأشترَ إلى عثمان، وقال لهم: ما شئتم، إنْ شئتم فاخرجوا، وإن شئتم فأقيموا. وخرج الأشتر، فأتى عثمانَ بالتوبة

---

(١) **أمَصَّه**: قال له: يا ماصَّ هَنَ أبيه، أو يا ماصَّ بَظَر أمه!.

والندم والنزوع عنه وعن أصحابه ، فقال عثمان للأشتر : احلل حيث شئت ، فقال: مع عبد الرحمن بن خالد ، وذكر من فضله ، فقال عثمان: ذاك إليكم. فرجع إلى عبد الرحمن[1].

ثالثاً: أوكار الفتنة في البصرة:

مثلما افترى بعض أهل الكوفة على ولاتهم مثل سعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص ، كذلك كان في البصرة مَنْ في قلبه دَغَل وفي نفسه حبٌّ للفتنة ورغبة في الافتراء والطعن على ولاة الأمر ، فقد مات عمر وعلى البصرة الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري ، وقد أوصى عمر الخليفة من بعده أن يُقرَّه عليها أربعَ سنين تمييزاً له عن بقية ولاة الأمصار ، ففعل عثمـان ، بل بقي أبو موسى نحو ست سنين إلى سنة (٢٩هـ).

وكان يَسُوس أهلَ البصرة بالعدل والرحمة مع الجهاد والفتح ، وحَدَث أنه انتقض الأكراد على الدولة ، فحثَّ أبو موسى على الجهاد لتأديبهم ، وخرج الناس وخرج هو في ثَقَلِه ، فرآه بعض أصحاب الهوى والفتنة وتمسكوا بعنان دابته وأرادوه على الترجُّل مثلهم ، فحاورهم حتى قنَّعهم. لكن المفترين ما قبِلوا ذلك ، فأغَذُّوا السيرَ إلى المدينة وطلبوا من الخليفة عزل أبي موسى ، وقالوا: (ما كل ما نعلم نحب أن نقوله ، فأبْدِلْنا به ، فقال: مَن تحبُّون؟ فقال غَيْلان بن خَرَشة: في كل أحد عِوَضٌ من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا ، وأحيا أمرَ الجاهلية فينا ، فلا ننفكُّ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣١٩/٤ ـ ٣٢٢ (رواية سيف بن عمر)؛ وكتابي «الخلفاء الراشدون» ، ص٣٨٣ ـ ٣٨٦.

من أشعري كان يعظِّم ملكه عن الأشعريين ، ويستصغر مُلك البصرة! وإذا أمَّرتَ علينا صغيراً كان فيه عِوض منه ، أو مُهْتَراً كان فيه عوض منه ، ومَن بين ذلك مِن جميع الناس خير منه!). فدعا عبد الله بن عامر فأمَّره على البصرة[1].

وكلام هذا المفتري وطعنُه على الوالي الجليل ، يدل على المستوى الديني والأخلاقي والنفسي الذي ينطوي عليه هؤلاء ، ومدى افترائهم وضلالهم وحبّهم للفتنة والإزراء على الكبار!.

وسار فيهم ابن عامر على خير سير الولاة ، في العدل والرحمة والإنصاف ورغد العيش ، والجهاد والفتوحات الواسعة ، لكن الفتَّانين بقوا على أخلاقهم وسوء سيرتهم وخُبْث سريرتهم ، وإن كانوا أقلَّ حدَّة في ذلك من أهل الكوفة.

كان (حُمْران بن أبان) تزوَّج امرأة في عدَّتها ، فنكَّلَ به عثمان ، وفرَّق بينهما ، ونفاه إلى البصرة ، فلزِم أميرها عبد الله بن عامر. لكنه افترى على التابعي الجليل الزاهد العابد عامر بن عبد قيس ، ووشى به إلى الأمير: أنه لا يَرى لآل إبراهيم عليه السلام عليه فضلاً ، ولا يشهد الجمعة ، ولا يرى التزويج ، ولا يأكل اللحم! فكشف ابن عامر عن أمره ، فوجده مكذوباً عليه.

لكن حُمران لَجَّ في افترائه ، وتتبَّع عامر بنَ عبد قيس ، وسعى به ، وشهد معه قوم ، فسيَّره عبد الله بن عامر إلى معاوية بالشام ، عن أمر عثمان. وفتش معاوية عن أحوال (عامر) ، فوجده من خيار الناس تقوى

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٥. المُهْتَر: الأَحمق الخَرِف.

وعبادة وزهداً وورعاً ، فطلب إليه أن يرجع إلى بلده البصرة ، فقال عامر: لا أرجع إلى بلد استحلَّ أهلُها مني ما استحلُّوا ، ولكني أقيم بهذا البلد الذي اختاره الله لي[1].

ومن أمثال غيلان بن خرشة ومن قاموا معه على أبي موسى الأشعري ، وحُمران ومَن شهد معه زوراً على ذاك العبد الصالح؛ كانت بذور الفتنة في أرض البصرة ، فأنتجت ثماراً مُرّة.

وكان في البصرة (اللصّ حُكَيم بن جَبَلة)[2] ، وقد نزل عليه (عبد الله بن سبأ) ، واجتمع إليه نفر فطرَح لهم أضاليله وافتراءاته ، فقبِلوا منه واستعظموه ، فعلم به عبد الله بن عامر فأخرجه من البصرة ، فذهب إلى الكوفة ، ثم إلى مصر فاستقرَّ بها ، وجعل يكاتبهم ويكاتبونه ، ويختلِف الرجال بينهم[3].

رابعاً: أوكار الفتنة في مصر:

●● تعود بذور الشر والفتنة في مصر إلى أيام واليها الفاتح عمرو بن العاص؛ وذلك أن (الخوارج من المصريين) كانوا محصورين من عَمْرو مقهورين معه ، لا يستطيعون أن يتكلموا بسوء في خليفة ولا أمير ، فما زالوا حتى شكوه إلى عثمان لينزعه عنهم ويولي عليهم من هو ألينُ منه. فلم يزل ذلك دأبَهم حتى عزل عَمْراً عن الحرب وتركه على الصلاة ،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٣٢٨. وانظر ترجمة (عامر بن عبد قيس) في: سير أعلام النبلاء: ٤/١٥ ـ ١٩. وقد خلطه الدكتورعلي الصلابي ـ في كتابه «عثمان» ص٣٩٢ ـ بالصحابي (أشج عبد القيس) ، وهي واحدة من أعاجيبه في كتبه!.

(٢) تقدم التعريف به: ص: ٥٦٣ ـ ٥٦٤ في هذا الكتاب.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٣٢٦ ـ ٣٢٧.

وولى على الحرب والخَراج عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح. ثم سَعَوا بينهما بالنميمة ، فكان بينهما كلام قبيح ، فأرسل عثمان إلى عمرو أن يَقدم عليه ، وجمع لابن أبي سرح ولاية مصر كلها[1].

وكان الذي مشى بينهما بالنميمة سُودان بن حُمران وكِنانة بن بِشْر وأشباههما.

ومن بذور الفتنة أولئك الذين تغضَّبوا على ابن أبي سَرْح عندما أخذ خمس الخمس من الغنائم كما وعده أمير المؤمنين ، فاستنكروا ذلك وارتعدت له آنافهم ، وساروا إلى المدينة وشكوا واليهم ، وطلبوا من عثمان أن يأمره بردِّ النَّفْل ، فاستجاب لهم عثمان وأداً للفتنة.

●● ومن رؤوس الفتنة والسُّعاة فيها: محمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أبي بكر.

وقد سأل سائل سعيد بن المسيِّب عن محمد بن أبي حذيفة: ما دعاه إلى الخروج على عثمان؟ فقال: (كان يتيماً في حَجْر عثمان ، فكان عثمان واليَ أيتام أهله ، ومحتمِلَ كَلِّهم ، فسأل عثمانَ العملَ حين وُلِّيَ ، فقال: يا بُنيَّ ، لو كنتَ رِضاً ثم سألتني العمل لاستعملتُك ، ولكن لستَ هناك! قال: فَأْذَنْ لي فَلأخرجْ فَلأطلُبْ ما يَقوتني ، قال: اذهب حيث شئتَ. وجهَّزه من عنده ، وحمله وأعطاه ، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغيَّر عليه أنْ منعه الولاية!)[2].

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٧٠ ؛ وانظر ما تقدم: ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠ في هذا الكتاب.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٩. **الكَلّ**: اليتيم ، والضعيف ، ومن يكون عبئاً على غيره.

وأما محمد بن أبي بكر: فيروي سيف بن عمر، عن مبشِّر قال: (سألتُ سالم بنَ عبد الله بن عمر عن محمد بن أبي بكر: ما دعاه إلى ركوب عثمان؟ فقال: الغضب والطمع، قلت: ما الغضب والطمع؟ قال: كان من الإسلام بالمكان الذي هو به، وغرَّه أقوام فطمِع. وكانت له دالَّة فلزِمه حق، فأخذه عثمان من ظهره ولم يُدْهِن؛ فاجتمع هذا إلى هذا، فصار مُذَمَّماً بعد أن كان محمداً!)[1].

●● ولمّا قدِم عبد الله بن سبأ مصر، وأخذ يُلقي أباطيله على بعض رؤوس الشر مثل كِنانة بن بِشْر وسُودان بن حُمران والغافِقيّ بن حرب ـ كان من أسرع الناس استجابة له محمد بن أبي حذيفة، وكان له دور في التأليب على فاتح مصر عمرو بن العاص[2]، واستمر في إثارة الفوضى وتأريث الفتنة على الوالي الثاني ابن أبي سَرْح، وذلك في وقت الجهاد والناس يخوضون قتالاً شرساً في معركة (ذات الصَّوَاري)، وبعد انتهاء المعركة جعل ابن أبي حذيفة يقول للرجل: (أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقّاً، فيقول الرجل: وأي جهاد؟ فيقول: عثمان بن عفان فعل كذا وكذا، وفعل كذا وكذا. حتى أفسد الناسَ. فقدِموا بلدَهم وقد أفسدهم، وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به).

ويقول الزهري: (خرج محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر عام خرج عبد الله بن سعد، فأظهَرا عيبَ عثمان وما غيَّر وما خالَفَ أبا بكر

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٩٩ ـ ٤٠٠؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/١٨٥. وتقدم التعريف به وبابن أبي حذيفة: ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨ في هذا الكتاب.
(٢) انظر: مختصر ابن عساكر: ١٦/١٨٢.

وعمر ، وأن دمَ عثمان حلالٌ. ويقولون: استعمل عبد الله بنَ سعد رجلاً كان رسول الله ﷺ أباح دمَهُ ونزل القرآن بكفره ، وأخرج رسول الله ﷺ قوماً وأدخلهم عثمان ، ونَزع أصحابَ رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر! فبَلَغَ ذلك عبدَ الله بن سعد فقال: لا تركبا معنا ، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين ، ولَقوا العدو ، وكانا أَكَلَّ المسلمين قتالاً ، فقيل لهما في ذلك ، فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكِّمه! عبد الله بن سعد استعمله عثمان ، وعثمان فعل وفعل! فأفسدا أهلَ تلك الغزاة ، وعابا عثمان أشدَّ العيب. فأرسل عبد الله بن سعد إليهما ينهاهما أشدَّ النهي ، وقال: والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين ، لعاقبتكما وحبستكما!)[1].

وأرسل ابنُ أبي سَرْح إلى أمير المؤمنين ليوقفه على الأمر ، ويخبره أن محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر قد أفسدا عليه البلاد ، فكتب إليه عثمان: (أمَّا ابن أبي بكر فإنه يُوهَب لأبيه ولعائشة ، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي وهو فرخ قريش) ، فكتب إليه ابن أبي سرح: (إن هذا الفرخ قد استوى ريشُه ولم يبقَ إلا أن يطير!)[2].

وحاول أمير المؤمنين ووالي مصر استصلاحَهما، وأصرَّ ابن أبي حذيفة على اتهام عثمان وابن أبي سَرْح ، وأخذ يكيل التُّهم ويُصدِر الأكاذيب هو ومن معه ، ومن ذلك أن عثمان بعث إليه مالاً في مصر ، فأخرج ابن أبي حذيفة المال أمام عامة الناس ، وقال: إن عثمان يريد أن

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٩٢.

(٢) الكامل ، لابن الأثير: ٣/ ٢٦٥؛ الولاية على البلدان ، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

يرشوني ، فزاده ذلك في نظر العامة تعظيماً[1] !.

وزاد في إفساده فقام بتزوير الكتب على ألسنة أمهات المؤمنين ، كما سيأتي.

وهكذا كانت مصر تضطرم بنار الفتن ونشر الشائعات والأكاذيب ، بفعل أولئك المنحرفين والموتورين وأصحاب الأهواء.

خامساً: تزوير الكتب والطعن على الولاة:

وثَمَّة سلاحان خطيران استخدمهما ذلك الخليط غير المتجانس من (المنحرفين الخارجين) على الخليفة ، وهما: تزوير الكتب ، والطعن على الولاة ومن ورائهم أمير المؤمنين.

●● فقد كتبوا كتباً مزوَّرة على لسان جِلَّة من الصحابة مثل علي وطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ، وأرسلوها إلى الآفاق يحرِّضون أهلها على قتال عثمان[2].

وهم في هذا يوهمون الرأيَ العام ويُقنعون الرَّعاعَ الذين ساروا معهم ، أن ما يَسْعَون إليه يُظاهرهم عليه ويؤيدهم فيه هؤلاء الأجلاء من الصحابة!.

ففي خبر خروجهم إلى المدينة وحصر عثمان ، وقد قبضوا على الذي يحمل (الكتاب المزوَّر على عثمان) ، جاؤوا علي بن أبي طالب فقالوا: (ألم ترَ إلى عدوِّ الله[3] كتب فينا بكذا وكذا ، وإن الله قد أَحلَّ دمَه! قُمْ

---

(١) الكامل ، لابن الأثير: ٣/ ٢٦٥.

(٢) انظر: البداية والنهاية: ٧/ ١٧٥ ، ١٩٥.

(٣) يعنون (عثمان) ، قاتلهم الله!.

معنا إليه ، قال: والله لا أقوم معكم ، قالوا: فلِمَ كتبتَ إلينا؟ قال: والله ما كتبتُ إليكم كتاباً قط. فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قال بعضهم لبعض: أَلِهذا تقاتلون ، أو لهذا تغضبون؟! فانطلق عليٌّ فخرج من المدينة)[١].

ويروي مَسْروق هذا الموقفَ عن أم المؤمنين عائشة بعد أن قُتل عثمان؛ فعن الأعمش ، عن خَيْثَمة ، عن مسروق قال: قالت عائشة: تركتُموه كالثوب النقيِّ من الدَّنَس ، ثم قربتُموه تذبحونه كما يُذبح الكَبْش! قال مسروق: فقلتُ: هذا عملكِ؛ كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه! فقالت عائشة: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبتُ إليهم بسوادٍ في بياضٍ حتى جلستُ مجلسي هذا. قال الأعمش: فكانوا يَرون أنه كُتب على لسانها[٢].

ومن رؤوس المفترين في هذا الميدان محمد بن أبي حذيفة ، حيث (كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبي ﷺ ، ثم يأخذ الرواحلَ فَيُضمِّرُها ، ثم يأخذ الرجالَ الذين يريد أن يبعث بذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت ، فيستقبلون بوجوههم الشمسَ لتلوِّحهم تلويحَ المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم ، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبر ، الخبر في الكتب. ثم يخرج محمد بن أبي حذيفة والناس كأنه يتلقى رسلَ أزواج النبي ﷺ ، فإذا لقوهم قالوا:

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ تاريخ خليفة ، ص١٦٩.

(٢) تاريخ خليفة ، ص١٧٦؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٨٢؛ تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢٢٥ ، وصححه ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ١٩٥.

لا خبر عندنا ، عليكم بالمسجد! فيقرأ عليهم كتب أزواج النبي ﷺ. فيجتمع الناس في المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير ، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول: إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عُمِل في الإسلام ، وما صُنِع في الإسلام! فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء. ثم يقول ، ثم ينزل عن المنبر. وينفر الناس بما قرئ عليهم)[1].

●● وزادوا الأمر سوءاً بالطعن على الولاة وتشويه سيرتهم في سياسة الرعية ، والتشكيك بكفاءتهم وإخلاصهم ، والافتراء عليهم في أخلاقهم ودينهم ، واتهامهم بالجَوْر والتقصير واختلاس الأموال وارتكاب الموبقات ، وغير ذلك مما أوضحناه عند التعريف بهم وبيان أسباب عزلهم.

وهذا التزوير على عثمان وكبار الصحابة والطعن عليه وعلى ولاته وقادة جنده؛ أدى إلى نتائجه الخطيرة ، لكثرة العناصر الفاسدة في المجتمع يومئذٍ ، حيث زادت البلبلة في قلوب جمهور كبير من الرعية ، وزعزعت الثقة بالخليفة والولاة والقادة ومسيرة الدولة والأمة.

سادساً: أعمال عبد الله بن سبأ:

١ ـ تعريف وتوضيح وبيان:

أغلب آراء المؤرخين والنسَّاب والمصنفين في العقائد والفِرق؛ على أن عبد الله بن سبأ من يهود اليمن من صنعاء ، ويقال له: ابن السوداء ، لأن أمه حبشية.

---

(١) ولاة مصر ، للكندي ، ص٣٨؛ وانظر: أخبار المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١١٥٤.

نشأ في بيئة يهودية في اليمن ، ولليهود وجود فيها ، وتأثر بالنصرانية التي دخلت اليمن عندما استولى الأحباش عليها ، فنتج عنده (ازدواجية) في العقائد ، يمكن تلمُّسها من خلال نشره لفكرة (الرجعة) و(الوصية).

بدأ ظهوره بين المسلمين في عهد عثمان نحو سنة (٣٠هـ) في الحجاز ، وتنقل إلى البصرة ثم الكوفة فالشام واستقر به المقام في مصر[١].

ووجود ابن سبأ حقيقة ثابتة لا تقبل الطعن ولا التشكيك ، وله ترجمة عند أهل السُّنَّة في عامة كتب الجرح والتعديل والضعفاء ، وأخباره في الفتنة تطفح بها تواريخهم ، وعند متقدمي الشيعة وثائق مسجلة في كتبهم تثبت وجود ابن سبأ[٢].

وأكد وجودَه أغلبُ المستشرقين المعنيين بالدراسات العربية والإسلامية ، كما أنه محلُّ اتفاق عند المُحْدَثين من أهل السُّنَّة عدا فئة قليلة كان لها تأثر واضح بمنهج الاستشراق. أما المُحْدَثون من الشيعة فيذهب كثير منهم إلى إنكاره سعياً لنفي علاقته بتأسيس مذهب التشيع ، وكتبُ أئمتهم المتقدمين حجة عليهم[٣] ، وممن أثبت وجوده من المعاصرين منهم: محمد جواد مغنية.

---

(١) تاريخ ابن عساكر «ترجمة ابن سبأ» ، ص١ ـ ٢؛ عبد الله بن سبأ ، للعودة ، ص٣٨ ـ ٥٣.

(٢) وقد ذكر خلاصة قيمة في هذا: سليمان العودة في كتابه «عبد الله بن سبأ» ، ص٥٣ ـ ١٠٤.

(٣) انظر: عبد الله بن سبأ ، ص٨٨.

٢ ـ عقائد وأفكار:

من أسوأ العقائد والأفكار التي اختلقها ابن سبأ ودعا إليها:

١ ـ أن علي بن أبي طالب لم يمت ، وأنه لا يموت حتى يملك العرب ويسوقهم بعصاه.

٢ ـ يدعو إلى ولاية أهل البيت ، وولاية علي والبراءة من مخالفيه.

٣ ـ يزعم أن عليّاً هو الله ، وأنه يحيي الموتى ، وقال لعلي في أحد المواقف: أنت أنت! أي أنت الله.

٤ ـ وهو أول من أحدث بالقول بالنص على الإمامة والوصية ، وبإمامة اثني عشر إماماً.

٥ ـ وهو أول من قال بالغلو والحُلول ، والجزء الإلـٰهي الذي حَلَّ في علي ينتقل بالتناسخ من إمام إلى إمام.

وكثير من عقائد الشيعة ترجع إلى أصول يهودية وضعها عبد الله بن سبأ؛ فهو الذي جاء بعقيدة الوصية والرجعة والولاية والإمامة والبَداء ونحوها[١].

وقد جاء في كتاب «رجال الكَشِّي» ، وهو من الكتب الموثوق بها عند الشيعة في أسماء الرجال ، عن عبد الله بن سبأ: (وكان أولَ مَنْ أشهَرَ القول بفَرْض إمامة علي ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه ،

---

(١) عبد الله بن سبأ ، ص٥٥ ـ ٦١ ، ٨٥ ، وانظر هوامشه.

وأَكْفَرهم ، فمن هنا قال من خالف الشيعة : أصل التشيع والرفض مأخوذ من اليهودية)[1] .

٣ ـ تضخيم دور ابن سبأ ، وأسباب نجاح المؤامرة:

●● ومع يقيننا الجازم بوجود عبد الله بن سبأ ، وافتراءاته وأكاذيبه التي افتراها في ادعاء الوصية والإمامة والولاية والرجعة وإلاهية علي . . . إلا أننا لا نسلِّم بالتهويل الكبير الذي يعمد إليه البعض فينسبون لابن سبأ كل المؤامرات والفتن والملاحم الواقعة بين الصحابة ، وأنه بطلٌ خفيٌّ مخيف ، ورجلٌ على غاية من الذكاء ، وصدق الفراسة ، والنظر البعيد ، والحيلة الواسعة ، والنفاذ إلى نفسية الجماهير ، وأنه أحد أبطال جمعية تلمودية سرية غايتها تقويض الدولة الإسلامية[2] ! .

فهذا يصور (ابن سبأ) بأنه من طفرات العباقرة ، وأصحاب الذكاء المتوقد ، والإمكانيات المتعددة ، والمقدرة الاستثنائية على استقطاب الأشخاص وحَبْك المؤامرات والتواصل المستمر المحكم ، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان والرجال والتاريخ ، وكأنه كان يحبك خططه وأعماله بتوافق تام مع كل عناصر المشهد السياسي والتاريخي المؤيدة له ، وبغفلة عن أعين الخليفة والولاة والقادة والأعيان وجمهور الناس! .

---

(١) رجال الكشي ، ص٧١؛ وانظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٢/ ١٠٦٧ ـ ١٠٦٨ .

(٢) عائشة والسياسة ، لسعيد الأفغاني ، ص٦٠؛ وانظر: عبد الله بن سبأ ، ص٨٠ ـ ٨١ .

●● **والذي نراه ونذهب إليه:**

١ ـ **أنه كان أحدَ رؤوس الفتنة وموقدي جذوتها والقيِّمين على التخطيط لها** وربط خيوطها ، ودفعها في الاتجاه الذي أعدت له وحيكت من أجله. **ويؤيد ذلك أن بذور الفتن واختلاق الأباطيل وحبك المؤامرات مع الحقد والحسد والنزوع إلى الشر؛ كان قبل ظهور ابن سبأ** ، الذي كان له دور خطير في إضافة فرى جديدة ، واختراع أضاليل خطيرة ، نبشها من دينه الذي نشأ عليه ، وأضافها إلى المنظومة التي نمَّقها المنحرفون قبله ومعه.

٢ ـ **كذلك فإن الرجال الذين برزت أسماؤهم في أوكار الفتنة في الكوفة والبصرة ومصر ، توجد فيهم شخصيات ماكرة حاقدة موتورة ، وتمتلك إمكانيات فذة في الكيد والتآمر والتأليب** ، والاستبسال للمضي في طريقها إلى نهايته ، ومن أبرزهم: الأشتر النَّخَعي الذي لا يقلُّ دوره وخطورته وشراسته ـ برأينا وحسب معطيات التاريخ ـ عن ابن سبأ! وكذلك محمد بن أبي حذيفة الذي بكَّر في الافتراء والتزوير والشغب ، وصَعْصَعَة بن صُوحان الذي تبرَّم به معاوية مع مكانته وعظيم حلمه ، وكِنانة بن بِشر والغافقي بن حرب وأضرابهم.

٣ ـ **وثمة عامل آخر هيأ لأولئك (المنحرفين الخارجين) أن يمضوا في خططهم حتى يصلوا إلى هدفهم ـ وهو: المثالية في العدل والإنصاف والرحمة والأخذ بظاهر حال المرء ، والتي كانت تسود المجتمع الإسلامي** ، متمثلاً برأس الدولة وهو الخليفة ، ثم أكابر رجالها كعلي وطلحة والزبير ، وأيضاً ولاة الأمصار الذين رأوا أفاعيل هؤلاء وجرائمهم وكيدهم وخبثهم ، فكانت المواجهة من الدولة بمختلِف

رموزها ومؤسساتها ملتزمة بالعدل والإنصاف واللين معهم ، وعدم أخذهم بالظِّنّة وبخفايا نياتهم وخُبث طويتهم ، وبقيت تلك المعاملة مستمرة حتى آخر مشاهد الجريمة المروِّعة التي ارتكبوها .

٤ ـ وأيضاً الحريات العامة التي كانت من أوليات مبادئ الإسلام وأركان بنية الدولة الإسلامية ، والأسس التي سار عليها الخلفاء الراشدون في سياسة الرعية ، والتزموها قولاً وعملاً . وحرية التنقل والاجتماع بين الأفراد والجماعات تحت عين الخليفة وولاته ، وعدم التضييق عليهم إلا في حالات قليلة ومساحات ضئيلة . وهذا ما سمح لأولئك بحرية الحركة والتنقل والاجتماع والتراسل ، دون بطش من السلطة أو سجن أو تنكيل .

٥ ـ ويضاف إلى جميع ما سبق أمرٌ في غاية الأهمية أَسْهَم في (نجاح المؤامرة)؛ هو المتغيرات والمستجدات التي طرأت على المجتمع الإسلامي وتركيبته الاجتماعية ـ والتي فصَّلنا القولَ فيها ـ فكانت (الحاضنة) لتلك الأجسام الممرضة ، وهيأت لها أسباب الحياة والتكاثر والانتشار والفتك ، الذي انتهى بقتل الخليفة ! .

هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تحقق مسعى أولئك المنحرفين الضالين ، وهو ما يمكن استنتاجه بيسر وسهولة من خلال استقراء روايات التاريخ وربطها ببعضها ، ومراقبة سيرورة الدولة وتاريخها ، **وليس سبب ذلك هو الهالة الفضفاضة التي يضيفها البعض على ابن سبأ وعمله الخارق ! .**

٤ ـ دور ابن سبأ وتنسيقه مع أوكار الفتنة في مصر والعراق:

●● روى سيف ، عن عطية بن الحارث الهَمْداني ، عن يزيد الفَقْعَسي

قال: (كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتَهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام فلم يَقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصرَ، فاغتمر فيهم[1]، فقال لهم فيما يقول:

لَعَجبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذِّب بأن محمداً يرجع، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، فمحمدٌ أحقُّ بالرجوع من عيسى. قال: فقُبِل ذلك عنه، ووضَعَ لهم الرَّجْعةَ، فتكلموا فيها. ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألفُ نبيّ، ولكل نبيٍّ وصيٌّ، وكان عليٌّ وصيَّ محمد. ثم قال: محمد خاتَمُ الأنبياء، وعلي خاتمُ الأوصياء. ثم قال بعد ذلك: مَن أظلمُ ممن لم يُجِزْ وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصيٍّ رسول الله ﷺ، وتناول أمرَ الأمة؟! ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حقٍّ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهِروا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر.

فبَثَّ دعاته، وكاتَبَ مَنْ كان استَفْسَدَ في الأمصار وكاتَبوه، ودَعَوْا في السر إلى ما عليه رأيُهم، وأظهَروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكُتُب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويُكاتِبهم إخوانُهم بمثل ذلك. ويَكتُب أهلُ كل مصر منهم إلى

---

(١) اغتمر في الشيء: اغتمس فيه.

مصرٍ آخر بما يصنعون؛ فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسَعوا الأرض إذاعةً ، وهم يريدون غير ما يُظهِرون ، ويُسِرُّون غير ما يبدون ، فيقول أهلُ كل مصرٍ : إنا لفي عافية مما ابتُلي به هؤلاء ، إلا أهلَ المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار ، فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس!)[(١)] .

من هذا النص تظهر الأسس الخطيرة التي انطلق فيها ابن سبأ: وأعظمها خطراً اتهامُ الصحابة بخيانة الأمانة ، وأنهم وثبوا على الخلافة وأخفوا وصية رسول الله ﷺ لعلي بها! والطعن على الخليفة الحالي وأنه غير شرعي وغاصب للإمامة العظمى ، ووَضَع لهم البديلَ الذي يوازيه في الفضل والمكانة عند الناس وهو علي. وأكَّد ذلك بالطعن على عثمان وسيرته في الولاة والمال ، مما يوهي مكانته ويسهل فكرة الخروج عليه. وضَمَّ إلى ذلك تشويهَ سير الولاة ، مما يُبرِّر مخالفتَهم والخروج عليهم أو طلبَ استبدالهم ، لتحقيق مزيد من الفوضى في البلاد. وغَلَّف ذلك كله بأنهم أصحاب حق ودعاة إصلاح ، وغايتهم وطريقتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا إمعان منهم في (التَّقِيَّة) و(النفاق) وإظهار خلاف ما يبطنون. ولكي يكون للدعوة أثر كبير وعميق تمَّ تعميمُ (الخطة) على الرجال الذين مالؤوهم على ذلك واستفسدوهم به ، فعَهِدوا إليهم أن يذيعوها من خلال أوكارهم في الكوفة والبصرة ، وتبادلِ الكتب في أخبار الولايات؛ لإحداث ضجة إعلامية يتناقلها الثرثارون وأصحاب الهوى والطَّغَام والمغرضون ، ثم نشرها في الأمصار المجاورة التي تمثِّل قلبَ الدولة ومراكز القرار والقوة فيها!.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٠ ـ ٣٤١؛ ابن عساكر «ترجمة ابن سبأ» ، ص٢ ـ ٣.

●● وبدأ ابن سبأ وأعوانه في مصر مثل سُودان بن حمران وكنانة بن بشر ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهم ، بتنفيذ تلك الخطة في بلدهم ، كما تشير إلى ذلك رواية سيف: (لما قدِم ابن السوداء مصرَ عَجَمَهم واستَخْلاهم واستَخْلَوه ، وعَرَض لهم بالكفر فأبعدوه ، وعَرَض لهم بالشِّقاق فأطمعوه ، فبدأ فطعن على عمرو بن العاص ، وقال: ما بالُه أكثركم عطاءً ورزقاً؟! ألا نَنْصِبُ رجلاً من قريش يسوِّي بيننا؟ فاستَحْلَوا ذلك منه وقالوا: كيف نطيق ذلك مع عمرٍو وهو رجلُ العرب؟! قال: تستعفون منه ، ثم نعمل عملنا!)[١].

فطَعَنُوا على الوالي الفاتح الكبير ، وطلبوا من أمير المؤمنين عزله ، فكَفْكَفَ عثمان من فتنتهم ، وجعل عَمْراً على الجهاد والصلاة ، وأسنَد خَراجَ مصر لابن أبي سَرْح. فلم يَهنأ لهؤلاء المفسدين عيشٌ ، حتى أفسدوا بين الرجلين وسَعَوا بينهما بالنميمة ، فعزل عثمان عَمْراً عن مصر ، وأَخْلَصها كلها لابن أبي سرح[٢]!.

●● وكانت أوكار الفتنة ورؤوس الشر في البصرة من أمثال حُكيم بن جَبَلة وغيلان بن خرشة وحُمران بن أبان ومن ضوى إليهم ، وكذلك أوكار الفتنة في الكوفة ومن أشهر رؤوسهم الأشتر النخعي وصعصعة بن صُوحان وابن الكواء وجندب بن زهير وأشباههم ـ كان هؤلاء وأولئك على تنسيق مع مركز الشر في مصر ، وكما تدل رواية

---

(١) ابن عساكر «ترجمة ابن سبأ» ، ص٤. **عَجَمَهم**: خَبَرَهم. **استخلاهم واستخلوه**: انفرد بهم وانفردوا به.

(٢) انظر ما تقدم: ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠ في هذا الكتاب.

سيف بن عمر: أن ابن سبأ أُخرج من البصرة ثم أُخرج من الكوفة (فاستقرَّ بمصر، وجعل يكاتبهم ويكاتبونه، ويختلف الرجال بينهم)[1].

فكانت جهود الفرقاء الثلاثة (في مصر والكوفة والبصرة) على تعاون وثيق وتنسيق وتبادل المعلومات والرسائل والخطط والتنفيذ فيما بينهم.

وقد كان (المُسَيَّرون) من الكوفة قد عادوا إليها، بعد أن خضعوا لعملية (تأديب) و(إصلاح) في الشام على يدي معاوية وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ثم عادوا إلى موطنهم الأصلِي، وقد أظهروا التوبة! (ولكن الفتنة كانت قد باضَتْ في أدمغتهم، وأفرخَتْ في قلوبهم، فلم تَصْدُق لهم توبة، ولم يَسْكُن لهم تدبير، ولكنهم استكانوا إلى حين، لمَّا وجدوا من عبد الرحمن بن خالد صرامة وبطشاً، وتربَّصوا لأنفسهم فرصة حتى إذا حانت لم يُفلِتوها، وعادوا إلى أخبث مما كانوا، وأتَوا إلى أميرهم سعيد بن العاص أشدَّ مما أتوا إلى الوليد بن عقبة، الذي افتروا عليه الكذبَ في حدٍّ من حدود الله تعالى!)[2].

سابعاً: اتفاقُ رؤوس السبئيين والمنحرفين على المسير إلى الخليفة لمناظرته (بأخطائه المزعومة) وفشلُهم في ذلك (يوم الجَرَعة):

●● قال الطبري في أحداث سنة (٣٤هـ): وفي هذه السنة تكاتب المنحرفون عن عثمان بن عفان للاجتماع، لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم نَقَموا عليه[3].

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٧. وقد تقدم: ص ٥٨٥ في هذا الكتاب.
(٢) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١١٤.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٠.

ولم يتهيأ ذلك إلا لأهل الكوفة ، فمصرُ يسيطر عليها الوالي عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، مع ما تمور به من فتن ابن سبأ وابن أبي حذيفة وأضرابهما ، والبصرة فيها عبد الله بن عامر ، وقد شغلهم بالجهاد والفتوحات.

أما الكوفة فقد نجح المنحرفون في مسعاهم الخبيث ، لأن الوالي سعيد بن العاص كان قد ذهب إلى المدينة ليوقِف أميرَ المؤمنين على أحوال الكوفة ، ويتبادلا الرأي مع كبار الصحابة في علاج (المنحرفين المفسدين) ، فاستغل هؤلاء خلوَّ منصب الولاية فقاموا (بانقلاب) عليه!.

وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد قد سيَّر (الأشترَ النخعي) إلى عثمان ، فأعلن توبته وتوبة مَن وراءه بين يدي الخليفة ، فأباح له عثمان أن يذهب حيث شاء ، فاختار جوار عبد الرحمن بن خالد في جزيرة ابن عمر[1].

وقبل خروج سعيد بن العاص من (الكوفة) عيَّن جماعة من أهل الفضل والخبرة والكفاءة والطاعة على الولايات التابعة للكوفة مثل أَذْرَبِيجان والرَّي وهَمَذان والمَوْصل وغيرها ، وجعل نائبه على الكوفة (عَمْرو بن حُريث) وعلى الجهاد والفتوح (القعقاع بن عمرو الصحابيَّيْن.

●● يروي الطبري من طريق سيف: (وخَلَت الكوفة من الرؤساء إلا

---

(١) انظر ما تقدم: ص ٥٨٠ ـ ٥٨١ حاشية (١) في هذا الكتاب. **وجزيرة ابن عمر**: بلدة فوق الموصل ، يحيط بها نهر دجلة إلا من جهة واحدة.

منزوعاً أو مفتوناً ، فخرج يزيد بن قيس الأَرْحَبي وهو يريد خَلْعَ عثمان ، فدخل المسجد فجلس فيه ، وثابَ إليه الذين كان فيهم ابن السوداء يكاتبهم ، فانقضَّ عليه القعقاع ، فأخذ يزيد بن قيس ، فقال: إنما نستعفي من سعيد! قال: هذا ما لا يُعرَض لكم فيه ، لا تجلسْ لهذا ولا يَجتمعُنَّ إليك ، واطلب حاجتك ، فلعمري لَـتُعطَينَّها! فرجع إلى بيته واستأجر رجلاً ، وأعطاه دراهم وبغلاً على أن يأتي المسيَّرين ، وكتب إليهم: لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا ، فإن أهل المصرِ قد جامعونا!)[1].

وكان الأشترِ النخعي قد وصل (جزيرة ابن عمر) ، وقدِمَ رسولُ يزيد بن قيس الأَرْحَبِي على (المُسَيَّرين) المقيمين فيها ، وأخبرهم الخبر ، فوبَّخوه وخالَفوه ، إلا الأشتر فنَشِطَ للأمر ، ونقض توبته ، وخرج إلى الكوفة عاصياً! وخشي بقيةُ (المسيَّرين) أن يعلم عبد الرحمن بن خالد بأمرهم ، فلحِقوا بالأشتر ، وسَبَقهم هو في الوصول إلى الكوفة!.

(ولم يفجأ الناس في يوم الجمعة إلا والأشتر على باب المسجد يقول: أيها الناس ، إني قد جئتكم من عند أميرالمؤمنين عثمان ، وتركتُ سعيداً يُريده على نقصان نسائكم إلى مئة درهم ، وردِّ أهل البلاء منكم إلى ألفين ، ويقول: ما بالُ أشراف النساء وهذه العِلاوة بين هذين العِدْلين! ويزعمُ أن فيئَكم بستانُ قريش ، وقد سايرتُه مرحلة فما زال يَـزْجُر بذلك حتى فارقتُه ، يقول:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣١؛ وانظر ، ص٣٤٥ ـ ٣٤٦.

ويــلٌ لأشــرافِ النســاءِ منِّــي   صَمَحْمَحٌ[1] كـأنَّني مـن جِـنِّ)

وهذا من الأشتر جزء من افتراءاته الكثيرة ، وولوغه في الفتنة وتحريكها والمسارعة فيها! .

فاستَخفَّ الناسَ فخرجوا معه ، وبقي في الكوفة حُلماء الناس وأشرافهم ووجوههم وأهل الحِجى فيهم. وخرج يزيد بن قيس الأَرْحَبي ، ومعه الأشتر ومن شايعهم ، فنزلوا (الجَرَعَة)[2] ، وتلقوا (سعيدَ بن العاص) هناك ، ومَنَعوه من دخول الكوفة ، وقام الأشتر إلى مولى لسعيد فضَرب عنقه.

ورجع سعيد إلى المدينة ، وأخبر عثمان بالأمر ، وقال: إنهم يريدون أبا موسى الأشعري. فكتب الخليفة بتولية أبي موسى ، الذي قام بدوره فخطبهم ، فقالوا له: صَلِّ لنا ، قال: لا ، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان! قالوا: على السمع والطاعة لعثمان.

وبذلك فشل موعِدُ (الأحزاب) سنة (٣٤هـ) ، واقتصرت الفتنة على ما حدث من أهل الكوفة في (الجَرَعة) ، فسُمِّي ذلك اليوم (يوم الجَرَعة)[3].

وقد ثبت في حديث صحيح عن حذيفة: أن النبي ﷺ حدثه أنه لن يكون في ذلك اليوم وذاك المكان قتال ، ولا يهراق فيه دماء[4].

---

(١) **الصمحمح من الرجال**: الشديد المجتمع.

(٢) مكان مشرف قرب القادسية.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣١ ـ ٣٣٢؛ كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٤) صحيح مسلم ، حديث (٢٨٩٣)؛ ومسند أحمد: ٥/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ، ٣٩٩.

وهذا من المواضع التي تؤيد فيها الأحاديثُ الصحيحة رواياتِ سيف بن عمر ، ورواياتُ سيف تملأ الفراغات الكبيرة في أحداث التاريخ.

وقد افترى المسعودي رواية زعم فيها أن طلحة والزبير في المدينة تآمرا مع الأشتر على مَنْع سعيد بن العاص من دخول الكوفة ، وأعطياه مئة ألف درهم للقيام بذلك ، فأخذها وقسمها بين أصحابه[1]! .

●● وهكذا نرى أن (المُسَيَّرين) لا زالوا على لَدَدِهم وانحرافهم وسوء نياتهم وإرادتهم الفتنة والشر ، وأنهم لا يريدون بعملهم وجهَ الله ولا إقامةَ الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يدَّعون! .

وأن الأشتر قد افترى فِرًى كثيرة ، وكَذَب على الخليفة وعلى والي الكوفة وعلى أهلها ، وشهد شهادة زور ، وتاريخُه شاهد عليه بتوالي مسلسل الغدر ، ونكث العهد ، ونقض التوبة ، والتحريض والتحريش بين المسلمين ، سعياً وراء مآرب شخصية ، وقد بقي على ذلك حتى عهد الخليفة الراشد الرابع علي ، وكانت نهايته كما تقدم! .

ويزيد الأَرْحَبي والمفتونون الذين أيدوه كان هدفهم الأول هو خَلْع الخليفة عثمان ، لكنه لما رأى قبضة القعقاع تسدّ أنفاسَه خَنَس ، ووجَّه سهامه إلى من دون الخليفة فطالَبَ باستبدال الوالي (سعيد بن العاص) بآخر غيره ، وأدرك الوالي الجليل حجمَ الفتنة فآثر وجه الله وأطفأها بعودته إلى أمير المؤمنين ليولي على الكوفة غيره.

●● تلكم حال الأمصار الثلاثة الكبرى (مصر والكوفة والبصرة)

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

وما يَمُور فيها من فتن تحت السطح ، وما يسعى فيه رؤوس الانحراف والضلال وأوكار الشر من إذاعتها في الأمصار الأخرى. . . فأين دور الدولة بمؤسساتها ، وما التدابير التي اتخذها الخليفة لعلاج تلك الأدواء ، وأين هو مجلس الشورى ومواقف كبار الصحابة ودور ولاة الأمصار؟ .

ثامناً: هدي عثمان والطرائق والأساليب التي عالج بها الأحداث والساعين فيها والتيارات التي تضطرم في الدولة:

في النظرة الإجمالية لسياسة أمير المؤمنين عثمان وهديه في مدة خلافته كلها نرى أنه كان يَطِبُّ للناس ، ويأسُو خطاياهم ، ويرحم رَعاعَهم ، ويعذر طائشهم ، ويعفو عن متنطِّعهم ، ويؤدِّب غادرهم ، ويتابع فتَّانهم؛ فهو الخليفة والوالي والأب والأخ والمعين والمعيل والمتسامح الكريم ، وهو كذلك القائم على حدود الله الحافظ للحقوق ، الملتزم بمبادئ الإسلام وهديه وتوجيهاته ، والمنافح عن دولته وأمته ورسالته.

١ ـ كان أمير المؤمنين عثمان يعالج كل مشكلة أو انحراف أو تجاوز أو خروج على سلطان الوالي أو الخليفة أو إثارة فتنة وفُرقة. . . في وقته وحينه وبالطريقة التي تناسبه؛ من تأديب أو تعزير أو حدٍّ أو نفيٍ أو تغيير والٍ أو ردّ هبة ومال ، وغير ذلك مما قدمناه في سياسته مع الولاة والرعية. ولا يترك الأمر يتفاقم والفتنة تربو والرعية تتذمر ، ولا يَدَع لأهل الانحراف والشغب حجة أو ذريعة. ويسلك في أغلب ذلك سبيلَ اللين والرأفة والرحمة والمسامحة وتحقيق المطالب المرجوة ، ما دام ذلك ممكناً وليس فيه تجاوز حق أو تعطيل حد. وربما كتب في ذلك

الكتب فتُقرأ على العامة حتى يقيم الحجة ويقطع الألسنة ، ومن ذلك موقفه عندما خرج أهل الكوفة على سعيد بن العاص يوم الجَرَعة ، فكتب عثمان إليهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد أمَّرتُ عليكم مَن اخترتم ، وأعفيتُكم من سعيد ، والله لأفرشنّكم عِرْضي ، ولأَبذُلنَّ لكم صبري ، ولأستصلحنَّكم بجهدي ، فلا تَدَعُوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه؛ أنزل فيه عند ما أحببتم ، حتى لا يكون لكم علَيَّ حجَّة)[1] .

٢ ـ كذلك فإن الخليفة كان مستشعراً للفتنة ومدركاً لأسبابها ، ومتابعاً لمؤججيها ومساعيرها في الأمصار ، ومحيطاً بأخبارهم وأعمالهم؛ من خلال تراسله مع الولاة وأوامره لهم بمعالجتها بالحكمة واللين ، والترغيب والترهيب والتأديب. وقد رأينا مواقفه وتأديبه لأبي خُشَّة وجَثّامة وجُندب في افترائهم على الوليد بن عقبة[2] . وكتابه إلى معاوية بشأن أبي ذر حيث يقول: (إن الفتنة قد أخرجَتْ خَطْمها وعينَيْها ، فلم يبقَ إلا أن تثِب ، فلا تَنْكأ القَرْح ، وجهِّزْ أبا ذر إليَّ ، وابعث معه دليلاً وزوِّدْه ، وارفق به ، وكَفْكِف الناس ونفسَك ما استطعتَ)[3] .

وكذلك قصة (المُسيَّرين) ومتابعته لهم من الكوفة إلى الشام إلى حمص. ومثل ذلك ما حدث في مجلس سعيد بن العاص بالكوفة ، حيث

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٦.

(٢) تقدم: ص ٥٧١ ـ ٥٧٣ في هذا الكتاب.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤. خَطْمها: أنفها.

جمع عثمان الصحابة واستشارهم في الأمر وأنفذ أوامره ، وخطب الناس فقال: (يا أهل المدينة استعدُّوا واستمسكوا؛ فقد دَبَّتِ إليكم الفتن)[1] .

وأيضاً فتنة يزيد بن قيس الأَرْحبي و(يوم الجَرَعة) ، وقد عالجها بعزل والٍ وتعيين آخر. ومن هذا الباب سياسته مع الولاة في المتابعة والمحاسبة والعزل وقطع دابر الفتن. وقد مرت أمثلة كثيرة على هذا وذاك.

٣ـ وعندما أدرك عثمان تناميَ الفتن وتعدُّدَ مصادرها ، وشيوعَ الافتراءات والإشاعات والأكاذيب ، وقَبض على بعض رؤوس مفتعليها ومروِّجيها كما في قصة (المُسيَّرين) ـ مثلاً ـ ، وبعد أن وقف على تردُّدِ (الكتب المزوَّرة) بين الناس في عدد من الأمصار كما أوضحنا ، وأخبره مستشاروه من جِلّة الصحابة والقيِّمون على أمر الناس ـ أرسل المفتشين إلى تلك الأمصار للوقوف على حقيقة الأخبار ، مثلما كان يفعل الفاروق عمر.

جاء في الخبر الذي ساقه (سيف بن عمر) وقدمنا شطراً منه[2]؛ أن السَّبئيِّين في مصر وأعوانهم ومَن على مثل رأيهم في الضلال والفساد والإفساد من أوكار الفتنة في البصرة والكوفة:

(جعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويُكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهلُ كل مصرٍ منهم إلى مصرٍ آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٠.

(٢) انظر: ص ٥٩٤ ـ ٥٩٦ في هذا الكتاب.

تناولوا بذلك المدينة ، وأوسَعُوا الأرض إذاعةً ، وهم يريدون غير ما يُظهِرون ، ويُسِرُّون غيرَ ما يُبدون. فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتُلي به هؤلاء ، إلا أهلَ المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار ، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس!.

واجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا عثمانَ وقالوا: يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟ قال: لا والله ، ما جاءني إلا السلامة ، قالوا: فإنا قد أتانا ، وأخبروه بالذي أسقطوا إليهم ، قال: فأنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا عليَّ. قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار ، حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.

فدعا محمد بن مَسْلَمة فأرسله إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل عبد الله بن عُمر إلى الشام ، وفرَّق رجالاً سواهم. فرجعوا جميعاً قبل عمار ، فقالوا: أيها الناس ، والله ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعلامُ المسلمين وعوامُّهم ، وقالوا جميعاً: الأمر أمر المسلمين ، إلا أن أمراءهم يُقْسِطون بينهم ، ويقومون عليهم. واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا أنه قد اغتيل ، فلم يَفجأهم إلا كتابٌ من عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح يُخبِرهم أن عماراً قد استماله قوم بمصر ، وقد انقطعوا إليه؛ منهم: عبد الله بن السوداء ، وخالد بن مُلْجَم ، وسُودان بن حُمْران ، وكِنانة بن بِشْر)[1].

وهذه اللجنة التفتيشية التي أمر بها عثمان ، وقام بها ثُلَّة من أكابر الصحابة؛ أكدت السلامة على الوجه العام في تلك الأمصار التي يَمْخَض

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤١؛ تاريخ ابن عساكر «ترجمة ابن سبأ» ، ص٢ ـ ٣.

فيها أصحابُ الشر بالفتنة ، وأن تلك المزاعم لا حقيقة لها إلا بترويج مفتريها ، وتحت ستار من الظلمة والتآمر والتَّقِيّة والباطنية والكيد والدس وترويج الأباطيل ، وواقعُ حال الأمة الاستقامة والرضا ومسيرةُ الولاة بالقِسْط والرحمة ورغد العيش وانتشار الإسلام الذي بقيت فتوحاته حتى سنة (٣٤هـ) في مختلِف الجبهات كما تقدم بيانه .

٤ ـ لم يكتفِ أمير المؤمنين بما تقدم، بل وجَّه كتاباً عامّاً إلى الأمصار ؛ دعا فيه العامة والخاصة ليشاركوا في محاربة الانحرافات ومقاومة الشائعات وعدم الركون إليها ، والإعلان على الملأ ـ في أطهر البلاد وأوسع تجمُّع ـ لأيِّ شكوى من أمير أو غيره ، حتى لا يكون للمغرضين والحانقين والموتورين والكَذَبة أية حجة في تضخيم بعض الأحداث أو التلاعب بها وادِّعاء وجود مظالم مسكوت عليها أو لا تَبلغ الخليفة .

كتب عثمان إلى الأمصار : (أما بعدُ ، فإني آخُذ العمالَ بموافاتي في كل موسم ، وقد سلَّطتُ الأمةَ منذ وَليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يُرفَع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيتُه ، وليس لي ولا لعمَّالي حق قِبل الرعية إلا متروكٌ لهم! وقد رفع إلَيَّ أهلُ المدينة أن أقواماً يُشتمون، وآخرين يُضْربون ، فيا مَنْ ضُرِب سِرّاً ، وشُتِم سرّاً، من ادَّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم فليأخذْ بحقِّه حيث كان ، منِّي أو من عمالي، أو تصدَّقوا فإن الله يجزي المتصدقين . فلما قُرِئ في الأمصار أبكى الناسَ، ودعَوا لعثمان، وقالوا: إن الأمة لَتَمخَّض بِشرٍّ!)[1] .

وهذا الموقف الجليل من عثمان هو غاية ما يتطلع إليه إنسان من

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٢؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٨٦ .

العدل والإنصاف على مشهد من عامة الأمة ، وقصَدَ منه أمير المؤمنين ما هو أبعد من إحقاق الحق وردّ المظالم؛ ففيه فضحٌ لجميع الأكاذيب والافتراءات التي روَّجها المنحرفون في الطعن على الولاة والخليفة ، فإن كانوا صادقين وأصحاب حق فليأتوا مع الناس ولْيُعلنوا على الأشهاد مظالمهم أو مزاعمَهم بين يدي عثمان وولاة الأمصار! .

٥ ـ وأضاف أمير المؤمنين بُعداً آخر في العلاج وتدبير الأمور ومحاصرة الانحرافات والفتن والمؤامرات وكشف أقنعة مَنْ وراءها؛ فأمر الولاة بحضور (الجلسات العامة واللقاءات المفتوحة) ، ثم بعد ذلك سؤالهم عن واقع حال ولاياتهم ، ومن بعدها استشارتهم في معالجة ما يدور بين (جماعات) من المغرضين والمفترين للقبض على الأيدي الخفية التي تحركهم.

جاء في تتمة الخبر السابق: (وبعث إلى عمَّال الأمصار فقدِموا عليه: عبد الله بن عامر ، ومعاوية ، وعبد الله بن سعد ، وأدخل معهم سعيداً وعَمْراً ، فقال: وَيْحكم! ما هذه الشكاية ؟! وما هذه الإذاعة؟! إني والله لخائفٌ أن تكونوا مَصْدوقاً عليكم ، وما يُعْصَبُ هذا إلا بي! فقالوا له: ألم تبعث؟! ألم نرجعْ إليك الخبر عن القوم؟! ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء؟! لا والله ما صَدَقوا ولا بَرّوا[1] ، ولا نعلمُ لهذا الأمر أصلاً. وما كنتَ لتأخذ به أحداً فيُقيمك على شيء ، وما هي إلا إذاعة لا يَحلُّ الأخذ بها ، ولا الانتهاءُ إليها.

قال: فأشيروا علَيَّ ، فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوعٌ يُصْنَع

(١) أي: المنحرفون مختلِقو الأكاذيب ومروِّجوها.

في السرِّ ، فيُلْقَى به غيرُ ذي المعرفة فيُخبَر به ، فيَتحدَّث به الناس في مجالسهم. قال: فما دواء ذلك؟ قال: طلبُ هؤلاء القوم ، ثم قتلُ هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم!.

وقال عبد الله بن سعد: خُذْ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتَهم الذي لهم ، فإنه خير من أن تدَعَهم. وقال معاوية: قد ولّيتَني فوليتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير ، والرجلان أعلَمُ بناحيتَيْهما ، قال: فما الرأي؟ قال: حسنُ الأدب. قال: فما ترى يا عمرو؟ قال: أرى أنك قد لِنْتَ لهم وتراخيتَ عنهم ، وزِدْتَهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبَيْك ، فتَشتدَّ في موضع الشدة ، وتلينَ في موضع اللِّين ، إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شرّاً ، واللين لمن يَخلُف الناس بالنصح ، وقد فرشتَهما جميعاً اللين.

وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه ، وقال: كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعتُ ، ولكل أمر باب يؤتى منه؛ إن هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يُغلَق عليه فيُكفكَف به: اللين والمؤاتاة والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى ذِكْره التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدها ، فإن سدَّه شيء فرفْقٌ ، فذاك والله ليُفتَحنَّ وليست لأحد عليَّ حجّةُ حقٍّ ، وقد علمَ الله أني لم آلُ الناس خيراً ولا نفسي. ووالله إن رحى الفتنة لدائرة ، فطُوبَى لعثمان إنْ مات ولم يحرِّكْها. كَفْكِفوا الناسَ ، وهَبُوا لهم حقوقهم ، واغتفِروا لهم ، وإذا تُعوطِيت حقوقُ الله فلا تُدْهِنوا فيها)[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٤٢ ـ ٣٤٣؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/١٨٦ ـ ١٨٧.
يُعْصَب: يُناط ، ويُقْرَن.

●● ويُلاحظ من هذا النقاش وتداول الآراء بين الخليفة وولاته ومستشاريه أنهم كانوا خبراء بما يدور في ولاياتهم ، ويعرفون مصدر الشرور ومساعيرها، وأنهم كانوا ناصحين للأمة وجادِّين في الضرب على يد كل من يسعى في اضطراب أمر المسلمين ، وتكاد آراؤهم تلتقي على حل واحد هو الشدة مع (السبئيين وأوكار الفتنة) ومروِّجي الأكاذيب ، وأنهم مصدر الخطر الذي يستفحل ضرره مع تمادي الزمان! .

أما الخليفة فهو يدرك ذلك تماماً ، بَيْدَ أن له رأياً آخر؛ فهو يعلم أن الفتنة قادمة لا ريب ، وقد حَفِظ ذلك عن النبي ﷺ وهو يحدث عن الفتنة ويشير إلى عثمان بأنه ومن اتبعه على الحق والهدى ، فكان رأيه هو كفكفة جماحها ، وتأديب السُّعاة فيها ، والتخفيف من شِرَّتها ، واتباع الرأفة والرحمة والمسامحة ما لم تُرتكب الحدود أو تُنتهك الحقوق؛ لأنه يعلم أن السيف إذا سُلَّ من غِمْده لن يعود إلا محمرّاً بالدماء ، وشعارُه في ذلك: (طوبى لعثمان إن مات ولم يحركها)! وبقي على هذا في كل المراحل التالية حتى عندما حُوصر واستُهدِفت نفسه ، أمر أن لا تُسَلَّ السيوف ولا تُراق مِحْجَمة من دم! .

وتلك لعمرُ الحق سياسة لا يَـقدر عليها إلا أناس قد وهبهم الله تعالى لهذه الأمة ليسوسوها بالعدل والإنصاف والرحمة والحفاظ على الأنفس والأرواح بل على أي قطرة من دم! وهو مسلكٌ قد يَعيبه عليه بعضُ مَن لا يعلمون فيتهمونه بالضعف واللين ، كما قد يُخالِفه فيه مَنْ لا يرون سبيلًا إلا المَشْرَفيَّة تأخذ رؤوس المنحرفين والفتانين والمفتونين! .

أما عثمان فكان يخشى إن اخترِطت السيوف أن تأخذ بأنفس أناس لا ذَنْب لهم لأنهم من الرَّعَاع والأعراب والمغفَّلين والمغرَّر بهم ممن خَفَّت

أحلامُهم وصدَّقوا الشائعات واتبعوا أصحاب الهوى والحقد ، ولربما نجا من حَرِّ السيف الذين يستحقونه حقيقة من رؤوس الفتن والضلال.

ولقد نظر عثمان فيما وراء تلك الفتن والإشاعات والأباطيل والشغب على الولاة ، ورأى أن مسعِّريها يرومون إشهارَ السيف لتتسع دائرة الفتنة ويتفاقم الخلاف ويحدث الانشقاق والتحزُّب في الأمة ، وإذا نطق السيف سكت اللسان وحار العقل وعَزَّ العلاج على الأُساة! والمتأمل فيما حدث في عهد الخليفة الراشد الرابع عليٍّ يرى صوابَ نظرة عثمان؛ فعندما سُلَّ السيف واحترب الفريقان المختلفان ، سالت دماء غزيرة منها أنفس كثيرة بريئة ، وبقي عدد من رموز الفتنة أحياء بل تولوا بعض الولايات[1]!.

هكذا كان عثمان في منهجه لمعالجة الأحداث العاصفة ، لا طيش ولا ضعف ، ولا عسف ولا مداهنة ، وتلك هي سياسته التي سار عليها وحمل ولاته على ملازمتها.

* * *

أما رؤوس الضلال وأصحاب الهوى والحاقدون من السبئيين وأحلافهم ، وقد سعوا للخروج على الولاة في سنة (٣٤هـ) ، ففشلوا إلا ما كان (يوم الجَرَعة) في الكوفة؛ فإنهم لم يُلقوا السلاح ، بل تكاتبوا جميعاً واتفقوا على الخروج إلى المدينة لمناقشة عثمان في أمور نقموها عليه وزعموا أنه خالف فيها هدي النبي ﷺ والشيخين ، فكيف كانت مجريات الأحداث؟ لنتابع ذلك في الفصل التالي.

* * *

---

(١) انظر: منهاج السنة: ٣/ ٦٣١ ـ ٦٣٢ ، ٦٨٨.

الفصل السادس

أمير المؤمنين عثمان مع دعاة الفتنة وجهاً لوجه في المدينة

أولاً: اتفاق رؤوس الفتنة على الخروج إلى المدينة وأهدافهم المعلنة والخفية:

●● لما فشلت محاولة خروج المنحرفين إلى المدينة سنة (٣٤هـ) ، واقتصر نجاحهم على ما كان (يوم الجَرَعة) ، وبعد الاجتماع العام الذي عقده أمير المؤمنين وولاته والعامة ، وعاد الولاة والناس إلى أمصارهم ـ أُسْقِط في أيدي رؤوس الفتنة من سبئيين وأحلافهم وأتباعهم ، لكنهم لم يستسلموا ، بل لجؤوا إلى طريقة أخرى وسلكوا نفس المنهج في التقيَّة والباطنية والنفاق بإظهار شعارات الإصلاح ومناقشة الخليفة في أمور شاعت بين الناس ، وإبطان خلاف ذلك ممثلاً بخلع عثمان وقتله! واتفقوا على الخروج في موسم الحج ، وتمَّ لهم ذلك في شوال من سنة (٣٥هـ) .

جاء في خبر سيف ـ الذي ذكرنا قسماً كبيراً منه ـ: (ولما رجع الأمراء لم يكن للسَّبئيَّة سبيلٌ إلى الخروج إلى الأمصار ، وكاتبوا أشياعَهم من أهل الأمصار أن يتوافَوْا بالمدينة لينظروا فيما يريدون ، وأظهَروا أنهم

يأمرون بالمعروف ، ويسألون عثمانَ عن أشياء لتطيرَ في الناس ، ولتُحقَّق عليه ، فتوافوا بالمدينة)[1].

●● وخرجوا مع الحُجَّاج كالحجَّاج ، وتكاتبوا فقالوا: موعدُكم ضواحي المدينة في شوال ، حتى إذا دخل شوال من سنة اثنتي عشرة[2] ؛ ضَربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة[3].

(ولما كان في شوال سنة (٣٥هـ) ، خرج أهل مصر[4] في أربع رِفاق على أربعة أمراء ، المقلِّل يقول: ست مئة ، والمكثِّر يقول: ألف ، وعلى الرفاق: عبد الرحمن بن عُديس البلَوي ، وكنانة بن بشر التُّجِيبي ، وعروة بن شُييم الليثي، وأبو عَمْرو بن بُديل بن ورقاء الخُزاعي ، وسواد بن رومان الأصبحي ، وزَرْع بن يشكر اليافعي ، وسُودان بن حُمْران السَّكُوني ، وقُتيرة بن فلان السَّكُوني ، وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العَكّي ، ولم يجترئوا أن يُعْلموا الناس بخروجهم إلى الحرب ، وإنما أخرجوا كالحُجّاج ، ومعهم ابن السوداء. وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق ، وعلى الرفاق: زيد بن صُوحان العبدي ، والأشتر

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٤٦.

(٢) أي: من خلافة عثمان ، وهي سنة (٣٥هـ).

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٣٤٨.

(٤) استغل محمد بن أبي حذيفة غياب والي مصر ابن أبي سرح في المدينة عند عثمان ، ونزا على ولاية مصر ، ولما رجع ابن أبي سرح منعه من دخولها ، فتوجه إلى فلسطين ، واستولى ابن أبي حذيفة على أمور مصر ، وأسهم في خروج الجيش المصري الذي شارك في قتل عثمان! انظر: ولاة مصر ، ص٣٩ ـ ٤١ ؛ تاريخ الطبري: ٤/٣٧٨.

النخعي ، وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصمّ ، وعددهم كعدد أهل مصر ، وعليهم جميعاً عَمْرو بن الأصم. وخرج أهل البصرة في أربع رفاق ، وعلى الرفاق: حُكَيم بن جَبَلة العبدي ، وذَريح بن عباد العبدي ، وبشر بن شُريح القيسي ، وابن المحرِّش بن عبد عَمْرو الحنفي ، وعددهم كعدد أهل مصر ، وأميرهم جميعاً حُرقوص بن زهير السعدي. سوى من تلاحق بهم من الناس)[1].

●● وكان المنحرفون من أهل الأمصار الثلاثة وكذلك قادتهم متفقين على هدف واحد هو إدانة عثمان على الملأ باتهامات لفَّقوها وضخموها وأذاعوها في الناس ، ومن ثَم خَلْعُه وقتْلُه! قالوا: (نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنَّا قرَّرناه بها ، فلم يخرج منها ولم يَتُبْ ، ثم نخرج كأنَّا حُجَّاج حتى نقدَم فنُحيط به فنخلعَه ، فإن أبى قتلناه. وكانت إياها!)[2].

لكن الرؤوس المدبرة مختلفون عن قصدٍ وخبث في البديل عنه؛ (فأما أهلُ مصر فإنهم يشتهون عليّاً ، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة ، وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير)[3].

كذلك رتبوا خروجهم وأحكَموا خطتهم ، واتفقوا على وقت المسير وكيفيته والمنازل التي ينزلونها في المدينة ، ثم دراسة وضْع الناس في عاصمة الخلافة وأخبارهم وولائهم لعثمان ، وبعد ذلك عرض مطالبهم على أعيان الصحابة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٢) المرجع السابق: ٤/٣٤٦.
(٣) المرجع السابق: ٤/٣٤٩.

(فخرجوا وهم على الخروج جميع وفي الناس شتى ، لا تشكُّ كلُّ فِرقةٍ أن الفُلْج معها ، وأن أمرها سيتِمُّ دون الأُخريين! فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث ، تقدم ناسٌ من أهل البصرة فنزلوا ذا خُشُب ، وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأَعْوَص ، وجاءهم ناس من أهل مصر ، وتركوا عامَّتَهم بذي المَرْوَة.

ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النَّضْر وعبد الله بن الأصمّ وقالا: لا تَعجلوا ولا تُعجِلونا حتى ندخلَ لكم المدينة ونرتاد ، فإنه بَلَغَنا أنهم قد عسكروا لنا ، فوالله إنْ كان أهل المدينة قد خافونا واستحلُّوا قتالَنا ووجدنا الذي بَلَغَنا باطلاً ، لنرجعنَّ إليكم بالخبر!.

قالوا: اذهبا ، فدخل الرجلان فلقيا أزواجَ النبي ﷺ وعليّاً وطلحة والزبير ، وقالا: إنما نأتمُّ هذا البيت ، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمّالنا ، ما جئنا إلا لذلك ، واستأذناهم للناس بالدخول ، فكلُّهم أبى ونَهى وقال: بَـيْضٌ ما يُـفْرِخَنّ!)[(١)].

● **وقفات كاشفة:**

نلحظ من هذه النصوص أموراً يجب التوقفُ عندها لتوضيحِ سيرورة الأحداث التي مشى فيها أولئك (السبئيون الخوارج) ، وهتكِ الأستار التي تلفَّعوا بها ، فخدعوا الأغرار والأغمار من أتباعهم ، كما حيَّروا ضعاف البصر والبصيرة من الكتاب المعاصرين الذين أرَّخوا لتلك الفترة

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٤٩ ـ ٣٥٠؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/١٩٣ ـ ١٩٤.
الفُلْج: الفوز والظفر. بَيْضٌ ما يُفْرِخَنّ: أي إن تقتلوا عثمانَ تُهيِّجوا فتنةً يتولَّد منها شرٌّ كثير.

الخطيرة من تاريخنا ، فَخَبَطوا فيها وضلوا وأضلوا عن علم وقصد أو عن سوء فهم وضعف في البحث والدرس :

١ ـ هذا الخروج كان له هدف محدد واضح أعدَّه رؤوس أولئك الفجرة واتفقوا عليه ، وهو ضربُ الخلافة ، ولم يُعْلِموا بذلك عامة أتباعهم من الأغرار والأغمار والرَّعَاع ، بل موَّهوا عليهم وزرعوا في قلوبهم أن عثمان فعل المنكرات وخالَفَ هديَ النبي ﷺ وصاحبيه ، فحقَّ الخروج عليه .

٢ ـ كان خروجهم منظماً ومُعَدّاً إعداداً محكَماً من حيث: وقتُ الخروج وكيفيته ، وأماكنُ النزول قرب المدينة ، وأعدادُ الفِرق التي تخرج من كل مصر ، واستبطانُ أحوال المدينة وأهلها ، والتزاور بين الجيوش الثلاثة لمتابعة الأخبار والتنسيق المستمر لكل خطوة قادمة .

٣ ـ اختيار الزمان والمكان مكَّنَ قادة (المنحرفين الخوارج) من تحقيق أهدافهم بشكل كبير ، فهم عندما أظهروا أن قَصْدَهم الحج والذهاب للمدينة ، أخفَوْا أغراضهم عن عامة المسلمين ، وعَمَّوا حقيقة هدفهم على أتباعهم فلا يرتابوا بأمرهم ، ودفعوا شكَّ الصحابةِ بهم ، ومكَّنَهم من الوصول إلى المدينة وفيها قليل من المسلمين ، حيث معظمهم بمكة .

٤ ـ التَّـقِيَّة والباطنية والنفاق الواضح من قِبل زعماء المنحرفين متمثلاً في شعارات عدة: يُظهِرون غير ما يُـبْطِنون ، يخرجون في وقت الحج ولا يقصدون الحج ، هم في الناس شتى ولكنهم في هدفهم مجتمعون ، يذهبون إلى الخليفة فيناقشونه بأشياء زرعوها في قلوب أتباعهم ثم يعودون إليهم زاعمين أنه أقرَّ لهم بها فلم يَخرج منها ولم يَـتُبْ؛

ليَحْمِلُوهم على السير معهم لخلْعِه وقتْلِه.

٥ ـ كان رؤوسهم متفقين على خلع عثمان وقتله ولكنهم مختلفون في البديل هل هو: علي أم طلحة أم الزبير؟ وهذا فيما نرى كان عن قصد وتبييت وخُبث، وذلك حتى لا تتفق أطرافهم الثلاثة، وفي هذا إمعان في المكر والفتنة وإثارة الهَرْج والمَرَج بين الصحابة وأهل الرأي، وشَقِّ الصفوف، وإدخالِ الدولة في أَتُون الفوضى التي تعصف بوحدة المسلمين، وهو مكر يهودي خبيث!.

٦ ـ الذي يؤكِّد فجورَ هؤلاء وغدْرَهم وكذِبَهم وبطلانَ دعاواهم وسوءَ نياتهم؛ تصريحُهم بأهدافهم، وباطنيّتُهم في كل أقوالهم وأفعالهم، وأن أحداً منهم ليس له حق مَطْلول أو مَظْلِمة مُهْدَرة عند والٍ فضلاً عن أمير المؤمنين. وليس في زعمائهم واحدٌ له تاريخ مجيد أو أعمال فاضلة أو سابقة إلى مكرمة وخير وفضل، كما توضَّح ذلك فيما سبق وعرضناه من مواقفهم وفتنهم المتوالية في الأمصار الثلاثة.

٧ ـ كثيرون ممن ساروا في هذه الجيوش الثلاثة كانوا من الرَّعَاع والحمقى والأغرار الأغمار، الذين خُدعوا وغُرِّر بهم من قِبل رؤوس الشرِّ كابن سبأ والأشتر وابن أبي حذيفة وأضرابهم، وقد ظهر ذلك في مواقف عدة فوجئ بها (عامة الخوارج) عند انكشاف كذب الكتب المزوَّرة وتبرّؤ أكابر الصحابة منها، وتصريح زعمائهم بقولهم: (نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنَّا قرَّرناه بها!).

٨ ـ لم يَقبل عملَهم هذا أحدٌ من الصحابة، وصرَّح بضلالهم وفجورهم وكذبهم وانحرافهم عليٌّ وطلحةُ والزبيرُ وأمهاتُ المؤمنين وغيرهم، مما يؤكد انحراف أولئك الخارجين وسوء صنيعهم، وإن أيَّ

دفاع عنهم هو اتهامٌ للخليفة وأعيان الصحابة وجميع الصالحين.

٩ ـ رواية بلهاء طائشة:

روى الواقدي قال: (لما كانت سنة أربع وثلاثين كتب أصحابُ رسول الله ﷺ بعضُهم إلى بعض: أنِ اقدَمُوا، فإنْ كنتم تريدون الجهادَ فعندنا الجهادُ! وكثَّر الناسُ على عثمان، ونالوا منه أقبحَ ما نِيلَ من أحدٍ، وأصحابُ رسول الله ﷺ يَرون ويسمعون، ليس فيهم أحدٌ يَنهى ولا يَذبّ إلا نُفَيْر...)[1].

وروى مثلَها وأقبحَ منها: جعفر بن عبد الله المحمَّدي عن عَمْرو بن حماد القَنَّاد[2].

والواقدي متروك، ورواياته في الفتنة يغلب عليها الكذب والطعن على الصحابة كما قدمنا. وجعفر المحمدي شيعي، وشيخه عمرو بن حماد من الرافضة وكان يقع في عثمان!.

فهي رواية تالفة كاذبة، وكل أخبار التاريخ متوافقة على أن الصحابة كانوا مع عثمان من أول الفتنة إلى آخرها، وناصروه، ولعنوا أولئك الخارجين عليه واطَّردوهم وتبرؤوا منهم. ومن ذلك قول حذيفة بن اليمان: (اللهم العَنْ قَتَلَة عثمان وغُزاة عثمان وشَنَأَة عثمان، اللهم لا تُمِتْهم إلا بالسيوف)[3].

وإنما أشرتُ إلى هذه الرواية تنبيهاً عليها حتى لا يغترَّ بها العامة،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٦٧.

(٣) تقدم بأطول منه: ص ٥٣٨ في هذا الكتاب.

وكذلك لبيان أغلاط بعض الكتَّاب المعاصرين الذين يروِّجون لها ولأمثالها! كذاك الذي يقول: (ثمة ركامٌ من الحقد الهائل نصادفه على حدٍّ سواء من جهة المصريين، ومن جهة عناصر الصحابة؛ أي الأنصار والبدو وحتى من جهة القرشيين ولكن بشكل نادر جدّاً)[1].

ويشير آخر إلى رواية الواقدي ويُـثْبتها في كتابه دون أي تزييف لها، وهو بذلك يقرّها ويأخذ بها[2]!.

ثانياً: مواجهات بين بعض كبار الصحابة ورؤوس (أحزاب الخوارج السبئيين):

●● استقرأ أمير المؤمنين عثمان الأحداث الكثيرة التي مرت وتولى معالجتها في مصر والكوفة والبصرة، وقد خَبَرَ أولئك الفتَّانين والموتورين، وعلم مكْرَهم وغدْرَهم، فأراد أن يقف على حقيقة مخرجهم ويكشف خبيئة أنفسهم؛ فقام بعمل بارع حيث أرسل إليهم رجلين كان هو يـثِقُ بهما، وكذلك يرتاح إليهما أولئك المنحرفون لأنهما قد نالهما تأديب من الخليفة!.

جاء في خبر سيف بن عمر: (وأرسل عثمان رجلين مخزوميّاً وزُهْريّاً، فقال: انظُرا ما يريدون، واعلَمَا عِلْمَهم ـ وكانا ممن قد ناله من عثمان أدب، فاصطبرا للحق ولم يضطغنا ـ فلما رأَوْهما باثُّوهما وأخبروهما بما يريدون. قالا: فكيف تريدون أن تصنعوا؟ قالوا: نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنّا

---

(١) الفتنة، لهشام جعيط، ص١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص٤١٥.

قرَّرْناه بها ، فلم يخرج منها ولم يتُبْ ، ثم نخرج كأنَّا حُجَّاج حتى نقدَم فنُحيط به فنخلعَه ، فإنْ أَبى قتلناه! وكانت إياها. فرجعا إلى عثمان بالخبر فضحك وقال: اللهم سلِّمْ هؤلاء ، فإنك إن لم تُسَلِّمْهم شَقُوا!)[1].

●● ولما نزلت (جيوش الأحزاب الثلاثة) منازلهم حول المدينة ، بعثوا رجلين ليتعرفوا أحوالَ أهل المدينة وأكابر الصحابة ، فلقيا عليّاً وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين وأخبراهم أنهم جاؤوا يستعفون عثمانَ من بعض الولاة ، واستأذنا لأولئك المنحرفين بدخول المدينة ، فكلُّ الصحابة رفضوا ذلك ، وطردوهما ، فعادا إلى أقوامهما بالخبر.

فانتقلوا إلى مرحلة أخرى ، (فاجتمع من أهل مصر نَفَرٌ فأتوا عليّاً ، ومن أهل البصرة نفرٌ فأتوا طلحة ، ومن أهل الكوفة نفرٌ فأتوا الزبير ، وقال كل فريق منهم: إنْ بايعوا صاحبَنا ، وإلا كِدْناهم وفرَّقْنا جماعتَهم ، ثم كررْنا حتى نبغتَهم. فأتى المصريون عليّاً وهو في عسكر عند أحجار الزيت[2] ، عليه حُلَّةُ أفوافٍ[3] معتمٌّ بشقيقةٍ حمراء يمانية ، متقلدَ السيف ، ليس عليه قميص ، وقد سرَّح الحسنَ إلى عثمان فيمن اجتمع إليه ، فالحسن جالس عند عثمان وعلي عند أحجار الزيت ، فسلَّم عليه المصريون ، وعَرَّضُوا له[4] ، فصاح بهم واطَّرَدَهم ، وقال: لقد علم

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٦.

(٢) موضع في المدينة يقع غرب المسجد النبوي ، كان النبي ﷺ يبرز إليه لصلاة الاستسقاء.

(٣) ضرب من برود اليمن ، **والأفواف**: جمع فوف وهو القطن.

(٤) أومؤوا له بنيَّتهم في خلع عثمان ومبايعته ، ولم يصرحوا بذلك.

الصالحون أن جيشَ ذي المروة وذي خُشُب والأَعْوض ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فارْجِعوا لا صَحِبَكُم الله! قالوا: نعم ، فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى البصريون طلحَةَ وهو في جماعة أخرى إلى جَنْبِ عليٍّ ، وقد أرسل ابنَـيْه إلى عثمان ، فسلَّم البصريون عليه وعَرَّضُوا له ، فصاح بهم واطَّرَدَهم ، وقال: لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خُشب والأَعْوص ملعونون على لسان محمد ﷺ.

وأتى الكوفيون الزبيرَ وهو في جماعة أخرى ، وقد سرَّح ابنَه عبدَ الله إلى عثمان ، فسلَّموا عليه وعَرَّضُوا له ، فصاح بهم واطَّرَدَهم ، وقال: لقد علم المسلمون أن جيش ذي المروة وذي خُشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ)[١].

ثالثاً: أمير المؤمنين مع (المنحرفين الخارجين) وجهاً لوجه ، يزيّف دعاواهم ويقطع حججهم:

●● بعد أن استخرجَ أمير المؤمنين خبيئةَ أنفسِ أولئك المنحرفين المفسدين ، من خلال الرجلين اللذين بعثهما إليهم ، ومن مواقف أكابر الصحابة منهم ـ عزمَ عثمان على مواجهتهم أمام المسلمين الشاهدين عامة؛ لإقامة الحجة عليهم ، وكشفِ القناع عن مخططات رؤوسهم ونيَّاتهم ، وتبصيراً لأتباعهم المُغرَّر بهم ، ويشهد على ذلك الصالحون من أهل المدينة وغيرها وفي مقدمتهم أكابر الصحابة.

وتوافق توجّهُ عثمان هذا مع رغبة السبئيين وأحلافهم من زعماء وأتباع

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٠؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

وسعيهم لذلك ، مع اختلاف النية والهدف ، حيث يَصْبو هؤلاء لإدانة أمير المؤمنين بمزاعم افتروها وبأشياء زرعوها في قلوب السمّاعين لهم من أتباع وأغمار وأعراب وأجلاف! .

وبين أيدينا في (هذا الموقف الفيصل الخطير) نص صحيح ثابت قد رواه غير واحد من الأئمة الأثبات ، وإسناده هكذا: المُعتمِر بن سُليمان ، عن أبيه سُليمان التيمي ، عن أبي نَضْرة المنذر بن قطعة العَبْدي ، عن أبي سعيد مولى أبي أُسيد الأنصاري ، وكلهم ثقات من رجال الصحيح ، غير أبي سعيد وهو ثقة؛ ذكره ابن حِبَّان في «الثقات» ووثقه الحافظ في «المطالب العالية» ، وصحح الحديثَ: ابن خُزيمة وابن حبان ، وقال الحافظ في «المطالب العالية»: رجاله ثقات.

وهذا النص مطوَّل وفيه عدة أحداث: منها لقاء عثمان بهؤلاء الأحزاب ومحاجَّته لهم ، وقصة الكتاب المزوَّر على عثمان ، وحصار عثمان ثم قتله ، والفقرة الأولى فيها اقتضاب.

وفي موضوع هذه الفقرة (مواجهة عثمان مع الأحزاب) يوجد لدينا أيضاً رواية سيف بن عمر ، وهي تلتقي مع النص الصحيح المشار إليه ، وتزيد هنا تفاصيل ممتازة تملأ الفراغات التي اختصرتها الرواية الحديثية الأولى؛ **وهذا يجعلنا نزداد اطمئناناً لروايات سيف عموماً** ، **والتي نقدناها سابقاً ورجحناها على غيرها من الروايات التاريخية لاستقامتها ونظافتها.**

وسوف نورد الرواية الحديثية ثم نتبعها برواية سيف؛ لإعطاء صورة متكاملة عن هذا الموقف الجليل الحاسم الخطير.

عن أبي سعيد مولى أبي أُسيد الأنصاري قال: (سمعَ عثمان أن وفدَ

أهل مصرَ قد أقبلوا ، فاستقبَلَهم ، فلما سمعوا به أقبلوا نحوَه إلى المكان الذي هو فيه ، فقالوا له : ادْعُ بالمُصْحَف ، فدعا بالمصحف ، فقالوا له : افتحِ السابعةَ ـ قال : وكانوا يُسمُّون سورة يونس السابعةَ ـ فقرأها حتى أتى علىٰ هذه الآية : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] ، قالوا له : قِفْ أرأيتَ ما حميتَ من الحِمَى ؛ آللَّهُ أَذِنَ لك به أَمْ على الله تفتري؟ فقال : أَمْضِه ، نَـزَلتْ في كذا وكذا ، فأما الحمى فإن عمرَ حَمَاهُ قبلي لإبل الصدقة ، فلما وَليتُ زادَتْ إبلُ الصدقة ، فزِدْتُ في الحمى لِما زاد من إبل الصدقة ، أَمْضِه .

قال : فجعلوا يأخذونه بآيةٍ آيةٍ[١] ، فيقول : أَمْضِه ، نَـزَلَتْ في كذا وكذا .

فقال لهم : ما تريدون؟ قالوا : ميثاقَكَ ، قال : فكتبوا عليه شَرْطاً ، فأخَذَ عليهم أن لا يَشُقُّوا عَصاً ، ولا يُفارِقوا جماعةً ما قام لهم بشرطهم . وقال لهم : ما تريدون؟ قالوا : نريد أن لا يأخذَ أهلُ المدينة عطاءً ، قال : لا ، إنما هذا المالُ لمن قاتَلَ عليه ، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب محمد ﷺ ، قال : فَرَضُوا ، وأقبَلُوا معه إلى المدينة راضين .

قال : فقام فخطب ، فقال : أَلاَ مَنْ كان له زرعٌ فَلْيَلْحَقْ بزَرْعِه ، ومَن كان له ضَرْعٌ فَلْيحتَلِبْهُ ، أَلاَ إنه لا مالَ لكم عندنا ، إنما هذا المالُ لمن قاتل عليه ، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب محمد ﷺ ، قال : فغَضِبَ

(١) هذا يدل على أن في هذه الرواية اختصاراً ، وجاء تفصيله في (رواية سيف) التالية .

الناسُ ، وقالوا: هذا مكرُ بني أميَّة! قال: ثم رجع المِصريون)[1] .

والخبر هذا يذكر (جيشَ المصريين) فقط ، ويَغلِب على الظن أن السبب هو سبق المصريين للقاء عثمان ، وأن في الرواية اختصاراً فاكتفى الراوي بذِكْر المصريين لأن مطالب الآخرين مثلُ مطالبهم ، ولأن القيادة الرئيسة فيهم فهم يعبِّرون عن بقية المنحرفين من أهل الكوفة والبصرة.

وقد أضافت رواية الطبري توضيحاً لهذا الحديث وزيادة وتفصيلات.

في رواية سيف بن عمر عن أشياخه:

(فأرسل عثمان إلى الكوفيين والبصريين ، ونادى: الصلاة جامعة ، وهم عنده في أصل المنبر ، فأقبل أصحابُ رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبرَ القوم ، وقام الرجلان[2] ، فقالوا جميعاً: اقتُلْهم؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ دعا إلى نفسه أو إلى أحدٍ ، وعلى الناس إمامٌ ، فعليهِ لعنةُ الله ، فاقتلوه**» ، وقال عمر بن الخطاب: لا أُحِلُّ لكم إلا ما قتلتموه ، وأنا شريككُم!.

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٧؛ الإمامة ، لأبي نعيم ، ص٣٤٧ ـ ٣٤٨؛ فضائل الصحابة ، لأحمد (٧٦٤)؛ تاريخ خليفة ، ص١٦٨ ـ ١٦٩؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٤ ـ ٣٥٦ ، ٣٨٣ ـ ٣٨٤؛ تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٣/ ١١٢٩ ، ١١٣٢ ـ ١١٣٤ ، ١١٣٨ ـ ١١٣٩؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ، وعزاه للبزار وقال: رجاله رجال الصحيح غير أبي سعيد وهو ثقة ؛ وساقه مطولاً الحافظ في المطالب العالية: ٤/ ٢٨٣ ـ ٢٨٦ (٤٤٣٨) وعزاه لإسحاق بن راهويه ، وقال: رجاله ثقات سمع بعضهم من بعض.

(٢) المخزومي والزهري، فصَدَّقا كلامَ عثمان. انظر ما تقدم: ص ٦١٩ ـ ٦٢٠ حاشية (١) في هذا الكتاب.

فقال عثمان: بل نعفو ونَقْبل ونبصِّرهم بجهدنا ، ولا نحادُّ أحداً حتى يركَبَ حدّاً أو يُبديَ كفراً! إن هؤلاء ذكروا أموراً قد عَلِموا منها مثلَ الذي علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يُذاكِرونيها ليُوجِبُوها عليَّ عند من لا يَعلم! .

وقالوا: أتمَّ الصلاة في السفرِ ، وكانت لا تُتَمَّ! ألا وإني قدِمْتُ بلداً فيه أهلي ، فأتممتُ لهذا الأمر ، أوَ كذلكَ؟ قالوا: اللهمَّ نعم.

وقالوا: وحميتَ الحِمى! وإني والله ما حَميتُ إلا ما حُمِي قبلي ، والله ما حَمَوْا شيئاً لأحد ، ما حَمَوْا إلا ما غَلَبَ عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رِعْيةٍ أحداً ، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازعٌ ، ثم ما مَنَعوا ولا نَحَّوْا منها أحداً إلا من ساق دَهْماً[1] ، وما لي من بعير غيرُ راحلتين ، وما لي ثاغية ولا راغية[2] ، وإني قد وليتُ وإني لأكثر العرب بعيراً وشاءً ، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرَيْن لحجِّي ، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

وقالوا: كان القرآن كتباً فتركتَها إلا واحداً! ألا وإن القرآن واحد ، جاء من عند واحد ، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء ، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم. وسألوه أن يقتلهم.

وقالوا: إني رددتُ الحَكَم ، وقد سَيَّره رسولُ الله ﷺ! والحَكَم مَكّيٌّ ، سيَّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ، ثم ردَّه رسولُ الله ﷺ ، فرسول الله ﷺ سيَّرَه ، ورسول الله ﷺ رَدَّه ، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

---

(١) الدَّهْم: العدد الكثير.

(٢) الثاغية: الشاة ، والراغية: الناقة.

وقالوا: استعملتَ الأحداث! ولم أستعمل إلا مجتمِعاً[1] محتمِلاً مرضيّاً ، وهؤلاء أهلُ عملهم فسَلُوهم عنه ، وهؤلاء أهل بلده ، وقد ولى مَن قبلي أحدثَ منهم ، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشدُّ مما قيل لي في استعماله أسامةَ ، أكذاك؟ قالوا: اللهم نعم. يَعيبون للناس ما لا يفسِّرون.

وقالوا: إني أعطيتُ ابنَ أبي سَرْح ما أفاءَ الله عليه! وإني إنما نَفَلْتُه خُمسَ ما أفاءَ الله عليه من الخمس فكان مئة ألف ، وقد نَفَلَ مثلَ ذلك أبو بكر وعمر ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرَدَدْتُه عليهم ، وليس ذلك لهم ، أكذاك؟ قالوا: نعم.

وقالوا: إني أحِبُّ أهلَ بيتي وأعطيهم! فأما حُبِّي فإنه لم يَمِلْ معهم على جَوْر ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاؤهم فإني إنما أعطيهم من مالي ، ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس. ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صُلْب مالي أزمانَ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، وأنا يومئذٍ شحيح حريص ، أفحين أتيتُ على أسنان أهل بيتي[2] ، وفنِيَ عُمري ، ووَدَّعْتُ الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا! وإني والله ما حملتُ على مصرٍ من الأمصار فَضْلاً فيجوزَ ذلك لمن قاله ، ولقد رددْتُه عليهم ، وما قدِمَ عليَّ إلا الأخماس ، ولا يَحِلُّ لي منها شيء ، فوَلِيَ المسلمون وضْعَها في أهلها دوني ، ولا تَبَلَّغْتُ من مال الله عز وجل بفَلْس فما فوقه ، ولا أتبلَّغ به ، ما آكلُ إلا من مالي.

---

(١) **المجتمِع**: الذي بَلَغَ أَشُدَّه ، أي غاية شبابه.

(٢) أي: جاوزت أعمارهم.

وقالوا: أعطيتَ الأرض رجالًا! وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتُتحت ، فمن أقام بمكان هذه الفتوح فهو أُسْوَةُ أهلِه ، ومن رجع إلى أهله لم يُـذْهب ذلك ما حوى الله عز وجل له ، فنظرت في الذي يُصيبهم فما أفاء الله عليهم فبِعْتُه لهم بأمرهم من رجال أهل عقارٍ ببلاد العرب ، فنَقلتُ إليهم نصيبهم ، فهو في أيديهم دوني)[1].

وقـام أميـر المـؤمنيـن عثمـان (بتعميـم وقـائـع ذلـك الاجتمـاع) وما تمخضت عنه المناظرة والمحاججة على الأمصار[2].

●● ولنا أمام هذا الحدث الجليل وقفات وعبر:

١ ـ كان الخليفة الراشد عثمان محيطاً بالأحداث الجارية وبُؤَر الفتن ورؤوس الشر ومخططات المجرمين والحاقدين على الإسلام ودولته ، وكان يعالج أمراضهم ويطفئ فِتنَهم ويُبطل مكرهم ، ولا يترك لهم حجة ولا ذَريعة إلا ويعالجها ويقطع السبيل أمام مختلِقيها ومروِّجيها ، ويَحمل أولئك جميعاً على هدي الخلفاء الراشدين وسيرتهم الحكيمة الرحيمة في سياسة الرعية بمختلِف أطيافهم وتياراتهم.

٢ ـ علمُ عثمان بالكتاب والسُّنَّة وأحداث التاريخ التي مرت قبله وفي أيام خلافته ، وأعمالِ النبي ﷺ وخليفتيه أبي بكر وعمر ، وتجلى ذلك

---

(١) تاريخ الطبري ، ٣٤٦/٤ ـ ٣٤٨؛ مختصر ابن عساكر : ١٩٠/١٦ ـ ١٩٢. والأمور التي احتجوا بها على أمير المؤمنين عثمان وناظرهم فيها ودمغهم بالحجة ، قد فصلنا القول فيها : ص ٥٤٢ ـ ٥٦٠ في هذا الكتاب.

(٢) مختصر ابن عساكر : ١٩٣/١٦.

بردودِه على المحتجين عليه ببعض (الأحداث) التي عملها ، وأنه ماضٍ على سَنَن سلفه الصالح في ذلك .

٣ ـ ويتفرع عن ذلك أن عثمان قد سار طيلة ثنتي عشرة سنة ـ وهي مدة خلافته ـ على هَدْي النبي ﷺ والشيخين ، وأقرَّ له بذلك الشهود جميعاً وعلى رأسهم المهاجرون والأنصار ، وكذلك أولئك الخارجون على الحق ؛ فما نقضوا له رأياً مما احتجَ به عليهم ! .

وليس كما تزعم بعض الروايات ، ويُروِّج له بعض المؤرخين القدامى وكثير من الكتاب المعاصرين ؛ من أن عثمان سار على طريقة عمر ستَّ سنين من خلافته ثم تغيَّر بعد! والصحيح أن التغير لم يكن من عثمان والصحابة وسيرورةِ دولة الخلافة ، بل بسبب الأحداث الطارئة ومسبِّبيها من أمثال هؤلاء المنحرفين الذين ناقشهم عثمان هنا .

٤ ـ وهذه الجولة الرائعة من المناقشة العلنية كان فيها خير كثير كشفت عنه الأقدار الحكيمة ؛ حيث برَّأَتْ ساحة عثمان وأصحابه ـ وهي بريئة أصلًا ـ على الملأ ، وهَتَكتْ أستار المنافقين والمتآمرين والماكرين والموتورين ، وفَضحت مساعي الأيدي الخبيثة التي تسيِّر الرَّعاع والطَّغَام من الناس. وهي أيضاً تفضح الروايات التالفة التي مُلئت بها كتب تاريخنا ، وتزيِّف ما يروِّج له كثيرون ممن كتب عن الفتنة في عصرنا .

٥ ـ ومن حسنِ تدبير عثمان وإخلاصِه أنه لما جاءه وفد المصريين ؛ أمر فجمع معهم الحزبين الآخرين من الكوفيين والبصريين ، وأقام دعوة لاجتماع علني أَشهدَ فيه المهاجرين والأنصار وخيار الصحابة ، مع أولئك الخوارج السبئية ؛ ليقيم الحجة عليهم ، وتعم الجميع ويعلمون بها ، وبذلك يقطع على كل موتور أو ماكر أو حاقد أي ذَريعة أو حجة .

٦ ـ وفي هذا أوضحُ دليلٍ على براءة عثمان من كل ما اختُلق عليه ، وافتُري على هديه وسياسته؛ فلو كان يخشى من أي عملٍ قام به أو اجتهاد ذهب إليه في خلافته ، أو تصرف عام على مستوى جميع الأمصار ـ لَجَعل ذلك اللقاءَ خفيّاً ومُغلَقاً ، ولَمَا جمع إليه الصحابة وأَشهدَهم عليه! إن صاحب الحق لا يخشى إعلان النقاش ولا كشف الأمور المختلَف عليه ، أما المخطئ وصاحب الهوى فيخاف من كل صوت حرٍّ أو مناقشة عامة.

٧ ـ وفي هذا العمل العثماني درس جليل لدعاة الحرية والديمقراطية والشفافية ، فهذا حاكم دولة الخلافة الراشدة المترامية الأطراف ، والذي تم انتخابه بإجماع عام ، تخرج عليه فئات من المنحرفين في بعض الأمصار ، فيعاملهم باللين والرحمة والكَفّ والإصلاح ، ويواجههم أمام الملأ وسمع التاريخ وتدوين المؤرخين ، ويناقشهم باعتراضاتهم واحداً تلو الآخر فيُقِرُّون له بالصواب والقوامة بالحق ، ثم لا يبطش بهم بل يشترط عليهم العودة إلى بلدانهم والسمع والطاعة ما أقام لهم الحق.

٨ ـ والخليفة يدرك تمام الإدراك أن في أولئك الخارجين المنحرفين كثرةً كبيرة قد غرَّر بهم أناسٌ ماكرون مجرمون ، وزوَّروا لهم الحقائق ، وشوَّهوا في عقولهم صورة الخليفة وولاته ، فأراد إعذارَ أولئك الأغمار والرَّعاع بعد أن أوضح لهم وجه الحق ، ورفض رأيَ عامة الصحابة بالبطش بهم ، وتلك لعمرُ الحق سياسة راشدة هي مضرب المثل في الذكاء والعبقرية ، كما أنها أنموذج في الرحمة والعدل.

٩ ـ ونلحظ أيضاً حلْمَ أمير المؤمنين عثمان وسعةَ صدره وعلوَّ أخلاقه ونبله ، وهو يرى المهاجرين والأنصار ورؤوس الصحابة ما اتهموه في

واحد من الأمور التي انتُقد بها وعِيبت عليه ، وكذلك عامة الناس لم يتبرَّموا به وبسياسته ، ثم تراه يواجه هذه الشراذمَ من المنحرفين ويبسط لهم رحمته ويوسع لهم صدره ويبذل حلمه وفضله ويناقشهم بكل ما عابوه عليه ، بل ويحتمل جفوتهم ووقاحتهم حيث يقول قائلهم: آللهُ أمرَكَ بهذا أم على الله تفتري! ولو كان من حكام العَسْف والجَوْر لكانت إشارة منه تكفي حتى تأخذ السيوف برؤوس هؤلاء! .

١٠ ـ **بَيْدَ أن عثمان مع هذا وبعد مناظرتهم وإقامة الحجة عليهم لم يترك لهم الحبل على الغارب** ، بل حزمهم بأمره ، واشترط عليهم السمعَ والطاعة وعدمَ الخروج مرة أخرى ، ورفض مطلبهم بالتدخل في السياسة المالية للدولة ، لأن هذا من اختصاص المسؤولين عنه والخبراء به والمؤتمنين عليه من موظفي الدولة ، وليس ذلك للرَّعَاع والطَّغَام! .

١١ ـ **وأحسن الخليفة كل الإحسان في أنه قام بتعميم نتائج هذا اللقاء الحاسم على الأمصار وعامة المسلمين في الدولة**؛ ليقفوا على الحقيقة من جهة ، ويعرفوا رؤوس الشر من جهة أخرى فلا يغتروا بهم ، وليقوم الولاة والأعيان بالقبض على من يحرك الفتن وينشر الأراجيف من جهة ثالثة.

١٢ ـ **ونشير أخيراً إلى أمرٍ مهم أكَّدنا عليه في غير موضع؛ وهو استقامة رواية سيف بن عمر مع الروايات الصحيحة** ، وزيادته تفاصيل مهمة عليها ، وأنها مما يُعوَّل عليه ويُطمأَن إليه في أحداث التاريخ ، ويؤكد رفضَ كلام ابن حِبّان في اتهامه بالزندقة ، وهو كلام مجافٍ للحقيقة ومباين للتاريخ.

●● ونقف أخيراً وقفة فاحصة ناقدة مع روايات كاذبة وأباطيل زائفة ذات صلة بالموضوع:

١ ـ اختزل اليعقوبي المؤرخ المنحرف عن الحق وعن أهل السُّنَّة كلَّ مناظرات عثمان ومواقفه التي قدمناها في هذا الأمر؛ بأن عثمان وكل الكلامَ إلى عَمْرو بن العاص، فحدَّث المنحرفين بما عَتَبوه على عثمان وطالَبَهم بالصبر، وغَمز من عثمان وواجهه بقوله: فاعتزِلْ إنْ لم تعتدل[1]!.

هكذا اعتاد هذا المؤرخ الشيعي وأمثاله أن يزيِّـفوا الحقيقة، ويفتروا على الصحابة، وخاصة الخلفاء الراشدين الثلاثة.

٢ ـ روايات الواقدي في هذا الموضوع مليئة بالكذب والافتراء وقَلْب الحقائق وإدانةِ عثمان وولاته وعامة الصحابة، وهو في ذلك يبرئ ساحة أولئك المنحرفين المنافقين.

فرواية تزعم أن عَمْرو بن العاص قال لعثمان: اتَّقِ الله يا عثمان، فإنك قد ركبتَ نَهَابير وركبناها معك، فتُبْ إلى الله نَـتُب[2]! فتلاحَى عثمان وعمرو، ثم إن عَمْراً فارقه مغاضباً وذهب إلى فلسطين، وكان هناك يحرِّض على عثمان.

ورواية ثانية تزعم بل تفتري على عثمان وعليٍّ، وتقول: إن عليّاً نَصَح عثمان أن يتوب من الأخطاء التي اعترف بها لأولئك المنحرفين،

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٧١ ـ ٧٢.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦٠. نَهَابير: مهالك، مفردها نُهْبُور، أي حَمَلتَنا على أمور شديدة صَعْبة. النهاية: «نهبر».

فقام عثمان فأعطى الناسَ من نفسه التوبة ، وقال: والله ما عابَ مَنْ عابَ منكم شيئاً أجهلُه ، وما جئتُ شيئاً إلا وأنا أعرفُه ، ولكنِّي منَّتْنِي نفسي وكَذَبَتْني ، وضَلَّ عني رُشدي[1]!

ويزعم الواقدي في رواية ثالثة: أن عثمان قد أعطى الناسَ من نفسه الرضا ، وتاب عن ذنوبه أمامهم وبكى على المنبر حتى اخضَلَّت لحيتُه من الدموع[2].

ويزيد الواقدي الأمر سوءاً فيزعم في رواية أخرى: أن عثمان بعث محمد بن مَسْلَمة إلى وفد المصريين ، وقال له: اذهَبْ إليهم فارْدُدْهُم عنِّي وأعطِهم الرضا ، وأخبرهم أني فاعلٌ بالأمور التي طلبوا ، ونازعٌ عن كذا بالأمور التي تكلموا فيها[3].

والروايات من هذا (الصنف الواقدي) كثيرة ، وقد تبرَّم بها الطبري مع نقله كثيراً عن الواقدي ، فقال: ومنها ما أعرضتُ عن ذِكره كراهة مني لبشاعته[4]!.

فإذا كان ما ساقه الطبري عن الواقدي من مثل الأمثلة التي ذكرناها ، فكيف بالروايات التي طواها؟!.

٣ ـ وهذا يؤكد لنا الخطأ الكبير في وضع (روايات سيف بن عمر) مع (روايات الواقدي) في كفة واحدة ، وكذلك خطأ من يقول: إن (سيفاً) هو

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦١.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٦٣.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٥؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٦.

(بابَةُ الواقدي)؛ فبين الرجلين في الرواية التاريخية بون شاسع ، وروايات سيف غالبها مستقيم على الجادة ، وليس فيها ما يُشتمّ منه رائحة إساءة للصحابة الكرام.

وأكثر خطأً من هؤلاء ذاك الفريق الذي يزيِّف رواية سيف كلما رآها تتناقض مع اتجاه السبئيين وتدينهم[1]!.

●● نعود إلى الحلقة التالية من الأحداث بعد ذاك اللقاء الحاسم بين أمير المؤمنين عثمان وبين جمهور (السبئيين المنحرفين) ، وقد ظهر عليهم عثمان بحجَّته ، ودَفَع باطلَهم بحقّه ، وأثبت لهم سلامة سياسته والتزامه بهدي النبي ﷺ وصاحبيه ـ رأى عامّتُهم صدق مسعاه وصحة منهجه ، وذلك في مجتمع من المهاجرين والأنصار وتحت سمع الخارجين وبصرهم ، **آنذاك أُسْقِط في أيدي رؤوس الفتنة ومدبِّري المؤامرة وناسجي خيوط الشر والافتئات على الخليفة وأركان الدولة ، وانقلبوا وهم مطويُّون على ضِغْن يأكل أكبادهم ويحرق أفئدتهم ، وعلموا أن الدائرة ستدور عليهم إنْ لم يتداركوا أمرهم!.**

فرجعوا إلى مضاربهم ، وأظهروا لأهل المدينة أنهم راجعون إلى بلدانهم ، وقد أقلعوا عن مبتغاهم؛ فقوَّضوا خيامَهم ، وخرجوا من المدينة ليوهموا أهلها بأن الأمر قد انتهى ، فيطمئن أهل المدينة ويضعوا أسلحتهم وحِذْرَهم! وحقيقةُ الأمر أنهم عازمون على مباغتة المدينة بعد أن درسوا الخطة وأحكموا تنفيذها ، وأيقنوا أنه لا مفرَّ من خَلْع الخليفة ،

---

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين ، لطقوش ، ص٣٩٦ ، ٤٠٩؛ الفتنة ، لهشام جعيط ، ص١٢٤ ، ١٢٥؛ ويتهم رواية سيف بأنها (إيديولوجية)!.

فإن أبى قتلوه ، ولن يكون هذا إلا بمفاجأة الناس ، ولابد لذلك من ذَريعة يواجهون بها أتباعهم ، وكذلك أهل المدينة إذا رأوهم قد رجعوا إليها[1]! .

وكانت الذريعة هي (كتاب مزوَّر على لسان عثمان وعليه خاتمه) ، يأمر بقتل هؤلاء المنحرفين ، فأمسكوا بالكتاب وحامله ، وكَرُّوا راجعين إلى المدينة ، وضربوا حصاراً على أمير المؤمنين عثمان حتى قتلوه! .

رابعاً: الكتاب المزوَّر على لسان عثمان ، وزحف السبئيين الخوارج لحصاره:

●● تقول الرواية الصحيحة التي قدمنا طرفاً منها في مناظرة عثمان لأولئك الخارجين عليه ، والتي رواها ابن حبان وغيره: (ثم رجع الوفد المصريون راضين ، فبينما هم في الطريق إذا هم براكبٍ يتعرَّض لهم ، ثم يُفارِقُهم ، ثم يرجعُ إليهم ، ثم يُفارِقُهم ويَسُبُّهم! قالوا: ما لَكَ إن لك لأمراً ، ما شأنُك؟ قال: أنا رسولُ أمير المؤمنين إلى عامله بمصرَ ، قال: فَفَتَّشُوه ، فإذا هم بالكتاب على لسان عثمانَ عليه خاتمُه إلى عامِلِه بمصرَ أن يَصْلبهم أو يَقْتُلَهم أو يَقطَع أيديَهم وأرجلَهم! فأقبلوا حتى قدِمُوا المدينةَ ، فأتَوْا عليّاً ، فقالوا: ألم ترَ إلى عدوِّ الله ، كَتَبَ فينا بكذا وكذا ، وإنَّ الله قد أَحَلَّ دمَهُ ، قُمْ معنا إليه ، قال: والله لا أقومُ معكم ، قالوا: فلِمَ كتبتَ إلينا؟ قال: والله ما كتبتُ إليكم كتاباً قطُّ! فنَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ ، ثم قال بعضُهم لبعضٍ: أَلِهذا تُقاتِلون ، أَوَ لهذا تغضَبُون؟! .

فانطلق عليٌّ فخرَجَ من المدينة إلى قرية ، وانطَلَقوا حتى دخلوا على

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٠؛ كتابي «الخلفاء الراشدون» ، ص٣٩٩ ـ ٤٠٠ .

عثمان ، فقالوا: كتبتَ بكذا وكذا؟ فقال: إنما هما اثنتان: أن تُـقِيموا علَيَّ رجلَيْن من المسلمين ، أو يميني بالله الذي لا إلـه إلا هو ما كتبتُ ولا أَمْلَيْتُ ولا عَلِمْتُ ، وقد تَعْلَمون أن الكتابَ يُـكتَبُ على لسانِ الرجل وقد يُـنْقَشُ الخاتَمُ على الخاتَم! فقالوا: قد واللهِ أَحَلَّ الله دَمَكَ. ونَقَضُوا العهدَ والميثاقَ ، فحاصَرُوه)[1].

وتضيف رواية سيف بن عمر فصلاً آخر يضيء جانباً مهمّاً في الحدث: (فأتاهم الناس فكلَّموهم ، وفيهم عليٌّ فقال: ما رَدَّكُم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ قالوا: أخذنا مع بريدٍ كتاباً بقَتْلِنا ، وأتاهم طلحة فقال البصريون مثلَ ذلك ، وأتاهم الزبير فقال الكوفيون مثل ذلك ، وقال الكوفيون والبصريون: فنحنُ ننصرُ إخوانَنا ونمنعُهم جميعاً ، كأنما كانوا على ميعاد! فقال لهم عليٌّ: كيف عَلمتُم يا أهلَ الكوفة ويا أهلَ البصرة بما لقِيَ أهلُ مصر ، وقد سِرْتُم مراحلَ ثم طوَيْتم نحوَنا؟ هذا واللهِ أمرٌ أُبْرِمَ بالمدينة! قالوا: فَضَعُوه على ما شئتم ، لا حاجةَ لنا في هذا الرجل ، لِيَعْتزِلْنا!)[2].

وتشير رواية أخرى للطبري عن الواقدي إلى أمر مهم جدّاً؛ وهو أن المصريين عندما غادروا المدينة تخلَّف فيها منهم رجلان هما: (الأشتر النخعي وحُكَيم بن جَبَلة)[3].

تلك هي الرواية الصحيحة الثابتة بشأن (الكتاب المزوَّر) على عثمان ،

---

(١) صحيح ابن حبان ، حديث (٦٩١٩)؛ وانظر ما تقدم: ص ٦٢٣ ـ ٦٢٤ حاشية (١) في هذا الكتاب

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥١؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٩٥.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧٥.

وعليها نُعوِّل وإليها نرجع وفي ضوئها نناقش أمر الكتاب وما تضمنه.

وثمة روايتان أخريان:

الأولى: يرويها جعفر بن عبد الله المحمدي عن عَمْرو بن حماد؛ تذكر أن عثمان أمر بكتابة الكتاب، وتُدينه به[1]! وجعفر شيعيّ، وعَمْرو كان من الرافضة ويسبُّ عثمانَ، فلا يُعبأ به ولا بروايته.

والثانية: عن الواقدي، وتفيد بأن عثمان تبرأ من الكتاب، لكنها تُدين مروانَ بن الحكَم، وأنه الذي دبَّره[2]. والواقدي متروك، وقد تبين لنا من سَبْر رواياته أن غالبها ساقط.

والروايتان تخالفان الرواية الصحيحة الثابتة.

●● وقصة هذا (الكتاب المزعوم) تحمل شواهد وضعها وبطلانها في كل كلمة من كلماتها، قد حاكها تدبير شيطاني خبيث وكيد أثيم وتآمر من حزب السَّبئيِّين، وعلى رأسهم الأشتر النخعي وحُكيم بن جَبَلة، أشياع رأس الشر وجرثومة الفساد ابن سبأ اليهودي؛ لتقويض الخلافة الإسلامية وإشعال نار الفتنة وهدم بنيان الإسلام[3].

وهو كتاب مكذوبٌ على عثمان، وخاتَمُه مزوَّر على خاتَمِه، وهو ومروانُ وحاشيته منه بَراء، وذلك لعدَّة أمور وحقائق واضحة:

أولها: أن حامل الكتاب المزوَّر قد تعرَّض لهؤلاء المصريين ثم فارقهم، وكرَّر ذلك مراراً، وهو لم يفعل ذلك إلا ليلفِتَ أنظارهم إليه،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦٧.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٣) انظر: عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

ويثير شكوكَهم فيه ، وكأنه يقول لهم: معي شيء هام بشأنكم! وإلا فلو كان من عثمان لخافَهم حاملُ الكتاب المزعوم ، ولأَبْعَدَ عنهم ، وأسرع إلى والي مصر ليضَعَ بين يديه الأمر ، فينفذه.

ثانيها: كيف علمَ العراقيون بالأمر ، وقد اتجهوا إلى بلادهم ، وفَصَلَتْهم عن المصريين ـ الذين أمسكوا بالكتاب المزعوم ـ مسافةٌ شاسعة؛ فالعراقيون في الشرق والمصريون في الغرب ، ومع ذلك عادوا جميعاً إلى المدينة في آنٍ واحد ، كأنما كانوا على ميعاد؟! لا يُعقل هذا إلا إذا كان الذين زوَّروا الكتابَ ، واستأجروا راكباً ليحملَه ويمثِّل هذا الدور في (البُوَيْب) أمام المصريين؛ قد استأجروا راكباً آخرَ انطلَق إلى العراقيين ليخبرهم بأن المصريين قد اكتشفوا كتاباً بَعث به عثمان لقتل المنحرفين المصريين! وهذا ما احتج به علي بن أبي طالب فقال: كيف عَلمتُم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لَقِي أهلُ مصر ، وقد سِرْتُم مراحلَ ثم طَوَيْتم نحوَنا؟!.

ثالثها: كيف يكتب أمير المؤمنين عثمان إلى ابن أبي سَرْح بقَتْل هؤلاء ، وابنُ أبي سرح كان عقِب خروج جيش المنحرفين من مصر متجهين إلى المدينة كَتَب إلى الخليفة يستأذنه بالقدوم عليه ، وقد تغلَّب على مصرَ محمد بن أبي حذيفة ، وفعلاً قد خرج ابن أبي سرح من مصر إلى العَريش وفلسطين فالعقبة؛ فكيف يكتب إليه عثمان بقتلهم ، وعنده كتابه الذي يستأذن به منه بالقدوم عليه؟!.

رابعها: أن عثمان رضي الله عنه قد نَهى عن قتل محمد بن أبي بكر وجيوش السبئيين عندما حاصروه ، وأَبَى على الصحابة أن يدافعوا عنه ، ولم يأمر بقتل الخارجين عليه دفعاً عن نفسه؛ فكيف يكتب فيهم مثلَ هذا

الكتاب المزعوم، وقد خرجوا عنه من المدينة مظهِرين التوبة والإنابة؟!.

خامسها: تخلُّف الأشتر النخعي وحُكَيم بن جَبَلة في المدينة بعد خروج المنحرفين منها، يشير إشارة واضحة إلى أنهما هما اللذان افتعلا الكتاب، إذْ لم يكن لهما أي عمل بالمدينة ليتخلَّفا فيها، وما مَكَثا إلا لمثل هذا الغرض، فهما صاحبا المصلحة في ذلك. وقد أشار علي رضي الله عنه إلى هذا عندما أنكر على العراقيين رجوعَهم مع المصريين في آن واحد؛ فقال: (هذا والله أمرٌ أُبْرِمَ بالمدينة!).

ولم يكن لأمير المؤمنين عثمان في ذلك أية مصلحة، وكذلك ليس لمروان بن الحَكَم أية مصلحة! والذين يتهمون مروانَ في هذا إنما ينسبون إلى الخليفة الغفلةَ عن مهامه، وأن في ديوان الخلافة من يجري الأمور ويقضي بها دون علمه، وبذلك يبرِّئون ساحة أولئك المجرمين الغادرين. ثم لو أن مروان زوَّرَ الكتابَ لكان أوصى حاملَه بأن يبتعد عن أولئك المنحرفين، ولا يتعرض لهم في الطريق حتى يأخذوه، وإلا لكان متآمراً معهم على عثمان، وهذا محال[1]!.

سادسها: أن هذا الكتاب المشؤوم ليس أولَ كتاب يزوِّره هؤلاء المجرمون، بل زَوَّروا كتباً على ألسنة أمهات المؤمنين وعليٍّ وطلحة

---

(١) ومن عجبٍ أن بعض أئمتنا قد صدَّق بأن مروان هو الذي زوَّر الكتاب، وفي هذا تبرئة للمجرم الحقيقي! يقول ابن كثير: (لم يكن لمروان أن يَفتاتَ على عثمان ويكتب على لسانه بغير علمه، ويزوِّر على خطِّه وخاتَمِه، ويبعثَ غلامه على بعيره، بعدما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين). البداية والنهاية: ٧/ ١٨٦. وقال الذهبي في ترجمة مروان: (وكان كاتبَ ابنِ عمِّه عثمان، وإليه الخاتَمُ، فخانَهُ، وأَجْلَبوا بسببه على عثمان!)؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٧٧.

والزبير[1] ، ولهذا لما قال المنحرفون لعليٍّ : (فلِمَ كتبتَ إلينا؟ قال : واللهِ ما كتبتُ إليكم كتاباً قطُّ! فنَظَرَ بعضهم إلى بعض)! وهؤلاء الذين نظر بعضهم إلى بعض هم المخدوعون من المنحرفين ، والذين زوروا هم الرؤساء ، أكابرُ مجرمي الفتنة الطائشة .

ولما عاتب مسروقٌ أمَّ المؤمنين عائشة بأنها كتبتْ إلى الناس بالخروج على عثمان ؛ أقسمت بالله أنها ما كتبتْ سواداً في بياض! .

سابعها: وقد جرى على ألسنة السبئيِّين المجرمين ما استكَنَّ في ضمائرهم اعترافاً بجريمة التزوير وافتراء الكذب على خليفة المسلمين أو ابن عمِّه مروان بن الحكَم؛ حيث قالوا: (فَضَعُوه على ما شئتم ، لا حاجةَ لنا في هذا الرجل ، ليعتزلْنا!) ، وهذا لعمرُ الحق كلام واضح وصريح إلى أبعد حدود الوضوح والصراحة ، في أن هؤلاء السبئيين المجرمين أعداء الإسلام إنما أرادوا شيئاً واحداً هو تقويض الخلافة الإسلامية وتفريق شمل الأمة وحلّ نظامها الاجتماعي .

إن الأيدي الآثمة المجرمة التي زوَّرت الكتب على ألسنة أولئك الصحابة ، هي نفسها التي أوقدت نار الفتن من أولها إلى آخرها ، ورتبت ذلك الفساد العريض ، وهي التي زوَّرَت وروَّجَتْ على عثمانَ تلك الأباطيل ، وأنه فعل وفعل ، ولقَّنَتْها للناس حتى قبلها الرَّعَاع . ثم زوَّرت على لسان عثمان ذلك الكتابَ ؛ ليذهبَ ضحيته إلى ربه شهيداً سعيداً .

ولم يكن عثمان الشهيد هو وحده المجنيّ عليه في هذه المؤامرة السبئية اليهودية الضارية ، بل الإسلام نفسه كان مجنيّاً عليه قبل ذلك ،

---

(١) انظر ما تقدم : ص ٥٨٧ ـ ٥٨٩ في هذا الكتاب .

ثم التاريخ المحرَّف المشوَّه ، والأجيال الإسلامية التي تلَقَّت تاريخها مشوهاً هي كذلك ممن جَنَى عليهم الخبث اليهودي وأعوانه من أصحاب المطامع والشهوات والحقد الدفين[1] .

●● وبافتراء هذا الكتاب المزور المشؤوم على لسان أمير المؤمنين عثمان ، وتزوير خاتمه ، تمكن مدبِّرو الفتنة ورؤوس الشر ومساعيرُ الحقد والكيد للإسلام وأهله ؛ أن يلعبوا بعقول أتباعهم ويقودوهم كالبعير المَخْشوش إلى الهدف المرسوم ، وهو ضرب الحصار على عثمان والتضييق عليه وخلعه ثم قتله .

وهذا ما سنفصله في الفصل التالي .

* * *

---

(١) كتابي «الخلفاء الراشدون» ، ص٤٠١ ـ ٤٠٤ ؛ وانظر : العواصم من القواصم بتعليق محب الدين الخطيب ، ص١٣٣ ـ ١٣٦ ؛ عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ١٢٢ ، ١٢٥ ـ ١٢٦ .

الفصل السابع

الحصار الآثم ومجريات أحداثه

ومواقف أمير المؤمنين والصحابة

أولاً: طلائع الحصار وبداياته:

بعد اختلاق الكتاب المزور على لسان عثمان وتزوير خاتَمه ، وتدبير تلك المكيدة الخبيثة الفاجرة؛ عادت كتائب الخوارج المصريين من السبئيين وأتباعهم ومعهم محمد بن أبي بكر الصديق ، ورجعت كذلك فِرقُ إخوانهم من العراقيين ، ووصل الجميع إلى المدينة في آن واحد وكانوا في ذلك على ميعاد! ولم يَـرُع أهلَ المدينة إلا التكبير في نواحيها ، وقالوا للناس: مَن كَفَّ يدَه فهو آمن! .

وكان ذلك في أوائل ذي القعدة من سنة (٣٥هـ)[1] .

ولزِمَ الناسُ بيوتهم ، وصلى أمير المؤمنين بالناس أياماً ، فيصلي وراءه أهل المدينة ، وهؤلاء الفجرة يصلُّون خلفه ، ويَغشى من شاء عثمانَ وهم في عينه أدق من التراب ، وكانوا لا يمنعون أحداً من

---

(١) تاريخ خليفة ، ص١٦٨؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥١؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٩٥ .

الكلام ، وكانوا زمراً بالمدينة ، يمنعون الناس من الاجتماع[1] .

فأتاهم الناس والأعيان وكلَّموهم ، وفي مقدمتهم عليٌّ وطلحة والزبير ، وكلُّهم يؤنِّبهم ويزجرهم على عودتهم الآثمة ويبيِّن افتراءَهم في تذرُّعِهم (بالكتاب المزور) ، وكشَفَ عليٌّ مؤامرتهم فقال لهم: هذا والله أمرٌ أبرم بالمدينة! فلم ينجع فيهم شيء ، وهم مصرُّون على هدفهم الإجرامي: لا حاجة لنا في هذا الرجل (أمير المؤمنين) ، ليعتزلنا! .

ولم يتوقف الخليفة الراشد البار عن محاججتهم وصرفهم عن ضلالهم وخروجهم الظالم عليه ، وناقش بعض زعاماتهم بصورة فردية .

عن محمد بن سيرين قال: (أشرف عليهم عثمان من القصر ، فقال: ائتوني برجلٍ أُتاليه كتابَ الله ، فأتوه بصَعْصَعَة بن صُوحان ، وكان شابّاً فقال: أمَا وجدتم أحداً تأتوني به غيرَ هذا الشاب! قال: فتكلم صعصعة بكلام ، فقال له عثمان: اتلُ ، فقال صعصعة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ، فقال: كذبتَ! ليست لك ولا لأصحابك ، ولكنها لي ولأصحابي ، ثم تلا عثمان: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ حتى بلغ ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١][2] .

وعن الحسن البصري قال: أنبأني وَثَّاب ـ وكان بين يدي عثمان ـ قال: (بَعثني عثمان فدعوتُ له الأشترَ النَّخَعي ، فجاء ، فقال: يا أشتر ،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥١؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٧٤ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٨٥ ، ٦٨١ ، وإسناده صحيح إلى ابن سيرين ؛ وبنحوه عن قتادة في تاريخ خليفة ، ص١٧١ .

ما يريد الناس منِّي؟ قال: ثلاثٌ ليس لك من إحداهنَّ بُدّ ، قال: ما هنّ؟ قال: يُخيِّرونك بين أن تَخْلَعَ لهم أمرَهُم ، فتقول: هذا أمرُكم فاختاروا له مَنْ شئتم ، وبين أن تُقِصَّ من نفسك ، فإنْ أبيتَ هاتين فإن القوم قاتِلوكَ! قال: أمَا من إحداهنّ بدٌّ؟ قال: لا ، ما من إحداهن بُدّ! قال: أمَّا أن أخْلَعَ لهم أمرَهم ، فما كنتُ لأخلَعَ سِرْبالاً سَرْبَلَنيه الله؛ والله لأنْ أُقَدَّمَ فتُضربَ عنقي أحبُّ إليَّ من أن أخلع قميصاً قمَّصنيه الله ، وأتركَ أمة محمد ﷺ يَعْدو بعضها على بعض. وأمَّا أن أُقِصَّ من نفسي ، فوالله لقد علمتُ أن صاحبيَّ بين يديَّ قد كانا يُعاقِبان ، وما يقوم بَدَني بالقِصاص. وأمَّا أن تقتلوني ، فوالله لئن قتلتموني لا تتحابُّون بعدي أبداً ، ولا تُصلُّون بعدي جميعاً أبداً ، ولا تقاتِلون بعدي عدوّاً جميعاً أبداً. ثم قام الأشتر فانطَلَق ، فمكثنا أياماً)[1].

ثانياً: محاورات بين الخليفة الراشد وبين الخوارج المنحرفين على ملأ منهم ومن الصحابة ، وإقامة الحجة عليهم من جديد:

مضى ذو النورين على هديه الرشيد في الرأفة والرحمة والتعطف بهؤلاء المارقين ، وهو يرى فيهم أغماراً أغراراً مغفَّلين منقادين من قِبل ذُؤْبان لا يرجون لله وقاراً ، ولا يقيمون لحرمة وزناً ، ولا لعهد قيمة ، ولا لإمام طاعة ، ولا لدم حرمة ـ فطاوَلَهم مطاولة من يطمع في إصلاح الحال بالبر والسياسة والحكمة ، فسمع وأجاب ، وأخذ وأعطى ، ولانَ واشتد ، وصالَحَ وخاصَمَ ، كل ذلك في ظل عدل الخلافة الراشدة ،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٧٩ ـ ٦٨٠؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٢ ـ ٧٣؛ تاريخ خليفة ، ص١٧٠؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧١ ـ ٣٧٢ ، وإسناده صحيح.

ونُــبْل أخلاقه ، ورحمة حكمه ، وورع سياسته... إنه أحدُ أولئك العباقرة ورجال الصحراء وتلاميذ المدرسة الأولى للدعوة الإسلامية الذين اصطفاهم الله تعالى لقيادة الإنسانية ، فكانوا في حياتهم أمثلة حية لأفضل الفضائل وأكرم الأخلاق؛ إنهم كالذهب يزيده الصَّهر قوة وصفاء[1]!.

قام عثمان فأعلَن محاجَجَتَه لأولئك المنحرفين المفترين على الأشهاد ، وفي ملأ منهم قادة وأتباعاً ، وفي مشهد مجلس شورى الخلافة وأعيان الصحابة والمهاجرين والأنصار وعامة الناس:

١ ـ عن الأحنف بن قيس قال: (خرَجْنا حُجَّاجاً ، فقدِمنا المدينة ، ونحن نريد الحج ، فبينا نحن في منازلنا نَضَعُ رِحالَنا ، إذ أتانا آتٍ فقال: إن الناس قد اجتمعوا في المسجد وفَزِعوا! فانطَلَقْنا ، وإذا الناس مجتمعون على نفرٍ في وسَط المسجد ، وإذا عليٌّ والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص ، فإنا لكذلك ، إذ جاء عثمان بن عفان عليه مُلاءة صفراء قد قَنَّع بها رأسَه ، فقال: أهاهُنا عليٌّ؟ أهاهُنا طلحة؟ أهاهنا الزبير؟ أهاهنا سعدٌ؟ قالوا: نعم. قال: فإني أَنْشُدُكم بالله الذي لا إلـه إلا هو؛ أَتَعْلَمون أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن يبتاعُ مِرْبَدَ بني فلان ، غفَرَ الله له»** فابتعتُه بعشرين ألفاً ـ أو: بخمسة وعشرين ألفاً ـ فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُه ، فقال: **«اجعلْه في مسجدنا ، وأجرُهُ لك»**؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: أَنْشُدكم بالله الذي لا إلـه إلا هو؛ أَتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ يَبتاع بئرَ رُومة ، غفَرَ الله له»** ، فابتعتُه بكذا وكذا ، فأتيتُ

(١) انظر: عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٨٢ ، ٩٠.

رسولَ الله ﷺ فقلت: قد ابتعتُها بكذا وكذا، قال: «**اجعَلْها سِقايةً للمسلمين، وأجرُها لك**»؟ قالوا: اللهم نعم. قال: فأَنْشُدُكم بالله الذي لا إلـه إلا هو؛ أتعلمون أن رسول الله ﷺ نَظَر في وجوه القوم يومَ جيش العُسْرة، فقال: «**مَنْ يجهِّز هؤلاء، غفَرَ الله له**»، فجهَّزْتُهم حتى ما يَفقِدون خِطاماً ولا عِقالاً؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهد، اللهمَّ اشهد، ثم انصرف)[1].

٢ ـ وعن ثُمَامَة بن حَزْن القُشَيْريِّ قال: (شهدتُ الدار حين أَشرف عليهم عثمانُ، فقال: ائتُوني بصاحبَيْكُم اللَّذَيْن أَلَّبَاكم علَيَّ، قال: فجيءَ بهما، كأنهما جَمَلانِ ـ أو: كأنهما حِماران ـ قال: فأشرف عليهم عثمانُ، فقال: أَنْشُدُكم بالله والإسلامِ؛ هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدِمَ المدينةَ وليس بها ماءٌ يُستعذَبُ غيرَ بئر رُومَة، فقال: «**مَن يشتري بئر رُومةَ، فيجعلُ دلوَه مع دِلاء المسلمين، بخيرٍ له منها في الجنة**»، فاشتريتُها من صُلْب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشربَ منها حتى أشربَ من ماء البحر؟ فقالوا: اللهمَّ نعم. فقال: أَنْشُدُكم بالله والإسلام؛ هل تعلمون أن المسجد ضاقَ بأهلِه، فقال رسول الله ﷺ: «**من يَشتري بقعةَ آل فلانٍ فيزيدَها في المسجدِ، بخيرٍ له منها في الجنة**»، فاشتريتُها من صُلْبِ مالي، فأنتم اليومَ تمنعوني أن أصلِّيَ فيها ركعتين؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: أَنْشُدُكم بالله وبالإسلام؛ هل تعلمون أني جهزتُ جيشَ العُسْرة من مالي؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: أَنْشُدُكم بالله والإسلام؛ هل

---

(١) أخرجه أحمد (٥١١)؛ والنسائي في «الكبرى» (٦٤٠٠) و(٦٤٠١) وفي «الصغرى»: ٦/٤٦ ـ ٤٧؛ ٢٣٣ ـ ٢٣٥؛ وابن حبان (٦٩٢٠)، وغيرهم، وصححه أحمد شاكر والألباني.

تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثَبِير مكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرَّكَ الجبلُ حتى تساقَطَتْ حجارته بالحَضيض ، قال: فرَكَضَه برِجْلِهِ ، وقال: «اسكُنْ ثَبِيرُ ، **فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان**»؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: الله أكبر! شَهِدوا لي وربِّ الكعبة أني شهيدٌ ، ثلاثاً)[1].

٣ ـ وعن أبي أُمامةَ بن سَهْل بن حُنَيْف ـ وكان مع عثمان في الدار وهو محصور ـ: (أن عثمانَ بن عفان أَشْرَف يومَ الدار ، فقال: أَنْشُدُكم بالله؛ أَتعلمونَ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاثٍ: زِنى بعد إحْصانٍ ، أو ارتدادٍ بعد إسلامٍ ، أو قتْل نفسٍ بغير حقٍّ فقُتِلَ به**»؟ فواللهِ ما زَنيتُ في جاهلية ولا في إسلام ، ولا ارتَدَدْتُ منذ بايعتُ رسولَ الله ﷺ ، ولا قتلتُ النفسَ التي حرم الله ، فبِمَ تَقْتُلوني؟!)[2].

ثالثاً: الخوارج السبئيون يطلبون من أمير المؤمنين عثمان (خلع نفسه من الخلافة) وهو يرفض مستمسكاً بالأمر النبوي:

●● لم يُفلح ذلك في كسر الخارجين عن مخططهم ، بل شدَّدوا الحصار على الخليفة الراشد المظلوم ، وضيَّقوا عليه في دخوله وخروجه ، وهم ماضون في تحقيق هدفهم الذي قالوه لعلي بن

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٠٣٦)؛ والنسائي في «الكبرى» (٦٤٠٢) ، وفي «الصغرى»: ٦/ ٢٣٥؛ وعبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٥٥٥) ، وغيرهم ، وحسنه الترمذي ، وصححه أحمد شاكر والألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٩٧) ؛ والنسائي في «الكبرى» (٣٤٦٨) ؛ وأبو داود (٤٥٠٢) ؛ وابن ماجه (٢٥٣٣) ؛ وأحمد (٤٣٧) ، وصححه أحمد شاكر والألباني.

أبي طالب: (لا حاجةَ لنا في هذا الرجل، ليعتزلْنا)، وأكَّدوه على لسان الأشتر: (يخيِّرونك بين أن تخلَع لهم أمرهم...)، فلم يجدوا من أمير المؤمنين إلا الرفض القاطع والصبر الراسخ، وقد ارتفع في قامته أمام الأحداث العاصفة، وبقي كالجبال الراسية ثابتاً ثبوتَ الإيمان في قلوب خُلَصاء الصدِّيقين!.

وبعد ذلك صعَّدوا الأمر وجهروا به أمام الخليفة والعامة، لا يَردَعُهم خلق، ولا يَرْعَوون عن فتنة، ولا يأبهون بالخروج على أمر الخليفة والأمة!.

عن أم يوسف بن ماهِك، عن أمِّها قالت: (دخلتُ على عثمانَ وهو محصورٌ وفي حَجْره المُصحف، وهم يقولون: اعتزِلْنا، وهو يقول: لا أَخْلَع سِرْبالاً سَرْبَلَنيه الله)[1].

●● ولم يكُ عثمان جاهلاً بغايتِهم من خروجهم، كما لم يُفاجئْهُ طلبُهم الصريح هذا، فلقد كان يعلم ذلك منذ أكثر من خمس وعشرين سنة؛ حيث أخبره النبي ﷺ بأولئك المجرمين الذين يخرجون عليه ووَصَمَهم بالمنافقين.

عن النُّعمان بن بَشير، عن أم المؤمنين عائشة، قالت: (قال رسول الله ﷺ: **«يا عثمانُ، إنَّ الله عسى أن يُلْبِسَكَ قَميصاً، فإنْ أرادَكَ المنافقون على خَلْعِه، فلا تَخْلَعْه حتى تَلْقاني. يا عثمانُ، إنَّ الله عسى أنْ يُلْبِسَكَ قميصاً، فإنْ أرادك المنافقون على خَلْعِه، فلا تَخلَعْه حتى تلقاني»**، ثلاثاً).

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٧١؛ طبقات ابن سعد: ٣/٦٦.

وفي رواية: «**فإنْ أرادك المنافقون على أن تَخلَعَه، فلا تَخْلَعْه لهم ولا كرامةَ**».

وفي رواية أخرى: عن عائشة: أنها قالت: (فلما رأيتُ عثمانَ يَـبْذُل لهم ما سألوه إلا خَلْعَه؛ علمتُ أنه من عَهْدِ رسول الله ﷺ الذي عَهِدَ إليه)[1].

وقد وفَّى عثمان بذاك العهد النبوي، واعتصم به، وصبرَ على شدائد نتائجه، وأعلن ذلك صراحةً وواجه به أولئك الفتّانين غيرَ مرة؛ فقال: (ما كنتُ لأخلعَ سِرْبالاً سَربَلَنيه الله).

وأيَّـد الصحابة الكرام عثمان، وتابعوه عليه، وشدّوا على يديه، وواسوه في ذلك وناصحوه وبشَّروه بوعد الله وكرامته.

يروى نافع مولى ابن عمر فيقول: حدثني عبد الله بن عمر قال: (قال لي عثمان وهو محصورٌ في الدار: ما ترى فيما أشارَ به عليَّ المُغيرة بن الأخْنَس؟ قلتُ: ما أشار به عليك؟ قال: إن هـؤلاء القوم يريدون خَلْعي، فإنْ خَلَعْتُ تركوني وإنْ لم أَخْلَع قتلوني، قلتُ: أرأيتَ إنْ خَلَعْتَ تُـترك مُخلَّداً في الدنيا؟ قال: لا، قال: فهل يَملِكون الجنة والنار؟ قال: لا، فقلت: أرأيتَ إنْ لم تَخْلَعْ هل يزيدون على قتلك؟ قال: لا، قلت: فلا أَرى أن تَسُنّ هذه السُّنَّـة في الإسلام؛ كلما سَخِطَ

---

(1) أخرجه أحمد (٢٤٤٦٦) و(٢٤٥٦٦)؛ والترمذي (٤٠٣٨)؛ وابن ماجه (١١٢)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٠؛ وابن حبان (٦٩١٥)، وغيرهم، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

قومٌ على أميرهم خَلَعوه ، لا تَخلعْ قميصاً قَمَّصَكَهُ الله!)[1].

هذا الموقف الفذُّ من أمير المؤمنين عثمان يُضاف إلى فرائد مناقبه وفضائله ، فتراه وقد نيَّف على الثمانين من عمره ، وفي ذلك الظرف العصيب ، يعتصم بعهد النبي ﷺ إليه ، ويستمسك بمسؤولياته الكبار ، وقد حمل أمانة البيعة وأمانة الحكم وأمانة الإسلام ودعوته؛ فيحرِص على الوفاء بحقوق ذلك تامة مهما كانت التضحيات ولو كانت روحه الطاهرة! فقدَّمَ مصلحةَ الإسلام والأمة على مصلحته الشخصية بشجاعة وقوة وعزيمة وصبر وثبات.

(لقد رأى عثمان رضي الله عنه أنه لو أجاب الخارجين إلى خَلْع نفسه من الخلافة؛ لأصبحت عروشُ الإسلام ألعوبةً في أيدي المفتونين الساعين في الأرض بالفساد ، ولَسادَت الفوضى واختلَّ نظام البلاد والعباد ، ولكان ذلك تسليطاً للرَّعَاع والغوغاء على الولاة والحكام. ورأى عثمان أنه لو أجابهم لألقى بأسَ الأمة بينها وشَغَلها بنفسها عن أعدائها ، وذلك أيسرُ طريق لإفنائها. فلم يرَ أمامه سوى نفسه يَفدي بها الأمة ، ويحفظُ كيانَها أن يتزعزع ، ويصون بنيانها أن يتهدم ، ويدعم بهذا الفداء نظامَها الاجتماعي في أعلى مظاهر الحكم ، ويحمي سلطانها الذي تُساس به أن تمتد إليه يدُ العبث والفوضى ـ ولا شك أن هذا أعظم وأقوى ما يستطيع رجل أَلقتْ إليه الأمة مقاليدها أن يصنعه!)[2].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٦؛ فضائل الصحابة ، لأحمد (٧٦٧)؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٠ ـ ٦٨١؛ تاريخ خليفة ، ص١٧٠؛ وإسناده صحيح.

(٢) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٨٨ ـ ٨٩.

●● وإن فاقِرة الفواقر وعظيمةَ العظائم؛ أن يحتوي تاريخ تلك الحقبة الزاهرة من تاريخنا في صدر الإسلام ، تلك الفتنةَ الجامحة وذلك المشهد القاتم الذي يحمل بين طياته أساليب الدمار محبوكةً بأيدٍ خبيثة تتستر بشعارات كاذبة خاطئة ، مصوغة بلغة (الخلع والقتل والدمار) ، قامت بها عصابة من ذوي الأهواء والموتورين والمحدودين ومَن انضم إليهم من الطَّغَام والأجلاف الذين اختلفت قلوبهم كما اختلفت ألوانهم وألسنتهم ، قد ملؤوا ساحة الإسلام عُراة من الإيمان الصادق ، فطغَى سوادُهم على صادقي الإيمان من أصحاب النبي ﷺ وصالحي المؤمنين ، قد أرادوا الدنيا بإسلامهم فخاضوا إليها لُجَجَ الدماء ، ورتعوا في بقيَّـةٍ من آثار النبوة ممثلةٍ في شخص عثمان بن عفان رأفة ورحمة[1]! .

أولئك الذين طبَعتْهم كلمةُ النبوة الصادقة بِمِيسَمٍ لا يزول عنهم بمرور الزمان؛ عنوانه الكذب والمراوغة والنفاق والمخادعة : «يا عثمان ، إن الله عسى أن يُلبِسَك قميصاً ، فإنْ أرادك المنافقون على خَلْعِهِ فلا تخلَعْه حتى تلقاني»! .

وهذا كلام نبوي فصلٌ لا محيصَ عنه ، وقد قطع أي اجتهاد في وصفهم بأية صفة تجمِّل صورتهم أو تخفف من سوءاتهم وتخفي بعض خلائقهم؛ إنهم (المنافقون)! .

ولا يرتاب عاقل منصف أن هؤلاء الساعين في حَصْره ثم قتله؛ كلهم مخطئون ، بل ظالمون باغون معتدون ممن يَسْعَون في الأرض فساداً[2] .

---

(١) انظر : عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٧٨ .
(٢) انظر : منهاج السنة : ٣/ ٦٩٤ .

●● ولم يَعْتِب على عثمانَ ولا خرج عليه أحد من أكابر الصحابة أو السابقين إلى الإسلام ، ولا افتاتَ عليه المهاجرون والأنصار ، ولا أشعلَ في وجهه الفتنة واحد من الصحابة عامة ولا التابعين لهم بإحسان ، مع أن بعض كبارهم قد خالفوه في بعض الاجتهادات وبعض سياساته في مسيرة الدولة ، كما جرى له مع عليٍّ بشأن التمتع بالحج ، ومع عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود في إتمام الصلاة بمنى ، ومع أبي ذَرّ في سياسة المال ، ومن بارع الأمثلة في ذلك ما رواه عمران بن عبد الله الخزاعي عن سعيد بن المسيِّب قال : (شهدتُ عليّاً وعثمانَ وكان بينهما نَـزْغٌ من الشيطان ، فما تَرَكَ واحدٌ منهما لصاحبه شيئاً إلا قال له ، فلو شئت أن أقصَّ عليك[1] ما قالا فعلتُ ، ثم لم يَـبْرَحا حتى اصطلحا واستغفر كل واحد منهما لصاحبه) ! .

وفي رواية أبي سعيد الخُدْري : (فما صليتُ الظهر حتى دخلا ، أحدُهما آخذٌ بيد صاحبه ، كأنهما أَخَوان لأمٍّ وأبٍ ـ يعني عثمان وعليّاً ـ !)[2] .

لكنهم رضي الله عنهم ما خرجوا عليه ، ولا ألَّبوا الناس ضده ، ولا ناصَبُوه العداء ، ولا ناصروا أولئك (السبئيين المنافقين) ، فَضْلاً عن أن يجيِّشوا الدَّهْماء ليحاصروه ويخلعوه ، بل إن الصحابة جميعاً ناصروه ونافحوا عنه ، وسبُّوا أولئك الخارجين ولعنوهم ! .

---

(١) ابن المسيب يخاطب تلميذه عمران .

(٢) العلل ، للإمام أحمد ، برواية ابنه عبد الله (٢٠٥٣) و(٢٠٥٤) ، وإسنادهما صحيح .

رابعاً: تشديد الحصار، ومواقف الصحابة، وعروض على عثمان، وثباته الراسخ على هديه:

●● ذكر الطبري في رواية مطولة عن سيف: (لما جاءت الجمعة التي على أثر نزول المصريين ـ وكذا العراقيين ـ مسجدَ رسول الله ﷺ، خرج عثمان فصلَّى بالناس، ثم قام على المنبر فقال: يا هؤلاء الغُزَّاء، اللهَ اللهَ! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ، فامحوا الخطأ بالصواب، فإن الله لا يمحو السيِّئ إلا بالحسن.

فقام محمد بن مَسْلَمة فقال: أنا أشهدُ بذلك، فأخذه حُكَيم بن جَبَلة فأقعده. فقام زيد بن ثابت فقال: ابغِني الكتاب، فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قُتيرة فأقعده، وقال فأَفظَعَ! وثار القوم بأجمعهم فحَصَبُوا الناسَ حتى أخرجوهم من المسجد، وحَصَبُوا عثمانَ حتى صُرع عن المنبر مغشيّاً عليه، فاحتُمِل فأُدْخِل دارَه!). ودخل عليه علي وطلحة والزبير وغيرهم يعودونه من صرعته، ويشكُون بثَّهم[1].

وعن الحسن البصري قال: شهدتُ حَصْرَ عثمان وأنا يومئذٍ غلام في أتراب لي في المسجد، فأقبل القوم حين أقبلوا حتى نزلوا المسجدَ وما حوله، فاجتمع إليه أناسٌ من أهل المدينة يُعظمون ما صنعوا، وأقبلوا على أهل المدينة يتوعَّدونهم! فبينا هم كذلك في لَغَطِهم حول الباب، فطلع عثمان، فكأنما كانت نار طَفِئتْ، فعَمَدَ إلى المنبر فصعده، فحمدَ الله وأثنى عليه، فثار رجل فأقعده رجل، وقام آخر

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٩٦ ـ ١٩٧.
الغزَّاء: جمع غازٍ. **حصبوا الناس**: رموهم بالحصباء وهي الحصى.

فأقعده آخر ، ثم ثار القوم فحَصَبُوا عثمانَ حتى صُرِع ، فاحتُمل فأُدْخِل ، فصلى بهم عشرين يوماً ، ثم منعوه من الصلاة[1].

واجترأ بعض أولئك الأشقياء المجرمين على أمير المؤمنين؛ فبينا طائفة منهم جالسون في نارٍ لهم ، فمرَّ عثمان بهم فسلَّم ، فرد القوم السلام ، فقام جَبَلة بن عَمْرو الساعدي وكان في يده (جامعة)[2] وأقبل على عثمان فقال : والله لأطرحنَّ هذه الجامعة في عنقك أو لتتركنَّ بطانتك هذه ـ يعني معاوية ومروان وابن عامر وأمثالهم من الذين وَلُوا لعثمان ـ! فانصرف عثمان ، فما زال الناس مجترئين عليه من يومئذ[3].

ويروي يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال : (أنا أنظر إلى عثمان يخطب على عصا النبي ﷺ التي كان يخطب عليها وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقال له جَهْجَاه : قم يا نَعْثَل[4] ، فانزلْ عن هذا المنبر ، وأَخذ العصا فكَسَرها على ركبته اليمنى ، فدخلت شَظيَّة منها فيها ، فبقي الجرح حتى أصابتْه الأكِلة ، فرأيتُها تدوِّد! فنزل عثمان ، وحملوه ، وأَمر بالعصا فشَدُّوها ، فكانت مُضبَّبة. فما خرج بعد ذلك اليوم إلا خَرْجة أو خرجتين ، حتى حُصِر فقُتل)[5].

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٥٣.

(٢) هي الغُلُّ يجمع اليدين إلى العنق.

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦؛ البداية والنهاية : ٧/ ١٧٦.

(٤) كان أعداء عثمان يسمّونه (نعثلاً) تشبيهاً برجل من مصر كان طويل اللحية اسمه (نعثل).

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧؛ البداية والنهاية : ٧/ ١٧٥؛ وأبو نعيم في الدلائل ، ص٢٢١؛ وابن السكن؛ وذكره الحافظ في الإصابة : ١/ ٢٥٥؛ وعند=

●● وزاد أولئك السبئيُّون الظلمة من وطأة حصارهم ، وأخذوا يضيِّقون على حركة أكابر الصحابة حتى لا ينصروا عثمان ، ورموا داره بالحجارة تمهيداً لاقتحامها وتنفيذ جريمتهم الكبرى .

فقد ثابَتْ جماعة من الصحابة إلى أمير المؤمنين عثمان ، منهم: أبو هريرة وزيد بن ثابت وسعد بن أبي وقاص وجماعة من أهل الأمصار . فلما رأى القوم أن الناس قد ثابوا إلى عثمان ، وضعوا على عليٍّ رقيباً في نفر فلازمه ، وعلى طلحة رقيباً ، وعلى الزبير رقيباً ، وعلى نفرٍ بالمدينة ، وقالوا لهم : إنْ تحرَّكوا فاقتلوا[1]! .

وشدَّدوا الحصار على أمير المؤمنين وأهلِ بيته ، فحالوا بين الناس وبينه ، ومَنَعُوه كلَّ شيء حتى الماء ، وقد كان يُدْخَل عليه بالشيء مما يريد ، وطلبوا العِلَل فلم تطلُعْ عليهم عِلَّة ، فعثروا فرمَوْا في داره بالحجارة ليُرْمَوْا ، فيقولوا : قُوتِلنا ـ وذلك ليلاً ـ فناداهم : ألا تتقون الله! أما تعلمون أن في الدار غيري؟! قالوا : لا والله ما رَمَيْناك ، قال : فمن رمانا؟ قالوا : الله ، قال : كذبتم ، إن الله لو رمانا لم يُخْطِئْنا وأنتم تخطئوننا![2] .

●● تصاعدت وتيرة الحصار ، وضَيَّق أولئك الخوارج على أهل المدينة ممن لم يذهب للحج ، وفي الأيام التي مُنع عثمان فيها من الخروج للصلاة ، كان يصلي بالناس أحياناً الغافقيّ بن حرب! .

= ابن أبي شيبة مختصراً: ٧/ ٤٨٨ ، وإسناده صحيح . **الأكلة** : الغنغرينا .

(١) مختصر ابن عساكر : ١٦/ ٢٣٩ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٨٥؛ مختصر ابن عساكر : ١٦/ ٢٤٠ .

فقد صلى عثمان بالناس بعدما نزل السبئيون به في المسجد ثلاثين يوماً ، ثم إنهم منعوه الصلاة ، فصلى بالناس أميرهم الغافقيُّ ، دانَ له المصريون والكوفيون والبصريون وتفرَّق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم ، لا يخرج أحدٌ ولا يجلس إلا وعليه سيفه يمتنع به من رَهَق القوم. وكان الحصار أربعين يوماً ، وفيهن كان القتل ، ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح ، وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوماً يكفُّون[1].

واحرَّ قلباه! هذا (الغافقي) صنيعةُ اليهودي ابن سبأ ، الطامحُ للزعامة والذي خرج من شقة بعيدة وجاء خارجاً على أمير المؤمنين عثمان؛ يجترئ فيتقدَّم إلى المقام الذي طالما وقف فيه رسول الله ﷺ وخلفاؤه الثلاثة يؤمُّون الركَّع السُّجود ، فيأتي هذا الوغد فيقف فيه ويؤم الناس؟! إنها نازلة النوازل وعجيبة العجائب! هل عند الغافقي ذرة من علم نبوي أو دين أو حياء أو أدب فيعرف قدر نفسه وهو يتقدم الناس فيؤمهم ، وفي المدينة علي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وابن عمر وجابر وأنس وأمثالهم؟! تبّاً لقوم هذا قائدهم!.

ولهذا المعنى وغيره ترى الأخيار قد تردَّدوا في ملازمة صلاة الجماعة خلفه ، وعبَّر عن موقفهم ذلك الرجلُ الصالح الذي يروي لنا هذا الحديثَ وذاك (الموقفَ الراشدي) من (الخليفة الصابر المظلوم):

عن عُبيد الله بن عَديّ بن الخِيار: (أنه دخل على عثمانَ بن عفان رضي الله عنه وهو محصورٌ ، فقال: إنك إمامُ عامَّةٍ ، ونَزل بك ما نَرى ، ويصلِّي لنا إمامُ فتنةٍ ونتحرَّجُ! فقال: الصلاةُ أحسنُ ما يَعمل

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٤.

الناسُ ، فإذا أحسنَ الناسُ فأَحْسِنْ معهم ، وإذا أساؤوا فاجْتَنِبْ إساءَتهم)[1].

وقال عثمان مثلَ ذلك لأبي قتادة الأنصاري ورجلٍ آخر[2].

وهذا من أمير المؤمنين عثمان في غاية الإخلاص والورع والنُّبل والحرص على إقامة شعائر الإسلام وعدم تعطيلها مهما كانت الذرائع ، وهو يقول لعبيد الله ما معناه: لا يضرّك كونه مفتوناً ، بل إذا أحسن فوافقْه على إحسانه واترك ما افتتن به ، وصلاة الجماعة لا شك شيء حسن جدّاً.

وقد روى سيف في «الفتوح» عن سَهْل بن يوسف الأنصاري عن أبيه قال: (كَره الناس الصلاة خلف الذين حصروا عثمان ، إلا عثمان فإنه قال: مَن دعا إلى الصلاة فأجيبوه)[3].

وصلى لهم في بعض تلك الأيام (كِنانة بن بِشْر) ، وهو من رؤوس الفتنة والشر أيضاً.

لكن لم يصلِّ أولئك المنحرفون كل تلك المدة ، بل أَمَّ الناسَ جماعةٌ من أجلَّاء الصحابة:

فقد صلى بالناس إماماً أبو أمامة بن سَهْل بن حُنَيْف عن أمر عثمان ، وسنده صحيح.

---

(١) علقه البخاري (٦٩٥) ؛ ووصله الإسماعيلي كما في الفتح: ٣/ ١٠٢.
(٢) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢١٧؛ الإمامة ، لأبي نعيم ، ص٣٥٧؛ مصنف عبد الرزاق (٢٠٩٦٦).
(٣) الفتح: ٣/ ١٠٣.

وفي رواية: صلَّى بهم سَهْل بن حُنيف، وسنده قوي[1].

وصلَّى علي بن أبي طالب عيد الأضحى بالناس، ثم خطب بعد الصلاة.

وصلى بالناس غير هؤلاء من الصحابة[2].

وقال الحافظ: وليس واحد من هؤلاء مراداً بقوله: (إمام فتنة).

وقد أخطأ الدكتور علي الصلابي ـ مقلِّداً صاحبَ كتاب «فتنة مقتل عثمان» ـ في قوله بضعف روايات صلاة أحد من الصحابة إماماً بالناس وقت حصر عثمان، لأنها من طريق الواقدي[3]، ولو راجع شرح حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار في «فتح الباري» لما قال ما قال!.

●● في هذه الظروف القاسية، والوطأةُ تشتد على أمير المؤمنين الخليفة المحصور، والصحابة يحمونه ويدافعون عنه، ويدخلون عليه الواحد بعد الآخر، **قدَّموا له عدة حلول ومخارج لتلك الأزمة الخانقة والمؤامرة اليهودية السبئية، وعثمان يُصِرّ على موقفه في المسالمة ورفض القتال وعدم إراقة قطرة دم، والثبات في الموقف والبقاء في المكان حتى آخر نَفَس له؛ ليكون موته في بلد رسول الله ﷺ!**.

---

(١) الفتح: ٣/ ١٠٢؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ٤/ ١٢١٧ ـ ١٢١٨.

(٢) الفتح: ٣/ ١٠٢؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ٤/ ١٢١٦؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٤٢٣.

(٣) انظر: كتابه «عثمان بن عفان»، ص٤١٨؛ «فتنة مقتل عثمان»، لمحمد عبد الله الغبان: ١/ ١٤٥.

دخل عليه المغيرة بن شعبة وقال له: (إنك إمامُ العَامَّةِ ، وقد نزل بك ما ترى ، وإني أَعْرِضُ عليك خِصالاً ثلاثاً اختَرْ إحداهنَّ: إما أن تَخْرُجَ فتقاتلَهم ، فإن معك عَدداً وقوةً ، وأنت على الحق وهم على الباطل. وإما أن نَخْرِقَ لك باباً سوى الباب الذي هم عليه ، فتقعدَ على رواحِلكَ فتلحقَ بمكة ، فإنهم لن يَستحلُّوك وأنت بها. وإما أن تَلْحَقَ بالشام ، فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية. فقال عثمان: أمَّا أن أَخرجَ فأقاتلَ؛ فلن أكونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ رسول الله ﷺ في أمته بسَفْكِ الدماء. وأمَّا أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يَستحلُّوني بها؛ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يُلْحِدُ رجلٌ من قريش بمكة يكونُ عليه نصفُ عذاب العالم**» ، فلن أكون أنا إياه. وأمَّا أن ألحقَ بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية؛ فلن أُفارِقَ دار هجرتي ومجاورةَ رسول الله ﷺ)[1].

وعَرض عليه نحوَ ذلك عبدُ الله بن الزبير[2] وأسامة بن زيد[3] ، وهو في كل ذلك يأبى القتال ، ويرفض الخروجَ من المدينة النبوية ، ويستعصم بالصبر لأمر الله تعالى.

وقد كان معاوية عَرض عليه نحو ذلك من قبلُ ، فأبى عثمان ، فقال له معاوية: والله يا أمير المؤمنين لَـتُغْزَينَّ أو لتُغتالَنَّ! فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل[4]. وصدق معاوية في ذلك وفي تفرُّسِه في وجوه أولئك

(١) أخرجه أحمد (٤٨١)؛ وعمر بن شبة في تاريخ المدينة: ٢/٢٤٦ ، وضعفه أحمد شاكر بالانقطاع ، ويشهد له روايات أخرى يتقوى بها.

(٢) البداية والنهاية: ٧/١٩٨.

(٣) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٥؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/١٨٨ ـ ١٨٩.

الخوارج المفترين ، ونظره في سيرتهم وتاريخهم عندما جاء نفر منهم إلى الشام وهم (المُسيَّرون).

لله درُّ أمير المؤمنين ذي النورين ، فكم كان حريّاً بأولئك الأوباش والمنحرفين أن يَنهلوا من مَعين نُبله ، ويستضيئوا بنور فؤاده ، ويتفيَّؤوا ظلال عدله ورحمته ، ويَفُوا له بما بذل لهم من عفو وصفح ورأفة ومسامحة! لكن أنى لهم ذلك وقد غذوا بالأهواء ، ورضعوا الكراهية والحقد ، وصِيغوا بأكاذيب المارقين والمحدودين واللصوص وذوي المطامع والشهوات الرخيصة؟!.

●● ومن خلال استعراض تلك الأحداث والمشاهد الكثيرة المتطاولة التي اشتعلت فيها الفتنة على مدى نحو ثلاث سنين ، وفي رقعة شملت مصرَ والكوفة والبصرة وتَشَظَّتْ إلى أمصار أخرى ـ نجد أمير المؤمنين قد سَلَكَ جميعَ السُّبل ، واتبع مختلِف الأساليب ، وبذلَ كل ما يمكن أن يبذله الخليفة والوالي والمصلح والمرشد والمعلم والأب والأخ؛ الذي يريد عزة الإسلام وحماية الدولة وصلاح المجتمع وإطفاء الفتن.

ومن الجهة المقابلة رأى أن القومَ الخارجين قد أصرُّوا على التمادي في الفتنة ، والكفران والعصيان والبغي والعدوان وارتكاب الجرائم مهما كانت نتائجها ، فألقى بيديه إلى القدر ، واستسلم لأمر الله ، ولزِم داره ، عازماً على أن يفدي الأمة بنفسه ، وقد عَلِمَ أنه سيقضي شهيداً مع بلاء شديد ، وهو يرى أن وقت ذلك قد حان!.

جاء في الحديث الطويل الذي رواه أبو سعيد مولى أبي أُسيد الأنصاري ، أن عثمان أَشرف على القوم المحاصِرين له ، وذكر في مشهد

من الصحابة بعضَ مناقبه وأعماله ، ثم قال أبو سعيد :

(ورأيتُه أَشرفَ عليهم مرةً أخرى ، فوَعَظَهم وذَكَّرَهُم ، فلم تأخذْ منهم الموعظةُ ، وكان الناسُ تأخذُ منهم الموعظة في أول ما يَسمعُونها ، فإذا أُعِيدتْ عليهم لم تأخذ منهم! فقال لامرأته : افتحي الباب ، ووَضَع المُصْحَفَ بين يديه)[1].

ولـزِم عثمـان داره ، وأَمـر بجمـع المسلميـن وضَـمَّ إليهـم أولئك الخوارج ، وأَرسل وراء عليٍّ وطلحة والزبير وعدَّة من أعيان الصحابة ، فاجتمعوا ، فأشرف عليهم فقال :

(يا أيها الناس ، اجلِسُوا ، فجلسوا جميعاً؛ المحاربُ الطارئ والمسالمُ المقيم ، فقال : يا أهلَ المدينة ، إني أستودِعكم الله ، وأسأله أن يُحسِنَ عليكم الخلافة من بعدي ، وإني والله لا أَدخل على أحدٍ بعد يومي هذا حتى يقضيَ الله فيَّ قضاءه . ولأَدعَنَّ هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتخذونه عليكم دَخَلاً في دين الله أو دنيا ، حتى يكون اللهُ عز وجل الصانعَ في ذلك ما أَحَبَّ) .

وأَمر أهلَ المدينة بالرجوع وأقسم عليـهم ، فرجعوا إلا الحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباهاً لهم؛ فجلسوا بالباب عن أمر آبائهم ، وثَابَ إليهم ناسٌ كثير ، ولزم عثمان الدار[2] .

* * *

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ وانظر ما تقدم ، ص ٦٢٣ ـ ٦٢٤ في هذا الكتاب .
(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٨٥؛ مختصر ابن عساكر : ١٦/ ٢٤٠ .

ولَجَّ السبئيُّون الخوارج على أمير المؤمنين عثمان في خَلْعِ نفسه وإلا قتلوه ، وهو ثابت صابر محتسب لم يُعطِهم شيئاً مما أرادوه. . . وهذا ما نبحثه في الفصل التالي.

* * *

الفصل الثامن

استشهاد عثمان

أولاً: عثمان يصر على عدم القتال، ويستسلم للقدر، ويستمسك بالعهد النبوي:

كان عثمان يعلم حق العلم بالبلاء الشديد الذي يكتنف حياته في أيام خلافته، حيث حفظ ذلك ووعاه عن رسول الله ﷺ وقد بَشَّره بالجنة والشهادة ومعها بلاءٌ شديدٌ، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري: أن النبي ﷺ قال له: («افتَحْ له وبَشِّرْه بالجنة على بلوى تُصِيبُه»، فإذا عثمانُ، فأخبرتُه بما قال رسول الله ﷺ، فحمدَ الله، ثم قال: اللهُ المستعانُ).

وفي رواية: (ثم جاء آخَرُ فسَلَّم، فقال النبي ﷺ: «اذهَبْ فَأْذَنْ له، وبَشِّرْه بالجنة على بلوى شديدة»، قال: فانطلقتُ، فإذا هو عثمانُ، فقلتُ: ادخُلْ، وأَبْشِر بالجنة على بلوى شديدة، قال: فجعل يقول: اللهمَّ صبراً! حتى جَلَس)[1].

ويتمثَّل ذلك البلاء بما أوضحناه مفصلاً؛ بَدءاً من حملات التشويه لسيرته وهديه في الحكم وسياسة الرعية، مروراً بالخروج عليه وحصاره وحَصْبِهِ على المنبر ومَنْع الطعام والشراب عنه، وانتهاءً بتسوُّرِ

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وقد تقدم بتمامه: ص ١٣٧ في هذا الكتاب.

داره والدخول عليه وقتله وبين يديه المصحف الشريف!.

فهو قد تيقن أنه سيَقضي شهيداً ويمضي إلى ربه سعيداً، فعزم على أن يفدي الدينَ والدولة والأمة بنفسه، ويؤثر وحدتها على حياته، فبذل مُهجتَه فداءً لحفظ كيان الجماعة وصَوْن كرامة الأمة، وكان في مُكْنته أن يقي نفسه ويخلِّصها لو أنه أراد نفسه ولم يُرِدْ حياة الأمة، ولو أنه كان (أنانيّاً) ولم يكن (إيثاريّاً)؛ لدَفَع بما هَبَّ للذَّوْد عنه من شباب المسلمين وأبناء المهاجرين والأنصار إلى نحور الخارجين المنحرفين، ولكنه أراد الأمة ففداها بنفسه صابراً محتسباً[1].

ولهذا كان موقف أمير المؤمنين عثمان حازماً حاسماً منذ اللحظة الأولى، وبقي ثابتاً عليه متمسكاً به حتى آخر رَمَقٍ من حياته؛ حيث رفض مقاتلةَ أولئك الخوارج السبئيين المحاصرين له، ونَهى آحادَ الصحابة وجماعاتهم عن الدفاع عنه، وأمرهم بحقِّ ولايته عليهم وطاعتهم له أن يَكفُّوا عن استخدام السلاح، وألا يُهْرِيقوا بسببه مِحْجَمة من دم، وذلك وفاءً بما عَهِد إليه به رسولُ الله ﷺ من الصبر على تلك الابتلاءات العظيمة التي تناوشَتْه، وتوالت عليه، حتى كان أعنفها باغتيال روحه وسفك دمه الزكي!.

عن قيس بن أبي حازم: (عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: «**وَدِدْتُ أن عندي بعضَ أصحابي**»، قالت: فقلنا: يا رسولَ الله، ألا ندعو لك أبا بكر، فسكَتَ. قلنا: عمرُ؟ فسكتَ. قلنا: عليٌّ؟ فسكتَ. قلنا: عثمانُ؟ قال: «**نعم**». قالت: فأرسلنا إلى عثمان، قالت: فجعل النبي ﷺ يكلِّمُه، ووجْهُه يتغيَّر!.

---

(١) انظر: عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٨٧.

قال قيس: فحدَّثني أبو سَهْلَة أن عثمان قال يوم الدار: إن رسول الله ﷺ عَهِدَ إليَّ عَهْداً وأنا صابرٌ عليه. قال قيسٌ: كانوا يرون أنه ذلك اليوم).

وفي رواية: عن قيس، عن أبي سَهْلَة مولى عثمان، عن عائشة، (قالت: فجاء عثمانُ، فقال: «قومي». فجعل النبي ﷺ يُسِرُّ إلى عثمانَ، ولونُ عثمان يتغيَّر! قال[1]: فلما كان يومُ الدار قلنا: أَلاَ تُقاتِل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عَهِدَ إليَّ أمراً، فأنا صابرٌ نفسي عليه!)[2].

●● لماذا يصر أمير المؤمنين عثمان على عدم القتال؟

جاء في كثير من الأحاديث وصفٌ للفتن وبواعثها، وأسبابها ونتائجها، وموقدي جذوتها والقائمين بها والساعين إليها، ولكثرة الفتن التي تحيق بالأمة وتتساقط في ربوعها كمواقع القَطْر، وللخسائر الفادحة التي تترتب على نزولها، ولأن العقول تطيش وقتها، وتزلُّ الأقدام حِيالَها، وتَحارُ الأفهامُ في علاجها، ويصعب الخلاص منها على العقلاء فضلاً عن العوام ـ فإن رسول الله ﷺ الرحمة المهداة حذَّر وأَنْذَر، وبيَّن وأوضح، وأجملَ وفَصَّل، وتحدَّث فأكثر عن الفتن التي ستُفتح أبوابها بعد وفاته ﷺ[3].

وقد اختلَفت أنظارُ الصحابة في مواقفهم من فتن الاقتتال بين

---

(١) أي: أبو سهلة مولى عثمان.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١١٣)؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٤٨٩؛ وابن حبان (٦٩١٨)؛ والحاكم: ٣/ ٩٩، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٣) انظر في بيان أسباب الفتن وكثرتها والحكمة من ذكرها وبيانها للأمة: كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ٢/ ٧ ـ ١٨، نبوءة رقم (٣٩).

المسلمين ، حسبما عَلِمه كل منهم عن تلك الفتن واطلع عليه منها ، وبناءً على فهمه وتصوُّرِه لها وسيرورتها وخطورتها والقضاء عليها أو علاجها وكفكفة جماحها. لذا فمنهم من لاَبَسَها ، وآخرون بذلوا جهودهم في الإصلاح ، وفريق ثالث اعتزلها بالكلية حيث لم يَستبِنْ له وجه الحق فيها.

وفتنة مقتل عثمان كانت مروِّعة ومُفْظِعة ، طاشَتْ بعقول الألباء فَضلاً عمن هم دونهم ، وقد كان عثمان محورَ الأحداث فيها وهو المستهدف في شخصه ونفسه ومنصبه ، وهو قد حَزَم أمره وحَسَمَ موقفه منها ، فاعتزَلَها وكَفَّ يدَه عنه ، بل أَمر كل من له عليه طاعة أن يَكفَّ يده ويُغمد سيفَه ، ونهاهم عن القتال وإراقة قطرة من دم.

وكان في مسلكه الحازم الصلب هذا ينطلق من أسس قد علمها ، ومبررات قد رآها ، واجتهادات قد توصل إليها ، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

١ ـ معرفة عثمان التامة بهذه الفتنة التي أحاطت به ، وأنه في مسلكه منها على الحق والهدى؛ فبقي معتصماً بهديه وموقفه من أعدائه إلى آخر لحظة ، وزاده اطمئناناً إلى هذا وصاةُ النبي ﷺ الصحابةَ بأن يكونوا مع عثمان ويتبعوه ويؤيِّدوه ويعملوا حسب سياسته وهديه فيها:

عن أبي هريرة قال: (إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنكم تَلْقَوْنَ بعدي فتنةً واختلافاً** ، أو قال: **اختلافاً وفتنة**» ، فقال له قائل من الناس: فَمَن لنا يا رسول الله؟ قال: «**عليكُم بالأمينِ وأصحابه**» ، وهو يُشير إلى عثمان بذلك).

وفي حديث عبد الله بن حَوَالة : أن النبي ﷺ قال: «**اتَّبِعْ هذا ، فإنه يومئذٍ ومن اتَّبَعَه على الحق**»[1].

وهذا يشمل ـ فيما نحسب ـ موقف عثمان من الفتنة في جميع مراحلها.

٢ ـ علمُه بأنه مبتلى ببلوى شديدة وأنه سيُقتل ظلماً ، ويَقضي شهيداً ، وقد ثبت هذا عنده في أحاديث عدَّة علمها من النبي ﷺ؛ منها: (ادخلْ وأبشِرْ بالجنة على بلوى شديدة ، فجعل يقول: اللهم صبراً ، حتى جلس). وفي الحديث الآخر عن ابن عمر قال: (ذكرَ رسول الله ﷺ فتنةً ، فمرَّ رجلٌ ، فقال: «**يُقْتَلُ فيها هذا المُقَنَّعُ يومئذٍ مظلوماً**» ، قال: فنظرتُ ، فإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله تعالى عنه)[2].

٣ ـ وكان عثمان على علم تام بأن الخوارج السبئيين إنما يريدون قتله هو دون غيره ، وأنهم سيجتمعون عليه لذلك ، كما تبين له من سيرورة الأحداث: (نَقْدَم فنحيط به فنخلعه ، فإن أبى قتلناه)[3]. **وواجهه بذلك** رأسُ الشرِّ الأشتر النخعي: (يُخيِّرونك بين أن تخلَعَ لهم أمرَهم ، فتقول: هذا أمرُكم فاختاروا له من شئتم ، وبين أن تُقِصَّ من نفسك ، فإنْ أبيتَ هاتين فإنَّ القوم قاتِلوك)[4].

---

(١) الحديثان صحيحان ، تقدما: ص ٥١٧ في هذا الكتاب.

(٢) انظر ما تقدم: ص ٥١٦ ـ ٥٢٠ في هذا الكتاب.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٦.

(٤) تقدم مطولاً: ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣ في هذا الكتاب.

وقال عثمان غير مرة: (إنما تُراد نفسي)[1].

بل وعنده في هذا علمٌ يَأْثُره عن النبي ﷺ، وقد حدَّث به عبدَ الله بن مسعود قبل استشهاده بنحو أربع سنين، قال عثمان لعبد الله: (وَيْحَكَ! إني قد سمعتُ وحفظتُ، وليس كما سمعتَ، إن رسول الله ﷺ قال: «سيُقْتَلُ أميرٌ ويَنْتَزِي مُنْتَزِي» وإنِّي أنا المقتولُ، وليس عمر، إنما قَتَلَ عمرَ واحدٌ، وإنه يُجْتَمَعُ عليَّ!)[2].

٤ ـ تمسُّكُهُ بالعهد الذي عَهِدَه إليه رسول الله ﷺ، وعملُه بوصيته، في سبيل إنهاء الفتنة، وتجنباً لنشوب الاقتتال وإراقة الدماء، وقد وفى عثمان بذلك أيَّما وفاء. ففي حديث عائشة المتقدم: (قال أبو سَهْلة مولى عثمان: فلما كان يومُ الدار قلنا: ألا تُقاتِل؟ قال: لا، إنَّ رسول الله ﷺ عَهِدَ إِليَّ أمراً، فأنا صابرٌ نفسي عليه)[3].

٥ ـ خوفُ عثمان الشديد من قتلِ أي نفس ظلماً، وهو يعلم أن الفتن تأتي مشتبهة، وأن في القوم الخارجين عليه أغماراً ومغفَّلين ومخدوعين؛ فخشي إن نشِب قتال أن تُراق دماء بريئة، أو على الأقل في سفكها شبهة، فأراد أن يخرج من الدنيا إلى ربه طاهراً نقيّاً بريئاً من قطرة دم تُهراق بغير وجه حق! فكان يُصِرّ على كل الصحابة الذين هَبّوا لنصرته جماعاتٍ وأفراداً، ويقول: (أُذَكِّر اللهَ رجلاً أَهْرَاق فيَّ دماً).

وقال لأبي هريرة: (يا أبا هريرة، أَيَسُرُّكَ أن تَقتل الناس جميعاً

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٧٩؛ المطالب العالية: ٤/ ٢٩٠.

(٢) أخرجه أحمد (٤٧٩)، وضعفه أحمد شاكر لانقطاعه.

(٣) تقدم: ص ٦٦٤ في هذا الكتاب.

وإيايَ؟ قلت: لا ، قال: فإنك والله إنْ قتلتَ رجلاً واحداً فكأنما قُتل الناسُ جميعاً)[1].

٦ ـ حرصُه على وحدة الأمة والجماعة ، وخشيتُه من أن يكون سببَ اشتعال الفتنة في المسلمين وتفريقِ كلمتهم وتمزيق شملهم. ونظريةُ الإسلام لا تأبى أن يذهب الفرد مهما تكن قيمته فداءً لحفظ كيان الجماعة وصَوْن كرامة الأمة ، وقد جعل أمير المؤمنين عثمان نفسَه مضربَ المثل في تحقيق هذه النظرية الاجتماعية[2] ، ويُكْثِر أن يقول: إنما تُراد نفسي ، وسأَقِي المؤمنين بنفسي!.

٧ ـ ومن الأسباب أيضاً: أن عثمان حافظ على نظام الإسلام وسننه في الاتباع وعدم الابتداع ، وأنه لن يكون أولَ مَن يَسنُّ سفك الدماء في الأمة ، فتكون سنة سيئة يقتدي به فيها مَن بعده ، وقد صرح بذلك للصحابة عندما عزموا عليه بمواجهة الخوارج المنحرفين ، فقال: (أمّا أن أَخرج فأقاتلَ؛ فلن أكونَ أولَ من خَلَف رسولَ الله ﷺ في أمته بسَفْكِ الدماء)[3].

٨ ـ واستأنس برأي الصحابي الجليل عبد الله بن سلام ، فأَرسل إليه وسأله عن الموقف من هؤلاء المجرمين الذين أحاطوا بداره ، فقال له: ما ترى؟ فقال: الكَفَّ الكَفّ ، فإنه أبلغُ في الحجة[4].

---

(١) تاريخ خليفة ، ص١٧٣ ؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٠ ، بإسناد صحيح.

(٢) انظر: عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٨٧.

(٣) تقدم: ص ٦٥٨ في هذا الكتاب.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧١؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨١ ، وسنده حسن.

ثانياً: الصحابة يُصِرُّون على الدفاع عن عثمان ويتبعون أساليب متعددة:

ومع إصرار عثمان على الصحابة في كفكفة الفتنة ، وأمرِهم بإغمادِ سيوفهم وتركِ الدفاع عنه وعدم مقاتلة أولئك الخوارج ، وتأكيده بأن لا يريقوا بسببه مِحْجَمة من دم ، فإن الصحابة رضي الله عنهم مع طاعتهم له وملازمتهم أمرَه ، لم يتركوه ولا عادوا إلى بيوتهم ، بل باتوا قريبين منه ، يَغدون عليه ويروحون ، ويرسِلون إليه أبناءهم وشباب الصحابة للمكث الدائم عنده ، حتى لا يغدر به أولئك السبئيون المجرمون ، ويرون أن حمايته والدفاع عنه ومجاهدة أولئك المارقين من أكبر واجبات النصرة لأمير المؤمنين.

وقد رغب الصحابة وأبناؤهم وكل مَنْ في المدينة من الصالحين بالدفاع عن الخليفة المحصور ، وقدَّموا بين يديه نماذجَ من التضحيات ، وعَرضوا عليه شتى ألوان الذَّود والفداء ، وردّ طغيان الخارجين ، فما وجدوا منه إلا الرفض التام للقتال وحمل السلاح.

وكان للمهاجرين الذين هم طلائع الإسلام ونواته الأولى ، وللأنصار وهم أهل الإيواء والنصرة ودار الإسلام ـ دورٌ عظيم في الدفاع عن أمير المؤمنين ، وتقديم جميع أصناف الحماية له.

ـ عنِ عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: (كنتُ مع عثمان في الدار ، فقال: أَعْزِم على كل من رأى أن لنا عليه سمعاً وطاعة ، إلا كَفَّ يدَه وسلاحَه ، فإن أفضَلَكم عندي غَناءً مَن كَفَّ يده وسلاحه)[1].

---

(١) تاريخ خليفة ، ص١٧٣ ؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٢٠ ؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٠ ، وسنده صحيح.

ـ وعن محمد بن سيرين قال: (كان مع عثمان يومئذٍ في الدار سبعُ مئة ، لو يَـدَعُهم لضربوهم إن شاء الله حتى يُخرِجوهم من أقطارها ، منهم ابن عُمر والحسن بن علي وعبد الله بن الزبير)[1].

ـ وعن جابر بن عبد الله: (أن عليّاً أَرسل إلى عثمان أن معي خمسَ مئة دارعٍ ، فَأْذَنْ لي فأمنعَكَ من القوم ، فإنك لم تُحدِثْ شيئاً يُستَحلُّ به دمُك! قال: جُزِيتَ خيراً ، ما أُحبُّ أن يُهراق دمٌ في سببي)[2].

ـ وروى موسى بن عُقْبة ، عن جدِّه لأمِّه أبي حَبيبة مولى الزبير بن العوام قال: (بعثني الزبير إلى عثمان وهو محصور ، فدخلتُ عليه في يوم صائف ، وهو على فُرش ذي ظهر ، وعنده الحَسن بن علي وأبو هريرة وعبد الله بن عُمر وعبد الله بن الزبير ، وبين يديه مَرَاكِن ماء مملوءة ، ورياط مطروحة ، فقلت: بعثني إليك الزبير ، وهو يُـقرِئُكِ السلام ، ويقول: إنِّي على طاعتِك لم أبدِّلْ ولم أَنْـكُثْ ، فإنْ شئتَ دخلتُ الدار معك فكنتُ رجلاً من القوم ، وإن شئتَ أقمتُ ، وإن بني عَمْرو بن عوف[3] وعدوني أن يُصبِحوا على بابي ثم يمضوا لما آمرُهم به. فلما سمع الرسالة قال: الله أكبر! الحمد لله الذي عَصَمَ أخي ، أَقرِئْه السلامَ وقل له: إنْ يدخل الدار لا يكون إلا رجلاً من القوم ، فمكانُك أَحَبُّ إِليَّ ، وعسى أن يدفع الله بكَ عنِّي.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧١؛ الإمامة ، لأبي نعيم ، ص٣٣٢ ، وإسناده صحيح إلىٰ ابن سيرين؛ وفي تاريخ خليفة (ص١٧٣) نحوه: عن ابن سيرين عن سليط بن سليط.

(٢) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٢٠.

(٣) قَبِيل كبير من الخزرج أحد فرعي الأنصار.

فلما سمع الرسالة أبو هريرة قام فقال: ألا أُخبركم بما سمعتْ أُذناي من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أبا هريرة، قال: أشهدُ لَسمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**تكون بعدي فتنٌ وأمورٌ وأحداث**»، قلنا: فأينَ المنجا منها يا رسول الله؟ قال: «**إلى الأمين وحِزْبه**» وأشار إلى عثمان بن عفان[1].

فقام الناس فقالوا: قد أَمكَنَـتْنا البصائر، فَأْذَنْ لنا في الجهاد! فقال عثمان: عزمتُ على مَنْ كانت لي عليه طاعةٌ ألاَّ يقاتِل. قال: فبادرَ الذين قتلوا عثمان ميعادَ بني عمرو بن عوف، فقتلوه رضي الله عنه!)[2].

ـ وقام كعب بن مالك الأنصاري شاعر الرسول ﷺ يُحضِّض الأنصار على نصرة الخليفة، فيقول: (يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله مرتين! يعني في أمر عثمان رضي الله عنه)[3].

ـ وعن قتادة: (أن زيد بن ثابت قال لعثمان: هؤلاء الأنصارُ بالباب يقولون: إنْ شئتَ كنا أنصارَ الله مرتين! فقال: لا حاجة لي في ذلك، كُفُّوا)[4].

ـ وهذا حارثة بن النعمان الأنصاري يسعى إلى الخليفة المحصور،

---

(١) حديث أبي هريرة هذا تقدم: ص ٥١٧ في هذا الكتاب.

(٢) فضائل الصحابة، لأحمد (٨٣٦) وإسناده صحيح؛ وذكره ابن عساكر في «ترجمة عثمان»، ص٣٧٤.

(٣) التاريخ الأوسط: ١/ ١٧١ ـ ١٧٢.

(٤) تاريخ خليفة، ص١٧٣، ومن طريق ابن سيرين عند ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٢؛ وابن سعد: ٣/ ٧٠، ويعتضد الطريقان إلى الحسن

ويؤكِّد له ما تقدم به كعب وزيد ، فيقول لعثمان : إنْ شئتَ أن نقاتل دونك[1] .

ـ ويقول سعد بن أبي وقاص : (جئتُ عثمانَ يوماً ، فقلت : افتح الباب أدخل عليك ، فقال : مكانك أَحَبُّ إلي) .

وكان يقول : (يا أيها الناس ، هذه يدي بما طُلب عند عثمان وإن ضُربت بسوط ، فجعل الناس يردُّون ذلك عليه ، وجعل يُفرجهم عن نفسه بيديه ، حتى إذا غُلب دخل المسجد)[2] .

ـ وعن نافع : أن عبد الله بن عمر كان مع عثمان في الدار ، وأنه لبس الدرع يوم الدار مرتين ، وكان يومئذٍ متقلِّداً سيفَه حتى عَزم عليه عثمان أن يخرج مخافة أن يُقتل[3] .

ـ وعن أبي هريرة قال : قلتُ لعثمان : اليومَ طابَ الضربُ معك ، قال : أَعزِم عليك لتخرجنَّ . زاد في رواية : قال أبو هريرة : فرميتُ بسيفي ، فما أدري أين هو حتى الساعة[4] .

ـ وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن : (أن الحسن بن علي دخل على عثمان فقال : يا أمير المؤمنين ، إنَّا طَوْع يديك ، فَمُرْني بما شئتَ! فقال

---

(١) التاريخ الأوسط : ١/ ١٧٢ ، وإسناده صحيح .
(٢) تاريخ المدينة ، لابن شيبة : ٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٦ .
(٣) تاريخ خليفة ، ص١٧٣ ، بأسانيد صحيحة وحسنة .
(٤) تاريخ خليفة ، ص١٧٣ ، وإسناده صحيح ، وبأطول منه في المطالب العالية : ٤/ ٢٩٠ .

له عثمان: يا ابن أخي ، ارجعْ فاجلس في بيتك حتى يأتي الله بأمرِه ، فلا حاجة لي في هَرَاقة الدماء)[1].

وعن عاصم بن سُليمان: أن الحسن بن علي قال: (رُحْتُ إلى الدار وغدوتُ إليها شهراً ، وعثمان رضي الله عنه محصور ، كل ذلك بعينِ عليٍّ رضي الله عنه ما نهاني يوماً قط. قال: فقام إليه يوم زُحِفَ إليه ، فقال: يا أمير المؤمنين ، علامَ تكُفُّ الناسَ؟ والله لقد حَلَّ لك قتالُهم ، والناس جادُّون ، فَأْذَنْ للناس في قتالهم! فقال: يا ابن أخي ، أعزِم عليك بحقي عليك إلا لحقتَ بأهلك)[2].

ـ وهذا بطلُ شباب الصحابة عبد الله بن الزبير يصف لنا نُصرتهم لعثمان ، فيقول: (قلت لعثمان: يا أمير المؤمنين ، إنَّ معك في الدار عصابةً مستنصرة ينصر الله بأقلَّ منهم ، فَأْذَنْ لي فلأقاتل! فقال: أُذكِّر بالله رجلاً أَهْرَاق فيَّ دَمَه ، أو قال: أهراق فيَّ دماً)[3].

ـ وممن كان مع عثمان في داره ترجمانُ القرآن عبد الله بن عباس ، فأمَّره عثمان على الناس ليُقيم لهم حجَّهم تلك السنة ، فقال: يا عبد الله بن عباس. فدُعِي له ، فقال: اذهَبْ فأنت على الموسم ، وكان ممَّن لزم باب الدار ، فقال: يا أمير المؤمنين ، لَجهادُ هؤلاء أحبُّ إليَّ من الحج! فأقسم عليه لينطلقنَّ ، فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة[4].

---

(١) فضائل الصحابة ، لأحمد (٧٥٣) بإسناد صحيح.

(٢) تاريخ المدينة ، لابن شيبة: ٢/ ٢٤٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٠؛ تاريخ خليفة ، ص١٧٣؛ المطالب العالية: ٤/ ٢٩٤ وإسناده صحيح.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٧؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٤٢.

وقد ساق الطبري[1] نصَّ كتابٍ مطوَّلٍ من عثمان قرأه ابن عباس على الناس يوم التروية ، ونحن لا نستحلُّ روايتَه؛ ففيه الواقدي متروك وشيخُه ابن أبي سَبْرة رموه بالوضع ، وأخطأ بعض المعاصرين فذكروا هذا الكتاب الموضوع في كتبهم[2]!.

ـ ويروي ابن أخي عبد الله بن سَلاَم فيقول: (لمّا أُريد عثمانُ ، جاء عبد الله بن سلام ، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئتُ في نُصرتك ، قال: اخرُجْ إلى الناس فاطْرُدْهم عني ، فإنك خارجٌ خيرٌ لي منك داخلٌ ، قال: فخرج)[3] الحديث.

وقد كرَّر عبدُ الله بن سلام المجيءَ إلى أمير المؤمنين عثمان ، وتردَّدَ إلى أولئك الخوارج عدة مرات ونهاهم عن قتله ، وحذَّرهم مَغَبَّة ذلك غضبَ الله وسخطه[4].

ومع كل ذلك الإلحاح من عثمان على عدم المواجهة والقتال مع عصابات السبئيين الخوارج؛ فإن رهطاً كبيراً من الصحابة وشبانهم وأبنائهم لزموا الدار داخلها وحولها ، ولم يبرحوها ، وكان أميرهم البطل المغوار عبد الله بن الزبير.

عن عروة بن الزبير (عن عبد الله بن الزبير قال: قلتُ لعثمان يوم

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٠٧ ـ ٤١١.
(٢) انظر مثلاً: عثمان بن عفان ، للدكتور علي الصلابي ، ص٤٣٣ ـ ٤٣٧.
(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٣٨) ، وضعفه شعيب الأرنؤوط.
(٤) مجمع الزوائد: ٩/٩٢ ـ ٩٣؛ المطالب العالية: ٤/٢٨٦ ـ ٢٨٧ ، بأسانيد صحيحة وحسنة.

الدار: قاتِلْهم، فوالله لقد أحَلَّ الله لك قتالَهم! فقال: لا والله لا أقاتلُهم أبداً. قال: فدخلوا عليه وهو صائم. قال: وقد كان عثمان أَمَّرَ عبدَ الله بن الزبير على الدار، وقال عثمان: مَنْ كان لي عليه طاعةٌ؛ فَلْيُطِعْ عبد الله بن الزبير)[1].

وعن محمد بن سيرين قال: (انطلق الحسن والحسين وابن عُمر وابن الزبير ومروان كلهم شاكي السلاح، حتى دخلوا الدار، فقال عثمان: أَعْزِم عليكم لَمَا رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزِمْتُم بيوتكم. فخرج ابن عمر والحسن والحسين، فقال ابن الزبير ومروان: ونحن نعزِم على أنفسنا أن لا نبرح!)[2].

وفي رواية مطوَّلة للطبري: أن عثمان خطبهم آخر خطبة له، وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلا الحسن ومحمد بن طلحة وابن الزبير وأشباهاً لهم؛ فجلسوا بالباب عن أمرِ آبائهم، وثَابَ إليهم ناس كثير، ولزِم عثمان الدار)[3].

●● هذه شذرات من أخبار صحيحة صريحة كلها تُثبِت إجماعَ الصحابة على خيرية أمير المؤمنين عثمان وفضله، وأحقّيتِهِ في الخلافة، واستقامة سياسته للدولة والرعية.

وتفضح أكاذيبَ السبئيين وأتباعهم، وخبثَ نواياهم، وسوءَ

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٠؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٨٤، ٦٨١ ـ ٦٨٢، وإسناده صحيح.

(٢) تاريخ خليفة، ص١٧٤، وإسناده صحيح إلى ابن سيرين.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٥.

مسعاهم ، وتجرِّمُ خروجَهم وقدومَهم للمدينة وحصارهم للخليفة الراشد رضي الله عنه .

وتؤكد من ناحية أخرى حِرْصَ الصحابة على سلامة أمير المؤمنين عثمان ، وسعيهم الحثيث للذَّوْدِ عنه والقتال دونه ، وحفظ سلطان الدولة وكيان الأمة .

كما تُظهِر بوضوح تعاضدَ الصحابة وتآلفَهم وإجماعَهم في هذا الموقف الخطير ، وانضباطهم التام في أقوالهم وحركاتهم وأعمالهم ، وطاعتهم لأمير المؤمنين فيعملون بأمره ويتحركون وفق توجيهاته .

وهذه الأخبار مجتمعة تدحضُ الفريةَ الشائعة عند بعض من يزوِّر التاريخ ويَضْطَغِن على عثمان والصحابة؛ بأنهم قصَّروا في حقه ، وتقاعسوا في الدفاع عنه ، وأسلموه إلى قدره حتى بطش به أولئك المجرمون القتلة .

ثالثاً: عثمان يستمد ولاة الأمصار:

●● مع كل ما تقدم من عزم عثمان على الكفكفة ودَرْءِ اتساع الفتنة ، وإمساكِه بأيدي الصحابة عن القتال ، ومنعِهم من الاشتباك مع السبئيين الفجرة ، ومع وجود جماعات من الصحابة كفيلة بردٍّ بغي البُغَاة وقمع إفسادهم ـ لكن ذلك التكافؤ العددي بين الطرفين سيؤدي إلى سفك دماء كثيرة في مدينة رسول الله ﷺ ، وعثمان لا يحبُّ هذا ، بل يريد أقلَّ الحالاتِ شرّاً ، وأخفَّها ضرراً ، ولابد لهذا من قوة عظيمة ، إذا رآها

المنحرفون الخوارج خَنَسوا واستسلموا ، ولم يرموا بسهم من كنانتهم[(١)] .

لذا كان أمير المؤمنين يودُّ أن تكون عنده قوة كبيرة باطشة تقمع قوى الشر والفساد والإفساد ، وتضع حدّاً لغطرستها وجاهليتها؛ فأرسل إلى عماله في الأمصار يأمرهم بإرسال قوى تُنجِده وأهلَ المدينة من السبئيين القتلة ، وكذلك يكون الحجيجُ قد قضَوْا مناسكَهم ، فتنضمُّ قوتهم إلى جيوش الأمصار ، فتتكون قوة مرهوبة منظمة مهيبة ضاربة ، تستأصل شَأفَة الخوارج وتُنهي تمرُّدَهم وعصيانهم بسرعة ، دون اضطرار إلى سفك دماء كثيرة .

في ضوء هذا نفهم سعيَ عثمان في استنصاره بأهل الأمصار ، مع استسلامه لقدره ونهايته المشرقة ويقينه بأنه سيقضي شهيداً ، وهذا التدبير من قدر الله ، فهو من باب دفع القدر بالقدر ، وكما قال عمر : (نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله) .

عن ابن عباس قال : (لمَّا حُصِر عثمان وطال حصْرُه ، والذين حصروه هم من أهل مصر والبصرة والكوفة ومعهم بعض أهل المدينة ، أرادوه على أن ينزِع نفسه من الخلافة ، فلم يفعل ، وخافوا أن تأتيه الجيوش من الشأم والبصرة وغيرهما ويأتي الحجاج ، فيهلكوا ، فتسوَّروا عليه فقتلوه رضي الله عنه وأرضاه)[(٢)] .

وتوضحها رواية مطولة للطبري من طريق سيف بن عمر؛ وفيها : أن

---

(١) كتابي «الخلفاء الراشدون» ، ص٤١٦ .
(٢) أسد الغابة : ٣/ ٣٨٣ .

عثمان كتب إلى أمراء الأمصار يستمدُّهم ويأمرهم بالذَّوْدِ عن الخليفة والخلافة والإسلام ، وبيَّنَ في كتابه أنه ولي الخلافة باتفاق المسلمين ، وأنه اتبع النبي ﷺ وصاحبَيْه ، ما غيَّر ولا بدَّل ، لكن أولئك المجرمين حركوا الفتن ، وعزموا على قتل خليفتهم ، وكان فيما قال :

(فعابوا علَيَّ أشياءَ مما كانوا يرضون ، وأشياءَ عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها ، فصبرتُ لهم نفسي ، وكففتُها عنهم منذ سنين ، وأنا أرى وأسمع ، فازدادوا على الله عز وجل جرأةً ، حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحَرَمه وأرض الهجرة ، وثابَتْ[1] إليهم الأعراب ، فهم كالأحزاب يوم الأحزاب[2] ، أو مَنْ غزانا بأُحُدٍ ، إلا ما يُظْهِرون! فمن قدر على اللحاق بنا فليفعل) .

فأتى الكتاب أهلَ الأمصار ، فخرجوا على الصَّعْبة والذَّلول ، فبعث معاويةُ حبيبَ بن مَسْلَمة الفِهْري في جيش ، وبعث عبدُ الله بن سعد[3] معاويةَ بن حُديج السَّكوني في جيش آخر ، وبعث أهلُ البصرة جيشاً ، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عَمْرو في جيش .

وقام الصحابة والتابعون بتحضيض الناس على نصرة أمير المؤمنين؛ فقام في الكوفة الصحابة : عُقبة بن عَمْرو ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وحنظلة بن الربيع ، وغيرهم ، وقام من التابعين أصحابُ ابن مسعود ، يسيرون في الكوفة ويطوفون في مجالسهم ، ويقولون : (يا أيها الناس ،

---

(١) أي : جاؤوا إليهم متتابعين .

(٢) يعني كالذين تجمعوا على الرسول ﷺ وصحابته في غزوة الأحزاب .

(٣) وذلك قبل أن يغادر مصر متجهاً إلى أمير المؤمنين ، وقد رأى السبئيين اتجهوا إلى المدينة ، فاستحث الناس لنصرة الخليفة .

إن الكلام اليوم وليس به غداً ، وإن النظر يَحسُن اليوم ويَـقبُح غداً ، وإن القتال يَحِلُّ اليوم ويَحْرُم غداً ، انهضوا إلى خليفتكم وعصمة أمركم).

وفي البصرة: نهض عمران بن حُصَيْن ، وأنس بن مالك ، وهشام بن عامر ، في أمثالهم من الصحابة ، يقولون مثلَ ما قال أهل الكوفة. ومن التابعين قام آخرون بالحثِّ على نصرة الخليفة.

وقام في الشام: من الصحابة عبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وأبو أمامة ، ومن التابعين كثير.

وفي مصر: قام خارجة ، وصحابة آخرون ، وغيرهم من التابعين.

كلهم يستنفر الناسَ لنصرة أمير المؤمنين المحصور[1].

●● وقدِمَ رُكْبان فأخبروا أهل المدينة بمجيء الأمداد من الآفاق: حبيب من الشام ، ومعاوية بن حُديج من مصر ، والقعقاع من الكوفة ، ومُجاشِع من البصرة ، وقد خرجت من تلك الأمصار مسرعة نحو المدينة ، ووصل حبيب بن مسلمة بجيشه إلى قرب خيبر ، لكن بُعيد مقتل عثمان.

وكذلك قفل الناس من الحج ، وعزموا على الرجوع إلى المدينة ليدافعوا عن أمير المؤمنين.

فوصلت أخبار قدوم أمداد الجيوش وجموع الحجيج إلى أولئك السبئيين الخوارج؛ فعند ذلك حسموا أمرهم ، وانتهزوا الفرصة من قلة

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥١ ـ ٣٥٢؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ١٩٥ ـ ١٩٦؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٨٠؛ كتابي «الخلفاء الراشدون» ، ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.

الناس وغيابهم في الحج وعدم وصول الجيوش من الآفاق للنصرة ـ وأسرعوا في تنفيذ جريمتهم ، فأحاطوا بدار عثمان وجَدُّوا في الحصار ، وأحرقوا الباب ، وتسوَّروا الدار من الدور المتاخمة لها ، ودخلوا على عثمان فقتلوه[1] .

وخبر طلب عثمان الأمدادَ والنصرة من ولاة الأمصار ؛ رواه ابن الأثير مختصراً في «أسد الغابة» وإسناده لا بأس به ، ورواه سيف بشيء من التفصيل ، وروايات سيف مستقيمة كما أوضحنا ، واحتج به الذهبي وابن كثير ، وأكَّده العلامة المحقق محب الدين الخطيب ، والعلامة المحقق محمد الصادق عرجون[2] .

رابعاً: صفة مقتل عثمان المروِّعة، ودفاع الصحابة وأبنائهم عنه:

١ ـ مدة الحصار ، والمدافعون عن عثمان في الدار:

●● قال أبو هريرة: حُصِر أمير المؤمنين عثمان في داره أربعين ليلة[3] .

وقال حماد بن زيد: حُوصِر نيِّفاً وأربعين ليلة[4] .

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٥؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٧١ ـ ٧٢؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢١٦ ، ٢٤٠؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٨٧ ـ ١٨٨ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ؛ تاريخ الإسلام «عهد الخلفاء» ، للذهبي ، ص٤٥٤ .

(٢) انظر: التعليق على العواصم من القواصم ، ص١٣٨ ؛ عثمان بن عفان ، لعرجون ، ص١٢١ ـ ١٢٢ .

(٣) الزهد ، لأحمد (٦٧٩).

(٤) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٢١ .

وقريب منه قول الواقدي أنه حصر (٤٩) ليلة[1].

والقول الأول هو المشهور ، وهو أقرب إلى الصواب؛ فقد قدم المصريون هلال ذي العقدة ، وحدثت مع أمير المؤمنين محاورات استغرقت أياماً ، ثم بدؤوا الحصار ، واستشهد عثمان يوم الجمعة (١٨ ذي الحجة ـ سنة ٣٥هـ).

●● بعد أن بدأ القوم السبئيُّون بتشديد الحصار ومَنْع دخول الماء والطعام والناس على عثمان ، كان رضي الله عنه قد أمر المدافعين عنه أن يخرجوا سالمين مَسْلوماً منهم ، وأَذِن لهم أن يكونوا في الدار ومحيطين بها وعند الباب. وكان فيهم الحسن والحسين ابنا علي ، ومحمد بن طلحة ، وابن عُمر ، وأبو هريرة ، ومروان بن الحكم ، وثَابَ إليهم ناس كثير ، وكما قال ابن سيرين وغيره: كان مع عثمان في الدار يومئذ (٧٠٠) نفس ، وأميرُ الدار عبد الله بن الزبير ، وشباب الصحابة وأبناؤهم كلهم شاكي السلاح ، كما تقدم.

وأمير المؤمنين الخليفة العظيم يكرر على إخوانه ومناصريه من أولئك الأشبال الأبطال: أَنشُد الله رجلاً أَهْرَاق فيَّ دماً! وهم يقولون له: قد أمكنتنا البصائر ، فأْذَنْ لنا في الجهاد ، وهو يقول لهم: عزمتُ على من كانت لي عليه طاعة ألاَّ يقاتل[2]!.

ويعبِّر عن ذلك قولُ كعب بن مالك الأنصاري:

فكَفَّ يديهِ ثم أَغلقَ بابَهُ   وأَيْقنَ أن الله ليس بغافِلِ

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٧٧؛ أسد الغابة: ٣/ ٣٨٢.

(٢) انظر ما تقدم: ص ٦٦٩ ـ ٦٧٤ في هذا الكتاب.

وقـال لأهـل الـدار لا تقتلُـوهُـمُ عَفَا الله عن كلِّ امرئٍ لم يُـقاتِلِ[1]

وجاء عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه إلى تلك العصابات الخارجة ، يصفعهم بآخر نصائحه وتخويفاته؛ فيقول لهم: (إن الملائكة لم تَـزَلْ محيطة بمدينتِكم هذه منذُ قدِمها رسولُ الله ﷺ إلى اليوم ، والله لئنْ قتلتُموه لتذهبنَّ ثم لا تعود إليكم أبداً. وإن السيف لم يَزَلْ مغموداً فيكم ، فوالله لئنْ قتلتموه لَيسُلنَّه الله عليكم ثم لا يُغمده عنكم أبداً ـ أوْ قال: إلى يوم القيامة ـ. وما قُتِل نبيٌّ إلا قُتل به سبعون ألفاً ، ولا قُتل خليفةٌ إلا قُتِل به خمسة وثلاثون ألفاً ، وذكَر أنه قُتِل على دمِ يحيى بن زكريا سبعون ألفاً)[2].

٢ ـ تشديد الخناق على أمير المؤمنين:

لكن أولئك الخوارج ما كانوا يريدون وجه الله ، وقد هيمن عليهم غدرُهم وإجرامهم ، ورانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، وصدَّق عليهم إبليس ظنَّه ، فسَدُّوا كل منافذ الخير والإصلاح ، ولم يَـرْعَووا عن باطلهم.

قال شدَّاد بن أَوْس: (لمَّا اشتد الحصار بعثمان يوم الدار ، أَشرف على الناس فقال: يا عبادَ الله ، قال: فرأيتُ علي بن أبي طالب خارجاً من منزله ، معتمّاً بعِمامة رسول الله ﷺ ، متقلِّداً سيفَه ، أمامه الحسن

---

(١) المستدرك: ٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) المطالب العالية: ٤/ ٢٨٧ (٤٤٤٠) وعزاه الحافظ لإسحاق بن راهَوَيْه ، وصححه البوصيري ؛ وبنحوه في مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٩١؛ وفضائل الصحابة ، لأحمد (٧٩٥).

وعبد الله بن عمر في نفر المهاجرين والأنصار ، حتى حملوا على الناس وفَرَّقوهم. ثم دخلوا على عثمان ، فقال له علي: السلام عليك يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ لم يَلْحَق هذا الأمر[1] حتى ضُرب بالمقبل المدبر[2] ، وإني والله لا أرى القوم إلا قاتليك ، فَمُرْنا فلنقاتِلْ . فقال عثمان: أَنشُد الله رجلاً رأى لله حقّاً ، وأقرَّ أن لي عليه حقّاً؛ أن يُهرِيق في سببي ملءَ مِحْجَمة من دم ، أو يُهرِيق دمه فيَّ! فأعاد علي عليه القولَ ، فأجابه بمثل ما أجابه. قال: فرأيتُ عليّاً خارجاً من الباب وهو يقول: اللهم إنك تعلمُ أنَّـا بذَلْنا المجهود)[3].

وقال جُبير بن مُطْعِم: (لمَّا حُصر عثمان بن عفان حتى والله ما يشرب إلاَّ من الفَقير فَقِير الدار[4] ، قال جبير: فدخلتُ على علي بن أبي طالب ، فقلت: يا ابنَ أبي طالب ، أقد رضيتَ بهذا ، أن يُحصَر ابنُ عمِّك حتى والله ما يشرب إلاَّ من فَقير الدار؟! فقال: سبحان الله! وقد بَلَغوا هذا منه؟! قال: نعم ، وأشدّ من هذا. قال: فحمل الرَّوايا حتى أدخلها عليه وسقاه)[5].

ثم بالغ القوم حتى منعوا عنه الماء والطعام ، فأرسل عثمان إلى عليٍّ بأنهم قد منعونا الماء ، فإن قدرتم على أن تُرسلوا إلينا بماء فافعلوا ، وأرسل إلى طلحة والزبير وإلى عائشة وأزواجِ النبي ﷺ. فكان أولَهم

---

(١) أي: لم يدرك انتصار الإسلام وانتشاره وقيام أمره.
(٢) **المقبل**: المطيع ، **والمدبر**: العاصي.
(٣) الرياض النضرة: ٢/ ٦٨؛ حياة الصحابة: ٢/ ١٢٥.
(٤) **الفقير**: البئر القليلة الماء.
(٥) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢١٢.

إنجاداً له علي وأم حبيبة ، جاء عليٌّ في الغَلَس فقال: يا أيها الناس ، إن الذي تصنعون لا يشبهُ أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادَّة ، فإن الروم وفارس لتأسِرُ فتُطعِم وتسقي ، وما تعرَّض لكم هذا الرجل في شيء ، فبمَ تستحلُّون حصْرَه وقتله؟! فقالوا: لا والله ، ولا نَعْمَةَ عينٍ ، لا نتركُه يأكل ولا يشرب! فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضتُ فيما أنهضْتَني له ، فرجع. وجاءت أم حَبيبة على بغلةٍ لها بِرِحالة مشتملة على إداوة[1] ، فقيل: أم المؤمنين أم حبيبة! فضربوا وجْهَ بغلتها ، فقالت: بَنِيَّ ، إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل ، وأحببتُ أن ألقاه وأسأله عن ذلك كي لا تهلِك أموال أيتامٍ وأرامِل ، فقالوا: كاذبة! وأهوَوْا لها ، وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فندَّت بأم حبيبة ، فتلقاها الناس وقد مالت رِحالتُها ، فتعلَّقوا بها فأخذوها وقد كادت تُقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها[2].

ولم يتوقف علي رضي الله عنه عن نجدة أخيه الخليفة المحصور حتى منعه أهله خشيةً عليه من المحاصِرين القتلة.

يروي راشد بن كَيْسان وغيره: (أن عثمان بعث إلى عليٍّ وهو محصور في الدار أن ائْتِني ، فقام علي ليأتيَه ، فقام بعضُ أهل علي حتى حَبَسه ، وقال: ألَاَ تَرى إلى ما بين يديك من الكتائب ، لا تَخْلُص إليه؟! وعلى عليٍّ عِمامةٌ سوداء فنَقَضَها على رأسه ثم رمى بها إلى رسول عثمان وقال:

---

(١) **الرحالة**: السرج من جلود يتخذ للركض الشديد. **الإداوة**: إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٤٠ ـ ٢٤١.

أخبِرْه بالذي قد رأيتَ! ثم خرج علي من المسجد حتى انتهى إلى أحجار الزيت)[1].

وعن كِنانة مولى أم المؤمنين صفية بنت حُيَيّ أنه شهد مقتلَ عثمان ـ قال: وأنا يومئذٍ ابنُ أربعَ عشرةَ سنة ـ قال: (أمرتْنا صفية أن نَرْحَل بغلةً بهودجٍ، فرَحَلْناها ثم مشينا حولها إلى الباب، فإذا الأشتر وناس معه، فقال لها الأشتر: ارجعي إلى بيتك، فأبَتْ، فرفع قناةً معه ـ أو رمحاً ـ فضرب عَجُزَ البغلة، فشبَّت البغلة ومالَ الهودج حتى كاد أن يقع، فلما رأتْ ذلك قالت: رُدُّوني، ردُّوني!)[2].

وفي رواية عن كِنانة قال: (كنتُ أقود بصفية بنت حيي، لِتَرُدَّ عن عثمان، فلقيَها الأشتر فضرب وجْهَ بغلتها حتى مالَتْ، فقالت: ردُّوني، لا يفضحني هذا الكلب! قال: فوضعتْ خشباً بين منزلها وبين منزل عثمان، تنقل عليه الطعامَ والشراب)[3].

٣ ـ الساعات الأخيرة قبل الاستشهاد، وأعمال عثمان:

مع استمرار السبئيين الخوارج في غَيِّهم، ومُضيِّهم في تنفيذ جريمتهم، لم يتوقف الخليفة الراشد عثمان عن موعظتهم وتأنيبهم وترغيبهم وترهيبهم، حتى لا يترك لهم أَثارة من غدر أو حجَّة عند الله تعالى وعند المؤمنين.

في الحديث الطويل الصحيح الذي قدمنا فقرات منه؛ يقول أبو سعيد

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٨؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٢.

(٢) المطالب العالية: ٤/ ٢٩٢، وحسنه المحقق.

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٢٨؛ التاريخ الكبير: ٧/ ٢٣٧؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ٢/ ٣٠٤، وسنده صحيح.

مولى أبي أُسيد الأنصاري: (ورأيتُ عثمانَ أشرفَ عليهم مرة أخرى، فوعَظَهم وذكَّرهم، فلم تأخذْ منهم الموعظةُ، وكان الناس تأخذ منهم الموعظة في أول ما يَسمعُونها، فإذا أُعِيدتْ عليهم لم تأخذ منهم، فقال لامرأتِه: افتحي الباب، ووضَع المُصْحَفَ بين يديه، وذلك أنه رأى من الليل أن نبيَّ الله ﷺ يقول له: «**أَفْطِرْ عندنا الليلةَ**»)[1].

وعن مسلم أبي سعيد مولى عثمان بن عفان: (أن عثمان بن عفان أَعتق عشرين مملوكاً، ودعا بسراويلَ فشَدَّها عليه، ولم يلبسْها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيتُ رسولَ الله ﷺ البارحة في المنام ورأيتُ أبا بكر وعمر، وإنهم قالوا لي: اصبِرْ، فإنك تُفطِرُ عندنا القابلةَ. ثم دعا بِمُصحفٍ فنَشَره بين يديه، فقُتِل وهو بين يديه!)[2].

قال ابن كثير: إنما لبس السراويل - رضي الله عنه - في هذا اليوم لئلا تبدو عورته إذا قُتل، فإنه كان شديدَ الحياء، فكانت تستحي منه ملائكة السماء، كما نطق بذلك النبي ﷺ[3].

وعن كَثير بن الصلت قال: (نام عثمان في ذلك اليوم الذي قُتل فيه، وهو يوم الجمعة، فلما استيقظ قال: لولا أن يقول الناس: تمنَّى عثمان أمنية، لحدَّثتُكم حديثاً! قال: قلنا: حدِّثْنا أصلحك الله، فلسنا نقول كما

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ وانظر ما تقدم: ص ٦٢٥ - ٦٢٦ في هذا الكتاب.

(٢) مسند أحمد (٥٢٦)، وصححه أحمد شاكر، وجاء بنحوه من طرق أخرى عند: ابن سعد: ٣/ ٧٤ - ٧٥؛ الزهد، لأحمد (٦٧٩)؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٨٤؛ المستدرك: ٣/ ١٠٣.

(٣) البداية والنهاية: ٧/ ١٨٣.

يقول الناس ، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ في منامي هذا ، فقال: «**إنك شاهدٌ معنا الجمعة**»[1].

واتخذ عثمان تلك الأيام القرآن نَحْباً ، يصلِّي وعنده المُصحف ، فإذا أَعْيا جلس فقرأ فيه[2].

هكذا كان أمير المؤمنين عثمان في عالمه الرباني؛ في صيام وقيام وتلاوة للقرآن وعتقٍ للرقاب ورؤيا للنبي ﷺ وبشرى بأنه سيشهد الجمعة معه ويفطر عنده! والصحابة وأبناؤهم في عنفوان الحماسة للدفاع عن عثمان والذَّود عن الخلافة. والمؤمنون في منى قضَوْا مناسكَهم وأُغذُّوا السير لنجدة الخليفة المحصور. أما المنافقون المنحرفون من الخوارج السبئيين ففي طغيانهم يَعمهون وفي ضلالهم سادرون ، وعلى تنفيذ جريمتهم عازمون!.

٤ ـ تنفيذ الجريمة الكبرى:

واتخذ البُغاة المجرمون قرارَهم بقتل عثمان ، فانتدب رجل منهم ، فدخل على عثمان فقال له: اعزِلْ نفسَك ونَدَعك ، فأبى عثمان وقال: (لستُ خالعاً قميصاً كَسَانيه الله عز وجل)! فرجع الرجل إليهم ، فقالوا له: ما صنعتَ؟ قال: عَلِقْنا[3] ، والله ما يُـنجينا من الناس إلا قتله ، وما يَحلّ لنا قتله!.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٥؛ المستدرك: ٣/ ٩٩ ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي؛ المطالب العالية (٤٤٤٩).

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٨؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٤٣. **النَّحْب**: الهمة والبرهان والحاجة والدأب.

(٣) أي: أُخِذنا.

فأدْخَلوا عليه رجلاً من بني ليث ، فقال عثمان: من الرجل؟ فقال: لَيْثي ، فقال عثمان: لستَ صاحبي! قال: وكيف؟ فقال: ألستَ الذي دعا لك النبي ﷺ في نَفَرٍ أن تُحفظ في كذا وكذا؟ قال: بلى ، قال عثمان: فلن تضيع[1]. فرجع وفارَقَهم.

ثم أدخلوا رجلاً من قريش ، فقال: يا عثمان إني قاتِلُك! فقال عثمان: كلا يا فلان ، لا تقتلني! قال: كيف؟ قال: إن رسول الله ﷺ استغفر لك يوم كذا وكذا ، فلن تقارف دماً حراماً! فاستغفر الرجل ورجع.

فدخل عليه محمد بن أبي بكر الصديق في ثلاثة عشر رجلاً ، فأخذ بلحية عثمان وقال: ما أغنَى عنك معاوية ، ما أغنى عنك ابنُ عامر ، ما أغنتْ عنك كُتبك! فقال عثمان: أرسِلْ لحيتي يا ابنَ أخي ، فوالله لقد أخذتَ مأخذاً ما كان أبوك ليأخذ به! فتركه وانصرف مستحياً نادماً ، فاستقبله القوم على الباب ، فردَّهم طويلاً حتى غلبوه ، فدخلوا ، ورجع محمد بن أبي بكر ، ولم يشترك بقتله.

وأسرعوا فحملوا النيران إلى منزل عثمان ، فأحرقوا الباب والسقيفة ، حتى إذا احترق الخشب خرَّت السقيفة على الباب ، وأسرع الناس لإطفاء الحريق ، ونادى عثمان: (ما بعد الحريق شيء ، وما احترق الباب إلا لِما هو أعظم منه ، لا يحركَنَّ رجل منكم يده ، ومن كانت لي عليه طاعة فليمسك داره ، فإنما يريدني القوم).

ولمَّا حلَّت الكارثة ، أسرع مَنْ عند عثمان للدفاع عنه ، وعثمان يقرأ

---

(١) أي: دعوة النبي ﷺ.

القرآن ما تركه ، وافتتح : ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه] ، ووكان سريع القراءة ، ما فزع لِما حصل ، يقرأ وما يخطئ وما يتعتع ، حتى أتى عليها قبل أن يصلوا إليه! .

فخرج الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحَكَم وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأخنس بن شَريق وأبو هريرة وغيرهم ، فاجتلدوا مع القوم ، وقال الحسن بن علي مسفِّهاً عمل الخارجين :

لا دينُهم ديني ولا أنا منهمُ ... حتى أسيرَ إلى طَمَارِ شَمامِ(١)

وخرج محمد بن طلحة بن عبيد الله ـ وكان يعرف بالسجَّاد لكثرة عبادته ـ وهو يقول :

أنا ابنُ من حامَى عليه(٢) بأُحُد ... ورَدَّ أضراباً على رغم مَعَدّ

وخرج سعيد بن العاص وهو يقول :

صبرنا غداةَ الدارِ والموتُ واقِبُ(٣) ... بأسيافنا دونَ ابن أروى(٤) نُضَارِبُ

وكنَّا غداةَ الرَّوْعِ في الدار نُصْرَةً ... نُشَافِهُهُم بالضرب والموت ثاقِبُ

وقام أمير المؤمنين ينهنههم ، ويطلب منهم أن يغادروا ، فكان آخر من خرج عبد الله بن الزبير ، وأمره عثمان أن يأتي أهل الدار فيأمرهم أن ينصرفوا إلى منازلهم ، وأقبل عثمان على القرآن ، ولم يبقَ معه إلا أهل بيته .

---

(١) أي : إلى جبل أشمٍّ لا ينجو من سقط منه .

(٢) أي : عن النبي ﷺ ، وقد دافع عنه طلحة يوم أحد دفاعاً عظيماً .

(٣) أي : مقبل .

(٤) يريد عثمان بن عفان ، وأروى أمه .

ثم عاد عثمان إلى مصحفه وقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فهاج المجرمون وماجوا، وأطلقوا الرصاصة الأخيرة في جعبتهم، فتسوَّروا دار عَمْرو بن حزم ـ المجاورةَ لدار عثمان ـ ودخلوا بغير إذنٍ كما قال راعي الإبل النميري:

عشيَّةَ يدخلونَ بغيرِ إذْنٍ ... على متوكِّلٍ أوفى وطَابَا
خليلِ محمدٍ ووزيرِ صدقٍ ... ورابعِ خيرِ مَنْ وطئَ التُّرابَا

واقتحموا عليه، وقد خلا من حراسه والمدافعين عنه، وكان فيمن دخل عليه: قُتيرة السَّكُوني، وسُودان بن حُمْران، والغافِقي بن حَرْب، وعَمْرو بن الحَمِق، وكلثوم بن تُجِيب، ورجل اسمه الموت الأسود[1]، وكِنانة بن بِشْر التُّجيبي. وهجموا على عثمان؛ فمنهم من يَجَؤُه بنَعْل سيفه، وآخر يَلْكَزُه[2]، والمصحف الشريف بين يديه يقرأ في سورة البقرة، وهم يهابون قتله، فانقضَّ عليه (الموت الأسود) فخنقه خنقاً شديداً، وضربه الغافقي بحديدة كانت معه، ورفع أحدهم سيفه فاتَّقَاه عثمان بيدِه فقطعها، فقال عثمان: (أَمَا والله؛ إنها لأوَّلُ يدٍ خَطَّت المُفَصَّل[3]!).

---

(١) قد ثبت خروج عبد الله بن سبأ مع المنحرفين من مصر، وكان شديد الحرص على أن لا يظهر فينكشف، وهو يريد أن يتابع دوره حتى النهاية من وراء ستار؛ فلعل (الموت الأسود) اسم حركي لابن سبأ!.

(٢) يضربُه بِجُمْع كفِّه.

(٣) المفصل من سورة (قٓ) إلى آخر المصحف الشريف.

وجاء رجل بمشاقص[1] فوَجَأه في تَرْقُوَتِه ، فقال عثمان: (بسم الله ، توكلت على الله) ، وإذا الدم يسيل على لحيته يَـقْطُر ، والمصحف بين يديه ، فاتكـأ على شقه الأيسر وهو يقول: (سبحان الله العظيم) ، وهو في ذلك يقرأ المصحف ، والدم يسيل على المصحف ، حتى وقف الدم عند قوله تعـالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]! وأَطبق المصحف ، وضربوه جميعاً ضربة واحدة: فرفع كِنانة بن بشر مَشَاقِص كانت بيـده فوجأ بها أصلَ أذُنِ عثمان فمضت حتى دخلت في حَلْقه ، ثم ضرب جبينَـه ومقدَّم رأسـه بعمود حديـد فخرَّ لجنبه ، فجاء سُودان بن حمران ليضربه ، فانكبت عليه زوجته نائلة بنت الفَرَافِصة ، واتَّقت السيفَ بيدها ، فتعمَّدها سودان ونَفَح أصابعها ، فقطع أصابع يدهـا ، ووَلَّتْ ، فغمز أوراكهـا وقـال: إنها لكبيرة العجيـزة! وضرب عثمانَ بعدما خرَّ لجنبـه فقتله ، ووَثَب عَمْرو بن الحَمِق على صدره وبه رمق ، فطعنه تسع طعنات وقال: فأما ثلاثٌ منهن فإني طعنتُهن إياه لله ، وأما ست فإني طعنتُهنَّ إياه لِما كان في صدري عليه!.

ودخل غِلْمَة عثمان لينصروه ـ وقد كان عثمان أَعتق مَنْ كَفَّ يده منهم ـ فلما رأوا سُودانَ قد ضربه؛ أهوى بعضهم عليه فضرب عنقه فقتله ، فوثب قُتيرة على الغلام فقتله ، وانتهبوا ما في البيت ، وأخرجوا من فيه ، ثم أغلقوا الباب على ثلاثة قتلى. فلما خرجوا إلى الدار ، وثب غلام آخر لعثمان على قُتيرة فقتله ، وكلُّ مَن دخل على عثمان اشترك في قتله.

---

(١) المِشْقَص: نصل طويل عريض.

ونادى منادي القوم: أَيَحِلُّ دم عثمان ولا يَحلُّ ماله؟! فانتهبوا كل شيء، وأخذوا ما في الدار، وكان شيئاً عظيماً جدّاً[1]، حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ كلثوم بن تُجيب مُلاءَةَ نائلة، فقال: ويحَ أمّك من عجيزة ما أتمَّك! وبَصُرَ به غلام عثمان فقتله، وقُتل.

ثم تنادَوا في الدار: أَدْرِكُوا بيت المال، لا تُسبقوا إليه، فسمع أصحابُ بيت المال أصواتهم، فقالوا: النَّجاءَ! فإن القوم إنما يريدون الدنيا، فهربوا، وأتى الخوارج القتلة بيت المال فانتهبوه، وكان فيه شيء كثير جدّاً.

وأُخرج من الدار أربعةٌ من شبان قريش ملطَّخين بالدم، محمولين، كانوا يدرؤون عن عثمان: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم. وكان من أعيان من قُتل من أصحاب عثمان: زياد بن نُعيم الفِهري، والمُغيرة بن الأخنس بن شَريق، ونيار بن عبد الله الأسلمي[2].

---

(١) كان لعثمان عند خازنه ثلاثون مليون درهم وخمس مئة ألف درهم، ومئة وخمسون ألف دينار، انتُهِبت كلها!.

(٢) ملخَّصة ومرتبة من: تاريخ خليفة، ص١٧٤ ـ ١٧٥؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٢ ـ ٧٤؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٨٣، ٦٧٩ ـ ٦٨٠، ٦٨٩ ـ ٦٩٠؛ صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣، ٣٨٨ ـ ٣٩٢؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ٢/ ٢٨٢ ـ ٣٠٣، ٤/ ١٢٣٠ ـ ١٢٣٣؛ المطالب العالية: ٤/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٣٨ ـ ٢٤٧؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٨٤ ـ ١٨٦؛ كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٤١٩ ـ ٤٢٣؛ وتركتُ تفصيلَ مواضعها تخفيفاً، وهذه الروايات صحيحة وحسنة، وبعضها ضعيف ينجبر بكثرة طرقه وشواهده.

وقد ذُكِر في الذين شاركوا في قتل أمير المؤمنين عثمان عدد كبير؛ ففي رواية وثَّاب وكان ممن شهد يوم الدار، قال: (فجاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلاً، حتى انتهى إلى عثمان، فأَخذ بلحيتِهِ فقال بها، حتى سمعتُ وَقْعَ أضراسِه!)[1].

أما الذين باشروا قتل عثمان، فقد جاءت تسمية بعضهم في روايات متعددة، ومنهم:

١ ـ الموت الأسود (عبد الله بن سبأ).

٢ ـ الأشتر النخعي.

٣ ـ الغافقي بن حرب.

٤ ـ كِنانة بن بشر.

٥ ـ سُودان بن حُمران.

٦ ـ قُتيرة السَّكُوني.

٧ ـ رومان بن وردان، من بني أَسد.

٨ ـ جبلة، من أهل مصر.

وقد ذكر بعض المؤرخين والمصنفين أن الذي قتل عثمان هو: سُودان بنِ حُمران، وآخرون قالوا: الموت الأسود، وفريق ثالث قال: اسمه جَبَلَة، والحقيقة أن كل من ذكرنا أسماءهم قد تلطَّخ بقتل الشهيد عثمان رضي الله عنه.

وأما محمد بن أبي بكر: فتتضافر الروايات على أنه ألَّب على أمير

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٧٤؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٣، وإسنادها صحيح.

المؤمنين عثمان ، وخرج عليه ، وسعى مع الخوارج إليه ، وشارك في الحصار الآثم ، وكذلك تلطَّخ بالإثم فدخل على عثمان في ثلاثة عشر رجلاً ، وأخذ بلحيته وعنَّفَه ، فذكَّره عثمان بمكانه من أبيه أبي بكر الصديق ، فخرج بعد أن أشار إلى أحد المجرمين بقتل عثمان!.

يقول وَثَّاب: (فأنا رأيتُه استَعْدَى رجلاً من القوم بعينِه ـ يعني أشار إليه ـ فقام إليه بِمِشْقَص فوَجَأ به رأسَه)[(١)]!.

فهو في هذا مشارك في إثم القتل وإن لم يباشره بيديه!.

وقد كان ابنه القاسم بن محمد يقول: اللهم اغفِرْ لأبي ذَنْبَه في عثمان[(٢)].

بل ثَمّة رواية صحيحة عن أخته أم المؤمنين عائشة: أنها كانت تدعو على قتلة عثمان ، وتقول: (أقادَ الله من ابن أبي بكر به!)[(٣)].

خامساً: مواقف الصحابة من مقتله ، وبراءتهم من دمه:

حقق رؤوس الشرِّ ومساعيرُ الفتنة هدفَهم الآثم ، واستشهد أمير المؤمنين ذو النورين على أيدي تلك العصابة المجرمة من مَرَدَة السبئيِّين ، وأما أكثرية الرَّعَاع والجهلة الطَّغَام والغوغاء من أتباعهم المغفَّلين والمغرَّر بهم؛ فكان لسان حالهم كما سيقول أشباههم يوم القيامة: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب:

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٠؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧٢؛ والحاشية السابقة ، والخبر صحيح.

(٢) المطالب العالية (٤٤٥٤).

(٣) مجمع الزوائد: ٩/ ٩٧ ، وستأتي الرواية تامة.

٦٧]. فلما رأوا عثمان مضرَّجاً بدمه الذكي ، استفظعوا ذلك واستعظموه ، فما كانوا يظنون أن الأمر سينتهي بهم إلى تلك النهاية الموحشة ، فأُسْقِط في أيديهم ، ونَدِم أكثر هؤلاء الخوارج بما صنعوا ، وأَشْبَهوا مَن تقدَّمهم ممَّن قصَّ الله علينا خبرهم في كتابه العزيز ، من الذين عبدوا العجل ، في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩](١)!.

أما الصحابة رضي الله عنهم فقد استنكروه جميعاً ، حاضرُهم وغائبُهم ، عِلْيتُهم وعامتهم ، رجالهم ونساؤهم ، وتبرَّؤوا من التأليب على عثمان وإراقةِ قطرة من دمه ، وحزنوا عليه حزناً بلغ حدّاً حارت معه عقولهم وانخلَعَتْ له قلوبهم ، وأَثْنَوا على الخليفة الشهيد ، ورثَوْه بعبارات حَرَّى ، وبَكَوْه ، وتبرؤوا من قتلته ، وسَبُّوهم ولَعَنوهم سائرَ الدهر.

وشواهد ذلك كثيرة جدّاً ، نشير إلى شذرات منها:

١ ـ علي بن أبي طالب:

ـ عن أبي جعفر الأنصاري قال: (لمَّا دُخل على عثمان يوم الدار ، خرجتُ فملأتُ فُرُوجي(٢) ، فمررت مجتازاً بالمسجد ، فإذا رجل قاعد في ظُلَّة النساء عليه عِمامة سوداء ، وحوله نحوٌ من عشرة، فإذا هو

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٨٩.

(٢) أي: عدوت مسرعاً.

علي، فقال: ما صَنَع الرجل؟ قلت: قُتِلَ الرجل، قال: تبّاً لهم آخرَ الدهر)[1].

ـ وعن أبي العالية قال: (لمَّا أُجِيزَ على عثمان بن عفان، دخل عليه علي بن أبي طالب، فوقع عليه وجعل يبكي، حتى قلنا: إنه سيلحق به)[2].

ـ وعن قيس بن عُبَاد قال: (سمعت عليّاً يوم الجَمَل يقول: اللهمَّ إني أبرأُ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلِي يوم قُتل عثمان، وأنكرتُ نفسي، وجاؤوني للبيعة فقلت: والله إني لأستحي من الله أن أُبايِع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسول الله ﷺ: «**ألا أستحي ممَّن تستحي منه الملائكة**»! وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمانُ قتيل على الأرض لم يُدفَنْ بعدُ! فانصروا. فلما دُفن رَجَع الناس يسألونني البيعة، فقلت: اللهمَّ إنِّي لَمُشفِق مما أُقْدِمُ عليه، ثم جاءت عزمةٌ فبايعتُ، فلما قالوا: يا أمير المؤمنين، فكأنما صُدِع قلْبي، وقلت: اللهمَّ خُذْ منِّي لعثمان حتى ترضى)[3].

ومعنى قوله: (خُذْ مني لعثمان حتى ترضى): هذا من فريد ورع علي

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٤؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ٤/ ١٢٢٩؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٥١؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٩٣. أُجِيز: أُجْهِز.

(٣) المستدرك: ٣/ ٩٥ ـ ١٠٣، وصححه الحاكم وأقره الذهبي؛ الإمامة، لأبي نعيم، ص٣٢٩؛ ابن عساكر «ترجمة عثمان»، ص٤٦٢؛ ومختصره: ١٦/ ٢٥٢.

ونُبْلِه وتبرُّئه من دمه وإسلامه للقتلة ، ومع كل ما قام به كان يخشى أن يكون قد قصَّر ، وقد رآه شهيداً! .

ـ وعن محمد بن علي المعروف بابن الحَنَفيَّة ، قال: (نادى منادي القوم يوم الجمل: يا ثارات عثمان! فلما بَلَغَ عليّاً قولُهم ، رفع يديه فقال: اللهمَّ كُبَّ اليوم قتلةَ عثمان لوجوهِهم)(١) .

وقال محمد بن الحنفيَّة: (سمعتُ أَبي ورفع يديه حتى يُرى بياض إبطَيْه ، وقال: اللهمَّ الْعَنْ قتلةَ عثمان في البرِّ والبحرِ والسَّهْل والجَبَل! ثلاثاً يردِّدُها)(٢) .

وثبت في الروايات الكثيرة عن عليٍّ أنه تبرَّأ من دم عثمان ، وكان يُقسم على ذلك في خطبه وغيرها أنه لم يقتلْه ولا أمرَ بقتله ولا مالأَ ولا رضي به ، ولقد نَهى عنه فلم يسمعوا منه ، ثبت ذلك عنه من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث(٣) .

ولما أتاه خبرُ قتلِ عثمان ـ وهو عند أحجار الزيت ـ قال: اللهم إني أبرأُ إليك من دمِه أنْ أكونَ قَتلتُ أو مالأتُ على قتله .

وقال ابن عباس: سمعت عليّاً يقول حين قُتل عثمان: والله ما قتلتُ ولا أَمرتُ ، ولكن غُلِبتُ! يقول ذلك ثلاث مرات(٤) .

---

(١) سنن البيهقي: ٨/ ١٨٠؛ تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢٦٧ .

(٢) فضائل الصحابة ، لأحمد (٧٣٣) وسنده صحيح؛ تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢٦١ ، ١٢٦٧ .

(٣) انظر: مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٤؛ تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢٦٣ ، ١٢٦٤؛ مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٧٣؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٩٣ .

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٩ ، ٨٢؛ ومن طرق أخرى في: المستدرك: ٣/ ١٠٦؛ =

وثبت عن عليٍّ من غير وجه أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧][1].

قال الحاكم: فأما الذي ادَّعَتْه المبتدعة من معونةِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على قتله؛ فإنه كذبٌ وزورٌ، فقد تواترت الأخبار بخلافه[2]!.

وفي «شرح نهج البلاغة»: (وأميرُ المؤمنين عليه السلام أبرأُ الناس من دمِه، وقد صرح بذلك في كثير من كلامه، من ذلك قوله عليه السلام: والله ما قَتلتُ عثمان، ولا مَالأتُ على قتله. وصدق صلوات الله عليه)[3]!

وفي هذا الباب من اتهام عليٍّ وغيره من الصحابة بدمِ عثمان والممالأةِ والتقصير في نصرته ـ كلامٌ كثير من القدماء والمُحْدَثين، لا ننشغل بذِكْره وبيانِ بطلانه، بعد أن أوردنا ونورد الأخبار الصحيحة الكثيرة بخلاف ذلك.

٢ ـ الزبير وطلحة وسعد بن أبي قاص:

لما جاء الخبر بمقتل عثمان إلى الزبير بن العوام قال: إنا لله وإنا إليه

= تاريخ المدينة، لابن شبة: ٤/١٢٥٨ ـ ١٢٦٩؛ ابن عساكر، ص ٤٦٠ـ٤٨٣.

(١) المستدرك: ٣/١٠٥؛ المطالب العالية (٤٤٥٣)؛ ابن عساكر، ص٤٦٩ ـ ٤٧٣؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٩٣.

(٢) المستدرك: ٣/ ١٠٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ١/ ١٨٠.

راجعون ، رحم الله عثمان وانتصر له؛ وقيل: إن القوم نادمون! فقال: دبَّروا دبَّروا ، ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ: ٥٤].

وأتى الخبرُ طلحةَ ، فقال: رحم الله عثمان وانتصر له وللإسلام؛ وقيل له: إن القوم نادمون! فقال: تبّاً لهم ، وقرأ: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يسٓ: ٥٠].

وأتى عليّاً الخبرُ ، فقيل: قُتل عثمان ، فقال: رحم الله عثمان ، وخَلَف علينا بخير؛ وقيل: نَدِم القوم! فقرأ: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ . . . ﴾ الآية [الحشر: ١٦].

وطُلب سعد ، فإذا هو في حائطه ، وقد قال: لا أشهدُ قتلَه ، فلما جاءه قتلُه قال: فَرَرْنا إلى المدينة بديننا ، فصرنا اليوم نفرُّ منها بديننا! وقرأ: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤] ، اللهم أَنْدِمْهُم ثم خُذْهم(١).

٣ ـ سعيد بن زيد:

عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: (لو رأَيْتُني مُوثِقِي عمرُ على الإسلام أنا وأختُهُ ، وما أَسلَمَ ، ولو أَنَّ أُحُداً انْقَضَّ لِما صنعتُم بعثمانَ لكان مَحْقوقاً أن يَنْقَضَّ!)(٢).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٢؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) البخاري (٣٨٦٧)؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٩.

٤ ـ حذيفة بن اليمان:

وقد كَثُرت أقوال حذيفة والأخبار عنه في فتنة مقتلِ عثمان ، وبراءتِه من دمه ، وسبِّه لقتلته والمؤلِّبين عليه ، وبيانِ الخسارة الكبرى للأمة في مقتله.

عن محمد بن سيرين : أن حذيفة بن اليمان قال: (اللهم إنْ كان قتلُ عثمان خيراً فليس لي منه نصيبٌ ، وإنْ كان قتلُه شرّاً فإني منه بريءٌ ، والله لَئِنْ كان قتلُه خيراً لَيحلُبُنَّها لبناً ، ولئن كان قتلُه شرّاً لَيمتَصُّنَّ بها دماً!)[1].

وعن مَيْمون بن مِهْران قال: (لمَّا قُتل عثمان ، قال حذيفة هكذا وحلَّقَ بيدِهِ ـ يعني عَقَد عشرةً ـ وقال: فُتِقَ في الإسلام فَتْقٌ لا يَرْتُقُه جَبَلٌ!)[2].

وقال خالد بن الربيع العَبْسي: (سمعتُ حذيفة عند موته ، وبلَغه قتلُ عثمان؛ فقال: اللهم لم آمُرْ ، ولم أرضَ ، ولم أشهدْ)[3].

ودَعَا على قتلة عثمان فقال: اللهم الْعَنْ قتلةَ ، وغُزاة عثمان ، وشَنَأَة عثمان ، اللهم لا تُمِتْهم إلا بالسيوف[4].

وعن جُنْدَب الخير الأَزْدِي قال: (أتينا حذيفةَ حين سار المصريون

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٨٣؛ ابن عساكر ، ص٤٨٧ .

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٨٠؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٥ .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٣؛ تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢٤٧ ـ ١٢٤٨ .

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٠٧.

إلى عثمان ، فقلنا : إِنَّ هؤلاء قد ساروا إلى هذا الرجل ، فما تقول؟ قال : يَـقتُلونه والله! قلنا : أين هو؟ قال : في الجنَّةِ والله ، قلنا : فأينَ قَـتَلَتُـه؟ قال : في النار والله!)[1].

وهذه الأخبار صحيحة وحسنة.

٥ ـ عبد الله بن عباس:

قال ابن عباس : (لو أَجمع الناس على قَتْل عثمان لَرُموا بالحجارة كما رُمي قوم لوط).

وخطب الناسَ فقال : (لو لم يَطلب الناسُ بدمِ عثمان لرُموا بالحجارة من السماء)[2].

٦ ـ عمرو بن العاص:

عندما رأى عَمْرو عثمانَ يمنع الصحابةَ من القتال دونه ، خرج بابنَيْه نحو الشام ، ولمَّا جاءه قتلُ عثمان قال : (رحمَ الله عثمان ، ورضيِ الله عنه . ثم ارتحل راجلاً يبكي كما تبكي المرأة ، ويقول : واعُثْماناه! أَنْعَى الحياءَ والدين! حتى قدِم دمشق)[3].

٧ ـ عبد الله بن سَلام:

قال عبد الله بن سلام : (لقد فَتح الناس على أنفسهم بقَتْل عثمان بابَ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة : ٨/ ٦٨٢؛ السنة ، لابن أبي عاصم (١٣١٠)؛ المعرفة والتاريخ : ٢/ ٧٦٢؛ ٧٦٨ ، وصححه الفسوي.

(٢) طبقات ابن سعد : ٣/ ٨٠؛ مجمع الزوائد : ٩/٩٧؛ تاريخ المدينة ، لابن شبة : ٤/ ١٢٥٤ ـ ١٢٥٥.

(٣) تاريخ الطبري : ٤/٥٥٨ ـ ٥٥٩.

فتنةٍ لا ينغلق عنهم إلى قيام الساعة)[1].

وجاء عنه كلام كثير في التوجُّع لحصرِ عثمان وقتله، وذمٍّ قتلته، والفتنة المترتبة على ذلك[2].

٨ ـ أبو بكرة نُفَيْع بن الحارث الثقفي:

عن أبي الأسود الدُّؤَلي قال: سمعت أبا بَكْرة يقول: (لَأَنْ أَخِرَّ من السماء إلى الأرض فأتقطع؛ أَحَبُّ إليَّ من أن أكونَ شَرِكْتُ في دمِ عثمان)[3]!.

٩ ـ أبو موسى الأشعري:

روى غير واحد عن أبي موسى الأشعري قال: (إنَّ قَتْل عثمان لو كان هدًى لاحْتَلَبتْ به الأمة لَبَناً، ولكنه كان ضلالاً، فاحْتَلبتْ به دماً)[4].

١٠ ـ أبو هريرة:

عن أبي مريم قال: (رأيتُ أبا هريرة يوم قُتل عثمان وله ضَفيرتان وهو ممسكٌ بهما، وهو يقول: اضْرِبوا عُنقي، قُتِل والله عثمانُ على غير وجْهِ الحق)[5].

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٨٤.

(٢) انظر ما تقدم: ص ٦٨٢ حاشية (٢) في هذا الكتاب؛ ومصنف عبد الرزاق (٢٠٩٦٢ ـ ٢٠٩٦٥)؛ وطبقات ابن سعد: ٣/ ٨١، ٨٣.

(٣) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٩/ ٩٣): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وهو عند ابن عساكر، ص٤٩٢.

(٤) التاريخ الكبير: ١/ ٣٦٩؛ تاريخ المدينة، لابن شيبة: ٤/ ١٢٤٦؛ ابن عساكر، ص٤٨٩ ـ ٤٩٠.

(٥) تاريخ المدينة، لابن شبة: ٤/ ١٢٤٦؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٦١.

١١ ـ سَمُرة بن جندب:

روى الحسن البصري: عن سَمُرة بن جُنْدب قال: (إن الإسلام كان في حِصْن حصين، وإنهم ثَلَموا في الإسلام ثُلْمة بقَتْلِهم عثمان، وإنهم شَرطوا شُرطة، وإنهم لن يَسدُّوا ثُلْمَتهم إلى يوم القيامة، وإن أهلَ المدينة كانت فيهم الخلافة فأخرجوها ولم تَعُدْ فيهم!)[١].

١٢ ـ أم المؤمنين عائشة:

تواترت الأخبار عن السيدة الطاهرة عائشة زوج النبي ﷺ بالثناء على عثمان، وبراءتها من دمه والكتابةِ في التأليب عليه، وكانت تبكي عليه حتى تَبلَّ خمارها، وخرجتْ إلى البصرة لنصرته والأخذ بدمه من قتلته المجرمين، وكانت تذمُّهم وتلعنُهم.

ـ عن طَلْق بن خُشَّاف قال: (أتيتُ عائشة فقلتُ: فيمَ قُتِل أمير المؤمنين؟ قالت: قُتل مظلوماً، لَعنَ الله قتلَتَه)[٢].

ـ وعن مسروق، عن عائشة قالت حين قُتل عثمان: (تَركْتُموه كالثَّوب النقيِّ من الدَّنَس، ثم قرَّبْتُموه تذبحونه كما يُذبَحُ الكَبْشُ، هلاَّ كان هذا قبل هذا؟!)[٣].

ـ وعن عائشة قالت: (كان الناس يختلِفون إليَّ في عَيْب عثمان، ولا أرى إلا أنها معاتبة، وأما الدم؛ فأعوذ بالله من دمه! فوالله لَودِدْتُ أني

---

(١) تاريخ ابن عساكر «ترجمة عثمان»، ص٤٩٣.
(٢) أخرجه في خبر مطول: البخاري في التاريخ الأوسط: ١/١٩٨؛ وأبو نعيم في الإمامة، ص٣٣٠؛ وابن شبة في تاريخ المدينة: ٤/ ١٢٤٤ ـ ١٢٤٥.
(٣) تقدم مطولاً: ص ٥٨٨ في هذا الكتاب.

عشتُ في الدنيا بَرْصاءَ سالِخ ـ أي: مسلوخةَ الجلد ـ وأني لم أذكر عثمان بكلمة قطُّ، وايْمُ الله لإصبعُ عثمانَ التي يُشير بها إلى الأرض خير من طِلاَع الأرض مثل فلان)[1].

ـ وكانت كلما ذَكَرْتُ عثمان بَكَتْ حتى ليبتلَّ خمارُها، ثم تقول: (ما تمنيتُ لعثمان شيئاً إلا أصابني، حتى أني لو تمنيتُ أن يُقتل قُتِلتُ!)[2].

هذه شَذَراتٌ من مواقف الصحابة من أمير المؤمنين عثمان، ومناصرتهم له، وثنائِهم عليه، وبراءتِهم من دمِه، وعدم رضاهم بما وقع له، وغضبهم على الخوارج الذين خرجوا على سلطانه ثم حصروه وقتلوه، وسبِّهم لهم ولعنِهم، وأنهم ظلمة مجرمون آثمون فسقة منافقون، أصحاب باطل في افتراءاتهم وخروجهم وقتلهم الخليفة الشهيد.

وقد تسللت إلى ثروتنا التاريخية قديماً وحديثاً أخطاء وخطايا بحق الصحابة رضي الله عنهم ومواقفهم العظيمة من عثمان ونصرته والذود عنه وعدم إسلامه للقتلة فضلاً عن التأليب عليه أو الغدر به! والبحث في هذا طويل الذيل؛ نتركه لحصافة القارئ وعقله ودينه وورعه، بعد أن أوضحنا له المحجَّة وعرضْنا الصورة المشرقة الصحيحة التي كان عليها الصحابة الأطهار في مواقفهم من الخليفة الإمام البار الراشد، الذي

---

(١) مسائل الإمام أحمد برواية ابن هانئ (١٩٤٢)؛ السنة، للخلال، ص٣٨٥؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٦١ ـ ٢٦٢؛ وإسناده صحيح. وفي رواية: أنها فَضَّلَتْ عثمانَ على عليٍّ.

(٢) الإمامة، لأبي نعيم، ص٣٣٠، بإسناد صحيح.

أجمعت كلمة الأمة على بيعته راضين غير مكرهين، متحابين غير متنافرين.

● **وبقي سؤالان كبيران:**

السؤال الأول: هل شارك أحد من الصحابة في قتل عثمان؟:

١ ـ قال عبد الأعلى بن الهيثم: حدثني أَبي، قال: قلت للحسن البصري: أكان فيمن قَتل عثمانَ أحدٌ من المهاجرين والأنصار؟ قال: لا، كانوا أَعْلاجاً من أهل مصر[١].

٢ ـ وقال الإمام النَّووي في صدر شرح «كتاب فضائل الصحابة من صحيح مسلم»: (لم يشارك في قتله أحدٌ من الصحابة، وإنما قتله هَمَجٌ ورَعَاع من غوغاء القبائل، وسَفِلَة الأطراف والأراذل)[٢].

٣ ـ وهكذا قال ابن العربي بأن أحداً من الصحابة لم يَسْعَ عليه، ولا قعد عنه[٣].

٤ ـ وقال ابن تيمية: إنَّ خيارَ المسلمين لم يَدخل واحد منهم في دم عثمان؛ لا قَتل ولا أَمر بقَتْله، وإنما قتله طائفة من المفسدين في الأرض من أوباش القبائل وأهل الفتن[٤].

٥ ـ وأكَّد ذلك الحافظ ابن كثير فقال: تسوَّروا على عثمان الدار،

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٧٦.
(٢) شرح صحيح مسلم: ٨/ ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٣) العواصم من القواصم، ص١٤٣.
(٤) منهاج السنة: ٣/ ٤٠.

وأحرقوا الباب ، ودخلوا عليه ، وليس فيهم أحد من الصحابة ولا أبنائهم إلا محمد بن أبي بكر[1] .

أقول: هذا هو المشهور عند علمائنا المحققين من خلال الروايات الكثيرة الشهيرة الصحيحة ، وهو ما ذهبتُ إليه وأكَّدتُه في غير موضع من كتبي ، لكن يُعترض على هذا بورود اسم اثنين ممن شارك في قتل عثمان ، وقد ذَكَرتُ بعض الروايات أن لهم صحبةً ما ، هما:

١ ـ عبد الرحمن بن عُدَيْس البَلَوي: ذكره كثيرون في الصحابة ، وأوردوا حديثاً في أنه من أصحاب الشجرة ، والحديث ضعيف[2] .

وقال ابن حزم: (يُقال: له صحبة)[3] .

ولو كان ابن عُدَيْس من أهل الحُديبية وأصحاب بيعة الرضوان؛ لما تجرأ على الخروج على عثمان وقد رأى منزلته في الإسلام في تلك الغزوة خاصة وفي سيرته عامة! .

٢ ـ عَمْرو بن الحَمِق الخُزاعي[4]: له صحبة يسيرة ، أسلم عام حجة الوداع ، سكن الكوفة ثم انتقل إلى مصر ، وكان أحد رؤساء الجيش المصري الذي زحف إلى المدينة وحاصر أمير المؤمنين! .

له حديث واحد جاء بإسناد صحيح ، وفي بعض طرقه يقول: سمعت رسول الله ﷺ .

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٨٥ .

(٢) الإصابة: ٢/٤٠٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ، ص٤٤٣ .

(٤) الإصابة: ٢/٥٢٦؛ تهذيب الكمال: ٢١/٥٩٦ .

ومن عجائب عَمْرو: أن الحديث الذي رواه يقول فيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيُّما رجلٍ أَمَّنَ رجلاً على دَمِه ثم قَتَلَه، فأنا من القاتلِ بريءٌ، وإن كان المقتول كافراً**»!.

وفي رواية: «**فإنَّه يَحمل لواءَ غدرٍ يومَ القيامة**»[1]!.

نقول: عجيبٌ أمرُ عمرٍو وهو يسمع هذا الحديث من النبي ﷺ، ويحفظُه ثم يرويه، ثم لا يتَّعظ به! وهو في كل كلمة من كلماته حجَّة عليه؛ في تأليبه على أمير المؤمنين وخروجه عليه ومشاركته في قتله!.

فإذا لم يكن ذو النورين محفوظَ الدم مؤمَّناً على نفسه محرَّماً قتلُه والغدر به؛ فما في الدنيا إنسان موفور الحركة محفوظ الدم!.

●● وممن ألَّب على أمير المؤمنين عثمان وسعى في الخروج عليه من أبناء الصحابة: محمد بن أبي حذيفة، وعملُه في هذا قديم، كما تقدم. وكذلك محمد بن أبي بكر الصديق، وقد شارك الخوارجَ في الدخول على عثمان، وأساءَ إليه، وله يدٌ في التحريض على قتله.

●● أما ما نُسب إلى عامة الصحابة وخاصَّتِهم، ومنهم علي وطلحة والزبير وعَمْرو بن العاص وعمار بن ياسر وأم المؤمنين عائشة ـ من التأليب على عثمان، والرضا بقتله والمشاركة بدمه؛ فكلُّه كذبٌ وافتراءٌ وزورٌ على أولئك الأطهار، وكذبٌ على التاريخ، والروايات في ذلك كلها تالفةٌ.

---

(١) النسائي في «الكبرى» (٨٦٨٦ ـ ٨٦٨٨)؛ ابن ماجه (٢٦٨٨)؛ ابن حبان (٥٩٨٢).

السؤال الثاني: كيفُ قُتِل أمير المؤمنين عثمان وفي المدينة كبار الصحابة؟:

من خلال ما استعرضنا مفصلاً عن الأحداث منذ بزوغ الفتنة إلى نهايتها باستشهاد عثمان؛ يتبين لنا الجواب عن هذا السؤال من عدة جوانب:

١ ـ إن أغلب الصحابة لم يكن يظن أن الجرأة ستبلغ بأولئك الخوارج أن يقتلوا الخليفة في البلد الحرام والشهر الحرام، وهو لم يبدر منه ما يستحق به الخروج عليه فضلاً عن قتله. وقتلُه ليس كقتل آحاد الناس؛ فهو خليفة رسول الله ﷺ، وقد بايعه المسلمون بإجماعهم التام، وفضائلُه وأعماله تبدِّد أية نزوة عقلية أو عملية تستهدف حياته.

٢ ـ صلابة موقف عثمان في الكَفِّ عن القتال، واستمرارُه بحزم في إمساك أيدي الصحابة عن الدفاع عنه، ومنعهم من حمل السلاح أو تحريكه، تجنباً لإثارة الفتنة ووَأْداً لها، للحفاظ على وحدة الأمة والدولة، وصيانة المجتمع من الاضطراب والفساد والاحتراب. وقد ذكرنا النصوص الكثيرة الصحيحة التي تثبت أن عثمان قيَّد أيدي الصحابة وأبنائهم عن القتال دونه.

٣ ـ وينبثق من هذا تمسُّكُ عثمان بما عَهِد به إليه النبيُّ ﷺ أن يصبر على ما يُراد به، وحدَّث بذلك صراحة فقال: (عَهِدَ إلي رسولُ الله ﷺ عهداً وأنا صابر عليه)؛ فاختار أخفَّ الضَّرَرَين وأهونَ الشرَّيْن، وآثر التضحية بنفسه على توسيع دائرة إراقة الدماء، وقال: (إنما تُراد نفسي)، وقال: (لن أكون أولَ من خَلَف رسولَ الله ﷺ في أمته بسفك الدماء).

٤ ـ أن الخوارج السبئيين كانوا يضعون الرقباء على تحركات كبار الصحابة كعلي وطلحة والزبير وأمثالهم ، وقاموا بتنفيذ جريمتهم وعثمانُ في قلَّة من الحُماة والحراس ، ولزوم كثير من أهل المدينة بيوتهم ، وقبل مجيء أمداد جيوش الأمصار والحجيج من مكة.

٥ ـ انضباط الصحابة رضي الله **عنهم والتزامُهم الطاعةَ التامة لأمير المؤمنين عثمان فيما انتهجه** من **سياسة الكَفّ وعدم القتال وإراقة الدماء** ، فكانوا وقافين عند أوامره وعزيمته عليهم وتنفيذ تعليماته وتوجيهاته وملازمة هديه في تضييق دائرة القتال. مع إلحاحهم الدائم على مناصرته ، ومناشدتهم له بأن يُطْلِق أيديَهم ويأذَنَ لهم في مجاهدة هؤلاء المجرمين ، وكان هو يأمرهم ويناشدهم بما له عليهم من الطاعة أن يَكفُّوا أيديهم ويُغمِدوا أسيافهم ويلزموا بيوتهم ، فسمعوا وأطاعوا.

٦ ـ ومع كل ما تقدم ، فإن الصحابة لم يتركوه ومصيرَه ، ولا خذلوه ، ولا تخلَّوْا عنه ، بل رابطَ شجعانُهم وفتيانُهم عند الباب وحول الدار ، وترك أكابر الصحابة كعليٍّ وطلحة والزبير أبناءَهم: الحسن والحسين ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير ، في جماعة من الشباب والكبار ، وعندما وقعت القارعة هَبَّ هؤلاء للقتال ومدافعة القتلة ، وما قُتِل عثمان إلا ومات دونه جماعة من الشباب الأبطال ، وتضرَّج بالدماء آخرون.

سادساً: عثمان لم يكن ضعيفاً في مواقفه من الخوارج والقتلة:

يزعم لفيفٌ من الكتَّاب والمؤرخين وبخاصة المعاصرين: أن أمير المؤمنين عثمان كان ضعيفاً عاجزاً مستضعَفاً متهاوناً في سياسته للدولة؛

بدءاً من عشيرته وأقاربه ثم ولاته ، وتضاعَفَ ضعفُه في مواقفه من الفتنة منذ أطلَّتْ برأسها إلى أن صَلُب عودُها واشتدَّ بأسُها وأنشَبَتْ في جسمه أظفارَها!.

●● ولقد أوضحنا بجلاءٍ بطلانَ هذه الفِرية عند حديثنا عن هدي عثمان وسياسته مع عشيرته وولاته ، والخارجين على حدود الإسلام ، وحركات الانتقاض في أطراف الدولة الإسلامية ، وبيَّنَّا عزماته ووقفاته السديدة الرائعة حِيال ذلك كله.

●● ونقف هنا مع ما افتُرِي على ذي النورين في موقفه من الفتنة والخوارج السبئيين الذين تمادوا في غَيِّهم وضلالهم حتى أطاحوا بالخليفة وسفكوا دمه.

ـ لقد كان عثمان في موقف يَكْنُفُه فيه عزُّ الخلافة وسلطانها ، وتحوطه حميَّةُ العشيرة وسطوتها ، أَجلَبت عليه الحوادث بخَيْلها ورَجِلها ، وتدافعت إلى بابه بقَضِّها وقَضِيضها ؛ **أفتراه عاجزاً عن التنكيل بهولاء الخارجين والأمرُ في بدئه كان لا يزال محصوراً في نَفَر ليست لهم حرمةُ سبقٍ إلى الإسلام ، ولا تقدمٌ في الهجرة ، ولا كان لهم كبيرُ فضل في جهاد** ، وإنما هم أحلاسُ فتنة ، ومطايا الشياطين من أضراب ابن سبأ اليهودي وحزبه؟! وقد قال له أهل المدينة ـ وهم جمهور الصحابة ـ لمَّا انكشَفَ لهم وله حالُهم معه ، وظهر خبثُ نيَّاتهم نحوه : اقتُلْهم ، فأبى إلا أن يصبر ويعفو[1]!.

ـ وهل كان عثمان عاجزاً عن أن يتخذ لنفسه حماة وقادة أشداء القلوب

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٨٢ ـ ٨٣.

يسلطهم على أبشار المخالفين بالجبر والقهر والجبروت ، ويطلق أيديهم في المناوئين ، فيسومونهم الخسف والتنكيل ، وحوله جماعات من فتيان الصحابة وأبطال العرب؟!.

ـ وهل كان عثمان عاجزاً أن يستجيبَ للطلب بعد الطلب ، والرجاء بعد الرجاء ، من معاوية والمغيرة وابن الزبير وأسامة؛ في أن يغادر المدينةَ إلى مكة أو الشام ، أو أنه يأتيه جيش يُقيم معه في المدينة للنوائب والطوارئ ، أو أن يخرج بمن معه فيقاتل أولئك الخوارج؟! وهو يرفض كل ذلك بأنه لن يترك دار هجرته ، ولا يذهبُ إلى مكة خشيةَ الإلحاد فيها ، ولا يريد أن يُضيِّقَ على أهل المدينة مدينتهم ، ولن يكون أوَّلَ من يَخْلُف النبيَّ ﷺ بسفك الدماء! فيُقال له: لتُغزَيَنَّ ولتُغتالَنَّ ، فيقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

ـ وهل كان عثمان عاجزاً أن يُحدِث للناس عقوبات فوق ما أحدثوا من الذنوب والآثام ، فيصيحُ بهم: مَنْ نَقَب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نَبَشَ قبراً دفنَّاه فيه حيّاً ، ولا تظهرُ من أحدكم رِيبةٌ بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربتُ عنقه؟!.

كلا ما كان عثمان رضي الله عنه عاجزاً عن هذا وأمثاله ، ولا كان ضعيفاً ولا مستضعفاً[1].

ـ وما كان عثمان عاجزاً ولا ضعيفاً ولا مستضعَفاً وقد أراده الخوارج على خلع نفسه أو قتله ومن معه في الدار؛ فما اهتزت له شعرة ، وكان معه في الدار وحولها (٧٠٠) رجل من الصحابة وشبابهم في عصابة مستبصرة

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٨٣.

مستنصرة يقودهم نفرٌ من ليوث الأبطال كالحسن والحسين وابنِ الزبير ومروان والمغيرة بن الأخنس ، فما زاد على إمساك أيديهم وكَفِّهم عن إراقة مِحْجَمة من دم!.

لقد كان عثمان في سياسته تلك خليفة راشداً ، يَحْجُزه عدلُ الخلافة الراشدة عن مآثم الحكم الجبري والاستبداد الدموي ، الذي يضحي بكل شيء في سبيل الملك ، ولو أقامه على أشلاء المعارضين والموافقين!.

●● **لقد غَلِط التاريخ كما غَلِط المؤرِّخون والكتَّاب قديماً وحديثاً في تصوير شخصية عثمان وعهده وسياسته في أيام خلافته ،** (حتى وقع في أوهام كثير من الناس ، وتحدَّر إلى منازل التاريخ ، ولُقِّنَ شباب المسلمين في المدارس ومعاهد التعليم: أن عثمان رضي الله عنه كان ضعيفاً في موقفه إزاءَ هذه الأحداث العاصفة ، أو كان مستضعفاً يُساق إلى ما يُراد ، وهذه غلطةٌ تاريخية خطيرة في حق ثالث عظماء الإسلام ، يجبُ على كل مسلم سليم العقيدة ، صحيح الفهم لتاريخ الإسلام؛ أن يعملَ على تصحيحها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً!)[1].

إن خلائق الرحمة والحياء واللين والمسامحة لا يَقْدر عليها إلا أشداءُ الرجال وأكابر الناس وأشراف المجتمع ، وهي مباينة لصفات الضعف والاستضعاف والعجز والانكسار ، ولو أرادها عثمان مُلْكاً عاضّاً أو جبرية مستبدَّة؛ لأمكنه ذلك وبيده السلطة وحول الأعوان والقادة والولاة والعشيرة.

نعم ، لو كان عثمان رضي الله عنه ملِكاً عَسوفاً أو حاكماً جباراً ،

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٨٤.

فاتخذ لنفسه بطانة جلّادين يضربون ظهور الناس فيُذِلُّونهم ، ويسفكون دماءهم فيُفنونهم؛ لنَجا كما نجا خلائفُ المُلك العضوض! نعم ، ولو اعتصم عثمان بحرب الخارجين ، لأفنَى كثرة الأمة وعاش كما عاش المتجبرون من بعده. نعم ، ولو أراد عثمان الحياة كما يشتهيها ذوو الهمم المريضة من آحاد الناس؛ لوجدها سهلة هيِّنة كما يجدُها الضعفاء الرَّعاديد في كلمة لا تتجاوز شفتيه أو إشارة من يديه بالانقضاض على أولئك الخوارج المحاصِرين له ، ولسالَتْ من ذلك دماء غزيرة طاهرة في صفوف الصحابة والمنافحين عنه ، ودماءٌ فيها شبهة من أولئك الخوارج الأغمار الأغرار والجهلة الغوغاء الذين لا يدرون أين يُساقون! .

●● لكنَّ ذا النورين ما كان يوماً من الأيام ولا ساعة من نهار ملكاً جبَّاراً كما يريده الجاهلون ، بل كان خليفة راشداً يسوس الناس بالعدل ، وراعياً شفيقاً يرعاهم بالرحمة والإحسان.

لقد كان أمير المؤمنين عثمان ـ وهو الرجل الذي نَيَّف على الثمانين ـ على قوة نفس ، ومناعة خُلق ، وشجاعة باهرة ، وثباتٍ لا يتزعزع أمام الأهوال والأخطار! فلقد تجمَّع معه في الدار وحولها وعند الباب كثيرٌ من أبطال الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار ليدفعوا عنه ، ويَذُودوا عن سلطان الله تعالى ممثلاً في خلافته الراشدة ، ولو أَذِن عثمان لهم في حرب الخارجين وقتالهم لضربوهم حتى يُخرجوهم من أقطارِها ، ولكن عثمان أَبَى عليه إسلامُه ويقينُه وإخلاصُه وفضله أن يَقذف بالأمة في أَتُون حرب طاحنة من أجل شخصه.

وهو في كل يوم وساعة ولحظة يمسك بأيديهم ويَعزِم عليهم بما له من حق الطاعة أن يُغمِدوا أسيافهم ولا يسفكوا بسببه قطرة من دم ، وهو يرى

القتلة المجرمين محيطين به ، وقد عزموا على مهاجمة داره وسفْكِ دمه! بل تراه يقول لامرأته: افتحي الباب ، ويضع المصحف الشريف بين يديه يتلوه ويتهجَّد به آناء الليل قائماً وساجداً يخشى الآخرة ويرجو رحمة ربه!.

●● ليتَ شِعري أيةُ شجاعة نفسية ، وأي صبر يطلبه الناس وراء هذا؟! إذا كانت الشجاعة هي ضبط النفس عند النوازل في غير قلَقٍ ، والصبر على المكاره من غير جَزَع ، ومصابرة الحوادث في غير سأَمٍ ، والثبات لجِسام الأحداث بلا تزعزعٍ ـ فلم تَنفرِج الوالدات عن مثلِ عثمان في شجاعته ورباطة جأْشِه ، وقوة يقينه وثباته على رأيه! فإن أحداً من الناس في مثل حال عثمان وشأنه لم يلقَ ما لقي عثمان ولا شيئاً منه ، ولم يصبر أحدٌ على ما لقي من البلاد والمحنة مثلَ ما صبر عثمان ، وكيف بصبر ينتهي بصاحبه ـ على علمٍ منه وبصيرة ـ إلى الموت قتلاً ، وكان له لو كان جَزوعاً ، وأراد ألا يصبر عن يقين ورضا؛ مخارجُ يَنفذ منها ، ويعيش في خَفْض من العيش الذليل! ولكن عثمان رضي الله عنه لم يكن ضعيفاً ولا مستضعَفاً ـ كما يزعم القاصرون المقصِّرون ـ بل كان قوي الإيمان ، عظيمَ اليقين ، كبيرَ النفس ، عبقريَّ الشجاعة ، نبيلَ الصبر ، نفَّاذ البصيرة ، ففدى الأمة بنفسه ، ووَضَع لها بذلك أعظمَ قواعد النظام في تكوينها الاجتماعي.

أما إذا كانت الشجاعة سفكاً للدماء ، وتقتيلاً للأبرياء ، ونَهْباً للأعمار ، وسلباً للأموال ، وإرعاباً للآمنين ظلماً وعدواناً؛ فليست هذه الشجـاعة من عثمان في شيء ، وليس منها عثمان في شيء ، لأنه كان من الخلفاء الراشدين الذين اصطفاهم الله بعد خاتم النبيين محمد ﷺ ،

ليوطِّدوا في الإنسانية دعائمَ العدل والرحمة ، ويَسنُّوا بالناس سننَ الهداية والرشاد ، وليتأسَّى بهم قادة الإصلاح ودعاة الخير ، وزعماء الأمة الإسلامية في كل عصر ومصر[1] .

والذي يرى ويتابع ما تمور به الآن ساحات كثير من الدول العربية ـ فيما عُرف بالرَّبيع العربيِّ ـ من الاستئثار بالحكم والتضحية بالأرواح والبلاد والثروات وأمن العباد؛ في سبيل البقاء على كرسي الحكم ـ يعلمُ حقَّ العلم كم كان أمير المؤمنين عثمان عظيماً وجليلاً وحكيماً وشجاعاً ، وهو يجودُ بنفسه ويَحقِن دماءَ المسلمين بل وعصابات الإجرام التي حاصرتْه ثم قتلَتْه! .

سابعاً: وقفات مع الخوارج السبئية وجرائمهم ، ونقمة الله التي نزلت بهم:

لقد أصاب الإمام أحمد كبدَ الحقيقة حيث قال: (شَتْمُ عثمان زندقة وباطنُه كفر؛ لأنه يؤدِّي إلى تكذيب المهاجرين والأنصار الذين اختاروه بالإجماع)[2] .

فما بالُك بشَقِّ عصا الطاعة ، والخروجِ على الجماعة والبيعة ، وحملِ السلاح والسعي إلى أمير المؤمنين فيِ البلد الحرام وحصره ثم سفك دمه؟! .

ونشير في هذه الفقرة إلى جملة من أخلاق أولئك السبئيين

---

(١) عثمان بن عفان ، للصادق عرجون ، ص٨٨ ، ٩١ ـ ٩٢ ، مقتطفات.
(٢) فضائل الصحابة ، لأحمد (٧٤٠).

المجرمين ، وسوء صنيعهم وزعارتهم وضلالهم ، لتتكون منها صورة متكاملة تتضح فيها حقيقةُ أنهم ما كانوا أصحابَ حق ولا دعاةَ إصلاح ، بل حثالات وأغماراً وغوغاء تجمعتْ في قبضة عصابة من ذوي الأهواء والأطماع والحقد الدَّفين.

●● ١ ـ يصف ابن الكَوَّاء ـ وهو أحد المُسَيَّرين ـ أهلَ الإحداث فيقول: (فأما أهل الإحداث من أهل المدينة؛ فهم أحرصُ الأمة على الشرِّ ، وأعجزه عنه. وأما أهل الإحداث من أهل الكوفة؛ فإنهم أنظرُ الناس في صغير ، وأركبُه لكبير. وأما أهل الإحداث من أهل البصرة؛ فإنهم يَرِدون جميعاً ، ويَصدرون شتى. وأما أهل الإحداث من أهل مصر؛ فهم أوفى الناس بشرٍّ ، وأسرعُه ندامة. وأما أهل الإحداث من أهل الشام؛ فأطوعُ الناس لمرشدهم ، وأعصاه لمغويهم)[١]!.

٢ ـ ووصفهم معاوية بأنهم: (أقوام ليست لهم عقولٌ ولا أديان ، أَثْقَلهم الإسلام ، وأضجَرهم العدل ، لا يريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجَّة ، إنما همُّهم الفتنة وأموال أهل الذمة). وأنهم: (يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُمْلون عليهم ، وليس كل الناس يعلم ما يريدون ، إنما يريدون فُرْقة ، ويقرِّبون فتنة ، وأفسدوا كثيراً من الناس)[٢]!.

٣ ـ ودخل سعد بن أبي وقاص على عثمان وهو محصور ، ثم خرج من عنده فرأى عبد الرحمن بن عُدَيْس ومالكاً الأشتر وحُكَيم بن جَبَلة؛

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٩.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٢١ ، ٣٢٥.

فصَفَق بيديه إحداهما على الأخرى ثم استرجع ، ثم أظهر الكلام فقال: واللهِ إنَّ أمراً هؤلاء رؤساؤه لأمرُ سوء[1]!.

٤ ـ ولمَّا سُئل الزبير عن مقتل أمير المؤمنين عثمان ، وصف القومَ الذين خرجوا عليه وقتلوه بأنهم: (الغوغاءُ من الأمصار ونُـزَّاع القبائل ، وظاهَرَهم الأعراب والعبيد)[2].

٥ ـ وعندما شدَّدوا الحصار على عثمان ، ودخل عليه علي بن أبي طالب أنَّـبَهم ووبَّخَهم وقال: (يا أيها الناس ، إن الذي تصنعون لا يُـشبه أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المارّة؛ فإن الروم وفارس لتأسِرُ فتُطعِم وتسقي! وما تعرَّض لكم هذا الرجل ، فبمَ تستحلُّون حصْرَه وقتْلَه؟! قالوا: لا والله ولا نَعْمةَ عين ، لا نتركه يأكل ولا يشرب!)[3].

٦ ـ وبَثَّ هؤلاء المجرمون خَبيئة أنفسهم للرجلين اللَّذَين أرسلهما عثمان ، فقالوا: (نريد أن نَذكُر لعثمان أشياءَ قد زرعناها في قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنّا قرَّرْناه بها ، فلم يَخرج منها ولم يَتُبْ ، ثم نخرج كأنّا حُجَّاج حتى نقدَم فنحيطَ به فنخلَعَه ، فإن أبى قتلناه)[4].

●● ومن أمثلة أعمالهم السيئة وجرائمهم الكثيرة ، التي تدل على

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٦١. **نُزَّاع القبائل**: المشرَّدون.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٣٨٦.

(٤) تقدم: ص ٦١٩ ـ ٦٢٠ في هذا الكتاب.

خُبث طويَّتهم وسوء نيَّتِهم وكَذِبهم وافترائهم وتغلّبِ الهوى والحقد على مقاصدهم وأفعالهم: سعيُهم الحثيث على إثارة الفتن والإيقاع بين الناس واختلاق الأكاذيب وشق الصفوف؛ ومن ذلك:

١ً ـ في الكوفة نَقَب جماعة من أهل الزَّعَارة على ابن الحَيْسُمان بيتَه وقتلوه، ولما أُقيم عليهم الحدُّ، نَقَم ذووهم على والي الكوفة الوليد بن عقبة، وافتروا عليه واتهموه بشرب الخمر، حتى حُدَّ وعُزِل. وكذلك أثاروا الفتن في وجه سعيد بن العاص، ومنعوه من دخول الكوفة (يوم الجَرَعة)، وطلبوا من الخليفة والياً غيره!.

٢ً ـ وفي البصرة أثاروا الشغب والفتن في وجه الوالي أبي موسى الأشعري، حتى عُزل.

٣ً ـ وفي مصر أفسدوا بين عَمْرو بن العاص وبين أبي سَرْح، فعزل الخليفة عَمْراً. وكذلك ثاروا في وجه ابن أبي سرح، وأخذ محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر بإظهار العيب على عثمان والطعن فيه وأن جهادَه حلال، وألّبا الأحزاب عليه. ونفخ ابن سبأ في رماد الفتنة وأشعل جذوتها حتى تشَظَّت ووصلت إلى آخر مداها.

٤ً ـ وكذلك أَظْهَروا الطعن على الولاة، واخترعوا أباطيل أرادوا أن يُدينوا بها أمير المؤمنين، وافتروا أكاذيب وزرعوها في قلوب الهمج والغوغاء.

٥ً ـ وزوَّروا الكتب على لسان الصحابة وأمهات المؤمنين ثم على الخليفة الراشد، والذي بسببه ـ كما زعموا ـ رحلوا إليه لخلعه وقتله.

٦ً ـ وعلى هذه الأخلاق الفاسدة مشى من عُرفوا (بالمُسَيَّرين)،

الذين نقلهم الخليفة من بلد إلى آخر ، وتعاهدهم والٍ إثر وال بالتأديب والإصلاح ، فلَجُّوا في طغيانهم وضلالهم.

●● وتزداد أخلاقهم الفاجرة ونيَّاتهم الخبيثة وضوحاً في ممارساتهم وجرائمهم في الأيام الأخيرة من حصار أمير المؤمنين وقتله :

١ ـ عندما جاءت أم المؤمنين صفية تُغيث عثمانَ بالطعام والشراب ، قام الأشتر في نفر معه بتنفير دابَّتها حتى كادت أن تُسقطها من على ظهرها!.

وكذلك فعلوا بأم المؤمنين أم حبيبة ، واتهموها بالكذب.

فلم يَرْعَوْا لزوجاتِ نبينا ﷺ حُرمة ولا مكانة؛ أفهؤلاء يريدون وجه الله؟!.

٢ ـ ومنعوا عن أمير المؤمنين الماء والطعام ، فقال لهم علي: إن فارس والروم لا تفعل فعلكم هذا . فما أثَّر فيهم ذرة!.

٣ ـ وعندما نافحتْ عن عثمانَ زوجُه نائلة ، ضربها أحدُهم ، وقال: قاتلها الله ما أعظمَ عَجيزتها!.

٤ ـ وعَمْرو بن الحَمِق يَـثِبُ على صدر عثمان ويطعنه عشر طعنات ، ويزعم أن ثلاثاً منها لله ، وسبعاً لِما في صدره عليه.

٥ ـ والغافقيُّ بن حرب يدخل على عثمان والمصحف بين يديه ، فيَركُل المصحف برِجْله ، ثم يهوي إلى عثمان بالسيف فيقطع يده التي كانت أولَ يد خطّت (المُفَصَّل).

٦ ـ ودخلوا الدار فانتهبوها حتى أخذوا ما على النساء ، وأخذ رجل

مُلاءة نائلة زوج عثمان ، ثم تنادَوا: أَيَحِلُّ لنا دمُه ولا يَحِلُّ مالُه؟! فأسرعوا إلى بيت المال وانتهبوه.

٧ ـ ولما آلَت الخلافة إلى عليٍّ ، ولَّى بني العباس بعضَ الولايات ، فقال الأشتر النخعي: علامَ قتلنا الشيخ ـ أي عثمان ـ إذاً؟! اليمن لعُبيد الله ، والحجاز لقُثَم ، والبصرة لعبد الله ، والكوفة لعلي!.

هذه خطوط وقسمات واضحة يستبين من تجميعها الوجهُ الكالح والنفسية المريضة والقلوبُ الحانقة والأهواء المستشرية والمسيطرة على رؤوس الفتنة والشر ، الذين قادوا الدَّهماء والأعراب ونُـزَّاع القبائل إلى الخروج على الخليفة الراشد وقتله ، وفتح أبواب الفتن على مصاريعها لتجتاح الأمة المسلمة.

● فكيف كانت نقمة الله عليهم في الدنيا قبل الآخرة؟:

●● عن علي بن أبي طالب : أن النبي ﷺ قال: «**المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْر ، فمن أَحْدَثَ فيها حَدَثاً أو آوى مُحْدِثاً؛ فعليـهِ لعنةُ الله والمـلائِكـةِ والنـاسِ أجمعيـن ، لا يَـقبـلُ الله منـه يـوم القيـامـة صَـرْفـاً ولا عَدْلاً**»[1].

وقد طبَّق الحافظ أبو نُعيم الأصبهاني هذا الحديثَ على أولئك الخوارج السبئيين ، من أهل الجهل والغي والفتنة ، فهم أولُ قوم أَحدثوا وانتهكوا حرمة المدينة وأحدَثوا فيها ، فباؤوا بلعنةِ رسولِ الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٠ ، ٧٣٠٠)؛ ومسلم (١٣٧٠) ، وغيرهما. **عير وثور**: جبلان بالمدينة. **الصرف**: التوبة ، **والعدل**: الفدية. أو: **الصرف**: الفريضة ، **والعدل**: النافلة.

وكانت اللعنة التي لَحِقَتْهم من النبي ﷺ لِحَدَثِهم؛ أن أُلبسوا شِيعاً ، وأُذِيق بعضُهم بأسَ بعض[1] .

ـ قال الحسن البصري : (ما علمتُ أحداً أَشرك في دم عثمان ولا أَعان عليه إلا قُتل)[2] .

وقال : (لم يَدَع الله الفَسَقة قتلةَ عثمان حتى قتلهم بكلِّ أرض)[3] .

ـ وعن عَمرة بنت قيس العَدَوية قالت : (خرجتُ مع عائشة ـ رحمها الله ـ سنة قُتل عثمان إلى مكة ، فمررنا بالمدينة ، فرأَيْنا المصحفَ الذي قُتل وهو في حَجْره ، فكانت أول قطرة قطرت من دمه على هذه الآية : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧] ، قالت عمرة : فما مات منهم رجلٌ سويّاً !)[4] .

ـ ولمَّا بَلَغ سعدَ بن أبي وقاص استشهادُ عثمان ، دعا على القتلة فقال : اللهمَّ أَنْدِمْهم ثم خُذْهم .

وقد أقسم بعض السلف بالله أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً[5] .

●● وكان نزولُ دم أمير المؤمنين عثمان على قول الله تعالى ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ فيه إيذانٌ بأنه سبحانه سينتقِم لعبده الخليفةِ

---

(١) الإمامة ، ص٣٥٠ ، ٣٥١ .
(٢) تاريخ المدينة ، لابن شبة : ٤/ ١٢٥٢ .
(٣) التاريخ الأوسط : ١/ ١٧٦ .
(٤) الزهد ، لأحمد (٦٧٧) .
(٥) البداية والنهاية : ٧/ ١٨٩ .

الشهيد المظلوم؛ فقيَّض الله عز وجل للقتلة مَن تتبَّعَهم وقتلهم واحداً بعد الآخر.

ـ عن حُميد بن هلال: (أن أم حبيبة أم المؤمنين دخلَتْ على عثمان ـ وهي في خِدْرِها، وهو محصور ـ فاطَّلع رجلٌ منهم في خِدْرها فنَعَتها للناس، قالت: ما لَهُ قطعَ الله يَده وهَتَك عورته! قال: فخرج في بعض تلك الهزاهز، فقُطِعتْ يده، وذهب على وجهه يشتد وعليه إزار، فوقع من عُنقه، فبَقِي عُرْياناً يشتدُّ، وأصابه ما دَعَتْ عليه)[1].

ـ وعن طَلْقِ بن خُشَّاف قال: (أَتيت عائشة قلتُ: فيمَ قُتل أمير المؤمنين؟ قالت: قُتل مظلوماً لعنَ اللهُ قَتَلَته، أقادَ الله ابن أبي بكر، وساقَ إلى أَعْينِ بني تميم هواناً، وأَهْرَاق دمَ ابنَيْ بُديل على ضلالة، وساق الله إلى الأشتر كذا. قال طلقٌ: لا والله، إنْ بقي من القوم رجلٌ إلا أصابَتْه دعوتُها: أُخِذ ابن أبي بكر فأُقِيد، ودَخَل على أَعْينِ بني تميم رجلٌ فقتله، وخرج ابنا بُديل في بعض تلك الفتن فقُتِلا، وخرج الأشتر إلى الشام فأُتي بشربة فقَتَلتْه!)[2].

●● ١ ـ اختبأ محمد بن أبي بكر في بيت امرأة بمصر، فقَبَض عليه معاوية بن حُدَيج وقتله، ثم جعله في جيفةِ حمار ميِّت، فأحرقه بالنار[3]!.

---

(١) تاريخ المدينة، لابن شبة: ٤/ ١٣١٢ ـ ١٣١٣.
(٢) التاريخ الأوسط: ٢/ ١٩٨؛ واختصره في التاريخ الكبير: ٤/ ٣٥٨، وسنده حسن.
(٣) ولاة مصر، ص٥٢؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨٢.

٢ ـ وقال قتادة: شَقَّ من عَبْس لعثمانَ مِطهرة فيها ماء ، فقال: اللهم أَظْمِئْه. قال: فركب الرجل البحر مع أصحاب له ، وكان ثقيلاً ، فنَفِذ ماؤهم ، فانتهوا إلى ساحل اليمن فخرجوا وخرج معهم ، وكانوا أخفَّ منه فأدركهم العطش فمات عطشاً.

وفي رواية: فمات ، وأكلت النسورُ بعضَه[١]!.

٣ ـ وقام جَهْجَاه الغِفاري إلى عثمان وهو على المنبر ، فأَخذ منه العصا ووضعها على ركبته فكسرها ، فرَمَاه الله بالأَكِلة في ركبته ، فلم يَحُلْ عليه الحَوْل حتى مات[٢].

٤ ـ وكان عبد الرحمن بن عُدَيْس شديدَ الوطأة على عثمان أيام الحصار ، وفيما بعد أخذه معاوية بن أبي سفيان فجعله في بَعْلَبكّ ، فهرب منه ، فأدركه رجلٌ رامٍ من قريش فرماه بنُشَّابة فقتله[٣].

٥ ـ وقد كان معاوية أخذ محمد بن أبي حذيفة وعبد الرحمن بن عُديس وكِنانة بن بِشْر وغيرَهم من قتلة عثمان ، فسَجن ابنَ عديس وجماعة ببَعْلَبكّ ، وسَجن ابن أبي حذيفة وجماعة بفلسطين باللُّد ، فهرب هؤلاء من السجن ، فتبعهم والي فلسطين فقتلهم[٤].

٦ ـ والأشتر النخعي بعثه علي والياً على مصر ، فسار إليها حتى بلَغ البحر الأحمر ، أُتي بشربة عَسَل فشربها فكان فيها حَتْفُه.

---

(١) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٨.
(٢) حياة الصحابة: ٣/ ٦٦٠ ـ ٦٦١ ، وقد تقدم: ص ٦٥٣ في هذا الكتاب.
(٣) المعرفة والتاريخ: ٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦١؛ الإصابة: ٢/ ٤٠٣.
(٤) ولاة مصر ، ص٤٣.

فلما بلغ خبرُه عليّاً قال: لليدين والفم! أي: كَبَّه الله على وجهه.

وقال عمرو بن العاص: إن لله جنوداً من عسل[1].

٧ ـ وعبد الله بن سبأ بقي على زندقته، فحبسه عليٌّ واستتابه ثلاثة أيام، فلم يَـتُب، فأحرقه بالنار في أحد عشر من جماعته[2].

٨ ـ وقُتِل حُكَيم بن جَبَلَة ومن كان معه من قتلة عثمان في «وقعة الجمل»[3].

٩ ـ وعاش كُميل بن زياد وعُمير بن ضابئ إلى أيام ولاية الحَجَّاج على العراق، بعد أكثر من أربعين سنة من مقتل عثمان[4]، فأُتي الحجاج بهما فضرب عنقيهما[5]، نكالاً من الله بقتلة عثمان، وتحقيقاً لوعده سبحانه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾!.

١٠ ـ وقَتَل المدافعون عن عثمان كلاًّ من قُتيرة السَّكُوني، وسُودان بن حُمران السَّكُوني، وكُلثوم بن تُجيب، وذلك عندما اقتحموا الدار[6].

---

(١) التاريخ الأوسط: ١/ ١٨٨؛ وولاة مصر، ص٤٧ ـ ٤٧؛ سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤.

(٢) ابن عساكر ـ ترجمته، ص٧؛ المعارف، ص٦٢٢؛ رجال الكشي، ص٩٨؛ لسان الميزان: ٣/ ٢٨٩.

(٣) انظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٤) أرخ خليفة ذلك في تاريخه، ص٢٨٨، سنة (٨٢ هـ).

(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٦) المرجع السابق: ٤/ ٣٩١.

١١ ـ ورأى أبو قِلَابة الجَرْمي رجلاً بالشام مقطوعَ اليدين من المَنْكِبين والرجلين أعمى منكبّاً على وجهه ، وهو ينادي : يا ويلَهُ ، النارَ النارَ! فسأله عن شأنه ، فقال : كنتُ فيمن دخل على عثمان الدار ، وكنتُ في سَرَعان من وصل إليه[١] .

١٢ ـ وعن محمد بن سيرين قال : (كنتُ أطوف بالكعبة ، فإذا رجلٌ يقول : اللهمَّ اغْفِرْ لي ، وما أظن أن تغفرَ لي! فقلت : يا عبدَ الله ، ما سمعتُ أحداً يقول ما تقول! فقال : كنتُ أعطيتُ الله عهداً إنْ قدرتُ أن أَلْطِمَ وجْهَ عثمان إلا لطمتُه ، فلما قُتل وُضِع على سريره في البيت ، والناسُ يجيئون فيصلون عليه ، فدخلت كأني أُصلِّي عليه ، فوجدتُ خَلْوة ، فرفعتُ الثوب عن وجهه فلَطَمْتُ وجْهَه ، وسَجَّيْتُه وقد يَبِستْ يميني! قال ابن سيرين : فرأيتُها يابسةً كأنها عودٌ!)[٢] .

ثامناً: عثمان قُتل مظلوماً والخسارة في مقتله:

●● ذهب عثمان إلى ربه شهيداً سعيداً مظلوماً ، تحقيقاً لنبوءة نبوية وَسَمَت المشهدَ الأخير المحزنَ من حياته المليئة بجلائل الأعمال وأكرم الخصال .

يروي عبد الله بن عُمر فيقول : (ذكرَ رسولُ الله ﷺ فتنةً ، فمرَّ رجلٌ ، فقال : «**يُـقتل فيها هذا المُقَنَّعُ يومئذٍ مظلوماً**» ، قال : فنظرتُ ، فإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله عنه)[٣] .

---

(١) الرقة والبكاء ، لابن قدامة ، ص١٩٥ ، في خبر طويل .
(٢) مختصر ابن عساكر : ١٦/ ٢٥٠ . وذكر ابن قدامة قصصاً أخرى مشابهة : الرقة والبكاء ، ص١٩٣ ـ ١٩٤ ، ١٩٦ .
(٣) حديث صحيح تقدم مع تخريجه : ص ٥٢٠ في هذا الكتاب .

ومضى عثمان إلى ربه وقد فاز بالمناقب الكثيرة والفضائل العديدة ، وحسبه تلك البشريات النبوية والأحاديث الجليلة التي تشهد له بالهدى والخير والفضل والشهادة في سبيل الله .

وسيأتي ذو النورين يومَ الحساب في أول فوجٍ من الناس ليقضيَ الله سبحانه بينه وبين قتلته؛ فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَوَّلُ ما يُـقضَى بين الناس فيه يومَ القيامة في الدِّماء»**(١) .

ويأتي يوم القيامة وهو آخذٌ بتلابيب أولئك السبئيَّة الفجرة ، ويُوقِفُهم بين يدي العزيز المنتقم الجبار قائلاً: يا ربّ ، اسأَلْهم فيمَ قتلوني؟! .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: **«يأتي المقتولُ متعلِّقاً رأسُه بإحدى يديه ، مُتلَبِّباً قاتلَه بيدِه الأخرى ، تَشْخُبُ أوداجُه دماً ، حتى يأتي به العرشَ ، فيقول المقتول لربِّ العالمين: هذا قتلني! فيقول الله للقاتل: تَعِسْتَ ، ويُـذهب به إلى النار»**(٢) .

●● حقّاً لقد قُتِل عثمان ظلماً ، وكانت الخسارة بمقتله فادحة! فماذا فعل ذو النورين أيها المنافقون السبئيَّة حتى تشدُّوا إليه الرحال ، وتفسدوا في الأرض ، وتنتهكوا كل الحرمات؟! حرمة الدماء ، وحرمة المصحف الشريف ، وحرمة الزمان ، وحرمة المكان ، وحرمة الأعراض ، وحرمة البيوت ، وحرمة الأموال! .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٣)؛ ومسلم (١٦٧٨) ، وغيرهما.

(٢) أخرجه الطبراني في معجميه الكبير والأوسط ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٩٧).

١ ـ ماذا فعل أمير المؤمنين عثمان الشهيد حتى يُقتل؟!:

ـ عثمان الذي كان واحداً من أبطال المسيرة الأولى ، والذي أسلم والدعوة تواجه الشدائد والعُسرة والتضييق والمطاردة .

ـ عثمان الذي كان أولَ من هاجر بأهله بعد لوط عليه الصلاة والسلام ، وكان صِهْرَ النبي ﷺ على ابنتَيْه ، وأحدَ العشرة المشهود لهم بالجنة .

ـ عُثمان الذي اشترى بئرَ رُومة وسَبَّله للمسلمين ، وجهَّز جيش العُسْرة ، ووسَّع المسجد النبوي ، وبذل ماله في سبيل الله يميناً وشمالاً ، سرّاً وجهاراً .

ـ عثمان الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ ، وأجمع الصحابة على استخلافه وازدحموا على مبايعته أميراً للمؤمنين .

ـ عثمان الذي جَيَّش الجيوشَ ، وفتح الأقاليم ، وأَبْلَغ دعوةَ الله حدودَ الهند ومشارف الأندلس ، وجمع الناس على المصحف الإمام ، وكان يختم القرآن في ركعة .

ـ عثمان الذي أفاض على الناس الأَعْطيات والأرزاق ، وكساهم الحُلل ، ووزع عليهم العسل .

ـ عثمان الذي ما ترك لكم أيها المجرمون المنافقون طلباً في الحق إلا لبَّاه ، ولا فَتْقاً إلا رَتَقه ، وكَفَّ عنكم لسانَه ويده ، ومَنَعَ أصحابه ، من أن يقتلوكم .

بعد كل هذه المناقب والفضائل ، والمزايا والمكارم ، والسوابق الكثيرة ، والأعمال الجليلة ، والسجايا الرفيعة؛ يُقتل ذو النورين؟! .

إنه كما قال رسول الله ﷺ: «**يُـقتل هذا مظلوماً**»[1].

●● لقد كان قَتْل عمَّار وطلحة والزبير كبيرة وموبقة فظيعة ، لكنهم رضي الله عنهم كانوا في أرض معركة ، وفَرْق كبير بين قَتْلهم وبين قَتْل عمر في محرابه ، وعثمان في داره وهو يتلو القرآن ، وعليٍّ في مسجده وهو خارج لصلاة الفجر في السابع عشر من رمضان! .

إِنَّ قَتْلَ هؤلاء الخلفاء الثلاثة جريمة كبرى وفساد عريض ، ومَن باشَر قتْلَهم أو كان من ورائهم؛ هم مجرمون قَـتَلَة ، ملعونون على لسان نبينا محمد ﷺ .

وقد أشار إلى مثل هذا الإمام المجتهدُ ابنُ حزم ، فبيَّن أن عمار بن ياسر قتله أبو الغادية وهو متأوِّلٌ مجتهد مخطئ فيه باغٍ عليه ، ثم قال: (وليس هذا كقَتَلةِ عثمان رضي الله عنه؛ لأنه لا مجال للاجتهاد في قتله ، لأنه لم يَـقتل أحداً ، ولا حاربَ ولا قاتَلَ ولا دافَعَ ، ولا زنى بعد إحصان ، ولا ارتدَّ ، فيسوغ المحاربة تأويلاً. بل هم فُسَّاق محارِبون سافكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل على سبيل الظلم والعدوان ، فهم فسَّاق ملعونون)[2].

٢ ـ الخسارة في مقتل الشهيد عثمان:

أفاقت الأمة من هَوْل المفاجأة المزلزِلة والفاجعة الكبرى ، بعد أن

---

(١) انظر كتابيَّ: نبوءات الرسول ﷺ: ٢/ ٧٠ ـ ٧٣؛ الخلفاء الراشدون ، ص٤٣٢ ـ ٤٣٤ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٤/ ١٦١؛ كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ١/ ١٤٨ .

نَفَضت أيديها من تراب عثمان وقد وارَتْه الثرى ، ونظرتْ في أمرها ، وتدبَّرت أحوالها بعد أن غادرتها الصدمة ؛ وإذا بجسمها قد اخترقته جروح غائرة ، وأخذت تنزف منه دماء غزيرة ، وهي ماضية مع التاريخ في سيرورته ونواميسه تتجرَّع آلاماً مبرِّحة ، وتكتوي بنيران ملتهبة ، وتتناوشها فتن جائحة . . **ويمكن إجمال ذلك في خطوط عريضة كبرى :**

١ ـ بدأت البدع بالظهور ، وأخذ الانحراف عن عقائد الإسلام وسبيله المستقيم بالازدياد؛ فالانحراف عن الخط المستقيم يبدأ ضئيلاً جدّاً وتأخذ زاويته بالانفراج مع تطاول الزمان .

فظهرت بدعة السَّبئيَّة والغلوّ في عليٍّ حتى زَعمت له الألوهية ، كذلك ابتدعت دعوى الوصية وأن عليّاً وصيُّ محمد ﷺ ، وهي نواة التشيع التي افتراها ابن سبأ كما قدمنا . وأيضاً فالذين خرجوا على عثمان تشكلت منهم دعوةُ الخوارج وفكرهم التكفيري العقيم ، والذين خرجوا فيما بعد على عليٍّ وقتلوه ، وأحدثوا في جسم الأمة جرحاً غائراً وانحرافاً عقديّاً خطيراً .

٢ ـ تفرقت كلمةُ الأمة وتصدَّعت وحدتها ونسيجها الاجتماعي ، وتنافرت قلوبها؛ فأُلْبِسوا شِيعاً ، وذاق بعضُهم بأسَ بعض؛ كما يتضح ذلك عند بيعة علي بالخلافة ، وقيام فريق من المسلمين بالطلب بدم عثمان ، فكانت وقعة (الجمل) ثم (صفين) ، ثم وقعة الخوارج ، وفي كل ذلك كان لقتلةِ عثمان دورٌ خطير خبيث في تأريث الفتن وشقِّ الصفوف وإثارة الحروب .

٣ ـ وقذَفَ ذلك بمجموع الأمة في خِضمِّ التنازع والتخاصم ، ولم تخرج منه إلا وهي ممزقة الأوصال متفرقة إلى شِيع متباينة وأحزاب

مختلفة؛ مما ألحق دماراً كبيراً بالطاقة الإسلامية الجيّاشة التي تميزت بها الأمة منذ عصر الرسالة وحتى قُبيل مقتل عثمان ، وما عُوفيت من ذلك إلا بعد مدة طويلة؛ حيث أوقف الإمامُ العظيم الحسن بن علي نزيفَ الدماء بتنازلِه عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، فتوحَّد شملُ الأمة في عام الجماعة سنة (٤١هـ).

٤ ـ **انتشرت ثقافةُ الخوف في الأمة ، ووَهَى الأمن والأمان والاطمئنان ، وخَفَتَ ضياءُ الإخلاص والورع والنُّبل** ، وظهرت بوادر الأَثَرة والغدر والمكر والمكيدة والحقد ، بسبب جرائم جراثيم السبئيِّين وممارساتهم الآثمة وافتراءاتهم التي زرعوها في قلوب الغوغاء والأعراب من أتباعهم ، وبثُّوها في البلاد طولاً وعرضاً ، وبَدَت آثارها واضحة طيلة عهد علي رضي الله عنه.

٥ ـ **وخَلَّفَ مقتلُ عثمان ظلالاً قاتمة على سيرورة التاريخ والأمة ، وشكَّلَ اتجاهاً ضاغطاً على طبيعة نظام الحكم الإسلامي ، وسَبَّبَ انحرافاً خطيراً عن منهاج الخلافة الراشدة** ، فبعدَ خمس سنين عِجاف من الصدامات العنيفة والاحتراب الدامي والانقسام السياسي والاجتماعي والمذهبي ، آلَتْ مقاليد الحكم إلى معاوية رضي الله عنه ، الذي خَشِيَ تكرارَ المآسي السابقة؛ فاجتهد في ابتكار ولاية العهد ، وانتقل بالمسلمين من مبدأ الشورى والخلافة إلى نظام الحكم الملكي الوراثي الذي استمر في أروقة الحكم زُهاء ثلاثة عشر قرناً!.

٦ ـ **ومن الآثار الخطيرة التي لحقت بالإسلام توقف انتشار رسالته العالمية في تحرير الناس من العبودية لغير الله**؛ وتمثل ذلك في ضعف حركة الفتوحات في السنوات الثلاث الأخيرة من خلافة عثمان ، ثم

توقفها تماماً طيلة عهد علي ، وبقيت كذلك حتى عام الجماعة وإمرة معاوية على المسلمين عامة ، حيث استقرت أوضاع الأمة والدولة ، وانطلقت جيوش الفتح من جديد.

ومن الموبقات الكبرى التي لم يتجاسَر على البَوْح بها عُتاة المستشرقين ما ذَكَره كاتب عربي حيث يقول: (إن الإسلام نفسه هو المُشْرَع ضد عثمان ، والإسلام هو الذي سيقتله ، فمقتل عثمان انتصار كامل للإسلام)[1]!.

ولو كان عند هذا الكاتب وأمثاله مَسْكة من عدل وإنصاف وبحث علمي متدبِّر جادٍّ؛ لنظر فيما خَلَّفه مقتلُ عثمان وما جرَّه على الأمة من خلافات وشِقاق وقتال ودماء وانقسام وتوقف للجهاد والفتوحات وغير ذلك مما ذكرناه!.

* * *

(١) الفتنة ، لهشام جعيط ، ص٧٧.

الفصل التاسع
الوداع

أولاً: موجز عن تاريخ استشهاد عثمان ودفنه ، وعمره ، ومدة خلافته:

١ ـ تاريخ استشهاده وغسله والصلاة عليه ودفنه:

استشهد عثمان رضي الله عنه وأرضاه في المدينة المنورة ، يوم الجمعة في (١٨/ ذي الحجة / ٣٥هـ ـ الموافق ١٧/ ٦/ ٦٥٦م).

وتولى غسله جُبير بن مُطْعِم ، والمِسْوَر بن مَخْرَمَة ، وحَكيم بن حِزام ، وابنُه عَمْرو بن عثمان ، وزوجتاه نائلة وأم البنين ، وكفّنوه وصلوا عليه ، صلى عليه حكيم بن حزام ، وقيل: الزبير بن العوام ، بوصية عثمان.

وخرج به جماعة من الصحابة فيهم علي وطلحة والزبير ، وزيد بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وحويطب بن عبد العزى ، ونِيَار بن مُكْرَم الأَسْلمي ، وجُبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وأبو جَهْم بن حذيفة العَدوي ، وخرجت زوجته نائلة بسراج ، فقال لها جبير: أطفئي السِّراج ، لا يُفْطَن بنا! فأطفأَتْه. وخرجت معهم زوجته الأخرى أم البنين.

وحملوه سرّاً على باب ، وإن رأسه لَيَقْرع الباب يقول: (طق ، طق)!

لإسراعهم به؛ لِما بهم من الخوف العظيم من أولئك الذين أرادوا رجمه ودفنه بمقبرة يهود! .

ودفنوه ليلاً للعجز عن إظهار دفنه ، بسبب غلبة قاتليه ، ودُفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء في (حَشّ كَوْكَب)[1] ، وكان الناس يتوقَّون أن يدفنوا موتاهم فيه ، وكان عثمان رضي الله عنه يمرُّ بحَشٍّ كوكب ويقول: (يُوشِك أن يَهْلِك رجلٌ صالح ، فيُدفن هناك ، فيأتسي الناس به) ، فكان عثمان أولَ من دُفن فيه! .

ونزل في قبره نِيار بن مُكْرم وأبو جَهْم بن حذيفة وجبير بن مطعم ، وكان حكيم بن حزام وزوجتا عثمان يُدَلّونه على الرجال ، حتى لَحَدوا له ، وبُني عليه ، ثم تفرقوا.

وأخرجوا عَبْدَي عثمان اللّذَين قُتلا معه في الدار ، وهما صبيح ونجيح ، فدُفنا إلى جانبه بِحَشّ كوكب.

وقد اعتنى معاوية رضي الله عنه في أيام خلافته بقبر عثمان؛ فهدم الجدار بينه وبين البقيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حوله ، حتى اتصلت بمقابر المسلمين.

٢ ـ عمره ومدة خلافته:

مات عثمان وعمره اثنتان وثمانون سنة ، فقد ولد بعد حادثة الفيل بست سنوات ـ فهو أصغر من النبي ﷺ بستة أعوام ـ فيكون عمره يوم توفي رسول الله ﷺ سبعاً وخمسين سنة ، وعاش بعده خمساً وعشرين

---

(١) **الحَشّ**: البستان ، وكَوْكب: رجل من الأنصار. وحَش كوكب: يقع شرقي البقيع ، وقد اشتراه عثمان وزاده في البقيع.

سنة؛ فيكون عمره اثنين وثمانين عاماً.

وقد بويع بالخلافة يوم السبت غُرَّة المحرم سنة (٢٤هـ)، وقُتل في الثامن عشر من ذي الحجة سنة (٣٥هـ)؛ فتكون مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً[١].

٣ ـ تركته:

كان لعثمان عند خازنه يوم قُتل ثلاثون مليون درهم وخمس مئة ألف درهم، ومئة وخمسون ألف دينار، انتُهبت كلها! وترك ألفَ بعير بالرَّبَذة، وترك صدقات كان تصدق بها، قيمة مئتي ألف درهم[٢].

ثانياً: حزن الصحابة وعامة المسلمين على عثمان، وثناؤهم عليه ورثاؤهم له:

لقد كان وقعُ المصيبة على نفوس الصحابة وعامة المسلمين عظيماً، وكان رُزْؤهم به جليلاً، فباتوا وقد جلَّلَهم الحزن، وطاشَتْ عقولهم، وفاضَتْ مآقيهم بالدموع، ولَهِجَتْ ألسنتُهم بذِكْر مناقبه والترحم عليه وسبِّ قاتليه ورثائه بالأشعار الباكية!.

●● عن أبي صالح قال: (كان أبو هريرة إذا ذكر ما صُنع بعثمان بكى، قال: فكأني أسمعه يقول: هاه، هاه، ينتحب)!.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة، ص١٧٦ ـ ١٧٧؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٧ ـ ٧٩؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٤١٢ ـ ٤١٨؛ مسند أحمد (٥٤٥)؛ التاريخ الأوسط: ١/ ١٤٨؛ المستدرك: ٣/ ٩٦؛ تهذيب الكمال: ١٩/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٩٠ ـ ١٩١؛ كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٤٣٧ ـ ٤٤٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٦ ـ ٧٧؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٤٨.

ـ وقال أبو حُميد الساعدي لما قُتل عثمان: (اللهمَّ إن لك عليَّ ألا أفعلَ كذا، ولا أفعل كذا، ولا أضحك حتى ألقاك)[1].

ـ وعن يزيد بن أبي عُبيد قال: (لمَّا قُتل عثمانُ بن عفان خرج سَلَمة بن الأكْوَع إلى الرَّبذة، وتزوَّج هناك امرأة ووَلدتْ له أولاداً، فلم يَزَلْ بها حتى قبل أن يموت بليالٍ، فنَـزَل المدينة)[2].

ـ وقال أبو حازم: (كنت عند عبد الله بن عمر، فذَكَرَ عثمانَ؛ فذكر فَضْلَه ومناقبه وقرابته حتى تركَه أنقى من الزجاجة. ثم ذكَر عليَّ بن أبي طالب؛ فذكر فضله وسابقته وقرابته حتى تركه أنقى من الزجاجة، ثم قال: مَنْ أراد أن يذكر هذين فليذكُرْهما هكذا أو فَلْيَدَعْ!)[3].

ـ وعن زيد بن علي: (أن زيد بن ثابت كان يبكي على عثمان يوم الدار)[4].

ـ وقال أنس بن مالك: (يقولون: لا يجتمعُ حبُّ عليٍّ وعثمانَ في قلب مؤمن! وكذبوا، والله الذي لا إلـه إلا هو لقد اجتمع حبُّهما في قلوبنا)[5].

ـ وقام الحَسَن بن علي بعدما قُتل عثمان، فقال لقتلته: (لا مرحباً بالوجوه ولا أهلاً، مشائِم هذه الأمة. مَن فتق فيها المفتق العظيم،

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٨١.
(٢) البخاري (٧٠٨٧).
(٣) ابن عساكر، ص٥٠٧؛ مختصره: ١٦/ ٢٦٦.
(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ٨١.
(٥) ابن عساكر، ص٥٠٨؛ مختصره: ١٦/ ٢٦٦.

أما والله لولا عزمةُ أمير المؤمنين علينا ، لكان الرأي فيكم نابِلًا!)[1] .

●● عن الأعمش قال: (كان أبو صالح إذا ذُكِر عثمان يبكي حتى يقول: هاه ، هاه!).

ـ وقال عيسى بن عُمر القارئ: (رأيتُ طلحةَ بن مُصَرِّف ، فبكى وقد ذُكِر عثمان ، فقال: حصروه وعطَّشوه!).

وقال طلحة: (أبَى قلبي إلا حبَّ عثمان)[2] .

ـ وعن زيد بن صُوحان: أنه قال يوم قُتل عثمان: (اليوم نَفرت القلوب منافرها ، والذي نفسي بيده لا تتألَّف إلى يوم القيامة)[3] .

ـ وعن يزيد بن يزيد قال: قال أبو مسلم الخَوْلاني لوفدِ أهل المدينة ـ وقد وفدوا على معاوية بالشام ـ: هؤلاء شرٌّ من ثمودَ! فدخلوا على معاوية فشَكَوه ، فقال معاوية: يا أبا مسلم ، ما قلتَ لهم؟ قال: قلتُ: هؤلاء شرٌّ من ثمود؛ ثمودُ عَقَروا الناقة ، وهؤلاء قتلوا الخليفة ، وأشهدُ على ربِّي لخليفتُه أكرمُ عليه من ناقته[4]! .

والأخبار في ذلك كثيرة ، وقد ذكرنا فَيْضاً منها عن أكابر الصحابة فيما تقدم[5] .

---

(١) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢٧٦ . **النابل**: الذي يرمي بالنبل ، والحاذق.
(٢) المعرفة والتاريخ: ٢/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨؛ تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢٧٣ .
(٣) مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٦٢ .
(٤) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ٤/ ١٢٥٢ ـ ١٢٥٣؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٦٢ .
(٥) انظر: ص ٦٩٥ ـ ٧٠٥ في هذا الكتاب

●● من مراثيه[1]:

ـ قال شاعر الرسالة حسان بن ثابت يرثي عثمان ، ويُكثر من البكاء عليه والتفجُّع لمقتله ، وهجا قاتليه وقرَّعَهم بما كسبت أيديهم فقال :

أَتركتُمُ غزوَ الدُّروبِ وراءَكم ... وغَزَوْتُمُونا عندَ قبرِ محمَّدِ!
فلبئسَ هديُ المسلمينَ هديتمُ ... ولبئسُ أمرُ الفاجرِ المتعمِّدِ
وكأنَّ أصحابَ النبيِّ عشيةً ... بُدْنٌ تنحَّرُ عند بابِ المسجدِ
فابْكِ أبا عَمْرٍو[2] لِحُسْنِ بلائِهِ ... أمسَى مُقيماً في بَقيعِ الغرْقَدِ

وقال :

ضَحَّوْا بأشْمَطَ عنوانُ السجودِ به ... يُقطِّعُ الليلَ تسبيحاً وقُرآنا
صَبْراً فِدًى لكمُ أمِّي وما وَلَدَتْ ... قد ينفعُ الصبرُ في المكروهِ أَحْيانا
فقد رَضِينا بأهلِ الشام نافرةً ... وبالأميرِ وبالإِخوانِ إخْوَانا
إنِّي لَمِنْهُم وإنْ غابُوا وإنْ شَهِدوا ... ما دُمتُ حيّاً وما سُمِّيْتُ حَسَّانا
لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكاً في ديارِهِمُ ... اللهُ أكبرُ يا ثاراتِ عُثْمانا

ـ وقال كعب بن مالك الأنصاري :

فَكَفَّ يديه ثم أَغْلَقَ بابَهُ ... وأيقنَ أنَّ الله ليس بغافِلِ
وقال لأهلِ الدارِ لا تقتلوهُمُ ... عَفَا الله عن كلِّ امرِئٍ لم يقاتِلِ

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٢٤ ـ ٤٢٦؛ المستدرك: ٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦؛ الاستيعاب: ٣/ ٨١ ـ ٨٣؛ أسد الغابة: ٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤؛ مختصر ابن عساكر: ١٦/ ٢٧٣ ـ ٢٧٣؛ تهذيب الكمال: ١٩/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢) يريد عثمان.

فكيف رأيتَ الله صَبَّ عليهمُ الـ ـعداوةَ والبغضاءَ بعد التواصلِ؟!
وكيف رأيتَ الخيرَ أَدْبَرَ بعدَهُ عن الناسِ إدبارَ النعامِ الجوافِلِ؟!

ـ وقال راعي الإبل النميري:

عَشيَّةَ يدخلونَ بغيرِ إذْنٍ على مُتَوكِّلٍ أوفى وطَابَا
خليلِ محمدٍ ووزيرِ صِدْقٍ ورابعِ خير مِنَ وَطِئَ التُّرابَا

ـ ويقول أيمن بن خُريم بن فاتك:

ضَحَّوْا بعثمانَ في الشهرِ الحرامِ ضُحًى وأيّ ذَبْحٍ حرامٍ وَيْلَهُم ذَبَحُوا
وأيَّ سنّةِ كُفرٍ سَنَّ أوَّلُهم وبابَ شَرٍّ على سُلطانِهم فَتَحوا
ماذا أرادوا أَضَلَّ اللهُ سَعْيَهُمُ بسفكِ ذاكَ الدمِ الزاكي الذي سَفَحُوا

ـ وتصوِّر ليلى الأَخْيَلِيَّة الخسارةَ والفاجعةَ بمقتله، فتقول:

قُتلَ ابنُ عفانَ الإمام وضاعَ أمرُ المسلمينَا
وتشَتَّتتْ سُبلُ الرَّشا دِ لصادرينَ ووَارِدينَا
فانهضْ مُعاوِيَ نهضةً تُشفي بها الداءَ الدَّفِينَا

ولعل هذا (البيت الختامي) يكون مناسباً لنهاية كتابنا وانتهاء عهد عثمان رضي الله عنه، والإشارة إلى بداية عهد جديد يمثل القيام بالمطالبة بدم الشهيد عثمان والقصاص من قتلته.

* * *

الخَاتمة

ها هي ذي سيرة عثمان بن عفان في صورتها النيِّرة ، تحكي سيرورة حياته بتفاصيلها مذ كان وليداً وشابّاً في أعزِّ أرومة عربية نسباً وثراءً ، ثم رجلاً يسرع إلى الإسلام مع أول نداء ، وينضم إلى دوحته ، ويلازم الرسول ﷺ ويُصْهِر إليه على ابنتَيْه ، ويجاهد بنفسه وماله في سبيل الله وتأييد دعوة الإسلام ما لم ينفق مثلَه مسلم قطُّ ! ثم وزيراً وأميناً ومستشاراً للصديق والفاروق. وبعد ذلك تلقي إليه الأمة بمقاليد الخلافة بإجماع تام؛ فيسوسُها بالعدل والحلم والرحمة ، ويغمرها ببرِّه وإحسانه وتعطفه وغامر عطاياه ، ويبسط لها جميل أخلاقه وشمائله في حيائه ولينه ودماثة طبعه وقوة صبره.

وفي رحلة الحياة المضنية وما فيها من عقبات ومشقات ، ونوازل وملمَّات ، وشدة ورخاء ، وسلم وحرب ، ومدٍّ وجزر؛ قدَّم عثمان لدينه وأمته ما لا يقدمه العصبةُ من الرجال في مدة من الزمن تناهز الخمسين سنة ، منذ انضم إلى كتيبة أسبقِ السُّبَّق إلى الإسلام وإلى أن قضى شهيداً سعيداً في نهاية مروِّعة ، تمثل (ملحمة درامية) ، أَوْدَتْ بروحه الطاهرة وأسالَتْ دمه الزكي على آيات الكتاب العزيز والمصحفُ بين يديه ،

فانساحَتْ على قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]!.

وقد عرضنا سيرة حياته، ومكونات شخصيته، وجلائل أعماله، وقيامه على رأس الدولة وهو خليفة للمسلمين، وأوضحنا أسلوبه في الحكم وطريقته في سياسة الدولة والأمة، ووقفنا طويلاً عند بعض المعضِلات والمشكِلات والسؤالات التي طُرحت وتُطرح إلى الآن حول عهده وسياسته، واحتفلنا بتحقيق ما احتفَّ بهذه السيرة الأسيفة من عوامل اجتماعية وسياسية وإدارية، وكشفنا غوامضَها، وأزلنا ملابساتها، وأَجَبْنا عن مشكلاتها، وأَطَلْنا رِشاءَ القول في (الفتنة)، وسِرْنا مع أحداثها من مباديها إلى نهاياتها وشَفَعْنا كل ذلك بالأدلة والبراهين النقلية والعقلية، وناقشنا كثيراً من الافتراءات والخطايا والأخطاء التي وقعت في (موروثنا التاريخي) القديم والمعاصر، متوخِّين في ذلك جانبَ الإنصاف والنقد العلمي المبني على الدليل والمنطق، والمحاط بإهاب التوقير والاحترام للجيل الذي تربى في (مدرسة النبوة)، وبخاصة غرّته وتاجه المتمثل بالخلفاء الراشدين الهادين المهديين رضوان الله عليهم أجمعين.

وأرجو أن يكون هذا الكتاب قد حقق الهدف الذي أُنْشِئ لأجْلِه، وجلا صحائف سيرة ذلكم الرجل العظيم ثالث الخلفاء الراشدين، وقدَّم صورة عنه هي أقرب إلى الحق والحقيقة من بين ركام الأخبار والروايات والمؤلفات التاريخية في القديم والحديث.

واللهَ أسال أن يتقبله مني، وينفعني والمسلمين به، ويجعله في سلك

العمل الصالح الذي لا ينقطع أجره إلى يوم القيامة ، وأن يكون لي ذُخراً يوم ألقى وجهه الكريم.

فاللهم لك الحمد في الأولى ، ولك الحمد في الآخرة ، ولك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، أنت حسبي ونعم الوكيل.

عبد الستار الشيخ

مساء الجمعة المبارك: ٢٥/ شوال/ ١٤٣٢هـ

٢٣/ ٩/ ٢٠١١م

دولة الإمارات العربية المتحدة ـ دبي



المراجع

١ ـ **أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ** ، د. إبراهيم علي شعوط ، المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٢ ـ **أبو بكر الصديق** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق .

٣ ـ **الأحكام السلطانية** ، الماوردي ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٤ ـ **أخبار القضاة** ، محمد بن خلف المعروف بوكيع ، عالم الكتب ـ بيروت .

٥ ـ **الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين** ، د. نايف معروف ، دار النفائس ـ بيروت .

٦ ـ **الأدب المفرد** ، البخاري ، باعتناء محمد هشام برهاني ، الإمارات . وباعتناء وترتيب صالح الشامي ، دار القلم ـ دمشق .

٧ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، ابن عبد البر ، طبع مع الإصابة ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٨ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ، ابن الأثير ، دار الفكر ـ بيروت .

٩ ـ **الإسلام والخلافة في العصر الحديث** ، د. محمد ضياء الدين الريس ، دار التراث ـ القاهرة .

١٠ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة** ، ابن حجر ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١١ ـ **أعلام الحفاظ والمحدثين** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق .

١٢ ـ **إعلام الموقعين** ، ابن القيم ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ـ صيدا .

١٣ ـ **الإمامة والرد على الرافضة** ، أبو نعيم الأصبهاني ، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة .

١٤ ـ **أمتنا بين قرنين** ، د. يوسف القرضاوي ، دار الشروق ـ القاهرة .

١٥ ـ **الأمصار ذوات الآثار** ، الذهبي ، تحقيق قاسم سعد ، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت .

١٦ ـ **الأموال** ، أبو عبيد القاسم بن سلام ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٧ ـ **الإنصاف فيما وقع في العصر الراشدي من الخلاف** ، د. حامد الخليفة ، دار القلم ـ دمشق .

١٨ ـ **البداية والنهاية** ، ابن كثير ، مكتبة المعارف ـ بيروت .

١٩ ـ **بلدان الخلافة المشرقية** ، كي لسترنج ، مطبعة الرابطة ـ بغداد .

٢٠ ـ **تاريخ الإسلام** ، الذهبي ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٢١ ـ **تاريخ الإسلام السياسي** ، د. حسن إبراهيم حسن ، دار الجيل ـ بيروت .

٢٢ ـ **التاريخ الأوسط** ، البخاري ، تحيق محمد إبراهيم اللحيدان ، دار الصميعي ـ الرياض .

٢٣ ـ **تاريخ الخلفاء** ، السيوطي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

٢٤ ـ **تاريخ الخلفاء الراشدين** ، د. محمد سهيل طقوش ، دار النفائس ـ بيروت .

٢٥ ـ **تاريخ خليفة بن خياط** ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، دار طيبة ـ الرياض .

٢٦ ـ **تاريخ دمشق** ، ابن عساكر ، تحقيق جماعة من أهل العلم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

٢٧ ـ **تاريخ أبي زرعة الدمشقي** ، تحقيق شكر الله القوجاني ، مجمع اللغة العربية بدمشق .

٢٨ ـ **تاريخ الطبري** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ـ مصر .

٢٩ ـ **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم** ، محمد بن طاهر الكردي المكي ، دار خضر ـ بيروت .

٣٠ ـ **تاريخ القضاء في الإسلام** ، د. محمد الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ـ دمشق .

٣١ ـ **التاريخ الكبير** ، البخاري ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المُعَلِّمي ، دار الفكر ـ بيروت .

٣٢ ـ **تاريخ المدينة المنورة** ، عمر بن شَبَّة ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، المدينة المنورة .

٣٣ ـ **تاريخ اليعقوبي** ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت .

٣٤ ـ **تاريخنا المفترى عليه** ، د. يوسف القرضاوي ، دار الشروق ـ القاهرة .

٣٥ ـ **تذكرة الحفاظ** ، الذهبي ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المُعَلِّمي ، دار الباز ـ مكة المكرمة .

٣٦ ـ **تفسير القرآن العظيم** ، ابن كثير ، دار ابن كثير ـ دمشق .

٣٧ ـ **تهذيب الأسماء واللغات** ، النووي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٣٨ ـ **تهذيب التهذيب** ، ابن حجر ، دار الفكر ـ بيروت .

٣٩ ـ **تهذيب الكمال** ، المِزِّي ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٤٠ ـ **جامع الأصول** ، ابن الأثير ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دار الفكر ـ بيروت .

٤١ ـ **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)** ، البخاري ، الطبعة السلطانية عن النسخة اليونينية ، دار الجيل ـ بيروت ، وطبعات أخرى .

٤٢ ـ **الجامع لأحكام القرآن** ، القرطبي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، مكتبة الرشد ـ الرياض .

٤٣ ـ **الجرح والتعديل** ، ابن أبي حاتم ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المُعلِّمي ، دار الفكر ـ بيروت .

٤٤ ـ **جمهرة أنساب العرب** ، ابن حزم ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٤٥ ـ **الحسبة في الماضي والحاضر** ، د. علي بن حسن القرني ، مكتبة الرشد ـ الرياض .

٤٦ ـ **حلية الأولياء** ، أبو نعيم الأصبهاني ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٤٧ ـ **حياة الصحابة** ، محمد يوسف الكاندهلوي ، تحقيق نايف العباس ومحمد علي دولة ، دار القلم ـ دمشق .

٤٨ ـ **الخراج** ، يحيى بن آدم ، تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار التراث ـ القاهرة .

٤٩ ـ **الخراج**، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، المطبعة السلفية ـ القاهرة .

٥٠ ـ **الخلفاء الراشدون** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق .

٥١ ـ **دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية** ، د. حسان حلاق ، دار النهضة العربية ـ بيروت .

٥٢ ـ **الدولة الأموية** ، د. يوسف العش ، دار الفكر ـ دمشق .

٥٣ ـ **ذو النورين عثمان بن عفان** ، ابن تيمية ، جمع وتعليق محمد مال الله ، مكتبة ابن تيمية .

٥٤ ـ **ذو النورين القائد** ، بسام العسلي ، دار النفائس ـ بيروت .

٥٥ ـ **الرقة والبكاء** ، ابن قدامة المقدسي ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، دار القلم ـ دمشق .

٥٦ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد** ، ابن القيم ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٥٧ ـ **الزهد** ، أحمد بن حنبل ، تحقيق حامد أحمد البسيوني ، دار الحديث ـ القاهرة .

٥٨ ـ **الزيادة والإحسان في علوم القرآن** ، ابن عقيلة المكي ، الإمارات ـ جامعة الشارقة .

٥٩ ـ **سبل الهدى والرشاد** ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة .

٦٠ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ـ الرياض .

٦١ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة** ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ـ الرياض .

٦٢ ـ **السنة** ، ابن أبي عاصم ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ـ دمشق ، بيروت .

٦٣ ـ **السنن الأربعة** ، أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره ، دار الرسالة العالمية ـ دمشق .

٦٤ ـ **السنن الكبرى** ، البيهقي ، وبذيله : **الجوهر النقي** ، دار المعرفة ـ بيروت .

٦٥ ـ **السنن الكبرى** ، النسائي ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٦٦ ـ **السياسة الشرعية** ، ابن تيمية ، دار المعرفة ـ بيروت .

٦٧ ـ **سير أعلام النبلاء** ، الذهبي ، تحقيق جماعة من أهل العلم ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٦٨ ـ **السيرة النبوية** ، ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وزميليه ، مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق .

٦٩ ـ **شرح السنة** ، البغوي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٧٠ ـ **شرح صحيح مسلم** ، النووي ، دار أبي حيان ـ القاهرة .
٧١ ـ **شرح مشكِل الآثار** ، الطحاوي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
٧٢ ـ **شرح نهج البلاغة** ، ابن أبي الحديد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت .
٧٣ ـ **شهيد الدار عثمان بن عفان** ، أحمد الخروف ، دار عمار ـ عمَّان .
٧٤ ـ **صَبُّ العذاب على من سَبَّ الأصحاب** ، محمود شكري الآلوسي ، تحقيق عبد الله البخاري ، أضواء السلف ـ الرياض .
٧٥ ـ **صحاح السنن الأربعة** ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ الرياض .
٧٦ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته** ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ـ بيروت .
٧٧ ـ **صحيح ابن حبان** ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
٧٨ ـ **صحيح مسلم** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
٧٩ ـ **صفة الصفوة** ، ابن الجوزي ، تحيق محمود فاخوري ، دار المعرفة ـ بيروت .
٨٠ ـ **ضعيف الجامع الصغير وزيادته** ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ـ بيروت .
٨١ ـ **الطبقات الكبرى** ، ابن سعد ، دار الفكر ـ بيروت .

٨٢ ـ **عبد الله بن سبأ** ، سليمان بن حمد العودة ، دار طيبة ـ الرياض .
٨٣ ـ **عبد الله بن مسعود** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق .
٨٤ ـ **عبقرية عثمان** ، عباس محمود العقاد ، المكتبة العصرية ـ صيدا ، بيروت .
٨٥ ـ **عثمان بن عفان** ، د. علي محمد محمد الصلابي ، دار ابن كثير ـ دمشق .
٨٦ ـ **عثمان بن عفان** ، محمد حسين هيكل ، دار المعارف ـ مصر .
٨٧ ـ **عثمان بن عفان** ، محمد الصادق عرجون ، الدار السعودية ـ جدة .
٨٨ ـ **العشرة المبشرون بالجنة** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق .
٨٩ ـ **عصر الخلافة الراشدة**، د. أكرم ضياء العمري، العبيكان ـ الرياض .
٩٠ ـ **عمر بن الخطاب** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق .
٩١ ـ **العواصم من القواصم** ، ابن العربي ، تحقيق محب الدين الخطيب ، دار الجيل ـ بيروت .
٩٢ ـ **غاية النهاية في طبقات القراء** ، ابن الجزري ، تحقيق ج برجستراسر ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٩٣ ـ **فتح الباري** ، ابن حجر ، دار أبي حيان ـ القاهرة .
٩٤ ـ **فتح الملهِم وتكملته ـ شرح صحيح مسلم** ، شبير أحمد العثماني ومحمد تقي العثماني ، دار القلم ـ دمشق .
٩٥ ـ **الفتنة جدلية الدين والسياسة** ، هشام جعيط ، دار الطليعة ـ بيروت .

٩٦ ـ **فتوح البلدان** ، البلاذري ، المكتبة العصرية ـ صيدا ، بيروت .

٩٧ ـ **فتوح مصر والمغرب** ، ابن عبد الحكم ، مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة .

٩٨ ـ **فضائل القرآن** ، ابن كثير ، دار الأندلس ـ بيروت .

٩٩ ـ **قادة فتح (بلاد فارس ، الشام ومصر ، العراق والجزيرة)** ، محمود شيت خطاب ، دار الفكر ـ بيروت .

١٠٠ ـ **كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟**، محمد قطب ، دار الشروق ـ القاهرة .

١٠١ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، الهيثمي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٠٢ ـ **مجموع الفتاوى** ، ابن تيمية ، جمع وترتيب ابن القاسم ، السعودية .

١٠٣ ـ **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة** ، محمد حميد الله ، دار النفائس ـ بيروت .

١٠٤ ـ **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية** ، محمد الخضري ، دار المعرفة ـ بيروت .

١٠٥ ـ **محمد رسول الله ﷺ** ، محمد الصادق عرجون ، دار القلم ـ دمشق .

١٠٦ ـ **مختصر تاريخ ابن عساكر** ، ابن منظور ، دار الفكر ـ دمشق .

١٠٧ ـ **مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه** ، د. عدنان زرزور ، دار القلم ـ دمشق .

١٠٨ ـ **المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي** ، محمد محمد حسن شراب ، دار القلم ـ دمشق .

١٠٩ ـ **المرتضى علي بن أبي طالب** ، أبو الحسن الندوي ، دار القلم ـ دمشق .

١١٠ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، المسعودي ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ، بيروت .

١١١ ـ **المستدرك** ، الحاكم ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١١٢ ـ **مسند أحمد** ، تحقيق أحمد شاكر ، وتحقيق شعيب الأرنؤوط ، وطبعات أخرى .

١١٣ ـ **مسند الحميدي** ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، عالم الكتب ـ بيروت .

١١٤ ـ **مسند الطيالسي** ، دار المعرفة ـ بيروت .

١١٥ ـ **المصاحف** ، ابن أبي داود ، تحقيق د. محب الدين واعظ ، وزارة الأوقاف ـ قطر .

١١٦ ـ **مصنف ابن أبي شيبة** ، باعتناء سعيد محمد اللحام ، دار الفكر ـ بيروت .

١١٧ ـ **مصنف عبد الرزاق** ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، المكتب الإسلامي ـ بيروت .

١١٨ ـ **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية** ، ابن حجر ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، دار المعرفة ـ بيروت .

١١٩ ـ **المعارف** ، ابن قتيبة ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، دار المعارف ـ مصر .

١٢٠ ـ **المعالم الأثيرة في السنة والسيرة** ، محمد محمد حسن شراب ، دار القلم ـ دمشق .

١٢١ ـ **معجم البلدان** ، ياقوت الحموي ، دار الفكر ـ بيروت .

١٢٢ـ **معرفة القراء الكبار** ، الذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزميليه ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

١٢٣ ـ **المعرفة والتاريخ** ، الفسوي ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، مكتبة الدار ـ المدينة المنورة .

١٢٤ ـ **المنتظم** ، ابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٢٥ ـ **من فقه الدولة في الإسلام** ، د. يوسف القرضاوي ، دار الشروق ـ القاهرة .

١٢٦ ـ **من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر** ، محمد قطب ، دار الشروق ـ القاهرة .

١٢٧ ـ **منهاج السنة النبوية** ، ابن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، دار الفضيلة ـ الرياض .

١٢٨ ـ **منهج دراسة التاريخ الإسلامي** ، د. محمد أمحزون ، دار طيبة ـ الرياض .

١٢٩ ـ **موسوعة فقه عثمان بن عفان** ، د. محمد رواس قلعجي ، دار النفائس ـ بيروت .

١٣٠ ـ **موطأ مالك** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

١٣١ ـ **نبوءات الرسول ﷺ** ـ دروس وعبر ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق .

١٣٢ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، ابن تغري بردي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٣٣ ـ **نسب قريش** ، مصعب الزبيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة .

١٣٤ ـ **نظام الإسلام ـ الحكم والدولة** ، محمد المبارك ، دار الفكر ـ دمشق .

١٣٥ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، ابن الأثير ، تحقيق الزاوي والطناحي ، المكتبة العلمية ـ بيروت .

١٣٦ ـ **الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين** ، د. عبد العزيز إبراهيم العمري ، دار إشبيلية ـ الرياض .

١٣٧ ـ **ولاة مصر** ، الكندي ، تحقيق د. حسين نصار ، دار صادر ـ بيروت .

وغير ذلك كثير من كتب الحديث ، وشروحه ، ومصطلحه ، والتفسير ، والرجال ، والتاريخ ، والسير ، والفرق والمذاهب ، واللغة .

* * *

الفهرس

الباب الأول

أخباره الشخصية وأسرته

وحياته قبل الإسلام

الباب الثاني

إسلامه وحياته في ظلال الإسلام ورحاب النبوة

الباب الثالث

علمه وعبادته وأخلاقه ومكونات شخصيته

الباب الرابع
منزلة عثمان ومناقبه

الباب الخامس

عثمان في عهد الشيخين

الباب السادس

خلافة عثمان وسياسته في الحكم

الباب السابع

مؤسسات الدولة

الباب الثامن

الفتوحات

الباب التاسع

ولايات الدولة وولاتها

الباب العاشر

من الفتنة إلى الاستشهاد

* * *